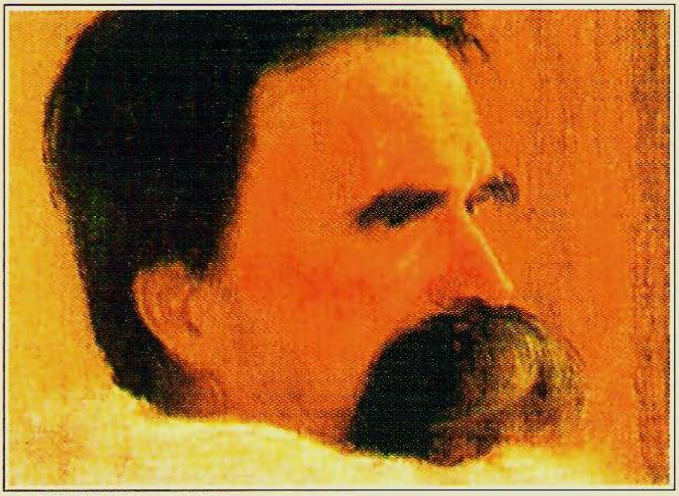
فريدريش نيتشه

هكذا تكلّم زرادشت

كتاب للجميع ولغير أحد



عن الألمانيّة

علي مصباح

منشورات الجمل

فريدريش نيتشه: هكذا تكلّم زرادشت

فريدريش نيتشه

هكذا تكلّم زرادشت

كتاب للجميع ولغير أحد

عن الألمانيّة

علي مصباح

منشورات الجمل

ـوتسن وتوفي بمدينة فايمار بألمانيا.
ـت (١٨٨٣ ـ ١٨٨٥)، **ما وراء الخير**
ضية فاغنر (١٨٨٨).

ولد **علي مصباح** عام ١٩٥٣ بتونس. روائي ومترجم تونسي يقيم ببرلين. صدر له عن منشورات الجمل: **بيتر سلوتردايك: «الإنجيل» الخامس لنيتشه** (ترجمة) ٢٠٠٣. **فريدريش نيتشه: هذا هو الإنسان** (ترجمة) ٢٠٠٣.

فريدريش نيتشه: هكذا تكلّم زرادشت، كتاب للجميع ولغير أحد
ترجمها عن الألمانيّة: **علي مصباح**
الطبعة الأولى ٢٠٠٧

Friedrich Nietzsche: Also sprach Zarathustra,
Ein Buch für Alle und Keinen (1888)

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany
Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

لا أحد سألني، وكان من المفترض أن أُسأل عمّا يعنيه على لساني؛ أي على لسان اللاأخلاقي الأوّل، إسم زرادشت. ذلك أن ما كان يمثّل الطابع الفريد الهائل لهذه الشخصيّة الفارسيّة عبر التاريخ هو بالضبط نقيض هذا الذي نحن بصدده الآن. لقد رأى زرادشت في الصراع القائم بين الخير والشرّ الدّولاب المحرّك للأشياء؛ فترجمة الأخلاق ميتافيزيقيّاً على أنها طاقة، وسبب، وهدف في ذاته، هي من صنيعه. إلا أنّ هذا السؤال بإمكانه أن يكون في حدّ ذاته جواباً. فقد ابتدع زرادشت هذا الخطأ الشنيع؛ الأخلاق، وبالتالي كان عليه أن يكون أوّل من يعترف بهذا الخطأ. ليس فقط لكونه يملك أطول وأكثر تجربة من كلّ المفكّرين - فالتاريخ بكلّيته هو التفنيد التجريبي لمقولة «النظام الكوني للقيم» المزعومة - بل الأهمّ هنا هو أنّ زرادشت أكثر مصداقيّة من أيّ مفكّر آخر، فتعاليمه، وتعاليمه وحدها، تعتمد الحقيقة قيمة أعلى؛ بما يعني أنّها النقيض لجبن «المثاليّين» الذين يعمدون إلى الهروب من الحقيقة. إنّ زرادشت يمتلك من الشجاعة ما يفوق شجاعة كلّ المفكّرين مجتمعين. التكلّم بالحقائق وإتقان الرّماية؛ تلك هي الفضيلة الفارسيّة. - هل فهمتموني؟ تجاوز الأخلاق لذاتها من منطلق الصدق، وتجاوز الأخلاقيّ لذاته ليحلّ في نقيضه - فيَ أنا - ذلك هو ما يعنيه إسم زرادشت على لساني.

فريدريش نيتشه؛ «هذا هو الإنسان» (Ecce homo)

(لِم أنا أقدر؟) - نشر: منشورات الجمل، ٢٠٠٣

توطئة

بإمكان أي متأوّل من أي اتجاه أو مذهب فكري أن يقول ما يريد عن نيتشه وفلسفته؛ أن ينبذه أو يسخر منه أو يعتبره مجنونا، شاعرا أهوج، نبيا مزيفا، إلا أنه سيظل إحدى العلامات الكبرى في تاريخ الفلسفة الكونيّة. بل علامة مميّزة وحزّا وقطيعة في تاريخ الفكر عامة.

عندما قرأنا «**هكذا تكلم زرادشت**» ونحن ما نزال نتلمس طرقنا إلى المعرفة (وهنا أتكلم بنون الجماعة عن جيلي الذي فتح عينيه على المعارف الكونية في أواخر الستينات وبداية السبعينات من القرن المنصرم)، وعودنا ما يزال طريّاً وتجاربنا محدودة وضئيلة، وكذلك معارفنا، انبهرنا وفتنّا بالنبرة الحادّة والعبارة الراجمة والنغمة الراقصة لذلك النص. كنّا آنذاك مفتونين بنصّ أدبيّ في المقام الأول. لم تكن لدينا من الأدوات المعرفية والتكوين الفلسفي ما يمكّننا من تجاوز الطبقة الأولى للنص والعبور إلى طبقاته الخفية وتمثُّل الأبعاد الفكرية الخطيرة التي ينطوي عليها. كان لدينا فقط مجرد إحساس بأننا أمام نصّ جميل وقويّ جعلنا نتنفّس من هواء جبليّ نقيّ وحاد، ونشعر بنشوة حريّة لا معهودة تسري في كياننا. إلى عند هذا الحدّ كان يقف انبهارنا بذلك الكتاب آنذاك.

لعلّ ما يميز هذا الكتاب عن المؤلفات الفلسفية جميعها تقريبا هو طابعه الأدبي الشعري الذي يجعل منه كتابا «للجميع» كما يسميه صاحبه. ولعله لا بد أن نعود أكثر من ألفي سنة إلى الوراء؛ أي إلى أفلاطون كي نعثر على كتب فلسفية محررة بشكل أدبي يمكن أن يجعل منها كتبا للمطالعة تستطيع أن تكون في متناول «الجميع».

لكن هنا بالذات تكمن إحدى المخاطر التي يمكن أن تتربص بكاتب كبير، وبنص عظيم. ويظل السؤال هنا إلى أي حدّ يستطيع كتاب من هذا النوع أن يحصّن نفسه من تكالب المتطفّلين، والمعجبين الزائفين؟ «**هل ينبغي علينا أن نؤكد مرة أخرى على الغرابة التي ميّزت «التأثير التاريخي» الذي كان له، بحيث لم يُكتب لأحد غيره إلى حد الآن أن يظلّ يعبّر بإلحاح عن التميّز والتفرّد، وينجح في استقطاب الخساسة والغوغاء؟**» هكذا يكتب بيتر سلوتردايك في مستهل كتابه «الإنجيل الخامس لنيتشه» الصادر سنة ٢٠٠١ بمناسبة لذكرى المئوية لوفاة نيتشه.

هناك أمر مهم في عنوان الكتاب قد أهمله أغلب مترجمي نيتشه وحتى بعض واضعي النسخ المتنوعة باللغة الألمانية، وهو العنوان الفرعي الذي جاء كالآتي: «كتاب للجميع ولغير أحد». لا أدري ما هو سر هذا الإهمال، لكنه إقصاء لعنصر مهم في العنوان: نبرة معابِثة ومشاغِبة ومستفِزّة كان يمكن للقارئ أن يقف عليها قبل الشروع في القراءة، ويتوقف عندها إن طويلا أو للحظة قصيرة. وإذا ما عدنا إلى جملة سلوتردايك آنفة الذكر فسنلمس الخطورة الناجمة عن هذا الإهمال أو التناسي للعنوان الفرعي للكتاب. إذ يبدو أن أغلب القراء («الجميع») قد توقفوا عند المستوى الأولي والطبقة السطحية للكتاب؛ أي ذلك الجانب الأدبي الشعري والمستوى السردي الذي يجعله كتابا

«للجميع» في حين هو في الآن نفسه مؤلَّف بعيد الغور، **أو «ما يدقّ المسلك إليه» حسب عبارة الخليل بن أحمد. أو ذلك القول الذي «بعضه كالغائب عنه وبعضه كالبعيد الحضرة لا يُنال إلا بعد قطع مسافة إليه، وفضل تعطّف بالفكر عليه»**.

الحدث النيتشوي كان حدثا كارثيا داخل تاريخ الفلسفة. أول فيلسوف يعلن حربا مفتوحة على الفلاسفة والفلسفة السائدة ويطرح أسئلة مقلقة ومزعجة على الفكر وعلى «ضمير الفكر» أيضا. أسئلة حول الدين والأخلاق والمجتمع وقيم الخير والشرّ. محرجة ومقلقة كانت تلك الأسئلة لأنها تواجه أكاذيب آلاف السنين بصراحة نادرة، أو غير معهودة من طرف فيلسوف على الأقل. يراهن نيتشه بكل شيء من أجل مغامرة فكرية غير مريحة ولا آمنة؛ يراهن بأكاليل المجد والاعتراف وبكل ما يمكن لمفكر أو كاتب «عاقل» و«رصين» أن ينال من الامتيازات. بل ويفضل على كل ذلك أن يكون مهرجا أو أضحوكة: «لا أريد أن أكون قدّيسا، بل أفضّل أن أكون مهرّجاً... ولعلّني بالفعل أضحوكة». يكتب في **هذا هو الإنسان**. من أجل ماذا يقدم نيتشه على هذا الرهان؟ من أجل الحقيقة التي هي مبتغاه الأول والأخير. أداته في ذلك ملازمة الصدق الذي يجعل منه القيمة الأخلاقية الأولى للعقول النبيلة.

من يجعل من الصدق مبدأه الأول لن يولي اعتبارا للمجاملة والمداراة والمصالحات، ويغدو بذلك مزعجا، وقد يرى فيه الكثيرون «مجرد أحمق» أهوج، بل مهرجا وأضحوكة. **«ومع ذلك؟ فالحقيقة هي التي تنطق من خلالي. لكنّ حقيقتي فظيعة، ذلك أنّ الكذب هو الذي ظلّ يدعى حقيقة حتى الآن»**، يضيف في نفس الفقرة.

أكثر من مائة سنة مرّت على ما كتبه هذا الفيلسوف الذي يسمّي نفسه «عبوة ديناميت». واليوم، ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين مازالت هذه المواجهة الصريحة والصادقة تحرج وتربك الكثيرين، لأنّ نيتشه الذي كان يعرف أنه لا يكتب لعصره آنذاك يبدو كما لو أنه ينهض من سباته، وذلك منذ النصف الثاني من القرن المنصرم. بل لنقل أن آخر القرن العشرين، وهو يتعثر في ركام الأفكار والقيم الإنسانية التي بعثرتها الحربان العالميتان قد اكتشف نيتشه من جديد. وها هو ذلك الحلم الذي راوده ذات مرة مثل يتوبيا: أن يشهد العالم في يوم ما اهتماما بفكره وأن تنشأ كراسي محاضرات جامعية حول زرادشت، هاهو يتحقق على نطاق واسع، في فرنسا وأميركا أولا ثم في ألمانيا وهولندا واليابان ـ وربما في البلاد العربية في القرن القادم، لم لا؟ ـ هناك اليوم كراسي محاضرات جامعية حول زرادشت، بل وهناك أيضا مجلات علمية مختصة، مثل مجلة «الدراسات النيتشوية» بألمانيا، ومجموعات بحوث مثل مجموعة جامعة نايْميخنْ (Nijmegen) بهولندا التي تنكب حاليا على تأليف معجم «القاموس النيتشوي» الذي صدر منه إلى حد الآن الجزء الأول (٦٠٠ صفحة) من مجمل أربعة أجزاء. وهناك مجموعة International Nietzsche Circle التي تضم باحثين في الحقل الفلسفي وفنانين من رسامين وسنمائيين ومسرحيين وتتركز أعمال هذه المجموعة بين نيويورك وفيينا.

بعد أكثر من مائة سنة ما زال «الممسكون بالحقيقة» الرسمية يرفعون ثنائية الخير والشرّ لافتة فوق محل بضاعتهم القديمة المتجددة. وعندما تطلع علينا رسالة «البشرى السعيدة» في صيغتها الحديثة بمصطلح «محور الشر» الذي أتى في بداية هذا القرن ملمّعا ببريق

الحداثة ومزوّقا بمساحيق الديمقراطية والحرية والليبرالية، فإن الباحث عن الحقيقة لن يجد له من سند فلسفي في مسعاه الفكري المستقلّ لا في هيغل ولا في كنط ولا في ماركس، ولا في أفلاطون أيضا، بل في نيتشه، ونيتشه وحده.

وعندما تتحول قوة إمبريالية بطموحات إمبراطورية كونية إلى كيان مجسد لمبدأ الخير الكوني، وإلى أذن تلقّت رسالة إنقاذ من الله مباشرة (إنه فعلا لإله يبعث على الشفقة هذا الذي لم يجد له من قناة لإبلاغ رسالته غير أذن جورج دابل يو بوش!)، وإلى يد الله المرتبة لفوضى الكون، فإن المفكّر الذي يريد أن يفهم أوّلا ويتمثّل آليات هذه الأكذوبة الأبدية المتجددة سيجد نفسه يطرح الأسئلة النيتشوية القلقة المقلقة والمشاغبة.

إن الأمر لا يتعلق هنا بالبحث عن سند نظري لإديولوجيا سلمويّة تناشد التناغم الكوني ضمن سلام دائم شامل ومطلق. بل يتعلق الأمر بالبحث عن مرتكز فكري لمراجعة وتدقيق مبدأ «إرادة القوة» التي تقود مسيرة العالم والحياة في مجملها. «إرادة القوة»، لا بمعنى النزوع العنفوي إلى التسلط كما يذهب إلى ذلك التأويل السطحي (وبالمناسبة كثيرا ما ترجمت العبارة بـ«إرادة السلطة» نتيجة لفهم خاطئ لعبارة Macht الألمانية، أو Pouvoir الفرنسية، وكلاهما تفيدان: القوة، وكذلك السلطة في سياق محدد)، بل كقانون طبيعي مداخل لمبدأ الحياة نفسه؛ المبدأ القائم على الحركة والتناقض والتقاتل والتجاوز والتغيير: قانون قد أثبتته العلوم الطبيعية والبيولوجيا والفيزياء. فالحياة قائمة في أبسط جزئياتها (الأجسام المعدنية، النبات، الحيوان) على مبدأ صراع المتناقضات: صراع الجديد ضد القديم، صراع العناصر

الناشئة المتوثبة ضد عناصر الخمول والتداعي والتفكك. إنه مبدأ «إرادة القوّة» الذي يحرك الحياة، وليست «إرادة الحياة» بما معناه أن الكائن هو الذي يريد الحياة؛ إذ ما هو حيّ لا يريد الحياة، بما هي متحققة فيه، وما هو ليس حيّ لا يستطيع أن يريد. أو كما يقول نيتشه: «حيثما تكون هناك حياة فقط، تكون هناك أيضاً إرادة؛ لكن ليست إرادة الحياة، بل ـ وهذا ما أعلّمك إيّاه ـ إرادة القوّة!» إذاً، من خلال إرادة القوّة، فإن عناصر القوة والنموّ والتطور والتجدّد داخل الكائن هي التي تدفع عنها العناصر المتراخية والمتخاذلة التي لم تعد قادرة على الحركة والتطور، ولا تسحرها غير أنغام الاستسلام إلى خدر الموت.

«إرادة القوة» هو القانون الذي يدفع إلى المغامرة باتجاه المجهول ـ لا ذلك الذي يشد إلى اليقين والأمان والثبات في المحافظة على المنجز. القلق الذي يدفع بالمفكر إلى حالة من الترحال الدائم؛ إن زرادشت مسافر رحّالة جوّال، وهو شبيه في ذلك إلى حد بعيد بدراويش المتصوفة، لأنهم هم أيضا بحّاثون قلقون لا يرتاحون إلى دفء اليقين والحقائق المتأسسة في الثبات: «**رحالة أنا ومتسلق جبال(...) / وكل ما سيحل بي بعدها من وقائع وأقدار/ ترحالا سيكون ذلك، وتسلق جبال: / فالمرء لا يعيش سوى ذاته في كل شيء بالنهاية**».

* * *

محنة نيتشه على ثلاثة وجوه؛ أو هي ثلاث محن:

ـ أوّلها الوحدة القاسية التي كانت تحيط به وبفكره المارق المتنطع على كل السلطات والأعراف. وحدة جحود ونكران رافقته طوال حياته وما انفك يتذمر منها في كل رسائله إلى أصدقائه وخاصة في مراسلاته

مع صديقه عالم اللاهوت من جامعة بازل فرانز أوفربك. وحدة كان يغذيها مع ذلك بمزيد من التنطع والمثابرة على دربه الفلسفي المتفرد، وكثيرا ما نجد أصداء مديحه لها على لسان زرادشت: «فرّ إلى وحدتك يا صديقي!». كان نيتشه يدرك تمام الإدراك أنه يكتب لأجيال من غير عصره وأن «ساعته» لم تحل بعد كما يكرر ذلك في الكثير من المواقع من كتاباته وعلى لسان زرادشت بصفة مكثفة.

عندما كنت مقيما في قصر فيبرسدورف في إطار منحة من أجل التفرغ للكتابة، وكنت عندها بصدد إنهاء ترجمة كتاب «**هذا هو الإنسان**»، وكان حولي أكثر من عشرين كاتبا وكاتبة ورسامين ومؤلفين موسيقيين، كانت العيون تجحظ عندما أسأل عن نوعية العمل الذي جئت للقيام به هناك وأجيب بأنني بصدد ترجمة نيتشه. «نيتشه باللغة العربية!» كنت غالبا ما أسمع. وكنت أجيب بأن نيتشه يكتب بلغة شرقيّة هي لغة الأناجيل ولها قرابة كبيرة مع لغة المتصوّفة العرب، فيذهل الناس أكثر، وهناك من كان يعتقد إنني مشعوذ. بل هناك من يسألني أحيانا: وهل للناس **هناك** اهتمام بمثل هذه الأمور؟ ليضيف بعدها: نحن الألمان أنفسنا لا نستطيع أن نفهمه. وكنت دوما أجيب: إننا **هناك** (da drüben) غالبا ما نشعر بالملل في صحارينا الشاسعة وفيافينا القاحلة وراء قطعان الجمال فنتسلى بين الحين والحين بمثل هذه الحماقات. ثم أن لا يكون الألمان غير قادرين على فهم نيتشه فذلك ما لا يفاجئني، فقد سبق أن قال هو نفسه بأنّ الألمان آخر من يمكنهم أن يفهموه. وكنت في الأثناء ألاحظ حماساً أكثر لدى الشباب والفتيات لمشروعي الجنوني، وأدركت أيضا أنهم يعرفون نيتشه ويحبّون كتاباته أكثر من المتقدّمين نسبيا في السنّ.

إنه في كلمة واحدة فيلسوف القرن الواحد والعشرين. لذلك ظل وحيدا ومنبوذا طوال ما يقارب قرنا من الزمن.

ـ المحنة الثانية هي محنة استعماله وتأويله ذلك التأوّل الشنيع الذي وظّف أفكاره الفلسفية ـ وذلك بالرغم من تحذيراته المتكررة وتخوّفاته التي عبر عنها مرارا وآخرها في كتاب «**هذا هو الإنسان**» لأغراض إديولوجية وسياسية شنيعة حتى غدا إسمه مقترنا بتلك الشناعات والفظاعة الكبرى التي وسمت القرن العشرين بميسم الإجرام الجنوني. لقد كان ذلك هو تأويل «الجميع».

ـ ثالثتهما محنة ترجمته، أو ما أصيبت به كتاباته من عمل رجم وترجيم من طرف عدد غير قليل من المتطفّلين («الجميع» مرة أخرى). نوع آخر من السطو والاغتصاب ما يزال متواصلا إلى يومنا هذا.

• • •

لعل الصعوبة الكبرى التي يلاقيها مترجم «**هكذا تكلم زرادشت**» تكمن في ذلك التفرد اللغوي الذي جاء عليه. ويتمثل هذا التفرّد في أن نيتشه يكتب هنا بلغتين متلاحمتين مندمجتين داخل لغة واحدة: لغة الأناجيل من جهة، وهو اختيار واع لأنه كان يضع نصب عينيه آنذاك غاية محددة من وراء هذا الكتاب الذي حوصل فيه وجمع كل أفكاره الفلسفية التي وردت في كتاباته الأخرى، في شكل أدبيّ مكثّف أراد أن يجعل منه «إنجيلا» جديدا أو «خامسا»، أو إنجيلا معاكسا. وبكلمة واحدة، نقْضٌ للأناجيل في كتاب يتكلم لغة تلك الأناجيل.

ولنقرأ ما يرد في الرسالة التي حررها إلى الناشر أرنست شمايتسنز في الثالث عشر من شهر فبراير ١٨٨٣:

«حضرة السيد الناشر المحترم،

إن لديّ اليوم خبرا جميلا أزفّه إليكم: لقد قمت بخطوة حاسمة ـ أعني بذلك، وعلى سبيل الإشارة، أنها خطوة من المفترض أن تكون مفيدة بالنسبة لكم أيضا. يتعلّق الأمر بمؤلّف صغير (ما يقلّ عن ١٠٠ صفحة مرقونة) بعنوان:

هكذا تكلم زرادشت

كتاب للجميع ولغير أحد.

«مقطوعة شعريّة» أو «إنجيل خامس»، أو أي شيء آخر لا يوجد له إسم بعد: إنه أكثر مؤلفاتي جديّة وجرأة، وهو في متناول الجميع.....».

وفي ٢٠ أبريل من نفس السنة يكتب نيتشه إلى صديقته مالفيلدا فون مايزنبورغ: **«إنها قصة رائعة: لقد تحدّيت كل الديانات ووضعت «كتابا مقدسا» جديدا!**

وبكل جديّة أقول إنه على غاية من الجد كما لم يسبق لكتاب آخر أن يكون، وإن كان قد استوعب الضحك وأدمجه داخل الدين».

الأسلوب الإنجيلي واضح جليّ في هذا الكتاب من خلال العبارة والنبرة وطريقة المخاطبة واعتماد الصور الانجيلية النمطية والكلام بأمثال واستعارات، وكذلك البناء الذي يعتمد تقطيع النص حسب أبيات أو ما يمكن أن نسميه آيات باللغة القرآنية، ذلك أنها غير موزونة ولا مقفّاة.

هذا هو الوجه الأول لهذه اللغة، وهو ما أهمله العديد من المترجمين ولم ينجح في الإيفاء به غير قلة قليلة. ولعله تجدر الإشارة

هنا إلى أن الترجمة الأنكليزية قد أفلحت أكثر من الترجمات الفرنسية في الحفاظ على مكونات هذه اللغة المتميزة.

أما الوجه الثاني لهذه اللغة فيتمثل في الكتابة بلغة ألمانية، شعرية لكنها دقيقة إلى أبعد الحدود. ويذهب نيتشه في هوسه بالدقة إلى حد اجتراح عبارات ومصطلحات غريبة لكنها ممكنة داخل اللغة الألمانية التي تعتمد التركيب اللفظي بطريقة قلما تسمح بها لغة أخرى. وأرقى ما تتوصل إليه هذه اللغة من الدقة يتجسد في ذلك التلاعب اللفظي الذي تمنحه التنويعات العديدة عن لفظة (جذر) واحدة بفضل السوابق المتنوعة المنضافة إليها، مما يسهّل عمليات الجناس والطباق وأحيانا اللعب على الغموض والالتباس المفتعل، أو المقصود، وعلى التضمين والكناية.

هذه التوليفة الفلسفية الشعرية هي التي جعلت نيتشه مبدعا في مجال اللغة أيضا. لقد أعطى نيتشه للغة المفهومية حرارة جديدة غير مألوفة في لغة الفلاسفة إلى حد ذلك الزمن. اللغة في كتابات نيتشه وفي «**هكذا تكلم زرادشت**» خاصة كيان حيّ نابض بالحركة. بل بحركات عديدة هادرة متدافعه متعارضة. فالكلمات لديه هي «الحيّز الذي يعلن فيه الوجود عن هويّته متسترا متكتّما على نفسه» كما يقول هايدغر. اللغة ليست قوالب جامدة، وليست ترسانة أدوات محايدة، أو قوالب تُصبّ فيها المعاني، بل كيانات نابضة بالحياة. ونبضها لا ينتعش في ثبات المعاني ـ أو أحاديّة المعنى ـ بل في اضطراب العبارة بحشد من الحركات. كلاّ، لم يُمنح الإنسان قاموسا جاهزا من أسماء الأشياء كلها، بل هو الذي ابتدع اللغة ونحتها من حركية الحياة، ومن الحشود المتضاربة المتصادمة المتداخلة من الحركات التي تعج بها

الحياة. للكلمات أنفاس وشهقات مكتومة وإيماءات خجولة أحيانا متستّرة غاية التستّر، متمنّعة متغنّجة. والكاتب المبدع هو ذلك الذي يغازل اللغة ويراودها ويتوسّلها حتى تنتهي إلى الانقياد إليه. وفقط عندما ينجح الكاتب في استمالتها، عندها فقط يتحول إلى قناة ووسيط تنهال عليه المعاني موكبا مرحا معربدا من الكلمات والصور والاستعارات في ما يشبه حالة من الغيبوبة كما يقول نيتشه. في مثل هذه الحالة تتعاضد كل مكوّنات اللغة من كلمات وصور واستعارات وإيقاع لتكوّن ذلك الكلّ الموحّد الذي سيغدو نصّا. وأريد أن أسوق هنا فقرة كاملة من كتاب **هذا هو الإنسان** يتناول فيها نيتشه علاقته باللغة ويصف فيها بلغة شعرية رائعة هذه الحالة: **حالة الكتابة**.

«هل لأحد في نهاية القرن التاسع عشر فكرة واضحة عمّا كان شعراء العصور الكبرى يسمّونه بالإلهام؟ إنْ لا، فسأشرح هنا هذا الأمر. يكفي أن يكون المرء حاملا بعد لشيء ولو ضئيل من الاعتقاد الخرافي كي لا يستطيع الامتناع عن الاعتقاد بأنه مجرّد مُثول، مجرّد قناة صوتيّة، مجرّد وسيط Medium **لقوى فوقبشرية عظمى. إن عبارة الإلهام بما تعنيه من أنّ شيئا ما يغدو فجأة مرئياً ومسموعاً بدقة ووثوق يتستعصيان على الوصف؛ شيء يهزّنا ويرجّنا في الأعماق، لهي التعبير البسيط عن واقع الأمر. يسمع المرء ولا يبحث، يتسلّم ولا يسأل من هو المانح. مثل التماعة برق تومض الفكرة بموجب ضرورة، واثقة لا تعرف التردّد ـ لم يكن لي أبدا أن أختار. نشوة عارمة ينفرج توتّرها الهائل في فيض من الدموع، نسق الحركة فيها مندفع كالسيل حينا، وبطيء حينا آخر من دون أيّ تحكّم إرادي؛ حالة غيبوبة، لكن مع بقاء الإدراك الواضح لما لا يحصى من القشعريرات الناعمة**

والارتعاشات التي تتخلل الجسد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين؛ غمرة سعادة حيث أشدّ أنواع الألم والقتامة لا تتراءى داخلها كنقائض، بل كشيء مناسب ومستدعى، كتلوينة ضرورية داخل هذا الدفق النوراني. غريزة إيقاع تحتضن عالما بأسره من الأشكال ـ إنّ الحجم، أو الحاجة إلى إيقاع رحب لهي تقريبا مقياس لمدى عنف الإلهام، وضرب من الموازنة والتعويض عن حدّة الضغط والتوتّر اللذين يحدثهما عنف الإلهام. يحدث كل هذا بصفة لا إرادية مطلقة، لكن بما يشبه إعصارا من الشعور بالحرية وبالسيادة التامة والقدرة والألوهية... وأغرب ما في ذلك هي تلك الحتمية التي تفرض بها الصورة والاستعارة نفسها؛ يفقد المرء كل سيطرة ذهنيّة على كنه الصورة والاستعارة؛ إنها تمنح نفسها هكذا مثل التعبير الأكثر طبيعيّة، الأكثر قربا والأكثر ملاءمة وبساطة. إنه ليبدو لي فعلا ـ كي نتذكّر عبارة لزرادشت ـ كما لو أنّ الأشياء هي التي تسعى إلينا مانحة نفسها للتحوّل إلى رموز: «تهرع الأشياء كلها إلى خطابك متحنّنة زلفى، تتملّقك لأنها تبتغي أن تسافر فوق كتفيك. على صهوة كل رمز تمضي إلى كلّ حقيقة». هنا تنفتح أمامك كل حروف الوجود وخزائن الكلمة: كل كيان يريد أن يصير حرفا، وكلّ صيرورة تريد أن تتعلّم الكلام بواسطتك».

ههنا يذهب الاعتقاد بالقارئ المتعجل إلى أنه أمام لغة مفتتنة بذاتها موغلة في التلاعب اللفظي (الذي تعتقده مجانيا)، مولعة بالتنغيم الصوتي والأكروباتيك اللغوي المجاني أكثر من أي شيء غيرها. وهنا يجد المترجم العربي المتعجل، أو الذي يتناول من السطح، يجد نفسه واقعا في إغراءات إنشائية لغته العربية القديمة فينساق فيليكس فارس

مثلا إلى هذا الإغراء ليخرج علينا بنص قد انسلخ عن عمقه الفلسفي وتحوّل إلى مجرد تمرين إنشائي لطالب إعدادية رديء ومفتعل الأسلوب.

وهناك من كان حرصه على تبليغ المعنى غالبا يتم عبر الحفاظ على الأسلوب والنبرة والإيقاع، أو لجهل بلغة الأناجيل وأسلوبها واستعاراتها، أو لعدم تفطنه إلى أن هذا الكتاب هو أيضا «مقطوعة شعرية» كما جاء على لسان صاحبه، فإذا به يترجم بطريقة ميكانيكية جافّة. شيء شبيه بالقيام بصفقة مبادلات تجارية إجرائية محايدة فاترة قد أفقدت العديد من النصوص حرارتها وتوهجها وجرّدتها من شعريتها. أذكر على سبيل المثال إحدى المقطوعات الرائعة في هذا الكتاب وهي «أغنية لليل». ذلك المقطع المستوحى من خرير نافورة مائية في ساحة Piazza Berberini بمدينة روما كان نيتشه يقيم في فندق قبالتها: «في عريشة معلّقة فوق الساحة المذكورة أشرف منها على كامل مدينة روما، وأصغي إلى هدير نافورة الـ fontane الصاعد من تحت، ألّفت ذلك النشيد الأكثر توحّدا وعزلة من بين كلّ ما أُنشدَ؛ (أغنية الليل)». كل ذلك التدفق المائي والخرير المتكرر يعبر عنه في لازمة متكررة: «هو ذا الليل!». تلك اللازمة التي يكسر نسقها الإيقاعي مترجم عديم الحيلة (شعريا وسمعيّا أيضا) فإذا هي ترد في البداية: «ها قد نشر الليل رداءه على الأرض....» ثم تصبح في البيت الموالي: «ها قد جنّ الليل» لتغدو بعدها «لقد جنّ الليل»، في حين أن اللازمة تتردد دوما مقتضبة مختصرة مكثفة مثل ضربة واحدة مقتضبة على آلة إيقاعية في آخر جملة موسيقية: 'Es ist Nacht' (إسْ إيستْ ناختْ)؛ ليُصْغ القارئ إلى هذه النغمة، أو الإيقاع الذي تحدثه

هذه العبارة المتوترة! وليقارنها بهذه الجملة الممطّطة التي تبعث على التثاؤب: «ها قد نشر الليل رداءه على الأرض»!! لكأن المترجم نفسه يشعر بالضيق من عبارته هذه فيتخلى عنها في البيت الموالي مباشرة ويختصرها في «ها قد جنّ الليل» ليختصرها بدورها في ما بعد في «لقد جنّ الليل» وهو لا يعي على ما يبدو أنه إنما يبيد إيقاع اللازمة، ومن ورائه إيقاع النص بكامله بهذا التنويع الذي يفصح عن تردّد قلق يشوّش بدوره بهجة النص بكليته فيما هو يكسر الإيقاع.

هذا مثال من بين كوارث عديدة امتُحِن بها هذا الكتاب الرائع الذي تم التنكيل به على أيدي المترجمين الرديئين.

كثيرا ما يتحول المترجم إلى قاتل. وكثيرا ما تحضرني العبارة الإيطالية التي تعرّف الترجمة بأنها خيانة. وأنا أقرأ أغلب الترجمات العربية، سواء في الأدب أو الفكر والفلسفة، يعاودني السؤال نفسه دوما: لِم يستسهل العرب الترجمة إلى هذا الحدّ؟ والاستسهال هنا استهانة واستباحة واعتداء. وأكثر ما يظل يزعجني في الترجمات العربية عامة هو نقلها عن ترجمات أخرى دون عودة إلى الأصل. وهي كارثة تعاني منها الثقافة العربية المعاصرة بحكم افتقارنا المخجل إلى معرفة اللغات.

وعندما نعود إلى نيتشه نجد أن الترجمات كلها قد تمت نقلا عن اللغة الفرنسية (مع استثناء كتاب «**ما وراء الخير والشر**» الذي عربته جزيلا حجار عن الألمانية مباشرة - دار «غروب في» للنشر - بيروت). وبما أننا نعرف أن هناك ترجمات فرنسية كثيرة ومتنوعة لنيتشه ولزرادشت بالذات، فإنه لا يسعنا إلا أن نتساءل: عن أي مترجم من هؤلاء المترجمين الكثيرين نقل المترجم العربي؟ خاصة وأن هؤلاء السادة لا يتفضلون أبدا بذكر المترجم الفرنسي الذي نقلوا عنه.

من الأكيد أن المترجمين العرب لم يكلّفوا أنفسهم عناء المقارنة بين الترجمات المختلفة، ونحن نعرف عن تجربة مدى الاختلافات التي تتخلل مختلف الترجمات. وأمامي الآن ثلاث ترجمات فرنسية لـ«**هكذا تكلم زرادشت**»: ترجمة مارتا روبرت، وترجمة جينفييف بيانكي، وترجمة موريس دي كونديّاك. الترجمات الثلاث تختلف من حيث الأسلوب أولا؛ فبينما حاولت مارتا روبرت الالتصاق بالنص الأصلي التصاقا يكاد يكون حرفيا، تصرفت جينيفييف بيانكي بأكثر حرية وحاولت في أغلب الأحيان أن تبجّل الإيقاع والصورة على حرف النص، وكان لها نصيب من الأخطاء التي كانت بمثابة الثمن الذي تكلفته من أجل شعرية النص، وأحيانا لمجرّد فهم خاطئ لعبارة أو صورة أو استعارة خاصة باللغة الألمانية. أما موريس دي كوندياك فقد بالغ في نظرنا في التقعر اللغوي والتكلف الأسلوبي مما جعل النص يبدو أحيانا وكأنه قد انفصل عن صاحبه الأول وتلبّست به الروح المتكلفة للمترجم؛ الأمر الذي يجعله يصبح غير مستساغ في الكثير من الأحيان، مثل سيّدة تفرط في الزينة دون اعتبار لمقاييس التناغم والتحفظ الذي يميّز كل كائن تلقائي قليل التصنّع.

ثم إن هذه الترجمات الثلاث الذي استعنْتُ بها خلال ترجمتي للكتاب تلتقي أحيانا وتفترق أحيانا أخرى، لا على مستوى الأسلوب فقط، بل في تأوّل معنى هذه العبارة أو تلك الاستعارة أيضا. تتكامل وتتناقض، وتتعارض في مواقع عديدة. وسؤالنا الأول هو: بحسب أية معايير سيختار المترجم العربي هذه الترجمة أو تلك مصدرا لترجمته؟ وما أدراه بأمانة هذه وبطلان تلك؟ إنه فعلا أمر شبيه بتلمّس درب في العتمة. أو مثل عكّاز الأعمى الذي يقع مرّة على مكان نقي ومرة في النجاسات. فالعكّاز آلة مساعدة لكنه لن يتحوّل إلى عين البتّة.

وحتى إذا ما افترضنا أن مترجما عربيا نزيها متقنا وحريصا على الدقّة قد استلهم ترجمته من مصادر فرنسية متعددة، فإن السؤال يظل على أية حال: إلى من سيحتكم السيد الفاضل النزيه عندما يختلف المترجمون الفرنسيون وتتعارض تأويلاتهم وتتضارب؟

ثم ماذا عن المترجم الذي لا يتقن اللغة التي ينقل عنها (أعني هنا الفرنسية) فإذا هو لا يستطيع أن يميز بين المعاني المختلفة لعبارة reconnaissance مثلا (كتاب «**المعرفة المرحة**» أو «العلم المرح» كما جاء في هذه الترجمة)، ويجد نفسه يقع في خطأ نقلها إلى العربية في عبارة «استكشاف» في حين المقصود هنا هو الاعتراف بالجميل (Dankbarkeit في النص الأصلي). وتخونه معرفته اللغوية مرة أخرى (في **هكذا تكلم زرادشت**) فيترجم لنا signe بإشارة، في حين أنها تعني في ذلك الفصل الأخير من الكتاب «العلامة»، كقولك علامة من علامات الساعة، أو العلامة المبشرة باقتراب حلول الإنسان الأعلى. وتتواصل الأخطاء بحسب نسق منتظم حتى أنه لا تكاد تخلو صفحة من خطأين أو ثلاث ـ على الأقل ـ فتصبح عبارة «خُطب زرادشت» «محاضرات» (أيّة محاضرات والرجل مسافر جوّال يكرز في الأسواق والساحات العمومية؟!)، وتغدو عبارة «صبوات الأفراح والآلام»: «الملذات والأهواء»، والجناية أو الجريمة «عملاً» حيناً و«فعلاً» حيناً آخر، و«المرتدّون»: «المارقون»، و«الصمت الأكبر»: «الهدوء المطلق» (لو أنه استعمل «السكون» على الأقل!)، و«السعادة رغم الأنف»: «الغبطة المجلوبة»، و«قربان العسل»: «تقديم العسل»، والتهوّر: «مرح»، و«القرف»: «الضجر»، و«الغيور»: «الحسود» وعين ملؤها الرغبة «عين جشعة»، وعبارة «اشمئزازي الأعظم من الإنسان» تغدو

عنده «فرط تشبّعي بالإنسان» و«ما يتسلّون به»: «ما يتحدّثون عنه»، و«بيت الوجود يعاد بناؤه: «نفس المنزل يعاد بناؤه» و«حيث الآلهة تخجل من كل لباس»: «حيث كل الآلهة ترقص عارية غير خجلى» وعبارة «ابتسامة مخمليّة موغلة في الغواية»: «ابتسامة تجاوزت حدود الابتسام»..... إلخ

وهناك إلى جانب هذا الحشد الهائل من الأخطاء جمل بأكملها يأتي المعنى فيها مناقضا لما يريد أن يقوله نيتشه مثل: «الحق أقول لكم لقد غدونا متعبين أكثر مما ينبغي كي ما نموت...» (والقصد منها هو أن المتعبين قد بلغ بهم التعب من الحياة مبلغا لم يعد يسمح لهم حتى بإرادة الموت؛ أو ما يسميه نيتشه في فصل آخر بـ«الموت في الأوان» و«الموت طوعا واختيارا») تصبح لدى المترجم العربي: «والحقيقة أن التعب قد هدّنا وشارفنا على الهلاك..».

أو عندما يتكلم زرادشت الذي ينفي كل إرادة فوقية خارجية أو إرادة تعمل من داخلنا، مؤكدا مبدأ الحرية المطلقة: «**هذه الحريّة وهذه البهجة السماوية وضعتُها مثل ناقوس لازورديّ فوق الأشياء كلها عندما علّمتُ أن لا «إرادة خالدة» فوقها أو داخلها ـ تريد**». (فصل قبل الشروق) هنا يتغافل المترجم عن النفي ويؤكد: «**وهكذا رفعت هذه الحرية وهذا الصفاء الخالد مثل قبّة فوق كل الأشياء حين علّمت الناس أن هناك «إرادة أبدية» تريد من فوقها ومن خلالها كذلك**». وهذا التأكيد، أو إثبات «إرادة خالدة» نقيض لمجمل الفلسفة النيتشوية القائمة على نفي وجود إرادة فوقية، متعالية كانت أم محايثة، تريد من خلال الأشياء، وتكون بالتالي نفيا لمبدأ الحرية وقانون الصدفة.

أما عن التراكيب اللغوية العرجاء والأخطاء النحوية فحدّث ولا

حرج، ولنا في هذه الجملة نموذج معبّر: «**اسألوا رجلي إن كان ثنائهم** (أترك رسم الهمزة كما جاء في نصه) **وخطبهم المغرية يروقون لهما، إنهما في الحقيقة لا تحبّان الرقص ولا الوقوف على هذا الإيقاع وهذه التكتكة**».

رحم الله الشيخ الوهراني الذي كتب:

«**سخِف الزمان فقد أتى بعجاب**

وبكتّاب لو أطلقت يدي فيهم

لرددْتهم إلى الكتّاب».

نكتفي بهذا القدر من الشناعات لأن حصرها والتدقيق فيها يتطلب مجلدا خاصا قد لا يكون فائضا عن اللزوم مع ذلك. ولنعد إلى مسألة أكثر أهمية، بل هي مفتاح لفهم أو لعدم فهم الفكرة الرئيسية لهذا الكتاب.

هذه الفكرة الرئيسية تدور حول ضرورة تجاوز الإنسان، تلك الضرورة التي يعبر عنها زرادشت في مواضع عديدة من الكتاب، وتغدو مثل لازمة: «**الإنسان شيء لابد من تجاوزه**». إلى ماذا؟ إلى «الإنسان الأعلى» يقول نيتشه. هذا المصطلح الذي نحته نيتشه خصّيصا لتسمية النوع الجديد الذي سيبعث إلى الوجود من خلال تجاوز الإنسان لنفسه وجهود تجاوز نفسه، يسمّيه Übermensch وقد ترجمته اللغة الفرنسية بـSurhomme والأنكليزية بـSuperman. وكل من Über وSur وSuper تشير إلى منزلة أعلى، لا منزلة عليا ولا منزلة راقية، بل منزلة فوق منزلة الإنسان، إذ المطلوب والمنشود هنا ليس تفوّقا داخل النوع، بل تجاوزا للنوع. هنا تجد الترجمات العربية نفسها

أمام معضلة لغوية. فالتركيب اللغوي هنا (على غرار «ما فوق الإنسان» أو «فوقإنساني») غير مستحب، وإن كان يعكس المعنى أفضل من غيره. لذلك وجد المترجمون أنفسهم في حيرة وذهبوا كلهم إلى عبارة: «الإنسان الأرقى»، «الإنسان المتفوّق»، «الإنسان الراقي»، «الإنسان الأسمى». وقد وقفنا على نفس الصعوبة وطالت مدة التفكير والأخذ والردّ وسألنا واستشرنا العديد من الأصدقاء من كتّاب وشعراء ومترجمين. وأخيرا انتهينا إلى اختيار عبارة «الإنسان الأعلى» مع عدم الرضا التام على هذه العبارة التي مازالت تبدو لنا غير سعيدة وإن كانت أقرب إلى المعنى من غيرها كما وضحنا ذلك في الهامش رقم١ ص٤٠. ولا نريد العودة إلى تفاصيل هذا التوضيح هنا، ونكتفي بدعوة القارئ إلى النظر في الهامش المذكور.

لكن ما نريد أن نقوله هنا هو أن من أخطأ في ترجمة هذا المصطلح، أو أخطأ ضربته الأولى في هذه الترجمة سيكون قد أخطأ فهم الكتاب بكليته، ولا يرجى بالتالي أيّ خير من ترجمته. ولعلّ أبعد صيغة عن الفكرة الفلسفية الرئيسة لهذا الكتاب هي تلك التي اختارت عبارة «الإنسان الراقي» التي كانت فأل نحس في مطلع تلك الترجمة (ترجمة محمد الناجي؛ نشر دار إفريقيا الشرق ـ لمغرب ٢٠٠٦. وهي الترجمة التي ذكرنا نماذج من أخطائها أعلاه).

لن نفاجأ بعدها بما سيرد من أفكار سخيفة حول هذا المفهوم في ذلك النص الذي عنّ للمترجم أن يجعله مقدّمة للكتاب، وحيث أراد أن يفسر لنا معنى «إنسان(ه) الراقي» لينتهي بنا إلى خطبة وعظية أصولية موغلة في التشويش والحماسة الإديولوجية الزائفة. وإذا كل فلسفة نيتشه تتفتت على هذه الصخرة الأديولوجية السلفية إلى حد يجعل

القارئ يتساءل: لِم كلّف هذا الرجل نفسه عناء ترجمة كتاب لا يرى فائدة من وراء ما يتضمنه من أفكار؟ بل أن فكرته الرئيسية ذاتها تبدو من خلال هذه المقدّمة كما لو أنها أفكار مكررة لأمر حصل في الماضي وانتُهي منه؛ أو قد تحقق ما هو أفضل منه وأرقى ـ وأين؟ عندنا؛ داخل حضارتنا العربية الإسلامية في ما غبَر من الدهور. إذ هكذا يكتب صاحبنا: «**هذا الإنسان الراقي الذي سيسود الأرض كنوع يظل حلما لا ندري متى سيتحقق**». **أما الرجل الراقي الذي يدعو إليه الإسلام وهو أرقى من هذا على كل حال فقد وجدت منه نماذج لا حصر لها عبر مختلف عصور التاريخ الإسلامي. رجال ذوو عزم وقوة «أشداء على الأعداء رحماء بينهم»**. ليواصل بعد جمل أخرى لاحقة: «وهذا النموذج يفوق ذاك بروحانيته وبرحمته، بعدم احتقاره للعامة أو تشريعه لنفسه حقوقا يتسلط بها عليهم». إنه كلام أرهاط من ذلك النوع الذي تتمازج وتختلط داخل شخصياتهم وأفكارهم شخصية معلّم الصبيان بشخصية الواعظ الشعبي وفوقهما معا شخصية الداعية الأديولوجي والمحرض السياسي؛ جميعها داخل خليط يفوح بعفونة السطحية الفكرية والجهل والحماسة الرنّانة الخاوية: «**ولا سبيل أمامنا اليوم إن نحن شئنا البقاء مرفوعي الرأس (أليست هذه لغة صحف ودعاية سياسية مجترة ومملّة؟) ونتبوأ مكانتنا بين الأمم إلا تربية النشء على قيم الإسلام وأخلاقه، في زمن ننادي فيه بتخليق الحياة العامة دون جدوى، وجعله يتشبع بها منذ تعليمه الأوّلي**».

هل من تعليق يمكن أن يكون نافعا بعد هذا؟

كلمة واحدة فقط يمكن للمرء أن يقولها أمام مثل هذا التطاول، وبعد ما رأينا من ويلات وشنائع الأخطاء التي يرتكبها هذا المترجم ـ

والحال أن هذا ليس الكتاب الأول الذي ترجمه لنيتشه!!ـ، أخطاء مرتكبة، لا في فهم العبارات وتأوّلها ـ ناهيك عن المفاهيم الفلسفية ـ بل كذلك الأخطاء اللغوية والتراكيب السقيمة وركاكة العبارة وجفاف الأسلوب، مما يجعل اللغة العربية نفسها تبدو في هذه الترجمة مثل كائن متيبّس المفاصل مصاب بالروماتيزم: كائن منفّر. أمام كل هذا لا يسعنا إلا أن نذكر بعض الإخوان بقولة الشاعر: «**إن لم تستطع شيئا فدعْهُ/ وجاوزه إلى ما تستطيع**».

أو أن نكتفي بأن نقول لمثل هؤلاء المتطفّلين: إن لم تستح فافعل ما شئت!

* * *

تمت هذه الترجمة عن النص الألماني من منشورات «طبعة الدراسات النقدية»(*) التي أشرف على إعدادها الإيطاليان جيوجيو كوللي ومازينو مونتيناري اللذان عملا لسنوات عديدة على إنجاز طبعة للأعمال الكاملة لنيتشه تتجاوز مطبات الطبعات المتداولة حتى الستينات والتي تعرضت إلى التنقية والتحريف والتشويه. كان على الباحثين أن يعودا إلى أرشيف نيتشه بمدينة فايمار ويطلعا على المخطوطات الأصلية ويقوما بعمل تنقيب وتدقيق طويل ليخرجا بهذه

(*) Also sprach Zarathustra
Ein Buch für Alle und Keinen
Kritische Studienausgabe
Herausgegeben von
Giorgio Colli und Mazzino Montinari
Walter de Gruyter
Deutscher Taschenbuch Verlag

الطبعة التي أصبحت النسخة الأكثر مصداقية والأكثر تداولا لدى الناشرين الجديين في العالم. هذه الطبعة مرفوقة بمجلد مستقل مخصص للتعليقات والإحالات ومصادر ومراجع متنوعة. وهي التي ساعدتنا بصفة رئيسية في ضبط هوامش هذه الترجمة.

كما اعتمدنا أثناء عملنا على ثلاث ترجمات فرنسية جاء ذكرها أعلاه. وأخيرا ومن أجل مزيد من التثبت في مواقع كانت لنا فيها بعض الإشكالات عدنا إلى ترجمة أنكليزية (Thus spake Zarathustra, By Manuel Komroff - Tudor Publishing Company - New York) بمعية صديقنا الأستاذ عمر الشامي الذي سبق لنا أن عملنا معا على تدقيق ترجمتنا لكتاب حوارات مع برتراند راسل (نشر لدى دار المعرفة بتونس سنة ٢٠٠٤).

إحدى العبارات التي طرحت علينا إشكالا في الترجمة هي عبارة Lust وبصفة خاصة في القصيدة القصيرة التي اختتم بها فصل «نشيد آخر للرقص» (الجزء الثالث) وكذلك فصل «نشيد التهوام الليلي». لهذه العبارة أكثر من معنى في اللغة الألمانية؛ فهي تعني الرغبة ـ الرغبة الشبقية أولا، وكذلك اللذة والمتعة والفرح والغبطة وذلك حسب السياق الذي تستعمل فيه. إلا أن الإشكال يتمثل هنا بالتحديد في أن السياق الذي وردت فيه في هذه القصيدة بالذات يمكن أن يبرر كل التأويلات ويجعل كل من هذه المعاني سائغة. وهو الأمر الذي حيّر أغلب المترجمين الفرنسيين. وقد ذهب كل مترجم إلى واحد من هذه المعاني: le plaisir, le désir , la joie. وهناك من ظل يراوح بين هذه العبارة وتلك فاستعمل désir في موقع ثم joie في موقع ثان من القصيدة نفسها. وذهب المترجم العربي فيليكس فارس الذي لا يذكر لنا المترجم

الفرنسي الذي ترجم عنه إلى عبارة «الأفراح» حينا و«المسرّة» حينا آخر، ثم «اللذة» في الأخير. والغريب في الأمر أنه عندما يعود إلى ترجمة القصيدة نفسها في فصل «نشيد التهوام الليلي» (وقد جاء عنوان الفصل في ترجمته «نشيد السكران»)، يعدل هنا عن عبارة «أفراح» ويضع مكانها «اللذة» في الموقع نفسه والسياق نفسه (ذلك أن نيتشه لم يغير حرفا واحدا أو فاصلة في هذه القصيدة عندما استحضرها ثانية في نهاية هذا الفصل)، وهو ما يدلّ على ارتباك شديد وعدم تملّك بالنصّ وبمعانيه. بل هناك أيضا نوع من التملّص والتحايل في هذا التبديل الذي لا مبرر له.

نفس الارتباك والارتجال نلاحظه لدى المترجم العربي الثاني (نسخة دار إفريقيا الشرق للنشر). نفس التردد أيضا بما يجعلنا نشك، وذلك استنادا على مواضع أخرى أيضا من ترجمته، بأنه في أحيان عديدة لا يفعل سوى النقل عن ترجمة سلفه. وهو أيضا يستعمل عبارة «لذّة» في فصل «نشيد آخر للرقص»، لكنه عندما يستعيد القصيدة نفسها في آخر فصل «نشيد التهوام الليلي» («نشيد الانتشاء» في ترجمته) يستعيض عنها بعبارة «فرحة»!! وهو لم يفعل هنا كما يلاحظ القارئ سوى أنه عكس اتجاه المراوحة في تردده بين العبارتين.

ولا أدري ما الذي جعل هذا المترجم الأخير يستعمل في القصيدة نفسها عبارة «عناء الحبّ» كترجمة لـHerzeleid الألمانية التي تعني بكل بساطة «آلام القلب»، التي يمكن أن يكون مصدرها الحبّ كما الشقاء أو الوحدة أو أية معاناة أخرى. لكن، ها هو في استعادته للقصيدة في آخر فصل «نشيد التهوام الليلي» يعدل عن عبارته الأولى ليعوّضها بـ«عناء القلب»!!!

غريب أمر هؤلاء المترجمين الذين يبدون كما لو أنهم يترجمون وهم ناعسون!

سيلاحظ القارئ أننا جعلنا هوامش كثيرة وطويلة، وأحيانا أسهبنا في البعض منها، وهناك أحيانا بعض الإعادات وهوامش تحيل على هوامش سابقة أو لاحقة. إنما فعلنا ذلك لسببين على الأقل:

ـ أولهما أن كتاب «**هكذا تكلم زرادشت**» وكما ذكرنا سابقا يعد خلاصة لمجمل أفكار نيتشه وشكلا أدبيا تكثفت فيه كل أفكاره التي وردت في مؤلفاته الأخرى. شكل أدبي يجعله يعتمد الاستعارة والكلام بأمثال والاقتضاب والتكثيف بحيث يمكن للمعاني المتخفية بين طبقاته المتعددة أن تغدو خفيّة، وأحيانا غامضة أو غير دقيقة. وهو ما عابه وما زال يعيبه الكثيرون من منتقدي نيتشه على هذا الكتاب الرائع. وبما أنه أيضا «كتاب للجميع» فإنه بإمكان القارئ أن يقف عند حدود النص ويغفل الهوامش وكل الجزئيات التي تثيرها وتستحضرها، وهكذا يمكن أن تكون قراءته خفيفة وخالية من العناء بالنسبة «للجميع». لكن ولهذا السبب بالذات، أي بسبب هذا التكثيف الذي يرد في شكل أدبي شعري يعتمد الإشارة والتلميح أكثر من الإفصاح في أغلب الأحيان أردنا أن نساعد القارئ (أو من يريد ذلك من القراء) على تجاوز الطبقة الأولى للنص والغوص في الأعماق التي يتستر عليها، أو ملاحقة الإشارات والإيماءات والمضي في ملاحقتها باتجاه الفكرة الفلسفية التي تختبئ وراءها.

ـ ثانيهما: أردنا في أحيان كثيرة، وخاصة أمام الإشكالات التي تطرحها علينا ترجمة عبارة ما أو تلاعب لغوي، أو نقل صورة من محيطها الثقافي الألماني إلى محيط غريب، أن نقرب هذه الإشكالات إلى ذهن القارئ العربي الذي لا يعرف اللغة الألمانية، ونجعله على بيّنة من الأمر. أن تكون له لحظة معاناة يشاركنا بها معاناتنا، لحظة

تفكّر حول عبارة أو صياغة أو صورة. بل إننا كنا كما لو أننا نلتمس مساعدة من القارئ، أو طمعا في أن يأخذ عنا شيئا من وزر المسؤولية أيضا، متمنّين أن تسمح له طريقتنا في استعراض الإشكالات في أن يجتهد بنفسه هو أيضا، علّه يوفّق أفضل منا في الوقوع على العبارة المناسبة. وإذا ما حصل ذلك فإننا نكون قد بلغنا غايتنا. إذ هذه الترجمة مجرد محاولة من بين محاولات أخرى، استفادت من أخطاء سابقاتها، كما استفادت أيضا من المواقع التي أصابت فيها تلك الترجمات، ويتمنى صاحبها أن تساعد بدورها محاولات لاحقة على أن تتجاوزها وتصيب حيث أخفقت هي. وذلك هو معنى التراكم والتجاوز في المجال المعرفي.

لا يسعني في النهاية إلا أن أتقدم بشكري الحار وتقديري للمجهود الكبير الذي بذله كلّ من الأستاذين عبد اللطيف بن سالم وعمر الشامي اللذين عكفا لأسابيع على تفلّي النسخة ما قبل الأخيرة من هذه الترجمة وأفاداني بملاحظاتهما وتصحيحاتهما في العديد من المواقع. لقد استفدت من التجربة الطويلة للأستاذ عبد اللطيف بن سالم في مجال الترجمة وترحاله بين اللغات الفرنسية والإسبانية والعربية، كما استفدت من التكوين اللغوي المتين في العربيّة والأنكليزية للأستاذ عمر الشامي.

كما أتوجه بشكر خاص للأستاذ أرنو بوهلر من جامعة فيينا وعضو مجموعة Nietzsche Research Circle- Wien-New York على التوضيحات القيمة التي قدمها لي عندما وقفت متردّداً أمام بعض الإشكالات اللغوية، أو التأويلات الفلسفية لمصطلح أو عبارة ما، وخاصة أمام الإشكال الذي كانت تضعه أمامي عبارة Lust كما جاء ذكر هذا أعلاه.

علي مصباح، برلين ٣١ ديسمبر ٢٠٠٦

الكتاب الأول

ديباجة زرادشت

١

لمّا بلغ زرادشت سنّ الثلاثين غادر موطنه وبحيرة موطنه ومضى إلى الجبل[١]. هناك استطاع أن ينعم بعقله وبوحدته؛ ولعشر سنوات لم يعرف كللا. لكنّ قلبه تغيّر فجأة ـ ذات صباح نهض ساعة الشروق، ثمّ وقف قبالة الشمس وخاطبها بهذه الكلمات:

«أية سعادة ستكون لك أيها الكوكب العظيم لو لم يكن لديك هؤلاء الذين تنيرهم!

لعشر سنوات وأنت تتردّد على مغارتي هذه؛ ولولاي أنا ونسري وحيّتي لكان أصابك الملل من نورك، ومن هذه الطريق.

---

(١) سنّ الثلاثين هي سنّ يسوع المسيح عند بدء رسالته. أنظر إنجيل لوقا؛ الاصحاح الثالث؛ ٢٣: «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يُظنّ ابن يوسف بن هالي». ـ مع فارق أن يسوع لم يقض عشر سنوات في عزلته داخل الصحراء، بل أربعين يوما فقط.

ـ في شذرات المسودات المنشورة بعد وفاة نيتشه ضمن الأعمال المعنونة بمنشورات «التركة» نقرأ في المجلد التاسع من الأعمال الكاملة التي أعدها الإيطاليان مونتي وكولليناري (Kritische Studien Ausgabe ـ طبعة الدراسات النقدية) في الشذرة ١٩٥ من القسم ١١، تحت عنوان: الظهيرة والابدية (إشارة إلى حياة جديدة): «في الثلاثين من عمره غادر زرادشت المولود بالقرب من بحيرة إيرمي، موطنه وارتحل إلى مقاطعة آريا حيث دوّن خلال السنوات العشر لعزلته كتاب «زند أفيستا».

لكنّنا كنّا هنا ننتظرك كلّ صباح لنستلم فائض نورك ونباركك لأجله.

أنظر! ها قد قرفت من حكمتي، كالنحلة كثر عليها ما جمّعت من العسل، وأنا في حاجة إلى أيادٍ تمتدّ إليّ.

أريد أن أهب وأوزّع حتى يجد العقلاء بين البشر متعة في جنونهم، والفقراء يستعيدون ابتهاجهم بثرائهم.

لذلك عليّ أن أنحدر إلى الأعماق؛ كما تفعل أنت كلّ مساء عندما تمضي إلى ما وراء البحر وتحمل حتّى العالمَ الأسفل نورك، أيّها الكوكب الفائق الثراء!

مثلك أريد أن أغرب(١) كما يقول البشر الذين أريد أن أنحدر إليهم.

لتباركني إذاً، أنت العين المطمئنّة التي تستطيع أن تنظر إلى فائق السعادة دون شعور بحسد!

لتبارك الكأس التي تريد أن تفيض فيتدفّق ماؤها مشعا ذهبيا ويغمر الدنيا من حوله ببريق غبطتك!

---

(١) Untergehen تعني في الألمانية الهبوط والانحدار والغروب، والغرق، والهلاك، والاضمحلال والزوال والخراب، مما يجعل ترجمتها مع الحفاظ على الإحالات الضمنية التي يومئ إليها لعب نيتشه على الكلمات أمرا صعبا.
ـ زرادشت يحتذي بالشمس في سخائها المطلق. ذلك هو مفهوم نيتشه للفلسفة والفيلسوف: سخاء شمسي لا يستثني أحدا. ومن أجل ذلك ينبغي عليه أن يلقى حتفه في العطاء. أنظر شذرات كنشات صائفة ـ خريف سنة ١٨٧٣ من منشورات التركة، تحت رقم ٢٩ [٢٢٤] بعنوان «في شرط الفيلسوف»: «يا لهذا لقلة المحبة لدى هؤلاء الفلاسفة الذين لا يفكرون على الدوام سوى في صفوة المختارين وليس لهم من إيمان كبير بحكمتهم. على الحكمة أن تكون مثل الشمس، تشع على الجميع، وأن يكون بوسعها أن تقذف ولو بشعاع باهت إلى أكثر الأنفس حطة واتضاعا».

أنظر! هذه الكأس تريد أن تفرغ، وزرادشت يريد أن يغدو إنساناً من جديد».

هكذا بدأ انحدار زرادشت نحو الأفول.

٢

انحدر زرادشت من الجبل وحيداً باتّجاه السفح، ولم يلتق بأحد في الطريق. لكنّه حالما بلغ الغاب وقف أمامه فجأة شيخ مسنّ قد غادر للتوّ كهفه المقدّس بحثاً عن عروق الأعشاب. وبهذه الكلمات خاطب الشيخ المسنّ زرادشت:

«ليس غريباً عنّي هذا المسافر، فقد مرّ قبل سنوات من هنا. زرادشت كان يُدعى؛ لكنّه قد تغيّر الآن.

كنتَ تحمل رمادك[1] إلى الجبل آنذاك؛ أتراك تريد أن تحمل نارك اليوم إلى السهول والأودية؟ ألا تخشى العقاب الذي ينال مولّع الحرائق؟

أجل، إنّني أتعرّف على زرادشت. صافيةٌ عينه، ولا شيء من علامات الاشمئزاز على فمه. ألا تراه كيف يسير مقبلاً كالراقص؟

هو ذا قد تغيّر؛ طفلا غدا زرادشت. يقظٌ زرادشت الآن: عمّ تبحث إذاً هنا بين النّيام؟

لقد كنتَ في عزلتك كما لو كنت في بحر، وكان البحر يحملك. ويْحك، أتريد أن تخرج إلى اليابسة؟ ويْحك، أتريد أن تجرجر جسدك بنفسك من جديد؟».

---

(١) أنظر فصل «الرائي» من الجزء الثاني من كتاب زرادشت. الهامش رقم ٢ ص٢٦٥.

«إنّني أحبّ البشر»، أجاب زرادشت.

«ولِم أنا أمضي وحيداً في الغاب وفي الخلاء يا ترى؟ قال الشيخ، أليس بسبب ماكنت أكنّه من حبّ مفرط للبشر؟

لكنّني الآن أحبّ الله: أمّا البشر فلا أحبّهم. فالإنسان شيء فادح النقص في نظري. وحبّ البشر سيكون فيه هلاكي.

«مالي والكلام عن الحبّ! أجاب زرادشت، إنّني أحمل هديّة إلى البشر!».

«كلا، لا تعطهم شيئاً» أجاب الشيخ، «بل خذ عنهم شيئاً من وزرهم تحمله عنهم - إنّ ذلك سيسعدهم أيّما سعادة، إن كان ذلك سيسعدك أيضاً.

وإذا ما أردت أن تمنح فلا تعطهم أكثر من صدقة، على أن تجعلهم يستجدونك متسوّلين!».

«كلاّ، لا أمنح صدقة، أجابه زرادشت، فأنا لست فقيراً بما فيه الكفاية لمثل هذا الصنيع».

عندها ضحك القدّيس من زرادشت وخاطبه قائلا: «فلتنظر إذاً كيف تجعلهم يقبلون كنوزك! إنهم لا يثقون بنا معشر المتوحّدين، ولا يصدّقون بأنّنا نأتي من أجل العطاء.

لخطواتنا عبر الأزقّة وقعُ وحدةٍ لا متناهيةٍ في أسماعهم. وكما لو كانوا يسمعون ليلا وهم في الفراش خطى رجل يمرّ قبل طلوع الشمس بساعات، يتساءلون: ترى إلى أين يمضي هذا اللصّ؟

لا تذهب إلى البشر، وابق هنا في الغاب! بل من الأفضل أن تمضي إلى البهائم! لِمَ لا تريد أن تكون مثلي دبّاً بين الدّببة وطائراً بين الطيور؟».

«وما الذي يفعله القدّيس في الغاب؟» سأله زرادشت عندئذ.

«أنظم أناشيد وأغنّيها، وعندما أنظم الأناشيد أضحك وأبكي وأدمدم: هكذا أسبّح لربّي.

بالغناء والضحك والبكاء والدّمدمة أسبّح للإله الذي هو ربّي. وأنت، أيّة هديّة جئت تمنحنا؟

لمّا سمع زرادشت هذا الكلام حيّا القدّيس وقال له: «وهل لديّ من شيء يمكنني أن أمنحك إيّاه؟ بل دعني أمضي الآن بسرعة لئلاّ أسلبك شيئاً!».

هكذا افترق الرجل والشيخ، ومضيا كلّ في طريقه ضاحكيْن كلاهما، كما يضحك طفلان.

لكن حالما وجد زرادشت نفسه وحيداً حدّث قلبه بهذا الكلام: أيعقل هذا؟! هذا القدّيس العجوز لم يسمع هنا في غابه بعد أنّ الله قد مات!»(١).

---

(١) «موت الله»، الموضوع المركزي في كتاب زرادشت، يدور حوله مجمل التصور الذي يطور مفهوم «الإنسان الأعلى» ـ أنظر البدايات أو ما يشبه الفكرة الأولية التي برزت في «**المعرفة المرحة**» الشذرة ١٢٥: «الرجل المسعور» ـ ألم تسمعوا بذلك الرجل المسعور الذي كان يركض في السوق ضحى وبيده قنديل ولا يكف عن الصراخ: «إنني أبحث عن الله! إنني أبحث عن الله!». وبما أنه كان هناك الكثيرون ممن لا يؤمنون بإله فقد أثار ذلك الرجل عاصفة من الضحك. هل تاه وضاع؟ كان أحدهم يقول. هل أضاع طريقه مثل صبي؟ يقول واحد آخر. أم هو قد أخفى نفسه؟ تراه خائفا منّا؟ هل ركب إحدى السفن؟ هاجر؟ ـ هكذا كانوا يصرخون ويضحكون في جلبة متداخلة. لكن الرجل المسعور قفز وسط الجمع وراح يحدجهم بنظراته الثاقبة. «إلى أين ذهب الله؟» صاح فيهم. «سأقول لكم ذلك! لقد قتلناه؛ أنتم وأنا معا!» (. . .) ويروى أن ذلك الرجل المسعور قد ولج العديد من الكنائس في ذلك اليوم وصلى فيها صلاة الجنازة، ولما كان يطرد من هناك ويسأل تفسيرا عن عمله ذلك كان لا يجيب دوما سوى بهذه الكلمات: «أي شيء إذاً هي هذه الكنائس إن لم تكن أقبية وقبورا لله؟».

٣

عندما دخل زرادشت أوّل مدينة واقعة على طرف الغابة وجد شعباً كثيراً متجمّعاً هناك في ساحة السوق؛ وكان قد أُعلن بينهم عن قدوم بهلوانيّ إلى هناك. وهكذا تكلّم زرادشت مخاطباً ذلك الشعب:

إنني **أعلّمكم الإنسان الأعلى**[١]. الإنسان شيء لا بدّ من تجاوزه. فما الذي فعلتم كي تتجاوزوه؟

---

(١) هذا مصطلح دقيق وجدنا صعوبة كبيرة في نقله بما يمكن أن يكون ترجمة صحيحة إلى اللغة العربية. لقد اختلفت مجمل الترجمات العربية إلى حد الآن في محاولاتها لإيجاد العبارة المناسبة لكلمة Übermensch الألمانية، أو Surhomme الفرنسية، بما أن كل الترجمات قد تمت إلى حد الآن نقلا عن الترجمة الفرنسية ولا أكاد أذكر من ترجمة مباشرة عن الألمانية غير ترجمة كتاب «**ما وراء الخير والشر**» التي قامت بها جيزيلا فالور حجَار. Über - mensch (هكذا يكتبها نيتشه أحيانا) عبارة مركبة من Über وتعني «فوق» و«ما فوق»؛ وMensch وتعني الإنسان. إلى حد الآن كل الترجمات العربية تقريبا متفقة على عبارة «الإنسان الأرقى». وقد استعمل فيلكس فارس عبارة «الإنسان المتفوق». وهي ترجمة غير صائبة في نظرنا، لأن عبارة التفوق لا تفي بما تشير إليه وتدل علية عبارة Über الألمانية وتعني «ما فوق». وهناك طبعا فرق أساسي بين ماهو «فوق» وما هو متفوّق. فالتفوق يظل درجة أرقى لكن داخل المنزلة ذاتها ـ أي داخل منزلة الإنسان. بينما «ما ـ فوق» تشير إلى منزلة أخرى، أي أن المنزلة الجديدة هي التي تتفوق على المنزلة القديمة، وليس إنسان المنزلة القديمة هو المتفوق على بقية بشر منزلته. ألا يقول زرادشت ويردد منذ بداية الكتاب حتى آخره: «الإنسان شيء لا بد من تجاوزه». فالمعنى واضح هنا على ما أعتقد. يعني أن زرادشت يطمح إلى نوع جديد وكيان مختلف نوعيا وليس متفوقا ضمن النوع نفسه. لننظر فقط إلى الجمل اللاحقة ونقرأ بشيء من الانتباه والتمعن: «**كل الأشياء ظلت تبدع ما يفوق منزلتها**» (التشديد هنا من عندنا).. «مجاوزة الإنسان»... «القرد بالنسبة للإنسان أضحوكة وموضوع خجل أليم.. وهكذا يجب أن يغدو الإنسان بالنسبة للإنسان الأعلى، أضحوكة وموضوع خجل أليم»... «لقد سلكتم الطريق الطويلة من الدودة إلى الإنسان»، وهي إشارة إلى مسيرة التحولات والارتقاء التي عرفتها الأنواع. أما أسامة الجاج (في ترجمته لكتابي «نيتشه والفلسفة» لجيل دولوز و«زرادشت نيتشه» لبيار هيبر ـ سوفرين) فيستعمل عبارة «الإنسان الأسمى». =

كلّ الكائنات ظلّت حتّى الساعة تبدع أشياء فوق منزلتها؛ وأنتم،

= وفي ترجمة جديدة للكتاب تم استعمال عبارة «الإنسان الراقي»، وهي عبارة أبعد ما يكون عن المعنى الذي يرمي إليه نيتشه باجتراحه لهذا المفهوم الذي يريد منه الإشارة إلى كائن جديد قد تجاوز منزلة الإنسان إلى منزلة فوق ـ إنسانية. ولو انتبه هذا المترجم قليلا إلى الجمل اللاحقة، ولو فكر بشيء من التبصر في عبارة Surhomme الفرنسية التي نقل عنها ـ على أن نفترض أنه يجيد فهم اللغة الفرنسية ـ لأدرك بسهولة أنها تختلف Homme supérieur التي توافق höherer Mensch، كما سيأتي في فصل لاحق من الجزء الرابع من كتاب زرادشت، وهو الفصل الذي يحمل هذا العنوان. ثم لو أن المترجم انتبه ولو نصف انتباه لرأى أن زرادشت قد صرف عنه كل «الرجال الراقين» في آخر الكتاب قائلا: «كلا، لستم أنتم من أنتظر». لأنه ليس من بينهم واحد يمكنه أن يكون إنسانه الأعلى الذي ينتظر، وهم في نظره في أحسن الحالات يمكن أن يكونوا جسورا ومعابر نحو كائنه الجديد الذي لم يقبل عليه إلى حد اللحظة إلا في هيأة طيف، أو كصرخة قادمة من مكان بعيد. ثم ألم ينتبه المترجم إلى ما ورد بصريح العبارة في «كلمة الترحاب» التي ألقاها زرادشت على ضيوفه المجتمعين في مغارته وهم جميعهم «أناس راقون» كما يدعوهم هو؟ ألم ينتبه المترجم إلى هذا الكلام: «**ولئن كنتم راقين ومن النوع الأرقى** (التشديد من عندنا)، فإن لديكم مع ذلك الكثير من الأشياء المعوجة والمشوهة؛ وليس هناك في الدنيا من حدّاد بإمكانه أن يصلح لي اعوجاجكم ويجعلكم قويمين. / لستم سوى جسور؛ فليكن لآخرين أرقى منكم أن يعبروا فوقكم إلى الضفة الأخرى. درجات سلم أنتم؛ فلا تؤاخذوا ولا تلوموا إذاً من يعبر فوقكم متسلقا دربه إلى أعاليه! / وليكن لي من بذرتكم في يوم ما إبن حقيقي ووريث حقيق بي؛ لكن ذلك ما يزال بعيدا، ولستم بأولئك الذين ستعود إليهم تركتي ويكونوا الحاملين لإسمي. / كلا، لستم أنتم من أنتظر هنا فوق هذ الجبل، وليس معكم أنتم سيحق لي أن أنحدر للمرة الأخيرة. / كعلامة فقط أتيتم إليّ وطالعا مبشرا بأن آخرين أرقى منكم في طريقهم إليّ، ـ / ـ لا أصحاب الشوق الأعظم والقرف الأعظم والإشمئزاز الأعظم، ولا ذلك الذي سميتموه بآخر ما تبقى من القبس الإلهي بين الآدميين. / لا! لا! وألف لا! آخرين أنتظر هنا فوق هذا الجبل، ولن أزحزح قدمي عن هذا الموضع من دونهم، ـ / ـ آخرين، أرقى وأصلب، أكثر قدرة على الانتصار وأكثر مرحا، أولئك الذين قُدّوا بنيانا متينا حصينا، قلبا وقالبا: أريد أسودا ضاحكة تأتي إليّ!».
أنظر أيضا قبلها فصل «عن القساوسة»: أبدا لم يكن هناك إنسان أعلى. عاريْن رأيت كلاً من الإنسان العظيم والإنسان الحقير: / متشابهيْن جدا أراهما. والحق أقول لكم، حتى أعظم الناس قد بدا لي ـ مفرطا في الإنسانيّة!».
فصل «عن الحيلة البشرية»: «أنتم يا أرقى الرجال ممن وقعت عليهم عيني! هذه ريبتي=

أتريدون أن تكونوا حركة الجزر في هذا الدّفق العظيم فتفضّلوا العودة إلى منزلة الحيوان على مجاوزة الإنسان؟

«ما القرد بالنسبة للإنسان؟ أضحوكةٌ، أو موضوع خجل أليم. كذا يجب أن يكون الإنسان بالنسبة للإنسان الأعلى: أضحوكةً أو موضوعَ خجل أليم.

لقد سلكتم الطريق الطويلة من الدودة إلى الإنسان لكنّكم ما زلتم تحملون الكثير من الدودة في داخلكم. كنتم قِرَدة ذات يوم، وإلى الآن ما يزال الإنسان أكثر قرديّة من أيّ قرد.

=تجاهكم وضحكتي السرية: إنني أحزر مسبقا أنكم ستدعون إنساني الأعلى ـ شيطانا! آه، «**لقد مللت هؤلاء الأرقى والأفضل من الرجال**» (التشديد من عندنا)؛ وكانت بي رغبة إلى الهروب إلى ما فوق وخارج «سموهم» موليا عنه باتجاه الإنسان الأعلى!».

ولنستمع إلى نيتشه مرة أخرى كيف يعرّف «إنسانه الأعلى» في كتاب «**هذا هو الإنسان**»: «إن عبارة الإنسان الأعلى كصيغة للتعبير عن نموذج الاكتمال الأعلى، أي كنقيض للإنسان «الحديث»، والإنسان «الخيّر»، وللمسيحيين وغيرهم من العدميين ـ العبارة التي تتخذ على لسان زرادشت مدمّر الأخلاق معنى يدعو إلى التفكير ـ نراها تُفهم في كل مكان تقريبا وببراءة تامة طبقا للقيم التي تتناقض كليا وتلك التي جاء ينادي بها زرادشت؛ أعني بذلك كنموذج «مثالي» لنوع راق من البشر؛ نصف «قديس» ونصف «عبقري». وقد بلغ الأمر ببعض الدواب العالمة من ذوات القرون أن اتهمتني بالداروينية بسبب هذه العبارة. بل هناك من ظن أنه قد استشف من خلالها حتى «عبادة الأبطال» على النحو الذي يدعو إليه ذلك المزوّر الجاهل وعديم الإرادة كارليل، تلك العبادة التي كنت قد رفضتها بشدة». (**هذا هو الإنسان** ـ ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة؟) منشورات الجمل ٢٠٠٣.

من هنا احترازي وعدم ارتياحي لعبارة «الإنسان الأرقى».

فكرت إذاً في القياس على العبارة الفرويدية «الأنا الأعلى» التي توافق العبارة الألمانية Über - Ich ـ وبما أن كل من فرويد ونيتشه قد استخدما نفس الصيغة التركيبية في اجتراحهما لمفهوميهما ـ فكرت إذاً في عبارة «الإنسان الأعلى» قياسا على «الأنا الأعلى».

لكن هذه أيضا لا تبدو لي مرضية هي الأخرى، مع أنها تظل أقرب إلى الصحة من بقية العبارات المقترحة إلى حد الآن.

والأكثر حكمة من بينكم لا يعدو كونه خِلقة خِلْطاً ومزيجاً من نبات ومن شبح. لكن هل دعوتكم لأن تصيروا نباتات وأشباحاً؟

انظروا، إنّني أعلّمكم الإنسان الأعلى!

الإنسان الأعلى كنه الأرض. فلتعلن إرادتكم: ليكن الإنسان الأعلى هو معنى الأرض!

أناشدكم **أن تظلّوا أوفياء للأرض** يا إخوتي؛ وألاّ تصدّقوا أولئك الذين يحدّثونكم عن آمال فوقأرضيّة! مُعدّوا سموم أولئك، سَواء أكانوا يعلمون ذلك أو لا يعلمون[1]. مستخفّون بالحياة هم، محتضرون ومتسمّمون بدورهم، مَلّتهم الحياة: فليرحلوا إذاً!

لقد مضى زمن كان فيه الإثم تجاه الله أكبر الآثام، لكنّ الله مات، وبهذا مات أيضاً كلّ أولئك الآثمين.

أن يأثم امرؤ في حقّ الأرض ويمنح أحشاء ما لا يُدركه عقل ولا نظرُ تقديراً أكثر من المعنى الذي في الأرض، فذلك هو أفظع آيات الكفر الآن!

في زمن ما كانت الروح تنظر إلى الجسد باحتقار؛ وكان ذلك الاحتقار أكثر الأمور سموّاً في ما مضى ـ كانت تريده هزيلا، بشعاً، جائعاً. وكانت تعتقد أنّها هكذا تستطيع أن تفلت منه ومن الأرض.

لكم كانت تلك الروح هزيلة هي نفسها، بشعة وجائعة: وكانت الفظاعةُ شهوةَ تلك الروح!

لكن، قولوا لي أنتم أيضاً يا إخوتي: ما الذي ينبئ به جسدكم عن روحكم؟ أليست روحكم فاقة وقذارة وطمأنينة بائسة؟

---

(١) سيطور نيتشه هذه الفكرة أكثر في الفقرة الثانية من فصل «الفضيلة الواهبة».

الحقَّ أقول لكم إن الإنسان نهر قذر. ولا بدّ أن يكون المرء بحراً لكي يتقبّل نهراً قذراً دون أن يغدو متّسخاً.

انظروا، ها أنني أعلّمكم الإنسان الأعلى: إنّه ذلك البحر الذي سيغرق فيه احتقاركم الأكبر.

ما هي أكثر الساعات سموّاً مما يمكنكم أن تعيشوا؟ إنّها ساعة الاحتقار الأعظم[1]، الساعة التي تغدو فيها سعادتكم ذاتها قرفاً في أعينكم وكذلك عقلكم وفضيلتكم.

الساعة التي تقولون فيها: «ما أهمّية سعادتي! إنّها فاقة وقذارة وطمأنينة بائسة. لكنّ سعادتي هي التي تبرّر وجودي ذاته».

ساعة تقولون: «ما أهمّية عقلي! هل يتلهّف للمعرفة كما الأسد يتلهّف لغذائه؟ إنّه فاقة وقذارة وطمأنينة بائسة!».

ساعة تقولون: «ما أهمّية فضيلتي! إنّها لم تحوّلني بعد إلى مسعور. لَكمْ سئمت خيري وشرّي! إذ فاقةٌ وقذارة وطمأنينةٌ بائسةٌ كل هذا!».

ساعة تقولون: «ما أهمّية عدالتي! وأنا لا أرى أنّني أتحوّل جمراً ولهيباً. لكنّ العادل جمر ولهيب!».

ساعة تقولون: «ما أهمّية شفقتي! أليست الشفقةُ الصليبَ الذي عُلّق عليه ذلك الذي كان محبّاً للبشر[2]؟ لكنّ شفقتي ليست صلْباً».

هل تكلّمتم مرّة هكذا؟ هل صرختم مرّة هكذا؟ آه، لكم وددت لو أنّني سمعتكم تصرخون هكذا!».

---

(١) أنظر **العلم المرح** الكتاب٥ الشذرة ٣٧٩: «كم من الفرح الرفيع وكم من الصبر وكم من الطيبة أيضا ندين بها لاحتقارنا! فضلا عن كوننا «رهط الله المختار»: الاحتقار الرفيع ذوقُنا وامتيازنا وفنّنا وربّما فضيلتنا، نحن الأكثر حداثة من بين الحداثيين»!).

(٢) إشارة إلى واقعة صلب المسيح.

ليست خطيئتُكم ـ بل رضاكم هو الذي يصرخ في وجه السماء، شحّكم ذاته الذي في خطيئتكم هو الذي يصرخ في وجه السماء[1]!
أين الصّاعقة التي تلعقكم بلسانها؟ أين الجنون الذي كان عليكم أن تُلقّحوا به؟

أنظروا، ها أنّني أعلّمكم الإنسان الأعلى: إنّه تلك الصاعقة، إنّه ذلك الجنون!

ولمّا فرغ زرادشت من هذا الكلام صرخ واحد من الشعب: «كفانا كلاماً عن هذا البهلوانيّ، ودعونا الآن نراه». وإذا الشعب كلّه يضحك ساخراً من زرادشت، والبهلوانيُّ الذي ظنّ أنّ ذلك الكلام كان فعلا يعنيه، يشرع الآن في أداء عمله.

٤

لكنّ زرادشت ظلّ ينظر إلى ذلك الشعب ويتعجّب، ثمّ تكلّم هكذا:

الإنسان حبل معقود بين الحيوان والإنسان الأعلى ـ حبل فوق هاوية.

خطير هو العبور إلى الضفّة الأخرى، خطير مسلك الطريق، خطير النظر إلى الوراء، خطير هو الارتعاش، والتوقّف خطيرٌ.

ما هو عظيم في الإنسان إنما كونه جسراً لا هدفاً؛ ما يمكن أن يكون جديراً بالحبّ في الإنسان هو كونه معبراً وصيرورة اندثار.

أحبّ أولئك الذين لا يعرفون كيف يعيشون دون أن يكونوا في ذلك منحدرين إلى الهلاك، إذ هم الذين يعبرون إلى الضفّة الأخرى.

---

(١) انظر سفر التكوين (العهد القديم) ـ الإصحاح ٤/ ١٠: «ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض».

أحبّ أولئك المحتقِرين الكبار، لأنّهم أكبر المُجلّين، وهم سهام الشّوق إلى الضفّة الأخرى.

أحبّ أولئك الذين لا يتطلّعون إلى النجوم بحثاً عن مبرّر للهلاك وللتضحية بأنفسهم؛ بل ينفقون أنفسهم لصالح الأرض، كي تصير الأرض ملكاً للإنسان الأعلى في يوم ما.

أحبّ ذلك الذي يحيا من أجل أن يعرف، والذي يعرف من أجل أن يحيا الإنسان الأعلى في يوم ما، وهكذا هو يريد هلاكه.

أحبّ ذلك الذي يعمل ويبتكر كي يبني بيت الإنسان الأعلى ويهيّئ له الأرض والدابّة والزرع؛ وهكذا يمضي بإرادته إلى الهلاك.

أحبّ ذلك الذي يحبّ فضيلته: إذ الفضيلة إرادة الهلاك وسهم الرغبة المتأجّجة.

أحبّ ذلك الذي لا يحتفظ لنفسه بقطرة واحدة من الروح، بل يريد أن يكون بكلّيته روحاً لفضيلته؛ وهكذا، روحاً يعبر الجسر.

أحبّ ذلك الذي يجعل من فضيلته نزوعه وقدره؛ وهكذا يريد أن يحيا من أجل فضيلته وأن يكفّ عن الحياة.

أحبّ ذلك الذي لا يرغب في كثير من الفضائل، إذ في فضيلة واحدة أكثر فضيلةً ممّا في إثنتين، لأنّ تلك هي العقدة التي ينشدّ إليها القدر.

أحبّ ذلك الذي يسرف في تبذير روحه، الذي لا يريد شكراً ولا يقضي ديْناً؛ إذ هو يهب دوماً ولا يريد حفاظاً على نفسه.

أحبّ ذلك الذي يخجل عندما تكون رمية الزهر لصالحه، والذي يسأل نفسه إذاً: هل أنا غشّاش؟ ـ ذلك أنّه يريد المضيّ إلى حتفه.

أحبّ ذلك الذي يُلقي بوعود ذهبيّة تستبق أفعاله، ويفي دوماً بأكثر ممّا يعد؛ ذلك أنّه يريد هلاكه.

أحبّ ذلك الذي يبرّر أجيال المستقبل ويخلّص أجيال الماضي؛ ذلك أنّه يريد أن يلقى حتفه في معاصريه.

أحبّ ذلك الذي يعنّف ربّه، لأنّه يحبّ ربّه؛ ذلك أنّه سيلقى حتفه حتماً في غضب ربّه.

أحبّ ذلك الذي تكون روحه عميقة حتّى وهو جريح، والذي يمكنه أن يهلك لأصغر الحوادث؛ هكذا يسير طواعية فوق الجسر.

أحبّ ذلك الذي تطفح روحه امتلاء بحيث ينسى نفسه، بينما الأشياءُ كلُّها في داخله؛ وهكذا تكون الأشياء كلّها حتفه.

أحبّ ذلك الذي يكون عقلا حرّاً وقلباً حرّاً؛ وهكذا يكون رأسه أحشاءً لقلبه، لكنّ قلبه يقوده إلى حتفه.

أحبّ كلّ الذين هم مثل القطرات الثقيلة التي تنزل متفرّقة من السحابة الداكنة المعلّقة فوق رؤوس البشر؛ إنّهم ينبئون بقدوم الصاعقة ويمضون كمنبّئين إلى حتفهم.

انظروا، إنّني المنبئُ بقدوم الصاعقة، والقطرةُ الثقيلةُ النازلة من السحابة: تلك الصّاعقة إسمها الإنسان الأعلى.

٥

وبعد أن تكلم زرادشت بكلماته هذه نظر إلى الشعب مجدّداً وصمت. «ها هم يقفون هنا»، قال مخاطباً قلبه، «ها هم يضحكون:

إنّهم لا يفهمونني؛ لست الفم الذي يصلح لهذه الآذان[1]. أينبغي أن تُقطع أذنيهم أوّلا كي يتعلّموا السّماع بأعينهم؟ أينبغي أن يقرقع المرء بمثل دويّ الطبول وخُطب وعاّظ الكفّارات؟ أم تراهم لا يصدّقون سوى لَجْلَجة الملعثَمين؟

إنّ لديهم شيئاً يفخرون به. ماذا يسمّون ذلك الشيء الذي يجعلهم فخورين؟ ثقافةً يسمّونه، وهو ما يميّزهم عن رعاة الماعز.

لذلك لا يروقهم أن يُنطق في شأنهم بعبارة «احتقار». فلأخاطبْ نخوتهم إذاً! سأحدّثهم عن أكثر الكائنات حقارة إذاً: لكنّ ذلك هو الإنسان الأخير».

وهكذا خاطب زرادشت الشعب:

«إنّها الساعة التي على الإنسان أن يرسم فيها هدفاً لنفسه. إنّها الساعة التي ينبغي على الإنسان أن يزرع فيها بذار أمله الأعظم.

تربته ما تزال ثريّة بما فيه الكفاية لهذا الغرس. لكنّ هذه التّربة ستغدو ذات يوم فقيرة وعقيمة، وما من شجرة سامقة تستطيع أن تنبت فوقها.

الويلَ، الويلَ! سيأتي الوقت الذي لن يكون للإنسان فيه أن يقذف بسهم رغبته في ما وراء الإنسان، ووتر قوسه لم يعد يعرف الاهتزاز!

أقول لكم: على المرء أن يكون حاملا بعد لشيء من الفوضى كي

---

(١) كتاب العهد الجديد: إنجيل متّى؛ الإصحاح ١٣/ ١٣: «من أجل هذا أكلمهم بأمثال، لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون». أنظر أيضا هيرقليطس: «إنهم يسمعون ولا يفهمون وهم أشبه بالصمّ. عليهم ينطبق المثل القائل: في حضورهم هم غائبون».

يلد نجماً راقصاً. أقول لكم: ما زال لديكم شيء من فوضى في داخلكم[1].

الويلَ، الويلَ! سيأتي الوقت الذي لن يلد المرء فيه نجماً. الويل، الويل! سيأتي زمن الإنسان الأكثر حقارة، ذلك الذي لم يعد قادرا على احتقار نفسه.

انظروا! ها أنا أرسم لكم صورة الإنسان الأخير!

«ما الحب؟ ما الخلق؟ ما الرغبة؟ ما النّجم؟» هكذا يسأل الإنسان الأخير وهو يغمز بعينيه.

ثمّ ها هي الأرض وقد غدت صغيرة، وفوقها ينطّ الإنسان الأخير الذي يصغّر كلّ شيء. نوعه غير قابل للانقراض مثل فصيلة البراغيث؛ إنّ الإنسان الأخير لهو الأطول عمراً.

«لقد ابتكرنا السعادة»، يقول البشر الأخيرون، ويغمزون بأعينهم.

هجروا الأماكن التي كان العيش فيها مرهقاً؛ فالمرء بحاجة إلى دفء. وما يزال الواحد يحبّ جاره ويتحكّك به؛ فالمرء بحاجة إلى دفء.

أن يمرض الواحد أو تكون له ريبة، فذلك ما يعدّ لديهم خطيئة: لا بدّ من التقدّم بحذر، وأحمق هو الذي ما يزال يتعثّر في حجر أو في بشر!

---

(١) أنظر في **ما وراء الخير والشر**: «الخليقة والخالق متحدان داخل الإنسان: الإنسان خليط من مادة وشظايا وزوائد وطين وروث وسخافة وفوضى؛ لكن في الإنسان أيضا مبدع ومصور وحدّة مطرقة وإله متفرّج ويوم سابع ـ هل تفهمون هذا التناقض؟» إنه المعنى الذي يعطيه نيتشه للإنسان كصيرورة ومشروع ـ غير مكتمل ـ يظل منفتحا على الدوام على عمل الصقل والتشذيب والتتمّة، والتهذيب؛ لكنه في الوقت ذاته هو الذي يصقل ويشذّب ويهذّب ويطوّر...

قليلا من السمّ بين الحين والآخر: إذ ذلك يجعل الأحلام لذيذة. وكثيرا من السمّ في النهاية، من أجل موت لذيذ.

ما يزال المرء يعمل أيضا، فالعمل تسلية بالنهاية. لكن مع الحرص على أن لا تكون التسلية مرهقة

لن يغدو الإنسان فقيراً ولا غنيّاً؛ إذ كلا الأمرين مرهِقان. من تراه سيريد بعدها أن يحكم؟ ومن سيُطيع؟ فكلا الأمرين مرهِقان.

ما من راعٍ، وقطيعٌ واحدٌ[1]! كلّ يريد الشيء نفسه، والكلّ سواء: والذي يحسّ بطريقة مغايرة يقود نفسه إلى مأوى المجانين.

«في ما مضى كان العالم بأكمله أحمق»، يقول الأكثر لباقة من بينهم ويغمزون بأعينهم.

الكلّ ذكيّ وعلى علم بما جرى: وهكذا فإنّ استهزاءهم لا يعرف حدّاً. ما زالوا يتشاحنون، لكنّهم سرعان ما يتراضون ـ وإلاّ اضطربت معدتهم وتكدّرت.

للمرء ملذّاته الصغيرة للنهار، وملذّاته الصغيرة للّيل؛ لكن على المرء أنّ يظلّ حريصاً على العافية.

(لقد ابتكرنا السعادة)، يقول البشر الأخيرون ويغمزون بأعينهم»[2].

عند هذا الحدّ انتهى خطاب زرادشت الأوّل، أو ما يسمّى «ديباجة»

---

(١) بمثابة الجواب على المقولة الإنجيلية ـ يوحنا؛ الإصحاح ١٠/١٦: «ولي خراف ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضا فتسمع صوتي وتكون رعيّة واحدة وراع واحد».

(٢) أنظر مقطع «قربان العسل» في الجزء الرابع من هذا الكتاب: «أي زرادشت، قالا يخاطبانه، تراك تبحث عن سعادتك هناك بعيدا حيث ترسل نظرك في هذا المدى البعيد؟» ـ «ما لي والسعادة! أجابهما زرادشت، منذ زمن بعيد لم أعد أتوق إلى السعادة، بل أتوق إلى عملي». نفس العبارات سيكررها زرادشت مخاطبا نفسه في الفصل الأخير من الكتاب (العلامة).

أيضاً؛ إذ عند هذا الموضع قاطعه صراخ الجمع وتهيّجه. «إلينا بهذا الإنسان الأخير يا زرادشت!» ـ هكذا كانوا يصيحون به. اجعل منّا هؤلاء البشر الأخيرين! وسنترك لك الإنسان الأعلى!» وكان بين الشعب تهليل وابتهاج وطقطقة بالألسن. لكنّ زرادشت تكدّر وحزن وخاطب قلبه قائلا:

«إنّهم لا يفهمونني: لست الفم المناسب لهذه الآذان.

لقد عشت أطول ممّا ينبغي بين الجبال، وأصغيت أكثر ممّا ينبغي للبحيرات والجداول والأشجار: وها أنا أخاطبهم الآن مثل رعاة الماعز.

هادئة روحي ومشعّة، صافية كالجبل عند الضحى. لكنّهم يرونني بارداً ومستهزئا ذا هزار شنيع.

والآن هم ينظرون إليّ ويضحكون: وفيما هم يضحكون يحقدون عليّ أيضاً. صقيع يتوهّج في ضحكتهم».

٦

لكن ها قد حدث الآن شيء ألجم الألسنة وأجحظ كلّ العيون. ففي الأثناء كان البهلوان قد شرع في عمله: خرج من بوّابة صغيرة وتقدّم سائراً فوق الحبل الذي كان مشدوداً إلى قلعتين متقابلتين، معلّقاً فوق ساحة السوق وحشد الجمهور. وكان قد بلغ منتصف طريقه عندما انفتحت البوّابة الصغيرة ثانيةً ومنها اندلف فتى مزوّق في هيأة مهرّج وانطلق يلاحقه بخطى سريعة: «تقدّم يا مشلول الساق!» صاح بصوت حادّ مريع، «تقدّم أيّتها الدابّة المتلكّئة، المهرّب المتسلّل، يا شاحب الوجه، تقدّم! لئلاّ أدغدغك بقدمي! ما الذي تصنعه هنا بين قلعتين؟ داخل القلعة مكانُك، والحبس أولى بك؛ إنّك تسدّ الطريق

على من هو أفضل منك!» ـ ومع كلّ كلمة كان يقترب منه أكثر فأكثر؛ ولما لم تعد تفصله عنه سوى خطوة واحدة حدث الأمر الفظيع الذي ألجم الألسنة وأجحظ كلّ العيون، فقد أطلق الفتى صرخة شيطان وقفز من فوق ذلك الذي كان يسدّ عليه الطريق. لكنّ البهلوان وهو يرى خصمه ينتصر عليه هكذا، أضاع الحبل والعقل معا، فرمى بقضيب التوازن وبأسرع منه هوى في الفراغ لولبةً تتلاحق ذراعاه فيها بالقدمين. اضطربت الساحة والجمع المحتشد هناك مثل بحر لحظة اندلاع العاصفة؛ الكلّ فارّ في تفرّق وتلاحم، مخلين المكان في ذلك الموضع الذي كان سينسحق فيه.

لكنّ زرادشت ظلّ واقفاً مكانه، وبجانبه وقع الجسد منسحقاً محطّماً، لكن غير ميّت بعد.

بعد برهة من الزّمن عاد إلى المهشّم وعيُه ورأى زرادشت جاثما على ركبتيه إلى جانبه. «ماذا تفعل هنا؟» قال يسأله أخيرا، «كنت أعرف منذ زمن طويل أنّ الشيطان يعدّ لي مقلباً. وها هو الآن يجرجرني إلى الجحيم؛ أتريد أن تمنعه؟

«وشرفي، أيّها الصّديق، ليس هناك شيء ممّا ذكرت»، أجابه زرادشت: لا شيطان هناك ولا جحيم. وإنّ روحك سيسرع إليها الموت قبل جسدك، فلا تخْش شيئاً إذاً».

بعينين ملؤهما الشكّ والرّيبة ظلّ الرجل يتطلّع في الفضاء، ثمّ قال: «إن صدقتَ في ما قلت، فإنّني لن أخسر شيئاً إذاً بفقدان الحياة. فأنا لست أكثر من حيوان لُقّن الرقص بالعصا وبلُقَم حقيرة».

«كلاّ»، خاطبه زرادشت، «بل إنّك اتّخذت من الخطر حرفتك، وليس في هذا الأمر ما يستحقّ الاحتقار. والآن تمضي في حرفتك إلى حتفك؛ لهذا أريد أن أدفنك بيدي».

بعد أن نطق زرادشت بهذه الكلمات لم يضف المحتضر أيّ جواب، لكنّه حرّك يده كما لو كان يبحث عن يد زرادشت يريد أن يشكره.

٧

وفي الأثناء حلّ المساء، ولفّت العتمة ساحة السوق؛ عندها تفرقت جموع الشعب، ذلك أنّ التعب يصيب حتّى الذّعر والفضول. أمّا زرادشت فظلّ جالساً على الأرض إلى جانب الميّت غارقاً في التفكير؛ وهكذا نسي الوقت. لكنّ الليل استقرّ أخيراً، وعلى الرجل الجالس وحيداً هبّت ريح باردة. عندها نهض زرادشت محدّثاً قلبه:

«صيدا جميلا حقّاً اصطاد زرادشت هذا اليوم! لم يصطد إنساناً، بل جثّة[1].

رهيب هو الوجود الإنسانيّ ولا معنى له مع ذلك: إنه بإمكان مهرّج أن يختم على قدره المحتوم.

أريد أن أعلّم البشر معنى وجودهم؛ ألا وهو الإنسان الأعلى، الإنسان الصاعقة النازلة من السحابة الداكنة.

لكنّني ما زلت بعيداً عنهم وعقلي لا يستطيع مخاطبة عقولهم. حالة وسطى أنا بالنسبة لهؤلاء، بين مهرّج وجثّة.

قاتم هو الليل، ومعتّمة طريق زرادشت. تعال إذاً أيّها الرفيق البارد المتصلّب! سأحملك الآن إلى حيث سأدفنك بيدي».

---

(١) إحالة على يسوع وقولته للأخوين الصياديْن ـ بطرس وأندراووس: متّى؛الإصحاح ١٨/٤ ـ ٢٠: «وإذ كان يسوع ماشيا عند بحر الجليل أبصر أخويْن سمعان الذي يقال له بطرس وأندراووس أخاه يلقيان شبكة في البحر فإنهما كانا صياديْن؛ فقال لهما هلمّ ورائي فأجعلكما صيّادي الناس؛ فللوقت تركا الشباك وتبعاه».

٨

وبعد أن خاطب زرادشت قلبه بهذا الكلام[١] حمل الجثّة فوق ظهره وانطلق. ولم يسر مائة خطوة حتّى تسلّل إلى جانبه شخص وهمس في أذنه ـ وإذا ذلك المتحدّث إليه ليس أحدا آخر سوى مهرّج القلعة! ـ «ارحل عن هذه المدينة يا زرادشت»، قال له. «كثيرون هم الحاقدون عليك هنا. يحقد عليك أهل الصلاح والعدل، ويدعونك عدوّهم والمستهزئ بهم؛ ويحقد عليك المؤمنون بالعقيدة الحقّ، ويدعونك الخطر على الجمهور. ومن حسن حظّك أنك جعلت الناس يضحكون عليك؛ وقد كنت بحقّ تتكلّم مثل مهرّج. ومن حسن حظّك أيضاً أن قرنت نفسك بذلك الكلب الميّت؛ ولأنّك وضعت من نفسك هكذا فُزت بسلامتك لهذا اليوم. لكن لِترْحل الآن عن هذه المدينة ـ وإلاّ فإنّني سأقفز فوقك غداً؛ حيّ يقفز فوق ميّت».

ولمّا فرغ الرجل من هذا الكلام اختفى ثانية؛ لكنّ زرادشت واصل سيره عبر الأزقّة المعتمة.

عند بوّابة المدينة اعترضه حفّاروا القبور: رفعوا مشعلهم في وجهه وتعرّفوا على زرادشت فراحوا يستهزئون به. «هو ذا زرادشت يأخذ الكلب الميّت؛ لطيف أن غدا زرادشت حفّار قبور! إذ أيدينا أنقى من أن تمسّ مثل هذا الغذاء. أيريد زرادشت أن يسرق من الشيطان لقمته؟

---

(١) سترد هذه عبارة «حدّث قلبه» كثيرا في هذا الكتاب، وقد فضلنا الإبقاء عليها في صيغتها هذه عوضا عن استعمال عبارة «حدث نفسه»، أو «قال لنفسه» حرصا على الحفاظ على ما فيها من إحالة على لغة الأناجيل: التكوين؛ الإصحاح الثامن ـ ٢١: «وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان...»، كما ترد أيضا لدى هوميروس في الإلياذة وفي الأوديسة.

حظّاً سعيداً إذاً! ووقتاً ممتعاً مع هذه الوجبة! إن لم يكن الشيطان طبعاً سارقاً أكثر شطارة من زرادشت؛ يسرقهما معاً، ويفترسهما معاً!» ثمّ راحوا يضحكون في ما بينهم متلاصقين برؤوسهم ساخرين.

لم يعلّق زرادشت بكلمة وواصل طريقه. وبعد ساعتين من السير عبر الغابات والمستنقعات كان قد استمع كثيراً لعواء الذئاب الجائعة حتّى تملّكه الجوع هو أيضاً. وهكذا توقّف أمام بيت منعزل كان ينبعث منه ضوء.

«الجوع ينقضّ عليّ مثل لصّ، قال زرادشت. بين الغابات والمستنقعات، وفي عمق الليل يداهمني جوعي.

غريبٌ الأطوار هو جوعي. غالباً ما يأتيني مباشرة بعد الأكل، واليوم لم يأتني طوال النهار؛ ترى أين تأخّر إذاً طوال كلّ هذا الوقت؟».

محدّثاً نفسه بهذا الكلام طرق زرادشت باب البيت. وإذا شيخ بيده مصباح يطلّ ويسأل: من القادم عليّ وعلى نومي القلِق؟».

«حيّ وميّت» أجاب زرادشت، ناولني أكلا وشراباً فقد نسيت ذلك طوال اليوم. إنّ من يطعم جائعاً ينعش بذلك روحَه الخاصّة؛ هكذا تقول الحكمة».

واختفى العجوز ليعود بعد برهة وجيزة ويقدّم خبزاً ونبيذاً لزرادشت. «مكان قاس على الجائع هو هذا المكان، قال العجوز. لذلك أنا أسكن هنا؛ البشر والبهائم تأتي إليّ أنا الناسك المتوحّد. لكن ألا تعرض على مرافقك أيضاً شيئاً من الأكل والشراب، إنّه يبدو أكثر تعباً منك». «ميّت هو مرافقي»، أجاب زرادشت، ولن يكون من

السهل أن أقنعه بالأكل». ـ «هذا ليس شأني» أجاب العجوز مغمغماً بتجهّم، من يطرق باب بيتي عليه أيضاً أن يتسلّم ما أقدّم إليه. كُلا إذاً ولتصحبكما السلامة!».

بعدها سار زرادشت لساعتين متقفّياً الطريق على ضوء النجوم؛ إذ كان متعوّداً على السّير ليلاً، وكان يحبّ النظر في وجه كلّ نائم. لكن عندما طلع الفجر وجد زرادشت نفسه في عمق غابة وما من طريق هناك تلوح أمام عينيه. عندها وضع الجثّة داخل جذع مجوّف غير بعيد من رأسه ـ إذ كان حريصاً على وقايته من الذئاب ـ واستلقى على الأرض فوق الطحالب. وللحين استسلم إلى النوم متعبَ الجسد، لكن بقلب تغمره السكينة.

٩

نام زرادشت طويلا، ولم يمرّ على وجهه نور الفجر فقط، بل وضياء الضحى أيضاً. لكن عيناه انفتحتا أخيراً؛ مندهشاً نظر زرادشت إلى الغاب من حوله محدّقا في السكون، مندهشاً نظر في دخيلة نفسه. ثمّ نهض بسرعة مثل بحّار تراءت له اليابسة فجأة، وأطلق صيحة فرح؛ إذ رأى حقيقة جديدة. وهكذا خاطب قلبه:

«لقد أنيرت بصيرتي: إنّني بحاجة إلى رفاق، وإلى أحياء ـ لا أمواتاً وجثثاً أجرجرها حيث أشاء.

بل رفاقاً من الأحياء أحتاج، رفاقاً يتبعونني لأنّهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم ـ وإلى هناك حيث أريد.

«لقد أنيرت بصيرتي: ليس إلى الشعب ينبغي أن يتكلّم زرادشت، بل إلى رفاق! ليس راعيَ قطيع وكلباً ينبغي أن يصير زرادشت!

«أن أستميل الكثير إلى الخروج عن القطيع ـ ذلك هو العمل الذي جئت من أجله. وسيبغضني عندها الراعي والقطيع: لصّاً سيسمّي الرعاةُ زرادشتَ.

رعاةً أقول، لكنّهم يدعون أنفسهم بالصالحين والعادلين. رعاةً أقول، لكنّهم يدعون أنفسهم مؤمنين بالعقيدة الحقّ.

انظرْ هؤلاء الصالحين والعادلين! على من يحقدون أكثر من أيّ كان؟ على ذلك الذي يكسر ألواح قيمهم القديمة؛ المخرّب، المجرم ـ لكنّ ذلك هو المبدع[(١)].

انظرْ إلى المؤمنين من كلّ عقيدة! على من يحقدون أكثر من أيّ كان؟ على ذلك الذي يكسر ألواح قيمهم القديمة؛ المخرّب، المجرم ـ لكنّ ذلك هو المبدع.

رفاقاً يريد المبدع لا جثثاً، ولا قطعاناً ومؤمنين أيضاً. رفاق إبداع يريد المبدعُ، يخطّون قيماً جديدة على ألواح جديدة.

رفاقاً يريد المبدع ومشاركين في الحصاد؛ إذ كلّ شيء لديه ناضج

---

(١) أنظر «**المعرفة المرحة**»، الكتاب الأول؛ الشذرة ٤: «إن العقول الأكثر قوة والأكثر خبثا/ شرّا هي التي ظلت إلى حد الآن تدفع بالبشرية نحو التطور: على الدوام ظل هؤلاء يشحذون جذوة الهمم الغافية ـ كل مجتمع مرتّب يخدّر الهمم ـ، هؤلاء لا يكفون عن إيقاظ روح المنافسة والتناقض والرغبة في ما هو جديد وجسور وما هو غير معهود، ويرغمون الناس على مقارعة الرأي بالرأي ومواجهة أمثلة نمطية بأمثلة نمطية أخرى...» أنظر أيضا «**الفجر I**» الفقرة ٢٠ ـ فَعَلة أحرار ومفكرون أحرار ـ: «كل من قام بقلب القانون الأخلاقي القائم ظل إلى حد الآن يعتبر إنسانا سيئا؛ لكن عندما تغدو من بعدها إعادة بسط ذلك القانون أمرا غير ممكن وعندما يتعود الناس على الأمر المقضي يشرع ذلك الاعتبار في التبدل شيئا فشيئا؛ ـ إن التاريخ قائم كليا تقريبا على هؤلاء الناس السيئين الذين يكرسون أناسا صالحين فيما بعد».

للحصاد. لكن تنقصه المائة منجل[١]، لذلك هو يقتلع السنابل اقتلاعاً ويستشيط غيضا.

رفاقاً يريد المبدع، وأولئك الذين يعرفون كيف يشحذون مناجلهم. مخرّبين سيدعوهم الناس ومستهزئين بالخير والشرّ، لكنّهم هم الحاصدون والمحتفلون بالعيد.

رفاق إبداع يريد زرادشت؛ رفاق حصاد ورفاق احتفال بالعيد يريد زرادشت: ما الذي سيصنعه مع القطعان والرعاة والجثث؟!

أما أنت يا رفيقي الأوّل، فلتصحبك السلامة! ها قد دفنتك جيّداً في جذع شجرتك الأجوف، وخبّأتك كما ينبغي عن الذئاب.

لكنّني الآن أتخلّى عنك، فقد انقضى الوقت. فما بين فجر وفجر ظهرت لي حقيقة جديدة.

لا راعٍ ولا حفّارَ قبور ينبغي عليّ أن أكون. لن أريد حتّى التكلّم إلى الشعب، وإنّ هذه لآخر مرّة أتحدّث فيها إلى ميّت.

«أريد أن أنضمّ إلى المبدعين والحاصدين والمحتفلين بالعيد: أريد أن أريهم قوس قزح وكلّ درجات سلّم الإنسان الأعلى.

للنساك المتوحّدين سأغنّي نشيدي وللوحيدين داخل الاجتماع؛ ومن له أذنين بعدُ لكلّ خارق عجيب أريد أن أثقل قلبه بسعادتي.

إلى هدفي أسعى، وفي طريقي أمضي؛ وسأقفز فوق كلّ المتردّدين والمتلكّئين. وليكن مضيّي انحدارهم وأفولهم إذاً!

---

(١) متّى الاصحاح ٩/ ٣٧؛ «حينئذ قال لتلاميذه الحصادُ كثير ولكنّ الفَعَلة قليلون».

١٠

ذلك ما قال زرادشت محدّثاً قلبه، وكانت الشمس قد استقرّت متوسطة قبّة السماء: عندها تطلّع في السماء مستفسراً ـ إذ سمع صوت طائر، نداءً حادّاً فوق رأسه. وإذا هو نسر يحلّق مسطّراً دوائر واسعة في الفضاء وحيّة تتدلّى منه، لا كالفريسة بل كرفيقة؛ إذ كانت ملتفّة على عنقه.

«ها هما حيواناي!»[١] قال زرادشت وفرح من كلّ قلبه.

أكثر الحيوانات أنَفةً تحت الشمس، وأكثر الحيوانات ذكاءً تحت الشمس ـ إنّهما في رحلة استكشاف.

يريدان أن يعرفا إذا ما كان زرادشت حيّاً بعد؟ وفي الحقيقة، هل أنّني مازلت حيّاً؟

أكثرَ خطراً وجدتُ الحياة بين الآدميّين، وخطيرة هي الطرق التي يسلك زرادشت. فليقدني حيواناي إذاً!».

ولمّا تحدّث زرادشت بهذا الكلام تذكّر كلمات الناسك الذي القتاه في الغابة، فتنهّد وخاطب قلبه هكذا:

---

(١) النسر والحية رمزا السماء والأرض، والقوة والذكاء والحيلة. لكأنها لحظة اتحاد الأرض بالسماء، الفتوّة (النسر، مثل ديونيزوس) بالتجدد الدائم (الحية التي تغير جلدها بصفة منتظمة). سيفهم المرء بصفة أوضح دلالات هذه الاستعارة بالعودة إلى ما سبق مما كتبه نيتشه في **المعرفة المرحة**؛ الشذرة ٣٧١: «نحن المبهمون»: «إننا عرضة للخلط ـ والحقيقة أننا نحن الذين ننمو وما ننفك نتغير، نخلع عنا قشرة قديمة، نغير جلدتنا مع كل ربيع، نغدو أكثر فكثر شبابا، مستقبليين أكثر، أرقى وأكثر قوة، نرمي بعروقنا في الأعماق بأكثر قوة ـ في الشرّ ـ، بينما نعانق السماء بأكثر تحنان وأكثر رحابة، وبكل أغصاننا وأوراقنا نمتص ضوءها بتعطش متزايد».

«أريد أن أكون أكثر ذكاءً! أريد أن أكون ذكيّاً في طبعي مثل حيّتي!

لكنّني أطلب المستحيل هنا: فأنا أطلب من أنَفتي أن تظلّ دوماً مصاحبة لذكائي!

وإذا ما تخلّى عنّي ذكائي في يوم ما: ـ أُف، إنّه ليحبّ أن يهرب منّي هكذا! ـ فلترافق نخوتي طيرانَ جنوني إذاً!

هكذا بدأ أفول زرادشت.

خُطب زرادشت

عن التحوّلات الثلاثة

أذكر لكم ثلاث تحوّلات للعقل: كيف يتحوّل العقل إلى جمل، والجمل إلى أسد، والأسد إلى طفل بالنهاية.

أثقال كثيرة هناك بالنسبة للعقل القويّ المكابد، العقل الممتلئ احتراما؛ إلى الثقيل والأكثر ثقلاً ترنو قوّته.

ما الثقيل؟ هكذا يسأل العقلُ المكابد، وهكذا يجثو على ركبتيه مثل الجمل ويطلب حملا جيّداً.

ما هو الأكثر ثقلا أيّها الأبطال؟ يسأل العقل المكابد، كي أحمله وأغتبط لقوّتي.

أليس هذا ما يعني أن يحطّ الواحد من نفسه كي يكسر شوكة غروره؟ وأن يدع حمقه يشعّ كي يسخر من حكمته؟

أم ترى هذا: أن نتخلّى عن قضيّتنا في اللحظة التي نحتفل فيها بانتصارها؟ أن نتسلّق جبالا شاهقة من أجل أن نجرّب المجرِّب[1]؟

---

(١) متّى: الإصحاح ٤/١: «فتقدم إليه المجرِّب وقال له إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا»؛ ٧: «قال له يسوع مكتوبٌ أيضا لا تجرّب الربّ إلهَك».

أم هو هذا: أن نتغذّى من عروق وأعشاب المعرفة، ونجعل الروح تكابد الجوع من أجل الحقيقة؟

أم هو هذا: أن تكون مريضاً تصدّ المواسين وتعقد صداقة مع الصمّ الذين لن يسمعوا أبداً ما الذي تريده؟

أم هو هذا: أن يلج الواحد المياه القذرة إن كانت تلك ماء الحقيقة، وأن لا يدفع عنه الضفادع الباردة والعلاجيم السامّة؟

أم هو هذا: أن نحبّ أولئك الذين يحتقروننا، وأن نمدّ يدنا إلى الشبح عندما يريد أن يرعبنا؟

بكلّ هذه الأثقال يأخذ العقل المكابد على عاتقه؛ وكما الجمل الذي يسعى حثيثاً محمّلا بأثقاله عبر الصحراء، كذلك يسعى هو حثيثاً في صحرائه.

لكن في الصحراء الأكثر خلاء ووحدةً يحدث التحوّل الثاني: أسداً يستحيل العقل، يريد انتزاع الحرّية، وسيّداً يريد أن يكون في صحرائه الخاصّة.

هنا يبحث عن آخر أسياده: عدوّاً يريد أن يصير لآخر أسياده ولآخر آلهته، ومن أجل النصر يريد الاشتباك مع أعظم تنّين.

ما هو هذا التنّين الأكبر الذي لم يعد يرغب فيه العقل سيّداً وإلهاً؟ «ينبغي عليك» يُدعى التنّين الأكبر. لكنّ عقل الأسد يقول: «أريد»[١].

---

(١) يمكن أن نراجع بخصوص موضوع الإرادة الحرة والانعتاق من سلطة الوجوب الخارجية كتاب **المعرفة المرحة** ـ الكتاب الخامس؛ الفقرة ٣٤٧: «المؤمنون وحاجتهم إلى الإيمان» في اللحظة التي ينتهي المرء فيها إلى القناعة الأساسية بأنه لابد أن تملى عليه أوامر من الخارج، يصبح «مؤمنا»؛ وبالمقابل فإنه بالإمكان تصور رغبة وقدرة على استقلالية القرار، أي حرية إرادة بموجبها يودّع عقل ما كل إيمان وكل رغبة في اليقين وقد امتلك دربه الخاص في الحفاظ على توازنه فوق أرفع الحبال والإمكانيّات، بل على الرقص فوق الهُوى السحيقة أيضا. مثل هذا العقل سيكون هو العقل الحر بامتياز».

«ينبغي عليك» تسدّ عليه الطريق ملتمعة ببريق الذهب؛ حيوان حرشفيّ، وفوق كلّ حرشفة تلتمع مقولة «ينبغي عليك!» ببريق ذهبيّ.

قيم آلاف السنين تلتمع فوق تلك الحراشف، وهكذا يتكلّم التنّين الأشد قوّة: قيمة الأشياء بكلّيتها ـ تلتمع فوق جسدي».

كلّ القيم قد تمّ خلقها، ـ وكلّ القيم التي تمّ خلقها هي: أنا. حقّاً، لم يعد هناك من مكان لأيّ «أريد»! هكذا يتكلّم التنّين.

لكن ما ضرورة الأسد بالنسبة للعقل يا إخوتي؟ ما الذي ينقص دابّة الحمل والمكابدة المتبتّلة والمفعمة احتراماً؟

خلق قيم جديدة ـ ذلك ما لا يقدر عليه الأسد بعد؛ أمّا اكتساب الحريّة من أجل إبداعٍ جديد ـ فذلك ما تقدر عليه قوّة الأسد.

اكتساب الحريّة وإعلان الـ «لا» المقدّسة تجاه الواجب أيضاً ـ ذلك هو ما يحتاج إليه الأسد.

اكتساب حرية ابتداع قيم جديدة ـ إنّه الكسب الأكثر فظاعة بالنسبة لعقل مكابد ومفعم بالاحترام. لكنّه في الحقيقة مجرّد صيد وعمل حيوان مفترس.

في ما مضى كان العقل يحبّ «ينبغي عليك» ويجلّها كأرقى مقدّساته: أمّا الآن فلا بدّ أنّه واجدٌ جنوناً واستبداداً في أكبر المقدّسات أيضاً، كي ينزع إلى افتكاك حرّيته من حبّه هذا: إنّه بحاجة إلى الأسد من أجل هذه الغنيمة المنتزعة.

لكن قولوا لي يا إخوتي، ما الذي يقدر عليه الطفل ممّا لا يقدر عليه حتّى الأسد؟ ولِم ينبغي على الأسد المفترس أن يتحوّل أيضاً إلى طفل؟

براءة هو الطفل ونسيان. بدء جديد، لعب، دولاب يدفع نفسه بنفسه، حركة أولى، «نعم» مقدّسة[١].

أجل، إنّ لعبة الابتكار يا إخوتي تتطلّب نعم مقدّسة: **إرادته** الخاصّة يريد العقلُ الآن؛ والذي يكون غريباً في العالم يكسب **عالمه** الخاصّ.

ثلاث تحوّلات للعقل ذكرت لكم: كيف تحوّل العقل إلى جمل، والجمل إلى أسد، والأسد إلى طفل بالنهاية. -

هكذا تكلّم زرادشت. وكان آنذاك مقيماً في المدينة التي تدعى: البقرة المرقّطة[٢].

---

(١) ثيمة الطفل لدى هيرقليطس تعود كثيرا في الفكر النيتشوي مولد الفلسفة في عصر التراجيديا: «لعب الفنان ولعب الطفل وحدهما هما الذان يستطيعان أن يتطورا ويضمحلا في هذه الحياة الدنيا، أن يشيّدا ويهدما بكل براءة. وهكذا، مثل الفنان والطفل، تلعب النار النشطة بصفة أبدية؛ تكوّن وتهدم ببراءة، وهذه اللعبة إنما الدهر هو الذي يلعبها مع نفسه. متحوّلة إلى تراب وإلى ماء. تكدس النار مثل الطفل كوما من الرمل على حافة البحر، ترفعها وتهدمها، وتعيد لعبتها بين الحين والآخر. لحظة من الاكتفاء، ثم تستبد بها الحاجة من جديد، كما تدفع الحاجة بالفنان إلى الخلق. ليس غرورا مذنبا هذا، بل غريزة اللعب المستيقظة مجددا هي التي تستدعي ظهور عوالم جديدة. يرمي الطفل من حين لآخر بلعبته، لكنه سرعان ما يعود إليها بحسب نزوة بريئة. غير أنه حالما يشرع في البناء، ينطلق يجمّع ويربط بين الأشياء ويسوّي الأشكال طبقا لقانون وبحسب انتظام داخلي صارم»، أنظر أيضا **جنيالوجيا الأخلاق** 16 - II)// أما هيرقليطس الذي يستمد منه نيتشه هذه الرؤية فيقول في إحدى شذراته المكثفة: «الدهر طفل يلعب النرد: إنه مملكة طفل».

(٢) (bunte Kuh) ترجمتها حرفيا «البقرة الملوّنة» وهي عبارة ساخرة من اللسان الشعبي الألماني وتستعمل لتسمية النواتاة العمرانية الصغيرة ذات التركيبة السكانية الملفقة والمتنافرة والتي لا تتوفر في أهاليها خصال الحس المدني والوطني التي تميز «الحاضرة» أو «الأمة».

عن منابر الفضيلة

امتدح النّاس لزرادشت حكيماً زعموا أنّ له حديثَ العارف في مسائل النّوم والفضيلة، وكان على ما يبدو يحظى مقابل ذلك ببالغ التقدير ويغدق عليه بالمكافآت، وإلى منبره يجلس كلّ الفتيان. ذهب إليه زرادشت إذاً وجلس مع كلّ الفتيان هناك. وهكذا تكلّم الحكيم:

الاحترام والحياء تجاه النوّم! إنّها أولى الأمور! ولتبتعد عن طريق الذين لا ينامون جيّداً ويسهرون الليل!

بحياء يتصرف اللص أيضا أمام النوم: إنّه يتسلّل دوماً بهدوء بين طيات الليل. لكنّ المولع بالسهر لا يعرف الحياء، ودون حياء يرفع قرنه.

ليس عملاً سهلا هو النّوم: على المرء أن يهيّء نفسه له بالصحو طوال النهار.

عشر مرّات في اليوم عليك أن تتجاوز نفسك؛ فذلك يمنح تعباً جيّداً، وهو زهرة الخشخاش المهدّئة للروح.

عشر مرّات عليك أن تتصالح مع نفسك؛ ذلك أنّ المغالَبة مرارة، والذي لم يتصالح مع نفسه نوماً قلقاً ينام.

عشر حقائق عليك أن تجد في نهارك؛ وإلاّ فإنّك ستبحث عن الحقيقة في ليلك أيضا، وتظلّ نفسك على الطوى.

عشر مرّات عليك أن تضحك في يومك وأن تكون فرحاً؛ وإلاّ أزعجتك معدتك ليلا؛ بيت الداء وأمّ الأحزان.

قليلون هم الذين يعرفون هذا: لكن على المرء أن يكون حاملا لكلّ الفضائل كي يستطيع أن ينام نوما جيّداً[١]. أن أشهد شهادة زور؟ أن أزني؟

أن أراود خادمة جاري؟ كلّ هذا ما لا يتلاءم ونوماً جيّداً[٢].

وحتّى وإن كان المرء حائزاً على كلّ الفضائل، فإنّه عليه أن يكون على دراية بأمر آخر؛ أن يبعث بالفضائل نفسها إلى النوم في الوقت المناسب.

كي لا تتناوش في ما بينها، تلك الإناث اللطيفات ـ وذلك فوق رأسك أنت المسكين!

سلام مع الله ومع الجار: ذلك ما يبتغيه النوم الجيّد. وسلام كذلك حتّى مع جارك الشيطان! وإلاّ ظلّ يقضّ مضجعك طوال الليل.

احترام السلطة وطاعتها، بما في ذلك ما كان سلطة معوجّة! ذلك ما يتطلّبه النوم الجيّد. وما ذنبي أنا إن كانت السلطة تحبّذ السير على قدم عرجاء؟

راع جيّد في نظري دوماً ذاك الذي يقود خرافه إلى المراعي الأكثر خضرة: كذا يمكن التلاؤم مع نوم جيّد.

---

(١) إحالة على ما يرد باطراد في العهد القديم حول نوم الطمأنينة والسلام أنظر مثلا: المزامير ـ ٤/٨: «بسلام أضطجع بل أيضا أنام. لأنك أنت ياربّ منفردا في طمأنينة تسكنني» والأمثال ـ ٣/ ٢٤: «إذا اضطجعتَ فلا تخاف بل تضطجع ويلذّ نومك».

(٢) أنظر العهد القديم؛ الخروج ـ الإصحاح٢٠/ ١٤: «لا تزْن» و١٧: «لا تشْته بيتَ قريبك، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك».

لا أريد تشريفات كثيرة، ولا كنوزاً كبيرة: إنّ ذلك يلهب المرارة والطحال. لكنْ نوماً قلقاً سينام المرء دون سمعة جيّدة وكنز صغير.

إن علاقات محدودة أَحبّ إليّ من رفقة السوء؛ لكن على أن تأتي وتمضي في الوقت المناسب. ذلك هو ما يتلاءم ونوماً جيّداً.

يعجبني كثيراً المساكين بالرّوح أيضاً[1]؛ إنّهم يسهّلون النّوم. سعداء هم وهنيئين، خاصّة إذا ما شهد المرء لهم بالحق في كل أمر.

هكذا ينقضي يوم الرجل الفاضل، لكنني عندما يأتي الليل أحترسُ جيّداً من طلب النّوم! لأنه لا يحبّذ البتة أن يُستدعى، سيّد الفضائل كلها!

بل إنني أفكّر في ما فعلت طوال نهاري وفي ما فكّرت به. مجترّاً بصبر مثل بقرة أسأل نفسي: ماهي التجاوزات العشرة ليومك؟

وما هي المصالحات العشر والحقائق العشر والضحكات العشر التي أدخلت السرور على قلبك؟

ممحِّصاً هكذا ومهدهَداً بأربعين خاطرة يداهمني النوم دفعة واحدة، ذاك الذي لم أطلبه؛ سيّد الفضائل كلّها.

يطرق النوم عيني؛ وإذا عيني قد ثقلت. ويلامس النوم فمي، فيظلّ مفتوحاً.

حقّاً، على نعال خفيفة ناعمة يأتيني، أَحَبُّ اللصوصِ إلى القلب، ويسرق منّي خواطري وأفكاري: متبلّدا أظلّ واقفاً مكاني مثل هذا الكرسيّ.

---

(١) متّى؛ الاصحاح ٥/٣: «طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات».

لكن وقوفي لن يطول بعدها: وإذا أنا مستلقٍ. ـ

ولمّا سمع زرادشت ذلك الحكيم يتحدّث بهذا الكلام ضحك في مابينه وبين نفسه: إذ، وهو يستمع إليه أشرق في ذهنه وضوح جديد. وهكذا تحدّث إلى قلبه:

أحمق في نظري هو هذا الحكيم بخواطره الأربعين؛ لكنّني أظنّه على دراية جيّدة بأمر النوم.

سعيدٌ من يسكن إلى جوار هذا الحكيم؛ إنّ نوماً كهذا لمعْدٍ، وهو قادر على التسرّب حتّى عبر جدار سميك.

هناك سحرٌ يسكن حتّى داخل كرسيِّه. ولا غرابة إذاً أن يجلس أمام خطيب الفضيلة هذا كلّ هؤلاء الفتيان.

حكمته تعني: أن تصحو من أجل أن تنام جيّداً. وحقّاً، لو كانت هذه الحياة خالية من أيّ معنى، وكان عليّ أن أختار سخافة ما لبدت هذه لي أنا أيضاً السخافة الأكثر جدارة بالاختيار.

الآن أصبحت أفهم بوضوح ما الذي كان يبحث عنه المرء أكثر من أيّ شيء في ما مضى عندما كان يبحث عن معلّم فضائل. نوماً جيّداً وفضائل بخصائص زهرة الخشخاش كان المرء يريد.

النوم دون أحلام هي الحكمة بالنسبة لحكماء المنابر المنوّه بهم على الدوام؛ فهؤلاء لم يعرفوا من معنى أفضل للحياة.

واليوم أيضاً ما يزال هناك بعض ممّن يشبهون داعية الفضيلة هذا دون أن يكونوا بمثل صدقه دوما؛ لكنّ زمنهم قد ولّى ومضى، ولن يتسنّى لهم الوقوف طويلا بعد الآن: وهاهم الآن يضطجعون.

طوبى لهؤلاء الناعسين، فهم عمّا قريب سيغفون».

هكذا تكلّم زرادشت.

دعاة الماوراء

لقد حدث لزرادشت في ما مضى أن جنح بوهمه في ما وراء الإنسان مثل كلّ دعاة الماوراء(١). خليقة إلهيّة متألّمة ومعذّبة بدا لي العالم آنذاك.

حلما بدا لي العالم وصنعة إله؛ دخان متعدّد الألوان أمام عينيْ كائنٍ إلهيّ قلِق.

الخير والشرّ واللذّة والألم، وأنا وأنت؛ دخاناً متعدّد الألوان أمام عينيْ مبدع تراءت لي جميعها آنذاك. أراد المبدع أن يحوّل نظره عن ذاته ـ فخلق العالم.

غبطة سكرى يجد المتألّم في تحويل نظره عن ألمه وفي الهروب من نفسه. غبطة سكرى وتبديد للذات تراءى لي العالم ذات مرّة.

---

(١) أنظر: **هذا هو الإنسان** ـ المقدمة: «... بمجرد أن ابتُدعت أكذوبة عالم المُثل تم تجريد الواقع من قيمته ومن معناه ومن حقيقته... «العالم الحقيقي» و«العالم الظاهري» ـ وبعبارة أكثر وضوحا: العالم المبتدَع والعالم الواقعي... إن أكذوبة المُثل ظلت إلى حد الآن اللعنة الحائمة فوق الواقع، وعبرها غدت الإنسانية نفسها مشوهة ومزيّفة حتى في غرائزها الأكثر عمقا ـ تزييف قد بلغ حدّ تقديس القيم المعكوسة المناقضة لتلك التي كان بإمكانها أن تضمن النموّ والمستقبل، والحق المقدّس في مستقبل». عن منشورات الجمل ٢٠٠٣). وفي كتاب «أفول الأصنام» يحمل نيتشه أفلاطون مسؤولية ابتداع هذا العالم الموهوم، أو ما ينعته بـ«الخرافة»؛ «عالم المثل»، ويعتبره بناء على ذلك «منحطا» و«جبانا»: «أفلاطون جبان أمام الواقع، ونتيجة لذلك يبحث له عن ملجئ في المُثل».

هذا العالم الناقص على الدّوام صورة لتناقض أبديّ، والصورة المنقوصة؛ الغبطة السكرى لمبدعه المنقوص ـ هكذا تراءى لي العالم ذات مرّة.

وهكذا جنحت بوهمي إذاً في ماوراء الإنسان مثل كلّ دعاة الماوراء. في ماوراء الإنسان حقّاً؟

آه يا إخوتي، حمقا وصنيعة إنسان، مثل كل الآلهة، كان ذلك الإله الذي ابتدعتُه!

إنساناً كان، ولا شيء غير جزء بائس من إنسان ومنّي أنا: من جمري ورمادي طلع لي ذلك الطيف حقّاً! وليس من الماوراء جاءني!

ما الذي حدث يا إخوتي؟ تحاملت على نفسي، أنا العليل، وحملت رمادي إلى الجبل وابتدعت لي شعلة مضيئة. لكن ها أنّ الطيف يفلت منّي!

ألما سيكون بالنسبة لي وعذابا، أن أعتقد، أنا المعافى الآن في مثل هذا الشبح: ألما سيكون بالنسبة ليَ الآن وإهانة. هكذا أتكلّم إلى دعاة الماوراء.

ألم وعجز؛ ذلك هو ما خلق كلّ العوالم الماورائيّة، وتلك السعادة الحمقاء المقتضبة التي لا يشعر بها سوى أكثر الناس سقماً.

إعياء يريد في قفزة أخيرة أن يبلغ المنتهى، إعياء جاهل في انتفاضة الموت لم يعد يريد حتّى أن يريد: هو الذي ابتدع كلّ الآلهة وكلّ العوالم الماورائيّة.

صدّقوني يا إخوتي! إنّه الجسد الذي يئس من الجسد، والذي يتلمّس آخر الجدران بأصابع عقله المسلوب.

صدّقوني يا إخوتي! إنّه الجسد الذي يئس من الأرض، هو الذي سمع أحشاء الكائن تتحدّث إليه.

وهكذا أراد أن يقتحم آخر الجدران برأسه ـ وليس برأسه فقط ـ، ويمرّ إلى «ذلك العالم».

لكنّ «ذلك العالم» محتجب عن أنظار البشر، ذلك العالم اللاإنساني المجرّد من كلّ صفة بشرية، الذي هو عدم سماويّ؛ وإن أحشاء الوجود لا تتكلّم إلى الإنسان، سوى أن تكون هي ذاتها إنساناً.

حقّاً، إنّه لمن الصعب إقامة الدليل على أيّ وجود، ومن الصعب حمله على الكلام.

أخبروني أيها الإخوة، أليست أكثر الأشياء غرابة هي تلك التي يقع إثباتها على أفضل وجه؟

أجل، هذه الأنا، وتناقض هذه الأنا وبلبلتها هي التي تتحدّث عن وجودها بأكثر صدق، هذه الأنا المبدعة المريدة المقيِّمة، والتي هي مقياس حجم الأشياء وقيمتها.

هذا الكائن الأكثر صدقاً؛ الأنا ـ ينطق بجسده، ويريد جسده حتّى وهو يقول شعرا ويهيم ويخفق بأجنحة مكسورة.

على الدّوام تظلّ تتعلّم كيف تتكلّم بأكثر صدق هذه الأنا: وكلّما تعلّمت أكثر كلّما وجدت مزيداً من الكلمات وعبارات الإجلال للجسد والأرض.

نخوةً جديدة علّمتني أنايَ، وأنا بدوري أعلّم البشر هذه النخوة: لا تدكّوا رؤوسكم في رمل الأشياء السماويّة بعد الآن، بل ارفعوها بحرّية رؤوساً أرضيّة تبتدع معنى للأرض!

إرادةً جديدة أعلّم البشر: أن يريدوا هذه الطريق التي ظلّ الإنسان يسلكها بعفويّة، أن يباركوها وألاّ ينسحبوا متسلّلين جانباً مثل المرضى والمحتضرين!

مرضى ومحتضرين أولئك الذين كانوا يحتقرون الجسد والأرض وابتدعوا العالم السماويّ وقطرات الدّم المخلِّصة(١)؛ لكن هذه السموم القاتمة والحلوة قد أخذوها أيضا من الجسد ومن الأرض!

كانوا يرومون الفرار من بؤسهم، وكانت النجوم بعيدة عنهم، فتنهّدوا إذاً: «آه، لو أنّ هناك طرقاً سماويّة نتسلّل عبرها إلى كيان آخر وسعادة أخرى!» ـ وهكذا ابتدعوا أحابيلهم وجرعة شرابهم الدمويّ(٢)!

وإذا هم الآن يتوهّمون التخلّص من جسدهم ومن هذه الأرض، أولئك الجحودون! لكن لمن يدينون بملاصهم وبتشنّج ونشوة غيابهم؟ إنما لجسدهم ولهذه الأرض.

لكنّ زرادشت حليم تجاه المرضى. وحقّاً لا يغتاظ لهذا الضرب من سلوانهم وجحودهم. ليُشْفوا ويتعافوْا ويتغلبوا على أنفسهم ويبتدعوا لهم جسداً من فصيلة أرقى!

وزرداشت لا يغتاظ أيضاً للنقيه عندما يرنو بنظره بتحنان إلى وهمه، وفي منتصف الليل يتسلّل حائماً حول قبر إلهه: لكنْ مرضاً وعلّةَ جسدٍ تظلّ دموعه في نظري.

---

(١) إشارة إلى التأويل الذي يقدمه بولس عن واقعة صلب المسيح والذي يعتبر أن المسيح قد وهب دمه على الصليب من أجل خلاص البشرية؛ أنظر رسالة بطرس الأولى: ١/ ١٩: «إنكم افتُديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة لتي تقلّدتموها من الآباء، بل بدم كريم كما من حَمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح».

(٢) متّى ٢٦/ ٢٧: «وأخذ الكأس وأعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا».

مرضى كثيرون كان هناك على الدوام بين الشعراء والمجذوبين بالعشق الإلهي؛ بحنق يحقدون على الذي يسعى إلى المعرفة وعلى الفضيلة الجديدة التي إسمها: صدق[1].

على الدّوام يرنون بنظرهم إلى الوراء باتجاه الأزمنة القاتمة؛ ذلك أنّ الأوهام والإيمان كانت شيئاً آخر حقا، فانفلاتات العقل الحمقاء كانت تعدّ من صفات المشابهة الإلهيّة، بينما الشكّ خطيئةً.

أعرفهم جيّداً أولئك الشبيهين بالآلهة: يريدون أن يؤمن الناس بهم، وأن يكون الشكّ خطيئة. وأعرف جيّداً أيضاً ما الذي يؤمنون به بدورهم ويفضّلون الإيمان به أكثر من أيّ شيء آخر.

وفي الحقيقة هم لا يؤمنون لا بالعوالم الماورائيّة ولا بقطرات الدّم المخلّصة؛ بل إنهم هم أيضاً لا يؤمنون بشيء أكثر من إيمانهم بالجسد، وإنّ جسدهم الخاصّ لهو بالنسبة لهم الشيء في ذاته.

لكنّه شيء مريض بالنسبة لهم؛ وبودّهم لو يخرجوا من جلدتهم. لذلك هم يستمعون إلى الذين يكرزون للموت، ويكرزون بدورهم لعوالم الماوراء.

استمعوا بالأحرى إلى صوت الجسد المعافى يا إخوتي: إنّه الصوت الأكثر صدقاً وأكثر نقاءً.

---

(١) الصدق كفضيلة مقابلة للورع والتقوى وحب الخير والاستقامة الأخلاقية، يعلن عنها نيتشه فضيلة جديدة لم تعرفها لا الفلسفة الأرسطية ولا الديانة المسيحية؛ أنظر «**الفجر**»؛ الجزء الخامس، الفقرة ٤٥٦ : «لنلاحظ جيدا أن الصدق لا ينتمي لا إلى الفضائل السقراطية ولا إلى الفضائل المسيحية، وهي ما تزال غير تامة النضج وغالبا ما يتم الخلط بينها وبين أشياء وأخرى وعدم الاعتراف بها، بالكاد تكون واعية بنفسها ـ شيء في طور الصيرورة بإمكاننا أن نشجعه أو أن نثبطه، وذلك بحسب مشاعرنا».

بأكثر صدق يتحدث الجسد المعافى وبأكثر نقاء، هو الأكثر كمالاً، قائم الزاوية: إنّه يتكلم بمعنى الأرض.

هكذا تكلّم زرادشت.

عن المستهينين بالجسد

للمستهينين بالجسد أريد أن أقول كلمتي. ليس عليهم أن يتعلّموا من جديد ولا أن يعيدوا تعليم الآخرين، بل فقط أن يقولوا وداعاً لجسدهم ـ وأن يصيروا بُكما إذاً.

«جسد وروح أنا» ـ هكذا يتكلّم الطفل. ولِم لا ينبغي على الناس أن يتكلّموا مثل الأطفال؟

لكنّ اليقِظ العارف يقول: جسد أنا بكلّي وكلّيتي ولا شيء غير ذلك؛ وليست الروح سوى كلمة لتسمية شيء ما في الجسد.

الجسد عقل عظيم، تعدّدٌ ومعنى موحّد، حرب وسلام، راع وقطيع.

أداةٌ لجسدك هو عقلك الصغير ياأخي هذا الذي تسمّيه «روحا»، أداة صغيرة ولعبة لعقلك الكبير.

تقول: «أنا»، وتشعر بالفخر لهذه الكلمة. لكنّ ما هو أعظم هو ذلك الذي لا تريد أن تؤمن به، ـ جسدك وعقله الكبير: ذلك العقل لا يقول «أنا»، بل يفعل «أنا».

ما يشعر به الحسّ، وما يميّزه العقل لا غاية له في ذاته البتّة. لكنّ الحسّ والعقل يحاولان إقناعك بأنّهما غاية ومنتهى كلّ الأشياء: إلى هذا الحد يصل بهما الغرور.

أدوات ولُعب هما الحس والعقل: خلفهما تكمن الذّات. والذّات هي الأخرى تبحث بعيني الحواسّ، وتصغي أيضاً بأذن العقل.

على الدوام تصغي الذات وتبحث: تقارن، تُخضِع، تستولي، تدمّر. تسود وهِي صاحبة السيادة على الأنا أيضا.

وراء أفكارك ومشاعرك ياأخي، يقف سيّد ذو سطوة وسلطان وحكيم غير معروف إسمه الذات. جسدك مأواه، وجسدك هو.

ثمّة أكثر حكمة في جسدك ممّا في أفضل ما لديك من حكمة. ومن الذي يعرف إذاً ما حاجة جسدك بالذات إلى أفضل ما لديك من الحكم؟

ذاتُ ـ ك تسخر من أنا ـ ك ومن قفزاتها المزهوّة. «ماذا تعني بالنسبة لي كلّ قفزات وتحليقات الفكر هذه؟» تقول لنفسها. «الطريق الملتوية باتجاه أهدافي. إنّني رسن «الأنا» والملقّن الذي يهمس لها بأفكارها».

تقول الذات للأنا: «ذوقي الآن ألما!» فتتألم الأنا وتشرع في التفكير في وسيلة لدرء الألم ـ ومن أجل هذا بالذات يكون **عليها** أن تفكّر.

تقول الذات للأنا: «ذوقي الآن لذّة!» فتلتذّ وتشرع في التفكير في وسيلة تعيد إليها مرارا هذه اللذّة ـ ومن أجل هذا بالذات يكون **عليها** أن تفكّر.

كلمةً أريد أن أقولها للمستهينين بالجسد. أن يحتقروا، فذلك ما يصنع صفة اعتبارهم. لكن أي شيء هو هذا الذي ابتدع الاعتبار والاحتقار والقيمة والإرادة؟

الذات المبدعة هي التي ابتدعت الاعتبار والاحتقار، وابتدعت اللذة والألم. الجسد المبدع هو الذي ابتدع لنفسه العقل يداً لإرادته.

ذاتَ - كم تخدمون حتى في حمقكم وفي احتقاركم أيها المستهينون بالجسد. أقول لكم: إن ذاتكم ذاتها تريد أن تموت وتدبر عن الحياة.

لم يعد باستطاعتها أن تبلغ ذلك الذي تريده أكثر من أيّ شيء؛ - أن تبدع ما يفوق منزلتها؛ ذلك هو ما تريده أكثر من أيّ شيء، وذلك هو المبتغى الأول والأخير لحماستها المتوقّدة.

لكن قد فاتها الأوان لذلك - وهكذا تريد ذاتكم أن تهلك وتضمحلّ، أيها المستهينون بالجسد.

ذاتُكم تريد أن تهلك وتضمحل، لذلك غدوتم مستهينين بالجسد! إذ لا طاقة لكم بعد الآن بأن تبدعوا ما يفوق منزلتكم!

ولذلك تصبون الآن جام حنقكم على الحياة وعلى الأرض. حسَد سريّ يكمن في النظرات الشزراء لاحتقاركم.

أنا لا أمضي على طريقكم أيها المستهينون بالجسد! فلستم جسور العبور إلى الإنسان الأعلى في نظري!

هكذا تكلم زرادشت.

عن صبوات الأفراح والآلام

عندما تكون لك فضيلة يا أخي، وتكون تلك فضيلتَك، فإنه لن يكون هناك من أحد يقاسمك إياها.

أكيد أنك تريد أن تسمّيها بإسم وتلاطفها؛ تريد أن تجذبها من أذنها وتعابثها وتتسلّى معها.

لكن ها أنّك تتقاسم إسمها مع الشعب، وها أنت قد غدوت شعبا وقطيعاً بفضيلتك!

كان من الأفضل لو أنك قلت: «لا يحيط به النطق ولا الإسم ذلك الذي يترع روحي عذابا وحلاوة، والذي هو أيضاً جوع أحشائي».

لتكن فضيلتك أرقى من حميميّة الإسم: وإذا ما كان عليك أن تتكلّم عنها، فلا تخجل من أن تُلجلج في النطق بها.

فتحدّث ولجلج هكذا: «هذا متاعي **أنا**، وهذا ما أحبّ، هكذا يعجبني حقّاً، وهكذا فقط **أنا** أريد متاعي.

لا شرعاً إلهيّاً أريده، ولا قانوناً وحاجةً بشريّين: لا مرشداً يدلّني إلى طريق الجنة وعوالم فوقأرضيّة.

فضيلة أرضيّة هي تلك التي أحبّ: ليس فيها سوى القليل من الفطنة، وأقلّ ما يمكن من صواب العموم.

لكنّ هذا الطائر قد بنى عشه لديّ: لذلك أحبّه وأعزّه؛ وها هو يحضن الآن بيضاته الذهبيّة لديّ».

هكذا ينبغي أن تلجلج وتمتدح فضيلتك.

في ما مضى كانت لك صبوات وكنت تدعوها شرّيرة. أمّا الآن فليس لديك سوى فضائلك؛ وقد نبتت من صلب صبواتك.

لقد وضعت هدفك الأسمى في قلب هذه الصبوات؛ وها قد غدت فضائلَك وأفراحَك.

وسواء أكنت من نوع الغضوبين أو من نوع الشهوانيّين أو ذوي الإيمان الساخط أو المتعطشين للانتقام:

فإنّ كلّ صبواتك ستغدو فضائل بالنهاية، وكلّ شياطينك ملائكة تصير.

في ما مضى كانت لديك كلاب متوحّشة في قبوك؛ لكنها تحولت بالنهاية إلى عصافير ومغنّيات بأصوات عذبة.

من سُمّك أعددت لنفسك بلْسَمك؛ قد حلبت بقرة حزنك ـ وها أنت الآن تشرب حليب ضرعها اللذيذ(١).

---

(١) أنظر «**إنساني مفرط الإنسانية**»؛ الكتاب الخامس، الشذرة ٢٩٢: «. . .لم تتعلم بعد أنه ليس هناك من عسل أكثر حلاوة من حليب المعرفة، وأن سحب الأسى التي تحلق فوقك لا بد أن تكون بالنسبة لك الضرع الذي ترتشف منه الحليب الذي ينعشك». نلاحظ أن نيتشه يماهي بين العسل والحليب. وهذه فكرة قديمة لدى نيتشه منذ كتاباته الأولى؛ مثلا في التعليق عن أطروحة تلميذه القديم جاكوب فاكرناغلس «حول أصول البراهمانية» وعلاقة الانتشاء بالمسكرات بحالة الانتشاء الروحي والوجد والمشاعر الروحانية. وكل من فاكرناغلس ونيتشه يؤكدان على أن الإغريق القدامى لم يكونوا يتناولون مسكرات من الخمر، بل يجدون نشوتهم في الحليب والعسل. نيتشه: «كان اليونانيون القدامى يعتبرون الحليب والعسل غذاء الآلهة ـ إذ لم يكن ذلك الزمن زمن شراب خمرة». ـ عن ماركو=

لن يتأتّى منك أيّ شرّ بعد الآن، عدا ذلك الشرّ الذي يتولّد وينمو من اقتتال فضائلك.

إن كنت محظوظاً ياأخي فستكون لك فضيلة **واحدة** وليس أكثر: هكذا تمضي خفيفا فوق الجسر.

إنه امتياز أن تكون لك فضائل كثيرة، لكنه عبء ثقيل؛ وهناك من مضى إلى الصحراء وقتل نفسه لأنّه تعب من كونه قتالا وساحة قتال للفضائل.

هل الحرب والقتال شرّ يا أخي؟ لكنّ ذلك ضروريّ هذا الشرّ، ضروريّ هو الحسد وسوء الظنّ والثلب والافتراء بين فضائلك.

أنظر كم هي متعطّشة كلّ واحدة من فضائلك إلى نيل أقصى ما يمكن أن تنال؛ تريد عقلك بكلّيته؛ تريده أن يغدو المنادي بصوتها، وتريد أن تستحوذ على طاقاتك كلّها في الغضب والحقد والحبّ.

غيورة كلّ فضيلة من كلّ فضيلة أخرى، والغيرة أمر فظيع. حتّى الفضائل يمكنها أن تهلك من جرّاء الغيرة، هي الأخرى.

والذي التف عليه لهب الغيرة يسلك سلوك العقرب التي تنتهي بأن توجّه شوكتها السامّة إلى نفسها.

أما رأيت أبداً فضيلة تشنّع بنفسها وتوجّه شوكتها السامة إلى نفسها يا أخي؟

إنّ الإنسان شيء لا بدّ من تجاوزه: لذلك عليك أن تحبّ فضائلك؛ فهي التي تودي بك إلى حتفك.

هكذا تكلّم زرادشت.

بروزوتي: «التضحية والقوة»؛ عن قراءة نيتشه لمقالة جاكوب فاكرناغلس.
Opfer und Macht, Zu Nietzsches Lektüre von Jacob Wackernagels Über den Ursprung des Brahmanismus. in Nietzsche Studien Band 22, 1993.

عن المجرم الشاحب

لا تريدون القتل قبل أن يحني الحيوان رقبته أيها القضاة ومقدّمي القرابين؟ انظروا، ها هو المجرم الشاحب قد حنى رقبته؛ وعينه تنطق بالاحتقار الأكبر.

«أنايَ شيء ينبغي تجاوزه: أناي هي الاحتقار الأكبر الذي أكنّه للبشر»؛ هكذا تتكلّم تلك العين.

أن يقاضي الجاني نفسه بنفسه فتلك لحظته الأرقى: لا تدعوا الرفيع يقع مجدّداً إلى حضيضه!

ما من خلاص لذلك الذي يتعذّب بنفسه سوى في موتة عاجلة.

ليكن قتلكم شفقةً أيها القضاة لا انتقاماً. وفيما أنتم تقتلون اعملوا على أن تعطوا بأنفسكم مبرّراً للحياة!

ليس كافيا أن تتصالحوا مع الذي تقتلونه. ليكن حزنكم حبّاً للإنسان الأعلى: هكذا تبررون بقاءكم على قيد الحياة!

«عدو» ينبغي أن تقولوا، وليس «شرّيراً»؛ «مصاب» ينبغي أن تقولوا، وليس «وغدا»، «أحمق» ينبغي أن تقولوا وليس «خطيئاً».

وأنت، أيها القاضي ذو العباءة الحمراء، لو أنك قلت بصوت مسموع ما يجول بصمت في خاطرك، فسيصرخ كل امرء: «لتُبعدوا عنّا هذه القذارة والدودة السامّة!».

لكنّ الفكرة شيء والفعل شيء، وشيء آخر هي صورة الفعل؛ وبينها لا يتحرك دولاب السببيّة.

صورةٌ هي التي جعلت هذ الرجل الشاحب شاحبا. لقد كان ندّاً لفعلته عندما أتى تلك الفعلة؛ لكنّ صورتها هي التي استعصى عليه تحمّلها بعد القيام بها.

والآن لم يعد يرى في نفسه **سوى** مجرم. جنوناً أسمّي هذا: لقد تحوّل العنصر الشاذّ لديه إلى جوهر.

السرب يسحر الدجاجة؛ والفعلة التي فعلها ذهبت بعقله المسكين ـ جنون **ما بعد** الجريمة أسمّي ذلك.

استمعوا أيّها القضاة! هناك جنون آخر أيضاً: هو جنون **ما قبل** الجريمة. آه، إنّكم لا تغوصون بما يكفي من العمق في أغوار هذه النفس!

هكذا يتكلّم القاضي الأحمر: «بم أجْرَمَ هذا المجرم؟ كان يريد أن يسرق؟» أمّا أنا فأقول لكم: دماً كانت تبتغي نفسه وليس غنيمةً: لقد كان متعطّشاً لغبطة السكّين!

لكنّ عقله البائس لم يفقه هذا الجنون، وهكذا أقنعه محدّثا إياه بهذا الكلام: «مالك والدم؟ ألا تريد غنيمة على الأقلّ من وراء هذا؟ ثأراً تثأره؟».

وكان أن أصغى إلى عقله البائس: بمثل الرصاص وقع عليه حديثه، فنهب عندما قتل. لأنّه لم يكن يريد أن يخجل من حمقه.

وها هو رصاص ذنبه يحطّ بثقله عليه من جديد، وإذا عقله البائس يغدو متحجّراً من جديد، كسيحاً وثقيلاً.

لو أنّه يستطيع فقط أن يحرّك رأسه، فسيقع ذلك العبء الذي فوقه، لكن من ذا الذي سيحرّك هذه الرأس؟

أيّ إنسان هو هذا؟ ركام من الأمراض تنتشر في العالم عبر هذا العقل: فهي تريد أن تظفر بفريستها.

أيّ إنسان هو هذا؟ كتلة متشابكة من الأفاعي لا تجد الراحة في ما بينها، فتتفرّق إذاً لتبحث عن فريستها في الأرض.

أنظروا هذا الجسد البائس! وذلك الذي يعانيه ويبتغيه قد تأوّلته النفس تأويلها الخاص ـ رغبة في القتل ولهفة على غبطة السكين تأوّلت ذلك الأمر.

من يغدو الآن مريضاً، إنما يقع عليه الشرّ الذي هو الآن شرٌّ: إنّه يريد أن يحدث ألما بذلك الذي يؤلمه. لكن في ما مضى كانت هناك أزمنة أخرى وخير آخر وشرّ آخر.

في ما مضى كان الشكّ شرّاً وكذلك إرادة الذات. في ذلك الزمن جُعل من المرضى كفرة وساحرات: وككفرة وسحرة كانوا يتألمون ويريدون الإيلام.

لكنّ هذا أمر لا يجد طريقاً إلى أسماعكم؛ إنّه يسيء إلى خيركم، تقولون لي. لكن ما الذي يعنيني في خيركم!

ليس شرّكم، بل الكثير من خيركم هو الذي يقرفني في الحقيقة. ولكم وددت لو أنّ بكم جنوناً تجدون فيه هلاككم مثل ذلك المجرم الشاحب!

الحق أقول لكم، كنت أودّ لو أنّ جنونكم يدعى حقيقة أو وفاء أو

عدالة: لكن لديكم فضيلتكم لكي تعيشوا طويلا وفي كنف رضى بائس يدعو إلى الشفقة.

سياج على حافة نهر أنا: ليمسك بي من استطاع أن يلمسني! لكنّني لست عكازاً تتوكؤون عليه. -

هكذا تكلم زرادشت.

عن القراءة والكتابة

من بين كلّ ما هو مكتوب لا أحبّ غير ذلك الذي يكتبه امرؤ بدمه. اكتبْ بالدم؛ وستكتشف أنّ الدم عقل.

ليس سهلا بالمرة فهم دم غريب(١): إنّني أمقت أولئك القرّاء الخاملين.

---

(١) حول العلاقة بين ما يُكتب وما يعاش، وحول استحالة الفهم دون تمثل للمكتوب من خلال التجربة الحياتية المماثلة يمكننا مراجعة كتاب «**هذا هو الإنسان**» في مواقع عديدة، منها على وجه الخصوص فصل: ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة: «ليس بإمكان أحد بالنهاية أن يسمع من الأشياء، بما في ذلك الكتب، أكثر مما يعرف مسبقا. فما لم يكن للمرء من معرفة به عن تجربة معاشة، لا يمكن له أن يسمعه»، «. . . وعندما عبّر لي الدكتور هاينرش فون شتاين ذات يوم عن تذمّره الصادق من أنه لم يفهم كلمة واحدة من زرادشتي، أجبته بأنه لا بأس في ذلك: أن يكون الواحد قد فهم ست جمل من زرادشت؛ بمعنى أن يكون **قد عاشها** (التشديد من عندنا)، فإن ذلك سيرفعه إلى مقام فوق منزلة الفانين ليس بإمكان «إنسان حديث» أن يرتقي إليه. كيف يمكنني إذا، مع هذا الحس بالمسافة أن أطمع في أن أُقرأ من قِبل هؤلاء «الحديثين» الذين أعرفهم!
تبدو الكتابة إذاً كما لو أنها عامل فصل لا وصل بين الكاتب والقارئ؛ عامل عزلة ووحدة. هذه الوحدة يعبر عنها نيتشه في نفس الكتاب: «كل من يعتقد أنه فهم شيئا من كتاباتي فقد فهم منّي ما فهم طبقا لصورته الخاصّة، وفي أغلب الأحيان شيئا مناقضا لي تماما مثل اعتباري «مثاليا». أما من لم يفهم مني أيّ شيء فقد أنكر حتى إمكانية أن أدخل في الحسبان. . . . إن زرادشت بكليته نشيد مدائحي للعزلة، أو للنقاوة، إذا ما تم فهمي جيّدا». «وحدهم المصطفون هم الذين يحظون بمثل هذه الأشياء. . .»، «حقا أقول لكم إنه لن يكون غذاء يقاسمنا إياه النجسون! جمرا سيحسبون ذلك الذي يتناولونه،=

وإن من يعرف القارئ لن يفعل بعدها شيئا من أجله. قرن آخر من القراء، وسيغدو العقل ذاته نتنا. أن يغدو من حقّ أيّ كان أن يتعلم القراءة، فذلك ما سيفسد بمرور الزمن لا الكتابة وحدها، بل والتفكير أيضاً.

في ما مضى كان العقل إلهاً، ثم تحوّل إنساناً، وهاهو الآن يغدو رعاعاً.

من يكتب دما وأحكاماً لا يريد أن يُقرأ، بل أن يُحفظ عن ظهر قلب.

وإن أقصر طريق في الجبل لهي تلك التي تمضي من قمّة إلى قمّة: لكن لا بدّ لك من ساقين طويلتين لأجل ذلك. على الأحكام أن تكون قمّة؛ والذين يُتوجه إليهم بالكلام عمالقةً ينبغي أن يكونوا وذوي قامات سامقة(*).

الهواء خفيف ونقيّ والخطر قريب، والعقل مفعم بخبثٍ مرِحٍ: كذا الأشياء كلها في توافق وانسجام.

أريد عفاريت من حولي، لأنني شجاع. إنّ الشجاعة التي تطرد الأشباح تختلق عفاريت لنفسها ـ الشجاعة تريد أن تضحك.

=وستحترق به أشداقهم». «لكن ما الذي يقوله زرادشت لنفسه وهو يؤوب للمرة الأولى إلى وحدته من جديد؟ تماما عكس ما يمكن أن يقول أي «حكيم» أو «قديس» أو مخلّص» أو أيّ من المنحطّين الآخرين في مثل هذا الظرف... إنه لا يتكلم بطريقة مختلفة فحسب، بل إنه مختلف أيضاً (التشديد من عندنا)...: «وحيدا أمضي الآن يا تلامذتي! وأنتم أيضا ستمضون الآن وحيدين! هكذا أردت لكم».

(*) يحضر في ذهني أبو القاسم الشابي وبإلحاح، وأنا أترجم هذا الكلام الشبيه بالرجم والصواعق: «نشيد الجبار»، «النبي المجهول»!!

لم يعد لي من إحساس بما تحسون: وهذه السحابة التي أراها تحتي، هذه القتامة والثِّقل التي أضحك منها ـ تلك هي سحابة غيثكم.

ترنون بأعينكم إلى الفوق وأنتم تطلبون العُلى، وأنظر إلى الأسفل لأنني في الأعالي.

من منكم بمستطاعه أن يضحك ويكون في الوقت نفسه ساميا؟

الذي يصعد إلى الجبال الشواهق، يضحك من كلّ المآسي، مسرحيات كانت أم حقيقيّة.

شجعان، سادرين، ساخرين، عنيفين ـ هكذا تريدنا الحكمة: إنّها أنثى، ولا تحبّ دوماً غير المحارب من الرجال.

تقولون لي: «إنّ الحياة عبء ثقيل». لكن ما جدوى نخوتكم ضحًى والاستسلام الذي يتلبّس بكم مساءً؟

إنّ الحياة عبء ثقيل؛ لكن لتكفوا عن مثل هذه الرقّة! إننا جميعنا حمير وأتانات جيّدة لحمل الأثقال.

ما الذي يجمعنا ببرعم الوردة الذي يرتعش لأنّ قطرة ندى وقعت على جلدته؟

إنّها الحقيقة: نحن نحب الحياة، لا لأننا تعوّدنا على الحياة، بل لأننا تعودنا على الحبّ.

هناك دوما شيء من الجنون في الحبّ. لكن هناك دوما شيء من العقل في الجنون أيضا.

وأنا الذي أكنّ مودّة للحياة، أنا أيضا تتراءى لي الفراشات وفقاقيع الصابون وما هو على شاكلتها من بني البشر أكثر الكائنات دراية بالسعادة.

إن رؤية هذه الأرواح الصغيرة الخفيفة الحمقاء اللطيفة التي تخفق طائرة لهي ما يستفزّ دموع زرادشت وأناشيده.

إنني لن أؤمن إلاّ بإله واحد يكون قادرا على الرقص.

وعندما رأيت شيطاني وجدته جديّاً، متقنا، عميقا، ذا أبهة؛ كان صورة لروح الثقل. إنه هو الذي يجعل كل الأشياء تسقط. كلا، ليس بالحنق، بل بالضحك يقتُل المرء. هبّوا إذاً، ودعونا نقتل روح الثقل(١)!

لقد تعلمت المشي؛ ومنذئذ صرت أدع نفسي أتمشّى. وتعلّمت الطيران؛ ومنذئذ لم أعد أنتظر أن أُدفع كي أتحرك من موقعي.

أنا الآن خفيف؛ الآن أطير، الآن أرى نفسي دون منزلتي، الآن يرقص إله من خلالي.

هكذا تكلّم زرادشت.

---

(١) سيعود نيتشه إلى موضوع روح الثقل في فصول لاحقة؛ أنظر خاصة فصل «روح الثقل» من الكتاب الثالث. أنظر أيضا «**المعرفة المرحة**»؛ الكتاب الخامس ـ الفقرة ٣٨٠: «المسافر يتحدث»: إن السؤال المطروح هو هل نستطيع حقا أن نبلغ الذرى التي نريد بلوغها. إن هذا الأمر يبدو مرتبطا بجملة من الشروط؛ ويظل المهم والأساسي هو أن نعرف إلى أي حدّ نحن خفيفون أم ثقيلون؛ إشكال «ثقلنا الخصوصي». على المرء أن يكون خفيفا جدا كي يستطيع الدفع بإرادة المعرفة لديه إلى هذه الذرى وفي الآن نفسه إلى ما وراء حدود الزمن الذي يعيش فيه... على المرء أن يتخلص من الكثير من القيود التي تجثم بثقلها علينا نحن أوروبيو اليوم، تكبلنا وتشدنا إلى التحت؛ تجعلنا ثقيلين».

عن شجرة الجبل

لمحت عين زرادشت فتى كان يتحاشاه دوما. وذات مساء، بينما كان يتمشى وحيدا عبر الجبال المحيطة بالمدينة التي تدعى «البقرة المرقّطة»، ها هو يعثر في تجواله على ذلك الفتى وكان يجلس مستندا إلى جذع شجرة يرمق الوادي من تحته بنظرات متعبة. وضع زرادشت يده على جذع الشجرة التي كان يجلس إليها الفتى وخاطبه قائلا:

«لو أردتُ أن أرجّ هذه الشجرة بيدي لما استطعت.

لكن الريح التي لا نرى تعذّبها وتحني هامتها كيفما شاءت. ونحن تعذّبنا أفظع الأيادي الخفيّة وتحني قامتنا».

فنهض الفتى فزِعا وقال: «إنني أسمع زرادشت، وللساعة كان قد خطر بذهني».

«وما الذي أفزعك هكذا إذاً؟ أجابه زرادشت ـ إنّ الإنسان مثله مثل الشجرة.

كلما رنا إلى الأعالي وإلى النور إلاّ ونحَتْ جذوره إلى التوغّل في الأرض، في التحت، في العتمة والعمق ـ في الشرّ».

«أجل، في الشرّ!» صاح الفتى. «كيف استعطت أن تسبر أغوار نفسي؟».

فابتسم زرادشت وقال: إنّ بعض الأنفس لا يمكن اكتشافها البتّة، إلا أن يكون على المرء أولا أن يبتدعها».

«نعم، في الشرّ!» صاح الفتى ثانية.

«حقا تكلمت يا زرادشت. لم أعد أثق بنفسي منذ أن صرت أريد بلوغ الأعالي، ولم يعد يثق بي أحد. كيف حصل ذلك يا ترى؟

إنني أتغيّر بسرعة فائقة: يومي ينقض أمسي، وغالبا ما أقفز فوق الدرجات وأنا أصعد، ـ وذلك هو ما لا تغفره لي أيّة درجة[(١)].

وعند بلوغي القمّة، أجدني دوما وحيداً. لا أحد يكلّمني، وصقيع الوحدة يجعلني أرتجف. أي شأن لي في الأعالي إذاً؟

احتقاري وحنيني ينموان يداً بيد؛ وكلّما ارتفعت أكثر ازداد احتقاري لذلك الذي يصعد. أي شأن له في الأعالي إذاً؟

لكم يخجلني صعودي وتعثري! ولكم أسخر من نهيجي الحادّ! لكم أنا متعب في الأعالي!

وهنا صمت الفتى. أما زرادشت فظل يرمق الشجرة التي كانا يقفان إليها، وتكلم قائلا:

هذه الشجرة تقف وحيدة هنا فوق الجبل؛ لقد امتدت عاليا فوق الإنسان والحيوان.

---

(١) أنظر **المعرفة المرحة/** «فكاهة ومكر وانتقام» الفقرة ٢٦: «قسوتي»:
عليّ أن أمضي متسلقا مائة درجة
عليّ أن أمضي صاعدا وأسمعكم تنادون:
«قاس أنت! فهل نحن من حجر؟».
عليّ أن أمضي متسلقا مائة درجة
ولا أحد يحبّ أن يكون درجة.

ولو أرادت الكلام لما وجدت أحدا ليفهمها؛ لطالما نمت وامتد علوها.

والآن هي ذي تنتظر، وتنتظر ـ ما الذي تنتظره يا ترى؟ إنها تسكن قريبا جدّاً من موطن السحب: لا شكّ أنها تنتظر أوّل صاعقة؟».

ولما تكلم زرادشت بهذا الكلام، صرخ الفتى ملوّحاً بحركات متوترة: «أجل، حقّاً تقول يازرادشت. لقد كنت أهفو إلى هلاكي عندما أردت الصعود، وأنت هو الصاعقة التي كنت أنتظرها! أنظر، أيّ شيء غدوتُ منذ أن ظهرتَ لنا؟ حسدي لك هو الذي حطمني!» هكذا تكلّم الفتى وهو يبكي بحرقة. لكنّ زرادشت أحاطه بذراعه وقاده ليمضيا معاً.

وبعد أن مضيا شوطا معا شرع زرادشت في الكلام هكذا:

«إنّ قلبي يتفتّت لهذا الأمر الذي أنت فيه. وبأبلغ مما تقول كلماتك تحدثني عيناك بمدى الخطر الذي أنت فيه.

أنت لست حرّاً بعد، إنك ما تزال تبحث عن الحريّة. مرهقاً أرقاً جعلك سعيك هذا.

تريد الصعود إلى أعالي الفضاء الرحب، وروحك تتوق إلى النجوم. لكنّ غرائزك السيئة هي أيضاً تتوق إلى الحرية.

كلابك المتوحشة تريد الخروج إلى الفضاء الرحب؛ إنها تنبح غبطة في قبوها عندما يكون عقلك متطلعا إلى نسف كلّ السجون.

سجيناً ما تزال في نظري؛ سجين يهفو بخياله إلى الحرية: يالنفس مثل هذا السجين؛ إنها تغدو ذكيّة، لكنها ماكرة وخبيثة أيضاً.

على متحرّر العقل أن يطهّر نفسه أيضاً. كثيرا من السجن ومن الأوحال ما يزال يحمل في داخله؛ نقيةً لا بدّ أن تغدو عينه أيضاً.

أجل، أعرف المخاطر التي تحدّق بك. لكنني أناشدك باسم محبتي وأملي: لا تلق بمحبتك وبأملك!

نبيلا مازلت تشعر بنفسك، ونبيلا مازالت في أعين الآخرين، أولئك الحانقون عليك الذين يقذفونك بنظرات مسعورة. ولتعلم أنّ للجميع نبيلا ما[1] يقف دوما عقبة في طريقهم.

للإنسان الصّالح أيضا نبيل يقف عقبة في طريقه: وحتّى عندما يدعونه صالحا فإنما يريدون بذلك أن يزيحوه جانبا.

شيئاً جديداً يريد النبيل أن يبدع وفضيلةً جديدةً. بينما الإنسان الصالح يريد القديم، وأن يظل القديم مصانا.

لكنّ الخطر الذي يحدّق بالنبيل ليس أن يغدو صالحا، بل أن يغدو وقحا، ومستهزئاً، ومخرّبا.

آه، لكم عرفت من نبلاء أضاعوا أرقى آمالهم، وغدوا بعدها يفتَرون على كلّ الآمال السامية!

والآن يعيشون وقحين في ملذّات آنية قصيرة، وقلما يرنون إلى هدف في ما وراء اليوم الذي هم فيه.

«الروح رغبة شبِقة هي أيضاً» ـ هكذا كانوا يقولون. وإذا روحهم ينكسر جناحاها؛ وإذا هي الآن تتنقّل زاحفة ملطخة بما تقضمه.

---

(١) النبالة هنا ليست بمعنى اللقب الاجتماعي الأرستقراطي؛ أي نبالة مرتبة اجتماعية أو «نبالة دم» موروثة، بل هي تلك «النبالة الجديدة» التي تتحدد بالأخلاقيات الجديدة التي يضعها نيتشه؛ أنظر فصل «الألواح القديمة والألواح الجديدة» الذي سيرد لاحقا.

في ما مضى كانوا يحلمون بأنفسهم أبطالا؛ والآن، عبّاد ملذّات غدوا. غمّ وهول هو البطل الآن في أعينهم.

لكنّني أناشدك باسم محبتي وأملي: لا تلق بالبطل الذي في قلبك! واجعل أملك الأسمى أمرا مقدّسا!

هكذا تكلّم زرادشت.

عن دعاة الموت

هناك دعاة يكرزون للموت: والأرض مليئة بأولئك الذين ينبغي أن يكرز فيهم للإعراض عن الحياة.

مليئة هي الأرض بالفائضين عن اللزوم، والحياة قد داخَلَها الفساد بسبب هذا الفائض من الفائضين. لكن «الحياة الخالدة» طُعما يستدرَجهم إلى الارتحال عن هذه الحياة!

«صُفر»؛ هكذا يسمي الناس دعاةَ الموت، أو «سود». لكنني أريد أن أظهرهم لكم تحت ألوان أخرى.

أولئك هم الفظيعون الذين يحملون الحيوان المفترس في داخلهم ولا خيار لهم سوى الشهوة أو الافتراس الذاتي. لكنّ شهوانيتهم هي أيضاً نهش وافتراس للذات.

إنهم لم يبلغوا بعد مرتبة الإنسان أولائك الفظيعون: فليكرزوا للإعراض عن الحياة، وليرحلوا عنها!

ذووا الأرواح المسلولة هم هؤلاء: لا يكاد واحدهم يرى نور الحياة حتى يشرع في الموت وفي التوق إلى تعاليم العياء والزهد في الحياة.

يودون لو أنهم يموتون، وعلينا أن نقبل بإرادتهم! لنحترس من إيقاظ هؤلاء الموتى ومن تحطيم هذه النعوش المتحرّكة!

هؤلاء الذين إذا ما التقوا في طريقهم بمريض أو عجوز أو جثة، يقولون في الحين: «باطل هي الحياة!»[(١)].

لكنهم هم الباطلون وكذلك أعينهم التي لا ترى من الوجود غير ذلك الوجه الواحد.

ملفوفون داخل كآبة ثقيلة ومتلهفون على الصدف الصغيرة التي تجلب الموت؛ هكذا يظلوا ينتظرون وهم يصرّون بأسنانهم.

أو أنهم أيضا: ينقضّون على قطع الحلوى ويسخرون في الوقت نفسه من صبيانيّتهم: يتعلقون بقشّة حياتهم ويسخرون من كونهم ما زالوا يتعلّقون بقشّة.

حكمتهم هي التي تقول: أحمق هو من يظلّ على قيد الحياة، لكننا على غاية من الحمق! وذلك بالضبط هو الأكثر حمقا في الحياة!»[(٢)].

«عذاب، ولا شيء سوى عذاب هي الحياة»[(٣)] ـ هكذا يقول آخرون، وهم لا يكذبون: فلتعملوا إذاً على أن تكفّوا عن الحياة! ولتعملوا إذاً على أن تضعوا حدّا لحياتكم هذه التي ليست سوى عذاب!

---

(١) إشارة إلى المقولة الإنجيلية «الكل باطل وقبض الريح»، أو «باطل الأباطيل، الكل باطل».

(٢) عن موضوع «الحياة» والعلاقة التي يقيمها نيتشه بين الحياة والحكمة، والحياة والحمق أنظر ما سيطوره في فصلي «نشيد للرقص» و«نشيد آخر للرقص». أنظر كذلك كتاب أفول الأصنام؛ فصل تسكعات رجل غير ملائم للعصر. الفقرة ١٧: «إن ذوي العقول الأرفع، وبشرط أن يكونوا أكثر الناس شجاعة، يعيشون أيضا أكثر المآسي ألما؛ إلا أنهم ومن أجل ذلك بالذات يجلّون الحياة لأنها تمنحهم صداميّة أكبر الخصوم».

(٣) مرة أخرى تلميح إلى ما يرد في مواقع من الأناجيل. أنظر على سبيل المثال «المزامير» من العهد القديم؛ المزمور التسعون: «صلوات لموسى رجل الله»: ١٠ ـ ١١: «أيام سنيّنا سبعون سنةً؛ وإن كانت مع القوّة ثمانون سنة وأفخرها تعبٌ وبليّةٌ».

هكذا تقضي تعاليمهم: «عليك أن تقتل نفسك بنفسك! عليك أن تنجو بنفسك من نفسك!».

«اللذة خطيئة» ـ هكذا يقول البعض من أولئك الذين يكرزون للموت ـ «لننسحب جانبا ولا نلد ولداً!».

«أمر مرهق أن يلد المرء ولدا»، يقول الآخرون، «فلِم الإنجاب إذاً؟ إذ لا ينجب المرء سوى أشقياء!» وهؤلاء أيضاً دعاة يكرزون للموت.

«الشفقة أمر ضروري»، يقول صنف ثالث. «فلتأخذوا ما أملك! ولتأخذوا ما به أنا أنا! وبذلك يتضاءل ما يشدّني إلى الحياة!».

وإذا ما كانت شفقتهم عميقة وجذرية فسيعملون على تنفير ذويهم من الحياة؛ سيكونوا شرّيرين ـ وسيكون ذلك هو خيرهم الحقيقيّ.

لكنّهم يريدون الملاص من الحياة؛ فما ضرّهم أن يحكموا بقيودهم وهباتهم رباط الآخرين إليها!

وأنتم أيضا أيّها الذين لا تعدو حياتكم كونها كدّا مجهدا وقلقا: ألم يصبكم التعب من الحياة؟ ألم تنضجوا بعد كي تطلبوا الموت؟

أنتم جميعا، أيها الذين تؤثرون العمل الشاقّ، وكل سريع، وكل جديد، وكل غريب؛ إنكم لا تستطيعون تحمل أنفسكم، وما اجتهادكم سوى لعنة وإرادة ملاص من الذات.

لو كنتم تؤمنون أكثر بالحياة لكنتم أقلّ تكالبا على اللحظة الآنية. لكن ليس لديكم ما يكفي من محتوى في داخلكم للانتظار ـ ولا حتّى للكسل!

في كلّ مكان يصدح صوت الداعين إلى الموت؛ والأرض تعجّ بأولئك الذين ينبغي أن يُكرز فيهم للموت،

أو لـ«الحياة الخالدة»: فذلك عندي سيّان، ـ لكن بشرط أن يسرعوا فقط بالرحيل!

هكذا تكلم زرادشت.

عن الحرب والشعوب المحاربة

لا نريد مداراة من قِبل أفضل أعدائنا، ولا من أولئك الذين نحبهم من الأعماق أيضا. دعوني إذاً أقول لكم الحقيقة!

إخواني في الحرب[١]! إنني أحبكم من الأعماق؛ لقد كنت ومازلت واحدا منكم. وأنا أيضاً عدوكم الأفضل. فدعوني إذاً أقول لكم الحقيقة!

---

(١) مفهوم المحارب أو المقاتل لدى نيتشه يتميز عن الجندي أو العسكري، بل هو الإنسان الذي يجند كل قواه وطاقاته الاثباتية في الصراع من أجل التطور والتجاوز. أنظر على سبيل المثال ما يرد في كتاب **أفول الأصنام** أو تعاطي الفلسفة بالمطرقة؛ تسكعات رجل غير ملائم للعصر، الفقرة ٣٨: مفهومي للحرية: «وإن الحرب تربّي الإنسان على الحرية. إذ ما هي الحرية؟ هي أن تكون للإنسان إرادة مسؤولية ذاتيّة. أن يظل الإنسان متمسكا بالمسافة التي تفصلنا عن بعضنا. أن يكون المرء لا مباليا تجاه الجهد والقسوة والحرمان وحتى تجاه الحياة نفسها. . . الإنسان الحر محارب. ما هو المقياس الذي تقاس به الحرية لدى الأفراد كما لدى الشعوب؟ إنه حجم الممانعة التي ينبغي التغلب عليها وتجاوزها، ومدى الجهد الذي يتطلبه البقاء في المرتبة العليا. على المرء أن يبحث عن الصنف الأرقى للإنسان الحر هناك حيث يتم التوفق إلى التغلب على أرقى أنواع الصمود والممانعة: على بعد خمس خطوات من الاستبداد، وفي موقع ملاصق لعتبة خطر العبوديّة. . . لقد كان للجماعات الأرستقراطية من نوع أهالي روما وفينيسيا أن يفهموا معنى الحرية كما أفهم أنا شخصيا عبارة الحرية هذه: كشيء يملكه المرء ولا يمتلكه، شيء يريده المرء، شيء يُنتزع. . .
أنظر أيضا ما سيرد لاحقا في فصل «عن التغلب على الذات» وفصل «كلمة الترحاب».

إنني أعلم بالحقد والحسد الذي في قلوبكم. إذ لستم كبارا بما فيه الكفاية كي لا تعرف قلوبكم الحقد والحسد. لتكونوا إذاً كباراً بما فيه الكفاية كي لا تخجلوا بسبب ذلك!

وإن لم تكونوا قدّيسي معرفة، فلتكونوا على الأقلّ الجنود المقاتلين من أجلها. أولئك هم الرفقاء وروّاد مثل هذه القداسة.

أرى جنودا كثيرين؛ وأنا أرغب في رؤية كثير من المحاربين! زيّاً «موحدا» يدعو الناس ذلك الذي يرتدونه: أتمنى أن لا يكون ذلك الذي يخفونه تحتها موحّدا هو أيضا!

أريدكم أن تكونوا من أولئك الذين تبحث عينهم دوما عن عدوّ ـ عن عدوّكم. وليكن لدى الكثيرين منكم حقد من النظرة الأولى.

لتبحثوا عن عدوّكم، ولتخوضوا حربكم، والكلّ من أجل فكرتكم. وإذا ما هُزمت فكرتكم فليظل إخلاصكم يهتف دوما بنداء النصر!

عليكم أن تحبوا السلم كوسيلة لحروب جديدة، والقصيرة من تلك السلم أكثر من الطويلة.

لن أنصحكم بالعمل، بل بالقتال أنصحكم. ولن أنصحكم بالسلم، بل بالانتصار. ليكن عملكم قتالا، وليكن سلمكم نصرا!

لا يسع المرء إلاّ أن يصمت ويظلّ ساكنا عندما يكون له قوس وسهم؛ وإلاّ فإنه يلغو ويشاجر. ليكن سلامكم نصرا!

تقولون إنّ قضيّة جيّدة هي التي تبرر الحرب أيضا، وأنا أقول لكم إنّ حربا جيّدة هي التي تبرر كل قضيّة.

لقد حققت الحرب والشجاعة من الأعمال العظمى أكثر مما فعلت محبّة القريب. إذ بسالتكم، وليست شفقتكم، هي التي ظلت تنقذ الضحايا حتى الآن.

تتساءلون «ما هو حَسنٌ؟» أن تكون باسلا فذلك حَسن. ولتدعوا الفتيات الصغيرات يرددن: «حَسنُ كلّ ما هو مليح ورقيق، ومؤثر في الوقت نفسه».

أفظاظا غليظي القلب يدعوكم الناس؛ لكن قلبكم صادق، وإني لأحبّ حياء طيبتكم القلبيّة. إنكم تستحون من مدّكم، بينما آخرون يستحون من جزرهم.

هل أنتم قبيحون؟ لتلتحفوا إذاً بالجليل السامي يا إخوتي! لحاف القميئين!

وعندما تصبح نفسكم عظيمة فإنها ستغدو مغرورة، ويكون خبث في سموّكم. إنني أعرفكم.

في الخبث يلتقي المغرور والضعيف. لكن يكون هناك دوما سوء تفاهم بينهما. فأنا أعرفكم.

ينبغي أن لا يكون لكم من الأعداء إلاّ أولئك الذين يدعون إلى الحقد، لا أعداء يدعون إلى الاحتقار. لا بد أن تكونوا فخورين بعدوكم: عندها يكون نجاح عدوكم هو نجاحكم أيضا.

التمرد ـ فضيلة العبيد. فلتكن فضيلتكم في الطاعة إذاً! ولتكن أوامركم ضربا من الطاعة هي أيضا!

إن محاربا جيدا يجد «ينبغي عليك» أكثر استساغة من «أريد».

وكلّ ما هو محبذ لديكم، عليكم أن لا تجدوه إلا في ما تؤمرون به[١].

ليكن حبكم للحياة حبا لأملكم الأكبر؛ وليكن أملكم الأكبر فكرتكم الأسمى عن الحياة!

لكنّ فكرتكم الأسمى لا بدّ أن تأتيكم من أوامري لكم، ـ ومفادها: الإنسان شيء ينبغي تجاوزه.

لتعيشوا حياتكم إذاً حياة طاعة وقتال[٢]! ما لنا والعيش طويلا! وأيّ جنديّ يريد أن يُرفَق به وتُصان سلامته!

إنني لا أرفق بكم؛ ذلك أنني أحبكم من الأعماق يا إخواني في الحرب! ـ

هكذا تكلم زرادشت.

---

(١) أنظر فصل «التحولات الثلاثة» (إرادة الأسد).

(٢) حياة القتال والمعاناة والبطولة الحربية كمعبر نحو السعادة التي تتأتى للمرء من المعرفة، المعرفة التي يكتسبها من الصراع من أجل تجاوز الذات؛ هذه الثيمة تعود كثيرا في فلسفة نيتشه، لينظر القارئ على سبيل المثال هذه الفقرة من **المعرفة المرحة**؛ الكتاب الرابع الفقرة ٣٢٤: «كلا، إن الحياة لم تصبني بخيبة الأمل! بل إنني ما أنفك أجدها سنة بعد سنة أكثر حقيقانية، مرغوبة أكثر وأكثر سرا ـ منذ ذلك اليوم الذي ارتادني فيه المحرر الأكبر؛ تلك الفكرة بأن الحياة ينبغي أن تكون تجرابا يقوم به الساعي إلى المعرفة، وليست لا واجبا ولا قدرا ولا خدعة! ـ أما عن المعرفة ذاتها: قد تكون شيئا مغايرا بالنسبة لآخرين غيري، شيئا مثل سرير للراحة، أو الطريق إلى سرير للراحة، أو تسلية أو وقت فراغ ـ فهي بالنسبة لي عالم من المخاطر والانتصارات تجد فيها المشاعر البطولية أيضا حلبة للرقص وللعبث. «الحياة كوسيلة للمعرفة» ـ عندما يكون المرء حاملا لهذا المبدأ في قلبه سيكون بوسعه لا أن يكون باسلا فحسب، بل أن يعيش مرحا أيضا، وأن يضحك بمرح! ومن ذا الذي يمكنه أصلا أن يعرف كيف يحيا مرحا ويضحك بمرح إن لم يكن أولا وقبل كل شيء على دراية جيدة بالحرب والانتصار؟».

عن الصنم الجديد

في مكان ما لا تزال هناك شعوب وجيوش، لكن عندنا هنا يا إخوتي؛ هنا توجد دول.

دولة؟ أيّ شيء هو هذا؟ والآن لتمنحوني آذانا صاغية، لأنني الآن سأقول لكم كلمتي عن موت الشعوب.

الدولة تعني أكثر الغيلان الفظيعة الباردة برودةً. كذبا باردا يكذب هذا الغول أيضا، وكذبته تلك تخرج زاحفة من فمه: «أنا هو الشعب»(١).

(١) في الشذرات المنشورة بعد وفاة نيتشه يجد المرء في الكراس N V ٨ أغلب المسودات الأولية لهذا الفصل. في الفقرة ٨٨ نقرأ: «يسمون أنفسهم بالشرعيين وأصدقاء الشعب أو أهل الصلاح والعدل، أو المستقلين (. .) لكنهم جميعهم يفوحون عفونة». ثم في V ٨، ٩٠: «إذا كانوا يمتلكون قوّة فإنهم يكذبون بضمير لا يعرف القلق، إما إذا ما كانوا يفتقرون إلى القوة فإنهم سيكذبون مع قلق في الضمير، ولكن كذبا أكثر».

V 8, 100: «أصدقائي، إنني أبغض الدولة: «أنا المعنى» تقول الدولة، المعنى الذي يلطخ بالعار الإيمان بالحياة». (عن هوامش موريس دي كونديّاك ـ طبعة غاليمار الفرنسية).

ـ يعود نيتشه إلى مفهومه للدولة في سياق تحليله لنشأة تأنيب الضمير لدى الإنسان، في **جنيالوجيا الأخلاق**، المطارحة الثانية، فصل «الذنب وتأنيب الضمير وأشياء أخرى مشابهة» الفقرة ١٧: «إن تأطير مجموعات سكانية كانت إلى حد اللحظة غير مقيدة وغير منتظمة داخل شكل قار، وكيف تأسست بدايته في عمل عنيف وكيف مضى به أصحابه إلى نهايته عبر أعمال عنف شديدة ـ بحيث أن أقدم «دولة» قد عرفت بدايتها وفقا لذلك كشكل من الاستبداد الشنيع وآلة قهر طاحنة لا تعرف الورع، وعلى ذلك المنوال واصلت عملها=

كذبٌ هذا! فالمبدعون هم الذين أبدعوا شعوبا وبسطوا عقيدة بينها ومحبّة: هكذا كانوا يخدمون الحياة.

مدمّرون هم أولئك الذين يضعون فخاخا للكثيرين ويسمونها دولة: إنهم يعلّقون سيفا فوق رؤوسهم وألف رغبة جشعة.

وحيثما يوجد شعب بعد فإنه لا يفهم ما الدولة ويحقد عليها مثل عين سوء وخطيئة في حق القيم والشرائع.

إليكم منّي هذه العلامة: كلّ شعب يتحدّث بلسان خيره وشره الخاص: وهذا اللسان لا يفهمه جاره. فلغته قد صاغها لنفسه في الأعراف والشرائع(١).

لكن الدولة تكذب على كلّ لسان للشر وللخير: وبأيّ كلام نطقت فهي تكذب ـ وكلّ ما في يدها، إنما هو مما سرقته.

مزيّف كلّ شيء لديها؛ بأسنان مسروقة تعضّ، هي الشرسة العقور. مزيّفةٌ حتى أحشاؤُها.

خلط وتشويش في لغة الخير والشرّ: هذه العلامة، أعطيكم إياها كعلامة للدولة. إرادةَ الموت تعني هذه العلامة حقّا! حقّا، إنها تغمز إلى دعاة الموت!

=إلى أن انتهت تلك المادة الخام للشعب، ذلك الصنف الشبيه بالحيوان لا إلى التحول إلى عجين مطاوع ومطيع، بل أن غدت متشكّلة أيضا». (. . .) على هذه الشاكلة بدأ وجود «الدولة» فوق الأرض: لقد تخلصنا، على ما أعتقد، من ذلك الحلم الموهوم الذي جعلها تبدأ بـ«تعاقد» ـ (إشارة هنا إلى فكرة العقد الاجتماعي لروسو).

(١) هذه النسبية القيَمية التي يطرحها نيتشه هنا وآليات اشتغالها نجدها مفصلة أكثر في شذرات سنة ١٨٨٧: «هناك إذاً إرادة قوة هي التي تعبر عن نفسها من خلال تاريخ الأخلاق، ويكون العبيد والمضطهدون تارة، وتارة الفاشلون والذين يعانون من تحمل ذاتهم، وتارة أخرى الرديؤون، هم الذين يحاولون أن يفرضوا بواسطتها القيم التي تكون أكثر تلاؤما مع مصالحهم».

كثير من الفائضين عن اللزوم يأتون إلى الحياة: ولأجل هذا الفائض الكثير ابتُدعت الدولة!

أنظروا معي كيف تستدرجهم إليها، أولئك الفائضين عن اللزوم! كيف تلتفّ عليهم وتطحنهم بأسنانها وتجترّهم!

«لا شيء فوق الأرض أعظم مني؛ يد الله المرتّبة أنا». هكذا يدمدم الوحش؛ وليست طويلات الأذنين وقصيرات البصر وحدها التي تجثو على ركبتيها أمامه!

في داخلكم أنتم أيضاً، يا للأسف، أيتها الأنفس العظيمة، يهمس الوحش بأكاذيبه القاتمة! آه، إنه يستشفّ القلوب الثريّة التي تبدّد نفسها عن طيب خاطر.

أجل، إنّه يستشفّ أنفسكم أنتم أيضا أيها المنتصرون على الإله القديم! متعبون قد غدوتم جراء صراعكم، والآن هو ذا تعبكم يصبح في خدمة الصنم الجديد!

أبطالا وشرفاء يريد الصنم الجديد أن يجعل من حوله! وإنه ليعجبه أن يتدفأ بشمس الضمير الهنيء ـ ذلك الوحش البارد!

سيمنحكم كلّ شيء ذلك الصنم الجديد إن أنتم عبدتموه: هكذا يبتاع بريق فضيلتكم ونظرة أعينكم الفخورة[١].

طُعْما يريد أن يجعلكم لاستدراج الفائضين عن اللزوم! خدعة

(١) كأن نيتشه يستبدل صورة الغواية الإبليسية التي ترد في الإنجيل بصورة غواية الدولة في «إنجيله الخامس» كما يسمي هو كتاب زرادشت؛ أنظر متّى ـ الإصحاح ٤/٨و٩: «ثم أخذه إبليس أيضا إلى جبل عال جدّاً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها؛ وقال له أعطيك هذه كلها إن خررت وسجدت لي».

جهنّمية تم ابتداعها، وحصانَ موت مقرقعا بحلية المكارم الإلهية!

نعم، موتا يزيّن نفسه في حلّة الحياة قد تمّ ابتداعه هنا: خدمةٌ جليلة حقا لكلّ دعاة الموت!

دولةٌ أسمي موضع كلّ الذين يكرعون من السموم؛ الصالحون والسيئون معا: دولة هناك حيث يُضيع الجميع أنفسهم؛ الصالحون والسيئون معا: دولة هناك حيث الانتحار الجماعي البطيء يُدعى «حياة».

أنظروا هؤلاء الفائضين عن اللزوم! إنهم يختلسون أعمال المبتكرين وكنوز الحكماء. يسمّون سرقتهم تلك ثقافة ـ وكلّ شيء يستحيل لديهم مرضاً وأذى!

أنظروا هؤلاء الفائضين عن اللزوم! مرضى هم دوما؛ يتقيؤون مِرّتهم ويسمّون ذلك صحافة. يلتهمون بعضهم البعض ولا يقدرون حتى على الهضم.

أنظروا هؤلاء الفائضين عن للزوم! يسعون في تحصيل الثروات ويغدون أكثر فقرا بذلك. يريدون السلطة وفي المقام الأول عتَلة السلطة: كثيراً من المال ـ أولئك المعدمون!

أنظروا إليهم كيف يتسلّقون ـ جنسُ القردة خفيفة الحركة! ـ يتسلقون الواحد فوق الآخر ويدفعون بعضهم البعض متمرّغين في الأوحال والحفر.

جميعهم يريدون الوصول إلى العرش: ذلك هو حمقهم ـ كما لو أنّ السعادة جالسة على العرش! بل الأوحال هي التي غالبا ما تكون متربعة على العرش؛ وغالبا ما يكون العرش فوق الأوحال.

مجانين كلهم في نظري، قردة متسلّقة ومسعورون. مقرفة رائحة صنمهم في أنفي؛ ذلك الوحش البارد! مقرفة رائحتهم جميعا في أنفي، خدم الأصنام هؤلاء.

أتريدون الاختناق بعطونة أشداقهم ورغباتهم الجشعة يا إخوتي؟ أولى بكم وأحرى أن تحطموا النوافذ وأن تقفزوا في الهواء الطلق!

اجتنبوا الروائح الكريهة! وابتعدوا عن عبودية الفائضين عن اللزوم للأصنام!

اجتنبوا الروائح الكريهة إذاً! وابتعدوا عن دخان هذا القربان البشريّ!

ما يزال هناك مكان للأنفس العظيمة فوق الأرض. ما تزال هناك أماكن شاغرة للأفراد وللأزواج، وحولها تتضوّع نفحات البحر الهادئ.

ما يزال هناك مجال حياة حرّة للأنفس العظيمة. حقّاً أقول لكم، من لا يملك سوى القليل سيكون أقلّ مُلْكا للهوس: مبارك هو الفقر الصغير[١].

هناك، حيث تنتهي الدولة يبدأ الإنسان الذي ليس فائضاً عن اللزوم: هناك يبدأ نشيد الضرورة، والطريقة الوحيدة التي لا مثيل لها للوجود.

هناك، حيث **تنتهي** الدولة؛ أنظروا إلى هناك إذاً يا إخوتي! ألا ترون قوس قزح وجسر الإنسان الأعلى؟ ـ

هكذا تكلّم زرادشت.

---

(١) أنظر **إنساني مفرط الإنسانية**؛ فصل «المسافر وظله» الفقرة ٢٠٩: «الخجل من الثروة ـ إن زمننا لا يسمح إلا بنوع واحد من الأغنياء وهم أولئك الذين يخجلون من ثروتهم. وعندما يسمع المرء عن واحد بـ«أنه غني» فإنه يشعر مباشرة بإحساس تجاهه شبيه بذلك الذي ينتابه لرؤية مرض ذي ورم مقزز أو سمانة أو استسقاء (بالمعنى الطبي).

عن ذباب السوق

فرّ إلى وحدتك يا صديقي[1]! إني أراك مخدرا بصراخ الرجالات العظام ومدمى بإبر الصغار.

سيعرف الغاب والصخر كيف يشاركانك الصمت بوقار. لتكن مجدّدا مثل الشجرة التي تحبها، الشجرة ذات الجذع العريض: ساكنةً ومصغيةً تقف معلّقةً فوق البحر.

---

(١) ستتردد الدعوة إلى الوحدة ومديح الوحدة كثيرا في الفصول القادمة من هذا الكتاب، كما تمثل ثيمة قارة في العديد من كتابات نيتشه، كما في سلوكه وحياته. الوحدة إذاً إحدى الثوابت القارة في فضائل المفكر الحقيقي لديه، يقابلها سلوك القطيع وتفكير القطيع. والتوحد هو عزلة المفكر لا عزلة الناسك أو الراهب الذي يرفض الدنيا وينسحب منها، كما يتضح مما يرد في الكثير من المواضع من كتاب زرادشت بدءاً من لقائه مع الناسك في طريق عودته من الجبل في مستهل الكتاب حتى لقائه في الجزء الرابع من الكتاب بالملكيْن والعلقة والظل والساحر والعاطل والمتسول الطوعي وأقبح إنسان... كما تخترق هذه الموضوعة مجمل كتاباته الأخرى؛ راجع على سبيل المثال ما جاء في كتاب «**في ما وراء الخير والشر**» الفقرة ٢٨٤: «...وليظل المرء متمسكا بتملكه بفضائله الأربع؛ فضيلة الشجاعة وفضيلة التبصّر وفضيلة التعاطف وفضيلة الوحدة. ذلك أن الوحدة فضيلة عندنا، كنزوع مقدس للنقاوة يجعلنا نحدس كيف أنّ احتكاك الإنسان بالإنسان ـ داخل المجتمع ـ يؤدي حتما إلى التدنّس. فكل جماعة تجعل المرء بطريقة ما وفي موضع ما وفي وقت ما ـ «خسيسا» (مع الملاحظة أن عبارة gemein القريبة سلاليا/ لسانيا من عبارة Gemeinschaft التي ترجمناها هنا بـ«جماعة»، يمكن أن تفيد في الألمانية أيضا عموميا وعاما ومتاعا مشتركا. هكذا يجد القارئ نفسه دوما أمام تلاعب بالكلمات عزيز على نيتشه يمكنه من خلاله أن يضمّن العبارة الواحدة معاني مختلفة لكنها متقاربة الدلالات في الآن نفسه).

حيث تنتهي الوحدة تبدأ السوق العمومية؛ وحيث تبدأ السوق يبدأ صخب الممثّل الكبير وطنين الذباب السام. أفضل الأشياء تظل لا تساوي شيئا في هذا العالم طالما لم يكن هناك من أحد ليعرضها. وهؤلاء المستعرضون يسمّيهم الناس رجالا عظاما.

الشعب لا يفهم كثيرا ما هو عظيم؛ أي ما هو مبدع. لكنه يملك حسا لكل المستعرضين وكل الممثلين لأدوار الأمور العظيمة.

إنّ العالم يتوقّف في مسيرته على مبدعي القيم الجديدة ـ بطريقة لا مرئية يدور العالم حول هؤلاء. لكن حول الممثّلين يلفّ الشعب والشهرة: كذا هي مسيرة العالم.

الممثّل ذو عقل، لكن ينقصه الوعي بالعقل. إنه لا يؤمن إلاّ بما يجعل الناس يؤمنون بقوّة؛ ما يجعل الناس يؤمنون **به هو!**

وغداً سيكون له إيمان جديد، وبعد غدٍ إيمان آخر. إنه، تماما مثل الشعب، يتمتع بحواس شديدة التوفّز، وبتقلبات مزاجية متجدّدة.

الإبهار يعني لديه برهاناً، وبلبلة العقول إقناعاً. والدم حجته الفضلى.

أما الحقيقة التي لا تتسلل إلاّ إلى الأذن المرهفة فيسميها كذبا وعدماً. حقا إنه لا يؤمن إلاّ بالآلهة التي تقرقع في الدنيا بدويّ هائل!

مهرّجون كُثُرٌ تعجّ بهم السوق العمومية ـ والشعب يهلل بالعظماء من رجاله! إنهم أسياد الساعة في نظره.

لكنّ الساعة تستحثهم؛ وهكذا يستحثّونك بدورهم: يطالبونك أنت أيضاً بنعم أو لا. الويل لك، أتريد أن تضع كرسيّك بين المع والضد؟

لتكن بلا غيرة تجاه هؤلاء القطعيّين والمستحِثين يا محبّ الحقيقة! أبداً لم تكن الحقيقة لتتعلّق بذراع ذي قطعيّة وإطلاق.

لتلُذْ بموقعك الآمن أمام هؤلاء المندفعين النزقين: في السوق فقط يُغتصب المرء بـ: نعم؟ أو لا؟

بطيئاً يكون ما يحدث داخل كلّ بئر عميقة: لا بدّ للبئر العميقة أن تنتظر طويلا قبل أن تعرف **ما الذي** حدث في قاعها.

بعيدا عن الأسواق والأمجاد ينأى كل عظيم بنفسه؛ بعيدا عن الأسواق والأمجاد كان دوما موطن مبتكري القيم الجديدة.

فرّ يا صاحبي إلى وحدتك؛ إني أراك فريسة للسع الذباب السامّ. فرّ إلى حيث يهبّ هواء حادّ قويّ!

فرّ إلى وحدتك! إنك كنت تقطن قريبا جدا من الصغار والحقيرين. فر من انتقامهم الخفيّ! إنهم رغبة انتقام ولا شيء غير رغبة انتقام مستعر ضدك.

لا ترفع يدك عليهم منذ الآن! فعددهم لا يحصى، وليس قدرك أن تكون مِنشّة لطرد الذباب.

كثيرون لا يحصى لهم عدد هؤلاء الصغار الحقيرين؛ وإنّ بعض البنايات الشامخة لتكفيها قطرات الندى والأعشاب الطفيلية كي تنهار وتنهدم.

لستَ حجرا، ومع ذلك ها أنت قد تجوّفت من جرّاء القطرات الكثيرة. وإني لأخاف عليك أن تتصدّع وتتفتّت بسبب القطر الكثير.

متعباً أراك من جرّاء لسعات الذباب السامّ. مضرّجا بالدماء أراك في مائة موقع؛ لكنّ كبرياءك تأبى حتى أن تبديَ سخطا.

دماً يريد منك الذباب السام بكلّ براءة، وإلى الدم تتعطش روحه التي تشكو فقرا في الدم ـ لذلك يلسع بكلّ براءة.

لكنك، أنت العميق، تتألم في الأعماق من جراء الجراح الصغيرة أيضاً، وقبل أن تكون قد ضمّدت جراحك وتعافيت ها هي الحشرة السامة نفسها تربض على كفك.

غير أنك تبدو لي ذا كبرياء عالية كيما تقتل ذاك الكائن الشره. لكن، حذار من أن يغدو ذلك قدرك أن تظلّ تجرجر عبء كلّ مظالمها السامة!

يطنّون من حولك بمدائحهم أيضاً: تطفّلٌ هي مدائحهم. فهم لا يريدون سوى الاقتراب من جلدتك ومن دمك.

يتملقونك مثل إله أو شيطان، ويهِرّون مستعطفين أمامك كما أمام إله أو شيطان. ما الذي يهمّ! متملقون هم ومستعطفون أذلاء، ولا شيء غير متملقين ومستعطفين أذلاء.

غالبا ما يظهرون المودّة تجاهك أيضاً. لكن ذلك كان دوما من فطنة في طبع الجبناء. أي نعم، إنّ الجبناء ذوي فطنة أيضا!

يفكرون فيك كثيرا بروحهم الضيّقة ـ إنّك محلّ ريبة لديهم على الدوام! ومحلّ ريبة هو كل ما يدعو كثيرا إلى التفكير.

يعاقبونك عن كلّ فضائلك، ولا يغفرون لك من الأعماق غير أخطائك. ولأنك حليم وذي حسّ عادل: «إنهم ليسوا مسؤولين عن حقارة وجودهم». لكن روحهم الضيقة تفكر: «مذنب هو كلّ وجود عظيم».

وحتى عندما تكون حليما تجاههم، فإنهم يشعرون بأنفسهم مهانين من قِبلك ويردون على عملك الخيّر بعمل سوء مستتر.

كبرياؤك الصامتة تتعارض دوما وذائقتهم؛ يطربون عندما يحدث لك أن تكون على قدر من التواضع كي تكون مغرورا[١].

ذلك الذي ندركه في امرئ ما، نؤججه أيضا في داخله. فلتحترس إذاً من صغار الناس!

إنهم يشعرون بأنفسهم صغارا أمامك، وفي سرّ دواخلهم يضطرم ويتأجج انتقامهم. ألم تر كيف أنهم غالبا ما يصيبهم البكم عندما كنت تقبل عليهم، وكيف كانت طاقاتهم تغادرهم مثل دخان يصعد من نار أطفئت للتوّ؟

أي نعم يا صديقي، الضمير القلق أنت بالنسبة لأقربائك، ذلك أنهم غير جديرين بك؛ هكذا يحقدون عليك ويودّون امتصاص دمك.

ذبابا سامّا سيكون ذوو قرباك دوما؛ وإن ما هو عظيم لديك هو الذي لا بد أن يجعلهم أكثر سمّا وأكثر فأكثر ذُبابيّة.

فرّ يا صديقي إلى وحدتك، هناك حيث يهبّ هواء حادّ وقويّ. فليس قدَرك أن تغدو منشّة لطرد الذباب. -

هكذا تكلّم زرادشت.

---

(١) أنظر فصل «الحيلة البشرية» في الجزء الثاني من هذا الكتاب، والهامش رقم ١ ص٢٧٩.

عن العفّة

أحبّ الغاب. في المدن لا يحلو العيش، فهنالك الكثير من المتأججين اغتلاما.

أليس من الأفضل أن يقع المرء بين يدي مجرم سفّاح من أن يقع في أحلام امرأة مغتلمة؟

أنظروا هؤلاء الرجال؛ إنّ عيونهم لتحدّث بذلك ـ ليس لديهم من شيء أفضل يفعلونه على الأرض سوى أن يضطجعوا إلى جانب امرأة.

أوحال ملتصقة بقاع روحهم، والويل إذا ما كان لأوحالهم هذه عقل علاوة على ذلك!

لو أنكم كنتم كاملين كحيوانات على الأقل! لكن لا بدّ من البراءة كي يكون الواحد حيوانا.

هل أنصحكم بأن تقتلوا شهواتكم؟ بل ببراءة الشهوات أنصحكم.

هل أنصحكم بالعفّة؟ إنّ العفة فضيلة لدى البعض، لكنها لدى العديد شيء قريب من الرذيلة.

إن هؤلاء متعفّفون بلا شك؛ لكن كلبة الشهوانيّة تتبدىّ في هيأة الحَسد من خلال كل ما يفعلونه.

ذلك الحيوان يظل يتبعهم هو وشغبُه فوق أعالي فضيلتهم وحتى الأعماق الباردة لروحهم.

وأيّة مقدرة لكلبة الشهوانية على توسّل قليلٍ من عقلٍ عندما لا تفلح في الحصول على قطعة من اللحم!

تحبّون مسرحيات المآسي وكلّ ما يمزّق القلب؟ لكنني شديد الريبة تجاه كلبتكم.

عيونكم تتراءى لي شنيعة، وبلهفة ترنون بأنظاركم إلى الذين يتألمون. أليست هذه شهوتكم متنكرةً وقد سمت نفسها شفقة؟

أضرب لكم هذا المثل أيضا: ليسوا بالقليلين أولئك الذين أرادوا أن يطردوا شيطانهم واقتحموا عوضا عنه أرواح الخنازير(١). أما الذي تثقل عليه العفّة فذاك لا يُنصح بها؛ وليحذر بالأحرى أن لا تغدو طريقه إلى الجحيم ـ أي أن تصبح أوحالا ونارا متأججة في الروح(٢).

هل أتكلم عن أشياء قذرة؟ إنّ هذا ليس أسوأ الأشياء بالنسبة لي.

---

(١) أنظر إنجيل متّى ـ الإصحاح ٨/ ٢٨ ـ ٣٢: «ولما جاء إلى العبر من كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جدّا حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق؛ وإذا هما قد صرخا قائلَيْن ما لنا ولك يا يسوع ابن الله؛ أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذّبنا. وكان بعيد منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى، فالشياطين طلبوا إليه قائلين إن كنت تخرجنا فأذنْ لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير....» ـ أنظر أيضا الأوذيسة لهوميروس، عندما حوّلت كيكا الإلهة الساحرة أصحاب عوليس إلى خنازير. لكن يبدو أن نيتشه كان يفكر بالأحرى في الإنجيل أكثر من الأوذيسة في هذا الموضع.

(٢) أنظر العهد الجديد ـ أعمال الرسل؛ رسالة بولس إلى أهل كورنثوس ـ الاصحاح ٧/ ٨و٩: «ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسنٌ لهم إذا لبثوا كما أنا؛ ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا، لأنّ التزوّج أصلح من التحرُّقِ».

إذ ليس عندما تكون الحقيقة قذرةً، بل عندما تكون ضحلة قريبة القاع ينفر العارف من الخوض في مياهها.

الحق أقول لكم هناك عفيفون في عمق أعماقهم؛ وأولئك أكثر لينا في قلوبهم، وهم يضحكون طواعية وبأكثر سخاء مما تفعلون.

يضحكون أيضا من العفّة ويسألون: «لكن ما العفّة؟».

«أليست العفّة حمقا؟ لكنّ هذا الحمق هو الذي أتى إلينا ولسنا نحن الذين ذهبنا إليه.

«إننا نمنح هذا الضيف قلبا ومأوى؛ والآن هو ذا يقيم عندنا ـ فليبق ما طاب له إذاً!».

هكذ تكلم زرادشت.

عن الصديق

«واحد فقط إلى جانبي كاف ليكون فائضا عن اللزوم» ـ هكذا يفكّر الناسك المتوحّد. «واحد وحيد مع نفسه على الدوام ـ ذلك ما سينتج عنه إثنان مع مرور الزمن؟».

أنا وأنايَ في جدال ساخن لا ينقطع: من أين للمرء أن يتحمّل ذلك لو لم يكن هناك صديق؟

الصديق شخص ثالث دوما بالنسبة للناسك المتوحّد: الثالث هو الفلّينة التي تمنع محادثة الإثنين من الانحدار إلى الأعماق.

آه، هنالك أعماق كثيرة لكلّ المتوحّدين: لذلك تتوق أنفسهم إلى صديق وإلى المرتفع الذي يقف فوقه صديق.

إنّ اعتقادنا في الآخرين يفضح ذلك الذي بودّنا أن نؤمن به في إيماننا بأنفسنا. توقنا إلى صديق هو الذي يفضحنا.

غالبا ما لايريد المرء من الحبّ سوى مراوغة الحسد. وغالبا ما يهاجم المرء ويخلق له عدوا كي يخفي أنه عرضة للاعتداء.

«كن عدوّا لي على الأقل!» ـ هكذا يتكلّم ورع الاحترام الذي لا يجرؤ على التماس الصداقة.

وإذا ما كان المرء يريد صديقا، فعليه أن يريد خوض حرب من أجله: ولكي يخوض حربا لا بدّ أن يكون **قادراً على** أن يكون عدوّاً.

على المرء أن يُكبر العدوّ في صديقه أيضا. هل تستطيع أن تقترب كثيرا من صديقك دون أن تنضمّ إليه؟

على المرء أن يجد له في الصديق عدوّه الأفضل. إنك ستكون أكثر قربا من قلبه عندما تناهضه.

تريد أن تكون عاريا أمام صديقك؟ سيكون ذلك شرفا لصديقك أن تمنح نفسك له كما أنت. لكنه سيبعث بك إلى الجحيم بسبب ذلك!

كل من لا يتستّر يثير الاستنكار: هكذا يكون لكم سبب للخوف من العري[1]! أجل، لو كنتم آلهة لكان لكم أن تخجلوا من لباسكم!

---

(١) يتناول نيتشه مسألة العري والتستر بأكثر تفصيل في **المعرفة المرحة** ـ الكتاب الخامس، الفقرة ٣٥٢: «الإنسان العاري يمنح عادة منظرا مخزيا ـ أتكلم عنا نحن الأوروبيين (ولا أتكلم هنا عن الأوروبيات!). لنفترض مجموعة ضيوف من أشد الناس مرحا ترى نفسها بفعل خدعة ساحر قد تجردت من ملابسها وتعرّت، فإنني أعتقد أن أمرا أكثر من انطفاء مرح الأمسية وتنغص شهية الأكل سيحدث عندها، ـ يبدو لي أننا نحن الأوروبيون لا نستطيع البتة أن نتخلى عن تلك المسخرة التي تسمى لباسا. لكن تُرى تقنّع «الأخلاقيين» وتخفّيهم تحت الصيغ الأخلاقية ومفاهيم الاستقامة، وكل التستر بحسن نية على أفعالنا تحت مفاهيم الواجب والفضيلة والحس المدني ودواعي الشرف، ونكران الذات، تُراها دون موجبات وأسباب معقولة؟ لا أعني بهذا طبعا أنه ينبغي أن يُغطى على الخبث والوضاعة البشرية، وباختصار على ذلك الحيوان المتوحش الذي في داخلنا؛ بل إن فكرتي تذهب على العكس من ذلك إلى الاعتقاد بأننا بالذات كحيوانات مدجّنة نمنح مظهرا مخزيا ونحتاج تبعا لذلك إلى زي التقنع الأخلاقي؛ وأن «الإنسان الباطني» في أوروبا لم يغد سيئا بما فيه الكفاية كي يستطيع أن «يمنح نفسه للنظر» (كي يكون جميلا). إن الأوروبي يتنكر في زي الأخلاق لأنه قد تحوّل إلى حيوان مريض، هش، كسيح له من الدواعي ما يجعله يريد أن يكون «مدجَّنا»، إذ هو سِقْط تقريبا، شيء منقوص وأخرق. . . ليست فظاعة الحيوان المفترس هي التي تحتاج إلى تقنّع أخلاقي، بل الحيوان القطيع برداءته العميقة وخوفه وملله من ذاته. إن الأخلاق ـ لنقرّ بذلك ـ هي حلية الأوروبي التي تظهره في مظهر الأرفع شأنا والأكثر أهمية والأكثر جدارة بالاحترام؛ في هيأة «الألوهية».

إنك لن تستطيع أن تتجمّل بما فيه الكفاية من أجل صديقك: إذ عليك أن تكون بالنسبة له سهما وتوقاً إلى الإنسان الأعلى.

هل حدث أن رأيت صديقك وهو نائم ـ كي تعرف ملامحه؟ فما هو بالنهاية وجه صديقك؟ إنه وجهك أنت منعكسا في مرآة خشنة وغير صقيلة.

هل حدث أن رأيت صديقك وهو نائم؟ ألم يصبك الفزع لرؤية وجهه على تلك الهيأة؟ آه، أخي إنّ الإنسان شيء ينبغي تجاوزه.

في الحدس والصمت ينبغي أن يكون الصديق معلّما: لا ينبغي لك أن تريد أن ترى كلّ شيء بعينك. على حلمك أن ينبئك بما يفعل صديقك في الصحو.

حدسا ينبغي أن تكون شفقتك: أن تعرف أولا إن كان صديقك يريد شفقة. فلعله يحبّ فيك العين الباردة ونظرة الأبديّة.

لتكن شفقتك على الصديق مغمورة مخفيّة تحت قشرة صلبة تتكسر عليها سنّك. هكذا تكون لها رهافتها وحلاوتها.

هل تستطيع أن تكون هواء نقيا ووحدة وخبزا ودواء لصديقك؟ هناك من لا يقدر على فكّ قيوده الخاصة وهو مع ذلك المخلّص لصديقه.

هل أنت عبد؟ إنك لا تستطيع أن تكون صديقا إذاً. هل أنت طاغية؟ لا يمكن أن يكون لك أصدقاء إذاً.

داخل المرأة كان هناك دوما عبد وطاغية متستّرين.

لذلك ماتزال المرأة غير قادرة على الصداقة: إنها لا تعرف سوى الحبّ.

في حبّ المرأة هناك ظلم وعماء تجاه كلّ ما لا تحبّه. وحتى داخل الحبّ الواعي للمرأة هناك دوما هجوم مباغت وصاعقة وليل إلى جانب النور.

ما تزال المرأة غير قادرة على الصداقة: قططاً ما تزال النساء وعصافير. أو في أحسن الحالات أبقارا.

غير قادرة بعد على الصداقة ما تزال المرأة. لكن قولولي أنتم، أيها الرجال من منكم قادر على الحبّ إذاً؟

أوه، يا لفقركم أنتم أيها الرجال ويا لشحّ روحكم! ما ستمنحونه للصديق سأمنح مثله لعدوي أيضا من دون أن أغدو فقيرا بسبب ذلك.

ليست هناك سوى علاقات زمالة؛ لتكن هناك صداقة!

هكذ تكلم زرادشت.

عن ألف هدف وهدف

بلدانا كثيرة رأى زرادشت وشعوبا كثيرة: هكذا اكتشف خير وشرّ العديد من الشعوب. ولم يجد زرادشت على الأرض سلطة أقوى من سلطة الخير والشرّ.

ليس هناك شعب يستطيع أن يعيش دون أن يقيّم؛ لكنه إذا ما أراد البقاء فسيكون عليه أن لا يقيّم مثلما يقيّم جاره.

الكثير مما يجده هذا الشعب خيرا يعني عارا وشتيمةً لدى شعب آخر؛ هكذا وجدتُ الأمر. كثيرا من الأشياء وجدتها تدعى شرّاً هنا، بينما يُخلع عليها معطف الشرف القرمزيّ هناك.

أبدا لم يكن لجار أن يفهم جاره: على الدوام ظلّ الجار يتعجّب من حمق وخبث الجار.

هناك لوح قيمِ خيرٍ معلّق فوق كلّ شعب؛ أنظر إنه لوح انتصاراته؛ أنظر إنه صوت إرادة القوة لديه.

محمود لديه كلّ ما يرى أنه صعب؛ ما لا غنى عنه وهو صعب يسمّيه خيرا؛ وما يخلّصه من أكبر المِحن، ما هو نادر وأصعب الأمور ـ ذلك يكرّسه مقدّسا.

وكلّ ما يجعله يسيطر وينتصر ويلمع مثيرا للفزع والحسد لدى

الجار يضعه في المقام الأسمى والمرتبة الأولى، وهو المقياس ومعنى الأشياء كلها.

حقّا أقول لك يا أخي، إن أنت عرفت أولا محنة شعب وبلدَه وسماءه وجاره، فستحزر دون عناء قانون جهود تغلبه وما الذي يجعله يتسلّق هذا السلم باتجاه آماله.

«لا بدّ أن تكون الأول دوما وأن تتجاوز الآخرين: ولا ينبغي لروحك الغيورة أن تحبّ أحدا، عدا أن يكون صديقا» ـ ذلك ما كانت تخفق به روح اليوناني: وهكذا راح يسلك دربه إلى العظمة.

«التكلم بالحقيقة وحسن استعمال القوس والسهم» ـ عذبا كان ذلك يبدو وثقيلا في الآن ذاته لذلك الشعب الذي أستمدّ منه إسمي(١)؛ الإسم الذي أجده عذبا وثقيلا في الآن ذاته.

«أكرمْ أباك وأمّك وأطعهما من أعماق أعماقك»: هذا القانون الآخر للتغلّب على الذات يعلّقه شعب آخر(٢) فوقه وبه كتبت له السطوة والخلود.

«كن وفيّاً ومن أجل وفائك لتبذلْ دمك وشرفك في أكثر الأشياء ضررا ومخاطرةً»: بمثل هذه التعاليم استطاع شعب آخر أن يتغلّب على نفسه، وفي التغلّب على نفسه على هذا النحو غدا أحْبل ومثقلا بعظيم الآمال(٣).

---

(١) إشارة إلى الفُرس.

(٢) إشارة إلى اليهود. ويمكننا أن نعرّب هذه العبارة، بـ: «واخفض لهما جناح الذلّ» ولن نبتعد بذلك كثيرا عن الفضاء الثقافي الذي يشير إليه نيتشه.

(٣) إشارة إلى الإغريق القدامى ـ وليس إلى الألمان كما ذهب إلى ذلك موريس دي كونديّاك في تعليقاته الواردة في هوامش ترجمته الفرنسية لكتاب **زرادشت** (نشر دار غاليمار ١٩٧١).

حقاً أقول لكم، إنّ البشر هم الذين ابتدعوا لأنفسهم كلّ الخير والشر. حقاً، لم يتسلّموا ذلك، ولم يجدوا ذلك، ولاشيء من ذلك جاءهم وحيا من السماء.

الإنسان هو الذي ابتدع القيم أولا، من أجل البقاء ـ هو الذي ابتدع معنى للأشياء، معنى إنسانيا! لذلك يسمّي نفسه «إنسانا»؛ يعني أنه: المقيّم.

التقييم هو الإبداع: اسمعوا هذا أيها المبدعون! التقييم ذاته هو الذي يجعل من كل الأشياء المقيَّمة كنوزا ومجوهرات.

عبر التقييم فقط تغدو هناك قيمة: ومن دون التقييم ستكون جوزة الوجود جوفاء خاوية. اسمعوا هذا أيها المبدعون!

تبدّل القيم ـ ، إنما هو تبدّل المبدعين. وعلى الدوام يظل يدمّر كلّ من كان عليه أن يكون مبدعا.

شعوبا كان المبدعون أوّلا، ثمّ أفراداً؛ وفي الحقيقة، إنّ الفرد ذاته هو آخر الابتكارات.

لقد علّقت الشعوب ذات يوم لوح قوانين الخير فوقها. الحبّ الذي يبتغي سيطرةً والحبّ الذي يبتغي طاعةً هما اللذان ابتدعا معا ذلك اللوحَ.

وإن المتعة التي يجدها المرء في القطيع أقدم من المتعة التي في الأنا: وطالما يظلّ الضمير الهنيء يعني القطيع فإنّ الضمير القلق وحده هو الذي يقول: أنا.

وفي الحقيقة، إنّ الأنا الماكرة وعديمة المحبة، التي تريد مصلحتها الخاصة في مصلحة الجماعة؛ تلك الأنا ليست أصل القطيع، بل انحطاطه.

محبّون ومبتكرون كانوا على الدوام أولئك الذين ظلوا يبتدعون الخير والشرّ. نار المحبّة تضطرم داخل كلّ أسماء الفضائل، ونار الغضب.

بلدانا عديدة رأى زرادشت وشعوبا كثيرة: وهكذا اكتشف خير وشرّ الكثير من الشعوب. ولم يجد زرادشت على الأرض سلطة أقوى من أعمال المحبّين: «الخير» و«الشر» هو إسمها.

حقّاً، مِسخ فظيع هي سلطة هذا الإطراء وهذا اللوم. قولوا لي من سيوثق لي هذا المِسخ، يا إخوتي؟ من يُحكم الوثاق على هذه الألف رقبة؟

لقد كان هناك ألف هدف إلى حدّ الآن، ثمّ كان هناك ألف شعب. فقط وثاق الألف رقبة هو الذي ظلّ ناقصا؛ الهدف الواحد هو الذي مازال ينقصنا. إن الإنسانية مازالت تفتقر إلى هدف.

لكن قولوا لي يا إخوتي: إذا ما كانت الإنسانيّة تفتقر بعد إلى الهدف، ألا تفتقر أيضا ـ إلى ذاتها؟

هكذا تكلم زرادشت.

عن محبّة القريب

أراكم تتكالبون على القريب ولكم كلمات جميلة عن ذلك. لكنني أقول لكم: إن محبتكم للقريب إنما هي قلة محبتكم لأنفسكم.

تفرون من أنفسكم إلى القريب وتريدون أن تجعلوا لكم فضيلة من ذلك: لكنني أنظر في ماوراء «نكران ذاتـ»كم.

الأنتَ أقدم عهدا من الأنا؛ والأنت قد كُرّست كقداسة، أما الأنا فلم يُكتب لها ذلك بعد: هكذا يتدافع الناس نحو القريب.

هل أنصحكم بحب القريب؟ بل إنني لأفضل أن أنصحكم بالهروب من القريب وبحبّ البعيد(١)!

---

(١) كنقيض لمحبة القريب التي يدعو لها المسيح والأناجيل، وتمثل في نظر نيتشه تجسيدا وتقنيناً لغريزة القطيع، يكرز زرادشت بالمقابل لمحبة البعيد والأكثر بعدا، موقف يعبر عنه أيضا بمصطلح «حس المسافة» ـ Pathos der Distanz. يعتبر نيتشه في **جنيالوجيا الأخلاق** ـ الأطروحة الأولى: الفقرة ٢ أن «الأشخاص النبلاء والأقوياء وذوي المرتبة السامية والعقل الرفيع هم الذين أحسوا بأنفسهم من نوع حسن، وبأعمالهم كأعمال حسنة؛ أي أنهم أحسوا بها بأنفسهم ووضعوها في المقام الأعلى، كنقيض ومقابل لكل ما هو متدنٍ ومتدني الذهن وعمومي وذي طابع عامّي. ومن منطلق هذا الحس بالمسافة استمدوا لأنفسهم الحق في ابتداع قيم وإعطاء إسم لتلك القيم. . . » المسافة عنصر مكوّن لإرادة القوة في فلسفة نيتشه، بل عنصر محرك بموجبه تتحدد المكانات والتراتب التفاضلي «هاكم مبدأ فلسفة الطبيعة لدى نيتشه، يكتب جيل دولوز، إنه تعدد قوى تفعل وتتعذّب من مسافة (عن بعد)، حيث المسافة هي العنصر التفاضلي الموجود في كل=

أسمى من محبّة القريب هي محبة البعيد والمستقبلي؛ وأسمى من حب الانسان حبّ الأشياء والأشباح.

ذلك الشبح الذي يركض أمامك أجمل منك يا أخي؛ فلِم لا تمنحه لحمك وعظامك؟ لكنّك تخاف وتفرّ إلى قريبك.

إنكم لا تطيقون أنفسكم، ولا تحبون أنفسكم بما فيه الكفاية؛ وها أنتم تريدون استدراج قريبكم إلى الحبّ وتلمّعون سحنتكم بخطئه.

كنت أودّ لو أنكم لا تطيقون كلّ نوع من الأقرباء ومن جاورهم؛ هكذا يكون عليكم أن تصنعوا لأنفسكم من أنفسكم ذاتها صديقكم وقلبه الفيّاض.

تدعون إليكم شاهدا عندما تريدون الكلام بالخير عن أنفسكم؛ وعندما تفلحون في استدراجه لكي يُحسن الظنّ بكم، يَحسُن ظنكم بأنفسكم أيضا.

ليس الكاذب من يتكلم بما يناقض معرفته فقط، بل هو أولا ذاك الذي يتكلم ضدّ عدم معرفته. هكذا تتحدثون عن أنفسكم في علاقاتكم وتكذبون على جاركم فيما تكذبون على أنفسكم.

=قوّة. . .» (جيل دولوز؛ نيتشه والفلسفة ـ ترجمة أسامة الحاج ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٩٣). من هو «القريب» الذي لا ينصح نيتشه بمحبته. لعله الإنسان (أخوك الذي يجب أن تحب له ما تحب لنفسك بلغة الإسلام)؛ أي الإنسان في عموميته، دون تمييز ولا تمايز (تلك الخراف: «رعيّة واحدة وراع واحد» ـ راجع الهامش رقم ١ ص٥٠). لكن الإنسان «شيء يشوبه النقص» وهو: «ليس جديرا بالمحبة»، بل يظل مشروعا للتجاوز، وجسرا نحو «الإنسان الأعلى». لعل «الإنسان الأعلى إذاً هو هذا «البعيد» و«الأبعد» الذي ينصح نيتشه بمحبّته. أو بعبارة أخرى هي دعوة للتخلي عن محبة المكتمل في النقص، وللتعلق بما لم يُنجز بعد ويظل مشروع تجاوز للمنجَز المنقوص.

هكذا يتكلم الأحمق: «إن التعامل مع الناس يفسد الطبع، خاصة عندما لا يكون للمرء طبع».

واحد يذهب إلى القريب لأنه يبحث عن نفسه، وآخر لأنه يريد أن يضيع نفسه. إن قلة حبكم لأنفسكم تجعل لكم من الوحدة سجنا.

أولئك الأكثر بعدا هم الذين يدفعون ثمن محبتكم للقريب؛ ويكفي أن تكونوا خمسة معا كي ينبغي على سادس دوما أن يموت.

أنا لا أحبّ احتفالاتكم أيضا؛ لقد وجدت فيها الكثير من الممثلين، وحتى المتفرجين غالبا ما يتصرفون هم أيضا كممثلين.

لا أعلّمكم القريبَ، بل الصديقَ أعلّمكم. ليكن الصديق حفل الأرض بالنسبة لكم ونكهة أولى تستبق مجيء الإنسان الأعلى.

أعلّمكم الصديق وقلبه الطافح. لكن على المرء أن يعرف كيف يكون إسفنجة إذا ما أراد أن يُحَبّ من قِبل القلوب الطافحة.

أعلمكم الصديق الذي يحمل العالم جاهزا في داخله، قدحا يطفح خيرا ـ الصديق المبدع الذي لديه دوما عالم جاهز للهبة.

وكما ينبسط العالم أمامه مثل سجاد يُفتح له، كذلك يلتفّ أمامه مجدَّداً طيّات تطلع صيرورة الخير داخلها من خلال الشرّ، وصيرورة الغايات من صلب الصدف.

ليكن المستقبل وما هو أبعد علّة يومك الذي تحيا: لتحبّ في صديقك الإنسانَ الأعلى الذي هو علّة وجودك.

لا أنصحكم بمحبة القريب يا إخوتي: بل أنصحكم بحبّ الأبعد.

هكذا تكلّم زرادشت

عن طريق المبدع

أتريد أن تمضي إلى الوحدة يا أخي؟ أتريد أن تبحث عن الطريق إلى نفسك؟ تمهّل قليلا إذاً واصغ إليّ.

«إنّ من يبحث يمضي بدوره إلى الضياع بسهولة. وكلّ اعتزال خطيئة»: هكذا يتكلّم القطيع. ولزمن طويل كنتَ مع القطيع.

سيظل صوت القطيع يرنّ في داخلك. وعندما ستقول: «لم يعد لي من ضمير مشترك معكم»، سيكون ذلك شكوى ووجعا.

أنظر، ذلك الوجع ذاته إنما منشؤه ذاك الضمير هو أيضا: وآخر بصيص من ذلك الضمير ما يزال يشتعل فوق لوعتك.

لكنك تريد المضي على درب لوعتك الذي هو دربك إلى ذاتك؟ أرني إذاً إن كنت حقيقاً بذلك وذا طاقة عليه!

هل أنت طاقة جديدة وحقّ جديد؟ حركة أولى؟ دولاب يدفع نفسه بنفسه؟ سيكون بإمكانك إذاً أن ترغم النجوم على الدوران حولك.

آه، لكم هناك من طمع متلهف على الأعالي! وكم هناك من صراعات طموحين! أرني أنك لست واحدا من الطماعين والطموحين!

آه، كم هناك من الأفكار الكبيرة التي لا تفعل أكثر من فعل الفقاقيع: تنتفخ لتزيد من فراغ الفراغ.

حرّا تسمّي نفسك؟ أريد إذاً أن أستمع إلى فكرتك المسيطِرة، لا إلى كونك تخلّصت من نير.

هل أنت واحد ممن **حقّ لهم** أن يتخلّصوا من نير؟ فهناك من رمى بآخر قيمة له عندما رمى بآخر أواصر عبوديته.

حرّ من ماذا؟ ما همّ زرادشت في هذا؟ بل لتقل لي نظرتُك بوضوح: **من أجل ماذا؟**

هل تستطيع أن تمنح نفسك خيرك وشرك وأن تعلّق إرادتك مثل قانون فوقك؟ هل تستطيع أن تكون قاضي نفسك والمقتصّ لقانونك؟

فظيع أن تكون على انفراد مع قاضي قانونك والمقتصّ له. نجم يُقذف به هكذا في فضاءٍ خلاءٍ وفي الوهج الجليدي للوحدة.

إلى اليوم مازلت تعاني من أولئك الكثيرين، أنت الواحد: إلى اليوم ماتزال شجاعتك كاملة وكذلك آمالك.

لكنك ستتعب في يوم ما من جراء وحدتك، في يوم ما ستنثني كبرياؤك وستصرّ دواليب شجاعتك. في يوم ما ستصرخ: «إنني وحيد!».

في يوم ما لن تستطيع أن ترى علوّك، وستكون أقرب ما يكون من حضيضك؛ مقدّسك ذاته سيغدو مثل شبح مرعب بالنسبة لك. وستصرخ ذات يوم: «الكلّ باطل!».

هناك أحاسيس تريد قتل المتوحّد؛ وإذا ما لم تفلح في ذلك فإنه سيكون عليها هي إذاً أن تموت! هل أنت قادر على أن تكون قاتلا؟

هل تعرف كلمة «احتقار» يا أخي؟ وعذاب عدالتك في إنصاف أولئك الذين يحتقرونك؟

إنك ترغم الكثيرين على مراجعة معرفتهم بك؛ ذلك هو ما يحاسبونك عليه حسابا عسيرا. لقد اقتربت منهم لكنك مضيت في طريقك؛ ذلك ما لن يغفروه لك أبداً.

إنك تقفز من فوقهم: لكن كلما ازددت ارتفاعا إلا وتراءيت صغيرا في أعين حسّادك. غير أنّ الذي يطير عاليا هو الذي يكون هدفا للنقمة غالبا.

«كيف تريدون أن تكونوا عادلين تجاهي!» ـ كذا ينبغي عليك أن تتكلم ـ «بل إنني أختار لنفسي ظلمكم كنصيب مستحقّ».

ظلما وقذارات يقذفون على رأس المتوحّد: لكن إذا ما أردت أن تكون نجما فلا يمنعنّك ذلك من أن تضيء عليهم!

ولتحذر أهل الصلاح والعدل! فلا شيء يحلو لهم مثل صلب أولئك الذين يبتدعون فضائلهم الخاصّة ـ إنهم يحقدون على المتوحّد.

ولتحذر السذاجة المقدّسة أيضا! فكلّ ما ليس ساذجا مدنّسٌ في نظرها؛ وإنه ليحلو لها أيضا أن تلعب بالنار ـ نار المحرقة.

ولتحذر أيضا اندفاعات محبّتك! إنّ المتوحّد يمدّ يده بسرعة لكلّ من يعترضه.

بعض الناس لا يحقّ لك أن تمدّ يدك إليهم، بل كفّ الوحش: وأريد أن تكون لكفّك مخالب أيضاً.

لكنّ أشرس الأعداء ممن يمكنك أن تلتقي ستكون ذاتُك دوما؛ أنت الذي تتربّص بنفسك داخل الكهوف والغابات.

وحيدا تمضي على طريقك إلى نفسك! عبرك أنت ذاتك وعبر شياطينك السبع تمرّ طريقك!

زنديقا ستكون في عين نفسك وساحرا وعرّافا ومهرّجا ومشكّكا ومدنّسا وشرّيرا. ستريد أن تحرق نفسك في لهبك الخاصّ: كيف يمكنك أن تغدو جديداً إن لم تتحوّل أولا إلى رماد!

وحيدا تمضي على طريق المبدع: إلَهاً تريد أن تصنع لنفسك من شياطينك السبع!

وحيدا تمضي على طريق المحبّ: نفسَك تحبّ، ولذلك تحتقر نفسَك كما لا يمكن إلاّ لمحبّ أن يحتقر.

خلقا يريد المحبّ لأنه يحتقر! ماذا يعرف عن الحبّ ذلك الذي لم يكن عليه أن يحتقر بالذات ذلك الذي يحبّ!

لتمض بحبّك إلى عزلتك، وبإبداعك يا أخي؛ بعدها ستتبعك العدالة مجرجرة قدمها العرجاء من ورائك.

لتمض برفقة دموعي إلى عزلتك يا أخي. إنني أحبّ ذاك الذي يريد أن يبدع ما يفوق منزلته ويمضي هكذا إلى حتفه. -

هكذا تكلّم زرادشت.

عن المرأة شابّةً وعجوزاً

«لم أنت تتسلل هكذا وجِلا عبر الغروب يازرادشت؟ وما الذي تخبّؤه بهذا الحذر تحت معطفك؟

أهو كنز وُهبته؟ أم صبيّ قد وُلد لك؟ أم تراك تسلك الآن درب اللصوص أنت أيضا، يا صديق الأشرار؟».

حقاً، يا أخي! أجاب زرادشت، إنه كنز قد وُهب لي: حقيقة صغيرة أحملها معي.

لكنها مشاغبة مثل صبيّ؛ وإن أنا لم أكمم فمها، فستصرخ بأعلى صوتها.

وبينما كنت ماضيا في طريقي اليوم عند ساعة انحدار الشمس اعترضتني امرأة عجوز وهكذا تحدّثت إلى روحي:

«لقد حدثنا زرادشت عن كثير من الأشياء نحن النساء أيضا، لكنه لم يكلّمنا أبداً عن المرأة».

وأجبتها: «لا ينبغي الحديث عن النساء إلاّ إلى الرجال».

«حدّثني عن النساء أنا أيضا»، قالت لي العجوز، «إنني مسنّة بما فيه الكفاية كي أنسى ذلك في الحين».

ونزولا عند رغبة العجوز تكلمت إليها هكذا:

كل شيء في المرأة لغز، ولكل شيء في المرأة هناك حلّ **واحد**: إنه الحبل.

الرجل وسيلة بالنسبة للمرأة؛ وهدفها دوما هو الطفل. لكن ماذا تمثل المرأة بالنسبة للرجل؟

أمران يريد الرجل الحقيقي: الخطر واللعب. لذلك هو يحبّ المرأة كأخطر أنواع اللعب.

ينبغي أن يربّى الرجل للحرب، والمرأة لاستراحة المحارب: وكلّ ما عدا ذلك فحمق.

إن المحارب لا يستسيغ الثمار الحلوة. لذلك هو يحبّ المرأة؛ فلأكثر النساء حلاوة مذاقها المرّ.

للمرأة قدرة على فهم الأطفال أكثر من أيّ رجل، لكنّ الرجل أكثر صبيانية من المرأة.

داخل كلّ رجل حقيقي يختبئ طفل: طفل يريد أن يلعب. هلمّوا أيتها النساء، ولتكشفن لي عن الطفل في الرجل!

لتكن المرأة لعبة، نقيّة ورقيقة، مثل الحجارة الكريمة، فوقها تشعّ أنوار فضائل عالم ليس له من وجود بعد.

لتلتمع داخل حبكنّ أشعّة نجم! وليكن رجاؤكنّ: «ليكن لي أن أصير الأمّ التي ستلد الإنسان الأعلى!».

ليكن حبكنّ شَجاعة! ولتُقدمنّ في حبكنّ على كلّ ما هو مثير للخوف.

ليكن حبّكنّ هو الشّرف الخاصّ بكنّ! إن المرأة قليلة الحس عادة

بأمور الشرف. ليكن إذاً هذا هو شرفكنّ؛ أن تحببن دوما أكثر ممّا تنلن من الحبّ، وأن لا تكنّ صاحبات المرتبة الثانية في الحبّ.

لكن ليحذر الرجل المرأة إذا أحبّت: إنها تضحّي بكلّ شيء، وكلّ ما عدا حبّها يغدو غير ذي قيمة لديها.

ليحذر الرجل المرأة إذا حقدت: فالرجل في أعماق نفسه خبيث، أما المرأة فسيّئة في العمق.

من هو الرجل الذي تحقد عليه المرأة أكثر من غيره؟ ـ هكذا خاطب الحديد المغنطيس: «إنني أحقد عليك أكثر من أيّ شيء لأنك تجذب، لكن ليس لديك ما يكفي من الطاقة كي تجعلني لا أنفصل عنك».

سعادة الرجل تدعى: أريد. وسعادة المرأة تدعى: يريد.

«أنظر، لقد غدا العالم الآن مكتملا!» ـ هكذا تفكر كلّ امرأة عندما تطيع مدفوعة بكليّة حبّها.

على المرأة أن تطيع وأن تجد عمقا لسطحها. سطح هي نفس المرأة، قشرة متحركة ومضطربة فوق ماء قريب القاع.

لكنّ نفس الرجل عميقة، وتيار سيله يهدر داخل كهوف ضاربة في أعماق الأرض: إنّ المرأة تحدس قوّته، لكنها لا تدرك كنهها.

هنا أجابتني تلك العجوز: «كثيرا من الأشياء اللطيفة قال زرادشت، خاصة بالنسبة لتلك اللائي مازلن في سنّ مناسب لمثل هذا الكلام.

إنه لأمر غريب، فزرادشت لا يعرف النساء كثيرا ومع ذلك فرأيه فيهن مصيب! هل مردّ هذا أنه ليس هناك من شيء مستحيل لدى المرأة؟

والآن إليك مني هذه الحقيقة الصغيرة كعربون شكر! فهل أنا مسنّة بما فيه الكفاية لمثل هذه الحقيقة؟

لُفّها جيدا واكمم فمها؛ وإلاّ فإنها ستصرخ بأعلى صوتها هذه الحقيقة الصغيرة».

«ناوليني حقيقتك الصغيرة أيتها المرأة!» قلت لها. وهكذا تكلمت العجوز المسنّة:

«إذا ذهبت إلى النساء، فلا تنس السوط!».

هكذا تكلّم زرادشت.

عن لدغة الأفعى

استلقى زرادشت ذات يوم قائظ تحت شجرة تين ونام محكما ذراعيه على وجهه. فجاءت أفعى ولدغته في رقبته مما جعله يصرخ من شدّة الألم. ولما أزاح ذراعيه عن وجهه نظر إلى الأفعى؛ عندها تعرّفت على عيني زرادشت فاستدارت بحركة مضطربة تريد الانصراف. «لا تفعلي، قال لها زرادشت، فأنت لم تتقبلي بعد عبارات شكري! لقد أيقظتني في الوقت المناسب، لأنّه ما تزال أمامي طريق طويلة». ـ «إنّ طريقك قد غدت قصيرة، قالت الأفعى بشيء من الأسى، ذلك أنّ سمّي قاتل». ابتسم زرادشت قائلا: «متى رأيت تنينا يموت بسمّ ثعبان؟ بل لتستردّي سمك! فأنت مازلت غير غنيّة بما فيه الكفاية كي تمنحيني إيّاه». وإذا الحيّة ترتمي مجددا على عنقه وتلعق جرحه.

ولما روى زرادشت هذا الأمر لتلامذته ذات مرّة سأله هؤلاء: «وما هو مغزى حكايتك يازرادشت؟» فأجابهم زرادشت هكذا:

مدمّر الأخلاق يدعوني أهل الصلاح والعدل: إنّ حكايتي لا تنطوي على حكم أخلاقي.

لكن إذا ما كان لديكم عدوّ فلا تجازوا شرّه بحسنة؛ إنّ ذلك سيجعله يشعر بالخجل. بل برهنوا له بأنه قد أحسن إليكم.

ولتنفجروا غضبا بالأحرى فذلك أفضل من أن تُخجلوا أحداً. وإذا ما لُعنتم، فإنه لن يعجبني أن أراكم تباركون لاعنكم. بل من الأحسن أن تلعنوا قليلا بدوركم[1]!

وإذا ما أُصبتم بمظلمة كبيرة، فلتسارعوا لي بإتيان خمسة مظالم صغيرة مقابلها[2]!، لأنّه فظيع مظهر ذلك الذي يرزح لوحده تحت وطأة مَظلمة.

أما عرفتم هذا بعد؟ إنّ ظلما مقتسما يساوي نصف عدالة. وليأخذ الظلمَ على عاتقه ذلك الذي يقدر على تحمّله!

إنّ قصاصا صغيرا لأكثر إنسانيّة من عدم القصاص. وإذا لم تكن العقوبة أيضا حقاً وشرفا بالنسبة للمنتهِك، فإنني لا أرغب في عقوبتكم أيضاً.

وإنه لأسمى أن يسند الواحد لنفسه مظلمة من أن يحتفظ بالحقّ لنفسه، خاصة عندما يكون المرء على حقّ. لكن على المرء أن يكون غنيّاً بما فيه الكفاية لمثل هذا الأمر.

لا أحبّ عدالتكم الباردة؛ وفي عينيْ قضاتكم يتراءى لي دوما وجه الجلاد ونصله البارد.

قولوا لي أين توجد العدالة التي هي حبّ بعينين بصيرتين؟

---

(١) متّى؛ الاصحاح ٥/ ٤٤ ـ ٤٥: «باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلّوا للذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونو أبناء أبيكم الذي في السموات».

(٢) نقيض ما يدعو إليه المسيح: متّى؛ الاصحاح ٥/ ٣٨ ـ ٤١: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرّ. بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا».

فلتبتدعوا لي إذاً الحبّ الذي لا يحمل كلّ العقاب فقط، بل كلّ الذّنب أيضاً!

ولتبتدعوا لي إذاً العدالة التي تبرّئ الجميع، عدا القاضي.

أتريدون الاستماع إلى هذا الأمر أيضاً؟ من يريد أن يكون عادلا كلّ العدل سيجعل من الكذب أيضاً سماحة تجاه البشر.

لكن كيف يمكنني أن أكون عادلا كلّ العدل! كيف يمكنني إعطاء كلّ حقّه؟ بل يكفيني هذا: أن أمنح كل أحد حقي الخاص(١).

وأخيرا، احذروا يا إخوتي أن تظلموا كلّ متوحّد! من أين للمتوحّد أن ينسى؟ ومن أين له أن يجازي بالمثل!

مثل بئر عميقة هو المتوحّد. ليس صعبا أن يُقذف فيها بحجر؛ لكن قولوا لي من بإمكانه استخراج ذلك الحجر إذا ما استقر في القاع؟

احذروا من إهانة المتوحّد! لكن إذا ما فعلتم ذلك، فلتقتلوه بعدها إذاً!

هكذا تكلّم زرادشت.

---

(١) يجد القارئ في كنشات صائفة ـ خريف ١٨٨٢؛ الشذرة ١٦١ من الكراس ٣١[١]: «تريد أن تكون عادلا؟ كيف لك، أيها الشقيّ، ان تمنح كلا حقّه (نصيبه)؟ ـ كلا، لا أريد ذلك. بل أعطي كل أحد حصتي الخاصة: إن ذلك كاف بالنسبة لمن ليس بأغنى الناس».

عن الزواج والولد

لي سؤال أخصك به وحدك يا أخي: مثل رصاص المِطْمر أقذف بهذا السؤال في روحك لأختبر مدى عمقها.

أنت شاب وترغب لنفسك في زواج وبنين. لكنني أسألك: هل أنت بالإنسان الذي **يحقّ له** أن يرغب لنفسه في ولد؟

هل أنت المنتصر، المتغلّب على نفسك، المتملك بحواسك وسيد فضائلك؟ هذا هو سؤالي لك.

أم ترى الحيوان هو الذي يتكلم من خلال رغبتك، والحاجة؟ أم هي الوحدة؟ أم عدم رضى عن نفسك؟

أريد أن تكون حريتك ونصرك هي التي تتوق إلى ولد. معالمَ حيّةً ينبغي أن تشيّد لانتصارك ولتحررك.

لا بدّ أن تشيّد ما يفوق منزلتك. لكن لا بدّ أن تكون أنت ذاتك تامّ البناء، مستقيم البنيان جسدا وروحا.

ليس نمو تكاثر فقط هو المطلوب منك، بل ارتقاء، وستساعدك حديقة الزوجية على ذلك!

جسدا أرقى ينبغي أن تبعث إلى الوجود، وحركة أولى، ودولابا يدفع نفسه بنفسه ـ مبدعا ينبغي عليك أن تبعث إلى الوجود.

زواجا أسمّي إرادة إثنين لخلق الواحد الذي يتجاوز ذيْنك اللذين أنجباه. احتراما متبادلا أسمي الزواج؛ احترام تجاه من يريد بمثل هذه الإرادة.

ليكن هذا هو معنى وحقيقة زواجك. أما ذلك الذي يسميه الكثر الزائدون عن اللزوم زواجا؛ أواه، ماذا أسمّي ذلك؟

أواه، تلك الفاقة الروحية لإثنين معا! آه، تلك القذارة الروحية لإثنين معا! أواه، تلك الطمأنينة البائسة لإثنين معا!

زواجا يسمون هذا كله؛ ويدّعون أنّ زيجاتهم هذه قد عقد وثاقها في السماء(١).

كلا، لا أحبّها، سماء الفائضين عن اللزوم هذه! لا، إنني لا أحبها تلك الحيوانات الملتفّة على بعضها داخل وكرها السماويّ!

ليظلّ بعيدا عني أيضا هذا الإله الذي يتقدم عَرجاً ليبارك ما لم يَجمع له شملا(٢).

لا تضحكوا من مثل هذه الزيجات! فأيّ طفل ليس له من سبب للبكاء على والديه؟

---

(١) إن قانون الرابطة الزوجية الذي يلمح إليه نيتشه هنا هو قانون الناموس المسيحي. أنظر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثس؛ الاصحاح السابع بكليته.

(٢) حول صورة الإله الأعرج يمكن أن نقارن مع أسطورة هيفايستوس وأريس وأفروديت الإغريقية. لكن يبدو أن نيتشه يسخر هنا من زعم الديانة المسيحية بأنّ الله هو الذي يجمع بين الذكر والأنثى برابطة الزوجية، في حين يرى نيتشه أنه هو الذي خلقهما متفرقين ولم يستطع جمع شمل من خلقه مفرّقا. أنظر أيضا متّى؛ الاصحاح ١٩/ ٤ ـ ٦ : «فأجاب وقال لهم أما قرأتم أنّ الذي خلق في البدء خلقهما ذكرا وأنثى وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الإثنان جسدا واحدا. إذاً ليس بعدُ إثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرّقه إنسان».

جديرا بالاحترام بدا لي ذلك الرجل وناضجا بما فيه الكفاية لإدراك معنى الأرض؛ لكنني عندما رأيت زوجته بدت لي الأرض مأوى للمجانين.

نعم، كنت أريد أن ترتجّ الأرض وتدكّ عندما يقترن قديس بإوزة حمقاء.

هذا يخرج مثل بطلٍ يسعى وراء الحقائق، ليظفر له في النهاية بكذبة صغيرة منمّقة، ويسمّى ذلك زيجته.

وذاك كان عسير المعاشرة صعب المراس، صارم الانتقاء. لكن ها هو يُفسد دفعة واحدة محيط علاقاته وإلى الأبد؛ ويسمي ذلك زيجته.

وذا آخر كان يبحث له عن خادمة بفضائل ملاك. لكن هو ذا يغدو دفعة واحدة خادما لامرأة، والآن ها هو بحاجة إلى أن يتحول بدوره إلى ملاك.

كل المشترين أراهم حريصين، وماكرة عيونهم جميعا. لكن الأكثر مكرا من بينهم يشتري امرأته قطا داخل كيس.

نزوات جنون عابرة كثيرة ـ ذلك ما تسمونه حبا. ثم يأتي الزواج، حماقة دائمة تضع حدا لكل النزوات العابرة.

حبكم للمرأة وحب المرأة للرجل؛ ليت ذلك كان شفقة على آلهة معذبة ومحتجبة! لكن غالبا ما يكون الأمر مجرد حدس يجمع بين حيوانين.

وحتى حبكم الأسمى ليس سوى أمثولة ساحرة وصبوة مؤلمة. مشعل تنتظرون منه أن ينير لكم سبل الأعالي.

حبّاً يفوق منزلتكم لا بد أن تحبّوا! عندها فقط ستتعلمون الحبّ! ولأجل ذلك لا بد أن تتجرعوا الكأس المرة لحبكم.

شراب مرّ في كأسٍ أفضلِ أنواع الحبّ؛ هكذا يوقظ فيك الشوق إلى الإنسان الأعلى، وهكذا يؤجج تعطشك لمنزلة المبدع!

ظمأ اشتهاء المبدع، سهم واشتياق إلى الإنسان الأعلى: تكلم يا أخي، هل هذه هي إرادة الزواج لديك؟

مقدسة في عيني هذه الإرادة وهذا الزواج!

هكذا تكلم زرادشت.

عن الموت اختيارا

الكثير من الناس يموت في وقت متأخر، والبعض يموت قبل الأوان. والحكمة القائلة: «لتمُتْ في الوقت المناسب!» مازالت تبدو غريبة.

لتمت في الوقت المناسب؛ هكذا يعلّم زرادشت.

لكن كيف يمكن لمن لم يعش في الوقت المناسب أن يموت في الوقت المناسب؟ ليته لم يولد أصلا! ـ هكذا أنصح الفائضين عن اللزوم.

لكن حتى الفائضون عن اللزوم يجعلون من موتهم أمرا مهما، والجوزة الفارغة هي أيضا تودّ أن تُكسر.

الكلّ يرى بعين الجد إلى الموت؛ لكن الموت لم يتحول بعد إلى عيد. والناس لم يتعلموا بعد كيف يُحتفل بأجمل الأعياد.

سأحدثكم عن الموت المتوِّج؛ الموت الذي يغدو حافزا ووعدا بالنسبة للأحياء.

ظافرا يموت المتوِّجُ موتَه، محاطا بالآملين والموعودين.

هكذا ينبغي على المرء أن يتعلم كيف يموت؛ وحيث لا يعهد الذاهب إلى الموت عهدا للأحياء لا ينبغي أن يكون هناك احتفال!

أن يموت المرء هكذا لهو أفضل أنواع الموت؛ أما الثاني فهو: أن يموت الانسان مصارعا ويبدّد بذلك نفسا عظيمة.

لكنّ ما ينبذه المقاتل وكذلك الظافر إنما هو موتكم ذاك المكشّر بابتسامته الصفراء، الذي يتقدم متسللا كاللص ـ ومع ذلك يحلّ كالسيد.

موتي أمتدح أمامكم، الموت الحرّ الذي يأتي إليّ، لأنني **أنا الذي** أريد ذلك.

ومتى سأريد ذلك؟ ـ من كان لديه غاية ووريث، ذاك سيريد موته في الوقت المناسب لغايته ولوريثه.

واحتراما لغايته ووريثه لن يرضى أن يضع أكاليل ذابلة في هيكل الحياة.

حقا أقول لكم إنني لا أريد أن أتشبّه بفتّالي الحبال؛ يجذبون الخيط ويمططونه فيما هم يتراجعون دوما إلى الوراء.

من الناس من يبلغ العمر الذي لا يليق بحقائقه وانتصاراته؛ وإنّ فما خاويا من الأسنان يغدو غير حقيق بالنطق بكلّ الحقائق.

وكل من يطمح إلى المجد عليه أن يتخلى عن مواكب التشريفات قبل فوات الأوان وأن يشرع في ممارسة الدربة الصعبة على الانصراف في الوقت المناسب[١].

---

(١) ليس نيتشه بداعية إلى الموت ونبذ الحياة، إنما يدعو إلى «التغلب على الذات» و«تجاوز الذات»؛ الدعوة التي تتردد كثيرا على لسان زرادشت، من أجل العبور إلى منزلة «الإنسان الأعلى». هناك شذرة من كنشات ربيع ١٨٨٤ تلخص مسألة «الموت الطوعي» كالآتي: «الموت. لا بد من قلب الظاهرة البيولوجية التافهة إلى ضرورة أخلاقية. أن يحيا المرء=

على المرء أن يتوقف عن منح نفسه للأكل في الوقت الذي يكون فيه مستساغا أكثر: يعرف هذا الأمر كل أولئك الذين يريدون الحفاظ طويلا على محبة الناس لهم.

صحيح أن هناك تفاحا حامضا قدَره أن يظلّ ينتظر حتى آخر يوم من الخريف: بذلك يغدو ناضجا أصفر ومحززا بالتجاعيد في الوقت نفسه.

لدى البعض يكون القلب هو الذي يهرم، والعقل لدى البعض الآخر. وهناك من تراهم عجائز وهم في سن الشباب: إلا أنّ شبابا يمتد إلى سن متقدمة يحفظ الشباب لمدة أطول.

هناك من لم يوفّق في الحياة: في قلبه دودة سامة تنخره، فليعمل إذاً على أن يكون أكثر توفيقا في مماته.

هناك ثمار لن يكتب لها أن تصير حلوة، وتتعفن في عزّ الصائفة؛ وإنّ الجبن وحده هو الذي يجعلها تظل متشبثة بأغصانها.

الكثير من الفائضين عن اللزوم يعيشون ويتشبثون بأغصانهم أطول مما ينبغي. فليكن إعصار يهب عليها وينفض عن الشجرة كل هذه الثمار المتعفنة التي ينخرها الدود!

ليأت الداعون إلى الموت **السريع**! وسيكونون الإعصار واليد التي ترجّ لي شجرة الحياة! غير أنني لا أسمع من حولي سوى من يكرز للموت البطيء والصبر على كلّ ما هو «دنيوي».

تكرزون للصبر على الدنيوي؟ بل إنّ هذا الدنيوي هو الذي يُظهر أكثر مما ينبغي من الصبر تجاهكم، أيتها الأشداق الناطقة بالتجديف!

=على نحو يجعله يمتلك إرادة موته في الوقت المناسب. «من منشورات التركة» (إرادة القوة) ـ طبعة كونتي وكولليناري المجلد١١).

حقا، لقد مات مبكرا جدا ذاك العبراني[1] الذي يمجّده الداعون إلى الموت البطيء: ومنذئذ غدا ذلك بالنسبة للكثيرين قدرا محتوما أن مات في سن مبكّرة.

لم يعرف بعد سوى دموع وكآبة العبرانيين إلى جانب حقد أهل الصلاح والعدل ـ يسوع العبراني: وإذا هو تستولي عليه الرغبة في الموت.

لو أنه ظلّ في الصحراء بعيدا عن أهل الصلاح والعدل! لعله كان سيتعلم كيف يحيا وكيف يحب الأرض ـ والضحكَ إضافة إلى ذلك[2]!

---

(١) بإمكان القارئ أن يقارن هذا الفصل بما ورد في المقطع المشابه في **أفول الأصنام**؛ «تسكعات رجل غير ملائم للعصر» ـ الفقرة ٣٦. مقولات لها طابع قاس وغير معهود غالبا ما صنفت داخل ما يسمى بالـ«داروينية الاجتماعية» وقد غدت محرجة بالنسبة لمحبي نيتشه، خاصة بعد ما مارسه النازيون على المرضى والضعفاء بتعميم ممارسة ما يسمى بالمساعدة على الموت» «Euthanasie» للتخلص من المرضى والمقعدين. سنكتفي هنا بهذا الجزء من هذا المقطع، حيث الموقف أقل حدة مما يرد في بداية المقطع، أو لنقل أقل شبهة: «أن يموت المرء بكرامة عندما يغدو مستحيلا عليه أن يحيا بكرامة. موتا اختياريا برغبة طوعية، موتا في الوقت المناسب، يتم في حالة من الوضوح الذهني والحبور بين الأبناء وشهود آخرين، حيث تكون هناك إمكانية لوداع حقيقي بينما المودّع ما يزال هنا، قادرا بعد على تقييم منجزه وقرار إرادته؛ تقييم تتويج لمجمل الحياة ـ كل ذلك كنقيض لتلك الكوميديا البائسة التي تحيط بها المسيحية ساعة الوفاة (...) إن المرء لا يمضي إلى الهلاك على يد غيره، بل بنفسه يمضي المرء إلى حتفه. فقط يظل الموت في ظروف مهينة موتا غير حر، موتا في الوقت غير المناسب، موت جبان. وعلى المرء من باب محبة الحياة أن يريد للآخرين موتا حرا واعيا، دون صدف ودون مباغتة...».

(٢) يعتبر نيتشه الديانة المسيحية ديانة تنبذ الضحك وتعلي من شأن الكآبة والبكاء ـ والقنوط، لذلك يجعل من الدعوة إلى الضحك إحدى الدعائم التي تقوم عليها تعاليمه؛ أي كنقيض للمسيحية. لعل هذا العنصر من تأثيرات اهتمامه في فترة ما بالديانة البوذية التي يعتبرها أرقى من المسيحية، ومن ورائها مجمل الديانات التوحيدية المنحدرة من الفضاء الثقافي=

صدّقوني يا إخوتي! لقد مات قبل الأوان؛ لأنه كان سينقض تعاليمه تلك لو أنه بلغ السن التي بلغتُ! لقد كان نبيلا بما فيه الكفاية كي يقوى على النقض والتراجع!

لكنه لم يَنضج بعد. دون نضج كان الفتى يحبّ، غير ناضج كان في حبه، وغير ناضج في حقده أيضا على الأرض والإنسان. موثوقة وثقيلة كانت أحاسيسه وجناحا عقله.

في الرجل هناك أكثر طفولة مما في الشاب، وأقل كآبة: إن له دراية أفضل بمسألتي الموت والحياة.

حرّاً للموت وحرّا في الموت، و«لا» مقدسةً عندما يغدو الوقت غير مناسب لـ نعم: هكذا يكون المرء على دراية بمسألتي الموت والحياة.

أن لا يكون موتكم تجديفا على الإنسان والأرض يا أصدقائي: ذلك هو ما ألتمسه من الرحيق العسلي لأرواحكم.

ينبغي على موتكم أن يكون متوقدا بروحكم وفضيلتكم تماما مثل التهاب الشفق على حافة الأرض؛ وإلاّ فإنكم لم توفّقوا في موتكم.

=العبراني. وقد جاء في الرسالة التي كتبها إلى مالفيدا فون مايزنبورغ في ٢٠ أبريل ١٨٢٣ ليعلن لها فيها عن كتابه الجديد **«هكذا تكلّم زرادشت»**: «...إنها قصة رائعة: لقد تحديت كل الديانات ووضعت «كتابا مقدسا» جديدا! وبكل جدية أقول إنه على غاية من الجد كما لم يسبق لكتاب آخر أن يكون، وإن استوعب الضحك وأدمجه في الدين». - الرسائل الكاملة؛ Friedrich Nietzsche ;Sämtliche Briefe - Kritische Studien Ausgabe, Band 6.

أنظر أيضا فصل **«عن الإنسان الراقي»** في الكتاب الرابع من زرادشت. الفقرة 16. والإشارة هنا لما جاء في إنجيل لوقا؛ الاصحاح السادس، 25: «ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون».

هكذا أريد لنفسي أن أموت كي تحبوا الأرض أكثر من أجلي، أي أصدقائي؛ وترابا أريد أن أستحيل في الأرض كي أعرف الراحة داخل الحضن الذي أنجبني.

حقا، لقد كان لزرادشت هدف، وهو قد رمى بكرته: والآن أنتم ورثة هدفي أيها الأصدقاء، وإليكم أقذف بالكرة الذهبية.

وإنه لأحبّ إليّ من أيّ شيء أن أراكم وأنتم تقذفون بالكرة الذهبية نحو هدفكم يا أصدقائي! لذلك أنا أرجئ قليلا رحيلي عن الأرض: فلتغفروا لي ذلك!

هكذا تكلم زرادشت.

عن الفضيلة الواهبة

١

لما ودّع زرادشت المدينة التي كانت عزيزة على قلبه والتي تسمى «البقرة المرقّطة» تبعه الكثيرون ممن يدعون أنفسهم تلامذته وكوّنوا موكبا يصطحبه إلى أن بلغوا مفترق طرق. عندها قال لهم زرادشت إنه يودّ الآن أن يمضي لوحده، ذلك أنه كان محبا للتجوال وحيدا. لكن تلامذته قدّموا له هدية وداع عصا على مقبضها الذهبي صورة حية ملتوية على شمس. فرح زرادشت بتلك العصا واتكأ عليها ثم راح يخاطب تلامذته هكذا:

قولوا لي إذاً: ما الذي يجعل الذهب يتمتع بهذه القيمة الكبرى؟ لأنه نادر وغير نافع ومشعّ ولطيف البريق؛ وهو ما يُهدى دائما.

كصورة للفضيلة الأسمى فقط اكتسى الذهب قيمته العليا. وبمثل بريق الذهب تلتمع عين الواهب. بريق الذهب يعقد عهد السلام بين الشمس والقمر.

نادرة هي الفضيلة الواهبة وغير ذات منفعة، مشعة هي ولطيفة البريق: إن فضيلة واهبة لهي أرقى الفضائل.

الحق أقول لكم، إنني أحزر بيسر دخيلتكم يا تلامذتي؛ أنتم

تتوقون مثلي إلى الفضيلة الواهبة، فما الذي يمكن أن يجمعكم بالسباع والذئاب إذاً؟

ذلك هو تعطشكم، أن تجعلوا من أنفسكم قرابين وهبات؛ لذلك أنتم عطشى إلى تكديس كلّ الثروات داخل نفسكم.

بنهم تتوق نفسكم إلى الكنوز والجواهر، لأنّ فضيلتكم لا تشبع من الرغبة في العطاء.

ترغمون كلّ الأشياء لتنساق إليكم وتأوي إلى داخلكم لكي تتدفق مجددا من نبعكم هِبات من محبتكم.

الحق أقول لكم، لا بد أن تغدو هذه المحبّة الواهبة ناهبا يستحوذ على كل القيم؛ صحّيّةً سأسمي هذه الأنانية، ومقدّسةً.

لكن هناك أنانية أخرى، أنانية فقيرة وجائعة تتوق دوما إلى السرقة، أنانية المرضى هي تلك الأنانية المريضة[١].

---

(١) هناك إذاً أنانيّتان؛ أنانية صحيّة، أو هذه التي يسميها نيتشه» «هنا مقدسة»، وأنانية مرضيّة. لمزيد التفاصيل حول هذه التفرقة، راجع ما ورد في **أفول الأصنام**: «تسكعات رجل غير ملائم للعصر»؛ الفقرة ٣٣: القيمة الطبيعية للأنانية ـ إن إيثار الذات ذا قيمة مماثلة للقيمة الفزيولوجية التي يمتلكها صاحبه: أي أنه يمكنه أن يكون ذا قيمة رفيعة للغاية، كما يمكنه أن يكون عديم القيمة وحقيرا. وبالتالي فإنه ينبغي أن يُنظر إلى كل فرد إذا ما كان يمثل خط التصاعد الارتقائي للحياة أم خط الهبوط والانحدار. ووفقا للنتيجة التي يصل إليها المرء في هذا الشأن يكون له مقياس لمعرفة قيمة أنانيته. فإذا كان يمثل حركة الارتقاء في هذا الخط فإن قيمتها ستكون بالفعل خارقة للعادة ـ ووفقا لما تتطلبه مصلحة الحياة التي تتقدم خطوة إلى الأمام من خلاله سيحق لحرصه على الحفاظ على النفس وعلى تهيئة الحد الأقصى من الشروط الضرورية لحياته أن يكون بدوره من مستوى أقصى. إن الإنسان المنعزل، أو «الفرد» كما ظل الشعب والفلسفة يفهمانه إلى حد الآن مفهوم خاطئ: إنه لا شيء لذاته، ليس ذرة ولا «حلقة من السلسلة» أو مجرد موروث من الماضي؛ إنه كل السلالة الإنسانية الواحدة الممتدة حتى موقعه هو نفسه... وإذا ما كان يمثل المسار=

بعين السارق تنظر إلى كل برّاق؛ وبلهفة الجوع تحدج بنظراتها كل من لديه وافر من الأكل، وعلى الدوام تحوم متسلّلة حول مائدة الواهب.

مرض يتكلم من داخل هذا الجشع وانحلالٌ خفي؛ من جسد مريض يتكلم الجشع اللصوصي لهذه الأنانية.

قولوا لي يا إخوتي: ما الذي يُعدّ السيّء والأسوأ في نظرنا؟ أليس **هو التدهور**(١)؟ - وحيثما يُفتقر إلى الفضيلة الواهبة نحزر دوما أن هناك تدهورا.

=الانحداري، والتدهور، والانحطاط المزمن، والمرض (إن الأمراض في مجملها تمثل في الواقع أعراضا لنتائج الانحطاط، وليست أسبابه)، فإنه يكون قليل القيمة، وبالتالي فإن العدالة تقتضي أن لا يتناول سوى أقل ما يمكن من أمام الإنسان ذي التكوينة السليمة. فهو لا يعدو كونه الكائن الطفيلي الذي يغتذي على حسابه».
أنظر **هذا هو الإنسان**: ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة - فصل حول الفجر: «إن الدليل القاطع على أن القس (بما في ذلك القساوسة المقنعون؛ أي الفلاسفة) قد غدا سيّدا على العالم بصفة عامة، وأن أخلاق الانحطاط وإرادة النهاية قد غدت الأخلاق في حد ذاتها، هذا الدليل يوجد في ذلك التبجيل المطلق الذي يحظى به اللاأنانيون، والعداوة التي يجابه بها الأنانيون... وبالنسبة للعالِم الفزيولوجي ليس هناك من شك حول حقيقة هذا التناقض القيَمي. عندما يتراخى أدنى عضو من مجمل الجسد، ولو بمستوى أدنى، ويتخلى عن حماية حفظ ذاته وتأمين طاقاته الحيوية و«أنانيته» بوثوق تام، يتداعى لذلك الكلّ. في مثل هذه الحالة يأمر الفزيولوجي ببتر العضو المتداعي، ويرفض أي تضامن مع المنحطّ؛ إنه أبعد ما يكون عن الشفقة تجاهه. لكن القس يريد بالتحديد انحطاط الكل؛ الإنسانية بكليتها، لذلك هو يحفظ العنصر المتفكك؛ بمثل هذا الثمن تتسنى له السيطرة عليها...».

(١) هناك صعوبة في ترجمة عبارة Entartung التي يمكن أن تفيد الانحلال والتدهور وكذلك الانحطاط. والعبارة الألمانية مركبة من Art وتعني النوع وent - التي تفيد هنا التجرد من... من صفة ما مثلا، أو من حالة سابقة، أو تبدل حالة بحالة معاكسة. وبالتالي يكون لعبارة Ent - Art - ung معنى انحلال النوع، أو تفسخه، أو حتى المسخ بما معناه تدهور=

صعودا تمضي طريقنا من النوع إلى النوع الأرقى. لكنه يظل مفزعا بالنسبة لنا ذلك الذهن المتدهور الذي يقول: «كل شيء لي».

صعودا يمضي ذهننا طائرا: هكذا يكون صورة عن جسدنا، صورة عن الارتقاء. ومثل هذه الصور عن الارتقاء هي أسماء للفضائل.

هكذا يمضي الجسد عبر التاريخ، كيان صيرورة ومقاتلا لا يركن إلى الراحة. والعقل ـ ماذا يمثل العقل بالنسبة له؟ إنه صوت البشير لصراعاته وانتصاراته، ورفيق دربها وصداها.

استعارات هي كل أسماء الخير والشر؛ لا تعبّر بكلام، بل تومئ فقط. وأحمق هو الذي يطمع في معرفةٍ من خلالها.

ارعوا لي يا إخوتي كل لحظة يريد عقلكم فيها أن يتكلم بأمثال: فهناك منبع وأصل فضيلتكم.

=نوع إلى نوع أدنى. يجد المترجم نفسه في وضع من الاغراء الذي تمارسه عليه عبارة انحطاط في هذا السياق بالذات. لكن نيتشه عادة ما يستعمل للتعبير عن معنى الانحطاط مرادفها في اللغة الفرنسية: décadence وdécadent. وبالتالي فإن استعماله هنا لعبارة Entartung إنما هو مؤشر على اختلاف في المعنى يحرص نيتشه، ضمن حرصه الدقيق على انتقاء الألفاظ المناسبة، على إبرازه. وعندما نراجع في ذهننا المواقع التي يستعمل فيها نيتشه العبارة الفرنسية التي تفيد الانحطاط، عندما يتحدث عن أفلاطون مثلا، الذي يعدّه أكبر المنحطين («مسألة فاغنر» أو «**هذا هو الإنسان**»)، فإننا سندرك أن العبارة محمّلة في هذه الحالة ببعد معنوي، بينما التدهور أو الانحلال أو التفسخ التي تفيدها عبارة Entartung تبدو ذات مدلول فيزيائي كانحلال الإنسان الفرد في القطيع، أو تدهور نوعي؛ أي النزول من نوع الإنسان إلى نوع دابة القطيع: «مفهوم التدهور/الانحلال هذا يقع خارج الاعتبارات المعنوية»، يكتب نيتشه في إحدى شذرات المسودات. ولعل المترجمين (العرب) عن اللغة الفرنسية كانوا سيتوقّفون إلى العبارة الصحيحة لو أنهم فكّروا قليلا في الفرق بين عبارتي décadence وdégénerescence ـ وهي المقصودة في هذا الموقع ـ. لهذه الاعتبارات فضلنا بعد تردد طويل استعمال عبارة «تدهور» وترك عبارة «انحطاط» للمواقع التي يستعمل فيها نيتشه مرادفتها الفرنسية décadence.

مرتقٍ قمة أعاليه يكون جسدكم في تلك اللحظة ومنبعثا من جديد؛ بنشوته يسكر العقل ليغدو مبدعا مقيّما محبّا ومحسنا يغمر برعايته كلّ الأشياء.

عندما يهدر قلبكم ممتلئا وعريضا، وعلى غرار النهر المتدفق يكون رحمةً وخطرا على المجاورين: فهناك يكون أصل فضيلتكم ومنبعها.

عندما ترتفعون بأنفسكم فوق الإطراء واللوم، وإرادتكم تريد أن تملي أوامرها إرادةَ محبّ على كلّ الأشياء: فهناك يكون أصل فضيلتكم ومنبعها.

عندما تبدون احتقارا لكل مريح وللفراش الوثير، ويتراءى لكم مضجعكم على الدوام غير بعيد بما فيه الكفاية عن كلّ ليّنٍ وثيرٍ: فهناك يكون منبع وأصل فضيلتكم.

عندما تريدون، مدفوعين بإرادة **واحدة** لاشريك لها، ويغدو ذلك التحول الذي لا مردّ له ضرورةً بالنسبة لكم: فهناك يكون أصل فضيلتكم ومنبعها.

الحقَّ أقول لكم، خير وشرّ جديدان هي فضيلتكم. حقا أقول لكم، إنها هدير أعماق جديد وصوت نبع جديد!

سلطان هي هذه الفضيلة الجديدة؛ فكرة مسيطرة هي، وحولها روحٌ فطِنة: شمس من ذهب تلتفّ عليها حيّة المعرفة.

٢

عند هذا الحد انغمس زرادشت في الصمت لبرهة من الزمن وكان يرمق تلامذته بعينين تفيضان محبّة. ثم واصل كلامه ـ وكان صوته قد تغيّر:

لتظلّوا أوفياء للأرض بكلّ قوة فضيلتكم يا إخوتي! ولتكن محبّتكم الواهبة ومعرفتكم في خدمة معنى الأرض! ذلك ما أرجوكم وأتوسّلكم إياه يا إخوتي.

لا تدعوا فضيلتكم تقلع عن الأشياء الأرضية وتظل تخبط بأجنحتها على جدران أبديّة! آه، لكم كان هناك دوما من الفضائل التائهة في طيرانها!

أعيدوا مثلي كلّ الفضائل المحلّقة في التيه إلى الأرض؛ أجل، لتعد إلى الجسد وإلى الحياة، كي تمنح الأرضَ معناها؛ معنى إنسانيّاً!

لمائة مرة ومرة ظل العقل والفضيلة يضلان طريقهما ويخطئان مرماهما. وفي جسدنا مازال يسكن كل ذلك الحمق والخطأ إلى اليوم للأسف: جسدا وإرادة قد تحوّل هناك.

لمائة مرة ومرة ظل العقل والفضيلة يجربان ويخطئان إلى حدّ الآن. أجل، تجربةً كان الإنسان. كثير من الجهل والخطأ قد غدا لحما ودما فينا ـ للأسف!

وليست حكمة آلاف السنين وحدها هي التي تتدفق في داخلنا، بل حمقها أيضا. ولكم هو خطير أن يكون المرء وريثا!

مازلنا نتقاتل قدما بقدم مع الجبار الصدفة، وإلى الآن ما يزال اللغو؛ اللا ـ معنى يحكم سيطرته على الإنسانية بأكملها.

ليكن عقلكم وفضيلتكم في خدمة معنى الأرض يا إخوتي؛ ولتكونوا أنتم من يعيد ضبط قيمة الأشياء جميعها. لذلك ينبغي أن تكونوا مقاتلين! لذلك ينبغي أن تكونوا مبدعين!

في المعرفة يتطهر الجسد؛ وفي المجاهدة من أجل المعرفة يرتقي

العارف بنفسه[1]؛ مقدسة تغدو كل الغرائز لدى العارف، والذي بلغ السموّ، مرحةً تغدو روحه[2].

لتساعد نفسك أيها الطبيب؛ هكذا يمكنك أن تعالج مرضاك أيضا. وليكن العون الأكبر لمريضك أن يرى فيك بعينيه رجلا قد استطاع أن يعالج نفسه[3].

هناك ألف طريق لم تطأها قدم بعد؛ ألف عافية وجزيرة خفيّة للحياة. غير مستنفَذ ولا مكتشَف يظل الإنسان، وكذلك أرض الإنسان.

---

(١) في شذرات التركة النيتشوية، (المجلد العاشر من هوامش وتعليقات مونتي وكولليناري) نجد صياغة أولى لهذه الجملة كالآتي: «كنت في الصحراء، وكنت لا أحيا إلا كطالب معرفة. إن الساعي إلى المعرفة يطهر روحه الخاصة وتغدو كل رغباته وتعطشه إلى القوة مقدسة. وكسالك لطريق المعرفة ارتقيت بنفسي عاليا فوق نفسي في منزلة القداسة والفضيلة».

(٢) نلتقي هنا بإحدى مكونات فلسفة المتصوفة التي ترى في المجاهدة والرياضة من أجل المعرفة طريق تطهّر وسمو بالنفس، والعارف الصوفي؛ الواقف والواصل يكون بدوره قد بلغ حالة الغبطة ويغدو طربا لا يستطيع أن يمسك نفسه عن الغناء والرقص. وهذه حال قد عرفها الحلاج والسهروردي وجلال الدين الرومي وابن الفارض وغيرهم من كبار المتصوفة.

لننظر ما يقوله نيتشه في موقع آخر من كتاباته: من مسودات زرادشت Z I 2,40 (كنشات شتاء ١٨٨٢/ ١٩٨٣): «كنت في صحراء، ولم أكن أحيا كعارف. إن روح العارف تتطهر، وكل تعطش للقوة وكل الرغبات تغدو سعيدة بالنسبة له. وكعارف كنت أراني أرتفع بعيدا فوق نفسي في رحاب قداسة الفضيلة».

(٣) أنظر إنجيل لوقا، الاصحاح ٤/ ٢٣: «فقال لهم (يسوع) على كل حال تقولون لي هذا المثل، أيها الطبيب اشف نفسك». ونيتشه يؤكد له أنه بالفعل عليه أن يشفي نفسه أولا قبل أن يعالج مرضى آخرين. لكأنه يذكره بمقولة له هو نفسه والتي تقضي بأن ينظر المرء الخشبة التي في عينه قبل أن ينظر إلى القذى الذي في عين أخيه.

لتظلوا يقظين ولتصغوا أيها المتوحّدون! من أصقاع المستقبل تأتي رياح تخفق بأجنحة سرية؛ والأذن المرهفة هي التي تتلقى رسالة البشرى.

أنتم يا متوحّدي اليوم ويا أيها المنقطعون، شعبا ستكونون في يوم من الأيام: ومنكم أنتم الذين اخترتم أنفسكم بأنفسكم سيظهر شعب مختار: ومنه سيكون الإنسان الأعلى.

حقا أقول لكم، محطة نقاهة لا بد أن تغدو الأرض في يوم ما! وها حولها منذ الآن رائحة جديدة، حاملةُ عافيةٍ، ـ وأملٌ جديدٌ!

٣

ولما فرغ زرادشت من هذا الكلام صمُت، لكن صمْتَ من لم يقل بعد كلمته الأخيرة؛ وطويلا ظل يقلّب العصا في يده محتارا. وبالأخير تكلم هكذا ـ وقد تغيّر صوته ثانية:

«وحيداً أمضي الآن يا مريديّ! وأنتم، لتمضوا الآن لوحدكم أيضا! هكذا أردت لكم.

حقا أنصحكم: انصرفوا عنّي واحترسوا من زرادشت! بل وأكثر من ذلك: عليكم أن تشعروا بالخجل بسببه، فلعلّه قد خدعكم.

إنّه لا ينبغي على الإنسان العارف أن يحبّ أعداءه فحسب، بل عليه أيضا أن يكون قادراً على كره أصدقائه[١].

---

(١) مرة أخرى يقف نيتشه موقف المناقض لدعوة المحبة المسيحية: أنظر متّى؛ الاصحاح ٥/ ٤٣ ـ ٤٥: «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوّك؛ وأمّا أنا فأقول لكم أحبّوا أعداءكم».

وإنّها لمكافأة رديئة للمعلّم أن يظلّ المرء على الدوام مجرّد تلميذ[1]. فلِم لا تريدون تمزيق إكليلي؟

إنّكم تجلّوني؛ لكن ما الذي سيحدث لو أنّ إجلالكم هذا تداعى ذات يوم؟ احترسوا من أن يقتلكم صنم ما!

تقولون إنّكم تؤمنون بزرادشت؟ لكن ما أهميّة زرادشت! وتقولون إنّكم تؤمنون بي، ولكن ما أهمية كلّ المؤمنين!

أنتم لم تبحثوا عن أنفسكم بعد: هكذا وجدتموني. كذا يفعل كلّ المؤمنين، ولذلك ليس الإيمان بشيء ذي شأن.

والآن أطالبكم بأن تضيعوني وأن تجدوا أنفسكم، وإنّي لن أعود إليكم **إلاّ عندما تكونوا قد أنكرتموني جميعاً**[2].

---

(١) قلب للقيم الإنجيلية - أو اليسوعية الواردة في وصايا يسوع المسيح - إنجيل متّى الاصحاح ١٠/ ٢٤ و٢٥: «ليس التلميذ أفضلَ من المعلّم ولا العبد أفضل من سيده. يكفي التلميذَ أن يكون كمعلّمه والعبد كسيّده.

(٢) طقس الوداع الذي يقيمه زرادشت مع تلاميذه هو استنساخ أو بالأحرى باروديا للعشاء الأخير (العشاء السري) الذي تناوله يسوع مع تلامذته فوق جبل الزيتون. مع فارق أن نيتشه يدعو تلامذته إلى التنكر له، بينما يسوع لا يطالب تلامذته بتنكر، بل يتنبأ بذلك بشيء من الحسرة وبنبرة عتاب. أنظر متّى الإصحاح السادس والعشرون؛ ٢٣ - ٢٤: «فأجاب بطرس وقال له وإن شكّ فيك الجميع فأنا لا أشك أبدا. قال له يسوع الحق أقول لك إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات». وقبلها يرد في الإصحاح العاشر، ٣٢ - ٣٣: «فكل من يعترف بي قدّام الناس أعترف أنا أيضا به قدّام أبي الذي في السماوات. ولكن من ينكرني قدّام الناس أنكره أن أيضا قدّام أبي الذي في السماوات». كما أن يسوع يبشر بالعودة على أن يظل الأتباع وفيّين للرسالة، بينما زرادشت لا يرى تلامذته مستحقّين لعودته إلاّ إذا ما تنكّروا له؛ أي إذا ما أفلحوا في أن يضيعوه ويجدوا أنفسهم. كما لو أن تعاليمه، على عكس تعاليم الأنبياء وأصحاب العقائد والمذاهب، تقول: لن تكون حقيقا بي إن أنت لم تكن أنت، بنفسك ولنفسك أولا.

حقا اقول لكم، بعين أخرى سأبحث عن أولئك الذين أضعتهم يا إخوتي، وبمحبة أخرى سأحبّكم عندها.

ومرة أخرى ستغدون أصدقائي من جديد وأبناء الأمل الأوحد: عندها سأحل للمرة الثالثة بينكم[1]، كي أحتفل معكم بالظهيرة العظمى[2].

---

(١) العودة مرتين ـ كما فعل المسيح أو كما وعد بذلك، غير كافيتين بالنسبة لزرادشت؛ إنه يريد مرة ثالثة! لعلها المرة التي سيتمّ فيها فعل التصحيح الحق؟!

(٢) ساعة «الظهيرة الكبرى» ترد هنا مثل بشرى النبأ السعيد لدعوة زرادشت. سيتكرر ورود هذه الثيمة في العديد من المواقع في هذا الكتاب منها: فصل «في الفضائل المصغِّرة»، و«الألواح القديمة والألواح الجديدة» و«ساعة الظهيرة». إنها الساعة التي تستقر الشمس فيها في قلب السماء، والتي تستقر فيها فوق رأس الإنسان؛ فوق الدماغ مباشرة. ساعة النضج، و«اكتمال العالم». ساعة السكون التام أيضا. أنظر فصل الظهيرة لاحقا: «يا للسعادة! يا للسعادة! أتريدين الغناء حقا ياروحي؟ وأنت تستلقين في العشب! لكنها ساعة الغبطة السرية، حيث لا يعزف راع على شبابته./ توزّعي! فالظهيرة المتّقدة ترقد على المروج! لا تغنّي! أصمتي! فالعالم قد بلغ الاكتمال.

يقدم نيتشه تفسيرا أكثر تفصيلا في كتاب «**إنساني مفرط الإنسانية**» فصل «المسافر وظله» الشذرة ٣٠٨ ـ «في ساعة الظهيرة: إن من قضّى صباح حياته عملا وحركة، بمثل دفق السيول ستغمر روحه عند الظهيرة رغبة نادرة في استراحة قد تدوم أشهرا وسنين. وسيكون سكون من حوله، والأصوات كلها تتناهى إليه قادمة من أصقاع بعيدة، وأكثر فأكثر بعدا؛ والشمس تنتصب متوهجة فوق رأسه. وفي مرج مندس داخل الغابة يرى بانْ العظيم نائما (إله المراعي الإغريقي، ابن هرمز وكان يحب اللعب في الأماكن المقفرة والكهوف التي فيها أشباح، لكنه يثور بسرعة إذا ما أزعجه أحد في قيلولته ـ المترجم)؛ وكل أشياء الطبيعة نائمة معه وعلى صفحتها ترتسم صورة الخلود ـ هكذا يتراءى لمن يحن الآن إلى الراحة بعد نشاط صبيحته. لا يريد شيئا، ولا هم له في شيء، قلبه ساكن وعينه وحدها هي التي تظل حيّة، ـ إنه موت بعينين يقظتين. أشياء كثيرة يرى الإنسان عندها مما لم ير من قبل قط، وكل ما يمتد إليه بصره يبدو له منسوجا داخل شبكة من نور ومغمورا داخلها في الآن نفسه. يشعر المرء بنفسه سعيدا داخل هذا الإحساس، لكنها سعادة ثقيلة. ـ ثم ترتفع الريح مجددا بين الأشجار؛ لقد مرت ساعة الظهيرة، والحياة تسحبه إليها مجددا؛ الحياة بعينيها العميائيْن يتبعها موكبها المندفع من ورائها: رغبات، أوهام، نسيان، متعة،=

وستكون تلك هي الظهيرة العظمى، عندما يقف الإنسان في منتصف دربه ما بين الحيوان والإنسان الأعلى، ويحتفي بطريق مسيرته باتجاه المغيب كأرقى أمل على أنها أمله الأسمى: لأن تلك هي الطريق الموصلة إلى صباح جديد.

عندها سيبارك نفسه ذلك الذي يمضي إلى حتفه، إذ يرى أنه عابر نحو ضفة أخرى؛ وستكون شمس معرفته عندها قد استقرت في سمْت السماء.

«لقد ماتت كل الآلهة؛ والآن تريد أن يحيا الإنسان الأعلى».
ـ لتكن تلك ذات يوم إرادتنا الأخيرة في ساعة الظهيرة العظمى! ـ

هكذا تكلم زردشت.

* * *

=تدمير، فناء. وهكذا يحل من بعدها المساء أكثر اندفاعا وأكثر نشاطا مما كان الصباح...».

ـ أنظر **هذا هو الإنسان**، فصل «ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة؟» ـ **الفجر**؛ الفقرة ٢: «إن مهمتي التي تتمثل في الإعداد للحظة التي ستعود الإنسانية فيها إلى نفسها؛ ظهيرة عظمى تتمكن فيها من النظر إلى الوراء والنظر إلى الأمام، وتتخلص من سيطرة الصدفة والقسّ، وتطرح لأول مرة سؤاليْ لماذا؟ وكيف؟ بصفة كليّة شموليّة...».

الكتاب الثاني

«وإنّي لن أعود إليكم إلاّ عندما تكونوا قد أنكرتموني جميعاً.

حقا اقول لكم، بعين أخرى سأبحث عن أولئك الذين أضعتهم يا إخوتي، وسأحبّكم عندها محبّة أخرى».

زرادشت: عن الفضيلة الواهبة

الطفل الذي يحمل مرآة[١]

بعدها انسحب زرادشت مجددا إلى الجبل والوحدة داخل مغارته واعتزل البشر. منتظرا ظلّ هناك مثل زارع بذرَ بذاراً في الأرض[٢]. لكن نفسه أصبحت مفعمة لهفة وشوقا إلى أولئك الذين يحبهم؛ إذ ما يزال لديه الكثير مما يريد أن يمنحهم. وإنه لمن أصعب الأمور فعلا أن يمسك المرء، عن حبٍّ، يدَه المفتوحة للعطاء، وأن يظل محافظا على الحياء فيما هو يهب.

هكذا مرت على المتوحّد أشهر وأعوام؛ لكن حكمته كانت تنمو وتؤلمه بفائض زخمها.

وذات يوم استيقظ قبل طلوع الفجر وظل لمدة من الزمن متفكرا في فراشه، وأخيرا حدّث قلبه هكذا:

«ما الذي أفزعني في منامي وجعلني أستيقظ هكذا؟ ألم يتقدم مني طفل كان يحمل مرآة في يده؟».

«أي زرادشت ـ خاطبني الطفل قائلا ـ أنظر إلى نفسك في المرآة!».

---

(١) العنوان الأولي لهذا الفصل، كما يرد في مخطوطة ,Z I 4, 71 هو: «الفجر الثاني».

(٢) الصيغة الأولى لهذه الجملة كما ترد في مخطوطة Z I 4, 77: «مثل زارع يلقي بقبضة بذار ليختبر قوة المملكة الأرضية».

لكنني عندما نظرت في المرآة صرخت وقد ارتج قلبي هلعاً؛ إذ لم أر نفسي هناك، بل وجهاً بشعاً لشيطان وتكشيرةً ساخرة.

وفي الحقيقة، إنني أفهم جيدا مغزى هذا الحلم وإشارته المحذّرة: مذهبي في خطر، والزؤان يباع حنطةً!

لقد قويت شوكة أعدائي وشوهوا مذهبي حتى غدا على أحبابي أن يستحوا من الهبة التي وهبتهم.

ضاع مني أصدقائي، والآن حانت ساعة البحث عن هؤلاء الذين أضعتهم!»[١].

ومع هذه الكلمات قفز زرادشت من مخدعه، لا كالخائف الذي يستجدي أنفاسه، بل مثل راءٍ ومغنٍّ انثالت عليه القريحة فجأة. مندهشيْن راح كل من نسره وحيّته ينظران إليه؛ إذ على صفحة وجهه كانت ترتسم هالة غبطة قادمة مثل التهاب الشفق فوق الأفق.

ما الذي حدث لي يا حيوانيَّ! قال زرادشت يسأل نسره وحيّته. ألم أتغيّر؟ ألم تهبط عليّ السعادة مثل إعصار؟

هوجاء هي سعادتي وكلاما أهوج ستتكلم: إنها ما تزال غرّة ـ فلتتحلّيا بالصبر تجاهها!

مدمى القلب أنا من جراء سعادتي: ليكن المتألمون جميعهم أطباء لي!

---

(١) هذه الجملة في صياغتها النهائية جاءت مكثفة للصيغة الأصلية التي توجد في شذرات المسودات: «تعاليمي في خطر، وأعزّائي في حاجة إلى معلّمهم.... هكذا أمضي للمرة الثانية...(انقطاع في الجملة)، سأذهب للبحث عن أولئك الذين أضعتهم: وأريد أن أمنحهم أكثر (وأفضل) مما منحت في ما مضى، لكن علي أولا أن أبحث عنهم؛ وأن أمنحهم في هذه المرة ما أمسكته عنهم (في هبتي الأولى) (في المر ة الأولى)... لكن حبا أكثر ينبغي أن أمنحهم هذه المرة: لأن هبتي الأولى قد أنفرتهم».

الآن يمكنني أن أنحدر إلى أصدقائي من جديد، وإلى أعدائي أيضا! لقد غدا بإمكان زرادشت مجددا أن يتحدث وأن يهب وأن يغمر أحبته بألطف عرابين الودّ!

حبي الجموح يفيض أنهارا متدفقة إلى الأسفل باتجاه الشروق والغروب. منحدرة من قمم الجبال الصامتة وأعاصير الألم تهدر روحي الآن في الأودية.

لزمن طويل كنت أحترق شوقا، سارحا بنظري في الأقاصي البعيدة. لزمن طويل كنت أسيرَ الوحدة: هكذا نسيت فنّ الصمت.

فماً غدوت بكلّيتي ودمدمة سيل ينحدر من أعالي الصخور: إلى الأودية أريد أن ألقي بأحاديثي من هذه الأعالي.

ولنفترض أن سيل محبتي سيهبط إلى موضع بلا منافذ! فأيّ نهر لن يكون بإمكانه أن يجد أخيرا طريقه إلى البحر!

صحيح أن لي بحيرةً في داخلي، منعزلةً ومكتفية بذاتها؛ لكنّ سيل المحبّة يجرفها معه في انحداره ـ باتجاه البحر!

على دروب جديدة أمضي؛ كلام جديد حطّ على شفتيّ؛ وككل المبدعين أراني مصابا بالملل من الألسنة العتيقة. وعقلي لم يعد يرغب في التنقّل على نعلين مهترئين.

بطيئة جدا تتراءى لي كل الخطابات ـ سأقذف بنفسي فوق عربتك أيها الإعصار! وأنت أيضا أريد أن ألهب جلدك بسياط أفكاري الشريرة!

بمثل صرخة أو هتاف غبطة أريد أن أعبر البحار البعيدة حتى أجد الجزر السعيدة حيث يقيم أصدقائي: وبينهم أعدائي أيضا! لكم أحبّ

الآن كل واحد أستطيع أن أتحدث إليه! وأعدائي هم أيضا جزء من غبطتي.

وعندما أريد أن أمتطي صهوة جوادي المتوحش، فإن حربتي تكون دوما مساعدي الأفضل في ذلك: إنها رِفد قدمي المستعدة دوما لمساعدتها:

الحربة التي أرمي بها أعدائي! لكم أنا مدين لأعدائي بأن غدا بإمكاني أخيرا أن أرمي بها! مشحونة حدّ الانفجار كانت سحابتي: ومن بين ضحكات البروق أريد أن أقذف بوابل من البَرَد إلى الأعماق.

بعنف سيهتزّ صدري عندئذ، وبعنف ينفخ بإعصاره فوق الجبال: وهكذا يُسرّى عنه.

الحق أقول لكم، مثل إعصار تقبل سعادتي وحريتي! أما أعدائي فسيعتقدون أنّه **الخبيث** يمضي عاصفا ساحقا فوق رؤوسهم.

أجل، أنتم أيضا سيتملّككم الرعب، يا أصدقائي، من جراء حكمتي المتوحشة؛ ولعلكم ستفرّون من أمامها برفقة أعدائي.

آه، لو أنني فقط أستطيع أن أستدرجكم من جديد بناي الرعاة! آه، لو أن لبؤة حكمتي تتعلم كيف تزمجر بلين! ونحن قد تعلمنا الكثير معا في ما مضى!

لقد حبلتْ حكمتي المتوحشة فوق الجبال المنعزلة، وفوق الصخور الخشنة وضعتْ مولودها؛ آخر مولود لها.

والآن هي ذي تركض محمومة مختبلة عبر الصحاري القاسية، تبحث وتبحث عن عشب طريّ ـ حكمتي المتوحشة العجوز!

فوق العشب الطريّ لقلوبكم يا أصدقائي! ـ على صدر محبّتكم تريد أن تُرقد أعزّ الكائنات على قلبها.

هكذا تكلّم زرادشت.

في الجزر السعيدة

ثمار التين تقع من الأشجار؛ إنها طيّبة وحلوة، وفيما هي تقع تتمزّق قشرتها الحمراء.

ريح الشمال أنا بالنسبة لثمار التين الناضجة.

هكذا، مثل ثمار التين تنزل إليكم هذه التعاليم أيها الأصدقاء: لترتشفوا إذاً رحيقها الحلو ولحمتها اللذيذة! فالخريف من حولنا وصفاء السماء والعشيّة.

أنظروا أيّ ثراء من حولنا! وإنه لجميل أن ينظر المرء من داخل هذا الزخم باتجاه البحار البعيدة.

في ما مضى كان الإنسان يقول: الله، عندما ينظر باتجاه البحار البعيدة؛ لكنني الآن أعلمكم أن تقولوا: الإنسان الأعلى.

إنّ الله افتراض؛ لكنني أريد أن لا يذهب افتراضكم أبعد من إرادتكم المبدعة.

هل بإمكانكم أن **تبدعوا** إلها؟ ـ دعوني إذاً من كلّ الآلهة! لكنه بإمكانكم فعلا أن تبدعوا الإنسان الأعلى!

قد لا تستطيعون ذلك بأنفسكم يا إخوتي! لكن بإمكانكم أن تجعلوا من أنفسكم آباء وأسلافا للإنسان الأعلى: وليكن ذلك أفضل صنيع تصنعون! ـ

الله افتراض: لكنني أريد أن يكون افتراضكم في حدود ما يمكن أن يحيط به الفكر.

هل يمكنكم الإحاطة بإله؟ ـ لكنّ ذلك سيعني بالنسبة لكم إرادة الحقيقة؛ أن يتحول كل شيء إلى مدرَك بالفكر البشري، مرئي بالعين البشرية ومحسوس بالحواس البشرية! عليكم أن تدفعوا بالتفكير حتى منتهى ما تدركه حواسكم!

أما ذلك الذي كنتم تسمونه عالما فليكن من إبداعكم أنتم أولا: وليغدو فكركم وصورتكم وإرادتكم كلها شيئا واحدا دخله! والحق أقول لكم إن ذلك من أجل غبطتكم أيها الساعون إلى المعرفة!

ومن أين لكم أن تتحملوا الحياة من دون هذا الأمل، أيها السالكون طريق المعرفة؟ لا في غير المدرَك ولا في اللامعقول ينبغي أن يكون موطن ولادتكم.

لكن، ولكي أبوح لكم بكل ما في قلبي أيها الأصدقاء: لو كانت هناك آلهة فكيف يمكنني أن أصبر على أن لا أكون إلها! إذاً، ليس هناك من آلهة.

لقد توصلت إلى استدراج النتيجة، لكن هاهي الآن تسحبني بدورها. ـ

الله افتراض: لكن تُرى من يستطيع أن يتجرع كل معاناة هذا الافتراض دون أن يموت؟ هل ينبغي أن يُحرم المبدع من إيمانه والصقر من التحليق في الأعالي المنذورة للصقور؟

إن الله فكرة تجعل كل مستقيم معوجّا، وكل ما هو ثابت تجعله في حالة دوران. ماذا؟ الزمن يضمحل؟ وكل ما هو زائل باطل؟

مثل هذا التفكير دوّامة ودُوار يتعتعان هيكل الجسد البشري، ويصيبان الأمعاء بالغثيان أيضا.

الحق أقول لكم، مرضَ الدوار أسمّي مثل هذا الافتراض.

خبيثا ومعاد للإنسان أسمّي هذا كله: كل هذه التعاليم التي تكرز للواحد والكامل والثابت والمكتفي بذاته والخالد.

كل خالد؛ إنما هو مجرد مثل لا غير! وإنّ الشعراء ليكذبون كثيراً[1].

---

(١) هل أفلاطون هو الذي يتكلم هنا؟ ذلك الذي يعتبر الشعراء مصنفي خيالات وأباطيل وطردهم بموجب ذلك من جمهوريته؟ أم هو هوميروس ـ وهو شاعر بدوره! ـ: «إنهم ليكذبون كثيرا أولئك المنشدون!». «لا شيء سوى شاعر؛ لا شيء سوى أحمق!» أليس هكذا ينعت نيتشه نفسه متنصلا من جدية الفلاسفة وجفاف الفلسفة التقليدية؟ لكن لنراجع ما كتبه عن الشعر والشعراء في **المعرفة المرحة**؛ الكتاب الثاني، الشذرة ٨٤ (نكتفي هنا بإيراد بعض المقتطعات من هذا النص الذي يمكن مراجعته كاملا في الكتاب المذكور): «في أصل الشعر»: إن المولعين بالعجيب لدى الإنسان والذين يمثلون في الآن ذاته مذهب الأخلاقانية الغريزية ينتهون إلى هذا السؤال: إذا افترضنا أن المنفعية كانت تحظى عبر كل الأزمنة بما تحظى به أسمى الآلهة من إجلال، فمن أين أتى الشعر إلى العالم بكليته إذاً؟ هذا الإيقاع الذي يدخل على الخطاب والذي يتعارض بالأحرى مع وضوح التواصل أكثر مما يدعمه، والذي ما فتئ ينمو في كل مكان من الأرض مثل سخرية في وجه كل غرضية نفعية! إن هذا الطيش الجميل المتوحش للشعر يناقضكم أيها النفعيّون! وإن إرادة التحرر من المنفعي بالذات، لهي التي سمت بالإنسان وألهمته الأخلاق والفن!» لكنني أجد الآن أنه عليّ أن أقول كلمة لصالح النفعيّين هنا ـ فهم نادرا ما كانوا مصيبين، الأمر الذي يدفع إلى الشفقة عليهم! ـ كلا، لقد كان للناس في تلك الأزمنة البعيدة التي استدعت وجود الشعر عين على المنفعية، بل وعلى منفعة كبيرة جدا ـ في ذلك الزمن الماضي عندما تم إقحام الإيقاع داخل الخطاب، ذلك العنف الذي يعيد تنضيد كل الذرّات المكوّنة للجملة، ويدعو إلى انتقاء العبارات ويصبغ الأفكار بألوان جديدة، ويجعلها أكثر غموضا، وأكثر غرابة وأكثر بعدا: نفعيّةُ اعتقاد خرافي دون شك! كان المرء يطمع في استخدام الإيقاع لممارسة تأثير أعمق على الآلهة وجعلها أكثر تقبلا لمطالب بشريّة ما، وذلك بعد أن=

لكنّ أفضل الأمثال ينبغي أن يكون ذلك الذي يتحدث عن الزمن والمصير: مديحا وتبريرا للعابر ينبغي أن يكون[1]!

الخلق - إنه الخلاص الأكبر من الألم، وما يجعل الحياة تصير

=لاحظ المرء بأن الإنسان يحتفظ في ذاكرته ببيت من الشعر بأكثر سهولة مما يحتفظ بكلام منثور؛ كما كان المرء يعتقد أنه عن طريق الوزن الإيقاعي يكون بإمكانه إيصال صوته إلى حدود مسافات نائية جدا؛ فالصلاة الموقّعة كانت تبدو أقرب إلى بلوغ أذن الآلهة (. . . .). كان الإنسان يحاول إذاً أن يخضعها (الآلهة) بواسطة الإيقاع، وأن يمارس سلطته عليها: كان المرء يقذف بالشعر نحوها كما يُقذف بأنشوطة سحرية لتطويقها. (. . .) كل الطقوس الشبقية الجماعية ترمي إلى تفريغ إله ما من شحناته المتوحشة دفعة واحدة وتحويلها إلى حفل خليع، كي تشعر الآلهة بنفسها بعدها أكثر حرية وأكثر هدوء وتدع الإنسان وشأنه. (. . .) وليس في مجال الأناشيد الطقوسية فحسب، بل وفي الأغاني ذات الطابع الدنيوي من أقدم العصور أيضا يوجد افتراض بأن الإيقاع يمارس طاقة سحرية كما هو الشأن مثلا في إنجاز أعمال السقاية أو التجديف في البحار (. . .) وحيثما كان على الإنسان أن يؤدي عملا كان لديه موجب للغناء - كل عمل يؤديه الإنسان يجعله مقترنا بمساعدة الأرواح: التراتيل السحرية والتعازيم تبدو الشكل البدائي الأول للشعر (. . .) - وبعد تأمل ومساءلة المسألة في مجملها: فهل كان هناك شيء أكثر نفعيّة من الإيقاع بالنسبة لذلك الصنف الخرافي القديم من الإنسانية؟ (. . .) من دون البيت الشعري كان الإنسان لا شيء، وبالبيت الشعري غدا إلها تقريبا. إن مثل هذا الإحساس الأساسي لم يعد قابلا للاستئصال - والآن أيضا، وبعد عمل جهود آلاف السنين لمحاربة مثل هذه المعتقدات الخرافية فإن أحكم الحكماء من بيننا يغدو بين الحين والحين ملبوسا بحمق الإيقاع، لا لشيء إلا لأنه يحس بأن الفكرة أكثر صحّة عندما ترد في شكل كلام موزون وتتجلى في هيأة قفزات قدسيّة. أليس هذا بالأمر الطريف أن أكثر الفلاسفة جدية، وأيّا كانت الصرامة التي يبدونها تجاه كل ما يتعلق باليقين، ما زالوا يلجأون إلى الكلام الشعري من أجل إضفاء طاقة ومصداقية على أفكارهم؟ - مع أنه من الأخطر على حقيقة ما أن يمنحها شاعر موافقته من أن يناقضها! إذ وكما يقول هوميروس: «إنهم ليكذبون كثيرا أولئك المنشدون!».

(١) كأنها إجابة على الأبيات الأخيرة التي اختُتم بها فاوست غوتة. «كل ما هو عابر/ ليس سوى مثل./ كل منقوص/ يغدو هنا حدثا؛ وما لا يوصف، يغدو هنا منجزا./ الأنثى الخالدة تشدنا وتجذبنا».

خفيفة. لكن كي يكون المبدع مبدعا، فذلك يتطلب بدوره آلاما وتحولات كثيرة.

أجل، لا بد أن يكون في حياتكم الكثير من مرارة الموت، أيها المبدعون! هكذا تكونوا المدافعين عن كل ما هو عابر، ومبرريه!

أن يكون المبدع هو الطفل الذي سيولد توا، فذلك يتطلب منه أن يرغب في أن يكون الأم التي تلد وأوجاع الولادة أيضاً.

الحقّ أقول لكم، عبر مائة روح مضيت في طريقي، وعبر مائة مهد ووجع ولادة. وقد عشت في الأثناء بعض لحظات وداع، وأنا عارف بتلك الساعات الأخيرة التي يتفتّت لها القلب(١).

لكن ذلك هو ما تريده إرادتي المبدعة ـ قدري. أو، كي أتكلم بأكثر صدق: هذا القدرَ بالذات ـ تريد إرادتي.

كل أحاسيسي تتألم وتشعر بنفسها سجينة؛ لكنّ إرادتي تظل تأتيني على الدوام مخلّصا ورسول مسرّة.

الإرادة تُحرّر: ذلك هو مذهب الإرادة والحرية الحق ـ هكذا يعلمكم زرادشت.

أن لا **أريد** شيئاً، وأن لا **أثمّن** شيئاً، وأن لا **أبدع**! ليظلّ بعيداً عنّي مثل هذا الإعياء الأكبر!

في السعي إلى المعرفة أيضاً لا أشعر إلاّ بلذّة إرادة الإنجاب

(١) في شذرات المسودات تحت رقم Z I 2, n26. / (كما ترد في هوامش وتعليقات مونتي وكولليناري على المجلد الرابع من الأعمال الكاملة)، نقرأ: «الخلق خلاص من الألم. لكن الألم أمر ضروري للمبدع. أن يتألم المرء يعني أن يتحوّل، وفي كل ولادة هناك موت. لا ينبغي على المرء أن يكون الوليد فقط، بل الوالدة أيضا: مثله مثل المبدع».

والتحوّل؛ وإذا ما كانت هناك براءة ما في أحكامي فإنّما يحصل ذلك لأنّها تحمل في صلبها إرادة الإنجاب.

بعيداً عن الله، وعن كلّ الآلهة ساقتني هذه الإرادة؛ وما الذي كان يمكننا أن نبدع لو كانت هنالك آلهة؟

لكنّها تظلّ تسوقني مجدّداً إلى البشر، إرادة الإبداع هذه، كما المطرقة دوماً مندفعة باتجاه الحجر.

إيه يا معشر البشر، في الحجر يرقد لي تمثال؛ صورة الصور! آه، أن يكون عليه أن يرقد في أكثر الحجارة صلابة وقبحاً!

والآن هي ذي مطرقتي تضرب بحنق على جدار سجنه. ومن الحجارة تتطاير الشظايا تراباً: ما الذي يهمّني في ذلك[١]!

عليّ أن أنهي التمثال، ذلك أنّ طيفاً جاء إليّ؛ أكثر الأشياء سكوناً وخفّة جاء إليّ ذات مرّة!

الطلعة البهيّة للإنسان الأعلى أطلّت عليّ في هيأة طيف: ما لي والآلهة إذاً؟...

هكذا تكلم زرادشت

---

(١) في الكنّشات: N VI 3, 80 يكتب نيتشه: «كل إبداع هو إعادة إبداع ـ وحيثما تعمل أياد مبدعة يكون هناك الكثير من الموت والدمار. / وهذا أيضا ليس سوى فعل موت وتشظي: بلا شفقة يضرب النحّات على المرمر كي يخلّص الصورة التي ترقد في الحجر، لذلك عليه أن يكون بلا شفقة: لذلك (عليكم) علينا جميعا أن نتألم ونموت ونتحول إلى غبار».

عن أهل الشفقة

هناك حديث ساخر، أيها الأصدقاء قد تناهى إلى مسامع صديقكم: «أنظروا زرادشت! ألا ترونه كيف يمشي بيننا كما لو كان يمضي بين بهائم؟».

لكن من الأفضل أن يقال: «بين بني الإنسان يمضي العارف مضيّه بين البهائم.

والإنسان يعني لدى العارف الحيوان ذا الوجنتين الحمراوين.

كيف حدث له هذا؟ أليس لكثرة ما كان عليه أن يشعر بالخجل؟

آه يا أصدقائي! هكذا يتكلم العارف: خجلٌ، خجلٌ، خجلٌ ـ ذلك هو تاريخ البشرية!

لذلك آلى النبيل على نفسه أن لا يُشعر أحدا بالخجل: إنه يُلزم نفسه بمراعاة الحياء أمام كل من يتألم.

الحق أقول لكم، إنني لا أحبّهم أولئك الرحيمين المغمورين غبطة داخل شفقتهم: إنهم يفتقرون افتقارا بالغا إلى الحياء.

وإذا ما حدث لي أن أكون شفوقا فإنني أحرص على أن لا أُعرف بذلك؛ وإذا ما كنت كذلك فمن الأفضل أن يكون ذلك عن بعد.

وإني لأحبذ أن أحجب وجهي وأفر قبل أن يتعرّف أحد عليّ: وكذا أدعوكم أن تفعلوا أيها الأصدقاء!

ليكن لقدري أن لا يضع في طريقي دوما سوى المعافين من الألم، مثلكم أنتم، وأولئك الذين يحق لي أن أقاسمهم الأمل والمأدبة والعسل.

الحق أقول لكم لقد قمت بهذا العمل أو ذاك من أجل المتألمين؛ لكن كان يبدو لي دوما أنه كان أجدر بي وأولى أن أتعلم كيف أفرح بطريقة أفضل.

فمنذ أن كان هناك بشر على وجه الأرض لم يكن للإنسان أن يفرح إلا لِماما: تلك هي خطيئتنا الأولى الوحيدة يا إخوتي!

وكلما تعلمنا كيف نفرح أكثر إلا ونسينا أكثر كيف نؤلم وكيف نبتدع ضروبا من إيلام الآخرين.

لذلك أغسل يدي التي أعانت المتألّم، ولذلك أنقّي روحي أيضا من ذلك الصنيع.

ذلك أنني لما رأيت المتألم يتألم خجلت من أجل حيائه؛ أما عندما قدّمت له يد المعونة فقد طعنته بعنف في كبريائه.

إن أعمال الفضل الكبيرة لا تولد الاعتراف بالجميل، بل التعطش إلى الانتقام؛ وأبسط أعمال الإحسان إذا لم يُنسَ يتحوّل إلى دودة قارضة.

لتكونوا جفاةً وأنتم تتسلّمون! وليكن تسلمكم تكريما للواهب إذ تتسلمون منه ـ هكذا أنصح أولئك الذين ليس لديهم ما يهبون.

إلا أنني واهب: بكل سرور أهب للأصدقاء كصديق. أما الغرباء والمعوزون فعليهم أن يقطفوا الثمار بأيديهم من شجرتي: إن في ذلك أقل مهانة.

أما الشحاذون فينبغي أن يضمحلّوا كليا! حقا إن الإنسان ينزعج إذا ما منحهم شيئا وينزعج إن لم يمنحهم.

وكذلك هو الأمر مع أصحاب الخطايا والضمائر القلقة. صدقوني يا أصدقائي: إنّ لسعات تأنيب الضمير تدريب على العضّ.

لكن أسوأ من كل هذا هي الأفكار الحقيرة. حقا أقول لكم إنه لأفضل أن يعمل الواحد شراً من أن يفكر بحقارة!

أكيد أنكم تقولون: «إنّ متعة الشرور الصغيرة توفّر علينا بعض أعمال شرّ كبيرة». لكن، في هذا المجال لا ينبغي أن يريد المرء توفيرا.

مثل قرحة هو عمل الشرّ: يحكّ ويأكل ثم ينفلق ـ إنه يتكلم بصدق.

«أنظر، إنني مرض» ـ هكذا يتكلم عمل الشرّ؛ وذلك هو صدقه.

لكن الفكرة الحقيرة مثل الفِطر: تتسلل وتندسّ ولا تريد أن تكون في مكان بعينه ـ إلى أن يغدو الجسد كله متآكلا ذابلا تحت ما لا يحصى من الفُطر الصغيرة.

أما من كان مسكونا بشيطان فإنني أهمس له بهذه الكلمة: «أولى بك وأجدر أن ترعى نموّ شيطانك! فأمامك أنت أيضا ما تزال هناك بعد طريق إلى العظمة!» ـ

آه يا إخوتي، إن الواحد يعرف عن الجميع أكثر مما ينبغي! وهناك من غدا شفافا بالنسبة لنا، لكننا مع ذلك أبعد عن أن نكون قادرين على أن نستشف أعماقه.

صعب هو العيش بين البشر، لأن الصمت صعب.

ونحن لسنا أكثر شرّاً تجاه من تبغضه نفسنا، بل تجاه من لا يعنينا أمره أبداً.

لكن، إذا كان لك صديق يتألم فلتكن ملجأ استراحة لألمه، على أن تكون في الوقت نفسه سريرا خشنا؛ سرير معسكر؛ هكذا يتمّ لك أن تساعده على أفضل وجه.

وإذا ما أساء إليك صديق فليكن قولك هكذا: إنني أغفر لك ما فعلته معي، لكن كيف لي أن أغفر لك هذا الذي فعلته **بنفسك**؟

هكذا تتكلم كل محبة كبرى: إنها تتغلب حتى على المغفرة وعلى الشفقة.

على المرء أن يمسك بعنان قلبه؛ لأنه إذا ما أطلقه فإنه سرعان ما سيلعب بعقله.

آه، أين وُجدتْ في العالم كله حماقات أكبر مما وجد لدى المشفقين؟ وأي أمر أحدث أكثر آلاما في العالم من حماقات المشفقين؟

ويل لكل المحبين الذين ليس لهم من سموّ يعلو على منزلة شفقتهم!

هكذا خاطبني الشيطان ذات مرة: «للربّ أيضاً جحيمه: إنها محبته للبشر».

ومؤخرا سمعته يقول لي هذا الكلام: «إنّ الله قد مات؛ من جراء محبته للبشر مات الله».

لتحذروا الشفقة إذاً: **من هناك** أرى سحابة ثقيلة قادمة على البشر! حقا أقول لكم إن لي دراية بعلامات تقلب الأجواء!

ولتحتفظوا في أذهانكم بهذه الكلمة: كل محبة كبرى هي أرفع من شفقتها الخاصة؛ إذ محبوبَها هو من تريد ـ أن تخلقه!

«إنني أهب نفسي لمحبتي، **وقريبي أيضا معي**». ـ هكذا يكون كلام كل المبدعين.

لكنّ كل المبدعين قساة.

هكذا تكلم زرادشت.

عن القساوسة

ذات يوم أومأ زرادشت لتلامذته وخاطبهم بهذه الكلمات:

«أرأيتم هؤلاء القساوسة؛ لتمروا بصمت من أمامهم ولا تستلوا السيوف وإن كانوا أعداء لي!».

من بين هؤلاء أيضا هناك أبطال؛ العديد منهم قد تألموا كثيرا ـ لذلك يريدون أن يتألم الآخرون أيضا.

أعداء ألدّاء هم: لا شيء يتعطّش للانتقام مثل خضوعهم. وكل من يهاجمهم سرعان ما يغدو مدنّساً.

لكنّ لدمي قرابة مع دمهم؛ وإني لأريد أن يظل دمي مكرّماً حتى داخل دمهم».

وبعد أن مرّ جمع القساوسة استولى على زرادشت إحساس أليم، لكنه لم يقض سوى لحظات قليلة في مقاومة ألمه، وإذا هو يشرع في الكلام مجددا:

يؤلمني حال هؤلاء القساوسة، وأشمئز منهم أيضاً؛ إلاّ أنّ ذلك غدا أمرا هيّنا بالنسبة لي منذ أن وجدتني بين البشر.

ومع ذلك تألمت وأتألم لحالهم: سجناء هم بالنسبة لي يحملون وسومهم على جلودهم. وذاك الذي يسمّونه المخلِّص جعلهم مصفّدين في القيود:

في قيود القيم الكاذبة وأحاديث الأوهام! آه، ليتهم يجدون من يخلصهم من مخلِّصهم!

لقد خيّل إليهم في ما مضى أنهم أرسوا فوق جزيرة حين كانت تتقاذفهم أمواج البحر؛ وإذا هو غول نائم[١]!

القيم الكاذبة وأحاديث الأوهام: تلك هي أشرس الغيلان بالنسبة للفانين، - في جوفها يرقد الهلاك وينتظر متربصا.

لكنه يستيقظ أخيرا في يوم ما وينهض ويفترس ويبتلع كل من بنى لنفسه كوخا فوق جسده.

أو، أنظروا تلك الأكواخ التي بناها القساوسة لأنفسهم[٢]! كنائس يسمون مغاورهم تلك التي تعبق بروائح البخور.

أوه، ذلك النور المزيّف، وذلك الهواء العطن! هنا حيث لا ينبغي للروح أن تطير - نحو أعاليها!

بل هكذا يملي معتقدها: «زحفا على الركبتين اصعدو السلم أيها الخاطئون!»[٣].

---

(١) لعلها إحالة على ما يرد في ألف ليلة من قصص السندباد وما توهّم هو وأصحابه أنه جزيرة وإذا هو حوت هائل الجثة نائم قد نبت العشب فوق ظهره مما يجعل الناظر إليه - أو الطامع في النجاة - يتخيل أنه جزيرة.

(٢) متّى؛ الاصحاح ١٧/ ٤: «فجعل بطرس يقول ليسوع يا ربّ جيّد أن نكون هنا. فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظالّ، لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليّا واحدة». مع الملاحظة أن عبارة «مظلة» ترد في الترجمة الألمانية للإنجيل «كوخا»؛ أي: «إن شئت نصنع ثلاثة أكواخ...».

(٣) أنظر رسالة نيتشه إلى صديقه عالم اللاهوت فرانس أوفربك بتاريخ ٢٢ مايو ١٨٣٣ من روما: «... والبارحة قد رأيت بعيني أناسا يتسلقون السلم المقدّس la sancta scala زحفا على الركبتين!».

الحق أقول لكم، إني لأفضّل النظر إلى الفاجر على مشهد الأعين المنكسرة لخجلهم وخشوعهم.

من الذي ابتدع هذه الكهوف وسلالم التوبة؟ أليس أولئك الذين كانوا يريدون التستّر والذين كانوا يخجلون من منظر السماء الصافية؟

فقط عندما يلوح وجه السماء الصافية من خلال السقوف المتداعية ويلقي نظره على الأعشاب وأزهار الشقائق الحمراء الطالعة من خرائب تلك الجدران ـ عندها فقط سأميل بقلبي إلى مطرح هذا الإله.

ذلك الذي ناقضهم وجعلهم يتألمون هو الذي سموه إلها؛ والحق أقول لكم، لقد كان هناك الكثير من شيم البطولة في عبادتهم!

ثم لم يروا من طريقة أخرى لإبداء محبّتهم لإلههم غير أن يسمّروا الإنسان على الصليب!

جثثا ارتأوا لأنفسهم أن يحيوا، وسوادا أسدلوا على جثثهم؛ وإني لأشتمّ الرائحة الكريهة لغرف الموتى حتى في خطاباتهم.

من يقيم بالقرب منهم يكون كالمقيم إلى جوار برك كدِرة تتصاعد منها النغمات المعسولة لتراتيل الضفدع الكئيبة.

أغان أفضل لا بد أن يغنّوا لي كي أتعلم الإيمان بمخلّصهم، وأكثر طمأنينة لا بد أن يتراءى لي تلامذته.

عراة أريد أن أراهم: ذلك أن الجمال وحده هو الذي يحق له أن يكرز للتوبة. إذ من ترى سيمكن إقناعه بهذه الكآبة المقنّعة!

الحق أقول لكم إنّ مخلّصيهم أنفسهم ليسوا قادمين من فضاء

الحرية، ومن السماء السابعة للحرية[1]! حقا، إنهم لم يتنقّلوا البتّة فوق بساط المعرفة!

من فجواتٍ قد لُفّق عقل هؤلاء المخلّصين؛ لكنهم في كل فجوة وضعوا فكرتهم الوهميّة، سدّاد فجواتهم ذلك الذي سمّوه إلهاً.

في شفقتهم غرق عقلهم، وكلما انتفخوا وفاضوا بشفقتهم طفت على السطح حماقة كبرى.

بحماس متوقّد كانوا يقودون قطعانهم على دربهم زاعقين، كما لو أنه ليس هناك سوى **درب واحد** يقود إلى المستقبل! الحقَّ أقول لكم، إن هؤلاء الرعاة هم أيضا من فصيلة الخرفان.

ذوو عقول صغيرة وصدور رحبة كان هؤلاء الرعاة؛ لكنْ موطنَا ضيّقاً، وأيّ ضيق يا إخوتي، كانت أكثر الصدور رحابة!

آثارا من دم كانوا يخطّون على الدرب التي يسلكونها، وكانت تعاليم جنونهم تقول إنما بالدم يتم إثبات الحقيقة.

لكن الدم أسوأ شاهد على الحقيقة؛ إن الدم يسمّم أنقى التعاليم ويجعل منها جنونا وحقدا يعمّران القلوب.

وعندما يلقي الواحد بنفسه في النار من أجل مذهبه ـ أي شيء يعني هذا الصنيع! الحق أقول لك، إنه لأفضل أن يكون لهيبك الخاص هو منبع مذهبك[2]!

---

(١) في المسودات Z I 3,230 نقرأ: «آه، لكم يؤلمني منظر هؤلاء (القساوسة) الأسرى، هؤلاء الذين لم يُكتب لهم الخلاص! مقارنة بهم (أنا أحيا) يحيا زرادشت في السماء السابعة للحرية!».

(٢) يتناول نيتشه هذه المسألة بأكثر تفصيل في الفقرة ٥٣ من كتاب **المسيح الدجّال**، التي اقتطع منها الجمل الثلاثة الأخيرة: «إن الفكرة القائلة بأن الشهادة (الاستشهاد) يمكن أن=

قلبٌ مثقل بحرارة ورطوبة خانقة، وعقل باردٌ: حيثما اجتمع هذان الأمران، فهناك يكون منشأ الريح الهادرة: «المخلّص»!

وفي الحقيقة هناك من هم أعظم منزلة وأسمى منبتاً من أولئك الذين يدعوهم الشعب مخلّصين؛ تلك الرياح الهادرة التي تدوّخ العقول.

=تقيم الدليل على صحة قضية ما أمر خاطئ بما يجعلني أريد أن أفند وأنكر أن يكون لشهيد في يوم ما أية علاقة بالحقيقة. وإن النبرة التي يلقي بها الشهيد بحقيقته اليقينية في وجه العالم لتعبّر في حد ذاتها عن مدى المستوى المتدني لنزاهته الفكرية وتحجرا أقصى في ما يتعلق بـ«الحقيقة» بما يجعل الشهيد لا يحتاج إلى أي إنكار وتفنيد. (. . .) واقعات موت الشهادة كانت أكبر كارثة عرفها التاريخ: لقد أغوت. . . كل السخفاء، بما في ذلك المرأة وجمهور الشعب، واستدرجتهم إلى الاستنتاج بأن قضية يلقي امرؤ بنفسه من أجلها إلى الموت (أو ينجم عنها انتشار موجة من الموت الطوعي كما حدث في المسيحية المبكرة) لا بد أن تكون قضيّة تحمل ما تحمل من الأهمية - مثل هذا الاستنتاج قد تحول بصفة لا تصدق إلى قيد يكبل طاقة الاختبار والعقل الممحص والحذر الذهني. إن الشهداء قد أضرّوا بالحقيقة. . . واليوم أيضا يكفي أن تكون هناك قسوة في الملاحقة كي يضفى إسم الشرف والرفعة على فكرة طائفية تافهة في حد ذاتها. - ماذا؟ أيحصل تغير شيء في قيمةِ قضيةٍ ما لمجرد أن واحدا قد ألقى بحياته إلى التهلكة من أجلها؟ - إن خطأ يُصبغ عليه لقب الشرف هو خطأ قد غدا ينطوي على مزيد من جاذبية الإغراء: أتعتقدون أيها السادة القساوسة أننا سنمنحكم فرصة لتجعلوا أنفسكم شهداء لأكاذيبكم؟. . . ذلك بالضبط هو ما كان الغباء التاريخي لكل المضطهِدين (بالكسر)، أن منحوا قضية منافسيهم مظهر الشرف، وأن قدموا لهم هدية الطابع الخلاب للشهادة. . . إن النساء ما زلن يجثون على ركبتيهن أمام خطأ لأنه قيل لهن أن أحدا قد مات على الصليب من أجل ذلك. فهل الصليب حجة إذاً؟ - لكن هناك واحد فقط قد قال في شأن هذه الأشياء كلها الكلمة التي ظل يُحتاج إليها منذ آلاف السنين؛ إنه زرادشت:

«علامات بالدم كانوا يخطّون على الدرب التي يسلكونها، وكانت تعاليم حمقهم تقول إنما بالدم يتم إثبات الحقيقة.

لكن الدم أسوأ شاهد على الحقيقة؛ إن الدم يسمّم أنقى التعاليم ويجعل منها جنونا وحقدا يعمّران القلوب.

وعندما يلقى الواحد بنفسه في لهب النار من أجل مذهبه - أي شيء يعني هذا الصنيع! الحق أقول لك، إنه لأفضل أن يكون لهبك الخاص هو منبع مذهبك!».

عليكم أن تخلصوا أنفسكم من أكبر مخلّص من بين المخلّصين جميعا يا إخوتي، إذا ما أردتم أن تجدوا طريقكم إلى الحرية!

أبدا لم يكن هناك إنسان أعلى. عارييْن رأيت كلاً من الإنسان العظيم والإنسان الحقير:

متشابهيْن جدا أراهما. والحق أقول لكم، حتى أعظم الناس قد بدا لي - مفرطا في الإنسانيّة!

هكذا تكلم زرادشت.

عن الفضلاء

رعوداً وصواعق يجب أن يتكلم المرء إلى الحواس المرتخية النائمة.

لكنّ صوت الجمال همساً يتكلّم: إنه لا يتسلل إلاّ إلى الأرواح اليقِظة.

بهدوء ارتعش درعي اليوم وهو يضحك لي: إنها ارتعاشة الجمال وضحكته المقدّسة.

جمالي يضحك منكم اليوم أيها الفضلاء، وقد تناهى لي صوته قائلا: «ويريدون أيضا ـ أن يُدفع لهم أجر!».

تريدون أن يكون لكم أجر، أيها الفضلاء! تريدون جزاء على فضيلتكم وسماءً مقابل الأرض، وخلوداً مقابل يومكم هذا؟

وها أنتم تسخطون عليّ الآن لأنني أعلّم أن لا محاسب ولا موزّع أجور هناك؟ والحقَّ أقول لكم إنني لا أعلّم حتى بأن للفضيلة جزاء في ذاتها.

أواه، هذا هو الذي يحزنني: في عمق الأشياء دُسّت أكذوبة الأجر والعقاب ـ والآن هي ذي تندسّ أيضا في عمق أرواحكم أيها الفضلاء!

لكن لتكن كلمتي مثل خطم الخنزير الوحشي، تقوّض قاع أرواحكم؛ سكة محراث أريد لكم.

ولتُطرحْ كل خفايا دخيلتكم خارجاً في الضوء؛ وعندما تنطرحون تحت الشمس تربةً مقلوبة مفتّتةً، عندها تُفصل أكاذيبكم عن حقيقتكم.

إذ هذه هي حقيقتكم: أنتم أكثر **نقاءً** من أن تتلوّثوا بقذارة هذه الكلمات: انتقام، عقاب، جزاء، ثأر.

تحبون فضيلتكم محبة أم لطفلها؛ لكن متى سمعتم بأم تبتغي أجرا على حبّها[١]؟

فضيلتكم هي نفسُكم وأغلى ما في نفسكم. ظمأ الدائرة هو الذي يسكن في داخلكم؛ إذ كل دائرة تلف وتدور حول نفسها متطلعة إلى الالتحاق بذاتها.

ومثل الكوكب الذي ينطفئ، هكذا هو كل عمل من أعمال فضيلتكم: أشعته الضوئية تظل ماضية في طريقها دوما ومتنقلة ـ لكن، متى ستتوقف عن التنقل؟

هكذا إذاً يظل نور فضيلتكم متنقلا حتى بعد أن يكون العمل قد أُنجز وانتهى. وحتى إذا ما غدا الآن منسيا ميتا، فإن نوره يظل حيا ولا يتوقف عن التنقل.

أن تكون فضيلتكم هي ذاتكم وليست عنصرا غريبا، قشرة ولحافا: تلك هي الحقيقة الكامنة في أعماق روحكم، أيها الفضلاء! ـ

لكن هناك أيضا أولئك الذين لا تعدو فضيلتهم كونها تشنّجا تحت لذع السياط: ولَكم سمعتم من صرخات هذه الفضيلة!

---

(١) بنفس الكلمات تقريبا يعبر المتصوفة عن رؤيتهم للمحبة الإلهية. رابعة العدوية مثلا وهي أول من تكلم في «المحبّة» تدعو إلى عبادة مجردة من انتظارات الأجر والعقاب؛ الأجر والعقاب، الجنة والنار حجابان. وأبو يزيد البسطامي الذي يقول متكلما على لسان الله: كل الناس يحبونني ابتغاء أجر ينتظرونه مني إلا أبا يزيد فإنه يحبني لنفسي.

وهناك آخرون يسمّون تكاسل رذيلتهم فضيلة، وعندما يستلقي حقدهم وحسدهم ممدّدَيْن أعضاءهما تستفيق «عدالتهم» وتفرك عينيها المثقلتين بالنعاس.

وآخرون يجدون أنفسهم منجذبين إلى الأسفل؛ شياطينهم هي التي تجذبهم، لكنهم كلما انحدروا أكثر باتجاه القاع إلاّ وازداد لمعان أعينهم التهابا وتأججت لهفتهم على إلههم.

صراخ هؤلاء أيضا يتناهى إلى مسامعكم أيها الفضلاء: «ما لم أكُنه، فذلك هو الله والفضيلة بالنسبة لي!».

وهناك آخرون تراهم يتقدمون بخطى ثقيلة مصرّين مثل عربات محمّلة بالحجارة تنزل منحدرا: هؤلاء يتكلمون كثيرا عن الكرامة والفضيلة، ـ فراملَ دواليبهم يدعون الفضيلة!

وهناك آخرون أشبه بساعات معدّلة؛ تدق دقاتها وتريد أن يدعو الناس تكْتكَتها تلك ـ فضيلة.

الحقَّ أقول لكم إنني أجد تسلية في هؤلاء: وحيثما وجدت مثل هذه الساعات أعدّلها بسخريتي؛ ولْتُسمعْني قرقرتها أيضا عندئذ!

آخرون يشعرون بالفخر لنزر قليل من عدالة لديهم يقترفون بسببه ضروبا من الشنائع في حق الأشياء كلها، إلى أن يغرق العالم بكليته في مظالمهم.

لكم هي مقرفة عبارة «فضيلة» وهي تسري على أفواههم! وعندما يقول أحدهم: «أنا عادل»، فإن لكلمته تلك دوما وقع: «اقتصصتُ لنفسي»(*).

(*) تلاعب بالكلمات: gerecht (عادل) وgerächt (قد تحقّق انتقامي، أو انتقمت لنفسي)، =

بفضيلتهم يريدون أن يفقؤوا عينيْ عدوهم؛ وهم لا ينهضون إلا لكي يحطّوا من منزلة غيرهم.

وهناك أيضا أولئك الذين يقبعون في مستنقعهم ويتكلمون من خلال قصبة: «الفضيلة ـ أن تجلس ساكنا داخل المستنقع.

إننا لا نعضّ أحدا ونبتعد عن طريق من له رغبة في أن يعضّ؛ وفي كل أمر لنا الرأي الذي أعطيَ لنا».

وهناك أيضا أولئك الذين يحبّون الحركات ويفكرون: إن الفضيلة نوع من الحركات.

تراهم جاثين على ركبهم متعبدين وأيديهم تتحرك بالتسبيح للفضيلة، وليس في قلوبهم من إدراك لشيء من ذلك.

وهناك أيضا أولئك الذين يعتقدون أن الفضيلة في قولهم: «إن الفضيلة أمر ضروري»، لكن في أعماقهم لا يعتقدون إلا في أن الشرطة ضرورية.

وبعضهم ممن لا يستطيع أن يرى السمو الذي في الإنسان، يسمي فضيلةً أن ينظر عن قرب إلى كل ما هو خسيس فيه: وهكذا يسمي نظرته السيئة فضيلة[1].

=وقد تعذر علينا نقلها في هذه الصيغة المحبذة لدى نيتشه، والتي يبدو واضحا أنه لا يستعملها لمجرد تلاعب بالألفاظ فقط، بل يشير من خلالها إلى مدى ما تنطوي عليه اللغة من طاقات على المكر والمخاتلة والخداع وما تتستر عليه من قدرات على الفضح تعادل قدرتها على التعتيم. هكذا يتحول القارئ بموجب هذه اللعبة لا إلى مستهلك لمعان ملقاة على سطح النص، بل إلى فكّاك ألغاز ـ وألغام.

(١) أنظر **في ما وراء الخير والشر**؛ الشذرة ٢٧٥: «من لا يريد أن يرى سموّ إنسان ما، ينظر بعين ثاقبة أكثر بحثا عما هو خسيس وسطحي فيه ـ ويفضح نفسه في الآن نفسه».

وآخرون يريدون أن يروا أنفسهم مشيَّدين وقائمي البنيان، ويدعون ذلك فضيلة، بينما آخرون يريدون أن يروا أنفسهم مقوّضين مهدّمين ـ ويدعون ذلك أيضا فضيلة.

على هذا النحو يعتقد كل واحد تقريبا أن له من الفضيلة قسط؛ وكل واحد يدعي على الأقل أنه على دراية بـ«الخير» وبـ«الشر».

لكن زرادشت لم يأت ليقول لكل هؤلاء الكَذَبة والمهرجين المغفّلين: «ماذا تعرفون عن الفضيلة؟ وما الذي يمكنكم أن تعرفوا عن الفضيلة؟».

بل ليجعلكم تملّون الكلمات القديمة التي تعلمتموها من المهرجين المغفّلين والكَذَبة أيها الأصدقاء.

لتملّوا عبارات: «جزاء» و«قصاص» و«عقاب» و«الانتقام الذي في العدالة».

لتملّوا قولَ: «إن ما يجعل عملا ما جيدا هو كونه مجانيا غيرانيا».

آه، أيها الأصدقاء، أن تكون **ذاتُكم** في العمل الذي تعملون كما الأمُّ تكون في الولد: لتكن تلك هي **كلمتكم** عن الفضيلة!

حقا، لقد سلبْتُكم مائة كلمة واللعبة المحبّبة لفضيلتكم؛ وها أنتم حانقون عليّ الآن حنق أطفال افتكّت منهم لعبتهم.

أطفال كانوا يلعبون على الشاطئ، وها موجة تأتي وتنتزع لعبتهم لتقذف بها إلى الأعماق: إنهم يبكون الآن، لكن الموجة ذاتها ستأتي محملة بلُعب جديدة وأصدافا ملوّنة تقذف بها أمامهم!

هكذا يجدون سلوانا لهم؛ ومثلهم ينبغي لكم أن تجدوا عزاءكم أيها الأصدقاء، وأصدافا ملونة جديدة! -

هكذا تكلم زرادشت.

عن الرعاع

إن الحياة نبع مسرّة؛ لكن حيثما يكرع الرعاع تتسمم كل الآبار[١].

إنني صديق لكل ما هو نقيّ؛ لكنني لا أحب الأشداق المكشّرة ولهفة النّجسين.

لقد ألقوا بنظراتهم في قاع البئر؛ وهاهي ابتسامتهم الكريهة تبرق منعكسة على صفحة الماء.

---

(١) مسائل العزلة وحب النقاوة والابتعاد عن الرعاع يشرحها نيتشه في كتاب **هذا هو الإنسان**؛ فصل «لِم أنا على هذا القدر من الحكمة»، الفقرة ٨: «هل يمكنني ان أجرؤ على ذكر عنصر أخير من ملامح طبيعتي؛ تلك التي جلبت لي صعوبات ليست بالهيّنة في علاقاتي مع الناس؟ إن غريزة النقاوة لديّ تتمتع بحساسية مرهفة رهيبة تجعلني أدرك فزيولوجيا قرب ـ ماذا أقول؟ ـ بل الأعماق الحميمية والأحشاء الدفينة لكل نفس؛ أشتمّها... إنني أستحمّ وأسبح وأتمرّغ على الدوام، بشكل ما، في مياه صافية؛ في أي عنصر كامل شفّاف ولامع الصفاء، كما تعوّدت دوما ـ إن نقاوة مطلقة من حولي لهي شرط حياتيّ بالنسبة لوجودي؛ أنا أهلك داخل شروط وجود غير نقيّة ـ. ذلك هو ما يجعل من علاقاتي مع الناس امتحانا غير يسير لطاقة تحمّلي؛ إن «**إنسانيتي**» لا تتمثل في التعاطف مع الإنسان في وجوده، بل في أن أتحمل الشعور بوجوده إلى جانبي... إنسانيتي هي تجاوز متواصل للذات. إلا أنني بحاجة إلى العزلة، أعني إلى المعافاة، وإلى العودة إلى الذات والتنفّس من هواء خفيف لاعب طلْق... إن زرادشت بكلّيته نشيد مدائحي للعزلة، أو للنقاوة، إذا ما تمّ فهمي جيّدا... وليس للحمق الخالص من حسن الحظ ـ ومن لديه عينان لتمييز الألوان فسيسميه ماساً. إن القرف الذي يثيره فيّ الناس، القرف تجاه «الرعاع»، كان دوما أكبر خطر عليّ...».

سمّموا الماء المقدّس بطمعهم؛ وعندما سمّوا أحلامهم القذرة فرحاً سمّموا الكلمات أيضا.

وعندما يضعون قلبهم الرطب على النار ينكمش اللهب ويغدو متبرما؛ والعقل ذاته يغدو فائرا داخناً عندما يقترب الرعاع من النار.

حامضةً ومترهلةً تغدو الثمار في أيديهم، ونظرة فقط من أعينهم تجعل الشجرة تتيبّس وتغدو عقيمة.

وكم من مدبر عن الحياة لا يفعل في الحقيقة سوى إدارة ظهره للرعاع: إنه لا يريد أن يقاسم الرعاع البئر والنار والفاكهة.

وهناك من دخل الصحاري وقاسم الوحوش آلام العطش، ولم يكن مراده سوى أن لا يجلس إلى النبع مع رعاة الإبل القذرين.

وهناك من كان يُقبل إقبال المدمِّر، وابلاً من حجر البرَد يهبط على حقول الزرع، وهو لا يريد سوى أن يحشر قدمه في شدق السفلة ويسدّ بلعومها.

ولم تكن أشد الأمور وطأة على نفسي أنّ الحياة ذاتها تقتضي وجود العداوة والموت وشهداء يعلّقون على الصليب؛ ـ

بل أن حدث لي أن تساءلت ذات مرة وكدت أختنق بسؤالي: ماذا؟ هل الحياة **في حاجة** إلى الرعاع أيضا؟

هل الآبار المسمومة والنار النتنة والأحلام المدنّسة والديدان التي في خبز الحياة كلها ضرورية؟

ليس حقدي، بل قرفي هو الذي يلتهم حياتي بنهم! آه، لقد غدا العقل بدوره مملاً بالنسبة لي منذ أن وجدْتُ الرعاع أيضا ذات عقول!

وأدرت ظهري للحاكمين عندما رأيت ما الذي يسمّونه حكما: السمسرة والمساومة على السلطة ـ مع الرعاع!

بين شعوب ذات لسان غريب عشت بأذنين مسدودتين كي تظل بعيدة عن مسمعي سمسرتهم ومساوماتهم على السلطة.

محكماً يدي على أنفي كنت أمضي ممتعضا عبر كل ما مضى وما هو حاضر: الحقَّ أقول لكم إن الأمس واليوم بكلّيتهما يفوحان بنتانة الرعاع الكتَبة!

مثل معاق أصم وأعمى وأخرس أصبحت: هكذا كان علي أن أحيا لزمن طويل كي أظل بعيدا عن رعاع السلطة ـ والكتابة ـ والرغبة.

بعسر شديد كان عقلي يتسلق سلالم، وبحذرٍ؛ صدقاتٍ من فرح كان شرابه المنعش؛ وكانت الحياة تتسلل منفلتة من تحت عكاز الأعمى الذي كنت.

ما الذي حدث لي إذاً؟ كيف خلّصت نفسي من القرف؟ من أعاد إلى عيني فتوّتها؟ كيف طرت إلى هذه الأعالي حيث لا يجلس أحد من الرّعاع إلى النبع؟

أهو قرفي الذي صنع لي أجنحة وطاقات على استشعار الينابيع؟ لقد طرت في الحقيقة عالياً حتّى تمكّنت من أن أجد نبع المسرّة من جديد!

لقد وجدته يا إخوتي! هنا في الأعالي يتدفّق لي نبع المسرّة! وهنا حياة لا يكرع معي منها أحد من الرّعاع!

بعنف يكاد يكون قاسيا تتدفّق أيّها النبع! وأحياناً تُفرغ الإناء فيما أنت تريد أن تملأه.

عليّ أن أتعلّم كيف أقترب منك بتواضع، فقلبي يندفع إليك بعنف شديد هو الآخر:

ـ قلبي الذي يتّقد فوقه صيْفي، صيفي القصير، الساخن، الكئيب والمغمور بالفرح: لكم يتحرّق قلبي الصيفيّ إلى طراوة بردك أيّها النبع!

وداعاً كآبة الربيع المتردّدة! وداعاً ندفات ثلج خبثي في شهر حزيران. صيفاً غدوت بكلّيتي، وظهيرةَ صيفٍ،

ـ صيفٌ في الأعالي مع نبع طريّ وسكينة سعيدة: تعالوا، أي أصدقائي كي تغدو السكينة أكثر سعادة!

فهذه هي أعالينا وموطننا: بالغُ العلوّ مسكنُنا، وطريقه وعرٌ على الملوّثين وعلى لهفة أطماعهم.

ألقوا نظرة بعيونكم النقيّة في نبع مسرّتي أيّها الأصدقاء! أنّى له أن يتعكّر من جرّاء ذلك؟ بل ضاحكاً سيقابلكم بصفائه. فوق شجرة المستقبل نبني عشّنا؛ وغذاؤنا ستحمله لنا الصقور في مناقيرها، نحن المنعزلون(١)!

حقاً أقول لكم إنّه لن يكون غذاءً يقاسمنا إيّاه النّجسون! جمراً سيحسبون ذلك الذي يتناولونه، وبه ستحترق أشداقهم.

حقاً أقول لكم، إنّنا لا نعِدّ هنا مواطن للنجسين! كهف صقيع ستكون سعادتنا على أجسامهم وعقولهم!

---

(١) أنظر العهد القديم؛ الملوك الأول ـ الاصحاح ١٧/٣ ـ ٦: «وكان كلام الرب له (إيليا) قائلا انطلق من هنا واتجه نحو المشرق واختبئ عند نهر كَريث الذي هو مقابل الأردن، / فتشرب من النهر وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك. / فانطلق وعمل حسب كلام الرب وذهب فأقام عند نهر كريث الذي هو مقابل الأردن. / وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباح وبخبز ولحم مساء وكان يشرب من النهر». ـ مع فارق أن نسورا هي التي تأتي بأكل زرادشت وليست غربانا. سنرى لاحقا أن النسر والحية هما الذان يتوليان البحث عن طعام زرادشت.

وكما الرياح العاتية نريد أن نحيا فوقهم، جيراناً للصقور، جيراناً للثلج، جيراناً للشمس: كذا تحيا الرياح العاتيّة.

كما الريح أريد أن أعصف بينهم ذات يوم، وبعقلي أقطع أنفاس عقولهم: ذلك ما يريده مستقبلي.

حقاً أقول لكم، ريح شديدة هو زرادشت في وجه كلّ الأراذل، وإنّه لينصح أعداءه وكلّ من يبصق ويتقيّأ: إيّاكم والبصاق في وجه الريح! . . .

هكذا تكلم زرادشت.

عن العناكب[1]

أنظر، هو ذا وكر العنكبوت! أتريد أن تراه؟ هنا يتدلّى نسيجه: حرّكه لكي يرتعش.

ها هو يقبل بمحض إرادته: مرحبا أيها العنكبوت! فوق ظهرك تحمل مثلثك الأسود وعلامتك؛ وإنني أعرف أيضا ماذا يختبئ في خفايا نفسك.

الانتقام هو الذي يقبع في قاع نفسك؛ وحيثما عضضت تتكوّن قشرة سوداء، وسُمّك يسكر النفس برغبة الانتقام!

هكذا أخاطبكم بأمثال ستصيب أنفسكم بالدوار، يا دعاة **المساواة!** عناكب أنتم في نظري وذوي تعطش دفين للانتقام.

لكنني أريد أن أطرح مخابئكم إلى النور؛ لذلك أقهقه في وجوهكم بضحكتي القادمة من الأعالي.

لذلك أمزّق نسيجكم كي يخرجكم حنقكم من مغارة أكاذيبكم ويجعل ضغينتكم تقفز من وراء كلمة «العدالة» التي تسري على ألسنتكم.

---

(١) «سوداء وتُلطّخ بالسواد هي صناعة العنكبوت: عناكب أسمّي دعاة «العالم الأكثر سوء من بين العوالم» من مسودات زرادشت؛ الشذرة ١٠[٧] كنشات يوني - يولية ١٨٨٣. المجلد العاشر من الأعمال الكاملة. طبعة الدراسات النقدية (KSA).

إذ أن **يخلّص الإنسان من الضغينة**: ذلك هو جسر العبور إلى أرقى الآمال في نظري وقوس قزح الذي يطلع بعد عواصف طويلة.

لكن العناكب تبتغي غير ذلك في الحقيقة. «إن العدالة تعني لدينا أن تغمر العالم عواصف انتقامنا» ـ هكذا يتحدثون في ما بينهم.

«انتقاما نريد أن ننزل بكل الذين ليسوا مثلنا ونغمرهم بالشتائم». ذلك هو الوعد الذي يأخذه ذوو قلوب العناكب على أنفسهم.

«إرادة المساواة»[١] ذلك ما سيغدو من هنا فصاعدا إسما للفضيلة؛ وضد كل ذي قوّة سنرفع صوتنا!».

أيها الداعون إلى المساواة، إن الجنون الغاشم للعجز هو الذي يصرخ من خلالكم مطالبا بالـ«مساواة»: هكذا تتنكر رغبات الاستبداد الأكثر خفاء في دواخلكم تحت عبارات الفضيلة[٢]!

---

(١) عبارة «إرادة المساواة» التي يضعها نيتشه عمدا بين ظفرين هي الدعوة المناقضة لـ«إرادة القوة»، المفهوم المركزي في الفكر النيتشوي، والذي يعتبره محرك الحياة والدافع الداخلي إلى التطور عبر التناقض وصراع القوى المتفاوتة. هذا المفهوم النقيض يدعوه نيتشه بـ«العقيدة». راجع **المعرفة المرحة**؛ الكتاب الثالث ـ الفقرة ١٢٠: «عافية الروح ـ . . . كلما سمح للفرد والذي لا قرين له بأن يرفع رأسه من جديد إلا وتعلمنا كيف ننسى دوغمائية «تساوي الناس. . .».

(٢) «الداعون إلى المساواة»: يبدو أن المعنيّ هنا هو روسّو الذي استهدفته أكثر من مرة الانتقادات القاسية لنيتشه. يعتبر نيتشه فكرة المساواة التي تأسست عليها الثورة الفرنسية من ابتداع روسو كما يرد في **أفول الأصنام** على سبيل المثال، فصل: «تسكعات رجل غير ملائم للعصر»؛ الفقرة ٤٨ بعنوان «التطور كما أتصوره»: «أنا أيضا أتكلم عن «العودة إلى الطبيعة»، وإن كان الأمر لا يتعلق برجوع، بل بحركة صعود ـ صعود إلى الطبيعة وإلى الحالة الطبيعية الحرة المرتفعة والفظيعة حتى، من النوع الذي يلعب بمهمات عظيمة، ويحق له أن يلعب. . . ولكي أعبر عن ذلك بمثل أقول: نابليون كان قسطا من «العودة إلى الطبيعة» كما أفهما أنا. . . ـ لكن روسو ـ إلى أين كان يريد أن يعود ذلك الشخص في=

غرور منغّص وحسد مكبوت؛ لعلّه غرور آبائكم وحسدهم يصّاعد من داخلكم مثل لهب وجنون انتقام.

ما كان يكتمه الأب يعبّر عن نفسه لدى الإبن، وكثيرا ما وجدت في الإبن سرّ الأب منكشفاً.

في هيأة المتحمسين يبدون؛ لكن ليس القلب هو الذي يؤجج حماسهم - بل رغبة الانتقام. وعندما يصبحون مؤدبين مرهفين وباردين، فليس العقل هو الذي يجعلهم مؤدبين مرهفين وباردين، بل الحسد.

غيرتهم تقودهم على درب المفكّرين أيضا. وهذه هي علامة غيرتهم: إنهم يمضون دوما إلى أبعد ما يمكن، إلى أن ينتهي تعبهم بأن يستلقي لينام على الجليد في آخر المطاف.

في كل أنة من شكواهم يرنّ صوت الانتقام، وفي كل مديح من مدائحهم أذى مضمر؛ وأن ينصّبوا أنفسهم حكاما فذلك هو عين السعادة لديهم.

=الحقيقة؟ روسو ذلك الإنسان الحديث الأول، مثالي وسوقي في شخص واحد؛ ذلك الذي كان بحاجة إلى «الكرامة» الأخلاقية كي يستطيع تحمل هيأته؛ مريض بغرورٍ منفلتٍ من كل قيد واحتقارٍ للذات لا يعرف حدا. هذا الطِّرح يريد هو أيضا «العودة إلى الطبيعة». - ومرة أخرى: إلى أين يريد روسو أن يعود؟ - أبغض روسو في الثورة أيضا: إنها التعبير التاريخي عن هذه التركيبة المزدوجة للمثالي والسوقي. والمسخرة الدموية التي تمت بها تلك الثورة و«لاأخلاقيتها» لا تعنيني؛ ما أبغضه هي الأخلاقانية الروسوويّة؛ «الحقائق» المزعومة للثورة، التي تجعلها تظل إلى الآن قادرة على التأثير وعلى كسب تعاطف كل سطحي ورديء. تعاليم المساواة!... ليس هناك من سمّ أكثر فتكا: ذلك أنها تبدو وكأنها دعوة متأتية من مبدأ العدالة، بينما هي نهاية العدالة... «المساواة بين المتساوين، والتفاوت بين من لا يتساوون»، هكذا ينبغي أن يكون خطاب العدالة: ويكون نتيجة ذلك أن «لا يساوَى أبدا بين من هم غير متساوين...».

لكنني هكذا أنصحكم أيها الأصدقاء: احذروا كل من كان لغريزة الانتقام سلطان عليه!

طائفة من نوع وأصل رذيلين هم هؤلاء، وعلى صفحات وجوههم تلتمع نظرة الجلاد وكلب الصَيد.

لترتابوا من كل أولئك الذين يكثرون من الكلام عن عدالتهم! الحق أقول لكم ليس العسل وحده هو ما ينقص أرواح هؤلاء.

وعندما يدعون أنفسهم بـ «الصالحين والعادلين» فلا تنسوا أن لا شيء ينقصهم عن منزلة الفرّيسيّين سوى ـ السلطان!

أيها الأصدقاء، إنني لا أريد أن يحصل في شأني خلط والتباس.

فهناك أولئك الذين يكرزون لتعاليمي عن الحياة، وفي الآن نفسه يدعون للمساواة وتعاليم العناكب.

أن يتكلموا بعبارات الإطراء على الحياة بينما هم يقبعون في جحورهم مديرين ظَهرهم للحياة، أولئك العناكب السامة، فذلك يعني: إنهم إنما يريدون بذلك الإيذاء.

إنهم يريدون إلحاق الأذى بأولئك الماسكين بزمام السلطة في الوقت الحاضر: إذ لدى هؤلاء المدّعين تكون الدعوة إلى الموت في وكرها المبجّل.

ولو كان الأمر على غير هذه الحال فإن العناكب ستكرز بغير هذه التعاليم: فهذا الرهط بالذات كان في ما مضى أفضل من يجسّد الافتراء على الحياة والزجّ بالهراطقة في المحارق.

لا أودّ أن أُمزَج بدعاة المساواة ولا أن يُخلَط بيني وبينهم. إذ هكذا تحدّثني العدالة: «الناس ليسوا سواسية».

ولا ينبغي لهم أيضا أن يصبحوا كذلك! إذ ماذا عن حبي للإنسان الأعلى إذاً، لو أنني تكلّمت بغير هذا الكلام؟

ليمضوا متدافعين فوق ألف جسر وعلى ألف درب نحو المستقبل، ولتكن بينهم على الدوام حروب أكثر ولامساواة: هكذا تجعلني محبتي الكبرى أتكلم!

مبدعوا صور وأطياف ينبغي أن يكونوا في غمرة عداواتهم، وليمضوا بصورهم وأطيافهم ليخوضوا معركة المعارك ضد بعضهم البعض!

خير وشرّ، غني ومعدم، سام ووضيع، وكل ما للقيم من الأسماء: لتكن كلها أسلحة بأيديهم ومعالم مجلجلة بأنّ الحياة مطالبة بتجاوز نفسها على الدوام!

في الأعالي تريد الحياة أن تشيّد نفسها على أعمدة ومدارج: نحو أقاص بعيدة تريد أن ترنو بنظرها ومن ورائها إلى آيات جمال سعيدة - **لذلك** هي تحتاج إلى علوّ!

ولأنها تحتاج إلى علوّ، فهي بحاجة إلى درجات وإلى تناقض الدرجات والصاعدين! صعوداً تريد الحياة، وصعوداً تريد تجاوز نفسها.

لتنظروا إذاً يا أصدقائي! هنا حيث وكر العنكبوت ترتفع خرائب معبد قديم باتجاه الأعالي - لتنظروا إذاً بأعين مستنيرة!

الحق أقول لكم إنّ ذلك الذي رصّف في ما مضى أفكاره داخل عمود قائم من الحجر قد كان على علم بسرّ الحياة كلها يعادل علم أحكم الحكماء!

أن يكون هناك صراع ولا مساواة في الجمال أيضا، وحرب من أجل القوة والتفوق: ذلك ما يعلمنا إيّاه هنا في أكثر الأمثال وضوحا.

كيف تتلاحم الأقواس والقباب وتكسر بعضها البعض داخل صراع قدسيّ: كيف تحمل على بعضها متصادمة بأسلحة النور والظلال، تلك الكائنات المقاتلة القدسيّة!

لنكن أعداء بمثل هذا اليقين الواثق وهذا الجمال إذاً يا أصدقائي! صراعا قدسيّاً نريد أن نخوض ضدّ بعضنا البعض! -

الويل! ها أنّ العنكبوت قد عضّني أنا أيضاً، عدوّي القديم أيها الأصدقاء! بوثوق وجمال قدسيّ عضني العنكبوت في إصبعي!

«لا بد من عقاب وقصاص» - هكذا يفكّر عدوي: «ليس مجانا يكون تغنّيه هنا بالعداوة غناء الممجّد!».

أجل، لقد انتقم مني! يا ويحتي، والآن سيجعل روحي أنا أيضا تلفّ بدُوار الانتقام!

لكن، لتوثقوني هنا إلى هذا العمود يا أصدقائي، كي لا ألفّ[1]! إنه لأحبّ إليّ أن أغدو راهبا من رهبان الأعمدة من أن أتحول عجاجة لرغبة الانتقام!

---

(١) على غرار عوليس في الأوديسة الذي أمر رجاله بأن يوثقوه إلى صاري سفينته كي لا يلقي بنفسه في المياه استجابة لغواية غناء عرائس البحر. «وحدي كنت أسمع أصواتهن؛ لكن لا بد أن أظل مثبّتا في مكاني موثوقا بقيود متينة إلى عمود الصاري، وإذا ما توسلتكم، وإذ ما أمرتكم أن تحلوا رباطي، لتضيفوا لفّة إضافية إلى وثاقي!».

الحق أقول لكم، ليس زرادشت بعجاجة وإعصار؛ وإن كان راقصا فإنه لن يكون أبداً راقص تارنتيلا(*).

هكذا تكلّم زرادشت.

(*) رقصة شعبية من جنوب إيطاليا.

عن مشاهير الحكماء

الشعبَ وخرافات الشعب خدمتم يا معشر مشاهير الحكماء جميعا ـ **وليس** الحقيقة! ولهذا بالذات غمركم الناس بآيات الإجلال.

ولذلك أيضا تحمّل الناس عدم إيمانكم، لأنه كان مجرد دعابة ومسلكا ملتويا باتجاه الشعب. كذا يفعل السيد وهو يغض الطرف عن عبيده ويتسلى أيضا بمرحهم العابث.

لكنّ الذي يكون مكروها من الشعب كالذئب لدى الكلاب: هو العقل الحر(١)، عدوّ القيود، المُدبر عن العبادة، الساكن في الأدغال.

---

(١) «العقل الحر» أو «العقول الحرة» مصطلح يختلف عن مصطلح «المفكر الحر» و«المفكرين الأحرار» الذي يسمى به صنف من المفكرين يمكن أن يعد مدرسة بعينها ينضوي تحت لوائها مفكروا وفلاسفة الأنوار للقرن الثامن عشر. وإليكم كيف يعرف نيتشه «العقل الحر» ويعدد خصاله في كتاب «**في ما وراء الخير والشر**» ـ الفقرة ٤٤: «نحن شيء آخر غير «libres - penseurs»، «liberi pensatori»؛ والعبارة واردة بالفرنسية واللاتينية في النص، ثم بالألمانية) ـ ، «مفكرين أحرار» أو أي إسم من تلك التي يحب كل أولئك الأفاضل من المدافعين عن «الأفكار الحديثة» أن يسمي بها أنفسهم. العديد من أوطان العقل مسكننا، أو أننا كنا ضيوفا لديها على الأقل؛ لائذون بالفرار على الدوام من كل المخابئ المعتمة المريحة/ التي يبدو لنا أن عوامل الميل والنفور، أو الشباب، أو الأصل، أو صدف اللقاءات مع رجال وكتب، أو حتى التعب من تنقلاتنا هي التي تحشرنا داخلها؛ ممتلؤون خبثا تجاه طُعُم استدراجنا إلى التبعية المندسة داخل التشريفات، أو المال، أو الوظائف، أو مغريات الشهوات الحسّية؛ ممتنّون حتى للضيق وشتى أنواع المرض لأنها دوما تحررنا من نير كل القواعد و«فكرتها المسبّقة»، ممتنّون تجاه الله والشيطان والحَمْل=

مطاردتُه وإجلاؤه عن مخدعه؛ ذلك ما يعني لدى الشعب «حسّا بالعدالة»؛ وضده يستثير كلابه الأكثر شراسة.

«إذاً هنا تكون الحقيقة، إذا كان الشعب هنا! وويل، ويل للسالك دروب البحث!» هكذا ظل يُعلن على الملأ من الأزل.

=والدودة التي في داخلنا، فضوليون حدّ الخلاعة، باحثون حدّ الفظاعة، ذوو أصابع جريئة على لمس ما لايلمس، لنا أسنان ومعدة قادرة على ما يستعصي على الهضم، مستعدون لكل حرفة تستدعي حسا ثاقبا وحواس متحفزة، متأهبون لكل مخاطرة بفضل ما لدينا من فائض «إرادة حرة»، لنا نفس ظاهرة ونفس خفية لا أحد بمستطاعه أن يسبر أغوار خفاياها البعيدة، لنا سطوح وأعماق لا تقدر قدم على المضي إلى أقاصيها، متسترون تحت معطف النور، غزاة بهيأة هي نفسها دوما، سواء كنا ورثة أو مبددين، مرتِّبون ومجمِّعون من الصباح حتى المساء، بخيلون بثروتنا وبصناديق ذخائرنا المليئة، متصرفون خبيرون في التعلم وفي النسيان، مبتكرون في وضع النماذج، فخورون أحيانا بلوائح المقولات (Kategorien - Tafeln)(*)، متحذلقون أحيانا، وأحيانا بوم عمل وكد حتى في واضحة النهار؛ بل وفزاعات أيضا عند اقتضاء الضرورة ـ واليوم يقتضي الأمر ذلك ـ، ذلك أننا الأصدقاء الطبيعيون للوحدة وخلانها الودودون الغيورون؛ وحدتنا في ساعة منتصف الليل وفي الظهيرة ـ من هذا النوع من البشر نحن، نحن العقول الحرة! ولعلكم أنتم أيضا على شيء من هذا النوع، أيها الرجال القادمون مع المستقبل؟ أنتم الفلاسفة الجدد؟

(*) المقولات وهي الأجناس العالية التي تحيط بجميع الموجودات، أو المحمولات التي يمكن إسنادها إلى كل موضوع، وعددها عند أرسطو عشرة، وهي: الجوهر، والإضافة، والكم، والكيف، والمكان، والزمان، والوضع، والملك، والفعل، والانفعال.
والمقولات عند كانط هي التصورات الكلية الأساسية التي يتضمنها العقل المحض، وهي صور قبلية للمعرفة، تستنبط من طبيعة الحكم في مختلف صوره، وتمثل الجوانب الأساسية للتفكير النظري، أو الاستدلالي، وهي أربعة أجناس كبرى: الكم، والكيف، والاضافة، والجهة. ولكل واحدة من هذه المقولات الأربع ثلاثة أقسام. ـ الكم: الوحدة، الكثرة، الاجمال. ـ الكيف: الإيجاب، السلب، التحديد. ـ الإضافة: العلاقة بين الجوهر والعرض، العلاقة بين العلة والمعلول، الاشتراك (أي التأثير المتبادل بين الفاعل والمنفعل). ـ الجهة: الامكان والامتناع، الوجود واللاوجود، الضرورة والجواز. (المعجم الفلسفي).

أردتم إقرار الصواب لشعبكم في عبادته؛ وسمّيتم ذلك «إرادة الحقيقة»، يامعشر مشاهير الحكماء!

وكان قلبكم يحدث نفسه على الدوام: «من الشعب أتيتُ؛ ومن هناك أيضا أتاني صوت الله».

مثابرين وماكرين على غرار الحمار كنتم دوما في دفاعكم عن الشعب.

والبعض من ذوي الجاه ممن كان يروم السير سيرة المحنّك مع الشعب قد شدّ إلى مقدمة جياده حمارا أيضا: واحداً من مشاهير الحكماء.

والآن، أردت لو تلقوا عنكم أخيرا جلد الأسد كليّاً يا معشر مشاهير الحكماء!

جلد الحيوان المفترس، الجلد المزوّق وفروة المستطلع، الباحث، الغازي!

سيكون عليكم أن تحطموا إرادة العبادة التي في أنفسكم أوّلاً، كي أتعلم الاعتقاد في «صدقكم»[(١)].

---

(١) Wahrhaftigkeit تعني في الألمانية ـ مترجمة حرفيا ـ طابع الحقيقة أو الصدق في شيء أو مسألة أو شخص ما، وكذلك النزوع العميق إلى تقصّي الحقيقة، وتقابلها في الفرنسية véracité، وقد ترددنا في استعمال عبارة المصداقية، لأنها تعادل بالأحرى عبارة Glaubwürdigkeit أو ما معناه ما يجعل الاعتقاد في صحة أمر أو كلام أو شيء ما ممكنا، وهي في الفرنسية crédibilité. لذلك فضلنا بالنهاية اجتراح عبارة حقيقانية ـ وليس حقانية كما وجدت في إحدى الترجمات العربية لنيتشه، لأن الحقانيّة بدت لي أكثر ملاءمة لطابع الحقّ بالمعنى القانوني، أكثر منها لمعنى الحقيقة بالمعنى الفلسفي، أو التيولوجي أيضا. أخيراً عدلنا عن عبارة الحقيقانية التي يمكن أن تبدو غريبة على القارئ وفضّلنا عليها عبارة «الصدق». =

صادق ـ كذا أسمّي ذلك الذي يمضي في صحارى لا آلهة فيها وقد حطّم قلبه المتعبّد.

تائها في الرمال الصفراء ومحترقا بلهب الشمس قد يرنو بعينه ظمِئاً إلى جزر مليئة ينابيع حيث يستلقي الأحياء تحت أشجار ظليلة.

لكن ظمأه لن يقنعه بأن يغدو شبيها بهؤلاء المستلقين في الرفاه: ذلك أنه حيثما توجد واحات تكون هناك أيضا تماثيل آلهة.

جائعةً، عنيفةً، وحيدةً، كافرةً: هكذا تريد إرادة الأسد لنفسها أن تكون.

= لكن المصطلح يستعمل من طرف نيتشه لا للتعبير عن الطابع الراسخ للحقيقة؛ أي كصفة ثابتة، أوقد تم إثباتها في مسألة أو فكر أو معتقد ما، بل للتعبير عن هاجس فكري، وحرص على تتبع الحقيقة وملاحقتها وإعلانها، وإن اقتضى الأمر عدم إثباتها أو نفيها ونقضها. إنه إذاً مصطلح يعبر عن المسار الفكري الذي يتجه إلى كشف الأباطيل وإعلان بطلان الأفكار التقليدية أو أفكار الفكر الكلاسيكي التي تلوح كلها بالحقيقة،° أو تدعي الامساك بالحقيقة. أنظر **ما وراء الخير والشر**؛ الفقرة ٥: «إن ما يدفع إلى النظر إلى كل الفلاسفة نظرة نصف مرتابة نصف هازئة ليس مرده أن المرء **ما** فتئ يكتشف على الدوام مدى ما يتصفون به من براءة، وأنهم غالبا ما يخطئون ويضلون، وبأية سهولة يقعون في الخطأ وفي الضلال، أي باختصار إلى صبيانيتهم وتصابيهم، بل لكونهم لا يتحلون بقدر كاف من النزاهة؛ بينما يحدثون جميعهم ضجة عارمة ترشح فضيلة كلما تم التطرق ولو من بعيد إلى مسألة الحقيقانية. يتظاهرون جميعا كما لو أنهم اكتشفوا آراءهم وتوصلوا إليها عن طريق التطور الذاتي لجدل بارد نقي إلهي الاطمئنان (خلافا للمتصوفة من كل منزلة والذين هم أكثر نزاهة منهم وأكثر سذاجة ـ إذ هؤلاء يتكلمون عن «إلهام» [....] جميعهم محامون، وهو **ما** لا يقبلون أن يلقبوا بذلك، بل وفي الغالب مدافعون ماكرون عن أفكارهم المسبقة التي يعمدونها «حقائق» ـ وهم بعيدون كل البعد عن شجاعة الضمير التي تقر لنفسها بهذا الأمر (أي دفاعهم عن أفكارهم المسبقة ـ المترجم ـ)، وبهذا الأمر بالذات؛ بعيدون كل البعد عن الذوق السليم للشجاعة الذي يجعلهم يعلنون عن ذلك الأمر، إما لتحذير عدو أو صديق، أو لجرأة طائشة تجعلهم قادرين على السخرية من ذاتهم».

أنظر أيضا كنشات صائفة ١٨٨٦ ـ خريف ١٨٨٧، القسم ٧١ الفقرة ٢.

منعتقةً من سعادة العبيد، مخلَّصةً من الآلهة والعبادات، مخيفة لا تعرف الخوف، عظيمة ووحيدة: كذا هي إرادة صديق الحقيقة.

في الصحراء كان يقيم منذ الأزل أصدقاء الحقيقة، العقول الحرة، أسيادا على الصحراء؛ لكن في المدن يقيم المتخمون علفا؛ مشاهير الحكماء ـ دوابّ الحمل.

وعلى الدوام يدبّون فعلا كالحمير ـ يجرّون عربة **الشعب!**

كلا، لست بالحانق عليهم من أجل ذلك: لكنهم خدماً يظلّون بالنسبة لي ودواباً مسرّجة، حتى وإن بدوا ملتمعين بسروج من ذهب.

وغالبا ما كانوا خدما جيّدين وجديرين بالإطراء. إذ هكذا تتكلم الفضيلة: «إذا ما كان عليك أن تكون خادما، فلتبحث لك عن ذلك الذي يعرف كيف يستفيد من خدمتك على أفضل وجه!

وليكن لسيّدك كسب في مزيد عقل وفضيلة، لأنك أنت الذي تخدمه: وهكذا تنمو بدورك بنمو عقله وفضيلته!» الحقَّ أقول لكم يا معشر الحكماء، يا خادمي الشعب! لقد ترعرعتم أنتم أيضا على عقل الشعب وفضيلته ـ والشعب كذلك من خلالكم! إكراما لكم أقول هذا!

لكنكم تظلون شعبا في نظري حتى في فضيلتكم، شعب بأعين بليدة، ـ شعب **لا يفقه معنى للعقل!**

العقل هو الحياة التي تجترح نفسها في الحياة؛ وفي المعاناة الخاصة تنمو المعرفة الخاصة، ـ هل علمتم بهذا الأمر من قبل؟

وإن سعادة العقل هي هذه: أن يكون مضمّخا بالدهن ومعمّدا بالدموع من أجل أن يكون أضحية[١]،

---

(١) هذه العلاقة التي يضعها نيتشه بين العقل والمعاناة والتي تبدو شبيهة بملحمة تراجيدية=

ـ هل علمتم بهذا الأمر من قبل؟

وإنّ عماء الأعمى وبحثه وتلمّسه ليست سوى الدليل الشاهد على قوّة الشمس التي يحدّق فيها، ـ هل علمتم بهذا الأمر من قبل؟

بالجبال ينبغي على مريد المعرفة أن يتعلّم **البناء!** وإنه لقليل أن يكون العقل قادرا على تحويل الجبال[1]، ـ هل علمتم بهذا الأمر من قبل؟

إنكم لا تعرفون من العقل سوى شرارته، لكنكم لا ترون أي سندان هو، ولا قسوة مطرقته[2].

=يعبر عنها بصفة مفصلة في مواقع أخرى عديدة من كتاباته منها ما يرد في **المسيح الدجّال**؛ الفقرة ٥٧: «إن ذوي العقول الأرفع، بما هم الأكثر قوة، يجدون سعادتهم حيث سيجد آخرون هلاكهم: في المتاهة وفي القسوة على أنفسهم وعلى الآخرين وفي المحاولة؛ لذتهم يحدونها في قهر أنفسهم: يكون الزهد طبيعة لديهم، حاجة وغريزة. والمهمة الصعبة تعد امتيازا بالنسبة إليهم؛ واللعب بالأحمال التي تسحق الآخرين ضرب من الاستراحة لديهم». في **أفول الأصنام**؛ فصل «تسكعات رجل غير ملائم للعصر» الفقرة ١٧: «إن ذوي العقول الأرفع، إذا ما **افترضنا** أنهم الأكثر شجاعة، يعيشون أكثر من غيرهم بكثير أكثر المآسي ألما: لكنهم ولهذا السبب بالذات هم يكبرون الحياة، لأنها تمنحهم صداميّة أكبر الخصوم مما لديها».

(١) إشارة إلى مقولة بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس؛ الاصحاح ١٣/ ٢: «وإن كانت لي نبوّة وأعلم جميع الأسرار وكل علم، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال...». ـ مع ملاحظة أن العبارة ترد في الإنجيل المترجم من قبل لوثر إلى الألمانية في صيغة الماضي «وإن كان لي كل الإيمان، حتى أنني نقلتُ جبالا».
أنظر أيضا إنجيل متى؛ الاصحاح٢١/ ٢١ ـ ٢٢: «فأجاب يسوع وقال لهم، الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان ولا تشكّون فلا تفعلون أمر التينة فقط، بل إن قلتم أيضا لهذا الجبل انتقلْ وانطرحْ في البحر فيكون».

(٢) المطرقة النيتشوية أو تعاطي الفلسفة بضربات المطرقة هي إحدى المكونات المميزة لفلسفته القائمة على الشدة مع النفس ومع الآخرين أيضاً (أنظر الهامش ٧٨ أعلاه). وفي **ما وراء الخير والشر** يتكلم نيتشه عن «مطرقة قدسيّة».

الحق أقول لكم، إنكم لا تعرفون كبرياء العقل! وأقلّ من ذلك ستكون قدرتكم على تحمّل تواضع العقل إذا ما عنّ لذلك التواضع أن يتكلم في يوم ما!

أبدا لن تجرؤوا على القذف بعقلكم في حفرة جليد: فليس لكم ما يكفي من الحرارة من أجل ذلك! وهكذا فأنتم لا تعرفون أيضا نشوة برده[1].

لكنكم وفي كل أمر تبدون في هيأة الخبير جدا بأمور العقل؛ ومن الحكمة جعلتم مأوى فقراء ومصحّة للشعراء الرديئين.

لستم صقورا؛ وهكذا لم يكن لكم أن تخبروا السعادة التي في رعب العقل. ومن لم يكن طائرا، لا يحق له أن يبني عشه فوق الهُوى السحيقة.

فاترون[2] أنتم في نظري: لكنْ بردا قارسا تتدفق كل معرفة عميقة. شديدة البرد هي الينابيع العميقة للعقل: طراوة منعشة بالنسبة للأيادي الحارّة وللفاعلين.

محترَمين أراكم تقفون أمامي، بهيآت متصلبة وظهور كالأعمدة، يا معشر مشاهير الحكماء! ـ لا تدفعكم ريح قوية وإرادة عاتية.

ألم تروا قط شراعا يمضي فوق البحر منتفخا متقوّسا ومرتعشا بعصف الرياح الشديدة؟

---

(١) في الشذرة ٤[١٣١] من كنشات شتاء ١٨٨٢/٨٣: «أيها الباردون والرزينون إنكم لا تعرفون نشوة البرد!» وفي الشذرة ١٢[١] ـ ١٥٤: «الساخنون وحدهم يعرفون نشوة البرد».

(٢) كتاب العهد الجديد: رؤيا يوحنا؛ الاصحاح الثالث، ١٦: «هكذا لأنك فاتر ولست لا باردا ولا حارا أنا مزمع أن أتقيّأك من فمي».

كما الشراع، مرتعشة بالعصف الشديد للعقل تمضي حكمتي فوق البحر ـ حكمتي المتوحّشة!

أما أنتم يا خَدَمة الشعب، ويا مشاهير الحكماء ـ **فمن أين لكم** أن تمضوا معي! ـ

هكذا تكلم زرادشت.

أغنية الليل[1]

إنّه الليل: هي ذي الينابيع الفيّاضة ترفع صوتها في حديث مسموع. وروحي هي أيضاً ينبوع فيّاض.

إنّه الليل: هي ذي أغاني المحبّين تستيقظ الآن. وروحي هي أيضاً أغنية محبّ.

شيء في داخلي لم يُسكَّن ولا شيء يسكّنه يريد أن يرفع صوته. ظمأ إلى الحبّ يسكنني، يتكلّم هو أيضاً لغة الحبّ.

نور أنا: آه ليتني كنت ليلاً! لكنّ تلك هي وحدتي، أن أكون متمنطقاً بحزام من نور.

آه، لو أنني كنتُ قاتماً وليليّاً، فلَكم كنت سأكرع عندها من ثدي النّور!

---

(١) العنوان الأصلي لهذا الفصل كما يوجد في المخطوطة النهائية قبل الطبع، هو: «نور أنا» (نشيد الوحدة).

هكذا يعلق نيتشه على هذا الفصل في **هذا هو الإنسان**؛ ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة/ عن زرادشت: «بأية لغة سيتكلم هذا العقل عندما يتحدث إلى نفسه. لغة الديثيرامبوس (النشيد المدائحي). إنني مبتدع الديثيرامبوس. ولنستمع إلى زرادشت كيف يتحدث إلى نفسه قبل طلوع الشمس؛ مثل هذه السعادة الزبرجدية والرقة القدسية لم ترد على لسانِ قبلي؛ حتى الكآبة الأكثر عمقا لديونيزوس تتحول هي أيضا إلى داثيرامبوس. أسوق لكم دليلا على ذلك «أغنية الليل»، تلك الشكوى الخالدة لروحِ حكم عليها امتلاؤها بالنور وطبيعتُها الشمسية بأن لا تحبّ».

وأنتِ أيضاً أيّتها الكواكب الصغيرة الملتمعة وحباحب السماء البرّاقة، لكم وددت لو أنني أنعم بسعادة هبتك الضوئيّة.

لكنّني أحيا داخل نوري، وأمتصّ ألسنة اللهب الطالعة منّي.

لا أعرف سعادة المتناولين، وغالبا ما حلمت بأنّ السرقة لا بدّ أن تكون أكثر غبطة[١] من الأخذ.

تلك هي فاقتي: أن لا تكفّ يداي أبداً عن العطاء، وذلك هو حسدي: أن أرى عيوناً ملؤها الانتظار وليالِيَ يضيؤها الشوق.

يا لَشقاء كلّ المانحين! يا لكسوف شمسي! يا للرغبة المتعطّشة إلى الرغبة في شيء ما! يا للجوع الحارق الذي في الشبع!

إنّهم يتناولون من يدي؛ لكن ترى هل ألمس روحهم؟ ما بين الأخذ والعطاء هوّة، وإنّ أصغر الفجوات لأكثرها تعذّرا على التجاوز.

جوعٌ يطلع من جمالي؛ وإنّي لأرغب في أن أسيء إلى كلّ الذين أنيرهم، والذين أجود عليهم أريد أن أسرقهم ـ كذا أنا أتعطّش إلى السوء.

أسحب يدي لحظةَ تمدّون أيديكم إليّ: تماماً مثل الشلال يتردّد وهو في غمرة التدفّق ـ كذا أنا أتعطّش إلى السوء.

ثرائي هو الذي يتدبّر مثل هذا الانتقام، ومثل هذه الأحابيل تنبع من وحدتي.

سعادتي التي في العطاء استُنفذت في العطاء، وفضيلتي أنهكها زخمها.

---

(١) تحويل للمقولة الإنجيلية (العهد الجديد: أعمال الرسل؛ الاصحاح ٢٠/٣٥): «... متذكّرين كلمات الرب يسوع أنه قال مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ».

من يظلّ يمنح على الدوام يتربّص به خطر أن يفقد الحياء، ومن يوزّع على الدوام يصيب يده وقلبه سكر الكَتَب من فرط التوزيع.

عيني لم تعد تدمع لخجل السائلين، ويدي غدت أصلب من أن تشعر بارتعاشة الأيدي المليئة.

ما الذي جرى لدموع عيني وزغب قلبي؟ يا لوحدة كلّ المانحين! يا لصمت كلّ المضيئين!

شموس كثيرة تحوم في فضاءاتٍ خلاءٍ، وكلٌّ نفس قاتمة تحدّثها بنورها؛ أمّا أنا فلا تنبس لي بكلمة.

أواه، عداء النور لكلّ ما هو مضيء؛ بلا رحمة يمضي النور في طريقه.

حاملةً في الأعماق قسوتها تجاه كلّ مضيء، باردةً إزاء الشموس؛ هكذا تمضي كلّ شمس.

مثل عاصفة تمضي الشموس في مداراتها؛ تتبع إرادتها التي لا تنثني: تلك هي برودتها.

وحدكم أنتم أيّها القاتمون الليليّون تستمدّون دفأكم من المضيئين! ووحدكم ترتشفون الحليب وكلّ شراب منعش من ضرع النّور.

أواه، جليدٌ من حولي، ويدي تحترق لملامسة كلّ جليديّ. أواه، ظمأٌ يسكن روحي ويتوق إلى عطشكم.

إنّه الليل: آه، لِم ينبغي عليّ أن أكون نوراً! وعطشاً لما هو ليليّ! ووحدةً!

إنّه الليل: هي ذي رغبتي تنفجر فيَ الآن مثل ينبوع؛ رغبتي تريد الحديث.

إنّه الليل: هي ذي الينابيع الفيّاضة ترفع صوتها في حديث مسموع. وروحي هي أيضاً ينبوع فيّاض.

إنّه الليل: هي ذي أغاني المحبّين تستيقظ الآن. وروحي هي أيضاً أغنية محبّ».

هكذا تكلم زرادشت.

أغنية للرقص(١)

ذات مساء كان زرادشت ماضيا مع تلامذته داخل الغابة؛ وبينما كان يبحث عن ينبوع ماء إذ هو يحل بمرج أخضر تحيط بها أشجار وأدغال ساكنة: في ذلك المرج كانت مجموعة من الصبايا ترقص في ما بينها. وحالما تعرفت الصبايا على زرادشت توقفن عن الرقص؛ لكن ها زرادشت يتقدم نحوهنّ بوجه منبسط الأسارير، وبهذه الكلمات خاطبهنّ قائلا:

«لا تتوقفن عن الرقص أيتها الفتيات اللطيفات! ليس مفسدَ أفراح ذا عين سوء يقبل عليكن هنا، ولا عدوا للفتيات.

(١) الرقص إحدى المكونات الأساسية في طبع الفيلسوف في نظر نيتشه مثل الضحك؛ مكونة من مكونات المعرفة المرحة. إنه الحركة الدائمة، والتنقل الضروري لغذاء عقل الفيلسوف. «أما عن الكمية التي يحتاجها عقل ما من أجل تأمين غذائه، فليس هناك من وصفة جاهزة لذلك، لكن إذا ما كان ذوقه متجها إلى الاستقلالية وإلى حركة ذهاب وإياب سريعة، إلى التجوال وربما إلى المغامرة أيضا التي لا يقدر عليها غير السريعين، فإنه سيكون عليه أن يحيا بالأحرى حرا وبغذاء هزيل من أن يكون مستعبدا ومتخما. ليس سمنا يبتغي الراقص الجيد من وراء غذائه بل طاقة ومرونة ـ وأنا لا أدري ما الذي يتمنى عقل فيلسوف أن يكون أكثر من أن يكون راقصا جيدا. فالرقص في الحقيقة هو مثله الأعلى، وهو فنّ صناعته أيضا وبالنهاية هو تبتله الوحيد و«طقس قدُاسه...» (**المعرفة المرحة**، الكتاب الخامس؛ الفقرة ٣٨١.)

أنظر أيضا فصل «قبل الشروق» من الجزء الثالث من «زرادشت»، وكذلك فصل «أغنية ثانية للرقص».

نصير لله أمام الشيطان أنا؛ روح الثقل هو ذلك الشيطان. كيف لي أن أكون عدوا لرقصتكم القدسية الخفيفة إذاً؟ أو عدوّاً لأقدام الصبايا لطيفات الكعاب؟

صحيح أنني غابة وليل من أشجار داكنة؛ لكن من لا تجفله عتمتي سيجد أيضا عرائش ورد تحت أشجار سروي.

وسيجد الإلهَ الصغير أيضا، ذاك الذي لا شيء أحب إليه من الصبايا؛ إلى جانب الينبوع يتمدد ساكنا، بعينين مغمضتين.

حقا، إنه ينام هناك في واضحة النهار، ذاك الكسول! تُرى قد أتعبه الركض وراء الفراشات؟

لا يغضبكنّ مني أيتها الراقصات الجميلات إن رأيتنّني أؤدّبه قليلا ذاك الإله الصغير! سيصرخ بالتأكيد وينتحب، ـ لكنه سيكون مرحا حتى وهو يبكي!

بعينين دامعتين سيدعوكم إلى مراقصته؛ وسأغني أنا أيضا أغنية لرقصته:

أغنية راقصة وهازئة عن روح الثقل، شيطاني الأرقى منزلة والأكثر سطوة، ذاك الذي تقولون عنه إنه «سيّد الكون»(١)».

---

(١) لا يعني نيتشه بشيطانه إبليس، بل يسوع المسيح، لأنه هو الذي يلقّب بـ«رئيس العالم» في الإنجيل. أنظر يوحنا؛ الاصحاح ١٢/٣١: «الآن دينُونةُ هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجا. وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذبُ إليّ الجميعَ». لا غرابة في هذا فنيتشه يعتبر المسيح صاحب غواية أضلّ وما يزال يُضل عن الحياة وعن المرح والخفة بما هو «روح الثقل» كما يقول. الجملة الأصلية في المخطوطة الأولية والتي حذفها نيتشه من بعد هي كالآتي: «[وإذا ما كان الشيطان يسمّى سيّد العالم؛ فإنه لا يحق هنا على الأرض لسيّد الثقل أن يسمّى سيّد العالم]/ لكنني النقيض بالنسبة لروح الثقل! وفي وجهه أقهقه بضحكة أعاليّ».

وها هي الأغنية التي غناها زرادشت بينما كان كيوبيدوس[١] يراقص الفتيات.

قبل حين حدّقت في عينيك أيتها الحياة، وخلتني أنحدر في هوّة بلا قرار.

لكنك سحبتني بصنّارة من ذهب؛ وباستهزاء ضحكتِ عندما سميتك «بلا قرار.

«هكذا تتكلم كل الأسماك، قلتِ لي؛ بلا قرار لديها كلّ ما لا تستطيع أن تسبر له غوراً.

لكنني متقلّبة فقط، متوحّشة وأنثى[٢] في كلّ شيء، وما أنا بفاضلة:

ولئن كنت أعني «العميقة» بالنسبة لكم، أو «الوفية» و«الخالدة» و«الغامضة»،

فلأنكم، أنتم الرجال، تسحبون علينا دوما ألقاب فضائلكم الخاصة ـ أف، أيها الفاضلون!».

ثم طفقت تضحك، غريبة الأطوار تلك؛ لكنني لا أصدقها أبدا ولا أحفل لضحكتها عندما تتكلم عن نفسها بسوء.

---

(١) كيوبيدوس وكيوبد هو إله الحب عند الرومان، وإيروس عند الإغريق إبن أفروديت من هرمس.

(٢) أنثى هي الحياة في نظر نيتشه كما يعبر عن ذلك في **المعرفة المرحة**، الكتاب الخامس ـ الفقرة ٣٣٩ التي تحمل عنوان «vita femina»: «لعل هذا هو السحر الأقوى للحياة: هناك لحاف من ذهب يغطيها، لحاف من إمكانيات جميلة متعددة تجعلها على التوالي واعدة، متمنعة، حييّة، ساخرة، شفوقة، غاوية. أجل، إن الحياة أنثى».

وعندما اختليت في حديث مع حكمتي المتوحشة قالت لي حانقة: «إنك تريد وترغب وتحبّ، لذلك أنت تمتدح الحياة!».

هنا كدت أجيب بقسوة وأفاتح تلك الحانقة بحقيقتها؛ وإنه لا يمكن لامرئ أن يجيب بأكثر قسوة مما يفعل وهو «يقول الحقيقة» لحكمته.

كذا هي الحال في الحقيقة بيننا نحن الثلاثة. أنا لا أحب في الأساس غير الحياة ـ والحق أقول لكم، إنني لا أحبها أكثر مما أفعل عندما أكون حاقدا عليها!

لكن، أن أكون لطيفا تجاه الحكمة، بل ولطيفا أكثر مما ينبغي في أغلب الأحيان، فذلك إنما لكونها تذكّرني كثيرا بالحياة!

إن لها عينيها وضحكتها وصنّارتها الذهبية أيضاً: ما ذنبي أنا إن كانتا متشابهتين إلى هذا الحد؟

وعندما سألتني الحياة ذات مرة: من هي إذاً هذه الحكمة؟ أجبتها بحماس: «آ، طبعا! الحكمة!».

يتعطش المرء إليها ولا يرتوي أبداً، ينظر المرء إليها من خلال حجب ويلاحقها بشِباك طمعا في القبض عليها.

هل هي جميلة؟ ما أدراني بذلك! لكن أكثر الشبابيط حنكة لا تفلت من طعمها.

متقلّبة هي وحرون؛ وكثيرا ما رأيتها تعضّ على شفتيها وتأتي الأمورَ بعكس مِيْل الوبَر(*).

(*) من أطرف وأشنع ما قرأت في مجال الترجمة الحرفية التي تفتقر إلى معرفة دقيقة باللغة التي=

لعلها خبيثة ومخادعة وامرأة في كل أمر؛ لكنها عندما تتحدث عن نفسها بسوء، عندها بالذات تكون أكثر غواية».

ولما قلت هذا الكلام للحياة ضحكت بمكر وأغمضت عينيها قائلة: «عمّن تراك تتكلم في الحقيقة؟ عنّي أنا، أليس كذلك؟».

ولنفترض أنك على حق، - فهل يقال لي مثل هذا الكلام هكذا وجها لوجه؟! لكن، لتتكلم الآن عن حكمتك أيضا!».

والآن ها أنت تفتحين عينيك مجدّدا أيتها الحياة الحبيبة! وها أنا أشعر بنفسي أهوي من جديد إلى الهوة التي لا قرار لها».

هكذا غنّى زرادشت. لكنه بعد أن انتهت الرقصة وانصرفت الصبايا ألفى نفسه حزينا.

«لقد غابت الشمس منذ مدة غير قصيرة، قال لنفسه أخيرا؛ على المرج رطوبة، ومن الغابة برودة قادمة.

=يترجَم عنها، هي ترجمة den Kamm wider ihres Haares Strich führen بـ: «وتسرّح شعرها» (ترجمة فليكس فارس)؛ ترجمة حرفية منقوصة من اللغة الفرنسية بطبيعة الحال - لا من الألمانية - لعبارة: se peigner. rebrousse - poil، وكل من له معرفة باللغة الفرنسية يعرف أن هذه العبارة تعني «إتيان الأمور من حيث لا تؤتى عادة» أو «عكس المعتاد». - أو «بعكس ميْل الوبر» إن أردنا ترجمة قريبة من الحرف الأصلي للنص. هذه الترجمة الحرفية التي لا تفيد أي معنى في هذا السياق يتبناها مترجم آخر في مقدمته لكتاب «**المعرفة المرحة**» (أو «العلم المرح» كما جاء في ترجمته - عن اللغة الفرنسية أيضا). لكن يظل السؤال المطروح هنا: لماذا اكتفى كل من المترجميْن العربيين بترجمة عبارة se peigner الفرنسية، وتغافلا عن العبارة المتمّمة لها: à rebrousse - poil سؤال مشروع، ذلك أن التغافل عن نصف العبارة المجازية هو ما أوقعهما في الحرفيّة المبتورة والمشوّهة للمعنى - كي لا أقول خلصهما من ورطة تصديع الرأس بالبحث عن المعنى الحقيقي للعبارة.

شيء مجهول من حولي ينظر متفكّرا بحيرة. ماذا! أما زلت حيّاً يا زرادشت؟

لماذا؟ من أجل ماذا؟ وبماذا؟ إلى أين؟ أين؟ وكيف؟ أليس جنونا أن تظل بعد حيّاً؟

آه، أصدقائي، إنه المساء هذا الذي يسأل من داخلي. لتغفروا لي حزني!

لقد حل المساء: لتغفروا لي حلول المساء!».

هكذا تكلم زرادشت.

أغنية القبور[١]

«هناك، توجد جزيرة القبور، الجزيرة الصامتة. هناك، توجد أيضا قبور شبابيْ. إلى هناك أريد أن أحمل إكليل الحياة اليانع دوماً».

هكذا أمضي بقلب راسخ العزم عبر البحار.

أواه أنت أيتها الوجوه والهيآت المتعددة لشبابي! أواه نظرات الحب كلها، أيتها النظرات القدسيّة! كيف مُتِّ هكذا بمثل هذه السرعة! إنني أذكركِ اليوم مثل أمواتٍ لي من أحبّتي.

من عندكم تأتيني رائحة شذية يا أمواتي الأعزّاء، رائحة تذيب القلب وتثير الدموع. حقا، إنها تذيب قلب المسافر الذي يقود زورقه وحيدا عبر البحار.

مازلت الأكثر ثراء والأكثر مجلبة للحسد ـ أنا الأكثر وحدة! إذ أنني قد حظيت بوجودكم، وما زلتم تحظون بوجودي بدوركم؛ قولوا لي، من ذا الذي يسّاقط عليه مثلي هذا التفاح الوردي من شجرة الحياة؟

ما زلت الوريث والأرض الخصبة لمحبّتكم، متوهجا لذكراكم بفضائل جبليّة متعددة الألوان، يا أعزّ الأحبّاء!

آه، لقد كنا مجبولين للإقامة جنبا إلى جنب، أيتها الروائع الغريبة

---

(١) العنوان الأصلي الذي ورد في المخطوطة الأولى: «عيد الأموات».

المليحة؛ لا كعصافير نفورة أقبلتِ عليّ وعلى رغباتي - لا، بل آنسة تسعى إلى أنيس!

أجل، للوفاء جُبلتِ، مثلي أنا، ولساعات خالدة رقيقة: عليّ أن أسمّيك الآن باسم خيانتك، أيتها النظرات واللحظات القدسية: فأنا لم أتعلم بعد كيف أسمّيك بأسماء أخرى.

حقا، لقد متّ بأسرع مما ينبغي أيتها الهاربة المنفلتة. لكنك لم تفرّي مني، ولا أنا ابتغيت الفرار منك: بريئان نحن تجاه بعضنا في خيانتنا.

بغية قتلي خنقتكِ أيادي القاتلين يا أطيار آمالي المغرّدة! أجل، لقد كانت سهام الشرّ توجه إليكم يا أحبّتي - لإصابة قلبي!

وقد أصابت مرماها! ألم تكوني دوما أعزّ ما لديّ، ملكي ومالكة قلبي: لذلك كان عليك أن تموتي في عزّ الشباب وقبل الأوان بكثير!

نحو أكثر الأشياء حساسية مما أملك وُجّه السهم القاتل: فكنتِ أنت، ذات الجلدة التي بنعومة الزغب، بل بمثل الابتسامة التي تنطفئ تحت نظرة العين!

لكن لي كلمة هنا أريد أن أقولها لأعدائي: ما ذا تساوي كل جرائم القتل أمام ما فعلتموه بي!

شرّاً فعلتم بي أعظم من كل جرائم القتل جميعا؛ شيئا لا يعوّض سلبتموني: هكذا أخاطبكم يا أعدائي!

لقد قتلتم وجوه شبابي وأعزّ روائعي! رفاق ألعابي سلبتموني؛ تلك الأرواح البهيجة! ولذكراها أضع هذا الإكليل وهذه اللعنة.

هذه اللعنة موجهة ضدكم أنتم يا أعدائي! فقد قصفتم عود

خلودي، مثل فخّارة تنكسر في ليلة صقيع! وما كدت ألمحه لمح ومضة قدسية ـ مثل طرفة عين!

وهكذا تكلمت نقاوتي في تلك اللحظة السعيدة: «لتكن مقدّسة كل الكائنات في نظري».

«لتكن كل الأيام مقدّسة في نظري» ـ هكذا تكلمت نقاوة شبابي ذات يوم: كلام حكمة مرحة حقّا!

لكنكم سرقتم لياليّ يا أعدائي، وقايضتمونيها بعذابات الأرق: آه، ترى إلى أين فرّت تلك الحكمة المرحة؟

في مامضى كنت أرغب في صوت العصافير المغردة بالبشرى، لكن ها أنتم قد وضعتم لي بومة كريهة؛ فظاعة في طريقي. أواه، إلى أين فرّت رغبتي الرقيقة؟

لقد أخذت على نفسي عهدا في ما مضى أن أدبر عن كل قرف: لكنكم حوّلتم كل من كان قريبا مني والأقربينَ إلى دمامل متقيّحة. أواه، إلى أين فرّت عهودي النبيلة؟

أعمى كنت أمضي على طريق مفعمة بالحبور: لكن ها أنكم قد وضعتم قذارات فوق طريق الأعمى: والآن هو ذا يقرف من تلك الطريق القديمة.

وعندما كنت أحتفل بإنجازي الأكثر صعوبة وبانتصار جهود تجاوزي عمدتم إلى جعل أولئك الذين كانوا يحبّونني يصرخون بأنني أسأت إليهم أشد الإساءة[1].

(١) في خريف سنة ١٨٨٢ عاد نيتشه إلى إيطاليا محبطا وحزينا على إثر صائفة قضاها في=

الحق أقول لكم، لقد كان هذا هو صنيعكم على الدوام: أن تعكّروا عسلي وتفسدوا جهد أفضل نحل لديّ.

على الدوام كنتم تبعثون بأكثر المتسوّلين وقاحة للتطفل على رأفتي، وعلى الدوام كنتم تحاصرون شفقتي بالرقيعين الذين لا يرجى لهم شفاء. وهكذا عكّرتم صفو فضائلي داخل إيمانهم.

وما إن أضع قربانا من أكثر الأشياء قداسة لديّ، حتى تسارعون بإضافة دُهن «تقواكم» على أضحيتي؛ هكذا حتى تختنق أكثر أشيائي قداسة داخل بخار أدهانكم.

ومرة أردت أن أرقص كما لم أرقص من قبلها فوسوسْتم لأفضل مغنّييّ،

وإذا هو يرطن بلحن مفزع مصمّ؛ ـ آه، إنه يزعق في أذني زعيق بوق كئيب(١)!

=ألمانيا بين لايبزغ وبايرويت وبرلين وذلك مباشرة بعد صدور كتاب **المعرفة المرحة**. كانت رسائله إلى صديقه فرانس أوفربك (بازل) ترشح بالمرارة والشكوى من الإهمال وقلة الاعتبار التي قوبل بهما في ألمانيا والمعاداة المفتوحة التي أثارها ضده كتابه الأخير، إلى حد أن أمّه نفسها قد قالت عنه أنه غدا «شتيمة ووصمة عار تدنّس قبر أبيه». وقد آلمه هذا الموقف كثيرا حد اتخاذ القرار بمقاطعة أمه نهائيا. وعلاوة على ذلك كان في تلك الأثناء يشكو من آلام الصداع المستمرة وضعف النظر ومعاناة برد الشتاء في جنوا خاصة، الأمر الذي جعله غير قادر على الكتابة والقراءة واضطره إلى الالتجاء إلى بعض الأصدقاء والمعارف الذين كانوا يتطوعون ليقرأوا عليه ويكتبوا ما كان يمليه عليهم، وقد شرع في تأليف الجزء الأول من زرادشت في شهر جانفي من سنة ١٨٨٣. وبالرغم من البهجة التي أدخلتها عليه كتابة هذا الجزء مؤقتا فإنه جاء يحمل الكثير من مياسم تلك المعاناة.

(١) لعل المعني هنا هو ريشارد فاغنر ومقطوعة أوبرا بارسيفال التي اعتبرها نيتشه تحولا حاسما لفاغنر باتجاه الكآبة والتجهم المسيحيّين. وفي إحدى رسائله إلى أوفربك يذكر تقاطع كتابه «**إنساني مفرط الإنسانية**» (الذي أرسله بالبريد لريشارد فاغنر) مع نسخة من=

أيها المغنّي السفّاح، يا آلة الشرّ، أنت يا أكثر الناس براءة! لقد كنتُ مستعدّاً لتأدية أفضل الرقصات، وإذا أنت تقتل نشوتي بأنغامك تلك!

في الرقص فقط أعرف كيف أمنح أرقى الأشياء تعبيرا عن نفسها بأمثال: والآن هو ذا أرقى الأمثال لديّ يظل أخرس داخل أعضائي!

أخرس وحبيسا ظل أملي الأكبر! وأجمل وجوه شبابي وسلواناتها قد ماتت!

كيف استطعت أن أتحمل كل هذا؟ كيف استطعت أن أتغلب على

=بارسيفال أرسلها له فاغنر في نفس الوقت. وفي **هذا هو الإنسان** يستعيد نيتشه نص تلك الرسالة حرفيا تقريبا؛ «ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة؛ فصل: **إنساني مفرط الإنسانية**: الفقرة ٥: «. . . أرسلت من بين ما أرسلت نسختين إلى بايرويت. وبمحض أعجوبة من تلك التي تتأتى عن صدفة ذات مدلول وصلتني في الوقت نفسه نسخة أنيقة من مؤلّف بارسيفال مع إهداء من فاغنر «إلى صديقه العزيز فريدريش نيتشه. ريتشارد فاغنر المستشار الكنسي». التقى الكتابان في الطريق، وكان لوقع لقائهما دويّ غامض في ذهني. ألم يكن لذلك اللقاء وقع سيفين قد تصالبا؟ (. . .) يا للغرابة! لقد أصبح فاغنر تقيا. . .

كان نيتشه قد تطرق إلى الانقلاب الذي حصل على علاقته بفن فاغنر - كما على فلسفة شوبنهاور - في **المعرفة المرحة**، الكتاب الخامس، الفقرة ٣٧٠: ما هي الرومنطيقية؟: «. . . لا بد أن يُرى إلى كل فلسفة وكل فن على أنه وسيلة منشطة ومساعدة في خدمة الحياة النامية والمصارعة: كلاهما يشترطان وجود ألم ومتألمين. لكن هناك صنفان من المتألمين، أولئك الذين يتألمون عن زخم الحياة، والذين يريدون فنا ديونيزيّا، وبالتالي نظرة تراجيدية إلى الحياة ورؤية تراجيدية؛ وهناك الذين يتألمون عن فقر متخلل لصيرورة ا لحياة، والذين يبحثون لهم عن راحة وسكون وبحر هادئ وخلاص من الذات من خلال الفن والمعرفة، أو أيضا عن سكرة وتشنج ومخدّر، وعن جنون. هذه الحاجة المزدوجة للصنف الأخير تتوافق مع كل رومانسية في الفنون والمعارف، وتنطبق على كل من شوبنهاور وريتشارد فاغنر كي لا نذكر غير الشهيرين والمعبرين أفضل تعبير عن صنف الرومنطيقيين. . .».

هذه الجراح؟ وكيف استطاعت روحي أن تنبعث من جديد من هذه القبور؟

أجل، شيء لا تطاله الجراح ولا يقبل بدفن هنا لديّ؛ شيء مفتِّت للصخور: إسمه إرادتي. صامتا يتقدم ذلك الشيء عبر السنين لا يطاله تبدّل أو تغيير.

قُدماً تريد أن تمضي في طريقها على قدميّ، إرادتي القديمة؛ بقلب من فولاذ تريد أن تكون، ومنيعة لا تفتّ فيها الجراح.

منيع أنا في قدميّ فقط[1]. حيَّة ما تزالين هنا ووفيّة لنفسك دوما، أيتها الصّبورة! وعلى الدوام ما تزالين قادرة على الانبعاث من كل القبور[2].

فيك ما زال يحيا ما لم يُبدّد من شبابي؛ حياةً وشباباً تجلسين هنا مفعمة أملاً فوق الركام الأصفر لأنقاض القبور.

أجل، ما زلتِ مقوّضة كل القبور دوماً بالنسبة لي: طوبى لك يا **إرادتي!** وإنه فقط حيثما توجد قبور يكون هناك انبعاث.

هكذا تكلم زرادشت.

---

(١) على عكس آخيل بطل الإلياذة الذي كان محاربا شديدا ومنيعا يستعصي على الموت لا يمكن أن تصيبه السهام بالقتل إلا في موضع قدمه. وقد مات بسهم مسموم أطلقه باريس على إخمص قدمه.

(٢) نجد فيه هذه الأسطر الأخيرة صدى لرسالة نيتشه المتفائلة التي بعث بها إلى أوفربك بعد رسالته القاتمة التي ذكرناها في الهامش١٠٦. في رسالته هذه بتاريخ ١ فبراير ١٨٨٣ يكتب من بين ما كتب: «. . . لقد كنت قبلها داخل هوة سحيقة من الأحاسيس، لكنني خرجت بنفسي «عموديا» من تلك الهوة السحيقة باتجاه أعاليّ. والآن «ستسير» الأمور على ما يرام: لنتمنى ذلك على الأقلّ! وفي الأثناء، وفي ظرف أيام قليلة كتبت أفضل كتاب لديّ (يعني به الجزء الأول من كتاب «**هكذا تكلم زرادشت**» ـ المترجم)، وما أريد أن أقوله إنني قد قطعت الخطوة الحاسمة التي لم أكن أملك الشجاعة الضرورية للقيام بها في السنة الماضية. كنت بحاجة في هذه المرة إلى كل قواي العشر ـ وقد كانت في الموعد.

في التغلّب على الذات[1]

«إرادة الحقيقة» تسمّون ذلك الذي يحرّككم ويؤجّج رغبتكم يا صفوة الحكماء؟

إرادة الإحاطة العقلية بكل موجود؛ هكذا أسمّي إرادتكم!

كل موجود تريدون أولا أن **تجعلوه** معقولاً[2]: إذ أنكم تشكّون بريبة مشروعة إن كان فعلا معقولا.

لكنه ينبغي أن يخضع لكم ويتشكل طوع رغبتكم! هكذا تريد إرادتكم. سويّا مصقول السطح ينبغي عليه أن يكون وخاضعا للعقل، مثل مرآة له وانعكاس لصورته.

---

(١) ورد هذا الفصل في المخطوطة الأولية تحت عنوان: «عن الخير والشر». التغلب على الذات هو القانون الأنطولوجي للحياة وللتطور لدى نيتشه. وهو مبدأ التجاوز الذي ينبغي أن يفضي إلى الإنسان الأعلى، باعتبار «الإنسان شيء ينبغي تجاوزه» أو «جسر عبور إلى الإنسان الأعلى». التغلب على الذات هي اللحظة الحاسمة في الصيرورة «باعتبارها إبداعا، إرادة، نفيا للذات، تغلبا على الذات» كما يرد في إحدى شذرات التركة. وفي **جنيالوجيا الأخلاق** يرد: «كل الأشياء العظيمة تلقى حتفها في نفسها بواسطة عملية نفي ذاتي: ذلك ما يريده قانون الحياة، قانون التجاوز الضروري للذات الذي ينطوي عليه جوهر الحياة - وعلى الدوام ينتهي الأمر بأن يتلقى المشرّع نفسه هذا النداء:
«patere legem, quam ipse tulisti» (عليك أن تخضع للقانون الذي وضعته بنفسك).

(٢) لعلها إشارة إلى المقولة الهيغلية: «كل معقول فهو واقعي، وكل واقعي لا بد أن يكون معقولا».

تلك هي إرادتكم كلها يا صفوة الحكماء، إرادة قوّة؛ وحتى عندما تتكلمون عن الخير والشر وعن تثمين القيم.

تريدون أن تبدعوا ذلك العالم أولا؛ ذلك الذي سيحقّ لكم أن تسجدوا أمامه: ذلك هو أملكم الأخير ونشوة روحكم.

أما عديمي الحكمة، أي عامة الشعب، فمثلهم مثل النهر يمضي فوقه قارب؛ وفوق القارب تجلس الأحكام القيمية مهيبة ومقنّعة.

إرادتَكم وقيمَكم وضعتم فوق نهر الصيرورة؛ إرادةَ قوة قديمة يفشي لي ذلك الذي يعتقده الشعب خيرا وشرّاً.

أنتم من أركب هؤلاء المسافرين الضيوف في القارب ومنحهم أبّهةً وأسماء مهيبة ـ أنتم وإرادتكم المسيطِرة يا صفوة الحكماء!

بعيدا يحمل النهر الآن مركبكم: **لا بد** أن يحمله. ولا يهم إن تزبد الموجة المنكسرة وتتصدى بحنق لحيزومه!

ليس النهر هو الخطر الذي يتهددكم ونهايةَ خيركم وشركم يا صفوة الحكماء؛ بل تلك الإرادة ذاتها، إرادة القوة ـ إرادة الحياة، تلك الإرادة الخصبة التي لا ينضب لها معين.

لكن لكي تفهموا كلمتي عن الخير والشر، أريد أن أقول لكم أيضا كلمتي عن الحياة وعن نوع كل ما هو كائن حي.

لقد لاحقت الكائن الحي، ومضيت فوق أكبر الدروب وأصغرها، كي أتعرف على نوعه.

بمرآة ذات مائة وجه مضيت أقتنص نظرته عندما كان فمه ممتنعا عن الكلام: كي تحدثني عينُه. وكان أن حدثتني عينه.

لكن، حيثما وجدت أحياء، سمعت هناك أيضا حديث المطيع. كل ما هو حي مطيع بالضرورة.

وهاكم المسألة الثانية: مأمورا يكون كل من لا يستطيع أن يطيع نفسه. كذا هي طبيعة الكائن الحي.

أمّا الآن فإليكم المسألة الثالثة مما سمعت: وهي القائلة بأن الأمر أكثر وطأة من الطاعة. ولا يعود ذلك فقط إلى أن الآمر يحمل عبء كل المطيعين، وأن ذلك العبء يسحقه بسهولة:

خطرا ومخاطرة رأيت في كل الأوامر؛ وكلما أصدر الكائن الحي أمرا إلا وأقدم على المخاطرة بنفسه.

وحتى عندما يأمر نفسه، هنا أيضا يكون عليه أن يدفع ثمن أوامره. سيكون عليه أن يغدو قاضي قوانينه الخاصة والمقتص والضحية في الآن نفسه[١].

كيف يحدث هذا الأمر ياترى؟ كنت أسأل نفسي. ما الذي يجعل الكائن الحي يقبل بأن يطيع ويأمر وفيما هو يأمر يضع نفسه في موضع المطيع؟

لتصغوا إلى كلمتي الآن يا صفوة الحكماء! لتتفحصوا بدقة إن كنت قد نفذت إلى قلب الحياة ذاتها، وسبرت الجذور العميقة لقلبها!

حيثما وجدت كائنا حيا كانت هناك أيضا إرادة قوة؛ وحتى في إرادة الخادم وجدت إرادة أنْ يكون سيداً[٢].

---

(١) أنظر الهامش ١١٠: «patere legem, quam ipse tulisti».

(٢) يتناول جيل دولوز مسألة إرادة القوة بتحليل مفصل في كتاب «نيتشه والفلسفة» ليلقي الضوء على هذا المفهوم الذي غالبا ماتم تأويله أو فهمه فهما سيئا. فغالبا ما أخذ مفهوم الإرادة على أنه إرادة أحد ما، أو هي فعل فاعل يريد. وكأن الإنسان هو الذي يريد، في حين أن الإرادة نفسها هي التي تريد». وحدها إرادة القوة هي مايريد، إنها لا تترك نفسها تُنتدب أو تُستلب في موضوع آخر، حتى إن كان القوة. لكن كيف يمكن «إسنادها» (أي=

أن يخدم الأضعفُ الأقوى، فذلك ما تمليه إرادته التي تريد أن

=الإرادة) إذاً؟ ـ يسأل دولوز ـ فلنتذكر أن القوة هي في علاقة جوهرية مع القوة. ولنتذكر أن جوهر القوة هو فرقها الكمي مع قوى أخرى، وأن هذا الفرق يعبر عن نفسه كنوعية للقوة. والحال أن الفرق في الكمية، المفهوم على هذا النحو، يحيل بالضرورة إلى عنصر تفاضلي للقوى التي تجد نفسها في علاقة. . . . إن إرادة القوة هي العنصر الذي ينبع منه في الآن نفسه الفرق في كمية القوى الموضوعة في علاقة (ببعضها البعض) وللنوعية التي تعود إلى كل قوة في هذه العلاقة.

أما نيتشه فإنه يكتب في إرادة القوة، القسم الثاني، ٣٠٩: «هذا المفهوم الظافر للقوة، الذي خلق فيزيائيونا بفضله الله والكون، يحتاج إلى مكمِّل؛ يجب أن نسند إليه إرادة داخلية ـ سوف أسميها إرادة القوّة».

وبما أن إرادة القوة هي التي تريد إذاً، وبصفة مستقلة عن أية إرادة، فإنه سيكون بوسعنا أن نفهم لماذا يجد «الكائن الحي» نفسه مدفوعا إلى أن يكون آمرا وفي الآن نفسه يضع نفسه في موضع المطيع، ولماذا يقدم نفسه طوعا كأضحية ولماذا يقبل الصغير (أو الضعيف) بالطاعة للكبير (أو الأقوى). لقد شغلت مسألة القوة والتضحية نيتشه في كل أعماله تقريبا.

وفي مقالة لماركو بروزوتي بعنوان: Opfer und Macht,in Nietzsche Studien. Band 22, 1993 (التضحية والقوة) يذكر اهتمام نيتشه بمداخلة عن «أصل البراهمانية» قدمها تلميذه القديم ثم طالبه فيما بعد، ياكوب فاكرناغل في جامعة بازل يوم ١٧ من نوفمبر ١٨٧٦، وكان نيتشه آنذاك في عطلة في سورينتي. لذلك سيطلب من صديقه أوفربك في سنة ١٨٨٠ أن يمده بنسخة من تلك المحاضرة ونصوصا أخرى لفاكرناغل. ما كان يهم نيتشه في محاضرات فاكرناغل ونصوصه حول البراهمانية والفكر الفلسفي والديني الهنديين هم مسألتا الوجد، أو النشوة وطقوس التضحية وعلاقتهما بما يسميه بـ«الإحساس بالقوة» الذي ينتج عن كليهما، واعتبارهما «كوسيلة لبلوغ الإحساس بالقوة» (KSA 9, 236). سيطور نيتشه هذه الفكرة في العديد من مسوداته (مسودات «**الفجر**» مثلا) ليخلص إلى فكرة أن البراهمانيين يسعون عبر طقوس الأضاحي التي يقدمونها إلى الآلهة إلى استعمال هذه الأخيرة، أو تسخيرها لقضاء شؤونهم والتغلب على مصاعب الحياة أو درء المخاطر، ليخلص إلى أن الضحية نفسها، خاصة عندما يتعلق الأمر بأضحية بشرية، أو بالزوجات اللاتي يتم دفنهن أحياء مع أزواجهن المتوفين، هذه الضحايا تتوصل عبر التضحية بنفسها إلى بلوغ «إحساس بالسيطرة على نفسها» يغدو إحساسا بالسمو، وبالقوة: «إحساس بتعاظم قوة لا يحدّها حد». وفي **جنيالوجيا الأخلاق** يكتب نيتشه، وهو لا يفعل سوى استعادة ما كتبه فاكرناغل عن قصة الملك البراهماني فيشفاميترا الذي نذر=

تكون سيدة بدورها على من هو أضعف: إنها المتعة الوحيدة التي لا يريد التنازل عنها.

وكما يبذل الأصغر نفسه للأكبر كي يجد متعة وسلطة على من هو أصغر، كذلك يبذل الأكبر نفسه من أجل القوّة ـ مراهنا بحياته.

ذلك هو تفاني الأكبر: مخاطرة وخطر ولعبة نرد تراود الموت.

وحيثما تكون تضحية وخدمات ونظرات حب؛ تكون هناك أيضا إرادة سيادة. عبر دروب ملتوية يتسلل الأضعف إلى القلعة وإلى قلب من هو أكثر قوة ـ ويسترق من هناك قوّة.

هذا السر هو ما كلّمتني به الحياة نفسها. «أنظر، قالت لي، إنني ذلك **الذي ينبغي عليه دوما أن يتجاوز نفسه**.

«ولئن سمّيتم ذلك إرادة إنجاب أو اندفاعا غريزيا إلى الغاية، إلى ما هو أرقى وما هو أبعد وأكثر تنوعا؛ فإنها تعني جميعها الشيء نفسه، ونفس السر.

وإنني لأفضّل الهلاك على أن أتراجع عن هذا الشيء الواحد؛ والحق أقول لكم حيثما يكون هناك انهيار وسقوط أوراق، فلتنظروا إن ليست هناك حياة تضحي بنفسها ـ من أجل القوة!

أن ينبغي عليّ أن أكون صراعا وصيرورة وغاية ونقيضَ الغاية: آه،

=نفسه لألف سنة من التبتل وأعمال التكفير: «أتذكّر القصة الشهيرة للملك فيشفاميترا الذي توصل عن طريق ألف سنة من تعذيب النفس إلى بلوغ درجة عالية من الإحساس بالقوة والثقة في النفس جعلته يقرر أن يبني لنفسه سماء جديدة: الرمز الرهيب لمجمل تاريخ الفلاسفة القدماء منهم والمحدثين». ـ **جنيالوجيا الأخلاق**، المطارحة الثالثة: في معنى مثل التبتّل، الفقرة ١٠).

إن الذي يحزر إرادتي سيحزر أيضا دون شك أية دروب ملتوية سيكون عليه أن يسلك!

ومهما كان الشيء الذي أبدعه ومهما كان حبي له، فسأغدو عما قريب عدوا له ولحبي له؛ هكذا تريد إرادتي.

وأنت أيضا السالك طريق المعرفة لستَ سوى مسربا وموطئ قدَم لإرادتي: الحق أقول لك إن إرادة القوة لديّ تمضي أيضا على آثار أقدام إرادة المعرفة لديك!

وحقا لم يصب الحقيقة ذلك الذي قذف نحوها بعبارة «إرادة الوجود»؛ هذه الإرادة ـ لا وجود لها(١).

ذلك أن: ما لا وجود له، لا يمكنه أن يريد؛ أما ما هو في الوجود، فكيف يمكنه أن يظل يريد الوجود!

حيثما تكون هناك حياة فقط، تكون هناك أيضا إرادة: لكن ليست إرادة الحياة، بل ـ وهذا ما أعلمك إياه ـ إرادة القوة!

هناك أشياء أخرى كثيرة يثمّنها ذلك الذي يحيا، أكثر من الحياة ذاتها؛ لكن من خلال التثمين ذاته تتكلم إرادة القوة!

هكذا علمتني الحياة في ما مضى؛ ومن خلال هذا الذي تعلمت أفك لكم أيضا ألغاز قلوبكم يا صفوة الحكماء.

---

(١) هذا النقد موجه إلى شوبنهاور الذي يقول بمقولة «إرادة الحياة» و«إرادة الوجود» («العالم كإرادة وتصور»). أنظر «إرادة القوة»، الجزء الثاني، ٢٣: «مبدئي هو أن إرادة علماء النفس السابقين هي تعميم غير مبرر، وأن هذه الإرادة غير موجودة، وأنه بدل تصور التعبيرات المتنوعة عن إرادة محددة بأشكال متنوعة، جرى محو طابع هذه الإرادة عن طريق بتر مضمونها، وهذه هي حالة شوبنهاور بامتياز؛ إن ما يسمّيه إرادة ليست سوى صفة جوفاء».

الحق أقول لكم إن خيرا وشرّا خالديْن في الثبات ـ أمر لا وجود له! كل شيء محكوم بضرورة تجاوز نفسه على الدوام.

بقيمكم وكلماتكم القائلة بالخير والشر تمارسون سلطة يا مثمّني القيم: وذلك هو حبّكم الخفيّ وبريق روحكم وارتعاشاتها وفورانها.

لكنّ عنفا أقوى ينمو من داخل قيمكم، وتجاوزا جديدا؛ فوقه تتكسر البيضة وقشرة البيضة.

وكل من يريد أن يكون مبدعا في الخير وفي الشر، عليه أن يكون أولا مدمِّرا، وأن يحطم القيم.

هكذا هو الشر الأعظم جزء من الخير الأعظم: لكنّ ذلك هو الخير المبدع[١].

لنتكلم عن ذلك ياصفوة الحكماء، وإن كان ذلك شنيعا. فالصمت أشنع؛ ذلك أن كل الحقائق المكتومة تتحوّل إلى سموم.

وليتحطم كل ما ـ يمكن أن ـ يتحطم تحت وطأة حقيقتنا! فهناك دوما بيت للبناء على الأنقاض!

هكذا تكلم زرادشت.

(١) أنظر **هذا هو الإنسان**، لِم أنا قدر، ٢: «إنني أفظع إنسان من بين ما وجد إلى حد الآن؛ لكن هذا لا ينفي أنني سأكون الأكثر إحسانا. أعرف لذّة في التدمير تتناسب وطاقتاي التدميرية؛ وأنا في كلا الأمرين خاضع لطبيعتي الديونيزية التي لا تفصل بين فعل النفي والاستجابة الإثباتية. إنني اللاأخلاقي الأوّل؛ لذلك فأنا المدمر بامتياز».

عن ذوي المقام الرفيع

ساكنة هي أعماق بحري؛ من يمكنه أن يحزر بأنها تخبئ غيلانا عابثة!

ثابتة أعماقي؛ لكنها تبرق بألغاز وضحكات غائمة.

رجلا من ذوي المقام الرفيع رأيت اليوم، واحدا ذا أبهة، تائب العقل: أوه، لكم ضحكت روحي من قبحه!

بصدر منتفخ مثل أولئك الذين يسحبون نفسا عميقا؛ هكذا كان يقف هناك ذلك الرجل الجليل، وكان صامتا:

موشح الصدر بحشد من الحقائق القميئة، صيده المحصّل، وعليه ركام من الأسمال البالية؛ وهناك أيضا أشواك كثيرة عالقة به[1] ـ لكنني لم أر وردة واحدة.

لم يتعلم الضحك بعد، ولا الجمال. قاتما عاد هذا الصيّاد من غابة المعرفة.

---

(١) إشارة ساخرة إلى يسوع المسيح. أنظر متّى الاصحاح ٢٧/ ٢٧ ـ ٣١: «فأخذ عسكر الوالي يسوعَ إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة. فعرّوه وألبسوه رداء قرمزياً. وظفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه. وكانوا يجثون أمامه ويستهزئون به قائلين السلامُ عليك يا ملك اليهود».

عائد من قتاله محمّلا بطرائد الوحش؛ لكن في نظرته الصارمة هناك حيوان وحشي أيضا ـ حيوان لم يتمّ التغلب عليه وتجاوزه!

مثل نمر يقف هناك متربصا يهمّ بالانقضاض؛ لكنني لا أحب هذه الأرواح المتوتّرة، ولا يروق لي كل أولئك المنسحبين.

وتقولون لي أيها الأصدقاء إن مسائل الذوق والألوان لا تخضع للجدال؟ لكن الحياة كلها خصام حول مسائل الذوق والألوان!

الذوق[1]: إنه الوزن والميزان والوازِن في الآن نفسه؛ وويل لكل كائن حي يريد أن يعيش دون خصام حول الوزن والميزان والوازن!

لو أن ذا المقام الرفيع هذا يملّ رفعته، فسيتجلى جماله عندها، وعندها فقط سأرغب في تذوّقه وفي استساغة مذاقه.

وفقط عندما يدير ظهره لنفسه، سيكون بوسعه أن يقفز على ظلّه ـ يقفز حقّا، داخل نور **شمسه**.

لزمن طويل جدا ظل قابعا في الظلّ؛ وقد شحبت وجنتا تائب العقل هذا وكاد يهلك جوعا جراء انتظاره.

عينه مازالت ترشح احتقارا، وقرف يختفي بين شفتيه. أكيد أنه الآن في حالة استراحة، لكنّ راحته لم تستلق بعد في الشمس.

---

(١) الذوق بالمعنى الفلسفي مصطلح يتردد كثيرا لدى الصوفية أيضا، ويعني لديهم التجربة، والاختبار، أو المعرفة المحصلة عن طريق الرياضة والتجربة الشخصية. وفي فلسفة الإغريق القدامى فإن مصطلح «sophia» الذي يعني الحكمة ينحدر سلالياً من عبارة sapio: أتذوّق، ومنها sapiens وهو المتذوِّق، وsisyphos، الرجل ذو الذوق المرهف، أو الرفيع.
أنظر أيضا الفلسفة في زمن التراجيديا الإغريقية (من منشورات التركة النستشوية).
وفي شذرة من كنشات خريف سنة ١٨٨١ نجد: «الذوق أقوى من كل أخلاق».

مثل الثور ينبغي عليه أن يفعل؛ وبرائحة الأرض ينبغي لسعادته أن تعبق، لا برائحة احتقار الأرض.

ثورا أبيض أريد أن أراه، يرغي ويزبد أمام المحراث؛ وليكن رُغاؤه مديحا لكل ما هو أرضي!

قاتمة ماتزال صفحة وجهه؛ ظلُّ يدِه يرقص فوق وجهه؛ والفكرة مازالت تتراءى مغشاة بالظلال داخل عينه.

عمله نفسه مايزال ظلا يغطي هامته؛ فاليد تعتّم الفاعل. إنه لم يتجاوز عمله بعد.

ولئن كنت أحب رقبة الثور فيه، إلا أنني أريد أن أرى فيه الآن عين الملاك أيضا.

عليه أن ينسى إرادة البطولة أيضا؛ مرتفعا أريد أن أراه وليس فقط ذا مقام رفيع: خفيفا يطفو على سطح الإثْير أريده، ذلك الذي تجرد من إرادته!

لقد أخضع غيلانا وحلّ ألغازا؛ لكن عليه أيضا أن يخلّص غيلانه ويحل ألغازه الخاصة؛ أطفال جنّة عليه أن يحوّلها.

معرفته لم تتعلم الضحك بعد، وأن تكون بلا حسد؛ صبوته الجيّاشة لم تركن بعد إلى السكون في الجمال.

حقا أقول لكم، ليس في الشبع ينبغي أن تسكت رغبته وتندثر، بل في الجمال! ذلك أنّ الحُسن جزء من سماحة الأنفس العظيمة.

باسطا ذراعه فوق رأسه؛ هكذا ينبغي على البطل أن يستريح، وهكذا ينبغي عليه أن يتجاوز استراحته أيضا.

لكن البطل بالذات هو الذي يكون **الجميل** أصعب الأمور عليه على الإطلاق. إن الجمال يستعصي على كل إرادة عنيفة.

أكثر من المقدار بقليل، أو أقلّ بقليل؛ وهذا القليل بالذات كثير هنا. إنه الأكثر أهمية هنا.

أن تقفوا بعضلات مسترخية وبإرادة غير مسرّجة: ذلك هو أصعب الأمور عليكم جميعا، يا أصحاب المقام الرفيع!

وعندما تغدو القوّة رحيمة وتنزل من عليائها إلى مجال المرئي؛ جمالا سأدعو هذا النزول.

وما من أحد أريد منه جمالا هكذا مثلما أريد ذلك منك أنت، أيها القويّ: وليكن خيرك آخر انتصار لك على نفسك.

أعرفك قادرا على كل شرّ؛ لذلك أريد منك الخير.

والحقَّ أقول لك، لكَم ضحكت من الضعفاء يظنون أنفسهم خيّرين لأنّ أكفّهم واهنة مشلولة.

فضيلةَ العمود عليك أن تحاكي في طموحك؛ كلما ارتفع أكثر إلا وغدا أجمل وألطف، لكنه أكثر صلابة في الداخل وأكثر قدرة على التحمّل.

أجل، أيها الرفيع، ذات يوم سيكون عليك أن تغدو جميلا أيضا وستمسك بالمرآة في وجه جمالك الخاص.

عندها سترتعش روحك برغبة قدسية؛ ويكون لك خشوع حتى في غرورك!

إذ هذا هو سر الروح؛ فقط عندما يكون قد هجرها البطل، يقترب منها في الحلم ـ طيف البطل الأعلى.

هكذا تكلم زرادشت

عن بلاد الثقافة(١)

بعيدا في أعماق المستقبل مضيت في طيراني، وهناك تملكني الذعر.

وعندما نظرت من حولي، ماذا رأيت! كان الزمن هو معاصري الوحيد.

عندها عدت في طيراني إلى الوراء، باتجاه موطني ـ وبسرعة أكبر فأكبر: هكذا حللت بينكم في بلاد الثقافة أيها المعاصرون.

ولأول مرة أقبل عليكم بعين غير مغرضة ورغبة صادقة: والحق أقول لكم، بشوق في القلب جئتكم أيضا.

لكن ما الذي حدث لي؟ رأيتني مدفوعا إلى الضحك ـ بالرغم من خوفي! أبدا لم يحدث أن رأت عيني شيئا ملطخا بالألوان مثل هذا الذي رأيت!

ضحكت وضحكت بينما قدماي ترتعشان، وقلبي أيضا: «هي ذي حقا بلاد كل قوارير الألوان!» قلت لنفسي.

مزوَّقي الوجه والأعضاء بمائة لطخة، هكذا رأيتكم لدهشتي تجلسون أيها المعاصرون ومائة مرآة من حولكم تناجي وتحاكي مهرجان ألوانكم!

---

(١) العنوان الأولي في المخطوطة التي قدمها نيتشه للناشر: «عن المعاصرين».

حقا أقول لكم، ما كان لكم أن تجدوا البتة قناعا أفضل من وجهكم هذا أيها المعاصرون! ومن ترى سيكون بوسعه أن ـ **يتعرف عليكم!**

مغمورون من الرأس حتى القدمين بعلامات من الماضي مغمورة بدورها بعلامات جديدة: هكذا تسترّتم كما ينبغي على كلّ فكاك ألغازٍ ذي فراسة!

وحتى لو كان المرء ذا قدرة على سبر الكلى والقلب[(١)]: فمن تُرى سيظل يعتقد بأن لكم كلى وقلب! إنكم لتبدون مجبولين من ألوان ولُصاقات كواغذ.

كل الأزمنة والشعوب تُطلّ مزيج ألوان من خلال حجابكم؛ كل القيم والعقائد تتكلّم جلبة ألوان من خلال إيماءاتكم.

ولو عنّ لأحد أن يرفع عنكم كل الأحجبة والأغطية وكل ألوانكم وإيماءاتكم لما بقي بين يديه سوى ما يكفي لإفزاع الطيور.

الحق أقول لكم إنني بدوري الطائر المذعور الذي رآكم ذات يوم عراة وبلا ألوان؛ لقد لذت بالفرار عندما أومأ لي ذلك الهيكل العظمي بإشارت المغازلة.

وإنه لأَحَب إليّ أن أكون عاملا يكدّ في جحيم العالم السفلي وبين أشباح الماضي! ذلك أن سكان العالم السفلي أيضا أكثر لحما وأكثر امتلاء منكم[(٢)]!

---

(١) أنظر أرمياء (العهد القديم) الاصحاح ١١/ ٢٠: «فيا ربّ الجنود القاضي العدل فاحص الكِلى والقلب...» والاصحاح ١٧/ ١٠: «أنا الربّ فاحص القلب مختبر الكلى...»، وكذلك في مواقع أخرى كثيرة من كتابي العهد القديم والعهد الجديد.

(٢) كأن نيتشه يستدعي هنا واقعة هبوط عوليس (الأوديسة) إلى العالم السفلي ولقاءه بأخيل=

أي نعم، تلك هي مرارة أحشائي، أن لا أستطيع تحمّلكم لا عراة ولا مكسوّين، أيها المعاصرون!

كل ما يمكن أن يكون فظيعا مفزعا في المستقبل، وكل ما يمكن أن يبث الذعر في طيور السماء لهو في الحقيقة أكثر ألفة وأكثر أُنسا بالنسبة لي من «واقعيّتكم».

إذ هكذا تتكلمون: «واقعيّون نحن كليّا، وبلا إيمان ولا خرافات»: هكذا تنفخون صدوركم متبجحين ـ بل وبلا صدور علاوة على ذلك!

كيف تستطيعون إيمانا أيها المزوّقون، وأنتم لوحة ملفّقة من كل ما كان يؤمَن به دوما!

تفنيد يسعى على قدمين أنتم، تفنيد للإيمان نفسه، وكسور في أعضاء كل فكر. عديموا المصداقية؛ هكذا أسمّيكم أيها الواقعيّون!

كل العصور تثرثر ضد بعضها البعض داخل عقولكم؛ وكل أحلام وثرثرة العصور جميعها كانت أكثر واقعية هي أيضا من يقظتكم!

عقيمون أنتم: لذلك **أنتم** تفتقرون إلى الإيمان. لكنّ كل من كُتب عليه أن يكون خلاقا مبدعا كانت له رؤى أحلام واقعيّة وطوالع في السماء ـ وكان يؤمن بالإيمان! ـ

أبواب منفرجة أنتم يقف عليها حفاروا قبور منتظرين. وهذه هي **واقعيّتكم**: «كل شيء حقيق بأن ينهار ويضمحل».

=الذي بدا له أنه ما يزال ذا قوة وسلطان حتى داخل مملكة الأموات، لكن هذا الأخير يجيبه: «آه، لا تزّين لي وجه الموت يا عوليس النبيل! . . . إنه لأحب إليّ أن أكون مزارعا يقود الثيران في خدمة فلاح فقير، مزارعا لا شأن له في السيادة على هؤلاء الأموات، على كل هذا الشعب المنطفئ». ونيتشه يتمنى هنا العكس أو يقلب المعادلة، فلكأن عالم المعاصرين لديه هو عالم «هؤلاء الأموات، وهذا الشعب المنطفئ».

آه، في أي حال تقفون أمامي أيها العقيمون، وأية هشاشة في أضلعكم! والبعض منكم قد استطاع أن يدرك ذلك بنفسه.

وعندها قال: «لا بد أن هناك إلها قد اقتطع مني جزءً بينما كنت نائما؟ حقّا، ما يكفي لكي يشكّل منه أنثى[1]!

عجيبة هي ضحالة أضلعي!» هكذا تكلم واحد من المعاصرين.

أجل، إنكم لتبدون لي مضحكين أيها المعاصرون! وخاصة عندما تعجبون من أنفسكم!

وويل لي إن لم أستطع أن أضحك من تعجبكم، وأن يكون عليّ أن أنحني لأكرع من كل شراب كريه في أوانيكم!

لكنني أريد أن آخذ الأمر باستخفاف معكم، ذلك أنّ لي حملا ثقيلا عليّ أن أحمله؛ وما ضرّني أن تربض جعلان وحشرات أيضا فوق حمولتي!

الحق أقول لكم، إن ذلك لن يجعل حملي أثقل! ولستم من سيصيبني من جرائه التعب الكبير أيها المعاصرون. -

آه، إلى أية أعال سيكون عليّ أن أطير بشوقي! من فوق كل الجبال أجول بنظري بحثا عن وطن أم وأرض آباء وأجداد[2].

---

(١) إشارة - على طريقة الباروديا الساخرة دوما - إلى ما جاء في سفر التكوين من العهد القديم؛ الاصحاح الثاني/ ٢١ - ٢٢: «فأوقع الربّ سباتا على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبنى الربّ الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم».

(٢) يسمّى الوطن في اللغة الألمانية Vaterland أو «الوطن الأب» - أو حرفيا «موطن الأب»، خلافا لما نعرفه في اللغة العربية، وفي الفرنسية أيضا، حيث الوطن «أم» أو «وطن أم»، لذلك كان علينا أن نقلب العبارات لترجمة تلاعب نيتشه بالألفاظ الذي ورد كالآتي في النص الأصلي: Vater - und - Mutterland وجعلناها - كي تستقيم في العربية - «وطن أم وأرض آباء وأجداد».

لكنني لم أجد لي موطنا في أي مكان: عابر أنا في كل مدينة، ولحظة رحيل أمام كل بوابة.

غرباء بالنسبة لي ومهزلة هم المعاصرون الذي كان يدفعني إليهم الشوق قبل قليل؛ مشرّد أنا الآن من كل وطن وأرض آباء وأجداد.

وهكذا لم يعد لي من حب سوى **لأرض البنين**، تلك التي لم تكتشف بعد، في أقصى البحار: إليها أدفع بمركبي، أبحث عنها وأبحث.

من خلال أولادي أسعى للتكفير عن كوني إبنا لآبائي، وبالمستقبل أسعى للتكفير عن ـ هذا الحاضر!

هكذا تكلم زرادشت

عن المعرفة الطاهرة

عندما طلع القمر ليلة أمس، بدا لي كما لو أنه يريد أن يلد شمسا؛ لفرط ما كان يتراءى عريضا وممتلئا وهو يتربع على خط الأفق.

لكنه كاذبا كان في حَمله المزعوم؛ بل إنني لأميل إلى الاعتقاد بأن رجلا يختبئ داخل القمر وليس امرأة.

وهو لاشك أقل رجولة أيضا، ذلك الكائن الليلي الخجول. حقا، بضمير قلق أراه يمر فوق السطوح.

ذلك أنه شهواني وغيور، ذلك الراهب الذي في القمر، مضطرمٌ باشتهاء الأرض وكل مسرّات المحبين.

كلا، لا أحبه، ذاك القط المتجول فوق السطوح! كريهة عندي كل تلك الكائنات التي تحوم متسللة حول نوافذ نصف مغلقة!

ورعا وصامتا يتنقل على بُسط من النجوم: لكنني لا أحب كل هذه الخطوات الساكنة عند الرجال، والتي لا يرافقها رنين المهاميز.

خطوة الرجل الشريف تنطق بوقعها؛ لكن القط يمر متسللا بخطى ساكنة فوق الأرض. أنظرْ، لذلك هو بطبع القط، وغير شريف ذلك القمر.

هذا المثال أضربه لكم أيها المنافقون الحساسون، أنتم أيها «الساعون فوق دروب المعرفة الطاهرة»! شبقيّون أسمّيكم!

أنتم أيضا تحبون الأرض وكل أرضيّ: لقد قرأت جيّدا في خفاياكم! ـ لكنّ خجلا هناك في حبَّكم وأزمة ضمير ـ مثلكم مثل القمر!

عقلكم هو الذي تم إقناعه باحتقار كل ما هو أرضي، لكن ليس أحشاءَكم؛ غير أن **هذه** الأخيرة هي أقوى ما فيكم!

والآن هو ذا عقلكم يخجل من كونه عبدا لإرادة أحشائكم ويمضي فارا من خجله عبر دروب مواربة وكاذبة.

«بغيتي الأسمى أن أنظر إلى الحياة مجردا من كل رغبة، بلا لسانٍ متدلّ مثل كلب، هكذا يخاطب عقلكم الكاذب نفسه؛

أن أكون سعيدا في النظر بإرادة ميّتة، متخلصا من سطوة ولهفة الأنانية بارداً أكْهَبَ من قمة الرأس حتى القدمين، لكن بعين قمر سكرى!

أَحَبّ الأماني إليّ ـ هكذا يغوي الواقِع في فتنة الغواية نفسه ـ أن أحب الأرض كما يحبها القمر، وأن ألامس جمالها بالعين فقط. وذلك هو معنى المعرفة الطاهرة بالأشياء كلها في نظري: أن لا أرغب من الأشياء كلها في شيء، سوى أن أستلقي أمامها مثل مرآة بألف عين».

أوه، أيها المنافقون الحسّاسون، أيها الشهوانيّون الخليعون! تنقصكم براءة في الرغبة؛ وها أنتم تفترون عليها إذاً وتدعونها شهوانيّة.

الحق أقول لكم، إنكم لا تحبون الأرض محبة مبدعين ومنجِبين وعشاق صيرورة!

أين توجد البراءة؟ حيث توجد إرادة الإنجاب. وإنّ من يريد أن يبدع ما يفوق منزلته لهو في نظري صاحب الإرادة الأنقى.

أين يوجد الجمال؟ حيث **يجب عليّ أن أريد** بكل ما أوتيت من إرادة؛ حيث أريد أن أحب وأمضي إلى حتفي، فلا تظل صورةٌ ما مجردَ صورة فقط.

الحبّ والهلاك: تناغم قائم منذ الأزل. إرادة الحب: ذلك يعني أن يكون المرء على استعداد لإرادة الموت أيضا. هكذا أكلمكم أيها الجبناء[١]!

لكن ها أنّ نظراتكم الحولاء الخصيّة تدّعي الآن أنها «سكينة تأمّلٍ»! وكل ما يمنح نفسه لمداعبة العين الجبانة ينبغي أن يعمد بـ«الجميل»! أوه، أنتم يا مدنّسي الأسماء النبيلة!

لكن، تلك هي لعنتكم أيها الطاهرون، أيها العارفون النقيّون[٢]، أن لا يكون لكم أن تلدوا أبدا؛ حتى وإن كنتم تتمددون عريضين وممتلئين على خط الأفق!

الحق أقول لكم، إنكم تتناولون ملء الفم من العبارات النبيلة: وتريدوننا أن نصدق بأن قلوبكم تفيض على شفاهكم، أيها الكَذَبة؟

---

(١) يرد في المخطوطة الأولية: «... أيها الجبناء [الذين تريدون حُبًا بلا معاناة].

(٢) في المخطوطة الأولية ترد هذه الفقرة، وهي مشطوبة من طرف نيتشه في ما بعد، كالآتي: [«أيها العارفون النقيّون، إنكم تظهرون أنفسكم على أنكم من يتقبل دون أن يتدنس]: «معرفة نقيّة»؛ هكذا تسمّون تسكعكم القمري فوق السطوح، ذلك التسكع الشهواني العقيم: لكن أبدا لن يُكتب لمثل هذه «النقاوة» أن تلد [شمسا] نجما!». راجع أيضا ما ورد في «ديباجة زرادشت» من الجزء الأول: «على المرء أن يظل يحمل فوضى في داخله كي يستطيع أن يلد نجما راقصا».

أما **كلماتي أنا** فتافهة، محتقَرة، معوجّة: بكل سرور ألتقط كل ما يقع تحت مائدة طعامكم(١).

بهذه الكلمات أستطيع دوما أن أصدع بالحقيقة للمنافقين! نعم، ليدغدغ ما تجمّع لدي من حسكات وأصداف وأوراق شائكة أنوف المنافقين!

هواء عطن من حولكم وحول موائدكم على الدوام: أفكاركم الجشعة وأكاذيبكم ونواياكم الخفية تحوم في الهواء.

لتكن لكم جرأة أولا على تصديق أنفسكم - أنفسكم وأحشائكم! فالذي لا يصدق نفسه، يكذب على الدوام.

قناع إلهٍ وضعتم على وجوهكم، أيها «الطاهرون»: وتحت قناع إله اختبأت دودتكم الكريهة.

حقا، إنكم قادرون على المخادعة أيها «المغمورون بالسكينة»! وزرادشت نفسه قد خدع في ما مضى بجلودكم الإلهية؛ لم يكن له أن يدرك بأي حشد من الثعابين قد حُشيتْ تلك الجلود.

روحَ إله كنت أظنني أراها ترقص في ألعابكم، أيها العارفون الأنقياء! ولم أكن في ما مضى لأتصوّر فنّا أرقى من ألاعيبكم!

---

(١) أنظر إنجيل لوقا؛ الاصحاح ١٦/ ١٩ - ٢١: «كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبزّ وهو ينعم كل يوم مترفّها. وكان مسكين إسمه لِعازُر الذي طُرح عند بابه مضروبا بالقروح، ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنيّ». في كنشات المسودات التخطيطات التحضيرية للجزء الثاني من كتاب زرادشت (الكنش ٩) - الواردة في مجلد التعليقات والهوامش لطبعة الدراسات النقدية للأعمال الكاملة التي أعدها مونتي وكولليناري - نقرأ أيضا: «سكون. تواضع في موقع الأعالي./ حلية زينة سأصنع لي من كل ما يقع على الأرض من مائدة الحياة: وبما أجمّع من حسكات وأصداف وأوراق شائكة سأكون أحسن زينة منكم».

كان بُعد المسافة يحجب عني قذارات ثعابين وروائح كريهة، وأن مكر جِرذون يتسلل شهوانياً شرهاً هناك.

لكنني اقتربت منكم؛ وهنا أشرق لي نور النهار؛ وها هو الآن يضيء عليكم أيضا. وكانت تلك نهاية حبّ القمر!

لتنظروا إليه! مباغَتاً شاحباً يقف هناك ـ أمام الفجر!

إذ هي ذي آتية، تلك الملتهبة ـ حبها للأرض يتقدم! براءةَ ورغبةَ خلقٍ هو حب الشموس دوما!

أنظروا إليها كيف تتقدم متأججة نافذة الصبر من فوق البحر! ألا تشعرون بظمأ حبها وأنفاسه الحارة؟

إنها تريد أن تكرع من البحر، تشرب أعماقه وتمتصها إلى أعاليها: وها هي الآن رغبة البحر ترتفع بألف ضرع نحوها.

تريد أن تُلثم وأن يمتصّها ظمأ الشمس؛ هواءً تريد أن تتحول وعلوا ومسرب نور، ونوراً هي ذاتها.

الحقَّ أقول لكم، مثل الشمس أحب الحياة وكل البحار العميقة.

وهذا هو معنى المعرفة لديّ: أن تصعد كل الأعماق ـ إلى علوّي!

هكذا تكلم زرادشت.

عن العلماء

بينما كنت نائما جاء خروف وقضم من إكليل اللبلاب الذي كان يطوّق رأسي؛ وفيما هو يقضم كان يقول: «زرادشت لم يعد عالما».

هكذا قال وانصرف متشامخا ومزهوّا. لقد روى لي ذلك أحد الأطفال.

أحب الاستلقاء هنا، حيث يلعب الأطفال حذو الجدار المتداعي وبين أشواك الدُّرّاج وأزهار الشقائق الحمراء.

عالِما مازلت بالنسبة للأطفال وكذلك بالنسبة لأشواك الدُّرّاج وأزهار الشقائق الحمراء. إنها كائنات بريئة حتى في خبثها.

أما بالنسبة للخرفان فلم أعد كذلك؛ ذلك ما يريده قدري - بورك هذا القدر!

إذ هي ذي الحقيقة: لقد غادرت بيت العلماء، وصفقت الباب ورائي وأنا أخرج من هناك.

طويلا ظلت روحي تجلس جائعة إلى مائدتهم؛ فأنا لم أُربّ مثلهم على قضم المعرفة كمن يكسر جوزا.

أحب الحرية والهواء فوق الأرض الطريّة؛ وإني لأفضّل أن أنام فوق جلود الثيران على افتراش تشريفاتهم وآيات اعتبارهم.

ساخن جدا أنا ومحترق بأفكاري: وكثيرا ما تختنق أنفاسي بهذه الأفكار. عندها لا بد أن أخرج إلى الفضاء الرحب، بعيدا عن كل الغرف التي يغمرها الغبار.

لكنهم باردين يجلسون في الظلّ البارد: إنهم يريدون أن يكونوا في كل أمر متفرّجين فقط، ويتفادون الجلوس حيث تكون الشمس ملتهبة فوق المدارج.

مثل أولئك الذين يقفون في الشارع ويحدقون ببهتة في المارة من أمامهم، كذلك ينتظرون هم أيضا وينظرون ببهتة إلى الأفكار التي صاغها غيرهم.

وإذا ما حركهم المرء بيده تعالى غبار من حولهم مثل أكياس من الطحين، ودون إرادة منهم: لكن من تراه سيتوهّم أن غبارهم ذلك متأتّ من القمح ومن البهجة الذهبية لحقول الصيف؟

وإذا ما تصنعوا كلام الحكماء يقشعر جسمي لمقولاتهم وحقائقهم الحقيرة: لحكمتهم رائحة عطنة، كما لو أنها طالعة من مستنقع؛ والحقَّ أقول لكم، كثيرا ما سمعت نقيق الضفادع أيضا من خلالها!

بارعون هم، ولهم أصابع شاطرة: ما لبساطتي وتعقيداتهم! لأصابعهم دراية بكل غزل ونسج وحياكة: وهكذا تَصنع جوارب للعقل!

ساعاتٌ مضبوطة هم؛ على المرء فقط أن يحرص على تعديل رقّاصها بدقة! وعندها تعلن لك المواقيت دون خطأ، وفيما هي تفعل تحدث ضجة بسيطة من حولها.

مثل طواحين يشتغلون ويجرشون: على المرء فقط أن يرمي لهم بحبوبه! ـ إن لهم معرفة بطحن الحبّ وتحويله إلى غبار أبيض.

يراقبون أصابع بعضهم البعض ولايثقون حتى في أفضلهم. مبدعون في الحيل الصغيرة؛ يتربصون بأولئك الذين تسير معرفتهم على أرجل مشلولة، ـ مثل العناكب ينتظرون متربّصين.

رأيتهم يعدون على الدوام سموما بكل حذر؛ وكانوا يحرصون دوما على وضع قفازات من زجاج لحماية أصابعهم.

يجيدون اللعب بزهر مزوّر أيضا؛ ولكم رأيتهم منكبّين على لعبتهم بحماس يجعلهم يتصببون عرقا.

غريبون نحن عن بعضنا، وذائقتي تشمئز من فضيلتهم أكثر من زيفهم ومن قطع زهرهم المزوّرة.

وعندما كنت أقيم بينهم كنت أسكن فوقهم، وذلك هو ما أثار حفيظتهم.

إنهم لا يحبون أبدا أن يتمشي أحد فوق رؤوسهم؛ لذلك وضعوا خشبا وترابا وقاذورات بيني وبين رؤوسهم.

هكذا أخمدوا وقع خطاي؛ وإلى حد الآن فإن أكبر العلماء ظلوا أسوأ الناس استماعا إلي.

لقد وضعوا كل أخطاء البشرية وضِعفها بيني وبينهم: «أرضية مزيّفة» يسمّون ذلك في بيوتهم.

لكنني، وبالرغم من ذلك أمشي بأفكاري فوق رؤوسهم؛ وحتى لو أنني أردت المشي على قدمين من أخطائي الخاصة، فإنني سأظل مع ذلك فوقهم وفوق رؤوسهم.

ذلك أن الناس ليسوا سواسية: هكذا تتكلم عدالتي. والذي أريده أنا لا يحق لهم أن يريدوه.

هكذا تكلم زرادشت.

عن الشعراء

«منذ عرفت الجسد معرفة أفضل، ـ قال زرادشت لأحد تلامذته ـ لم تعد الروح بالنسبة لي سوى مجرد صورة بلاغية؛ وكل ما هو «خالد»[١] ليس بدوره سوى استعارة».

«هكذا سمعتك تقول ذات يوم، أجابه التلميذ؛ وقد أضفتَ آنذاك: «لكن الشعراء يكذبون كثيرا». لِم قلتَ إذاً إن الشعراء يكذبون كثيرا؟».

لماذا؟ قال زرادشت. تسألني لماذا؟ لست من أولئك الذين يحق للمرء أن يسألهم عن أسبابهم ومبرراتهم.

هل أن تجربتي من بنات الأمس؟ منذ زمن بعيد عشت أسس ومبرّرات أفكاري.

ألا ينبغي عليّ إذاً أن أكون كيس ذكريات إذا ما كان علي أن أحتفظ أيضا بمبرّراتي[٢].

---

(١) قارن مع الأبيات الأخيرة لفاوست مع فارق أن غوتة يكتب: «كل ما هو عابر/ ليس سوى استعارة». أنظر الهامش ٧٦ أعلاه.

(٢) يشير نيتشه هنا إلى الطريقة المبجلة لديه في الكتابة، وهي الشذرات ,Aphorismen-Aphorismes, Aphorismus، والتي يبجلها شوبنهاور أيضا في بعض كتاباته. وقد عرف بها كل من مونتانيي وباسكال أيضا. وفي قاموس المصطلحات النيتشوية (Nietzsches =

إنه لمن الكثير عليّ الاحتفاظ بأفكاري فحسب؛ وهناك عصافير عديدة تفرّ مني من حين لآخر.

ومن حين لحين أجد أيضا طائرا غريبا قد حطّ داخل قفص

=Wörterbuch, W de Gruyter Verlag) الذي تشرف على إنجازه حاليا مجموعة Nietzsche Research Group (Nijmeng) ـ (صدر منه إلى حد الآن الجزء الأول فقط) نقرأ هذا التعريف: «الشذرة هي خلاصة مسار تطور طويل قد أنجز الكاتب خلاله، وهو يسلك دروب مخاطرة، تجارب (تجريب/محاولة) متنوعة، وتطرق دون خوف أو تردد إلى مسائل من صنف الممنوعات التي ينبغي أن تظل طي الخفاء كمحرمات» (والكلام هنا لنيتشه نفسه من كنشات الشذرات والملاحظات رقم: NL ٣٧[٥] ١١. ٥٧٩. «إن الشذرات تعرض نتائج هذا المسار» (NL ٣٥[٣١] ١١. ٥٢٢) «وتتراءى بموجب ذلك كما لو أنها مجتثة من مسار تطورها، منفصلة عن مسار الزمن، وبالتالي «أشكالا للأبدية» (من **أفول الأصنام**؛ تسكعات رجل غير مطابق للعصر). ويضيف قاموس المصطلحات النيتشوية أن الاقتضاب الذي تتميز به الشذرة و«الطابع النواتي» لصياغتها وذلك النوع من انفتاح عملية التفكير، تمثل بالنسبة للقارئ استفزازا يدفع به إلى الاشتراك النشط في عملية التفكير (حسب رأي هـ. كروغر)، إذ يجد القارئ نفسه أمام فرصة لمعاينة مسلّماته وإعادة النظر فيها واختبارها. هذا الإيعاز الذي يحفز على التفكير المستقل يبدو هدفا مركزيا في الفلسفة النيتشوية التي لا تمثل في الحقيقة نظرية ـ حسب شابيرو ـ، بل ممارسة غايتها فسح المجال إلى تكوين العقول الحرة (عقل حر/عقل أكثر تحررا). ويرى عدد من المفكرين والفلاسفة (كوفمان، دولوز، مونكريول وشابيرو وكونكريول) في تبني نيتشه لطريقة الشذرة نيّة سجالية موجهة ضد التفكير النظامي المتداول في الفلسفة، أو بناء النظم والأنساق الفلسفية، ويرون في كتابة الشذرات الشكل الملائم للفكر المتنقل/أو الجوّال؛ أو فكر الترحال الدائم الذي لا يكف عن تغيير زوايا النظر ـ دون انقطاع ـ على عكس الفكر المستقر الذي يعتبر بنّاءً لأنظمة.

في **أفول الأصنام**؛ تسكعات رجل غير ملائم للعصر ـ الفقرة ٥١، نقرأ: «إن الشذرات، تلك المقولات التي أمثّل فيها المعلّم الأول من بين الألمان، هي أشكال لـ«الأبدية»؛ يتمثل طموحي هنا في أن أقدر في عشر جمل على قول ما يقوله واحد غيري في كتاب كامل ـ بل ما لا يقولـه أي أحد آخر في كتاب...» وفي المسافر وظله الملحق **إنساني مفرط الإنسانية** نقرأ: «لتحفظني السماء من المطارحات الكتابية ممططة النسيج! ولو أنه كان لأفلاطون شيء أقل من المتعة في نسج المطولات لكان للقراء أكثر متعة في قراءة أفلاطون...».

حمامي، يرتعش جسده عندما تلامسه يدي.

لكن، ماذا قال لك زرادشت ذات مرة؟ إن الشعراء يكذبون كثيرا؟

ـ لكنّ زرادشت شاعر هو أيضا.

فهل مازلت تعتقد إذاً أنه كان يقول الحقيقة آنذاك؟ ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟».

«إنني أؤمن بزرادشت» أجاب التلميذ. لكن زرادشت راح يهزّ برأسه ويبتسم.

إن الإيمان لا يجعلني سعيدا[١]، وأقل من ذلك الإيمان بنفسي.

لكن لو افترضنا أن أحدا قال بكل جدية: إن الشعراء يكذبون كثيرا؛ فإنه سيكون محقا في ذلك ـ إننا نكذب كثيرا[٢].

---

(١) مرقس، الاصحاح ١٦/١٦: «من آمن واعتمد خلُص، ومن لم يؤمن يُدنْ» مع فارق أن الجملة في النسخة الألمانية (ترجمة لوثر) ترد كالآتي: «من آمن هنا واعتمد سيكون سعيدا».

(٢) مرة أخرى استحضار لمقولة هوميروس. قارن مع ما سيرد لاحقا؛ في الجرء الرابع، فصول: «الساحر» و«نشيد الكآبة» و«عن العلم». ماذا يعني نيتشه يا ترى بمقولة كذب الشعراء؟ هل هو يتبنى موقف أفلاطون ـ عدوه الأكبر ـ من الشعراء الذين قال عنهم إنهم ملفقوا أكاذيب وخرافات، وأن ضررهم كبير على الناس؟ نيتشه هو أيضا شاعر ولا ينكر ذلك كما يفعل أفلاطون، بل كثيرا ما يؤكد على ذلك كما لو أنه يحاول أن يستعيد طراوة التفكير الفلسفي من خلال المصالحة بين الفلسفة والشعر. لكن يبدو أنه ضمن حملته التدقيقية الشاملة لم يرد أن يدع الشعر وشتى الفنون تنعم بذلك التواطؤ المشبوه الذي يجعل منها مجالا لا يطاله النقد والتمحيص. لننظر ما يرد من تفصيل لهذه المسألة في كتاب **إنساني مفرط الإنسانية**؛ فصل «من روح الفنانين والكتاب» الفقرة ١٤٥: «لقد تعودنا تجاه كل ما هو مكتمل الصنعة على إهمال السؤال المتعلق بصيرورة تشكله؛ بل نكتفي بالاستمتاع بوجوده كما لو أنه انبثق من الأرض بضربة عصا سحرية. يبدو أننا واقعين هنا تحت تأثيرات انطباع ميثولوجي. وما يزال يتملكنا نفس الإحساس تقريبا (مثلا داخل=

كما أننا قليلوا معرفة، ونحن متعلّمون رديئون علاوة على ذلك:
لذلك ينبغي علينا أن نكذب.

من منا نحن الشعراء لم يخلط ويزوّر نبيذه؟ كم من مزيج سامّ أُعدّ في قبو مَعاصِرنا، وكم من أشياء لا توصف قد صُنعت هناك!

=معبد إغريقي كمعبد باستوم) كما لو أن إلها ما قد شيّد بيته بهذه الصخور الضخمة فيما هو يلعب؛ وأحيانا كما لو أن روحا قد تم تحويلها قديما وفجأة إلى حجر بفعل سحر، وهي تحاول الآن أن تنطق من خلاله. إن الفنان يدرك أن عمله لن يكون له فعل التأثير الكامل إلا إذا ما أثار الاعتقاد بارتجال ما وبطابع المفاجأة القريبة من المعجزة التي تم بها تشكله؛ وبالتالي فإنه سيعمل على المساعدة على ضمان حصول هذا الوهم ويضمّنه منذ بداية عمله الابداعي عناصر تلك الحيرة المعجَبة وعناصر الفوضى المتخبطة خبط عشواء والحلم المتوقّز، كخدع تعمل على تعديل نفسية المشاهد أو السامع بما يجعلها تعتقد في ذلك الانبثاق الفجئي للعمل المكتمل. ـ إن علم الفنون مطالب، كما هو بديهي، بأن يدحض هذا الوهم بأقصى ما لديه من الدقة والوضوح وأن يفضح الخلاصات المزيّفة ومغالطات الذهن التي تجعله ينقاد إلى الوقوع في فخاخ الفنّان». وفي الفقرة ١٤٦ تحت عنوان «حسّ الحقيقة لدى الفنّان» ـ يتمتع الفنان في ما يتعلق بمعرفة الحقائق بمواصفات أخلاقانية أضعف مما يوجد لدى العالم؛ إنه يرفض رفضا كليا أن تنتزع منه المعاني الناصعة والعميقة للحياة ويتصدى لكل المناهج والنتائج الدقيقة والمجردة من كل الزوائد. في الظاهر يبدو الفنان كما لو أنه يكافح من أجل الكرامة القصوى للإنسان وقيمته المعنوية؛ وفي الحقيقة هو لا يريد التخلي عن شروط التأثير الأقصى التي يحوز عليها فنه، أي العجائبي والأسطوري والغامض والقصووي، وإقامة وزن لما هو رمزي وتفخيم أهمية الشخص والاعتقاد في ما هو ضرب من المعجِز في العبقرية: بمعنى أنه يرى أن استمرارية عمله الابداعي أكثر أهمية من التفاني العلمي من أجل ما هو حقيقي في كل ظاهرة حتى وإن بدت على غاية من البساطة». وفي الفقرة ١٤٧ يرى نيتشه أن الفنان ميال إلى الماضي البعيد، ماضي البدايات وإلى الأموات واستحضار الأموات أكثر من ميله إلى هو مستجد ومتطور، ويرى فيه «طفلا أو فتى غرّا» لم يستطع أن يكبر ويواكب تطور العالم من حوله، و«عن غير قصد فإن مهمته تغدو أن يعود بالإنسانية إلى طور الصبيانية؛ هنا يكمن مجده، وكذلك حدوده».

ولأننا لا نعرف الكثير فإننا نُعجب بكل جوارحنا بكل ذي فاقة ذهنيّة، وخاصة عندما يكنّ إناثا صغيرات ولطيفات!

ولنا لهفة حتى على تلك الأشياء التي تحكيها العجائز في المساء. وهو ما ندعوه بالأنثى الخالدة فينا(١).

وكما لو أن هناك ممرا سريا خاصا إلى المعرفة **ينهار** فوق رأس كل الذين يتعلمون شيئا؛ لذلك ترانا نؤمن بالشعب وبـ«حكمة» الشعب.

لكن هذا ما يعتقده الشعراء جميعا: كل من يضطجع فوق العشب على ربوة منعزلة ويصخي بسمعه سيدرك شيئا مما يوجد بين الأرض والسماء.

وإذا ما تحركت فيهم بعض الأحاسيس الرقيقة، يخيل إليهم دوما أن الطبيعة واقعة في غرامهم؛ وأنها تتسلل إلى آذانهم لتهمس لهم بأسرار ومغازلات وعبارات مناجاة رقيقة؛ وذلك هو ما يجعلهم ينتفخون ويتباهون أمام كل الفانين!

هناك للأسف أشياء كثيرة بين الأرض والسماء لا يمكن أن يكون قد حلم بوجودها غير الشعراء.

بل وأكثر من ذلك، فوق السماء أيضا: إذ كل الآلهة استعارات شعراء؛ بدع يزوّرها الشعراء!

الحقَّ أقول لكم، إننا منجذبون على الدوام إلى ذلك الموقع المرتفع؛ أي إلى مملكة الغيوم(٢): نضع قِرَبنا المزوّقة فوقها ونسميها آلهة ورجالا من فصيلة الإنسان الأعلى:

---

(١) مرة أخرى إحالة على الأبيات الأخيرة من فاوست؛ أنظر الهامش رقم ١ ص١٦٨.

(٢) أنظر **إنساني مفرط الإنسانية**، الفصل المذكور أعلاه؛ الفقرة ١٥٠: «الحشو الروحاني=

ذلك أنها خفيفة جدا بما يناسب هذه المقاعد، كل تلك الآلهة والكائنات العليا!

أوه، لكم مللت كل هذا النقص الذي يريد بأي ثمن أن يكون حدثاً! أوه، لكم مللت الشعراء!

وبينما كان زرادشت يتكلم هكذا كان تلميذه يستشيط غيضا لكلامه، لكنه ظل صامتا. ثم صمت زرادشت بدوره؛ وكان نظره قد ارتدّ إلى داخله كما لو كان ينظر باتجاه مدى شاسع فسيح. أخيرا تنهّد وتنفّس بعمق.

إنني من اليوم ومن الأمس، قال بعد ذلك؛ لكن شيئا فيّ من الغد وبعد غد ويوم قادم ما.

لقد مللت الشعراء قديمَهم وحديثَهم: مسطّحون جميعهم، وبحار مياه ضحلة.

لم يفكروا في العمق بما فيه الكفاية؛ لذلك لم يكن لشعورهم أن يهبط إلى قاع الهاوية.

للفن» ـ حيثما تتراجع الأديان يرفع الفن هامته. إنه يتبنى الكثير من الإحساسات والحالات النفسية التي أنشأها الدين، يملأ بها قلبه ويغدو بدوره أكثر عمقا وأكثر امتلاء روحانيا بما يجعله قادرا على الإشعاع بانطباعات السمو والإعجاب؛ الأمر الذي لم يكن قادرا عليه قبلها. إن ثراء الأحاسيس الدينية المتكون في هيأة تيارات متدفقة تجد نفسها على الدوام تندفع فائضة مجددا وتسعى إلى غزو ممالك جديدة: لكن حركة التنوير المتنامية قد رجّت دعائم المعتقدات الدينية وبثت ريبة جذرية في النفوس؛ وهكذا فإن هذه الإحساسات، وقد أقصيت من المجال الديني عن طريق التنوير، تجد نفسها منقذفة داخل الفن، وفي حالات متفردة داخل المجال السياسي أيضا، بل وحتى داخل العلوم. وحيثما يلمح المرء تلوينة قاتمة عالية الدرجة داخل الطموحات الإنسانية، يحق أن نفترض أن شيئا من أرواح مرعبة (بمعنى الأشباح هنا ـ المترجم) ورائحة بخور وأشباح كنائس ما تزال عالقة هناك».

شيء من الشهوانية وشيء من الضجر: ذلك أفضل ما كان في تفكّرهم.

أنفاس أشباح وهفيف يتسلل منفلتا هي أنغام قيثارتهم في أذني؛ ما الذي عرفوه من صبابة حرقة الأنغام إلى حد الآن!

وهم ليسوا نقيّين بما فيه الكفاية في نظري: جميعهم يكدّرون مياههم كي تبدو عميقة.

يحبون الظهور بهيأة المصالِحين؛ لكنهم وسطاء وصُنّاع أخلاط يظلون في نظري، وشِبهَ ـ شِبهٍ وقذارةً!

أفّ، لقد ألقيت بشباكي في بحرهم طمعا في اصطياد أسماك جيّدة؛ لكنني في كل مرة كنت أسحب رأس إله عتيق.

هكذا ألقى البحر للجائع بحجر[1]. وهم أنفسهم قادمون من عمق البحر على ما يبدو.

أكيد أنه بوسع المرء أن يعثر على لئالئ داخلهم؛ وهم على أية حال أشبه بصدفيات ذات قوقعات صلبة. وعوضا عن روحٍ غالبا ما كنت أجد مادّة مخاطيّة مالحة داخلهم.

قد تعلموا من البحر غروره أيضا: أليس البحر بطاووس الطواويس؟

يميد بذيله حتى أمام أقبح الثيران منظرا، ولا يمل أبدا من تحريك مروحة الدنتيل المطرّزة بالحرير والفضة.

---

(١) أنظر متّى الاصحاح ٧/ ٩ ـ ١٠: «أم أيّ إنسان منكم إذا سأله إبنه خبزا يعطيه حجراً. وإن سأله سمكة يعطيه حيّة».

حرِناً ينظر إليه الثور والرمل أقرب إلى نفسه، وأقرب من الرمل الدغل، وأقرب منها جميعا إلى نفسه هو المستنقع.

ما الذي يعنيه في الجمال، والبحر وحلّة الطاووس؟ هذا المثل أضربه للشعراء.

حقا، إن عقلهم ذاته لهو طاووس الطواويس وبحر غرور!

متفرّجين يبتغي عقل الشعراء: حتى ولو كانوا ثيرانا!

لكنني مللت هذا العقل: وإنني لأراه سيملّ نفسه ذات يوم هو أيضا.

متبدّلين رأيت الشعراء، وقد حوّلوا نظرهم إلى دواخلهم.

عقولا تائبة رأيتها قادمة؛ عقولا تائبة طالعة من صلب هؤلاء الشعراء.

هكذا تكلم زرادشت.

عن الأحداث العظام[1]

هناك جزيرة وسط البحر ـ غير بعيد من جزر زرادشت السعيدة ـ فوقها يرسل جبل بركاني دخانه بلا انقطاع. عن هذا الجبل يقول الشعب وبصفة خاصة عجائز الشعب إنه مثل صخرة هائلة قد وضعت على باب العالم السفلي. وعبر هذا البركان ينحدر المسرب الضيق الذي يقود إلى باب الجحيم[2].

لكن في ذلك الوقت الذي كان زرادشت يقيم فيه فوق أرض الجزر السعيدة، حدث أن سفينة رست على ساحل الجزيرة التي ينتصب فوقها الجبل البركاني؛ تفرّق رجال الطاقم في البر لاصطياد الأرانب، لكن عندما اجتمع الربان ورجاله من جديد عند الظهيرة لمحوا فجأة في الفضاء رجلا طائرا نحوهم[3]، وكان هناك صوت ينادي بوضوح:

---

(١) «كلب النار» هو العنوان الأصلي لهذا الفصل في نص المخطوطة.

(٢) يذكر مونتي وكولليناري في مجلد الهوامش والتعليقات الملحق بطبعة الدراسات النقدية، واستنادا على شذرات المسودات، أن هذا الفصل يمثل سخرية من الثورات التي يقارنها نيتشه بسطح بركان فيزوف. ونقرأ في المسودات الواردة تحت رقم ١٠[٢٨] التنويعات التالية: «هزء بالثورات وبركان فيزوف. / شيء لا يتجاوز السطح/ ضد الثورة.

(٣) يثبت العالم النفساني كارل غوستاف يونغ سنة ١٩٠١ بأن هذا المقطع مستلهم من جوستينوس كيرنر (طبيب وشاعر ألماني ١٧٨٦ ـ ١٨٦٢). وترد قصة كيرنر كالآتي: «كان الربابنة الأربعة والتاجر السيّد بيل ماضين لاصطياد الأرانب على ساحل جزيرة سترومبولي. وفي الساعة الثالثة نادوا رجالهم ليلتحقوا بالمركب عندما تملكتهم دهشة=

«حان الوقت! لقد آن الأوان» وعندما غدا قريبا جدا منهم ـ لكنه سرعان ما مر عليهم مثل طيف طائرا باتجاه مكان البركان ـ عندها أدركوا بذهول كبير أنه زرادشت؛ ذلك أنه سبق لهم جميعا، في ما عدا الربان، أن رأوه، وكانوا يحبونه كما يحب الشعبُ: أي بذلك المزيج المتساوي الذي يجمع بين الحب والرهبة.

«أنظروا! قال ملاّح القيادة العجوز، هو ذا زرادشت يمضي إلى الجحيم!».

وكان في الوقت الذي رست فيه السفينة على شاطئ جزيرة البركان خبر يسري هنا وهناك بأن زرادشت قد اختفى؛ وعندما يسأل الناس تلامذته كانوا يجيبون بأنه مضى ليلا إلى سفينة دون أن يقول إلى أين كان يريد.

وكان الجميع في حيرة؛ لكن بعد ثلاثة أيام جاءت حكاية البحارين لتنضاف إلى تلك الحيرة ـ والآن هو ذا الشعب بكليته يقول إن زرادشت أخذه الشيطان.

صحيح أن تلامذته قد ضحكوا من تلك الأقاويل حتى أن واحدا منهم قال: «بل إنني أعتقد أن زرادشت هو الذي أخذ الشيطان».

=عارمة وهم يلمحون رجلين قد ظهرا فجأة وهما يمران محلّقين في الفضاء من فوقهما. كان أحد الرجلين يرتدي ملابس سوداء بينما ملابس الثاني رمادية اللون، وقد مرا قريبا منهم بسرعة فائقة، ثم رأوهم يصعدون وسط ألسنة اللهب المتقدة لينحدروا في جوف بركان جبل سترومبولي الفظيع». (عن كوللي ومونتناري)...

وفي مسودات نيتشه ترد الفقرة كالآتي: «... لمحوا في الفضاء رجلا، أو ظل رجل قادما نحوهم، ولما مر بالقرب منهم ـ في الاتجاه الذي يوجد به جبل النار ـ عرفوا [جميعهم] عندها أنه [زرادشت] يرتدي ملابس زرادشت...... وكانوا يعرفون أن زرادشت يتميّز عن جميع الناس بملابسه..» (عن مونتي وكوللي‌ناري)

لكنهم كانوا جميعهم في عمق أرواحهم ممتلئين قلقا واشتياقا لزرادشت؛ لذلك كانت فرحتهم هائلة عندما رأوه في اليوم الخامس يظهر بينهم مجددا.

وإليكم الآن حكاية المحادثة التي دارت بين زرادشت وكلب النار.

إن للأرض جلدا، قال زرادشت، ولهذا الجلد أمراض. إحدى هذه الأمراض مثلا يسمى: «إنسان».

وهناك مرض آخر يسمى «كلب النار»: حول هذا الأخير روى الناس واستمعوا إلى العديد من الأكاذيب.

ولكي أسبر أغوار هذا السر ركبت البحر: ورأيت الحقيقة عارية، والحق أقول لكم حافيةً رأيتها وعاريةً حتى العنق!

أما عن كلب النار، فإني صرت على معرفة بذلك الآن؛ وكذلك بكل الشياطين المزبدة المدمِّرة التي تَرهَبها العجائز وغير العجائز أيضا.

لتخرج من مخبئك العميق يا كلب النار! صرخت به، - وإنني لأقرّ بأنها كانت عميقة وأيّ عمق، تلك الهوّة! - من أين لك هذا الذي تعفط به وتنفثه هنا؟

إنك تشرب كثيرا من ماء البحر؛ ذلك ما تفشيه فصاحتك المالحة! حقا، وإنك لتتناول غذاءك من موقع سطحي جدا بالنسبة لكلب أعماق!

إنني لأرى فيك في أفضل الأحوال متكلّم بطن من قاع الأرض: وكلما استمعت إلى كلام شياطين مزبدة ومدمّرة، وجدتها شبيهة بك: مالحة وكاذبة ومسطحة.

لكم كلكم دراية بالزعيق وذر والرماد في العيون! أنتم أفضل

المتشدقين وقد تعلمتم بما فيه الكفاية فن تحويل الأوحال إلى طبيخ فائر.

حيثما كنتم لا بد أن تكون هناك على الدوام أوحال قريبة منكم؛ والكثير من الأشياء الإسفنجية والمغاريّة والضيّقة؛ وكلها تريد الخروج إلى فضاء الحرية.

كلكم تحبذون الزعيق بـ«الحرية»؛ لكنني انقطعت عن الاعتقاد في «الأحداث العظام» منذ أن أصبح يتعالى من حولها دخان وصراخ كثير.

ولتصدقني يا عزيزي ذو الصخب العارم! إن الأحداث العظام ليست لحظاتنا الأكثر صخبا، بل تلك الأكثر سكونا.

ليس حول مبتكري الصخب الجديد، بل حول مبتكري القيم الجديدة يدور العالم؛ **في صمت وسكون** يدور.

ولتعترف بهذه الحقيقة! شيء قليل كان يحدث دوما بعد أن ينقشع صخبك ودخانك. وأية أهمية ياترى لمدينة قد تحولت مومياء وعمودا منطرحا في الأوحال!

وهذه كلمة أقولها لمقوّضي الأعمدة: إنه فعلا لأقصى الجنون، أن يقذف الواحد بملح في البحر وبأعمدة في الأوحال.

في أوحال احتقاركم يستلقي العمود: لكنّ ذلك هو قانونه القاضي بأنه من خلال الإهانة سيكتسب حياة وجمالا جديدين.

وها هو ذا يقف الآن بملامح أكثر قدسية وأكثر إشعاعا بسحر الألم؛ والحق أقول لكم، إنه سيعبّر لكم عن شكره وامتنانه لأنكم أسقطتموه، أيها المقوّضون!

أما هذه فنصيحتي التي أقدمها للملوك وللكنائس ولكل ما هو منهك بالشيخوخة وبالفضائل: أسلموا أنفسكم للتقويض! كي تعودوا ثانية إلى الحياة، وتعود إليكم ـ الفضيلة! ـ

هكذا تكلمت أمام كلب النار: وهنا قاطعني متجهما ليسألني: «كنيسة؟ ماذا يعني هذا الشيء؟».

كنيسة؟ إنه نوع من الدولة، أجبته، بل هي النوع الأكثر كذبا. لكن لتخرس الآن أيها الكلب المنافق! إنك لأدرى بنوعك من أي كان!

مثلك هي الدولة، كلب منافق؛ ومثلك أنت يعجبها هي أيضا أن تتكلم زعيقا ودخانا كي تبعث على الاعتقاد، مثلك أنت، بأن كلامها طالع من أعماق الأشياء.

ذلك أنها تريد أن تكون الحيوان الأكثر أهمية على وجه الأرض إطلاقا، تلك الدولة؛ وقد صدّقها الناس في ذلك أيضا.

ولما نطقت بهذا الكلام غدا كلب النار يستعر مثل مجنون من فرط الغيرة. «ماذا؟ راح يصرخ، أهمّ حيوان على وجه الأرض؟ ويصدقها الناس أيضا في ما تدعي؟» وكان بخار كثير وأصوات كريهة تصعد من جوفه حتى ظننت أنه سيختنق من فرط الحنق والغيرة.

أخيرا بدأ يهدأ شيئا فشيئا، وخفَتَ نهيجُه؛ لكن ما إن عاوده هدوؤه حتى قلت له ضاحكا:

«أراك مغتاظا يا كلب النار؛ فأنا على حق إذاً في ما قلته عنك!

ولكي أظل على حق، دعني أحدثك الآن عن كلب نار آخر، صوته طالع فعلا من عمق الأرض.

أنفاسه تتوهج ذهبا ومطرا من ذهب؛ تلك هي إرادة قلبه. وما الذي يعنيه في الرماد والدخان والمخاط الساخن!

ضحكاته تصاعد سحابة ملونة من حوله؛ وهو لا يحفل بغرغرتك وببصاقك وسخط أمعائك!

أما الذهب والضحك، فإنه يستخرجهما من قلب الأرض ـ ولتعلم؛ **إن قلب الأرض من ذهب**».

ولما استمع كلب النار إلى هذا الكلام لم تعد له من طاقة على مزيد من الاستماع. خجولا حشر ذيله بين قائمتيه، وبصوت ذابل عوى: وَوْو! وَوْو! وهبط زاحفا إلى مغارته.

هذا ما رواه زرادشت. لكن تلامذته كانوا بالكاد يستمعون إليه، لفرط ما كانوا يتقدون رغبة في أن يحدثوه عن رجال السفينة وعن الأرانب والرجل الطائر.

ماذا عساني أفكر بهذا الذي حكيتموه! قال زرادشت. أأنا شبح إذاً؟

لكن لا بد أن ذلك كان ظلي. أما سمعتم عن المسافر وظله؟

لكنّ الثابت في الأمر أنه ينبغي عليّ أن أظل ممسكا بعنانه بقوة ـ وإلا فإنه سيسيء إلى سمعتي».

ومرة أخرى راح زرادشت يهز برأسه ويتعجب. «ماذا عساني أفكر بهذا كله؟ ردد ثانية.

«ترى لِم كان ذلك الشبح يصيح: لقد حان الوقت! لقد آن الأوان! لأيّ أمر يا ترى ـ آن الأوان؟».

هكذا تكلم زرادشت

الرائي

«ورأيت[1] حزنا عظيما هابطا على البشر. وأفضل الناس قد ملّوا أعمالهم.

هناك مذهب قد انتشر تصحبه ديانة: «الكل خواء، الكل متشابه، وكل شيء قد كان»[2].

ومن كل الربى يتردد الصدى: «الكل خواء، والكل متشابه، وكل شيء قد كان!».

لقد جمعنا غلّتنا؛ لكن ما الذي جعل ثمارنا تصفرّ وتتعفن؟ ما الذي وقع على الأرض من سوء القمر الخبيث ليلة البارحة؟

هباءً راح كل عملنا، وخمرتُنا غدت سمّاً؛ عين سوء قد أيبست حقولنا وقلوبنا.

هشيما غدونا؛ وإذا ما هبطت نار علينا فسنتتطاير غبارا شبيها بالرماد؛ ـ أجل، إن النار نفسها قد أصابها منا الملل.

كل آبارنا نضبت، والبحر ارتد منسحبا. الأرض بكليتها تريد أن تنشقّ، لكن الأعماق لا تريد ابتلاعنا!

---

(١) أنظر رؤيا يوحنا اللاهوتي؛ الاصحاح الخامس/١ و٦؛ العاشر/١؛ الثالث عشر/١؛ الرابع عشر/١....

(٢) أنظر كلام الجامعة سليمان بن داود؛ سفر الجامعة الإصحاح الأول بكامله، والهامش ٢٢٧ أدناه.

«آواه، هل من بحر بعد نستطيع أن نغرق فيه؟»، هكذا ترنّ شكوانا فوق السطح الممتد للمستنقعات.

حقا أقول لكم، لقد غدونا متعبين أكثر مما ينبغي كيما نموت؛ وها نحن نظل يقظين إذاً ونستمر في الحياة - داخل حُجرات الموتى!».

هكذا سمع زرادشت راءٍ يتكلم، وقد نفذت كلماته الحكمية إلى قلبه وغيّرته. حزينا راح يهيم ومتعباً، وقد غدا شبيها بأولئك الذين كان يتكلم عنهم ذلك الرائي.

الحق أقول لكم، ما هو إلا وقت قليل وسيهبط علينا هذا الظلام الطويل، قال زرادشت مخاطبا تلامذته. أواه، كيف لي أن أنجو بنوري إلى ما وراء هذا الظلام!

أن أنجو به من الاختناق داخل هذا الحزن؟ لأنّ له عوالم أخرى أبعد ينبغي أن يضيئها، وليال أخرى بعيدة!

مهموم القلب راح زرادشت يتنقل هائما على وجه الأرض؛ ولثلاثة أيام لم يذق أكلا أو شرابا، مضطربا لا يهدأ له بال، وقد غدا أبكم معقود اللسان. أخيرا كان أن غرق في نوم عميق. لكن تلامذته ظلوا جالسين حوله يحرسون نومه الطويل منتظرين في حيرة إن كان سيستيقظ بعدها ويكلمهم ويتعافى من حزنه.

ثم هاهي الخطبة التي كلم بها زرادشت تلامذته عندما استيقظ من نومه؛ لكن صوته بدا لهم كما لو كان قادما من أصقاع بعيدة.

«استمعوا إذاً إلى الحلم الذي رأيت أيها الأصدقاء، وساعدوني على تفسير مغزاه!

لغزا ما يزال هذا الحلم بالنسبة لي، ومعناه خفيّ منحبس في داخله لا يستطيع أن يحلق فوقه بأجنحة طليقة.

لقد انصرفت عن الحياة بكليتها، هكذا رأيتني أحلم. أصبحت حارسا ليليا وراعي قبور هناك فوق قلعة الموت المنتصبة فوق الجبل.

في ذلك المكان المرتفع كنت أحرس توابيت الموت؛ وكانت أقبيته المعتمة الرطبة مليئة بغنائم انتصاراته. ومن وراء التوابيت الزجاجية كانت ترمقني الحياة المهزومة.

كنت أتنفس من رائحة الخلود المشبعة بالغبار: مختنقة حرا ورطوبة ومغبرّة كانت روحي تستلقي هناك. ومن ذا الذي سيكون قادرا على تهوئة روحه في ذلك المكان يا ترى!

ضوء منتصف الليل من حولي دائما، وإلى جانبه كانت تقبع الوحدة، وثالثتهما حشرجة الصمت الموات؛ أسوأ أصدقائي جميعا.

كنت أحمل مفتاحا صدئا، أكثر المفاتيح صدأ؛ وكنت أعرف كيف أفتح به أكثر الأبواب صريرا.

مثل نعيق مرير كريه انطلق الصوت عبر الممرات الطويلة عندما انفتح مصراعا الباب: صراخا فظيعا راح يطلق ذلك الطائر، لأنه ما كان ليحبذ أن يوقظه أحد.

لكنْ أكثر فظاعة ووطأة على القلب غدا الفضاء من حولي عندما توقف ذلك الصراخ وكان صمت من حولي ووجدتني أجلس وحيدا داخل ذلك الصمت الماكر الكريه.

على هذه الحال مرّ الوقت عليّ متسللا، إن كان هناك وقت بعد؛ ما أدراني بذلك! لكن أخيرا حصل الأمر الذي أيقظني.

ثلاث مرات قُرع الباب قرعا شبيها بدوي الرعد، ولثلاث مرات دوّت الأقبية وولولت: عندها نهضت متجها إلى الباب.

ألْبا! صرخت مناديا، من الذي يحمل رماده إلى الجبل؟ ألْبا! ألْبا! من الذي يحمل رماده إلى الجبل[1]؟

وكنت أعالج المفتاح بعسر في القفل وأنا أضغط وأدفع الباب بكل قواي؛ ولم ينفرج الباب بمقدار إصبع حتى هبّت ريح عاتية دفعت مصراعيه تفتحهما بعنف؛ مصفّرة مرغية بصوت حادّ قاطِع قذفت لي بنعش أسود:

ووسط جلبة من الهدير والصفير انشق النعش واندفعت من جوفه آلاف القهقهات.

وإذا عدد هائل من الوجوه المكشرة لأطفال وملائكة وحمقى وبوم وفراشات بحجم أطفال تضحك وتسخر وتهدر في وجهي.

تملكني رعب فظيع طرحني أرضا. وإذا أنا أصرخ من شدة الفزع كما لم أصرخ من قبلها أبدا.

لكن صراخي أيقظني؛ وإذا أنا أعود إلى نفسي[2].

---

(١) أنظر بداية الكتاب: ديباجة زرادشت، ولقاء زرادشت بالناسك العجوز.

(٢) هناك إشارة إلى هذا الحلم في شذرة من مسودات سنة ١٨٧٧، كما يرد في تعليقات وهوامش مونتي وكولليناري. ثم في المجلد التاسع من الكنشات. في صائفة ١٨٧٧ يروي نيتشه لصديقه رانهاردت فون سايدليتز حلما يردد فيه عبارات «ألبا، ألبا!» يقول راينهاردت فون سايدليتز: «كان نيتشه يروي لي ضاحكا أنه وجد نفسه في الحلم يتسلق دربا جبليا لا نهاية له؛ وفي الأعلى، مباشرة تحت القمة الحادة للجبل أراد أن يمر بالقرب من مغارة عندما تناهى إليه من الأعماق السحيقة المظلمة صوت يناديه: «ألبا، ألبا! ـ من الذي يحمل رماده إلى الجبال؟»». =

هكذا روى زرادشت وقائع حلمه ثم صمت؛ ذلك أنه لم يعرف بعد مغزًى لحلمه ذاك. غير أن التلميذ المحبب إلى نفسه من بين الجميع نهض بسرعة وشد على يد زرادشت وخاطبه قائلا:

«إن حياتك نفسها هي التي تفسر لنا هذا الحلم، يا زرادشت!

ألست أنت الريح ذات الصفير الحاد التي تصفع أبواب قلعة الموت وتفتحها على مصراعيها؟

ألست أنت النعش المليء بالشرور الملونة للحياة وتكشيراتها الملائكية؟

حقا، بمثل آلاف ضحكات الأطفال يأتي زرادشت إلى كل حجرات الأموات، ضاحكا من هؤلاء العسس الليليين وحراس القبور، وكل من يحدث صرير مفاتيح تنقبض له النفوس.

سترعبهم وتطرحهم أرضا بضحكاتك؛ وسيكون ذهولهم ويقظتهم هي حجة سلطانك عليهم.

وحتى إذا ما حلّ الغروب الطويل وعياء الموت فإنك لن تختفي من سمائنا، أيها المتكلم باسم الحياة!

= وفي المجلد العاشر من الكنشات يروي زرادشت بنفسه حلمه هذا: «هذا ما حدث لي ذات مرة: لقد حلمت أصعب أحلامي، ونظمت في الحلم لغزي القاتم هكذا: لكن، أنظر، إنها حياتي نفسها هي التي كان يرمز إليها ذلك الحلم./ أنظر، إن حاضري يخلّص ماضيّ وما ينحبس داخله من معنى./ وذلك هو ما حدث بالنهاية: لثلاث مرات زمجر لي رعد من بين طيات الليل، وثلاث مرات ولولت الأقبية./ ألبا، ناديت، ألبا، ألبا. م(ن) ي(حمل) غ(بار)ه إ(لى) الج(بال)؟ أية حياة متجاوَزة/ مغلوبة/ تأتي إليّ أنا (حارس) الليل والقبور؟/ عندما حلمتكُم حل(مت) أصعب أحلامي./ هكذا أريد أن أكون رعبكم - وغيبوبتكم وصحوكم».

لقد أريتنا نجوما جديدة وروائع ليل جديدة؛ حقا، لقد بسطت لنا الضحك نفسه مثل خيمة ملوّنة فوق رؤوسنا.

والآن ستكون هناك دوما ضحكات أطفال تتدفق من التوابيت؛ والآن ستكون هناك دوما ريح قوية تهب مظفَّرة على كل عياء الموت؛ وإنك لضامنها والنبي المبشر بها.

حقا، **أعداؤك عينهم هم الذين حلم بهم**؛ وكان ذلك أشد أحلامك قسوة!

لكن، كما أنك استيقظت منهم وعدت إلى نفسك، كذلك سيكون عليهم أن يستيقظوا من أنفسهم ـ ويعودوا إليك!» ـ

هكذا تكلم التلميذ؛ وكل الآخرين قد اندفعوا الآن جميعا حول زرادشت وراحوا يشدون على يديه يريدون إقناعه بأن يترك الآن مضجعه وحزنه ويعود إليهم. لكن زرادشت ظل جالسا فوق فراشه ينظر بعينين ساهمتين. مثل واحد عائد للتو من سفر طويل كان ينظر إلى تلامذته ويتفحص وجوههم؛ غير أنه ظل لا يستطيع التعرف عليهم. لكن ها هي نظرته تتغير فجأة عندما رفعوه لينتصب واقفا على قدميه؛ لقد أدرك كل ما حدث، فمسح على لحيته وبصوت متين قال:

«هيّا! لكل هذا وقته؛ لكن لتنظروا يا تلامذتي كيف نتدبر لنا أكلا جيدا، وبسرعة! هكذا أريد أن أكفّر عن أحلامي السيئة!».

هكذا تكلم زرادشت. ثم راح ينظر إلى التلميذ الذي قدم تفسيرا لحلمه متفحصا وجهه وهو يهزّ برأسه.

عن الخلاص

ذات يوم، بينما كان زراداشت مارا فوق الجسر الكبير أحاط به ذوو العاهات والشحاذون[1]، وبهذه الكلمات خاطبه أحدب:

«أنظر، يا زرادشت! إن الشعب أيضا يتعلم منك وقد بدأ يؤمن بتعاليمك، لكن ما يزال ينقصه شيء واحد كي يكتمل إيمانه بك؛ عليك أولا أن تقنعنا نحن ذوي العاهات! وها أمامك هنا مجال واسع للاختيار، وهي حقا فرصة تمنح نفسها لك هنا دون عناء! يمكنك أن تعيد البصر إلى العميان، والمشلولون تجعلهم يقفون ويمشون، ومن كان له فوق ظهره أكثر مما ينبغي يمكنك أيضا أن تنقص عنه بعض

---

(١) ضمن عملية الباروديا والقلب الذي يجريه نيتشه على محتوى الأناجيل، نرى هنا استحضاراً لصورة مكررة في العديد من المواقع من الأناجيل، حيث المسيح محاط غالبا بذوي العاهات والمرضى والمفلوجين والمتعبين. أنظر على سبيل المثال: متّى؛ الاصحاح ١٥/ ٢٩ ـ ٣٠: «ثم انتقل يسوع من هناك وجاء إلى جنب جبل الجليل. وصعد إلى الجبل وجلس هناك، فجاء إليه جموع كثيرة معهم عُرج وعُمي وخُرس وشُلّ وآخرون كثيرون»... غير أن زرادشت ـ وضمن قلب القيم كعنصر مركزي في الفلسفة النيتشوية ـ يرفض مداواة المصابين وتخليص ذوي العاهات من عاهاتهم كي يتفادى أن يخلق لهم عاهات معاكسة جديدة ـ أو مكتسبة. أنظر مثلا **إنساني مفرط الإنسانية**: الاستهلال، الفقرة ٣: «ألا يمكن للمرء أن يقلب كل القيم؟ فلعل الخير شر؟ والله مجرد بدعة وحيلة من الشيطان؟ لعل كل شيء خطأ من الأساس؟ وإذا ما كنا مخدوعين، ألسنا في ذلك وبذلك غشاشين بدورنا؟ ألا ينبغي علينا أن نكون أيضا غشاشين؟».

الشيء: إنها على ما أعتقد الطريقة المثلى لجعل ذوي العاهات يؤمنون بزرادشت!».

لكن زرادشت ردّ على مخاطبه بهذه الكلمات: «إذا ما أخذ المرء من الأحدب حدبته، فإنه يأخذ منه روحه أيضا ـ هكذا يعلمنا الشعب. وعندما يعيد المرء للأعمى بصره، فإنه سيرى الكثير من الأشياء الكريهة على وجه الأرض؛ الأمر الذي سيجعله يلعن من عالجه. أما من يجعل المشلول يمشي، فإنه يسبب له أكبر المضار: فلمجرد أن يغدو قادرا على المشي تقف رذائله على قدميها وتسابقه ـ هكذا تقول تعاليم الشعب بشأن ذوي العاهات. ولِم لا يحق لزرادشت أن يتعلم بدوره من الشعب، إن كان الشعب يتعلم من زرادشت؟

لكن من بين كل ما رأيت طوال وجودي بين البشر ليس هذا بأسوأ الأشياء في نظري أن أرى أنّ «هذا تنقصه عين، والآخر أذن وثالث تنقصه ساق، وهناك آخرون قد فقدوا لسانهم أو أنفهم أو رأسهم».

وإني أرى الآن وقد رأيت من قبل ما هو أسوأ، وأنواعا من الفظاعات بحيث لا أريد أن أتكلم عن كل شيء ولا حتى أن أسكت عن بعض الأشياء.

رأيت أناسا ينقصهم كل شيء عدا أن لهم دوما شيئا واحدا أكبر مما ينبغي ـ أناسا ليسوا شيئا آخر غير عين كبيرة أو شدق كبير أو بطن كبير، ـ ذوي عاهات معكوسة أسمي هؤلاء.

وعندما عدت من عزلتي ووجدتني أعبر الجسر لأول مرة رحت أنظر وأدقق النظر وأخيرا قلت: «إنّها أُذن! أُذن بحجم إنسان!» ونظرت مرة أخرى وبأكثر تمعّن: وإذا تحت الأذن فعلا شيء آخر يتحرك وكان صغيرا وبائسا ونحيلا بما يبعث على الشفقة. حقا كانت تلك الأذن

الهائلة تجثم فوق غصن صغير دقيق ـ لكنّ ذلك الغصن لم يكن شيئا آخر غير إنسان! ومن كانت له عدسة مكبرة كان بإمكانه أن يميّز أيضا وجها حسودا صغيرا؛ وكذلك روحا صغيرة متورمة تتأرجح فوق ذلك الغصن. لكن الشعب قال لي إن تلك الأذن الكبيرة ليست إنسانا فقط، بل إنسانا عظيما، عبقريا. غير أنني لا أصدق الشعب أبدا عندما يتكلم عن رجال عظماء؛ وهكذا بقيت محتفظا برأيي بأنه ذو عاهة معكوسة؛ لديه من كل شيء أقل مما ينبغي ومن شيء واحد أكثر مما ينبغي».

ولما خاطب زرادشت بهذا الكلام ذي العاهة وكل الذين كان يمثل لسان حالهم والناطق بأمرهم، التفت إلى تلامذته وقال:

الحق أقول لكم يا أصدقائي إنني أمضي بين البشر كما لو كنت أمشي بين كُسار وأعضاء بشرية متناثرة!

إنه المنظر الأكثر شناعة في عيني، أن أجد البشر حطاما متناثرا كما في ساحة قتال أو مذبح.

وإذا ما فرّت عيني من الحاضر نحو الماضي، فإنها تظل تجد الأمر نفسه على الدوام: كُساراً وأعضاء بشرية متناثرة وصدفا فظيعة ـ لكن ما من بشر هناك!

الحاضر والماضي فوق الأرض ـ آه، يا أصدقائي! ـ إنه عبئي الذي لا يحتمل؛ وما كان لي أن أستطيع الحياة لو لم أكن أيضا راءٍ لما هو قادم حتما في المستقبل، راءٍ وصاحبَ إرادة ومبدعاً، مستقبَلا عينُه وجسرا نحو المستقبل ـ ومعاقا فوق هذا الجسر في الآن نفسه، للأسف: كل هذا هو زرادشت.

ثم إنكم تتساءلون أيضا: «من هو زرادشت بالنسبة لنا؟ وبأي إسم يمكن أن نسميه؟» ومثلي أنا تجيبون عن تساؤلاتكم بأسئلة.

هل هو واعد، أم منقّذ وعود؟ غازٍ، أم وريثٌ؟ هل هو خريف، أم سكّة محراث؟ طبيب، أم نقيه؟

هل هو شاعر، أم متكلم بالحق؟ محرّر، أم مقيِّد؟ خيِّر، أم شرّير[(١)]؟

أمضي بين الناس كما لو كنت أمشي بين كُسارات من المستقبل: مستقبل أشاهده الآن.

هاجسي ومبتغاي أن أجمع في كلٍّ موحَّدٍ ما كان شظايا وألغازاً وصدفاً فظيعة.

وكيف لي أن أتحمّل شرطي كإنسان لو لم يكن الإنسان شاعراً وفكّاك ألغاز ومخلّصاً للصّدف؟

أن نخلّص الماضي، وأن نحوّل كلّ «ذلك ما كان» إلى «ذلك ما أردت» ـ ذلك فقط هو ما أسمّيه خلاصاً».

إرادة ـ كذا هو إسم المحرِّر والذي يأتي بالفرح: هكذا علمتكم يا أصدقائي! والآن لتتعلموا هذا الأمر أيضا: إن الإرادة نفسها ما تزال سجينة.

---

(١) متّى؛ الاصحاح ١٦/ ١٣ ـ ١٥: «ولما جاء يسوع إلى قيصريّةِ فيلبس سأل تلاميذه قائلا من يقول الناس أنّي أنا إبن الإنسان؟ فقالوا: قوم يوحنّا المعمدان. وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء. قال لهم وأنتم من تقولون إنّي أنا؟..».

الإرادة تُحرّر: لكن ماذا يسمى هذا الذي يوثق المحرِّر نفسه بالسلاسل؟

«كان»: كذا يسمَّى صرير أسنان الإرادة وبؤسها الأكثر وحدة! عاجزة أمام كل ما أُنجز ـ هكذا تكون الإرادة هي العين الأكثر شراسة تجاه كل ما هو ماض.

ليس إلى الوراء تستطيع الإرادة أن تريد المضي؛ وأن تكون عاجزة عن كسر الزمن ورغبة الزمن ـ ذلك هو بؤسها الأكثر وحدة!

الإرادة تُحرر: ما الذي ستتدبره الإرادة لنفسها كي تتخلص من بؤسها وتسخر من سجنها؟

أوه، أحمق يغدو كل سجين! وبحمق أيضا تتحرر الإرادة السجينة من قيودها.

أن لا يعود الزمن إلى الوراء، ذلك هو سبب حنقها؛ «ذلك الذي كان»، كذا تسمى الصخرةَ التي لم تستطع أن تزحزحها.

وهكذا تزحزح صخورا عن حنق واستياء، وتنتقم من كل ما لا يشعر مثلها بالحنق والاستياء.

هكذا تحولت الإرادة المحرِّرة إلى مسيء، وعلى كل ما يستطيع أن يتألم تسلط عملَها الانتقامي، لأنه لا يستطيع العودة إلى الوراء.

ذلك، وذلك وحده هو عين الانتقام: اشمئزاز الإرادة من الزمن ومما فيه من «كان».

الحقَّ أقول لكم، هناك حماقة كبرى تسكن إرادتنا؛ ومن أجل لعنة البشرية كلها تعلمت هذه الحماقةُ العقلَ.

روح الانتقام[١]: لقد كان ذلك أفضل شاغل لفكر الإنسان إلى يومنا هذا يا أصدقائي، وحيثما كان هناك ألم كان لا بد أن يكون هناك عقاب.

«عقاب»، هكذا يُسمَّى ما هو عين الانتقام في الحقيقة؛ عبارة مزيّفة يكتسب بها، رياء وبهتانا، ضميرا هنيئا.

ولأن صاحب الإراة مسكون بالألم هو أيضا، بما أنه لا يستطيع أن يريد العودة إلى الوراء ـ فإنه ينبغي على فعل الإرادة نفسه وكل حياة أن ـ تكون عقابا!

والآن ها هي السحب تتراكم وتتراكم فوق العقل، إلى أن ينتهي

(١) عن العقاب كتعبير عن روح الانتقام يكتب نيتشه في الشذرة ١٥[٣٠] من كنشات ١٨٨٥ (إرادة لقوة): «حيثما كان هناك بحث عن مسؤولية كان روح الانتقام هو الذي يحضر في ذلك البحث. وقد فرضت هذه الغريزة الانتقامية سيادتها على الإنسانية على مدى آلاف السنين بما جعلها تسم بميسمها مجمل الميتافيزيقا وعلم النفس وعلم التاريخ، والأخلاق بصفة أخص. وحيثما اتجه الإنسان بفكره إلا ونقل معه عُصيّة (بكتيريا) الانتقام إلى جميع الأشياء. حتى أنه أصاب الله نفسه بهذا المرض، كما جرّد الوجود بكليته من براءته وذلك بإرجاع كل حالة من حالات الوجود إلى إرادات بعينها وإلى نوايا وأفعال مسؤولة (...) إن الإجرائية الاجتماعية للعقاب هي التي أضفت على هذ المفهوم هيبته وسلطانه وحقيقيّته. وينبغي البحث عن منبت هذه السيكولوجيا ـ سيكولوجيا الإرادة ـ لدى الفئات التي كانت تمسك بقانون العقوبات وفي المقام الأول لدى القساوسة الذين كانوا يتبوأون المرتبة الأعلى في المجتمعات الأكثر قدما: كان هؤلاء مدفوعين بإرادة ابتداع حق الانتقام. ولهذا الغرض ابتدعت فكرة الإنسان الحر (المخيَّر)؛ ولهذا الغرض كان لا بد من تصور كل فعل على أنه إراديّ، ومنبع الفعل على أنه واقع في الوعي. (...) أما نحن الذين نرغب في أن نعيد للصيرورة براءتها، فإننا نريد أن نكون المبشرين بفكرة أكثر نقاوة؛ بأن ليس هناك من أحد قد منح الإنسان خصوصياته وخصاله، لا الله ولا المجتمع ولا أبواه وأسلافه، ولا هو نفسه، ـ وأن ليس هناك من أحد ينسَب إليه ذنب ما في وجوده...».

الجنون بإعلان تعاليمه: «كل شيء منذور إلى الفناء، لذلك فكل شيء لا يستحق غير الفناء!».

«وإنه لعين العدالة، قانون الزمن هذا الذي يقضي بأنه على الزمن أن يفترس أطفاله»[1]؛ هكذا كانت تكرز تعاليم الجنون.

«إن الأشياء منتظمة أخلاقيا بحسب القانون والعقاب. فأين الخلاص من مسار الأشياء ومن العقوبة المتمثلة في «الوجود»؟ هكذا كانت تكرز تعاليم الجنون.

«هل يمكن أن يكون هناك خلاص، إذا ما كان هناك قانون أزليّ؟ أوه، إنها لا تتزحزح صخرة «كان»: وكل العقوبات لا بد أن تكون هي أيضا أزليّة!» هكذا كانت تكرز تعاليم الجنون.

«ما من جريمة يمكن إبادتها: فكيف لها أن تُلغى عن طريق العقاب! ذاك، ذاك هو وجه الخلود في عقاب «الوجود»؛ أن يكون الوجود هو أيضا عمل إجرام متكرر وذنبا إلى الأبد!

«عدا أن تخلّص الإرادة نفسها من نفسها بالنهاية وأن يغدو فعل الإرادة لا إرادة»: أجل، إنكم تعرفون خرافة الجنون هذه، يا إخوتي!

بعيدا قدتكم عن هذه الخرافات عندما كنت أعلمكم: «إن الإرادة كيان مبدع».

---

(١) إشارة إلى كرونوس في الأسطورة الإغريقية. وكرونوس هو ابن «غايا» الإلهة وكان من الجبابرة وأبوه هو «أورانوس» وقد خلع أباه وسيطر على العالم وتزوج «ريا». وكانت هناك أسطورة تتنبأ بأن أحد أبنائه سيخلعه فكان يبتلعهم مباشرة بعد الولادة، ونصحت أمه غايا زوجته أن تلقمه صخرة يبتلعها بدلا عن ابنه «زويس» الذي أخذته سرا إلى كريت. وعندما كبر أجبر أباه على تقيؤ إخوته الذين ابتلعهم من قبل فخرج بوسايدون وخيدس وهيرا وهستيا وديميتير.

كل «كان ذلك» هو كسارة ولغز وصدفة فظيعة ـ إلى أن يقول المبدع مضيفا: «لكنني هكذا أردت ذلك!».

ـ إلى أن تضيف الإرادة المبدعة: «لكنني هكذا أريد ذلك! هكذا سأريده!».

لكن هل تكلمت الإرادة هكذا؟ ومتى حدث ذلك؟ هل فُكّت الإرادة من رباط جنونها؟

هل تحولت الإرادة نفسها إلى مخلص ورسول غبطة؟ هل نسيت روح الانتقام وكل صرير الأسنان؟

ومن ترى علمها المصالحة مع الزمن وما هو أسمى من كل مصالحة؟

شيء أسمى من المصالحة على الإرادة التي هي إرادةُ قوّةٍ أن تريد: لكن كيف سيحصل لها ذلك؟ ومن علّمها أيضا أن تريد العودة؟».

عند هذا الحد توقف زرادشت عن الكلام وبدا بهيأة من تملك به ذعر شديد[1]. بعينين مرتعبتين ظل يحدق في تلامذته؛ وكانت عينه

(١) في كنشات المسودات ترد الجملة التالية في هذا الموقع «وتوقف زرادشت عن الكلام فجأة، ذلك أنه ارتد مذعوراً أمام إعلان فكرة العود الدائم». (عن كوللي ومونتناري).
هل كان زرادشت خائفا من هذه الفكرة؟ أم خائفا على تلامذته منها؟ أم أن الوقت لم يحن لها بعد؟ في إحدى رسائله إلى صديقه فرانس أوفربك (فبراير ١٨٨٤)، وفي سياق حديثه عن انتهائه من الجزء الثالث من زرادشت وعن التحولات العميقة التي كانت تجري في داخله مما يبعث فيه أحيانا شيئا من الخوف. «أتساءل إن لم يكن عليّ بالنهاية أن أخلد إلى الصمت وأغدو أبكم؟ وأقل ما يمكن أن يقال إنني أشعر في كل يوم بأنني أجد نفسي مرات عديدة أتفق مع نابليون في قولته: «هناك أشياء لا تُكتب». وفي رسالة أخرى يكتب: «لو أنه لديّ ما يكفي من الشجاعة كي أفكّر في كل ما أعرفه...».

تنفذ مثل السهم إلى أفكارهم وخلفيات أفكارهم. لكنه بعد لحظات قصيرة عاد إلى الضحك مجددا وقال لهم مطمْئنا:

«إن العيش مع الناس صعب، لأن الصمت صعب للغاية؛ خاصة بالنسبة لرجل ثرثار».

هكذا تكلم زرادشت. لكن الأحدب كان قد استمع إلى كلامه وهو يغطّي وجهه؛ إلا أنه لما سمع زرادشت يضحك رفع بصره إليه بفضول وقال وهو ينطق كلماته ببطء:

«لكن، لِم يكلمنا زرادشت بغير ما يكلم به تلامذته؟».

«وما العجب في ذلك؟» أجابه زرادشت، «مع الحُدْب يحق للمرء أن يتكلم بكلام محدودب!».

«ليكن، قال الأحدب؛ ومع التلامذة يحق للمرء أيضا أن يثرثر بكلام مدرسته.

لكن لِم يكلم زرادشت تلامذته بغير ـ ما يتكلم به إلى نفسه؟»

عن الحيلة البشرية(١)

ليس العلو، بل المنحدر هو الفظيع!

المنحدر حيث يهوى البصر إلى **القاع**، بينما اليد تمتد إلى **ما فوق**. هنا يصاب القلب بالدوار من جراء إرادته المزدوجة هذه.

آه، أصدقائي، هل تستطيعون تصور الإرادة المزدوجة لقلبي أيضا؟

ذاك، ذاك هو منحدري والخطر المحدق بي، أن يكون نظري منفلتا نحو الأعالي، ويدي تريد التشبث والاستناد ـ إلى القاع!

إرادتي متشبثة بالبشر؛ بسلاسل أشد نفسي إلى البشر، لأنني منجذب بقوة إلى الأعلى؛ إلى الإنسان الأعلى: إذ إلى هناك تريد إرادتي الأخرى المضي.

من أجل ذلك أحيا أعمى بين البشر، كما لو أنني لا أعرفهم: كي لا تفقد يدي قبضتها كلياً على ما هو ثابت ومتين.

إنني لا أعرفكم أيها البشر: هذه العتمة وهذا العزاء غالبا ما يتسعان من حواليّ.

أجلس إلى البوّابة التي يعبر منها كل المحتالين وأسأل: من يريد أن يغشّني؟

---

(١) العنوان الأولي: «في العقل البارد».

إنها حيلتي البشرية الأولى، أن أدع نفسي أُخدع كي لا أظل أسير الخوف من المحتالين.

آه، لو كنت أخاف البشر، فكيف سيمكن للإنسان أن يكون إذاً مرساة تشد منطادي! وسيكون من السهل على منطادي أن يرفعني ويطير بي بعيدا.

إنه القدر المعلق فوق مصيري، أن يكون عليّ أن أحيا دون حذر.

ومن لا يريد أن يموت عطشا بين البشر عليه أن يتعلم الشراب من كل الأقداح؛ ومن يريد أن يظل نقيا بين البشر عليه أن يعرف كيف يغتسل بالمياه القذرة أيضا.

وغالبا ما كنت أحدث نفسي مواسيا هكذا: «هيّا! إنهض! أيها القلب العجوز! إن كانت أصابتك محنة، فلتنعم بها إذاً على أنها ـ فرصتك السعيدة!».

لكن هاكم حيلتي البشرية الأخرى: إنني أداري المغرورين أكثر من ذوي الكبرياء.

أليس الغرور المجروح أب كل المآسي؟ لكن حيثما تكون هناك كبرياء مجروحة ينمو بالفعل شيء أفضل من الكبرياء.

ولكي تكون الحياة فرجة مستساغة لا بد أن تُلعب لعبتها بإحكام؛ لكن لا بد من ممثلين جيدين لهذا الغرض.

وقد وجدت في كل المغرورين ممثلين جيدين: إنهم يلعبون دورهم ويريدون أن يرغب الناس في مشاهدتهم، ـ إن روحهم بكليتها مسكونة بهذه الإرادة.

يؤدون دورهم ويبتكرون أنفسهم؛ وفي جوارهم أجد متعة في مشاهدة الحياة ـ إن ذلك علاج نافع ضد الكآبة.

لذلك أداري المغرورين، لأنهم أطباء كآبتي وهم الذين يجعلونني أنشدّ إلى الإنسان انشدادي إلى فرجة مسرحية.

وفضلا عن ذلك، من يستطيع أن يقدّر العمق الحقيقي الذي في تواضع المغرور! وبسبب تواضعه أعامله بلطف وشفقة.

منكم يريد أن يتعلم الإيمانَ بنفسه؛ يغتذي من نظراتكم، ويلتهم الإطراء من أكفكم.

إنه يصدق أكاذيبكم أيضا عندما تكذبون بما يسرّه؛ ذلك أن قلبه يتنهد من الأعماق: «من أنا ياترى؟».

وإذا ماكانت الفضيلة الحق هي تلك التي تجهل نفسها، فإن المغرور إذاً لا يعرف شيئا عن تواضعه[1]!

---

(١) في جدلية التواضع والغرور أنظر ما ورد في «**في ما وراء الخير والشر**» الفقرة ٢٦١: «من الأشياء التي قد يجد الإنسان النبيل أكبر صعوبة في فهمها هناك مسألة الغرور: يجد النبيل نفسه ميالا إلى نفي وجود الغرور حيث يكون واضحا ومدركا تمام الإدراك بالنسبة لنمط آخر من الناس. إن المشكلة تتمثل لديه في عدم قدرته على تصور كائنات تحاول أن تستثير رأيا إيجابيا في شأنها لا تمتلكه هي ذاتها عن نفسها ـ ولا هي «تستأهله» أيضا ـ، وستؤمن به من بعد مع ذلك. مثل هذا الأمر يتراءى له عديم الذوق ومنافيا للكرامة من ناحية، وعلى غاية من مناقضة العقل السويّ، بما يجعله يميل إلى اعتبار الغرور حالة استثنائية وإلى التشكيك في وجوده في أغلب الحالات التي يذكر فيها. وسيقول على سبيل المثال: «يمكنني أن أخطئ في تقدير قيمتي لكنني أطالب مع ذلك بأن يعترف الآخرون لي بالقيمة التي أمنحها لنفسي ـ لكن هذا ليس بغرور (بل كبرياء، وفي أغلب الأحوال ضربا مما يسمى «استكانة» أو «تواضعا» أيضا)». أو سيقول: «يمكنني أن أبتهج بالرأي الحسن للآخرين فيّ لأسباب عديدة؛ قد يعود ذلك إلى أنني أحبهم وأحترمهم وأفرح بكل ما يُفرحهم، أو قد يكون ذلك بسبب أن رأيهم الحسن يؤكد لي إيماني برأيي في نفسي ويثبّته، أو لعل رأي الآخرين فيّ، وحتى في حالة عدم مشاطرتي لهم إياه، ينفعني مع ذلك أو يعدني بمنافع ـ لكن هذا كله ليس بالغرور». على الإنسان النبيل أن يغالب نفسه أولا ويغالب، وبالاعتماد على التاريخ خاصة، كي يتمكن من أن يتمثّل أن إنسان عامة الناس=

لكن إليكم الآن بحيلتي البشرية الثالثة، وهي أن لا أدع فزعكم يثنيني عن النظر إلى **الأشرار**.

سعيد أنا بمشاهدة المعجزات التي تحضنها الشمس الحارقة: نمورا ونخيلا وحيّات جرس.

وبين البشر أيضا هناك حصيلة جيدة من حُضنة الشمس الحارقة، وكثير مما هو جدير بالإعجاب في الأشرار.

وكما أنني لم أر في الحقيقة حكمةً تُذكر لدى حكمائكم؛ كذلك وجدت الخبث البشري دون ما يحظى به من سمعة.

وغالبا ما كنت أسأل وأنا أهز برأسي: لِم تقرعين أجراسك إذاً يا حيات الجرس؟

=داخل الطبقات الخاضعة ومنذ أزمان موغلة في القدم، لم يكن شيئا آخر غير ما كان يُعتبر أنه هكذا؛ وبما أنه لم يكن متعودا البتة على وضع قيم بنفسه فإنه كان يقيس نفسه بمقاييس القيم التي كان يضعها له أسياده (ذلك أن وضع القيم هو حق الأسياد في الأساس). بإمكان المرء أن يرى في ذلك نتيجة لتقليد وراثي ذا قوة جبارة أن يظل الإنسان العادي إلى يومنا هذا ينتظر رأي الآخرين فيه كي يخضع بصفة غريزية إلى هذا الرأي؛ لكنه لا يخضع فقط للرأي الإيجابي بل وكذلك للرأي السلبي والذي ليس في صالحه (لنفكر على سبيل المثال في معظم حالات النساء الورعات اللاتي يثمنّ أو يضعن من قيمتهنّ بحسب ما يعلمهن كاهن الاعتراف في الكنيسة، وكذلك الشأن بالنسبة للمؤمن المسيحي وما يتعلمه من كنيسته). . . . . «إن المغرور يغتبط لكل رأي حسن يسمعه عن نفسه (بقطع النظر عن كل ما يتعلق بما يمكن أن يتضمنه من منفعة، وكذلك عما إذا كان صحيحا أو خاطئا)، كما يتألم لكل رأي سيء؛ ذلك أنه يخضع لكليهما معا، ويشعر بنفسه خاضعا لهما وفقا لغريزة الخضوع القديمة التي تستفيق داخله. ـ إنه «العبد» المخالِط دم المغرور، بقايا من مكر العبودية ـ وكم من طباع «العبد» ما تزال قائمة إلى اليوم لدى المرأة مثلا! إن الذي يحاول أن يغري ويغالط من أجل اكتساب رأي حسن عن نفسه من طرف الآخرين، إنما هو أيضا العبد الذي ينحني بعدها أمام هذا الرأي، كما لو لم يكن هو الذي استدعاه واستثاره. ـ ومرة أخرى: إن الغرور وراثة من العهود الغابرة».

الحق أقول لكم لا يزال هناك مستقبل للشر أيضا! وإن الجنوب الأكثر حرارة لم ينكشف بعد للإنسان.

كم من أمر يعدّ أكثر الشرور شناعة، والحال أنه مجرد شيء بإثني عشر قدما من العرض وثلاثة أشهر من الطول(١)! سيأتي يوم يشهد العالم فيه ميلاد تنينات أعظم.

لأنه، ولكي لا يفتقر الإنسان الأعلى إلى تنّينه، التنّين الخارق(٢) الذي يكون جديرا به؛ لا بد من شموس حارقة كثيرة تضطرم فوق رطوبة الأدغال!

---

(١) عن هذه الصورة الغامضة يوضح غوستاف ناومان في تعليقاته على زرادشت الثاني عبارة (إثنا عشر قدما) بقوله إنها تحيل في ما يبدو على قانون عقوبات قديم ما. أما عن الثلاثة أشهر فتحيل على ترتيب العقوبات، بحيث تكون العقوبة التي لا تتجاوز الثلاثة أشهر سجنا من صلوحيات المحاكم المحلية أو البلدية، بينما العقوبة التي ما فوق الثلاثة أشهر فمن نظر محاكم التعقيب التي تنظر في الجنايات الأكثر أهمية. بما يجعلنا نستنتج أن ما يعنيه نيتشه هنا أنها مجرد جنح تافهة أو ترّهات.

(٢) يرد ذكر التنّين في مواقع عديدة من كتاب العهد القديم (أشعياء؛ ٢٧، ١ و٥١، ٩ - المزامير؛ ٧٤، ١٣ و٩١، ١٣) وفي رؤيا يوحنا من كتاب العهد الجديد الاصحاح ١٢ وما يليه. وكل هذه المواقع تروي قصة انتصار ملائكة الرب على التنّين المسمّى أيضا لوياثان وخلاص العالم العلوي من شرور الفوضى التي كان يبثها فيه بعد طرده من هناك وهبوطه إلى الأرض. نكتفي هنا بإيراد القصة كما تأتي بأكثر تفصيل في رؤيا يوحنا اللاهوتي؛ الاصحاح ١٢: «وظهرت آية عظيمة في السماء امرأة متسربلة بالشمسِ والقمرُ تحت رجليها وعلى رأسها إكليل من إثني عشر كوكبا، وهي حبلى تصرخ متمخّضة ومتوجّعة لتلد. وظهرت آية أخرى في السماء، هو ذا تنّين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى رؤوسه سبعة تيجان، وذنبه يجرّ ثلثَ نجوم السماء فطرحها إلى الأرض. والتنّين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى ولدت. فولدت ابنا ذكرا عتيدا أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد. واختُطف ولدُها إلى الله وإلى عرشه، والمرأة هربت إلى البرّيّة حيث لها موضع معدّ من الله لكي يعولها هناك ألفا ومئتين وستّين يوما.
وحدثت حرب في السماء، ميخائيل وملائكته حاربوا التنّين وحارب التنّينُ وملائكتُه ولم=

لا بدَ أن تتحول قططكم المتوحشة أولا إلى نمور، وضفادعكم السامة إلى تماسيح: إذ صيداً جيّدا يريد الصياد الجيّد.

=يقووْا فلم يوجد مكانُهم بعد ذلك في السماء، فطُرح التنّينُ العظيمُ الحيّةُ القديمةُ المدعوّ إبليس، والشيطانَ الذي يُضلّ العالمَ كلّه طُرح إلى الأرض وطُرحت معه ملائكتُه. وسمعت صوتا عظيما قائلا في السماء الآن صار خلاص إلهنا وقدرتُه وملكه وسلطان مسيحه لأنه قد طُرح المشتكي على إخوتنا الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهارا وليلا. وهم غلبوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبّوا حياتهم حتى الموتَ. من أجل هذا افرحي أيتها السماوات والساكنون فيها. وويلٌ لساكني الأرض والبحر لأنّ إبليس نزل إليكم وبه غضب عظيم عالماً أن له زمانا قليلا». ثم تتواصل قصة الفوضى ومسلسل الحروب والانتقام والقتل والبكاء والعويل التي تعم الأرض، وتهدم بابل التي كانت تدعى الزانية وعابدة الوحش والتنين الذي هو إبليس. يتواصل مسلسل الرعب هذا على مدى الفقرات (الاصحاحات) الموالية لهذه الرؤيا إلى أن ينتهي بالانتصار النهائي على الوحش والتنين الذي هو إبليس وطرحه في بحيرة النار والكبريت، ثم يقام حفل الخروف وهبوط عروس الخروف التي هي المدينة المقدسة أورشليم الجديدة من السماء التي تعد الرؤيا بخلودها في الأمن والمسرة إلى أبد الآبدين(!!!). هل عودة التنّين التي يبشر بها نيتشه هي وعد بالعودة إلى فوضى البدء؟ ولنتذكر مقولته في فصل سابق «لا بد أن يكون الإنسان حاملا لفوضى بعد كي يلد نجما راقصا» أهي وعد بالانتقام لبابل من أورشليم، وإعادة إقامة بابل المتحررة من سلطة الديانة اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلامية والنواميس الدينية التي دجنت اندفاعاتها الفوضوية البريئة الشبيهة بحفل معربد؛ حفل احتفاء بالحياة وبسلطان الأرض وبهاء الأرض دون حدود أو قيود؟ هل سيكون التنّين الأرقى يد الإنسان الأعلى لتحرير العالم من سطوة الديانات التي تكبل حريته واندفاعاته؟ أم ترى هذا التنين الأرقى هو ذلك الذي ورد ذكره في فصل «التحولات الثلاثة» حيث يقول زرادشت موضحا هوية هذا «التنّين الأعظم»: «ما هو هذا التنّين الأكبر الذي لم يعد يرغب فيه العقل سيّداً وإلهاً؟ «ينبغي عليك» يُدعى التنّين الأكبر. لكنّ عقل الأسد يقول: «أريد». / «ينبغي عليك» تسدّ عليه الطريق ملتمعة ببريق الذهب؛ حيوان حرشفيّ، وفوق كلّ حرشفة تلتمع مقولة «ينبغي عليك!» ببريق ذهبيّ. / قيم آلاف السنين تلتمع فوق تلك الحراشف، وهكذا يتكلّم التنّين الأشد قوّة: قيمة الأشياء بكلّيتها ـ تلتمع فوق جسدي». / كلّ القيم قد تمّ خلقها، ـ وكلّ القيم التي تمّ خلقها هي: أنا. حقّاً، لم يعد هناك من مكان لأيّ «أريد»! هكذا يتكلّم التنّين».

هل التبشير بالتنين الأعظم إذاً وعد بمرحلة صراع أكبر سيكون على الإنسان الأعلى أن يخوضه، وبانتصار جديد على التنّين الأرقى، حتى يؤكد نفسه كإنسان أعلى؟

الحق أقول لكم أيها الصالحون والعادلون؛ كم من الأشياء لديكم مما يبعث على الضحك، وخاصة خوفكم مما ظل يسمى «شيطانا» إلى حد الآن!

لكم هي غريبة روحكم عن كل عظمة، غرابة ستجعل الإنسان الأعلى يبدو فظيعا في أعينكم بطيبته.

وأنتم أيها الحكماء والعلماء ستفرون من الاحتراق بشمس الحكمة التي ينقّع الإنسان الأعلى عريه فيها بكثير من المتعة!

أنتم يا أرقى الرجال ممن وقعت عليهم عيني! هذه ريبتي تجاهكم وضحكتي السرية: إنني أحزر مسبقا أنكم ستدعون إنساني الأعلى - شيطانا!

آه، لقد مللت هؤلاء الأرقى والأفضل من الرجال؛ وكانت بي رغبة في الهروب إلى ما فوق وخارج «سموهم» موليا عنه باتجاه الإنسان الأعلى!

فزع تلبّس بي لمّا رأيتهم عراةً أولئك الأفضلين؛ عندها نبت لي جناحان لأحلق مبتعدا في رحاب أزمنة مستقبلية بعيدة،

في أزمنة مستقبلية أبعد وأصقاع جنوبية أقصى مما حلم به أي فنان؛ هناك حيث تخجل الآلهة من كل لباس.

لكن بأزياء التنكّر أريد أن أراكم أيها الأقربون وإخوتي من البشر، في أجمل حُلّة منتفخين غرورا ومَهيبين مثل «الصالحين والعادلين»،

متنكرا أود أن أجلس أنا أيضا بينكم، - كي لا أتعرف عليكم وعلى نفسي: إذ هذه هي حيلتي البشرية الأخيرة.

هكذا تكلم زرادشت.

ساعة الصمت الأكبر

ما الذي حدث لي يا أصدقائي؟ إنكم ترونني مضطربا، مشرّدا، منقادا على مضض، مستعدا للانصراف ـ للانصراف بعيدا عنكم، وا أسفاه!

نعم، مرة أخرى ينبغي على زرادشت أن يعود إلى وحدته: لكن بلا غبطة يعود الدب هذه المرة إلى مغارته!

ما الذي حدث لي؟ ومن الذي أملى عليّ هذا الأمر؟ ـ آه، سيّدتي الغضوب هي التي تريد ذلك، وهي التي خاطبتني؛ هل سبق أن كشفت لكم عن إسمها؟

البارحة على مشارف المساء خاطبتني ساعة صمتي الأكبر: إذ هذا هو إسم سيدتي الفظيعة.

هكذا حدث ذلك ـ إذ عليّ أن أقول لكم كل شيء كي لا تقسو قلوبكم على هذا الذي ينصرف عنكم هكذا فجأة!

هل تعرفون ذعر من ينغمس لتوّه في النوم؟

من قمة الرأس حتى إخمص القدمين يخترقه الذعر، عندما تميد به الأرض ويشرع في الحلم.

هذا الكلام أسوقه لكم كمثل. البارحة، وفي ساعة الصمت الأكبر مادت بي الأرض: لقد بدأ الحلم.

العقارب تتقدم وساعتي قد استردت أنفاسها ـ ، أبدا لم أشعر بمثل هذا الصمت من حولي من قبل، الأمر الذي أدخل الرعب على قلبي.

وإذا هاتف يخاطبني بلا صوت: «**تعرف ذلك يا زرادشت؟**».

صرخت فزِعا من هذا الهمس، وقد انسحب الدم من وجهي؛ لكنني بقيت صامتا.

عندها خاطبني الهاتف مجددا وبلا صوت: «**إنك تعرف ذلك يا زرادشت، لكنك لا تفصح به!**».

وأجبت أخيرا كالمصرّ على العناد: «أجل، أعرف ذلك، لكنني لا أريد أن أفصح به!

وإذا هو يخاطبني مرة أخرى بلا صوت: «لا تريد؟ أهذه أيضا هي الحقيقة؟ لتدع التستر وراء هذا العناد، يا زرادشت!».

ثم إنني رحت أبكي وأرتعد مثل صبي، وقلت: «أفّ، لقد كان بودي فعلا، لكن كيف لي أن أستطيع ذلك؟ لتعفني من هذا! إنه أمر لا طاقة لي عليه!».

وها هو يخاطبني مجددا وبلا صوت: «ما همك يازرادشت! لتقل كلمتك وتتحطم!».

فأجبته: آ، وهل هذه كلمتي؟ فمن أنا يا ترى؟ إنني أنتظر من هو أجدر مني؛ فأنا لست جديرا حتى بأن أتحطم على هذه الكلمة».

وإذا هو يخاطبني مرة أخرى وبلا صوت: ماهمك؟ إنني لا أراك متواضعا بما فيه الكفاية. فللتواضع جلدة سميكة.

وأجبته: «أيّة محن لم يتحمل جلد تواضعي؟ في سفح مرتفعي

أقطن؛ أما على أيّ ارتفاع توجد قمتي؟ فذلك ما لم يحدثني به أحد بعد. غير أنني أعرف أوديتي جيّدا».

عندها خاطبني مرة أخرى بلا صوت: «من كان عليه أن يحوّل جبالا يا زرادشت، يحوّل أودية ووهادا أيضا».

وأجبته: «كلماتي لم تحوّل جبالا بعد، وما تكلمت به لم يصل إلى البشر. لقد ذهبت فعلا إلى الناس، لكنني لم أحلّ بينهم مع ذلك».

فخاطبني مرة أخرى بلا صوت: «ما أدراك بذلك؟ إن الندى ينزل على العشب ساعة يكون الليل أكثر سكونا».

وأجبته: «لقد سخروا مني عندما اهتديت إلى طريقي ومضيت؛ وفي الحقيقة كانت رجلاي ترتعشان آنذاك.

وهكذا خاطبوني: لقد نسيتَ الطريق، وها أنك الآن بدأت تنسى المشي أيضا!».

فخاطبني مرة أخرى بلا صوت: «أي شأن لك في سخريتهم؟ إنك شخص قد نسي الطاعة؛ والآن عليك أن تأمر!

ألا تعرف مَن الذي يحتاجون إليه أكثر من أي أحد؟ إنه ذلك الذي يأمر بأشياء عظيمة.

أن ينجز المرء أشياء عظيمة أمر صعب؛ لكن أصعب من ذلك أن يأمر بأشياء عظيمة.

وهذا هو ذنبك الأكبر الذي لا يغتفر: بيدك سلطان، لكنك لا تريد أن تكون الآمر».

وأجبته: «ينقصني صوت الأسد لكل الأوامر».

فخاطبني مرة أخرى وبما يشبه الهمس: «إن الكلمات الأكثر هدوء هي التي تستدرج قدوم الإعصار؛ وإنّ كلمات تتقدّم على أرجل حمام لهي التي تقود العالم».

أي زرادشت، عليك أن تمضي مثل ظل لما ينبغي أن يأتي حتما! هكذا سيكون لك أن تأمر، وفيما أنت تأمر تمضي في المقدمة!».

وأجبت: «إنني أخجل من ذلك».

فخاطبني مرة أخرى بلا صوت: «عليك أيضا أن تصير طفلا، ودون خجل.

كبرياء الشباب ما زالت تجثم عليك بثقلها، وقد بلغتَ الشباب متأخرا: لكن من يريد أن يصبح طفلا عليه أن يتغلب على شبابه أولا».

ومرت علي برهة من الزمن وأنا أتفكر وأرتعد. إلا أنني بالأخير نطقت بما قلت في البداية: «لا أريد».

عندها ارتفعت ضحكة مجلجلة حولي. والويل، الويل من تلك الضحكة التي مزّقت أحشائي وصدّعت قلبي!

وسمعت صوت الهاتف يخاطبني لآخر مرة: لقد نضجتْ غَلّتُك يازرادشت، لكنك لم تنضج بعد لغلّتك!

وهكذا ينبغي عليك أن تعود إلى وحدتك؛ إذ لا بد أن تصبح أكثر ليناً».

ثم لعلع الصوت الضاحك من حولي مجددا قبل أن ينطفئ. وكان صمت من حولي؛ كما لو كان صمتا مضاعفا. اما أنا فكنت مستلق على الأرض والعرق يتصبب من كل أعضائي.

ـ ها قد استمعتم إلى القصة كلها الآن وعرفتم لِم ينبغي عليّ أن أعود إلى عزلتي من جديد. لم أخف عنكم شيئا يا أصدقائي.

لكنّ هذا الأمر قد سمعتموه مني أيضاً: من هو أكثر الناس تكتّماً ـ والذي يريد أن يكون كذلك!

آه، أصدقائي! مايزال لديّ ما أقوله لكم، وما يزال لدي ما أمنحكم إياه! ما الذي يمنعني من أن أمنحكم إياه؟ أأنا بخيل إذاً؟» ـ

وعندما فرغ زرادشت من هذا الكلام استولى عليه الألم وثقل على قلبه اقتراب ساعة فراق أصدقائه حتى أنه انخرط في نحيب مسموع؛ ولم يكن بوسع أحد منهم أن يواسيه. لكنه عندما استقر الليل نهض لينصرف وحيدا تاركا أصدقاءه وراءه.

* * *

الكتاب الثالث

«ترنون بأعينكم إلى الأعلى وأنتم تطلبون العُلى، وأنظر إلى الأسفل لأنني في الأعالي.

من منكم باستطاعته أن يضحك ويكون في الوقت نفسه ساميا؟

الذي يصعد إلى الجبال الشواهق يضحك من كلّ مآسي المسرح ومآسي الحياة».

زرادشت ـ الكتاب الأول؛ عن القراءة والكتابة.

المسافر

كان ذلك في منتصف الليل، عندما شق زرادشت طريقه متسلقا جنب الجزيرة كي يصل مع الفجر إلى الساحل الخلفي. من هناك كان يبتغي ركوب البحر، فقد كان هناك مرفأ ترسي فيه سفن أجنبية أيضاً، وتُقلّ مسافرين من أهل الجزر السعيدة من أولئك الذين يبتغون ركوب البحر. وفيما كان ماضيا في تسلق الجبل راح زرادشت يستعيد ذكرى سفراته المتوحدة منذ سنيّ الشباب، وكم من الجبال والمرتفعات والقمم قد تسلق في الأثناء.

رحالة أنا ومتسلق جبال، قال محدثا قلبه، لا أحب المنبسطات، ويبدو أنني لا أستطيع المكوث طويلا في مكان.

وكل ما سيحل بي بعدها من وقائع وأقدار، ـ ترحالا سيكون ذلك وتسلقَ جبال: فالمرء لا يعيش سوى ذاته في كل أمر بالنهاية.

لقد ولّى ذلك الزمن الذي كنت لا ألاقي فيه سوى صُدف؛ وأي شيء يمكن أن يحدث لي الآن مما لم يكن حصيلا محصّلا لديّ[1]؟

---

(١) في إحدى الكنّشات التي كان نيتشه يسجل فيها عددا من الملاحظات والخواطر والأمثال وتعابير شائعة في الاستعمال اليومي، والذي استخدم الكثير منها في الجزء الثالث من كتاب زرادشت نقرأ في شذرات أواخر سنة ١٨٨٣ القسم ٢٢[١] ص٦١١، تحت عنوان: العزلة تُنضج، لكنها لا تغرِس غرسا: «تتكلمون خطأ عن وقائع وصدف! فلا شيء=

إنما عائد هو، راجع أخيرا إلى بيته عندي ـ هو ذاتي نفسها، وما ظل منها لزمن طويل يحيا في الغربة ومبعثرا بين شتى الأشياء والصدف.

شيء آخر أعرفه أيضا: إنني أقف الآن أمام قمتي الأخيرة وأمام ما ظَل مخبّأ لي لأطول فترة من الزمن. أواه، عليّ الآن أن أمضي على أشد دروبي قسوة! أواه، إنني أبدأ الآن سفري الأكثر وحدة!

لكن من كان من طينتي لا يروغ عن مثل هذه الساعة: الساعة التي تخاطبه هكذا: «الآن فقط تضع قدمك على درب عظمتك! القمّة والقاع ـ متحدة هي الآن في كيان واحد!

إنك تمضي على درب عظمتك: ملجأك الأخيرَ غدا الآن ما كان يُعد خطر هلاكك الأكبر من قبل[1]!

=يحدث لكم غير ما هو أنتم! وما تسمونه صدفة ـ إنما ذلك: أنتم أنفسكم الذين تصادفون أنفسكم، وتقعون على أنفسكم».

(١) موضوعة المخاطرة بالنفس من أجل التجاوز والارتقاء بالنفس هي من الموضوعات التي لا تتكرر كثيرا في زرادشت فحسب، بل تخترق مجمل كتابات نيتشه، مُشكّلة شرطا محورياً من شروط المعرفة، أو السعي إلى المعرفة والتي تؤكد على أن «السر الذي يمكن من جني محاصيل الخصب الأقصى واللذة الكبرى التي في الوجود يدعى: العيش في خطر! «(**المعرفة المرحة**، الكتاب الرابع، الشذرة ٢٨٣»)؛ أنظر أيضا: **المعرفة المرحة** «مزاح وحيلة وانتقام» الفقرة ٢٧؛ **في ما وراء الخير والشر**، الشذرة ٢٦٢؛ **جنيالوجيا الأخلاق**، الاستهلال، الفقرة ٥. وفي **هذا هو الإنسان** ـ ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة؟، حول معاينات غير معاصرة، الفقرة ٣: «ما أنا الآن، وأين أقف الآن؛ في أعال حيث لم أعد أتحدث بكلمات، بل بصواعق؟(. . . .) لم أغالط نفسي لحظة واحدة بشأن الطريق والبحر والمخاطر ـ وكذلك النجاح!(. . .) كل كلمة هنا معاشة في العمق، وبحميمية؛ لا تنقصها الأشياء الأكثر إيلاما، وهناك من بينها كلمات نازفة بالفعل. لكن ريح الحرية تهب فوق هذا كله، والجرح نفسه لا يتخذ هيأة الاعتراض». . . «كيف أتمثل الفيلسوف كمادة انفجارية مرعبة تضع كل ما أمامها في خطر. . .؟».

إنك تمضي على درب عظمتك: لتكن شجاعتك الأكبر أن تدرك أن لا طريق وراءك للعودة بعد الآن!

إنك تمضي على درب عظمتك: ما من أحد سيتسلل من ورائك هنا! قدمك نفسها هي التي فسخت آثار الطريق من ورائك، وفوق طريقك ترتسم عبارة: مستحيل.

وإن لم يكن لديك الآن أي سلّم، فإنه سيكون عليك أن تعرف كيف تتسلق مشيا على رأسك: وهل لك من طريقة أخرى للمضي قدما في صعودك؟

على رأسك وقفزا على قلبك! وما كان أكثر الأشياء ليونة فيك ينبغي أن يغدو الآن أكثر الأشياء صلابة.

إن من تعود على الرفق بنفسه دوما يغدو هشّ البنية من فرط اللين مع النفس. مبارك كل ما يجعل المرء صلبا! كلاّ، لن تحظى بثنائي تلك الأرض التي تسيل أنهارا من السمن والعسل[١]!

أن يتعلم المرء كيف **يتغاضى** عن نفسه، فذلك أمر ضروري بالنسبة لكل من يريد أن **يرى** الكثير: ضرورية هذه القسوة لكل متسلق جبال.

ومن كان ساعيا إلى المعرفة بعينين تلتصقان بالأشياء بإلحاح، كيف له أن يرى من الأشياء كلها أكثر مما تمنح من أسباب وجودها الظاهرية!

---

(١) يمكن للمسلم أن يجد هنا إحالة على الجنّة الموعودة التي تسيل فيها أنهار من العسل والحليب ـ والنبيذ أيضاً. لكن الأرجح أن نيتشه يشير هنا إلى ما جاء في كتاب العهد القديم؛ سفر الخروج ـ الاصحاح الثالث/ ٧ ـ ٨: «فقال الربّ إنّي قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مُسخّريهم. إنّي علمت أوجاعهم فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأُصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيّدة وواسعة. إلى أرض تفيض لبنا وعسلاً».

أما أنت يازرادشت، فإذا ما كنت تريد أن ترى علة الأشياء وباطنها، عليك إذًا أن تتسلق مرتقيا فوق نفسك، ـ قدما، صعودا، إلى أن تغدو نجومك ذاتها تحت منزلتك!

أجل، أن أنظر من فوق إلى نفسي وإلى نجومي أيضا: ذلك فقط هو ما يمكن أن يعني **قمّتي**؛ وتلك هي **قمتي الأخيرة** التي كنت أؤجل تسلقها!».

هكذا تكلم زرادشت إلى نفسه وهو يتسلق ظهر الجزيرة مواسيا قلبه بمقولات قاسية، ذلك أنه كان جريح القلب أكثر من أي وقت مضى. وعند بلوغ ذروة الجبل الذي كان يتسلقه، هو ذا الجانب الآخر من البحر يستلقي عريضا أمامه: هنا وقف ساكنا وظل صامتا لمدة غير قصيرة من الزمن. لكن الليل كان باردا فوق هذه القمة، صافيا ومتلألئاً بالنجوم.

إنني أعرف قدري، قال أخيرا بكثير من الأسى. إلى الأمام! إنني جاهز. فالآن بدأت وحدتي الأخيرة.

أواه، هذا البحر الكئيب القاتم من تحتي! أواه، هذا الجو المفعم قلقا ليليا ثقيلا! آه، أيها القدر وأيها البحر! إليك ينبغي عليّ أن **أنحدر** الآن!

إنني أقف الآن أمام أعلى جبل لي، وأمام أطول رحلاتي: لذلك عليّ أن أنزل أولا إلى أعماق لم يسبق لي أن انحدرت إليها من قبل:

ـ أعمق وأعمق داخل الألم، كما لم يسبق لي أن انحدرت من قبل، حتى أعماق سيله الأكثر قتامة! ذاك هو ما يريده لي قدري: إلى الأمام! إنني جاهز.

من أين تنبثق أعلى الجبال؟ هكذا سألت نفسي ذات مرة. وعندها عرفت أنها من البحر تطلع.

هذه الشهادة مرسومة على صخورها وعلى جدران قممها. من أعمق الأعماق ينبغي على أعلى القمم أن تصعد إلى ذروتها. -

هكذا تكلم زرادشت فوق قمة الجبل حيث كان البرد قارسا؛ لكنه عندما غدا على مقربة من البحر ورأى نفسه يقف بالنهاية وحيدا تحت الأجراف الصخرية أضحى على غاية من التعب من جراء المسير وممتلئا شوقا أكثر من أي وقت مضى.

كل شيء ما يزال نائما، قال زرادشت؛ البحر نائم هو أيضاً. متعتعة بالنوم وغريبة ترمقني عينه.

لكنه يتنفس بحرارة؛ إنني أحس بذلك. وأشعر بأنه يحلم أيضاً. إنه يتقلب في حلمه على فراش قاسٍ.

أنصتْ! انصتْ إليه كيف يتنهد بذكريات كريهة! أم تُرى بانتظارات كريهة؟

آه، لكم أنا حزين لحزنك أيها الوحش القاتم! وإنّي لألوم نفسي أيضاً من أجلك.

آه، لم لا تملك يدي ما يكفي من القوة! إنني لأودّ حقا لو أنني أخلصك من الكوابيس الشنيعة! -

وبينما كان يتكلم هكذا راح زرادشت يضحك من نفسه بكآبة ومرارة: «ماذا! ماذا يا زرادشت! قال لنفسه، أتريد أن تغنّي بنشيد مواساة للبحر أيضا؟

آه، زرادشت الأحمق الرقيق! أيها المفعم ثقة! لكنك هكذا كنت على الدوام: ودودا كنت دوما تجاه كل فظيع.

ما من غول فظيع إلا وأردت أن تداعبه بكفك. وهج أنفاس حارة

وقليلا من الوبر الناعم حول المخالب، وإذا أنت مستعد لمحبته واستمالته.

إن الحب هو الخطر الذي يتربص بالمتوحّد، حب كل شيء، **لمجرد أن يكون حيّا!** مضحكة هي في الحقيقة محبتي وتواضعي في الحب!».

هكذا تكلم زرادشت وهو يضحك مرة أخرى: لكنه تذكر أصدقاءه الذين غادرهم ـ، وكما لو أنه قد أخطأ في حقهم بهذا الذي كان يخالج ذهنه، تملك به الحنق ضد أفكاره. وإذا الضاحك سرعان ما غدا باكياً: من شدة الحنق والشوق راح زرادشت يبكي بمرارة.

عن الرؤيا واللغز

١

لما شاع بين البحارة خبر وجود زرادشت على متن السفينة ـ ذلك أن رجلا من الجزر السعيدة قد صعد إلى السفينة في الوقت الذي صعد فيه زرادشت ـ تملّك الناس فضول شديد وانتظار كبير. لكن زرادشت ظل صامتا ليومين متتاليين وكان باردا أصم من شدة الحزن، فلم يكن ليرد على نظرة أو سؤال. إلا أن أذنيه قد انفتحتا في مساء اليوم الثاني بالرغم من بقائه على صمته: ذلك أن حكايات غريبة وأشياء مخيفة كثيرة كانت تتردد فوق السفينة القادمة من مكان بعيد والمبحرة باتجاه أصقاع أبعد. لكن زرادشت كان صديقا لكل أولئك الذين يغامرون في سفرات بعيدة ولا يحبذون الحياة دون مخاطر. وها هو الآن وهو يستمع إلى تلك الحكايات يرى عقدة لسانه تنحل وجليد قلبه يذوب: عندها بدأ في الكلام هكذا:

أنتم أيها الباحثون والمستكشفون الجريئون، وكل من أبحر بأشرعة ماكرة في محيطات الأهوال، ـ

أنتم الثملون بالألغاز الغامضة، وعشاق الغبش، الذين تستدرج أرواحَهم الهوى السحيقة بأنغام الناي:

ـ لأنكم تكرهون السير متلمّسين بأيد جبانة خيطا يدلكم على الطريق؛ وتنفرون من **البرهان** حيث يكون بإمكانكم أن **تحدسوا** ـ

لكم وحدكم أروي اللغز الذي رأيت، ـ رؤيا المتوحد الأكبر. ـ

كئيبا قاتما كنت أسير مؤخرا عند الغروب الشاحب ـ قاتما قاسيا منقبض الشفتين. وقد غربت عني أكثر من شمس.

درب يصعد بعناد بين هديم الصخور، درب قاس وحيد، لا عشب ولا دغل يجرؤ على ملامسة جانبيه: درب جبليٌّ يَصِرّ تحت قدمي العنيدة.

صامتة فوق الصرير الساخر للحصى تتقدم قدمي ضاربة بعنف على الصخر الذي يجعلها تنزلق ولا تثبت فوقه: هكذا كانت قدمي تجهد نفسها في المضي صعودا.

صعودا: تتحدى الروح الخبيث الذي كان يجذبها إلى التحت، إلى القاع كان يجذبها روح الثقل، شيطاني وعدوي اللدود(١).

---

(١) ما هي روح الثقل هذه التي تجثم على طالب المعرفة وتعيق حركته؟ نجد تفصيلا لهذا المصطلح في **المعرفة المرحة**، الكتاب الخامس؛ الشذرة ٣٨٠ حديث المسافر: «إن التفكير في الأحكام المسبقة للأخلاق، إن لم يكن بدوره أحكاما مسبقة عن الأحكام المسبقة، يشترط تموقعا خارج نطاق الأخلاق، موقعا في **ما وراء الخير والشر**، يتوجب على المرء الصعود والتسلق والطيران إليه. . . . . ويظل السؤال هو ما إذا كان المرء حقا قادرا على الصعود إلى هناك. إن هذا مرتبط في ما يبدو لي بعدد من الشروط؛ والأمر الرئيسي في هذا يتعلق بمعرفة مدى خفتنا أو ثقلنا؛ أي إشكال «ثقلنا الخاص». على المرء أن يكون خفيفا جدا كي يدفع بإرا دة المعرفة لديه إلى مثل تلك الأقاصي وفي الوقت نفسه إلى ما وراء زمنه، كي يكتسب له عينا تحتضن رؤيتها آلاف السنين وتكون له سماء صافية في هذه العين! على المرء أن يتخلص من الكثير من القيود التي تكبلنا نحن الأوروبيين وتعيقنا وتشدنا وتجعلنا ثقيلين. وإن الإنسان الذي ينتمي إلى ذلك الماوراء ويريد أن يتفحص المعايير القيَمية العليا لعصره سيكون مطالبا من أجل ذلك أولا وقبل كل شيء=

صعوداً: بالرغم من ذلك الذي كان يجثم عليّ؛ نصف قزم، نصف خُلد؛ مشلول؛ مُشلّ؛ رصاص يخترق أذني، قطرات أفكار رصاصية تنساب داخل دماغي.

«أي زرادشت!» همس لي متهكما وهو يقطّع الحروف حرفا حرفا، يا حجر الحكمة! لقد قذفت بنفسك إلى الأعالي، لكن كل حجر يُقذف إلى الأعلى لا بد له من ـ السقوط حتما!

أي زرادشت! يا حجر الحكمة، الحجر المقذوف إلى الأعالي، يا مدمّر النجوم! لقد قذفت بنفسك عاليا، لكن كل حجر يقذف إلى الأعلى لا بد له من ـ السقوط!

أنت المحكوم عليك بنفسك وبرجم نفسك بنفسك: أي زرادشت! بعيدا قذفتَ بحجرك، ـ لكن **فوق رأسك** سيقع حجرك ذاك!».

بعدها سكت القزم عن الكلام؛ وطال صمته. لكن صمته كان بثقل الحجر على قلبي؛ إذ المرء في مثل هذه الرفقة يغدو أكثر وحدة مما يكون وهو وحيد!

كنت أصعد، وأصعد، أحلم وأفكر، ـ لكن كل شيء كان بثقل الحجر على قلبي. مثل مريض كنت؛ مريض منهك بآلامه، يستيقظ علاوة على ذلك على حلم مزعج قد انتزعه من نومه. ـ

لكن لي شيئا؛ شيء أسميه شجاعة، هو الذي كان دوما يبيد كل

=بأن «يتغلب» على ذلك العصر في داخله ـ إنه الاختبار الضروري لطاقاته ـ ثم لا يكتفي بالتغلب على عصره فقط، بل وكذلك على كل ما كان لديه إلى حد الآن من نفور من ذلك العصر وتناقض معه، وعلى معاناته من ذلك العصر وعدم مطابقته للعصر ورومانسيته....».

مزاج كدِر لديّ. تلك الشجاعة هي التي جعلتني أقف هادئا بالنهاية وأتكلم هكذا: «أيها القزم! إما أنت، أو أنا، أيها القزم! ـ».

إن الشجاعة بالنهاية أشد الأسلحة فتكا؛ الشجاعة التي تهاجم: إذ كل هجوم حفلٌ بدقّ طبولٍ وضربِ صنوجٍ.

لكن الإنسان أكثر الحيوانات شجاعة: بذلك كان له أن يتغلب على كل الحيوانات. بأنغام الطبول استطاع أن يتغلب على كل الآلام أيضا؛ غير أن الألم الإنساني أشد الآلام جميعا.

الشجاعة تبدد الدُّوار على حافة كل هاوية أيضا: وفي أي مكان يا ترى لا يجد المرء نفسه واقفا على حافة هاوية؟ إذ عندما ترى، ألا يعني ذلك أنك ـ ترى الهاوية؟

إن الشجاعَة أشد الأسلحة فتكا: الشجاعة تبيد الشفقة أيضاً. لكن الشفقة هي الهاوية السحيقة الأكثر عمقا: وكلما نظر الإنسان بأكثر عمق في الحياة، إلا ونظر بأكثر عمق في الألم!

لكن الشجاعة أشد الأسلحة فتكا، الشجاعة التي تهاجم: إنها تصرع الموت أيضاً، ذلك أنها هكذا تتكلم: «هل كانت تلك هي الحياة؟ لنعد الكرّة إذًا!».

غير أن مثل هذه المقولة فيها الكثير من رنين الصنوج وأنغام الطبول، ومن له أذنان للسمع، فليسمع! ـ

٢

صه! أيها القزم! تكلمتُ. إما أنا، أو أنت! لكنني أنا الأقوى من بيننا نحن الإثنين ـ : إنك لا تعرف فكرة أغواري السحيقة! وتلك الفكرة، لا قدرة لك على تحمّلها!».

عندها حدث ما جعلني أشعر بمزيد من الخفة: ذلك أن القزم قد قفز من على كتفي ليقبع فوق حجر أمامي، ذلك الفضولي! وكانت هناك سقيفة في الموقع الذي كنا نقف فيه.

«أنظر إلى هذه السقيفة أيها القزم! إن لها واجهتين. طريقان يلتقيان هنا؛ ولا أحد استطاع أن يسلكهما حتى النهاية.

هذا الدرب الطويل الذي يمضي إلى الوراء؛ إنه يمتد إلى الأبدية. وذلك الذي يمضي إلى الأمام أبدية أخرى.

هذان الطريقان يتعارضان ويصطدمان ببعضهما رأسا ضد رأس: وهنا، عند السقيفة، هو الموضع الذي يلتقيان فيه. إسم هذه السقيفة مكتوب هناك في أعلى البوابة: «لحظة».

لكن إذا ما مضى أحد ما على أحد هذين الدربين ـ إلى الأمام دوما، ودوما أبعد؛ فهل تعتقد أيها القزم أنهما سيظلان يتعارضان إلى ما لانهاية؟».

«كل ما هو مستقيم كاذب، غمغم القزم بنبرة مفعمة بالازدراء. كل حقيقة معوجّة، والزمن نفسه دائرة مغلقة».

«اسمع يا روح الثقل! صرخت فيه بحنق، لا تستسهل الأمور على هذا النحو! وإلا تركتك قابعا حيث تقبع الآن يا مشلول القدم! ـ أنا الذي حملتك إلى هذا الموقع **المرتفع**!

أنظر هذه اللحظة! قلت مواصلا. من هذه السقيفة اللحظة يمضي درب طويل أبدي **إلى الوراء**: هناك أبدية تمتد وراءنا.

ألا ينبغي على كل ما يستطيع المشي أن يكون قد سلك هذا الدرب؟ ألا ينبغي على كل ما يمكن أن يحدث من الأشياء أن يكون قد حدث، قد صُنع، وقد مضى ذات مرة؟

وإذا ما سبق لكل شيء أن كان هنا ذات مرة، فما رأيك في هذه اللحظة أيها القزم؟ ألا ينبغي على هذه السقيفة أيضاً أن تكون ـ قد وُجدت ذات مرة هي الأخرى؟

أوليست الأشياء كلها تبعا لذلك مترابطة وثيق الارتباط في ما بينها، بما يجعل هذه اللحظة تجذب إليها **كل** الأشياء القادمة؟ ـ ـ **وبالتالي** نفسَها أيضا؟

ذلك أن كل ما يستطيع المشي، **لابدّ** أن يمر مرة أخرى خارجا من هذا الدرب الطويل!

وتلك الرتيلاء البطيئة القابعة تحت ضوء القمر، وهذا القمر أيضاً، وأنا وأنت الجالسيْن إلى السقيفة متهامسيْن، نتحدث عن أشياء أبدية كثيرة ـ ألا ينبغي أن نكون جميعنا قد وجدنا هنا سابقا؟

ـ وأننا نعود ونمضي على ذلك الدرب الآخر؛ قدما على هذا الدرب الطويل المفزع ـ علينا أن نظل نعود بصفة **أبدية**؟ ـ»[1].

---

(١) عن العود الأبدي، أنظر **المعرفة المرحة**، الكتاب الرابع، الشذرة ٣٤١: «أثقل حمل ـ ما رأيك لو أن شيطانا تسلل ذات يوم أو ذات ليلة إلى عزلتك الأكثر عزلة وقال لك: «هذه الحياة كما تعيشها الآن وكما عشتها دوما سيكون عليك أن تعيشها ثانية وعددا لايحصى من المرات، ولن يكون هناك من جديد فيها، بل إن كل ألم وكل لذة وكل خاطرة وزفرة وكل صغيرة وكبيرة من حياتك هذه ستعود إليك حتما والكل وفقا لنفس النسق ولنفس النظام والتتابع ـ وهذه الرتيلاء أيضاً وضوء القمر المتسلل بين الأشجار، وكذلك هذه اللحظة وأنا أيضاً. إن الساعة الرملية للوجود تظل تُقلب على الدوام ـ وأنت معها، حبة صغيرة داخل الغبار! (. . .) والسؤال في هذا كله جملة وتفصيلا «هل تريد أن تعيش هذا كله مرة ثانية وعددا لا يحصى من المرات؟ هذا السؤال سيجثم كأثقل حمل على كل أعمالك وسلوكاتك! أو كيف سيكون عليك أن تصبح أكثر طيبة تجاه نفسك وتجاه الحياة كي لا ترغب بعدها في شيء سوى في هذا الإثبات الأبدي الأخير والمصادقة الأبدية الأخيرة؟»».

هكذا كنت أتكلم، وبصوت خفيض دومًا: ذلك أنني كنت خائفا من أفكاري ومن أفكاري الخفية. عندها سمعت فجأة كلبا يعوي على مقربة مني.

هل سبق لي أن سمعت كلبا يعوي بمثل هذا العواء في ما مضى؟ وإذا خواطري تعود بي إلى الوراء. أجل، عندما كنت صبيا، في أيام صباي الغابرة:

ـ سمعت آنذاك كلبا يعوي هكذا. ورأيته أيضاً، منتفش الوبر مادّا رأسه باتجاه السماء، مرتعشا في السكون المطلق لمنتصف الليل، ساعة تؤمن الكلاب أيضاً بوجود الأشباح:

ـ مشهد أثار شفقتي. وكان القمر قد استقر للتو صامتا صمتا مواتا فوق البيت؛ متجمدًا كان يقف هناك دائرةً من لهب ـ صامتا فوق السقف المسطح كما لو كان يستقر فوق أرض غريبة:

ذلك هو ما أفزع الكلب: ذلك أن الكلاب تؤمن باللصوص وبالأشباح. وعندما سمعته يعوي من جديد عاودني الشعور بالشفقة عليه ثانية.

أين هو القزم الآن؟ والسقيفة؟ والرتيلاء؟ وكل ذلك الهمس؟ هل كنت أحلم إذًا؟ هل استفقت؟ بين الرّصف الصخرية العالية القاسية وجدتني أقف فجأة، وحيدا موحش القلب تحت ضوء القمر الأكثر وحشة.

لكن رجلا كان ممدد هنا! وكان الكلب هناك! قافزا، منتفش الوبر يعوي مستعطفا، ـ وها هو يراني الآن قادما، وإذا هو يعوي مجددا، صارخا الآن: هل سمعت قبلها كلبا يتوسل صارخا هكذا؟

وحقا، إن ما رأيت هنا، لم يسبق لي أن رأيت مثيلا له في ما

مضى. رأيت راعيا شابا يتلوى، مختنقا مرتعدا، متقلص الوجه، وثعبان أسود ثقيلٌ يتدلى من فمه.

هل رأيت مثل هذا القرف والذعر الشديدين على وجه آدمي من قبل؟ لقد نام دون شك فتسلل الثعبان إلى حلقه ـ وهناك عضَّ بكل ما أوتي من القوة.

أمسكت بالثعبان وسحبت، وسحبت: لكن عبثا! لم تستطع يدي أن تقتلع الثعبان من الحلق. عندها ندت عنّي صرخة: «عضّ! عضّ!

اقطع الرأس! عضّ!» هكذا كان الصراخ يصعد من أحشائي؛ صراخ ذعري وحقدي وقرفي وشفقتي، وكل ما كان في داخلي من أشياء حسنة وسيئة كانت تصرخ بصوت واحد من داخلي. ـ

أيها الجريئون المجتمعون حولي! أنتم، أيها الباحثون والمستكشفون، وكل من يبحر بأشرعة ماكرة فوق محيطات الأهوال، ـ يا عشّاق الألغاز المقفلة!

لتفكوا لي إذًا هذا اللغز الذي رأيت بعيني في ما مضى، لتفسروا لي إذًا رؤية ذلك المتوحد الأكبر!

ذلك أنها كانت رؤيا ونبوءةً: **ما الذي** رأيتُ آنذاك في صورة مَثل؟ **ومن هو** ذلك الذي ينبغي أن يأتي حتما في يوم ما؟

من هو ذلك الراعي الذي تسلل الثعبان إلى حلقه؟ من هو الإنسان الذي ستتسلل إلى حلقه أكثر الأشياء ثقلا وسوادا.

ـ لكنّ الراعي عضّ كما أشرت عليه بذلك: عضّ بكل ما أوتي من قوّة على العضّ! وبعيدا جدًّا قذف برأس الثعبان من فمه؛ وقفز ناهضا. ـ

لم يعد راعيا. لم يعد إنسانا، بل كائنا متحوّلاً، محاطا بهالة من نور؛ **ضاحكا!** أبدا لم يضحك أحد على وجه الأرض كما كان يضحك!

أي إخوتي، لقد سمعت ضحكة ليست بضحكة بشريّة، ـ والآن ينهش أحشائي عطش، وشوق لن ينطفئ أبدا.

شوقي إلى تلك الضحكة ينهش فؤادي ويلتهمني: أواه، كيف لي أن أتحمّل العيش بعدها! وكيف سيمكنني أن أتحمّل أن أموت الآن! ـ

هكذا تكلم زرادشت.

في السعادة رغم الأنف[1]

بمثل هذه الألغاز وبمرارة في القلب مضى زرادشت مبحرا. لكنه بعد أربعة أيام من السفر بعيدا عن الجزر السعيدة وعن أصدقائه، كان قد تخطى كل أوجاعه ـ : منتصرا وبقدم ثابتة غدا يقف من جديد أمام مصيره! وهكذا تحدث آنذاك إلى وعيه المفعم غبطة:

وحيدا أراني مجددا، وهكذا أريد أن أكون، وحيدا مع سماء صافية وبحر رحب، ومن حولي العشية من جديد.

في العشية التقيت ذات يوم بأصدقائي لأول مرة، وفي العشية أيضاً لقيتهم مرة أخرى؛ ساعة يغدو النور كله أكثر سكونا.

ذلك أن ما ظل متنقلا بين السماء والأرض من سعادة؛ إنما يبحث له الآن عن مأوى داخل روح مضيئة: **ومن فرط السعادة** غدا النور كله الآن أكثر سكونا.

أواه، عشيّة عمري! في ما مضى هبطت سعادتي إلى الوادي بحثا

---

(١) العنوان الأولي لهذا الفصل كان: «في البحار البعيدة» ويأتي مواصلة للفصل السابق كما يلاحظ القارئ، لكن نيتشه عمد إلى تغيير العنوان كي لا يجعل هذه الصلة مباشرة بين الفصلين، وكي يمنح هذا الفصل نوعا من الاستقلالية عن سابقه. قد يعود ذلك إلى الطريقة المحبذة لديه التي تتمثل في تبجيل كتابة الشذرات على النظام النسقي للنص المتكامل (أنظر الهامش رقم ٢ ص٢٤٨).

عن مأوى لها، وهناك وجدت تلك الأرواح الصادقة التي تفتح ذراعيها للضيف.

أواه، عشيّة عمري! أي شيء لم أبذل مقابل الحصول على شيء واحد: هذا الغرس الحي لأفكاري وهذا النور الصباحيّ لأكبر أمانيّ!

رفاقا كان يريد المبدع في ما مضى وأبناء لأمله؛ وها قد اتضح له أنه لن يعثر عليهم، سوى أن يبتدعهم بنفسه.

وها أنا إذًا في غمرة عملي، ماضيا إلى أبنائي(١)، مرتحلا عنهم: ومن أجل أبنائه ينبغي على زرادشت أن يتم إنجاز ذاته.

ذلك أن المرء لا يحب في العمق غير إبنه وأثره الذي عمل؛ وحيث ما تكون هناك محبة كبرى للذات، فتلك تكون العلامة الحق عن حَبَل: هكذا وجدت الأمور.

مازال غصن أبنائي ينْع وينمو وهم في ربيعهم الأول، متلاصقين يقفون يهزهم معا عصف الرياح؛ أشجار حديقتي وتربتي الأكثر خصبا.

والحق أقول لكم، حيث تقف مثل هذه الأشجار جنبا إلى جنب، فهناك **تكون** جزر سعيدة!

لكنني في يوم ما سأقتلعهم وأغرسهم كلاًّ في مكان، كي يتعلم كل واحد منهم الوحدة والعناد والحذر.

معقود الجذع مائل الهامة وبصلابة مرنة أريد أن أرى الواحد منهم يقف إلى البحر منارة حيّة لحياة لا تقهر.

---

(١) يلاحظ مونتي وكولليناري في الهوامش والتعليقات أن زرادشت سيتكلم ابتداء من الآن عن أبناء وليس عن أصدقاء كما كان يفعل قبلها.

هناك حيث تندفع العواصف هابطة إلى البحر، حيث خرطوم الجبل يمتص المياه، هناك سيكون على كل منهم أن يقف مرابطا في الحراسة ليلا نهارا كي يُمتحن ويُختبر.

مختبَرًا وممتحنا لا بد أن يغدو كي يُعرف إذا ما كان من نوعي ومن سلالتي ـ وإذا ما كان سيّد إرادة واسعة، صموتا حتى وهو يتكلم وطيّعا بحيث يكون بإمكانه أن **يأخذ** فيما هو يمنح:

كي يغدو في يوم ما رفيقا لي وشريك إبداع ومحتفلا مع زرادشت: واحدا بمستطاعه أن يكتب إرادتي على ألواحي: من أجل إنجاز مكتمل لكل الأشياء.

من أجله، ومن أجل أمثاله ينبغي علي الآن أن أنجز اكتمالي. لذلك أدبر الآن عن سعادتي وأسلم نفسي إلى كل ضروب الشقاء ـ من أجل امتحاني الأخير.

والحق أقول لكم، لقد كان علي أن أنصرف؛ وكان ظل المسافر، والمسافة الطويلة وساعة الصمت الكبرى، كلها كانت تهتف بي: «لقد آن الأوان!».

كانت الريح تصفّر عبر ثقب القفل وتقول لي «تعال!» والباب ينفتح على مصراعيه أمامي فجأة قائلا: «انصرفْ!».

لكنني كنت أضطجع هناك موثوقا بحبي لأبنائي: لقد نصبت لي الرغبة هذا الفخ؛ تلك الرغبة في الحبّ التي كانت ستجعلني أغدو فريسة لأبنائي وأبدّد نفسي فيهم.

الرغبة ـ كان ذلك يعني بالنسبة لي: أنني قد أضعت نفسي. **لي أنتم، يا أبنائي!** لا بد أن يكون كل شيء وثوقا في هذه الملكية، ولا شيء يمكن أن يكون رغبة.

لكنّ شمس محبتي كانت جاثمة فوقي تحضنني، وكان زرادشت يُطهى منقّعا في عصيره الخاص، ـ وإذا شكّ وظلال تعبر فوق رأسي.

وإذا نفسي تحنّ إلى الشتاء والصقيع مجددا: «آه، ليكن صقيعا وشتاءً يجعلاني أرتعد وأَصِرّ!» قلت متنهدا: وكان ضباب جليديّ يصاعد مني عندها.

ماضيّ قد حطم نعشه، والكثير من آلامي الموؤودة نهضت من سباتها الآن ـ : لقد نامت بما فيه الكفاية هناك مختبئة في أكفانها.

كل شيء كان يناديني بإشارات إذاً: «حانت الساعة!» ـ لكنني ـ لم اكن لأسمع النداء؛ إلى أن تململت أعماقي أخيرا وعضت عليّ فكرتي.

آه، أيتها الفكرة السحيقة الغور، التي هي فكرتي! متى سأجد في نفسي القوة كي أستطيع الاستماع إليك وأنت تحفرين، دون أن أرتعش؟

قلبي يضرب بعنف يصدّع حلقي عندما أستمع إليك وأنت تحفرين! وحتى صمتك، هو أيضاً يريد أن يخنقني أيتها الصامتة بأغوار سحيقة(١)!

أبدا لم أجرؤ بعد على دعوتك **للصعود** إلى السطح: كان يكفيني

(١) واضح أن نيتشه قد راجع مرات عديدة هذا الفصل وحذف الكثير واختزل وكثف. في هذا الموضع مثلا نقرأ في المخطوطة الأولية: «قلبي يضرب بعنف يصدع حنجرتي [ودمي كله يتدفق صاعدا من شدة الخجل من ضعفي ـ أجل، ضعيف هو زرادشت أمام كلمة] عندما أستمع إليك وأنت تنبشين ـ وأكثر من ذلك عندما أسمعك صامتة! إضحكي أيتها الصامتة العميقة الغور!».

أن أظل أحملك معي! لم أكن قويا بما فيه الكفاية بعد لنَزق الأسد ونَزْوته الهوجاء الأخيرة[1].

لقد كان لي دوما كفاية من الفظاعة في حملك الثقيل: لكنني في يوم ما سأجد القوة الضرورية وصوت الأسد الذي سيدعوك إلى الظهور!

وعندما أكون قد حققت انتصاري على نفسي وقد نجحت في هذا الأمر، سيكون عليّ أن أحقق انتصارا آخر على نفسي في أمر أعظم؛ **انتصاراً** ينبغي أن يكون الختمُ الذي يُختَم به على اكتمالي.

وفي الأثناء أستمر في التيه فوق بحار غامضة؛ تغازلني الصدفة وتتملقني، تلك المخادعة بلسان الحرير؛ أرسل نظري إلى الأمام وإلى الوراء، ـ ولا أرى من نهاية بعد.

لم تحن ساعة صراعي الأخير بعد، ـ أم تراها هي التي حلّت للتو؟ حقا، بأي جمال ماكر يرمقني البحر والحياة من كل الجهات!

يا عشية عمري! يا سعادة ما قبل المغيب! يا مرفأ في عمق البحر! يا سلاما داخل المجهول! لكم أرتاب منك جميعا!

الحق أقول لكِ،إن بي ريبة في جمالك الماكر! مثل العاشق الذي يرتاب في كل الابتسامات المخمليّة المشطة في العذوبة.

---

(١) الفقرة الأصلية وردت كالآتي في المخطوطة الأولية: «أبدا لم أجرؤ بعد على النظر: [لكنني في يوم ما سأغدو قويا بما فيه الكفاية لتكون لي جرأة. . . . .] أن أفتح باب المغارة التي ترقدين داخلها وتتسللين ـ كفاني من فظاعة تسللك ودمدمتك الخرساء، / الخوف من هذا التسلل هو ضعفي وفزعي: وستكون قوتي هي أن أفتح بيدي باب مغارتك وأناديك».

كما الغيور، رقيقا حتى في قسوته يصد عنه الحبيبة ـ ، كذلك أصد عني ساعة السعادة هذه.

لتبتعدي عني أيتها الساعة السعيدة! معك أتتني الغبطة رغما عني! بمحض إرادتي أقبل بألمي العميق: ففي غير الأوان أتيتِ(١)!

لتبتعدي عني أيتها الساعة السعيدة! ولتتخذي لك موطنا بالأحرى هناك عند أبنائي! لتسرعي! ولتباركيهم بسعادتي قبل المغيب!

فها هو المساء يقترب: الشمس منحدرة. امض إلى هناك ـ يا سعادتي! ـ

هكذا تكلم زرادشت. وراح ينتظر شقاءه طوال الليل: لكنه عبثا ظل ينتظر. فالليلة قد استمرت مضيئة وهادئة، وكانت السعادة تتقدم وتقترب أكثر فأكثر(٢).

---

(١) زرادشت يرفض قدوم السعادة قبل اجتياز الامتحان العسير، وقبل أن يتألم بما فيه الكفاية ويكتمل في التجربة والمحن. في الجمل المحذوفة من هذا المقطع كما جاء في المخطوطة الأولية نقرأ: «بقدم ثابتة أقف هنا متقبلا طوع إرادتي لمصيري [مساء وليل ونجوم وغرق] وحدة وأيام سوداء، وكذلك المخاطر التي تتهدد الغريق!/ لتبتعدي عني أيتها الساعة السعيدة! معك أتتني السعادة رغما عني! (تلي هذا إعادات متكررة لنفس الجملة بصياغات مختلفة....)... . إذ فقط عندما يغدو زرادشت سيدا على ألمه الأكبر، سيصارع من أجل انتصاره شيطانه الأكبر./ والذي عرف الغرق فقط هو من ينبغي له أن يكون فاتحا. إذ المطاردون والناجون من حوادث الغرق هم الذين يكتشفون بلدانا جديدة: أناسا شبه مدمرين كان على الدوام كل الفاتحين...».

(٢) يشير كوللي ومونتناري في الهوامش والتعليقات إلى إحالة ممكنة على غوتة في مسار كلامه عن القريحة في «الشعر والحقيقة»: «في أبهى تجلياتها وبأكثر غبطة وثراء كانت تبرز لي دون إرادة مني، بل رغما عن إرادتي».

لكن، قبيل الصباح راح زرادشت يضحك وهو يخاطب قلبه ساخرا: «إن السعادة تلاحقني. والسبب في ذلك هو أنني لا أركض وراء النساء. لكن السعادة أنثى».

قبل الشروق

أيتها السماء الصافية من فوقي! أيتها العميقة! يا هوة الأنوار السحيقة! وأنا أنظر إليك تتملكني رعشة رغبات إلهية.

أن أقذف بنفسي إلى عليائك[١] ـ ذلك هو **عمقي**! وأن أختفي داخل نقاوتك ـ تلك هي **براءتي**!

الإله يخفيه حجابُ جماله؛ وهكذا تحجبين نجومك. أنت لا تتكلمين؛ وهكذا تكشفين لي عن حكمتك.

صامتة فوق بحر هادر طلعت لي اليوم؛ حبك وحياؤك يتكلمان وحيا إلى روحي الفائرة.

---

(١) عن الأعالي، أنظر «إرادة القوة»؛ ٧، الشذرة ٧٠: «فوق قمامة روائح وقاذورات الوضاعة البشرية هناك إنسانية أرقى وأكثر إشعاعا، ستكون محدودة من حيث العدد، ذلك أن كل ما يرتفع ويبرز نادر بطبعه. ولن يكون الانتماء إلى هذه الإنسانية الأرقى محكوما بتفوق في الموهبة أو الفضيلة أو البطولة أو اللطافة تميّز هؤلاء عن أولئك الذين يحتلون موقع التحت، بل لأن الواحد منهم أكثر برودة وأكثر صفاء وأبعد نظرا وأكثر وحدة؛ لأنه يتحمل الوحدة ويبجلها ويطالب بها كحظ وامتياز، بل كشرط للوجود؛ لأنه يقيم بين السحب والرعود إقامته بين أهله، وكذلك بين أشعة الشمس الحارقة وقطرات الندى وندف الثلج وكل ما يتحرك، ما يتحرك على الدوام من الأعلى إلى التحت. تطلعات السمو ليست من شأننا. ـ فالأبطال والشهداء وذوو العبقرية والمتحمسون ليسوا هادئين وصبورين ومرهفين وباردين وبطيئين بما فيه الكفاية بالنسبة لنا».

أن تأتي إليّ جميلةً، محجّبةً بجمالك؛ أن تحدثيني في صمت، جليّةً في حكمتك:

آه، كيف لا أحزر كل حياء روحك! قبل طلوع الشمس أتيت إليّ، أنا المتوحّد الأكثر وحدة.

صديقان منذ البدء نحن: يجمعنا الحزن والرعب والعمق؛ والشمس أيضاً تجمعنا.

لا نتكلم إلى بعضنا، لأننا نعرف الكثير الكثير ـ : نتبادل الصمت، وما نعرفه نتبادله ابتسامات.

ألست النور الذي يشعّ داخل ناري؟ ألا تحملين في داخلك الشقيقة الروحية لرؤيتي؟

معا تعلمنا كل شيء؛ معا تعلمنا كيف نسمو على أنفسنا ونرتقي إلى نفسنا، ونضحك بصفاء لا تكدّره غيوم:

ـ بصفاء نبتسم من الأعالي بأعين مشعّة من أقاصٍ بعيدة، بينما من تحتنا تتحرك غمامة الإكراه والغرض والخطيئة مثلَ بخار يصعد بعد المطر.

وعندما كنت أجول وحيدا؛ إلامَ كانت تتوق روحي في لياليها وأيامها وعلى دروب التيه؟ وعندما كنت أتسلق جبالا، عمّن كنت أبحث فوق الجبال إذًا إن لم تكوني أنت؟

وكل تجوالي وصعودي الجبال، لم يكن سوى حاجة وملاذ مؤقت لعديم الحيلة: إلى **الطيران** فقط كانت تطمح روحي؛ أن أطير **إلى داخلك؟**

وأي شيء بغضت أكثر من السحب المتنقلة وكل ما يشوه سحنتك؟ وبغضي قد بغضته هو الآخر، لأنه قد شوّه سحنتك!

على السحب المتنقلة تنصب نقمتي؛ تلك السنانير البريّة المتسللة: إنها تختلس منك ومني ما يجمع بيننا؛ تلك الاستجابة الإثباتية الهائلة اللامحدودة التي تقول نعم وآمين لكل الأشياء[١].

أولئك المتوسطون ومعدّوا الخلطات هم الذين أمقتهم، تلك السحب المتنقلة: أولئك الذين يقسّمون أنفسهم نصفا من هذا ونصفا من ذاك، الذين لم يتعلموا أن يباركوا ولا أن يلعنوا كليّا.

وإنه لأحب إليّ أن أجلس داخل برميل[٢] في قاع لا تطل عليه سماء على أن أراك أيها الضياء السماوي ملطخا بالسحب المتنقلة!

ولكم راودتني الرغبة في أن أشق دفتيها بقاطعات البروق الذهبية، وأن أقرع بدوي الرعد على بطونها الشبيهة بمراجل خاوية:

ـ قرع طبّال حانق، لأنها تختلس مني مباركتك بنعم وآمين أيتها السماء التي فوق رأسي، أيتها الصافية! أيتها المضيئة! يا هوة الضياء السحيقة! ـ لأنها سرقت مني نعم! وآمين! التي أستجيب بها لك.

---

(١) أنظر **هذا هو الإنسان**؛ ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة؟ ـ عن هكذا تكلم زرادشت؛ الفقرة ٦: «إن الإشكال السيكولوجي في النموذج الزرادشتي يتمثل في الآتي: كيف يمكن لواحد مثله يواجه بالنفي قولا وفعلا كل ما ظل يثبته الجميع حتى الساعة، أن يكون مع ذلك النقيض لكل عقلي سلبيّ؛ وكيف لعقل يحمل عبء أثقل مصيرٍ ومهمّةً بحجم قدَرٍ أن يكون مع ذلك أكثر العقول خفّة وأريحيّة؟ ـ إنّ زرادشت راقص ـ: كيف يمكنه، هو الذي يملك النظرة الأكثر قسوة، والأكثر فظاعة تجاه الواقع، أن لا يكون له رغم ذلك أيّ اعتراض على الوجود، ولا حتى على عوده الأبدي، بل وأكثر من ذلك أن يجد سببا ليكون الإثباتَ الأبدي عينه لكلّ أشياء العالم؛ تلك الـ«نعم وآمين اللامحدودة الهائلة؟». . . «إلى كل هاوية سحيقة أحمل معي إثباتي المبارِك». . . لكن هذه هي فكرة ديونيزوس مرة أخرى!

(٢) لعلها إشارة إلى ديوجينس الكلبي الذي كان يسكن داخل برميل ولا يكف عن التهكم من المجتمع من حوله.

وإنني لأفضل الدوي إذًا والرعد ولعنات العواصف الساخطة على الطمأنينة الرصينة الحذرة للقطط؛ ومن بين الناس أيضاً ليس هناك من هو أبغض لديّ من كل أولئك المتسللين بخطى القطط، الفاترين المراوحين بين نعم ولا والمرتابين؛ تلك السحب التي تمرّ متلكئة مترددة.

ومن «لا يستطيع أن يبارك عليه أن **يتعلم** كيف يلعن!» ـ هذا المبدأ المشع الواضح قد هبط عليّ من سماء صافية مشعة، وحتى في عمق الليالي السوداء يظل هذا النجم ساطعا في سمائي.

لكنني مبارِكٌ ومستجيبٌ بنعم، ولْتكوني فقط مشعة من حولي أيتها النقيّة! المضيئة! يا هوّة الضياء! ـ إلى كل هوة سحيقة أحمل إجابتي الإثباتية المبارِكة.

مبارِكا ومجيبا بنعم صرتُ: وقد كان عليّ أن أصارع لوقت طويل من أجل ذلك؛ أن أكون مصارعا كي أستطيع تحرير يدي لكي تمنح بركتها.

وهذه هي بركتي: أن أكون سماء فوق كل الأشياء، وسقفها الدائري وناقوسها اللازوردي وأمانها الدائم: ومبارَكٌ كل من يبارِك هكذا!

ذلك أن الأشياء جميعها معمّدة في ينبوع الأبدية، وفي ماوراء الخير والشر؛ لكن الخير والشر نفسهما ليسا سوى ظلال عابرة وكآبات رطبة وسحب متنقلة.

الحق أقول لكم، إنها مباركة وليس تجديفا أن أكرز هكذا: «فوق

كل الأشياء هناك السماء الصدفة، السماء البراءة[(١)]، السماء المصادفة والاحتمال، السماء المجازَفة.

«على سبيل المصادفة والاحتمال» ـ تلك هي النبالة الأقدم للكون، إليها أعدت كل الأشياء، وهكذا خلصتها من عبودية الغرض.

هذه الحرية وهذه البهجة السماوية وضعتها مثل ناقوس لازوردي فوق الأشياء كلها عندما علّمت أن لا «إرادة خالدة» ـ فوقها أو داخلها ـ تريد.

---

(١) معنى البراءة يكمن في تبرئة الكائن ونفي كل مسؤولية لأي تدخل إرادي ما في صياغة الإنسان والكون على الشاكلة التي يوجد عليها. كل شيء يعود إلى الصدفة والضرورة حسب نيتشه. أنظر أفول الأصنام: الأخطاء الأربعة الكبرى؛ الفقرة ٨: «ماذا يمكن أن يكون مذهبنا الوحيد؟ ـ أن ليس هناك من أحد يمنح الإنسان خصاله، لا الله ولا المجتمع ولا أبواه أو أسلافه، ولا هو نفسه(إن الترهة المتعلقة بهذا التصور الذي ندحضه هنا هي فكرة «الحرية المعقولة» (بمعنى المدركة عقليًا كمقابل للمحسوسة ـ المترجم) التي يعلّمها كنط، وربما افلاطون أيضا). لا أحد مسؤول على كونه موجودا أصلا، وأنه متكوّن على هذا النحو أو ذاك، وأنه يوجد ضمن هذه الظروف وداخل هذا المحيط. إن قدر كيانه لا يمكن فصله عن قدر كل ما كان من قبل وما سيكون مستقبلا. وهو ليس نتيجة لنية محددة وإرادة وغرض، ولا يمكن أن يجعل منه موضوعا لمحاولات التوصل إلى تحقيق «مثال للإنسان» أو «مثال للسعادة» أو «مثال للأخلاق» ـ وإنه لمن العبث محاولة تحويل كينونته باتجاه أي غرض من الأغراض. نحن الذين اخترعنا مفهوم الغرض؛ في الحقيقة إنما الغائب هو الغرض... فنحن محض ضرورة، نحن جزء من قدر، ننتمي إلى كل، ونحن داخل الكلّ، ـ وليس هناك من شيء بإمكانه أن يقيّمنا ويقيسنا ويقارننا ويحكم علينا، إذ أن ذلك سيعني تقييم وقياس ومقارنة الكل والحكم على الكل... لكن لا وجود لشيء واقع خارج هذا الكلّ! ـ وإن لا يكون هناك من أحد يمكن أن تلقي عليه المسؤولية، وأن نوع الوجود لا يمكن أن يُرجَع به إلى علة أولى ـ causa prima، وأن العالم ليس بوحدة لا كعالم محسوس ولا كـ«عقل»، فذلك هو النوع الأرقى للتحرر ـ وبذلك فقط يعاد إثبات براءة الصيرورة... لقد كان مفهوم «الله» يمثل إلى حد الآن أكبر اعتراض على الوجود... إننا ننفي الله، وننفي المسؤولية الملقاة على الله: وبذلك فقط نخلّص العالم».

هذه المجازفة وهذا الحمق وضعتُهما محلّ تلك الإرادة عندما علّمتُ: «من بين الأشياء جميعها هناك شيء واحد مستحيل: أن تكون هناك معقولية!»[1].

شيء **قليل** من العقل مع ذلك، بذرات حكمة مبثوثة هنا وهناك فوق كل نجم، ـ إنها الخميرة التي تُمزج بها كل الأشياء: من أجل الحمق تُمزج كل الأشياء بشيء من الحكمة!

قليل من حكمة أمر ممكن أيضا؛ لكنني في كل الأشياء وجدت هذا اليقين السعيد: إنما على أقدام الصدفة تفضّل الأشياء ـ أن **ترقص**.

---

(١) شذرات ربيع ١٨٨٨ القسم ١٤ [١٥٢] من منشورات التركة؛ المجلد ١٣ من الأعمال الكاملة (KSA) ـ «إرادة القوة كمعرفة»: العالم متأسس على الفوضى والصدفة والضرورة. هكذا يرى نيتشه، وليس هناك من عقل مدبّر، إلهيا كان أم بشريا، يقرّر وينظم هذه الفوضى؛ بما معناه أن ليس هناك من شيء خاضع لـ«المعقولية» أو للإحاطة العقلية. وكل الجهود المعرفية والأنظمة المتأسسة على هذه الجهود تظل في نظر نيتشه: «ليست [معرفة]، بل تبسيطا وعملا يهدف إلى فرض قدر من الانتظام والأشكال على الفوضى بما يكفي لتلبية حاجتنا العملية. إن الحاجة هي التي تحدد المقاس في تشكل العقل والمنطق والنمذجة: الحاجة لا إلى «المعرفة»، بل إلى التنضيد والتبسيط لغرض الفهم وضبط المقاسات(. . .) إن الغاية النهائية من عمل الترتيب وتنضيد العلاقات بين المتشابه والمتساوي ـ العملية نفسها التي يتعرض لها كل انطباع حسي، إنما هي صيرورة تطور العقل! ليس هناك من «فكرة» سابقة الوجود قد اشتغلت هنا؛ بل الغاية الإجرائية التي تقتضي بأن لا تكون الأشياء قابلة للتقدير وللمعاجة من قِبلنا إلا عندما نجعلها خشنة ومتساوية في منظارنا. الغائيّة في العقل نتيجة إذًا وليست سببا(. . .) إننا نعتقد أن فكرة وفكرة، كما ترد متتالية في أذهاننا، توجد مرتبطة برباط سببي ما: إنّ المنطقيّ بصفة خاصة، ذلك الذي يتكلم فعلا عن مسائل كثيرة لا وجود لها البتة في الواقع، قد تعوّد على الفكرة المسبقة القائلة بأن الأفكار مسببة للأفكار، ـ ويسمي هذا ـ تفكيرا.(. . .) وفي المجمل: كل ما يغدو مدركا بالوعي هو استنتاج وخلاصة ـ ولا يسبب شيئا ـ وتتالي كل شيء داخل الوعي إنما هو من باب تصوّر المذهب الذرّي. لقد حاولنا أن نفهم العالم من منطلق رؤية معكوسة، ـ كما لو أنه ليس هناك من شيء يمكن أن يكون فاعلا وواقعيا عدا التفكير والشعور والإرادة. .».

أيتها السماء من فوقي، أيتها الصافية! السامية! هذا هو صفاؤك الآن بالنسبة لي: أن ليس هناك من مَنسجٍ للعقل ولا نسيج عنكبوت(*):

وأنك حلبة رقص في عيني لصُدَفٍ قدسيّة، وطاولة لنرد قدسي ولاعبي نرد! ـ

لكني أراك تحمرّين؟ هل نطقت بما لا يقال؟ هل جدّفت فيما كنت أريد أن أباركك؟

أم ترى الحياء أمام خلوتنا هذه هو الذي جعلك تحمرّين؟ ـ هل تريدين أن أنصرف وأصمت، لأنه قد أدركَنا الآن ـ الصباح؟

إن العالم عميق؛ وأعمق بكثير مما يمكن أن يتصور النهار. لا ينبغي أن نتكلم عن كل شيء في حضرة النهار. لكن هو ذا النهار قادم: فلنفترق إذًا! ـ

أيتها السماء من فوقي، أنت أيتها الخجولة! أيتها الملتهبة! أنت يا سعادتي الفجريّة! هو ذا النهار قد حل: فلنفترق إذًا!

هكذا تكلم زرادشت.

(*) هناك لعب على كلمة Spinne التي تعني في الألمانية العنكبوت وكذلك المنسَج، بحيث يصعب جدا ترجمة هذا التلاعب من ناحية، وفي الوقت نفسه يُحدث هذا المعنى المزدوج التباسا على القارئ كما على المترجم، الأمر الذي جعل أغلب المترجمين يذهبون إلى: «رتّيلاء العقل ونسيج عنكبوت» أو «عقل رتيلاء ونسيج عنكبوت». وهي ترجمة لا تؤدي المعنى ـ علاوة على عدم الإيفاء بالتلميحات الساخرة التي تتضمنها الاستعارة هنا ـ بالنظر إلى السياق الذي وردت فيه. والسياق هنا هو إثبات طابع الصدفة والبراءة ونفي تدخل العقل ودحض للتصورات التي ترى الكون من تدبير عقل مريد مدبّر ومدير. إذًا يغدو العنكبوت، أو الرتيلاء، هنا صورة استعارية للعقل المدبّر المزعوم، ونسيج العنكبوت صيغة ساخرة من التصور الذي يرى إلى العالم كنظام متأسس على العقلانية والنظام ـ في حين يثبت نيتشه طابعي المصادفة والفوضى.

عن الفضيلة المصغِّرة

١

لما عاد زرادشت إلى اليابسة لم يتجه مباشرة إلى جبله ومغارته، بل راح يسلك دروبا عديدة ويطرح أسئلة مستفسرا عن هذا الأمر وذاك حتى أنه خاطب نفسه ممازحا: «هو ذا نهر يعود إلى منبعه عبر تعاريج كثيرة!» ذلك أنه كان يريد أن يخبر عن قرب ما الذي يمكن أن يكون قد حصل لدى الإنسان أثناء غيابه: هل غدا الآن أكبر أم أصغر؟ ثم إنه رأى صفًّا من البيوت الجديدة، فتعجب مما رأى وقال متسائلا:

ماذا تعني هذه البيوت؟ حقا، لا أظن أن نفسا عظيمة هي التي شيدتها لتكون رمزا لها!

ترى صبيا ساذجاً هو الذي أخرجها من صندوق ألعابه؟ ليأت صبي آخر إذًا ليعيدها إلى صندوقه!

ثم يا لهذه الغرف والحجرات الضئيلة! هل يستطيع رجال ولوجها والخروج منها؟ إنها تبدو لي معدة لدمى الحرير، أو لقطط شرهة لا تمانع بدورها في أن تكون فريسة للقضم.

هكذا ظل زرادشت متسمرا في مكانه متفكرا. وأخيرا قال متحسرا: **«لقد غدا كل شيء صغيرا!»**.

أرى أبوابا واطئة في كل مكان: ومن كان من جنسي قد يستطيع أن يمر من خلالها، لكن ـ سيكون عليه أن ينحني!

أواه، متى أعود إلى موطني، حيث لن يكون علي أن أنحني ـ أن لا يكون عليّ أن أنحني بعدها أمام **الأصاغر!**» ـ ثم راح يتنهد ويسرح بنظره بعيدا. ـ

لكنه في اليوم نفسه ألقى خطبته حول الفضيلة المصغِّرة.

٢

أمضي بين هذا الشعب بعينين مفتوحتين: إنهم لا يغفرون لي أن لا أحسدهم على فضائلهم.

يكشرون عن أسنانهم نحوي ويُعملون أسنانهم في لحمي لأنني قلت لهم: «لصغار الناس تكون صغار الفضائل ضرورية» ـ ولأنني أجد صعوبة في أن أرى **ضرورة** ما لوجود صغار الناس، فإنني أشبه بالديك هنا في حوْش غريب، تلاحقه الدجاجات أيضاً بمناقيرها؛ لكنني لا أؤاخذ تلك الدجاجات على هذا الصنيع.

إنني مهذب معها كما أكون تجاه كل المزعِجات الصغيرة؛ أن يخرج المرء إبره ضد الصغار فتلك في نظري حكمة تصلح للقنافذ.

يتحدثون كلهم عني مساء حول المواقد، ـ يتحدثون عني، لكن لا أحد يفكر ـ فيّ!

ذلك هو الصمت الجديد الذي تعلمته: إن الضجة التي تثيرونها حولي تبسط عباءة فوق أفكاري.

تضجون فيما بينكم: «ماذا تريد منا هذه السحابة القاتمة؟ لننظر إن لم تكن حاملة وباء إلينا!».

ومؤخرا جذبت امرأة طفلها إليها بينما كان يريد المجيء إليّ: «أبعدوا الأطفال! صاح صوت ما، مثل هاتين العينين تحرق أرواح الأطفال!»(١).

يسعلون عندما أتكلم معتقدين بأن السعال اعتراض على الرياح العاتية، ـ إنهم لا يحدسون شيئا من فوران سعادتي!

«لا وقت لدينا بعد لزرادشت» ـ هكذا يردون متذرعين؛ لكن ما أهمية زمن «لا وقت لديه» لزرادشت؟

وحتى لو أنهم أطْروا عليّ؛ فكيف لي أن أنام متوسدا مديحهم؟ حزام أشواك على جنبي هو مديحهم: يظل يحك جلدتي حتى بعد أن أزيحه عنّي.

وهذا أيضاً مما تعلمته بينهم: يتظاهر المادح بأنه لا يفعل سوى ردّ ما قُدّم له سالفًا، لكنه في الحقيقة يطمع في مزيد من العطاء!

اسألوا قدمي إن كانت تعجبها مدائحكم واستمالاتكم! الحق أقول لكم، على هذه الأنغام والطقطقات لا تود قدمي أن ترقص، ولا أن تظل واقفة في سكون.

---

(١) قارن مع ما يرد في متّى الاصحاح ١٩/ ١٣: «حينئذ قُدّم إليه أولاد لكي يضع يديه عليهم ويصلّي فانتهرهم التلاميذ. أما يسوع فقال دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأنّ لمثل هؤلاء ملكوتَ السموات». مع فارق هنا، أنّ الأطفال هم الذين يتقدمون من لدن أنفسهم وبتلقائية من زرادشت بينما يصدهم الآباء عنه. فزرادشت هنا أقرب إلى سقراط الذي كانت له سمعة مفسد للشباب ـ أو الحدثان.

يريدون امتداحي واستمالتي إلى الفضائل الصغيرة؛ بطقطقة السعادة الصغيرة يريدون إقناع قدمي.

أمضي بين هذا الشعب بعينين مفتوحتين: لقد غدوا أصغر من ذي قبل، وفي كل يوم يغدون أكثر صغرا: **لكن ذلك هو ما تمليه تعاليمهم حول السعادة والفضيلة.**

فهم في الواقع متواضعون في الفضيلة أيضاً ـ ذلك أنهم يريدون طمأنينة. لكن الطمأنينة لا تتلاءم إلا مع المتواضع من الفضائل.

أكيد أنهم يتعلمون أيضاً المشي على طريقتهم والمضي إلى الأمام: ذلك ما أسميه **عرَجًا** ـ وبذلك يغدون عائقا أمام كل من به عجلة.

ومنهم من يمضي إلى الأمام ويرنو بعينيه إلى الوراء بعنق متصلبة: مثل هذا أُحب أن أدهس جسده في مسيري.

لا ينبغي للقدم والعين أن تكذبا، ولا أن تكذّب أحدهما الأخرى. لكنْ كذبًا كثيرا يكذب صغار الناس.

البعض منهم يريد، لكنّ أغلبهم قد أُريد بهم. البعض منهم صادقون، لكن أغلبهم ممثلون رديئون.

هناك ممثلون عن غير وعي من بينهم، وممثلون عن غير إرادة ـ ، والحقيقيّون نادروا الوجود بينهم، وبخاصة الممثلين الحقيقيّين.

الذكورة نادرة هنا هي أيضا؛ لذلك تستذكر نساؤهم. إذ من يكون ذكرا بما فيه الكفاية هو وحده الذي يستطيع أن **يخلّص** الأنوثة في الأنثى[1].

---

(١) أنظر فصل «أغنية للرقص» ـ الجزء الثاني ـ وكذلك الهامش رقم ٢ ص٢١٤.

وإليكم الآن أسوأ أنواع الرياء الذي وجدته لدى هؤلاء: أن يتظاهر الآمرون أيضاً من بينهم بفضائل الخدم المأمورين.

«أنا أخدم، أنت تخدم، نحن نخدم» ـ هكذا يكون دعاء رياء الأسياد الحاكمين ـ والويل، الويل عندما لا يكون السيد الأول شيئاً آخر غير خادم أول(١)!

---

(١) يحيل مونتي وكولليناري هنا على مقولة للملك فريدريش الأكبر: «Un prince est le premier serviteur et le premier magistrat de l'Etat» ـ أو ما معناه الأمير هو الخادم الأول والحاكم الأول للدولة. ويرى نيتشه في مثل هذه المقولة موقف نفاق، لأنه لا يستطيع تمثل هذه الازدواجية ذات الطابع المفارق: خادم/سيّد. بل إن الأسوأ في الأمر في نظره ليس الطابع المفارق لهذه الازدواجية، بل ما تنطوي عليه من ترثّث وترهّل لنظام التراتب القائم على الفوارق الصارمة والحدود الواضحة بين المراتب، الأمر الذي يجعل النفاق نفسه ينحل في الهيأة المائهة اللزجة للتسامح المسطح، ويفقد صفته كـ«نفاق حقيقي»، داخل مجتمع حديث تستوي فيه كل القيم ضمن جو من البرودة المتفشية. ويمكننا أن نفهم التحفظ النيتشوي من خلال هذا المقطع حول النفاق من كتاب **أفول الأصنام**، فصل «تسكعات رجل غير ملائم للعصر»، الشذرة ١٨: «لا شيء يتراءى لي اليوم أكثر ندرة من النفاق الحقيقي. وإنني لأشك كثيرا بأن هذه الشجرة لا تتلاءم والهواء الناعم لحضارتنا الحالية. النفاق ينتمي إلى عصور الإيمان القوي؛ حيث لم يكن المرء، حتى وهو يجد نفسه مرغما على التظاهر بتبني معتقد آخر، ليتخلى عن معتقده الأصلي. أما اليوم فإن الإنسان يتخلى عن معتقده الأول، أو أنه، وهو ما غدا أمرا معتادا أكثر من غيره، يتبنى معتقدا ثانيا إلى جانب الأول ـ وهكذا يظل المرء صادقا في كل الأحوال. لا شك أنه من الممكن اليوم أن يتواجد عدد أكبر من المعتقدات مما كان عليه الأمر في ما مضى: ومن الممكن، يعني أنه مسموح بذلك، مما يعني أنه غير مضر. من هنا سينشأ التسامح تجاه النفس. ـ إن التسامح تجاه النفس يسمح بتواجد العديد من المعتقدات: وهذه تتعايش بسلام في ما بينها ـ وتتلاقى، كما هو شأن العالم كله في يومنا هذا، دون أن تضع نفسها موضع التورط. لكن، بماذا يمكن أن يورط المرء نفسه اليوم؟ عندما يكون منسجما مع نفسه، وعندما يمضي بحسب خط مستقيم. وعندما يكون للمرء أقل من خمس وجوه. عندما يكون المرء صادقا. . . . لكنني أخشى كبير الخشية أن يكون الإنسان المعاصر على مستوى من الرفاه لا يجعله قادرا على تحمل بعض الأعباء؛ بما يجعل مثل=

آه، لقد سرحتْ عين فضولي بين طيات ريائهم أيضا؛ وقد حدستْ جيدا سعادة الذباب التي تغمرهم وطنينهم أمام زجاج النوافذ التي تنيرها الشمس.

طيبة كثيرة أرى، وضعفا كثيرا. الكثير من العدالة والشفقة، وضعفا كثيرا.

مُلْس، مستقيمون وطيّبون تجاه بعضهم البعض؛ مُلس مستقيمون وطيبون مثل حبات الرمل تجاه حبات الرمل الأخرى.

أن يحتضنوا بتواضع سعادة صغيرة ـ ذلك هو ما يدعونه «تسليما»! وفي الآن نفسه يرنون بطرْف متواضع نحو سعادة صغيرة جديدة.

إنهم يريدون بكل سذاجة شيئا واحدا لا غير في أغلب الأحيان: أن لا يؤذيهم أحد. وهكذا يستبقون كل أحد بإحسان.

لكنّ ذلك **جبناً**؛ وإن كان يدعى «فضيلة»[(١)].

وعندما يتكلمون بخشونة، أولئك الصغار؛ فإنني لا أسمع إلا بُحّة أصواتهم، ـ إذ كل هبة نسيم تصيبهم بالبُحاح.

شاطرون هم، ولفضيلتهم أصابع شاطرة. لكن تنقصهم قبضة اليد، فأصابعهم لا تعرف كيف تتوارى تحت قبضاتهم.

الفضيلة لديهم هي ما يجعل المرء متواضعا ومدجّنا: بواسطتها

=هذه الأعباء تندثر وتضمحل. وكل ما هو مسيء ناتج عن إرادة قوية ـ ولعله لا يوجد من شرّ دون إرادة قوية ـ ينحل ويُمسَخ فضيلةً داخل الهواء الرخو لحياتنا. . . . وإن العدد القليل من المنافقين الذين عرفتهم لا يفعلون سوى محاكاة النفاق: لقد كانوا، كما هو شأن كل واحد من عشرة في أيامنا هذه، مجرد ممثلين. ـ».

(١) أنظر **الفجر** / ٤؛ الفقرة ٣٤٣: «أنتم لا تريدون أبدا أن تكونوا راضين عن أنفسكم، ولا أن تتألموا من أنفسكم، ـ وتسمون هذا نزوعا أخلاقيا! لكنّ غيركم سيسمي هذا جبنا».

يجعلون من الذئب كلبا ومن الإنسان أفضل الحيوانات الأهلية لدى الإنسان.

«إننا نضع مقعدنا في موقع **الوسط** ـ ذلك ما تقوله لي ابتسامة رضاهم ـ وعلى مسافة متوسطة بين المُقارع المنذور للموت والخنزير المغمور بالرضا».

لكن هذه هي **الرداءة**؛ وإن كانت تسمّى اعتدالا(١).

٣

أمضي بين هذا الشعب وأذرو كلمات كثيرة في الطريق: لكنهم لا يعرفون كيف يتسلمون ولا كيف يحفظون.

يتعجبون من أنني لم آت لأشنّع بالخلاعة والرذائل: والحق أقول لكم، إنني لم آت أيضاً من أجل التحذير من اللصوص!

يتعجبون كيف لا أكون على استعداد لكي أشحذ وأصقل شطارتهم أكثر، كما لو أنه ليس لديهم ما يكفي من صغار الشطّار، أولئك الذين لوقع أصواتهم في أذني صرير الأقلام على اللوح.

وعندما أنادي فيهم: «إلعنوا كل الشياطين الجبانة التي فيكم، تلك التي تحب أن تئن وتبسط أكفها وتتعبد»، يصرخون: «زرادشت كافر».

وأكثر الصارخين بذلك هم أولئك الذين يكرزون بينهم بتعاليم

---

(١) عن الاعتدال، أو ما يسمى بالتوسط، يقول نيتشه إنه الفلسفة المبجلة للرداءة، وهو يستغل ما تمنحه اللغة الألمانية من قرابة سلالية بين عبارتي Mass وتعني المقاس، كما تعني أيضاً الاعتدال، وMittelmass وتعني حرفيا المستوى المتوسط، ودلاليا المستوى الرديء؛ ثم mässig أي معتدل وmittelmässig وتعني رديء. أنظر في ما **وراء الخير والشر**؛ الشذرة ٢٦٢.

الاستسلام ـ؛ لكنّ هؤلاء بالذات هم من أرغب في أن أصرخ في آذانهم: نعم، أنا زرادشت الكافر!

معلموا الاستسلام هؤلاء! حيثما تكون هناك حقارة ومرض وقذارة تجدهم يزحفون مثل القمل؛ وإن قرفي وحده هو الذي يمنعني من أن أسحقهم.

إذًا! هي ذي موعظتي التي ألقي بها في آذانهم: أنا زرادشت، الكافر الذي يكلمكم هنا: «من منكم كافر أكثر مني، فسأكون مسرورا بالتعلم عنه؟».

أنا زرادشت الكافر؛ فأين هم أشباهي؟ وكل الذين هم على شاكلتي، الذين يصنعون إرادتهم الخاصة بأنفسهم ويدفعون عنهم كل استسلام.

أنا زرادشت الكافر: أطهي كل الصدف في قِدْري. وعندما تكون قد طبخت واستوت، عندها فقط أرحب بها وأجعل منها غذاء **لي**.

والحق أقول لكم، هناك من الصدف ما قدمت عليّ مستبدّة متجبّرة؛ لكن بتجبّر أقوى خاطبتها **إرادتي**، وإذا هي تجثو على ركبتيها مستجدية. ـ

مستجدية تطلب مأوى وقلبا حنونا لديّ، متفننة في عبارات التملق: «أنظر، أي زرادشت، إنما هنا صديق مقبل على صديق!» ـ

لكن لِم كل هذا الكلام هنا، حيث لا أحد له أذناي! سأصرخ بذلك إذًا في كل فجّ:

إنكم تزدادون كل يوم صغرا أيها الأصاغر! إنكم تتفتّتون أيها المستلقون الهنيئون في الرضى! إنكم سائرون إلى الهلاك في نظري ـ

ـ ستهلكون من جراء فضائلكم الصغيرة، وإهمالاتكم الصغيرة واستسلاماتكم الصغيرة الكثيرة!

كثير من المداراة، وكثير من التنازلات: هكذا هي تكوينة تربتكم! لكن لكي تترعرع شجرة وتغدو سامقة، لا بد لها من صخور صلبة ترمي بعروقها المتينة حولها!

وكل ما تهملون يُنسج داخل نسيج المستقبل الإنساني؛ وكذلك عدمكم هو أيضاً نسيج عنكبوت، ورتيلاء تقتات من دم المستقبل.

وعندما تستلمون فإنكم تفعلون ذلك كما لو كنتم تسرقون أيها الفضلاء الصغار؛ لكن للمحتالين أيضاً **شرف** يتكلم بينهم هكذا: «لا ينبغي للمرء أن يسرق إلا حيث لا يمكنه أن ينهب».

«إنه شيء يُمنح»؛ وهذه أيضاً إحدى تعاليم الاستسلام. لكنني أقول لكم أيها الهنيئون: إنما هو **شيء يؤخذ**، وسيظل يؤخذ منكم المزيدُ والمزيدُ على الدوام!

آه، لو أنكم تتخلون عن هذا **النصف ـ نصف** في إرادتكم، وتصبحون أصحاب حزم في الخمول كما في الفعل!

آه، لو أنكم تفهمون مقولتي هذه: «لتفعلوا بالنهاية ما تريدون؛ لكن لتكونوا أولا أولئك الذين **بمستطاعهم أن يريدوا!**».

«لتحبوا بالنهاية قريبكم محبتكم لأنفسكم؛ لكن لتكونوا لي أولا أولئك الذين **يحبون أنفسهم** ـ

ـ محبة كبرى يحبون، وباحتقار كبير يحبون!» هكذا تكلم زرادشت الكافر. ـ

لكن لِم كل هذا الكلام، هنا حيث لا أحد له أذناي! إنني هنا في ساعة سابقة للأوان.

إنني المبشر بنفسي بين هذا الشعب، صيحة ديكي الخاصة بين الأزقة المعتمة[١].

لكنّ ساعتهم آتية! وآتية ساعتي أيضا! وفي كل ساعة يغدون أصغر وأفقر وأكثر عقما، - أعشابا هزيلة! وتربة شحيحية!

وعما قريب سيكونون أمامي مثل القش والبرّية الجدباء؛ والحق أقول لكم، متعبون من أنفسهم سيكونون ومتعطشون إلى النار أكثر من الماء!

أواه ساعة الصاعقة المباركة! أواه أسرار الظهيرة! - نارا تسري زاحفة أريد أن أصنع منها ذات يوم ورسل بشرى بألسنة من لهب:

- بألسنة من لهب ينبغي أن تبشر ذات يوم هكذا: إنها آتية، لقد غدت قريبة ساعة **الظهيرة الكبرى!**

هكذا تكلم زرادشت.

(١) لم يكن لزرادشت ما كان ليسوع من مبشر سابق على مجيئه وهو يوحنا المعمدان، فهو هنا النبي والمبشر بنفسه في الآن ذاته. وهذه الجملة ترشح بمرارة مضاعفة: مرارة الوحدة، ومرارة المجيء قبل الأوان.

فوق جبل الزيتون[1]

الشتاء، ذلك الضيف الكريه، يجلس الآن في بيتي[2]؛ مزرقّة يداي من كثرة مصافحاته الوديّة.

إنني أحترمه، ذلك الضيف الكريه، لكنني أحبّذ أن أتركه قابعا لوحده. أحب أن أهرب منه؛ ومن كان يجيد الجري بسرعة يستطيع أن يفلت منه!

بقدمين دافئتين وأفكار دافئة أمضي إلى حيث تقف الريح ساكنة، - إلى الركن المشمس فوق جبل زيتوني.

هناك أضحك من ضيفي القاسي وأشكره أيضاً لأنه يطرد الذباب عن بيتي ويجعل الكثير من الأصوات الضاجة الصغيرة تخلد إلى الصمت.

---

(١) العنوان الأولي: «أغنية الشتاء»؛ أنظر نهاية هذا الفصل حيث لا يقفل نيتشه بعبارة: «هكذا تكلم زرادشت»، بل بـ: «هكذا غنى زرادشت».
في هذا الفصل أيضاً يستعير نيتشه صورة - واقعة إنجيلية؛ متّى الاصحاح ٢٤ عندما خرج يسوع من الهيكل وذهب إلى جبل الزيتون.

(٢) شذرات مسودات زرادشت من كنشات صائفة ١٨٨٣ / المجلد ١٠ من الأعمال الكاملة (KSA) - القسم ١٣ [١] ص٤٢٥. «إنه الشتاء؛ أريد أن أرقص اليوم. لديّ ما يكفي من اللهب لهذا الجليد؛ إلى الجبل أريد أن أصعد، فهناك يحب لهبي أن يشتبك مع الريح الباردة».

إنه لا يتحمل سماع بعوضة تطن، أو بعوضتين؛ وحتى الزقاق ينقعه في الوحدة مما يجعل القمر يشعر بالخوف هناك ليلا.

ضيف قاس هو، ـ لكنني أحترمه، ولا أصلّي مثل كل الرقيقين الحساسين أمام إله النار الأكرش.

بل أحب إليّ أن يطقطق المرء قليلا بأسنانه من أن يجلس مصلّيا أمام أصنام!

ذلك هو ما يريده طبعي. وإني لأبغض على وجه الخصوص كل الآلهة المتأجّجة المدخّنة المشبعة رطوبة.

وإذا ما أحببت فإنني أحبّ شتاء أكثر مما أفعل صيفا؛ والآن أسخر من أعدائي وبكل غبطة، منذ أن استقر الشتاء في بيتي.

بكل غبطة حقا، حتى وأنا **أزحف** نحو الفراش ـ: ههنا تضحك سعادتي الزاحفة وتعبث أيضا؛ ويضحك حتى حلمي الكاذب أيضاً.

أزاحفة أنا؟ أبدا، لم أزحف في حياتي كلها أمام ذي سلطان؛ وإذا ما كذبت، فإنما أكذب عن حبّ. لذلك أنا مغتبط في فراشي الشتوي أيضاً.

إن فراشا بسيطا يدفؤني أكثر من فراش بذيخ، ذلك أنني أغار على فقري؛ وهو في الشتاء أكثر وفاء لي.

بفعلة خبيثة أدشن كل يوم جديد، وبحمّام بارد أسخر من الشتاء؛ وذلك هو ما يثير دمدمة ضيفي الصارم الشديد.

أحب أيضاً أن أدغدغه بشمعة صغيرة؛ كي يفسح أخيرا مجالا للسماء لتطل علي من وراء العتمة الرمادية.

في الصباح خاصة أكون أكثر خبثا: في تلك الساعة المبكرة، ساعة

يُسمع صرير الدلو على حافة البئر وتحمحم الخيول بأصواتها الدافئة عبر الأزقة الداكنة:

بنفاذ صبر أجلس هناك منتظرا أن يطل علي أخيرا وجه السماء المشع؛ السماء الشتويّة، ذلك الشيخ المسن بلحيته الثلجية وهامته البيضاء.

- السماء الشتوية، تلك الصامتة التي غالبا ما تجحد عنا حتى الشمس!

تُراني تعلمت عنها هذا الصمت الفضي الطويل؟ أم أنها هي التي تعلمت ذلك عني؟ أم أننا ابتكرنا ذلك كل لنفسه وعلى حده؟

لكل الأشياء الحسنة أصول متعددة، - وكل الأشياء الحسنة العابثة تتراقص غبطة داخل متعة الوجود: كيف لها أن لا تفعل ذلك - سوى مرة واحدة[1]!

شيء عابث حسن هو الصمت طويلا أيضاً والنظر، تماما مثل السماء الشتوية، بوجه مضيء وعين صافية:

- وأن يجحد المرء شمسه مثلها، وإرادته الشمسية التي لا تنثني: الحق أقول لكم، لقد تعلمت هذا الفنّ وهذا العبث الشتائي وأتقنتهما جيدا!

وأَحب خباثاتي، وفنّي المبجّل أنْ علّمت صمتي كيف يتفادى الافتضاح من خلال الصمت.

مقرقعا بكلماتي وبنردي أغالط كل الرقباء المهيبين: لابد لإرادتي وغرضي أن يفلتا من كل هؤلاء العسس الصارمين.

---

(١) إشارة أخرى إلى حتمية العود الأبديّ

أن لا يفلح امرؤ في أن يسبر أغواري ويطلع على إرادتي النهائية - من أجل ذلك ابتكرت لنفسي هذا الصمت الفضيّ الطويل.

ولقد رأيت أكثر من ذي فطنة ودهاء يضع نقابا على وجهه ويعكّر مياهه كي لا يستطيع أحد أن ينفذ إليه ببصره ويسبر ما يختفي في أعماقه[1].

لكنّ ذا الفطنة هذا بالذات سرعان ما أتاه المرتابون وهاتِكوا الأستار؛ ومن مياهه هو بالذات استطاعوا أن يصطادوا أكثر أسماكه تسترا وخفاء!

بل الواضحون الشجعان والشفافون؛ أولئك هم في نظري أكثر الكتومين فطنة: إذ عميقةٌ هي بئر هؤلاء، حتى أن أكثر المياه صفاء لا تستطيع أن تفضح خبايا قاعها.

أنت أيتها السماء الشتائية الصامتة، أيها الشيخ المسن بلحيتك الثلجية والهامة البيضاء والعين الصافية من فوقي! أنت أيتها الصورة الرمزية لروحي وعبثها الساخر!

ألا ينبغي عليّ أن أختفي مثل واحد قد ابتلع ذهبا، - كي لا يشق أحد جوف روحي؟

ألا ينبغي علي أن أمشي على طويلات الساق حتى أغالط كل أولئك الحسودين والمتوجعين، فتعمى أعينهم عن ساقيّ الطويلتين؟

تلك الأرواح المنقعة في أدخنة البخور ودفء الغرف، المستهلَكة المتعفّنة المكدّرة - إذ كيف لحسدها أن يتحمّل سعادتي!

---

(١) مثل ما يفعل الملامتيّة من المتصوّفة.

هكذا لا أكشف لهم إلا عن الجليد والشتاء فوق قمتي؛ ولا أريهم كيف يتلفّع جبلي بكل الشموس التي تلف من حوله!

لا يسمعون سوى أعاصير شتائي المولولة؛ ولا يرون كيف أبحر فوق بحار دافئة، شبيها بريح جنوبية حارة وثقيلة ومتوهجة بالأشواق.

سيشفقون عليّ بسبب حوادثي وصدفي أيضاً ـ لكنّ كلمتي هي: «دعوا الصدفة تأتي إليّ؛ إنها بريئة مثل طفل صغير».

كيف لهم أن يتحملوا سعادتي إن لم أغطيها بحوادث عدة، وفاقة شتاءات وقبّعات من جلد الدببة وألحفة من سماء مثلجة!

ـ إن لم أرقّ **لشفقتهم** أيضا؛ شفقة هؤلاء الحسودين والمتوجعين!

ـ إن لم أتنهد أنا أيضاً في حضرتهم وأرتعد بردا، وأن **أدع نفسي** أتلفع بكل صبر بشفقتهم!

تلك هي حكمة النوايا المعابثة والنوايا الصادقة لروحي؛ ان **لا تخفي** شتاءها وأعاصيرها الصقيعية؛ وهي لا تحجب أورام صقيعها أيضاً.

وحدة البعض هي هروب المرضى؛ ووحدة البعض الآخر هي الهروب من المرضى.

ليسمعوني إذًا أرتعد وأئنّ من شدة البرد، **هؤلاء** الحسدة الماكرون المساكين الذين من حولي! فبمثل هذه الرعدة وهذا الأنين لا أفعل سوى الهروب من بيوتهم المدفأة.

فليشفقوا عليّ وليتنهدوا رأفةً لأورام صقيعي: «إن صقيع المعرفة سينتهي بأن **يجمّده!**» ـ هكذا يقولون متفجّعين.

وفي الأثناء أمضي بقدمين دافئتين، أذرَع جبل زيتوني في كل اتجاه؛ وفي الركن المشمس من جبلي أغنّي وأسخر من كل شفقة. ـ

هكذا غنّى زرادشت.

عن المرور العابر

مارا بشعوب عديدة ومدن كثيرة كان زرادشت يمضي ببطء في طريق عودته إلى جبله ومغارته. وها هو ينتهي فجأة إلى باب **المدينة العظمى**: لكن هنا قفز باتجاهه مهرّج أحمق مزبدا فاتحا ذراعيه وقد سد عليه الطريق. لم يكن ذلك الأحمق سوى ذاك الذي يلقّبه الشعب بـ«قرد زرادشت»: ذلك أنه قد استرق من زرادشت شيئا من أسلوب ونبرة خطبه، وكان لا يتوانى في استعارة بعض من كنوز حِكمته. إلا أن الأحمق خاطب زرادشت قائلا:

«أي زرادشت، أمامك هنا المدينة العظمى: ما من شيء يمكنك أن تظفر به في هذا المكان، بل إنك ستخسر كل شيء هنا.

لِم تريد أن تخبط بقدميك في هذا الوحل؟ لترأف بقدميك! بل ابصق على بابها ـ وانصرف عنها!

هذا المكان هو الجحيم بالنسبة لأفكار المعتزل المتوحد: هنا يُلقى بالأفكار الكبرى حيّة في المراجل، وتُحوّل إلى ثريد.

هنا تنحل كل المشاعر العظيمة: هنا لا يحق سوى للمشاعر الهزيلة أن تجلجل!

ألا تشتم رائحة مذابح ومطابخ العقول؟ ألا تفوح هذه المدينة ببخار العقول المجندلة؟

ألا ترى الأرواح معلقة مثل خرق بالية وسخة؟ - بل إنهم يصنعون صحفا أيضاً من هذه الخرق!

ألا تسمع كيف أن العقل تحول هنا إلى ألاعيب كلامية؟ غُسالةً كريهةً يفرز هذا العقل. -

ومن هذه الغُسالة الكلامية يصنعون أيضاً صحفا!

يطاردون بعضهم البعض ولا يعلمون إلى أين؟ يستثيرون بعضهم البعض ولا يدرون لماذا؟ يخبطون على صفائحهم، ويحدثون رنينا بذهبهم.

هم باردون ويبحثون عن شيء من دفء في محروق المشروبات الروحية؛ مستعرون ويبحثون عن برودة في العقول المجمَّدة؛ وجميعهم مصابون بحمى الرأي العام ودائه العضال.

هنا موطن كل الرذائل وكل مَفْسَدة؛ لكن يوجد هنا أيضاً أهل فضائل؛ هناك الكثير من الفضائل الموظّفة الحاذقة:

عدد كبير من الفضائل الحاذقة بأصابع كاتبة ومؤخرات قاسية ولحم صلب للانتظار، مغمورة بنجوم صغيرة تزخرف صدرها وبفتيات شبيهات بدمى محشوّة هزيلة المؤخرات.

وهناك الكثير من الورع أيضاً وكثير من لعاب التقوى المتدلق وألسنة التعبد المتملقة أمام إله العساكر والحروب[١].

«من فوق» تتقاطر النجوم وغيث اللعاب الرحيم؛ وإلى الأعلى يتوق كل صدر لا تزيّنه نجوم.

---

(١) أنظر كتاب العهد القديم؛ المزامير ١٠٣/ ٢١: «باركوا الربّ يا جميع جنوده خدّامه العاملين مرضاتَه».

للقمر بلاط هالته، وللبلاط عجوله المغفّلة؛ لكن أمام كل ما يأتي من القصر يركع جمهور الشحاذين مصلّيا، وكل الفضائل الشحاذة الحاذقة.

«أنا أخدم، أنت تخدم، نحن نخدم»[1] ـ هكذا تكون صلاة كل الفضائل الحاذقة عند قدمي الأمير ـ حتّى يكون للنجمة أن تستقر بالنهاية نيشانا مستحقا على الصدر النّحيل!

غير أن القمر يدور حول كل ما هو أرضي؛ وهكذا يدور الأمير بدوره حول أكثر الأشياء أرضيّةَ ـ : لكن ذلك هو ذهَب البقّال.

إله العساكر ليس بإله السبائك الذهبية: إن الأمير يفكّر، لكن البقّال ـ هو المدبّر!

بحقّ كل ما هو مضيء فيك وقويّ وحسن يازرادشت! ابصق على مدينة البقّالين هذه وانصرف عنها من حيث أتيت!

هنا يسيل في كل العروق دم فاسد، فاتر رغويّ؛ ابصقْ على المدينة العظمى، المستنقع الذي تتخمر داخله كل الحثالة مجتمعة!

ابصق على مدينة الأرواح المنسحقة والصدور الضيقة والعيون الشرهة والأصابع الدّبقة ـ

ـ على مدينة الفضوليين والوقحين والكتَبة الناعقين، والمتأججين بغُلمة الأطماع والطموحات:

ـ حيث يجتمع ويتقيح معا كل معتلّ وذي ريح كريهة، وشهواني جشع وكئيب ومترهل وذو قرِحة ومتآمِر:

---

(١) قارن مع الفصل السابق «في الفضيلة المصغرة».

ـ ابصق على هذه المدينة الكبيرة وانصرف عنها» ـ .

لكن عند هذا الحد قاطع زرادشت ذلك المهرّج المزبد وأوقفه عن الكلام.

«كفى الآن! صاح فيه زرادشت، فقد أشبعتني قرفا بحديثك وبهيأتك!

لِمَ أقمت طويلا في المستنقع كي تتحول إلى ضفدعة وعلجوم؟

ألا يجري في عروقك الآن أنت أيضاً دم مستنقعات، فاسدٌ ومتعفنٌ جعلك تتعلم هذا النقيق والتجديف؟

لِم لم تذهب إلى الغاب؟ أو تحرث الأرض؟ أليس البحر مليئا جزرا خضراء يانعة؟

إنني أحتقر احتقارَك؛ وإذا ما كنت تريد أن تحذرني، فلم لم تحذّر نفسك إذًا؟

من الحب وحده ينبغي أن ينطلق احتقاري وطائر إنذاري، لا من المستنقع! ـ

قرد زرادشت يدعوك الناس أيها المهرج المزبد، لكنني أدعوك خنزيريَ النخّار، ـ وبنخيرك هذا تفسد عليّ حتى مديحي للجنون(١).

لكن ما هذا الذي جعلك تنخر هكذا يا ترى؟ ألأن أحدا لم يجاملك بما فيه الكفاية؟ لذلك أنت تجلس إلى هذه القمامة، كي يكون لك سبب يجعلك كثير النخير، ـ

---

(١) في مواقع غير قليلة يلتقي القارئ بتأثيرات من أفكار إيراسموس روتردام صاحب كتاب «مديح الجنون».

كي يكون لك سبب لكل هذا **الانتقام!** انتقام هو كل رغائك وزبدك أيها الأحمق المغرور. لقد سبرتُ أغوار سريرتك جيدا!

لكن كلامك الأحمق يضرّ بي حتى عندما تكون على حق! وحتى إذا ما كانت كلمة زرادشت ألف مرة على حق؛ فإنك **باطلا ستفعل** دوما بكلمتي!».

هكذا تكلم زرادشت. بعدها تطلع في المدينة الكبرى وتنهد، ثم صمت طويلا. وأخيرا تكلم هكذا:

إنني أشعر بالقرف من هذه المدينة أيضاً، وليس من هذا الأحمق فقط. لا شيء يمكن إصلاحه هنا وهناك، ولا شيء يمكن أن نجعله أكثر سوء[(١)].

الويل لهذه المدينة العظمى! ـ ولَكم أودّ أن أرى أعمدة النار التي ستحترق بها!

---

(١) نجد في هذا الفصل استحضارا لصورة نمطية من العهد القديم وأناجيل العهد الجديد وصولا إلى القرآن، صورة لمثال المدينة الضالة والفاسدة؛ مدينة الفجور التي تنزل عليها نقمة الربّ دوما. الأمر الذي يجعل المرء يميل إلى الاعتقاد بأن مجمل النبوءات ليست سوى تاريخ التبرم من المدينة ورغبة متجددة في الانتقام منها؛ رغبة تدمير لما يبنيه الإنسان؛ كما لو أنه حيثما يكون اجتماع بشري وعمران وبناء يكون فساد يستوجب هذه النقمة؛ من برج بابل إلى سدوم وعاموراء ونينوى ـ وربما آخرا وليس أخيرا نيويورك وبرجيها التوأمين (الصورة الحديثة لبرج بابل، في هيأة ثأر مزدوج). في مسودات زرادشت (المجلد ١٠؛ ٢٢ [٣] نقرأ هذه الجملة من بين الجمل الكثيرة التي حذفت في ما بعد من المخطوطة النهائية: «وإذا ما حملت المدينة الكبرى نفسها إلى البريّة، فإنها لا تحمل سمادا إلى أرض البريّة بل فسادا وشناعة». أنظر لوقا الاصحاح ١٩/ ٤١ ـ ٤٤: «وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلا إنك لو علمتِ أنتِ أيضاً حتّى في يومك هذا ما هو لسلامك. ولكنّ الآن قد أُخفيَ عن عينيك، فإنه ستأتي أيّام ويحيط بك أعداؤك بمِترسةٍ ويُحْدقون بكِ ويحاصرونكِ من كلّ جهةٍ، ويهدمونكِ وبنيكِ فيكِ حجرًا على حجر لأنّك لم تعرفي زمانَ افتقادكِ».

إذ أعمدة النار تلك هي التي ستستبق حلول الظهيرة. لكن لهذا وقته وقدره[١].

وإليك الآن بموعظة الوداع هذه أيها الأحمق: حيث لا يمكن للمرء أن يحب، يكون عليه ـ **أن يمرّ!**

هكذا تكلم زرادشت ومضى منصرفا عن الأحمق والمدينة العظمى.

---

(١) في المسودات يرد ما يلي في هذا الموضع: «لكن لهذا وقته وقدره. وإني لا أودّ أن أكشف النقاب عن كل شيء؛ هكذا أمضي إذًا». زرادشت يؤجل حرق المدينة الكبرى، أو يدعه لأوانه وقدره، وهو ما يذكّر بقرار الرب عندما غير رأيه وأمسك عن تدمير نينوى كما وعد بذلك يونان النبيّ الذي كان يشتكي منها اشتكاء المهرج الأحمق هنا من المدينة العظمى. وكما انتهر زرادشت المهرج ونصحه بالأحرى بأن ينصرف عنها: «حيث لا يمكن للمرء أن يحب، يكون عليه ـ أن يمرّ!» كذلك يلوم الربّ يونان على تذمّره ـ يونان الاصحاح ٤/ ٩ ـ ١١: «فقال الله ليونانَ هل اغتظتَ بالصّواب من أجل اليقطينةِ. فقال اغتظتُ بالصواب حتى الموت. فقال الربّ أنت شفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربّيتها التي بنتَ ليلةٍ كانت وبنتَ ليلةٍ هلكتْ؛ أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثرُ من إثني عشرة رِبوةً من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالِهم وبهائمُ كثيرةٌ».

عن المرتدّين[1]

١

أواه! أكلّ ما كان يقف بالأمس القريب أخضر زاهي الألوان فوق المرج يرقد الآن ذابلا داكن اللون؟ كم من عسل الآمال حملتُ معي من هنا إلى قفيري!

كل هذه القلوب الشابة قد أدركتها الشيخوخة بسرعة، ـ وما هي بالمسنّة، بل متعَبةً فقط، عاميّة وخالدة إلى الرفاه: «صرنا ورعين من جديد»، هكذا يسمون حالهم هذه.

بالأمس القريب فقط كنت أراهم يخرجون بقدم حازمة في الصباح الباكر؛ لكنّ أقدام المعرفة لديهم قد أصابها التعب، وها هم الآن يفترون حتى على فتوّتهم الصباحية!

حقا، أكثر من واحد من بينهم كان يحرك ساقيه كما يفعل الراقص، وإليه كانت تومئ ضحكة حكمتي: لكنه سرعان ما تدارك نفسه. وها أنا قبل هنيهة أراه محنيّ القامة وهو يزحف نحو الصليب.

حول النور والحرية كانوا يرفون بأجنحتهم مثل البعوض والشعراء

(١) العنوان الأولي: «المسلّمون لله».

الشبان. لكن يكفي أن يتقدموا قليلا في السن وأن يبردوا قليلا، وإذا هم قاتمون مهمهمون وقطط مدافئ.

هل أحبطت عزائمهم وهم يرون أن الوحدة ابتلعتني كما لو كنت في بطن الحوت[١]؟ وهل ظلت آذانهم طويلا تتحرق **عبثاً** لسماع بوقي وصوت نفيري؟

آه، إنهم ليتناقصون في كل يوم ويتناقصون أولئك الذين تعمّر قلوبهم شجاعة واندفاع طويلة الأمد؛ أولئك هم الذين يتحلى عقلهم بالصبر أيضاً. أما ما عداهم فجبان.

البقية: هم دوما الكُثر العاديون والفائضون عن اللزوم، الكثيرون بلافائدة ـ هؤلاء كلهم جبناء! ـ

لكن من كان من طينتي فسيلتقي في طريقه بوقائع من تلك التي تحدث لي: بحيث يكون على رفقائه الأوائل أن يكونوا جثثا ومهرجين.

أما رفقاؤه الموالون فسيدعون أنفسهم **المؤمنين** به: كوكبة حية، كثير من الحب، وكثير من الجنون وكثير من الإجلال الطفولي.

ومن كان على شاكلتي في إقامته بين البشر، لن يدع قلبه يرتبط بهؤلاء المؤمنين. لن يدع نفسه يؤمن بمثل هذا الربيع وهذه المروج المزهرة من كان على دراية بالطبيعة الجبانة القُلّب للبشر!

لو كانوا **قادرين** على غير هذا لكانوا **يريدون** إرادة غير هذه. إن

---

(١) مثل يونس في بطن الحوت لثلاثة أيام بإرادة من الربّ. مع فارق أن ليس الحوت هنا، بل الوحدة هي التي ابتلعت زرادشت ـ لكن بإرادته الخاصة.

الأنواع المتأرجحة بين وبين لتفسد كل ما هو كامل. أن تغدو الأوراق ذابلة؛ فأي داع للحزن في ذلك؟

دعهم يمضون ويسقطون أي زرادشت، ولا تشتكي! بل لتنفخ بالأحرى بريح عاتية من تحتهم، ـ

أنفخ من تحت الأوراق، أي زرادشت؛ كي يبتعد كل ذابل من أمامك بأسرع ما يمكن! ـ

* * *

٢

«صرنا ورعين من جديد» ـ هكذا يكون اعتراف هؤلاء المرتدين؛ والكثيرون منهم ليست لديهم حتى الشجاعة على الاعتراف.

أولئك أنظر إليهم في عيونهم، وفي وجوههم أقولها لهم وفي حمرة وجناتهم: إنكم أُلاء الذين عادوا إلى الصلاة.

لكن ذلك هوانا أن يصلّي المرء. ليس هوانا لجميع الناس، لكن لك ولي ولكل من كان له وعيٌ في فكره. هوان **لك أنت**، أن تصلي!

إنك تعلم ذلك جيدا: شيطانك الجبان الذي يسكنك والذي يحلو له أن يبسط كفيه ويصالب يديه، ويرغب في حياة أكثر دعة: ذلك الشيطان الجبان هو الذي يحدثك: «هناك إله في الوجود!».

لكنك هكذا تكون من أولئك الذين يخشون النور، أولئك الذين يقض النور مضجعهم على الدوام؛ والآن عليك أن تدس رأسك كل يوم أعمق فأعمق في الظلام وفي الضباب.

والحقَّ أقول لك إنك قد أحسنت اختيار الساعة الملائمة؛ فطيور

الليل قد خرجت توا من مخابئها، ساعة ذلك النوع الذي يخشى النور؛ ساعة المساء والركون إلى الراحة، حيث لا يركن هؤلاء إلى راحة.

إنني أسمع ذلك وأشتمّه: لقد حلت ساعة خروجهم إلى الصيد والتجوال، لا من أجل اصطياد وحشٍ ضارٍ في الحقيقة، بل صيدا ليّنا سلسا، متلصصا متسلل الخطوة خفيضَ الصوت في التعبّد، ـ

من أجل اصطياد أنفس الجبناء المترعين سماحة قد نصبت مِصْيدات القلوب الآن من جديد! وكلما فتحتُ ستارةً إلا وانفلتت فراشة ليل صغيرة إلى الخارج.

تراها كانت قابعة مع فراشة ليل أخرى؟ ذلك أنني في كل مكان أشتم رائحة طوائف متقوقعة في مخابئها، وحيثما تكون هناك حجرة ضيقة، تكون هناك طائفة متعبدين وعطونة طائفة متعبدين.

يجلسون لليال طويلة إلى بعضهم مرددين: «دعونا نغدو مثل الأطفال الصغارمجددا ونهتف (يا ربّنا العزيز!)»[1]، بينما أفواههم وأمعدتهم قد خرّبتها حلويّات المتعبّدين.

أو هم يقضّون أماس بأكملها في مراقبة رتيلاء بصليب تتربص ماكرة، تكرز في العناكب أيضاً بأحكام الشطارة والحيلة وتعلمهم هكذا: «تحت الصليب يكون النسجُ كأفضل ما يكون!».

أو أنهم يجلسون لأيام عديدة بصناراتهم الملقاة في المستنقعات ويعتقدون أنهم قد بلغوا **العمق**؛ لكنّ كل من يصطاد حيث لا يوجد سمكٌ، فذاك لن أسميه حتى سطحيا!

---

(١) متّى؛ الاصحاح ١٨/ ٣: «الحقَّ أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلو ملكوت السماوات».

أو أنهم، في بحبوحة من الرضى والغبطة في الورع يتعلمون العزف على القيثارة لدى ناظم أغنيات يود من كل قلبه لو أنه يعزف ألحان قيثارته في قلوب الفتيات الصغيرات؛ ذلك أنه ملّ عجائز النساء وترانيم مدائحهن.

أو أنهم يتعلمون رعدة الرهبة لدى فقيه نصف معتوه يقبع داخل غرفة مظلمة منتظرا حلول الأرواح عليه ـ وأن يهجره العقل نهائيا!

أو يستمعون إلى مغنّي أزقة عجوز قلق مغرغر مقرقر، قد تعلم من رياح كئيبة موحشة كآبة الألحان، وها هو الآن يصفر بنغمة معدلة على الريح ويكرز إلى الكآبة بألحان كئيبة.

بل ومنهم من تحولوا إلى قُيّام ليل؛ ولهم الآن دراية بالنفخ في الأبواق والتنقل ليلا يوقظون أشياء عتيقة مستسلمة إلى النوم منذ دهور.

خمس كلمات من تلك الأشياء القديمة سمعتها البارحة عند سياج الحديقة، قادمة من رهط قيّام الليل العجائز المترعين بالكآبة والجفاف.

«بالنسبة لأبٍ، لا أرى أنه يسهر بما يكفي من العناية على أبنائه: إن الآباء البشريين يقومون بذلك على وجه أفضل!».

«إنه عجوز مطوّح في الشيخوخة! لم يعد قادرا حتى على عيالة أطفاله» ـ هكذا أجابه الثاني.

«وهل له أطفال؟» لا أحد يستطيع أن يقيم الدليل على ذلك، إن هو لم يُثبت ذلك بنفسه! لقد كان بودي دائما لو أنه أقام الدليل على ذلك مرة بما لا يدع مجالا للشك».

«يقيم الدليل؟ كما لو أن **ذاك** قد أقام الدليل على شيء في يوم ما! إقامه الدليل أمر يصعب عليه؛ بل همه الوحيد هو أن **يؤمن** الناس به».

«طبعا! طبعا! إن الإيمان يجعله سعيدا؛ أعني الإيمان به هو. تلك هي طريقة العجائز، وكذلك هو الشأن بالنسبة لنا أيضا!» ـ

هكذا كان العجوزان اللذان يقومان الليل وينفران من النور يتحادثان في ما بينهما، ثم انطلقا ينفخان لحنهما الكئيب في بوقيهما: حدث ذلك ليلة البارحة عند سياج الحديقة.

أما أنا فقد كان قلبي يتلوى ويكاد يخرج من صدري لفرط الضحك، لكنه لم يكن يدري إلى أين، فوقع بثقله على الحجاب الحاجز وكاد يمزقه.

الحق أقول لكم إن ذلك سيكون موتتي المحبذة أن أختنق ضحكا وأنا أرى حمارا سكرانا وأسمع قُيّام الليل يعبّرون هكذا عن شكّهم في الله.

أليس هذا الشك أيضاً مما تجاوزته الأحداث منذ أمد بعيد؟ من ترى ما زال يحق له أن يوقظ مثل هذه الأشياء النفورة من الضوء، الخالدة إلى النوم من دهور؟

لقد مضى زمن على نهاية الآلهة القديمة: والحق أقول لكم، لقد كانت لها نهاية جميلة مرحة!

إذ لم تنتظر ساعة «غروبها» لتموت أفولا ـ كذبٌ هذا الكلام حقا[1]! بل إنها، بنفسها قتلت نفسها ـ **ضحكاً!**

---

(١) يطور زرادشت هنا نظرية تيولوجية خاصة وفريدة، بمقتضاها يكون المرور من تعدد=

لقد حدث ذلك عندما نطق بالكلمة الأكثر كفرا إله من بينها - كلمة: «لا إله إلا الواحد أنا! ولا يحق لك أن تتخذ إلهاً من دوني!»[1].

إله عجوز حانق، إله غيور قد ترك نفسه ينساق إلى مثل هذا الكلام؛

وكان أن انخرط الآلهة آنذاك في الضحك متمايلين فوق كراسيهم وهم يصيحون: «أليس من باب الألوهية أن تكون هناك آلهة، وما من ربّ؟».

ومن له أذنان للسمع فليسمع. -

هكذ تكلم زرادشت في المدينة التي يحبها والتي تدعى «البقرة المرقّطة». ولم يكن يفصله سوى يومين من المسير عن الوصول إلى مغارته وحيوانيه؛ لكن روحه كانت تهتز غبطة دون انقطاع لاقترابه من موطنه. -

---

=الآلهة إلى التوحيد ضربا من نفي الألوهية ومعبرا باتجاه الإلحاد. أي أن الديانة هي التي قتلت نفسها بنفسها، لا على طريقة الأفول (أفول الأصنام) كما يرد في أسطورة الأصقاع الشمالية، بل بشبه انتحار. لكنه ضرب من الانتحار الاحتفالي الهازئ: الموت ضحكا - من نفسها. «ومن له أذنان للسمع فليسمع!».

(١) من وصايا الرّب لموسى في سِفر «الخروج» (العهد القديم) الاصحاح ٢٠/ ٢ و٣: «أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبوديّة. لا يكنْ لك آلهةٌ أخرى أمامي».

العودة إلى الوطن(١)

أوه أيتها الوحدة! أنتِ يا موطني! لوقت طويل كنت أحيا متوحشا في الغربة الوحشية؛ طويلا بما فيه الكفاية كي أعود إليكِ دامع العين!

والآن لتتوعّديني بسبابتك كما تفعل الأمهات، والآن لتبتسمي لي كما تبتسم الأمهات وقولي لي: «من ذلك الذي انطلق ذات يوم مثل الإعصار، مبتعدا عني كالعجاجة الطائرة؟ ـ

« ـ ذاك الذي صاح وهو يبتعد منصرفا: طويلا بقيت قابعا في وحدتي حتى أنني نسيت الصمت! أكيد أنك قد تعلمت ـ ذلك ـ الآن؟

«أي زرادشت! إنني أعلم كل ذلك: وأعرف أنك كنت منبوذا هجيرًا بين الكُثر، أنت الوحيد، أكثر مما كنت لديّ!

«فالهجر شيء، وشيء آخر هي الوحدة: والآن قد عرفتَ ـ **ذلك!** وعرفتَ أنك ستكون متوحشا وغريبا على الدوام بين البشر؛

---

(١) يلاحظ القارئ أن بنية الكتاب قائمة على نسق دائري، أو نظام عود دوري: ترحال وعودة من جهة، ومن جهة أخرى: صباح، ظهيرة، عشية، مساء، ليل، صباح. . . . إنها البنية المناسبة لما يسميه نيتشه بـ«فكر الترحال» كمقابل لفكر «المؤخرات الثقيلة»، أو «اللحم القاعد». والترحال يتخذ شكلا دائريا (مطابق للدورة اليومية التي تتأسس على الشروق ثم الغروب، ثم الشروق مجددا فالغروب. . .إلخ)، شيء شبيه بعود أبدي: عود على بدء لا يعرف الراحة. لكنه عود مغالط، إذ كل رحلة جديدة هي إعلان عن مرحلة انتهت وتم تجاوزها، وأخرى لا بد أن تبدأ من أجل إنجاز التجاوز وإحياء جذوة الفكر الذي لا يحيا إلا في «التغلب على ذاته» و«تجاوز ذاته» وإنتاج «ما يفوق منزلته».

«متوحشا وغريبا حتى عندما يحبونك؛ ذلك أنهم لا يريدون في المقام الأول سوى أن **يدارَوْا!**

«أما هنا فأنت في بيتك وموطنك؛ هنا يمكنك أن تتحدث بكل شيء وتفرغ جعبتك على آخرها؛ لا موجب للخجل هنا من الأحاسيس الدفينة الخفية.

«هنا تأتي الأشياء كلها متحننة زلفى إلى خطابك، تتودد إليك؛ ذلك أنها تريد أن تسافر على كتفيك. على صهوة كل مثال تمضي هنا إلى كل حقيقة[1].

---

(١) عندما يجد المتوحد نفسه «في بيته»، أو في وحدته التي هي بيته وموطنه، وقد ابتعد عن لغط السوق عندها يكون بإمكانه أن يرى بوضوح ويفكر بوضوح. هذا الوضوح الفجائي المباغت أحيانا، وهو في الحقيقة نتاج فترة طويلة من التفكير والتأمل، هو ما يسمّى بالإلهام ـ أو الوحي. يوضح نيتشه هذه المسألة بأسلوب شعري ساحر في كتاب **هذا هو الإنسان**، فصل: ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة؟ ـ حول هكذا تكلم زرادشت؛ الفقرة ٣: «إن عبارة الإلهام بما تعنيه من أن شيئا ما يغدو فجأة مرئيا ومسموعا بدقّة ووثوق يستعصيان على الوصف؛ شيء يهزّنا ويرجّنا في الأعماق، لهي التعبير البسيط عن واقع الأمر. يسمع المرء ولا يبحث. يتسلّم ولا يسأل من هو المانح. مثل التماعة برق تومض الفكرة بموجب ضرورة، واثقة لا تعرف التردد ـ لم يكن لي أبدا أن أختار. نشوة عارمة ينفرج توتّرها في فيض من الدموع، نسق الحركة فيها مندفع كالسيل حينا، وبطيء حينا آخر من دون أي تحكّم إرادي؛ حالة غيبوبة، لكن مع بقاء الإدراك الواضح لما لا يحصى من الارتعاشات التي تتخلل الجسد من قمة الرأس حتى إخمص القدمين؛ غمْرُ سعادة حيث أشد أنواع الألم والقتامة لا تتراءى داخلها كنقائض، بل كشيء مناسب ومستدعى، كتلوينة ضرورية داخل هذا الدفق النورانيّ». (. . . .) «. . . . وأغرب ما في ذلك هي تلك الحتمية التي تفرض بها الصورة والاستعارة نفسها؛ يفقد المرء كل سيطرة ذهنية على كنه الصورة والاستعارة؛ إنها تمنح نفسها هكذا مثل التعبير الأكثر طبيعية، الأكثر قربا، والأكثر ملاءمة وبساطة. إنه ليبدو فعلا ـ كي نتذكر عبارة لزرادشت ـ كما لو أن الأشياء هي التي تسعى إلينا مانحة نفسها للتحول إلى رموز؛ «تهرع الأشياء كلها إلى خطابك متحننة زلفى. . . .». تلك هي تجربتي مع الإلهام، ولا أشك في أنه ينبغي الرجوع آلافا من=

«هنا يمكنك أن تتحدث إلى الأشياء كلها بصدق وصراحة؛ والحق أقول لك سيكون لذلك وقع المديح في أذنيها أن يتكلم امرؤ إلى كل الأشياء - دون مواربة!

«لكنْ شيء آخر أن يكون المرء منبوذا. إذ، أما زلت تذكر يازرادشت؟ كيف أن طائرا قد صاح فوق رأسك ذات مرة، عندما كنت تقف في الغاب مترددا لا تدري إلى أين تمضي؟ حائرا دون دراية وشبيها بجثة؛

« - لما نطقتَ قائلا: لتقدني حيواناتي! إنني لأجد الحياة أكثر خطورة بين البشر مما هي عليه بين الدواب: ذلك كان هجرا!

«وهل ما زلت تذكر يا زرادشت؟ عندما كنت تجلس فوق جزيرة بين دِلاء فارغة وآبار خمر، تمنح وتوزع، محاطا بالعطشى، تدلو

=السنين إلى الوراء كي نجد أحدا يحق له أن يقول: «تلك هي تجربتي أنا أيضا».
نيتشه الذي تتنازعه قوتان، تبدوان أحيانا كما لو كانتا تتبادلان الغيرة؛ القوة الأولى هي الأجواء الشاعرية الحالمة المشبعة بالكثير من الروحانية، والثانية هي سلطة المفكر الصارم والعقل النقدي المتجه - مطرقيًا - إلى سبر الأعماق الخفية للمعرفة. إنه بحق المثال النموذجي للفيلسوف الشاعر - الشاعر الفيلسوف. من هنا تغدو الفكرة صورة والصورة أداتها المبجلة الاستعارة. ومن هنا ذلك الهوس بالدقة اللغوية، لكنها غير تلك الدقة المخبرية الجافة للفسفة النظامية المتداولة. بل دقة تنبض حساسية وحميمية. يشعر المرء وكأنه يغازل الكلمات، يداعبها بيد رقيقة خوفا من أن يجرحها، بالرغم من النبرة «المطرقية»، وأصوات «الرعود» و«الصواعق». وهذه العلاقة باللغة ليست ذات طابع أدبي ونتيجة لرؤية شعرية فحسب، بل هي ذات مدلول فلسفي. إذ يعتبر نيتشه الاستعارة من المميزات التي يختلف بها الإنسان عن الحيوان: «تلك القدرة على تبخير (تحويلها إلى بخار) الاستعارات الحدسية داخل رسم تجريدي، أي تذويب صورة في هيأة مصطلح». والمفهوم في نظره «في هياته العظمية ثُمانية الأضلاع مثل نرد ليس شيئا آخر غير بقية من ترسب استعارة».
وأن «التحويل الفني لحالة استثارة عصبية إلى صور لهي أمّ، بل وجدّة كل مصطلح».

وتُدلي؛ «حتى وجدت نفسك بالنهاية تجلس عطشانا بين الثّمالى متذمرا في الليل: «أليس الأخذ أكثر سعادة من العطاء؟ والسرقة أكثر سعادة من التناول»[1] ـ ذلك كان هجرًا!

(١) المنح والعطاء ثيمة قارة في فلسفة زرادشت ستتردد في العديد من المواقع والفصول المختلفة مثل لازمة: «ديباجة زرادشت» (أنظر الهامش ٢)، «في الفضيلة الواهبة»، «قربان العسل»... في فصل «قربان العسل» نقرأ ما يوضح معنى العطاء، أو الهوس بالمنح والعطاء، على هذا النحو: «تكلمت عن قربان وهبة عسل! لم يكن ذلك سوى حيلة من بين أحابيلي الكلامية، وحمقا نافعا في الواقع... أي قربان؟ إنني أبذّر ما يمنح لي، أنا المبذّر بألف يد. كيف يحق لي إذًا أن أسمي ذلك ـ قربانا!». وفي كتاب «**الإنجيل الخامس لنيتشه**» (منشورات الجمل ٢٠٠٣)، يكتب الفيلسوف الألماني المعاصر بيتر سلوتردايك حول فلسفة السخاء لدى نيتشه: «إن جانب الإبداع في هبة نيتشه يتمثل في الاستفزاز للنسج على منواله، حيث يغدو بالإمكان تنشيط المانح من جهة طاقاته العطائية؛ أي من جهة ثروته القادرة على فتح أفق مستقبلية أكثر ثراء. إنه معلم سخاء من حيث هو يبث جرثومة الثراء في متقبّل الهبة الذي لم يعد يرى من موجب لاكتساب ذلك الثراء إلا بالنظر إلى تبديده»... «ينحل التاريخ في زمن اقتصاد التداين وزمن السخاء؛ وفيما يكون الزمن الأول منشغلا على الدوام بالعودة وبتسديد الديْن، لا ينشغل الثاني سوى بالمضي قدما في العطاء..» ذلك أن المانح لا يمكنه أن يكسر طوق العقل الادخاري إلا عبر عملية تبديد ذاتي صرف. إن التبذير اللامحسوب هو وحده الذي يمتلك من العفوية وطاقات التملص والإفلات ما يجعله قادرا على التخلص من جاذبية دائرة العقل الجشع وحساباته. المدّخرون والرأسماليون ينتظرون على الدوام مردودا يفوق ما استثمروه، بينما يجد المانح المبذر متعته ورضاه في البذل دون اعتبار لـ«المحاصيل»... إن ما يسميه نيتشه براءة الصيرورة إنما يعني في الجوهر مجانية الإثراء الذي لا يُسعى إليه إلاّ بهدف تنمية إمكانيات التبديد». لكن الواهب يبيت على الطوى لفرط ما بدد، وعندها يسأل نفسه: «أليس الأخذ أكثر سعادة من العطاء؟ أو ليست السرقة أكثر سعادة من الأخذ؟» فالذي يستلم لا يبدو أنه يلاقي معاناة في التسلم مثل الذي يهب الذي سينبغي عليه الرحيل واللجوء مجددا إلى العزلة ومعاناتها كي يجدد ثراءه ليعود مجددا من أجل عطاء جديد وتبديد جديد. من هنا هذه السلسلة المتواترة من الرحيل والعودة التي أشرنا إليها في الهامش رقم ١ ص٣٤٨. أما السرقة فقد تكون أقل وطأة على نفس الذي يأخذ بهذه الطريقة من وضع الذي يمارس عليه عمل السخاء ويكون متقبلا غير فاعل. فالسرقة على أية حال فعل.

«وهل ما زلت تذكر يازرادشت؟ لما حلت ساعة صمتك الكبرى وفصلتك وأبعدتك عن نفسك، عندما كلمتك همسا خبيثا: «قل كلمتك وتحطّم!» ـ

« ـ وعندما جعلتْ من صمتك وانتظارك شيئا موجعاً وضاعفت من إحباط شجاعتك المحبَطة: ذلك كان هجرًا!» ـ

أواه وحدتي! أيتها الوحدة التي هي موطني! بأية غبطة ورقّة يتحدث إليّ صوتك!

نحن لا نسأل بعضنا، ولا نشتكي من بعضنا؛ بل نمضي صادقيْن مع بعضنا، معا عبر أبواب مشرعة.

ذلك أنه غالبا ما يكون مفتوحا بيتك ونيّرا؛ وحتى الساعات تمضي هي أيضاً على أقدام خفيفة هنا. ففي الظلام يكون الوقت أثقل على المرء مما في الضياء.

هنا تنفتح لي فجأة كل كلمات الكينونة وخزائن الكلمات: كل كينونة تريد أن تغدو كلمة هنا، وكل صيرورة تريد أن تتعلم الكلام مني.

أما هناك، في الأسفل فكل كلام لا طائل من ورائه! هناك يكون النسيان والعبور أفضل الحِكم: الآن تعلمت ـ **ذلك!**

وكل من يريد أن يفهم كل شيء لدى البشر عليه أن يضع يده على كل شيء فيه، لكنّ يديّ أنقى من أن تمتد إلى تلك الأشياء.

إنني لا أحب حتى أن أتنفس من هواء أنفاسهم؛ آواه، عندما أذكر أنني أقمت طويلا بين صخبهم وأنفاسهم الكريهة!

أيها الصمت السعيد من حولي! أيتها الروائح النقية من حولي!

كيف يتنفس هذا الصمت من الأعماق هواء نقيا! آه، كيف يصغي بانتباه هذا الصمت السعيد!

أما هناك، في الأسفل ـ الكل يتكلم هناك، ولا شيء يُسمع. وحتى لو أعلن المرء عن حكمته قرعا بالأجراس، فإن بقالي السوق سيغطون على صوته برنين القروش!

كلٌ يتكلم لديهم هناك، وما من أحد بوسعه أن يفهم شيئا. كل شيء يقع في الماء، ولا شيء يهبط إلى الآبار العميقة.

كلٌ يتكلم لديهم هناك، ولا شيء يبلغ غاية ويأتي إلى منتهاه. الكل يقأقئ، لكن من الذي سيظل يريد أن يجلس صامتا في عشه ويحضن بيضه؟

كلُ يتكلم لديهم هناك، وكل شيء يُلتّ ويعجن. وما كان بالأمس قاسيا على الزمن نفسه وأسنانه؛ تراه يتدلى ممضوغا مهترئا على أشداق المعاصرين.

كلٌ يتكلم لديهم هناك، وكل شيء يفشى سره. وما كان يْدعى سرا في يوم من الأيام وحميمية أرواح عميقة، هو اليوم مشاع لبوّاقي الأزقة وغيرهم من الثرثارين.

أوه أيها الكائن البشري، أنت أيها الخليقة العجيبة! أنت أيها الصخب في أزقة مظلمة! ها أنك الآن تقع بعيدا ورائي مجددا: الخطر الأعظم الذي كان يحدق بي قد تركته ورائي الآن!

في المداراة والشفقة كان الخطر الأعظم المتربص بي على الدوام؛ والكائن البشري بكليته يود أن يدارَى ويُتحمّل.

بحقائق مكبوتة، وبيد طائشة وقلب مولّه، ممتلئا بالأكاذيب الحقيرة للشفقة؛ هكذا كنت أحيا دوما بين البشر.

متنكرا كنت أجلس بينهم، على استعداد لإنكار ذاتي كي أستطيع أن أتحملهم، محاولا إقناع نفسي وأنا أردد: «إنك لا تعرف البشر أيها الأحمق!».

إن المرء ينسى حقيقة الإنسان عندما يقيم بين البشر: هناك واجهات عديدة لدى كل إنسان؛ فما نفع أن يكون للمرء بُعد نظر وعينان توّاقتان إلى المدى الرحب.

وعندما كانوا ينكرونني كنت، أنا الأحمق، أضاعف من مداراتي لهم بسبب ذلك: متعودا على القسوة على نفسي، وفي الآن ذاته منتقما من نفسي في أغلب الأحيان بسبب تلك المداراة.

مدمى بلسع الحشرات السامة ومجوّفا مثل صخرة من كثرة قطر الخباثات، هكذا كنت أجلس بينهم محاولا إقناع نفسي: «بريء هو كل حقير بسبب حقارته!».

أولئك الذين يدعون أنفسهم بـ«أهل الصلاح» على وجه الخصوص، أولئك هم الذين وجدتهم أكثر الحشرات سما: يلسعون بكل براءة، ويكذبون بكل براءة؛ كيف يمكنهم أن يكونوا عادلين ـ تجاهي!

كل من يحيا بين أهل الصلاح تعلمه الشفقةُ الكذبَ. الشفقة تعكر الهواء داخل كل الأنفس الحرة. وإن بلادة الصالحين عميقة لا يسبر لها غور[1].

أن أتستّر على نفسي وعلى ثرائي ـ ذلك هو ما تعلمته هناك، ذلك أنني كنت أجدهم مدقعي العقول جميعا. لقد كان ذلك من باب كذب

(١) **في ما وراء الخير والشر**، الشذرة ٢٢٦: «كل فضيلة تنزع إلى البلادة، وكل بلادة تنزع إلى الفضيلة؛ «بليد حدّ القداسة» يقول الناس في روسيا».

شفقتي أن كنت أحرص على أن أعاين وأتشمم في كل واحد منهم متى يكون مقدار بعينه من العقل **كافياً** بالنسبة له، ومتى يكون هذا المقدار أكثر مما يستطيع أن يتحمل!

أما عن حِكمهم المتحجرة، فكنت أسميها حكيمة وليس متحجرة، ـ هكذا تعلمت كيف أبتلع لساني. وأما حفارو القبور من بينهم فكنت أدعوهم باحثين ومدققين، ـ هكذا تعلمت الخلط بين الكلمات.

حفاروا القبور يصابون بالأمراض من جراء حفريّاتهم. إذ تحت الأنقاض القديمة ترقد أبخرة كريهة.

إنه لا ينبغي تحريك المستنقعات الموحلة. بل على المرء أن يحيا فوق الجبال.

بأنف مبتهج أستنشق من جديد حريّة الجبال! لقد نجا أنفي أخيرا من كل رائحة بشرية!

مدغدَغة بهواء حاد له مفعول شراب ذي ثُمالة تعطس روحي؛ تعطس وتهتف لنفسها: «في صحتك»(*)!

هكذا تكلم زرادشت.

(*) عبارة «في صحتك» تقال عند الألمان عند الشراب، وكذلك للمرء عندما يعطس.

عن الشرور الثلاثة

١

في الحلم؛ في الحلم الصباحي الأخير رأيتني أقف اليوم على جرف من رأسٍ أرضيّ في ما وراء العالم، بيدي ميزان وأنا أزن العالم.

أواه، لِم أقبل الفجر عليّ مبكرا! أيقظني بأشعته المتوهجة ذلك الغيور! غيور هو الفجر دوما من توهج أحلامي الصباحية.

قابلا للقياس بالنسبة لمن لديه متسع من الوقت، قابل للوزن بالنسبة لوزان جيّد، قريب المنال لمن له جناحان قويّان، شفّافا بالنسبة لكل ذي بصيرة ثاقبة فكاك ألغاز متمرّس: هكذا تراءى لي العالم في حلمي.

بحّار مجازف هو حلمي، نصفه سفينة والنصف الثاني إعصار، ساكن مثل فراشة وقليل الصبر مثل صقر من جنس عتيد: من أين له بالصبر إذًا وبمتسع من الوقت كي يجد اليوم متعة في وزن العالم!

ترى هل خاطبته حكمتي سرا، حكمتي الضاحكة التي تستهزئ بكل «العوالم اللامتناهية»؟ ذلك أنها هي التي تقول: «حيث تكون هناك قوة، يكون العدد صاحب اليد الطولى: إذ العدد أكثر قوّة».

بأي وثوق كان حلمي يرى إلى هذا العالم المحدود! لا متلهفا على المستقبل، ولا مهوسا بالماضي، لاهو بالخائف ولا بالمتوسّل:

ـ كما لو أن تفاحة مكتملة النضج كانت تمنح نفسها ليدي، تفاحة ذهبية بقشرة طرية رقيقة ناعمة الملمس؛ هكذا كان العالم يمنح نفسه لي:

كما لو أن شجرة كانت تومئ لي، شجرة بأغصان متينة، صلبة عنيدة، منحنية تمنح جذعها متكأً لذراع المسافر المتعب، وموطئا تستريح عليه قدمه: هكذا كان العالم يتراءى لي من موقعي فوق الرأس الأرضي الناتئ:

كما لو أن يدين لطيفتين كانتا تعرضان على عيني علبة عجيبة، علبة مفتوحة على أشياء تفتن العين المعجَبة الحييّة: هكذا كان العالم يمنح نفسه لي في هذا اليوم:

أقلّ إلغازا مما يكفي لتنفير الحب البشري، وأقل وضوحا مما يكفي لتخدّير الحكمة البشرية: شيئا إنسانيا حسنا بدا لي اليوم هذا العالم الذي يُذكر بكثير من السوء!

كيف أعبّر عن امتناني لحلمي الصباحي الذي جعلني أزن العالم في تلك الساعة المبكرة! مثل شيء إنسانيّ حسنٍ أطل عليّ ذلك الحلمُ والعزاء الذي يثلج القلب!

ولكي أنسج على منواله في نهاري هذا وأتعلم عنه وأحاكيه في أفضل ما لديه؛ أود الآن أن أضع الشرور الثلاثة في كفة الميزان وأزنها جيدا بطريقة إنسانية.

إن من تعلم كيف يبارك، قد تعلم كيف يلعن أيضا: فماهي

الشرور الثلاثة التي تقع عليها اللعنة أكثر من غيرها في هذا العالم؟ هذه الشرور الثلاثة أريد أن أضعها في كفة الميزان.

الشهوانية، وحبّ السيادة، وإيثار الذات: هذه الثلاثة هي التي ظلت إلى حد الآن ما يحظى باللعنات أكثر من أي شيء، وبأسوأ عبارات الشجب والتشويه، ـ هذه الأشياء الثلاثة هي التي أريد أن أزنها جيدا بميزان الإنسانية.

إلى الأمام إذًا! هنا جرفي الناتئ وهنا البحر يندفع مدحرجا نفسه نحوي متقلبا، أشعث، متملقا متمسحا، ذاك الوحش الوفي ذو المائة رأس، الذي أحبه.

إلى الأمام! هنا أريد أن أمسك بالميزان فوق البحر المتقلب: وسأختار لي شاهدا يراقبني؛ سأختارك أنت أيتها الشجرة المتوحدة، أيتها المتضوعة بعطر دسم قوي، المنبسطة قبة عريضة، أنتِ التي أُحب!

فوق أي جسر يمضي الحاضر باتجاه المستقبل؟ وبموجب أية ضرورة يرغم الأعلى نفسه على الهبوط إلى الأسفل؟ وما الذي يدفع الأعلى إلى مزيد النمو ـ نحو أعالي أعلى؟ ـ

والآن هو ذا الميزان ينتصب متوازنا وثابتا: ثلاثة أسئلة ثقيلة وضعتها في الكفة الأولى، وفي الكفة الثانية ثلاثة أجوبة ثقيلة.

٢

الشهوة: الأشواك هيَ والخازوق بالنسبة لكل الملتفعين بعباءات التوبة الخشنة المستهزئين بالجسد؛ كـ«دنيا» تحل عليها لعنة كل المولعين بالماوراء، ذلك أنها تسخر وتستهزئ بكل معلّمي التشويش والضلالات.

الشهوة: النار البطيئة هي بالنسبة للأوغاد يُشوون بها ويحترقون؛ فرن النيران المتأجّجة الفائرة لكل خشب مسوّس ولكل الخرق النتنة.

الشهوة: حرة وبريئة هي بالنسبة لكل القلوب الحرة؛ جنان السعادة الأرضي وفيض امتنان المستقبل للحاضر.

الشهوة: السم الحلو بالنسبة لكل ذابل فقط، لكنها الشراب المنعش للقلب وممتّن العزائم بالنسبة لذوي الإرادة الأسديّة، ورحيق الرحيق من الخمرة المحفوظة بعناية وإجلال.

الشهوة: مثال سعادة ورمز لسعادة أرقى ولأسمى الآمال. وللكثيرين وعد بعرس هناك حقا، وبأكثر من العرس، ـ

ـ للكثيرين، من الغرباء بعضهم عن بعض أكثر مما يكون الرجل غريبا عن المرأة: ومن ذا الذي يدرك جيداً كم غريبان عن بعضهما هما المرأة والرجل!

الشهوة! ـ غير أنني أريد أسيجة أضربها حول أفكاري، بل وحول كلماتي أيضا؛ كي لا تقتحم جنانيَ الخنازير والجوارن![1][*].

توق النفس إلى السيادة: السوط المحمّى الذي يجعل القلوب

---

(١) استحضار للمقولة الإنجيلية: «لا تلق بلآلئك إلى الخنازير».

(*) هناك التباس في عبارة Schwärmer الألمانية التي تعني المندفع، والمتحمس، والحالم، أو الذي يحلق في الأوهام، كما تعني أيضاً الجِارن وهو ابن الحية وكذلك نوعا من الفراشات من المناطق المدارية. وفي هذا السياق بالذات يمكن للمدلولَيْن كليهما أن يكونا مطابقين للمقصود. ومع ذلك فضلنا الميل إلى عبارة الجوارن حفاظا على التناسب مع عبارة الخنازير السابقة. والأمر يتعلق على أية حال باستعارة؛ إذ كما أن المقصود من الخنازير ليست فصيلة الخنازير البيولوجية، بل الدلالة المعنوية التي تتضمنها، فإن المقصود من الجوارن أيضاً هي «أبناء الأفاعي» في دلالتها المعنوية، وهم دون شك المتأجّجون بالأطماع الرخيصة.

القاسية أكثر قسوة؛ العذاب الأكثر فظاعة الذي ينتظر حتى أكثر الفظيعين فظاعة؛ اللهب القاتم لمحرقةٍ حطبُها من الأحياء. ـ

التوق إلى السيادة: الكابح الفظيع المسلّط على الأمم الأكثر غرورا؛ الهزء الذي يُقذَف به في وجه كل فضيلة مشبوهة؛ وهي الفضيلة التي تمتطي صهوة كل جواد وكل كبرياء.

التوق إلى السيادة: الزلزال الذي يكسر ويفتت كل خائخ ومجوّف؛ المضطرِب المدمدِم المعاقِب الذي يحطم كل القبورِ المطليّة؛ نقطة الاستفهام الصاعقة أمام كل جواب سابق للأوان.

التوق إلى السيادة: تحت نظره يزحف الإنسان ويركع وينحني ويخفض جناح الذلّ ويغدو أحط من ثعبان أو خنزير: إلى أن يصعد صراخ الاحتقار الأكبر من داخله بالنهاية ـ ،

التوق إلى السيادة: المعلم الفظيع الذي يلقن الاحتقار الأكبر ويكرز في وجه المدن والممالك: «لتضمحلّي!» ـ إلى أن يصعد صوت من داخلها هي نفسها: «لأضمحلّ!».

التوق إلى السيادة: مغر مع ذلك، يصعد حتى موطن النقيّين أيضاً والمتوحدين وأبعد حتى الأعالي الشامخة، متوقدا مثل صبوة عشق ترسم إغراءاتها معالم غبطة قرمزية على صفحة السماء.

التوق إلى السيادة: لكن من الذي يمكن أن يسمي ذلك **توقاً** في حين أن الأعلى هو الذي يتوق من علياته إلى النزول إلى موقع السيادة! حقا أقول لكم، ليس هناك ما هو مرض وإدمان في مثل هذا التوق وهذا النزول!

أن لا تخلد الأعالي المتوحدة إلى وحدتها وتقنع بها إلى الأبد؛ أن يهبط الجبل إلى الوادي ورياح الأعالي إلى المنخفضات:

أواه من الذي يمكنه أن يجد إسم المعمودية والفضيلة لمثل هذا التوق؟ «الفضيلة الواهبة» ـ هكذا سمّى زرادشت ذات مرة ذلك الذي لا إسم له.

وقد حدث آنذاك أيضاً ـ ولأول مرة في الحقيقة! ـ أن نطقت كلمته بمديح الأنانية: **الأنانية** الصحية، الجيدة التي تنبع من أعماق الأنفس القوية:

من نفس قوية ينتمي إليها الجسد السامي الجميل الظافر والممتع الذي يتحول كل شيء من حوله إلى مرآة:

الجسد المرن ذي البيان الساحر، الراقص الذي يكون رمزه وخلاصته في النفس التي تجد متعتها في نفسها(*). تلك المتعة الأنانية الجسدية والروحية هي التي تسمّي نفسها: «فضيلة».

(*) مرة أخرى نجدنا أمام عبارة أخرى من تلك التي يجترحها نيتشه لقاموسه الخاص ضمن عملية تركيب معهودة ـ في اللغة الألمانية، لكنها غريبة لفظا. والعبارة التي تعنينا هنا هي selbst - lustig وتعني حرفيا الذي يشتهي نفسه، وكذلك الذي يجد متعة في نفسه، ثم من بعدها عبارة Selbst - Lust وتعني الاشتهاء الذاتي، كما تعني المتعة التي يجدها المرء في نفسه أو في حبّ نفسه. فعبارة Lust في حد ذاتها ذات معنيين مختلفين فهي: اللذة والمتعة حينا والشهوة حينا آخر بحسب السياق الذي ترد فيه. بينما lustig وهي صفة ترد غالبا ضمن تركيبة مع كلمة أخرى (تكون إسما) لتدل على ولع امرء ما بشيء، مثل المولع بالشراب مثلاً: trinklustig أو محب المغامرات (المغامر): Abenteuerlustig، أو الذي يتمتع بروح المبادرة: Unternehmungslustig. وهكذا يكون لعبارة Selbstlust هنا معنى ذو مدلولات عديدة متداخلة فهي الأنانية وحبّ الذات وفي الآن نفسه المتعة التي يجدها المرء في الأنانية وفي حبّ الذات. وقد أدخل هذا المصطلح الغريب كثيرا من البلبلة على=

وبكلماتها عن الحَسن والسيّء تحمي تلك المتعة الأنانية نفسها كما لو كانت تحتمي بغابة مقدسة، وبالإسم الذي تعطيه لسعادتها تدفع عنها كل ما هو حقير.

كل **ما هو جبان** تطرده عنها، وتقول: سيّء - كل ما هو جبان! حقيرا يتراءى لها كل مهموم كثير التنهد والمتذمر والذي يلقُط المنافع الصغيرة.

تحتقر كل حكمة متفجعة أيضاً، إذ الحق أقول لكم، هنالك أيضاً حكمة تينع في الظلام، حكمة أشباح ليلية لا تكف عن التنهد: «الكل باطل!»[1].

وضيعة الشأن لديها كل ريبة وجلة، وكل من يفضّل عهودا معقودة على نظرات ومصافحات باليد؛ وكذلك كل حكمة مفرطة في الريبة - إذ ذلك هو نوع النفس الجبانة.

=المترجمين الفرنسيين الذين ينقل عنهم مترجمونا العرب، فذهبو كل إلى معنى من المعاني المتداخلة ضمن هذه الصيغة اللفظية الغريبة. ومثل هذه العبارات تشكل دائما إشكالا أمام المترجمين الذين لا يجدون لها مقابلا، أو معادلا في لغتهم الخاصة، خاصة أن اللغة الألمانية تمتاز باعتمادها التركيب اللفظي في صياغة الكثير من العبارات، الأمر الذي يجعل الترجمة الحرفية (أي بالحفاظ على الصيغة المركبة) غير ذات معنى في أغلب الأحيان، لكن ترجمة المعنى قد تبدو في أحيان كثيرة قاصرة عن الإيفاء بالتضمينات والتلميحات التي يحب نيتشه اللعب عليها في لغته الخاصة به. لذلك نورد هنا من حين لآخر بعض التفسيرات اللغوية بالاعتماد على الأصل كي يكون القارئ العربي على بينة من الحركات الداخلية الخفية التي تعتمل داخل عبارة قد تبدو ذات سطح راكد لو أننا قدمناها في صيغتها المعربة، ومن دون تعليق. كي يمكن لهذه التوضيحات أن تساعد غيرنا على الاهتداء إلى عبارة أكثر توفيقا مما توصلت إليه جهودنا هنا؛ وهو ما نحبذه ونتمناه.

(١) مواعظ سليمان بن داود ملك أورشليم، الجامعة الاصحاح١/ ٢: «باطل الأباطيل قال الجامعة. باطل الأباطيل الكل باطل».

وأقل شأنا لديها سريعُ المودّة، ذو طبع الكلاب، الذي سرعان ما يستلقي على ظهره، المُتواضع؛ لأن هناك أيضاً حكمة متواضعة وبطبع الكلاب، وورعة وسريعة المودة.

منبوذ لديها كليا ومقرف من لا يروم الدفاع عن نفسه، الذي يبتلع اللعاب المسموم ونظرات السوء، المفرط في الصبر، الذي يتحمل كل شيء ويقبل بكل شيء؛ إذ ذلك حقا هو طبع العبودية.

سواء لديها أكان المرء خاضعا لعبودية الآلهة والركلات الإلهية، أم للبشر ولأفكار بشرية بليدة؛ فتلك الأنانية المباركة تبصق على كلّ أنواع العبودية!

سيء: هكذا تسمي كل محنيٍّ ثاني الركبتين، زاحف خاضع، رامش العين باستسلام وخضوع، مدعوك القلب، وذلك النوع المتنازل المُصالِح الكاذب الذي يقبّل ملء الفم بشفتين جبانتين.

حكمةً مزيّفةً؛ هكذا تسمي كل ما يتلاغى به العبيد والعجّز والمتعبون؛ وعلى وجه الخصوص مجمل الحمق القساوسيّ الخطير المشين المضحك والمستهتر بالعقل السليم!

هؤلاء الحكماء المزيفون وكل القساوسة والمتعبون من الحياة، والذين لأنفسهم طبع الأنثى والعبيد! ـ ولكم ظلت الأنانية على الدوام ضحية لإساءات ألاعيبهم!

أهذا بالذات ما يريد أن يكون فضيلة وينبغي أن يسمى فضيلة؛ أن يساء إلى الأنانية بهذه الألاعيب؟! و«نكران الذات»؟ ـ إن ذاك هو ما يتمناه لأنفسهم، ولسبب مفهوم، كل أولئك المتعبين من الحياة والجبناء وعناكب الصلبان!

لكن هي ذي الساعة قد حلت بالنسبة لكل هؤلاء؛ يوم الميعاد، ومنعرج التحول وسيف القاضي، **والظهيرة العظمى**: ساعة سيُكشف فيها الكثير!

ومن سيعلن الأنا معافاة ومقدسة والأنانية مباركة، ذاك سيتكلم إذًا بما يعلم، كما الرائي: «**أنظر، إنها قادمة، إنها قريبة، ساعة الظهيرة العظمى!**».

هكذا تكلم زرادشت.

عن روح الثقل

١

لساني ـ هو لسان الشعب: كلاما خشنا أتكلم وبقلب مفتوح أكثر مما ينبغي بالنسبة للأرانب الناعمة. وبأكثر ما تكون الغرابة ترنّ كلماتي في آذان أمّ الحِبر وثعالب الريشة والقرطاس(*).

يدي ـ يدُ أحمق: والويل لكل الموائد والجدران وكل ما يمنح نفسه لزخرف الحمقى وخربشات المجانين!

قدمي ـ حافر حصان؛ أخبّ وأركض طولا وعرضا عبر الجبال والوعار؛ مسكونا بشيطان متعتعٍ متعةً أغدو في ركضي السريع.

معدتي ـ أهي حقا معدة صقر؟ ذلك أنها تفضل لحم الخرفان على كل أكل. لكنها بالتأكيد معدة عصفور مع ذلك.

مغذّى بأطعمة بريئة، وبما قلّ، متأهبا نافذ الصبر أرنو إلى الطيران، إلى الجنوح، إلى الفرار ـ ذلك هو طبعي؛ فكيف لا يكون لي في هذا شيء من طبع الطيور إذًا!

(*) تعمدنا هنا اختيار الترجمة الحرفية باستعمال عبارات: الأرانب الناعمة وأمّ الحبر وثعالب الريشة من أجل تبليغ الصورة الساخرة التي يستخدمها نيتشه من ذوي الطباع المترقّقة والكتَبة وأصحاب القرطاس والقلم عامة؛ أولئك الذين يكون لكلماته العارية من كل مجاملة وحذلقة وقع جارح في أذنيهم.

أضف إلى ذلك أنني عدو روح الثقل، وذلك من طبع الطيور؛ وإنني حقا عدوّه اللدود، عدوّه القاطع، عدوّه الأبدي! أواه إلى أين لم تمض عداوتي وفي أية أرجاء لم تته بي!

وإنني لأستطيع أن أغني نشيدا في هذا الأمر ـ بل أريد أن أغنيه؛ وإن كنت لوحدي في بيت مقفر سيكون علي أن أغني لنفسي.

هناك طبعا مغنّون آخرون لا يرطّب حناجرهم ويطلق إيقاع أيديهم ويجعل عيونهم معبّرة وقلوبهم صاحية غير بيت ممتلئ بالمستمعين: أولئك ليسوا من نمطي. ـ لكنني لست من هذا الرهط. ـ

٢

إن الذي سيعلم الناس الطيران في يوم ما سيكون عليه أن ينجح أولا في زحزحة كل أحجار الحواجز؛ وستتطاير أحجار الحواجز من أمامه، وسيعمّد الأرض من جديد ـ باسم «الخفيفة».

إن النعامة أسرع عدْوا من أكثر الجياد سرعة، لكنها تدك رأسها في الرمل الثقيل أيضا: كذلك يكون الإنسان الذي لم يتعلم بعدُ الطيران.

ثقيلة هي الأرض والحياة في نظره؛ وذلك هو ما يريده روح الثقل! لكنّ من يريد أن يغدو خفيفا ويصبح طائرا، عليه أن يحبّ نفسه: ذلك هو مذهبي الذي أكرز به.

لكن حبًّا آخر طبعا، غير حبَّ المرضى والمتلهّفين؛ إذ برائحة كريهة يفوح حب الذات لدى هؤلاء!

على المرء أن يتعلم كيف يحب نفسه ـ كذا هو مذهبي الذي

أعلمكم ـ حبا معافى وصحيا، كي يركن المرء إلى ذاته ولا يبدد نفسه في كل فجّ.

«محبة الغير»، هكذا يعمّد نفسَه مثلُ ذلك التيه: وبمثل هذه العبارة نُسجت أكبر الأكاذيب وشتى ضروب النفاق، خاصة من قِبل أولئك الذين كانوا يرزحون بثقلهم على العالم بكليته.

والحق أقول لكم، إن هذه ليست وصيّةً لليوم وغداً، أن **يتعلم** المرء كيف يحب نفسه. بل هي الفن الأكثر رهافة ومكرا من بين الفنون جميعها، وآخر الفنون وأكثرها أناةً.

ذلك أن الممتلَك الخاص هو أكثر الأشياء خفاء على مالكه؛ وآخر ما يكتشف المرء من الكنوز جميعِها هو كنزه الخاص، ـ ذاك هو فعل روح الثقل.

من المهد تقريبا نلقَّن عبارات وقيما ثقيلة الوطء من خلال هاتين القيمتين: «خير» و«شرّ» ـ إذ ذلك هو الإسم الذي تُسمى به ضريبة الحياة. وبمقابل هذا الثمن يُغفر لنا أن نكون أحياء.

ثم إنهم يدَعون الأطفال يأتون إليهم(١) كي يمنعوهم في الوقت المناسب من أن يتعلموا حب أنفسهم؛ هكذا يفعل روح الثقل.

ونحن؟ ـ إننا نحمل بكل أمانة ذلك العطاء على أكتافنا المتصلبة، نجرجره فوق الجبال القاحلة! وإذا ما تصببنا عرقا يقال لنا: «نعم، إن الحياة عبء ثقيل!».

---

(١) متّى؛ ١٩/ ١٤: «أما يسوع فقال دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السماوات».

لكن الإنسان وحده هو العبء الثقيل على نفسه! ذلك أنه يضع الكثير من الأشياء الغريبة على كتفيه. مثل الجمل يجثو على ركبتيه ويسلم ظهره طوعا للأحمال.

والإنسان القوي الصبور على وجه الخصوص، الإنسان المسكون بمشاعر الاحترام، هو الذي يثقل كاهله بالكثير من الكلمات والقيم الثقيلة والغريبة ـ وإذا الحياة تتراءى له صحراء قاسية.

وفي الحقيقة، إن الكثير من الممتلكات الخاصة عبء ثقيل على الإنسان! والكثير مما في داخل الإنسان شبيه بالمحار؛ مقرف لزج ومستعص على القبض ـ ،

الأمر الذي يجعل من الصَدَفة البهيّة بزركشاتها الفاخرة شفاعة ضرورية لذلك الداخل. لكن على المرء أن يتعلم إتقان هذا الفن أيضا: أن يكون ذا قشرة ومظهر جميل وعماءٍ حكيم!

لكن كثيرا ما يقع المرء في مغالطة الأشياء في تقديره للإنسان، كأن تكون بعض الأصداف حقيرة وبائسة وقشرةً أكثر مما ينبغي. والكثير من الأشياء الطيبة والطاقات الخفيّة تظل مغمورة لا تُكتشف أبدا؛ وكثير من الطيّبات لا تجد لسانا يتذوقها!

النساء وحدهن يعرفن تلك القطع الجيّدة الطيبة: قليلا من الشّحم، وقليلا من اللحم النقي ـ أوه كم من المصائر مرهونة بمثل هذا القليل!

إن الإنسان متعذر على الاكتشاف، وأصعب من ذلك هو اكتشافه لنفسه؛ وغالبا ما يكذب العقل في شأن النفس. ذلك هو صنيع روح الثقل.

لكنّ ذلك الذي اكتشف نفسه هو الذي يتكلم هكذا: هذا خيري

أنا وشرّي **أنا**؛ وبذلك ألجمَ لسان الخُلْد والقزم الذيْن يقولان: «خير الجميع، شر الجميع».

الحقَّ أقول لكم، إنني لا أحب أيضاً أولئك الذين يجدون جميع الأشياء حسنة وهذا العالم أفضل العوالم جميعا(١). أولئك أسمّيهم الراضون عن كل شيء.

وهذا الرضى المطلق الذي يستطيع أن يستطيب كل شيء، ليس بالذوق الرفيع! إنني أحترم الألسن والمعِدات الحرِنة الانتقائية، تلك التي تعلمت كيف تقول «أنا» و«نعم» و«لا».

أما مضغ وهضم كل شيء ـ فذلك من طباع جنس الخنازير الصرف! وأن يظل المرء يقول على الدوام: إي ـ آ!(*) ـ فذلك ما لا يتعلمه سوى الحمار، وكل ذي عقل حمار! ـ

الأصفر العميق والأحمر الحارّ: هكذا يبتغي ذوقي **أنا** الذي يمزج

---

(١) إشارة إلى فلاسفة القرن الثامن عشر (فولتير، ديدرو، روسو، وليسينغ...) الذين كانوا يقولون بمقولة أن «عالمنا هذا هو أفضل العوالم الممكنة» ـ 'le meilleur des mondes possibles'، إلى أن حدث زلزال لشبونة الرهيب فتزعزع هذا المعتقد لديهم. أنظر صدى ذلك الارتباك الذي حصل للفلاسفة آنذاك في قصة «صادق» لفولتير على سبيل المثال.

(*) نهيق الحمار الذي يعبر عنه في الألمانية بمقطعين صوتيين هما: I - A وهو نفس التصويت الذي تحدثه عبارة Ja التي تعني «نعم». يستعمل نيتشه كثيرا هذه العبارة لاعبا على الالتباس الذي يحدثه التطابق الصوتي بين نعم ونهيق الحمار. نعم الحمار هي الوجه السلبي للإثبات، هي المباركة وإعلان الطاعة عملا بمقولة «ليكن قولك دوما نعم نعم». وبالرغم من أن نيتشه يلح كثيرا على مبدأ الاستجابة الإثباتية التي يعبر عنها بما انتحته لها في عبارة Bejahung وتعني حرفيا: الإجابة بنعم، فإنه يقيم فرقا بين النعم الإثباتية التي تستجيب إلى الحياة بالاثبات و«نعم» الحمار، أو نعم القطيع، وهي في نظره ضرب من النفي المقنّع: نفي للحياة وإثبات للأخلاق والدين والتبتل، نفي للقوة وإثبات للضعف والوهن، نفي للنفي الصحيّ، أي لقدرة العقل الحر الذي يستطيع أن يقول الـ«لا المباركة».

كل الألوان بالدم. أما من يطلي بيته بالأبيض فذاك يفشي لي عن روح مزوّرة الطلاء[1].

البعض منهم يعشقون مومياء والبعض الآخر أطيافا؛ والنوعان معا عدوان لكل ما هو لحم ودم ـ أواه لكم تشمئز ذائقتي من هذين الرهطين! ذلك أنني أعشق الدم.

وأنا لا أريد العيش والإقامة هناك حيث يبصق الجميع ويتقيأون؛ ذلك هو ما يمليه عليّ ذوقي، ـ بل إنه لأحب إليّ أن أعيش بين اللصوص وشاهدي الزور. إذ ما من أحد بفم مليء ذهبا!

لكن يقرفني أكثر المتملقون؛ وأكثر الدابّة البشريّة إثارة للقرف من كل ما التقيت عمّدتها بالطفيليّ: تلك التي لا تريد أن تحبّ لكنها تحب أن تطلب نفعاً من الحبّ.

تعساء أسمّي كل أولئك الذين لا خيار لهم سوى هذا الخيار: أن يغدوا حيوانات شرسة أو مدجّني حيوانات شرسين: أبدا لن أبني لي كوخا[2] للسكن بين هؤلاء.

تعساء أسمي أيضاً أولئك المؤبّدين في **الانتظار** ـ إن ذائقتي تشمئز من جميع هؤلاء: كل الجمركيين والبقالين والملوك وجميع أنواع حراس البلدان والدكاكين.

الحقَّ أقول لكم، لقد تعلمت الانتظار أيضاً وبصفة جذرية، ـ لكن

---

(١) أنظر متّى؛ الاصحاح ٢٣/ ٢٧: «ويلٌ لكم أيها الكَتبة والفريسيّون المراؤون لأنكم تشبهون قبورًا مبيّضةً تَظهر من خارجٍ جميلةً وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكلّ نجاسة».

(٢) أنظر «عن القساوسة» من الجزء الثاني، وكذلك الهامش رقم٢ ص١٧٧.

انتظار **نفسي** فقط. وقد تعلمت بصفة أخص أن أقف وأمشي وأركض وأقفز وأتسلق وأرقص.

لكن هذا هو المذهب الذي أكرز به: من يريد أن يطير في يوم ما، عليه أن يتعلم أولا كيف يقف ويمشي ويركض ويتسلق ويرقص: إذ لا يمكن للمرء أن يطير إلى الطيران!

بسلالم من حبال تعلمت تسلق الكثير من النوافذ، وبرجلين خفيفتين تسلقت صواري عالية: وإن الجلوس فوق الصواري العالية للمعرفة لم يبد لي سعادة يستهان بها، -

- مثل شعلات صغيرة تخفق فوق صوار عالية: نور ضئيل بالتأكيد، لكنه عزاء كبير بالنسبة للسفن التائهة والغرقى[١]!

عبر دروب كثيرة وبطرق متعددة وصلت إلى حقيقتي؛ وليس بسلم واحد ارتقيت إلى هذه القمة التي تسرح من فوقها عيني وتتجول في آفاق بعيدة.

على مضض دوما كنت أسأل عن الطريق، - إن ذلك مما كانت تنفر منه ذائقتي دوما! بل أَحبّ إليّ دوما أن أسأل وأجرب الطرق نفسها.

---

(١) عن الشعلة التي يحترق بها العارف لكنها تمثل عزاء لكل المبحرين في المحيطات البعيدة (سالكي طريق المعرفة)، أنظر ديثيرامبوس ديونيزوس (الأناشيد المدائحية لديونيزوس) Dionysos - Dithyramben: قصيدة «علامة النار» - زرادشت هو الذي «يولع شعلة سخريته» وهي «علامة للبحارين المتمرسين» و«علامة استفهام لأولئك الذين يملكون الجواب» / «حيةٌ منتصبة على ذيلها وقد نفذ صبرها»/ «روحي ذاتها هي هذه الشعلة/ لا يطفأ لها ظمأ إلى أقاص جديدة».

تجربة وسؤالا كانت مسيرتي على الدوام: وحقا، على المرء أن يتعلم أيضاً أن يجيب على مثل هذه الأسئلة! ذلك هو ذوقي حقا:

ـ لا هو بالجيّد ولا هو بالرديء، لكنه ذوقي الذي لا أنا أخجل من جرائه، ولا أنا أتكتّم عليه.

«هذا ـ هو طريقي ـ فأين طريقكم؟» هكذا كنت أجيب أولئك الذين كانوا يسألونني «عن الطريق». ذلك أن **الـ**طريق ـ لا وجود لها البتّة.

هكذا تكلم زرادشت

عن الألواح القديمة والألواح الجديدة

١

هنا أجلس وأنتظر، وحوالي ألواح قديمة مهشّمة وكذلك ألواح جديدة نصف مكتوبة[١]. متى ستحل ساعتي يا ترى؟

ساعة هبوطي وانحداري: ذلك إنني أريد أن أذهب مرّة أخرى إلى الناس.

ذلك هو ما أنتظر الآن: لأنه لا بد أن تأتيني العلامات بأن ساعتي قد حلت: الأسدُ الضاحك ومعه سرب الحمام.

وفي الأثناء أتحدث إلى نفسي مثل واحد لديه متسع من الوقت. لا أحد يحدثني بجديد؛ وهكذا فإنني أحدث نفسي بالجديد. -

٢

عندما أتيت إلى الناس وجدتهم يجلسون على غرور قديم: جميعهم يعتقدون أنهم يعلمون منذ زمن طويل ما هو خير للإنسان وما هو شر.

---

(١) في كنّشات خريف ١٨٨٣ نقرأ في الشذرة [٥٠]١٨: «إنني مشرّع، أخط قوانين جديدة على ألواحي: وأنا القانون بالنسبة للمشرع نفسه، واللوح ونداء المبشّر».

شيئا قديما متعَبا كان يتراءى لهم كل كلام عن الفضيلة؛ ومن كان يريد أن ينام نوما جيدا، كان يتكلم عن «الخير» و«الشر» قبل الذهاب إلى النوم.

لكنني أربكت نعاسهم وشوّشته عليهم عندما رحت أعلّم: **لا أحد يعرف** ما هو خير وما هو شرّ ـ عدا أن يكون مبدعا[1]!

ـ لكنّ ذلك هو الذي يبدع هدف الإنسان ويمنح الأرض معناها ومستقبلها: وذاك فقط هو الذي يجعل من شيء ما خيرا أو شرا.

ثم إنني أمرتهم بأن يقلبوا كراسي معلميهم القديمة، وكل ما كان يتربع عليه غرورهم العتيق؛ ودعوْتهم إلى الضحك من معلّم فضيلتهم الأكبر وقديسهم وشاعرهم ومخلّص العالم.

دعوتهم إلى الضحك من حكمائهم القاتمين وكل من جلس مثل الفزاعة السوداء فوق شجرة الحياة محذّرًا متوعّدا.

وجلست في الممر الكبير لمقبرتهم بالقرب من الجيف والنسور[2] ـ وضحكت من كل ماضيهم ومجده المهترئ المتعفّن.

حقا، مثل كل وُعّاظ الكفّارات والحمقى المهرجين رحت أصرخ وأصب جام حنقي على عظيمهم وحقيرهم؛ معلنا أنّ أفضلهم على درجة من الصغر والحقارة! وأن أكبر أشرارهم بمثل هذا الصغر والحقارة! ـ هكذا كنت أضحك!

هكذا كان شوقي الحكيم يصرخ من داخلي ويضحك، شوقي الذي

---

(١) في المسودات (ضبط مونتي وكولليناري) يضيف نيتشه في هذا الموضع: «... المبدع، هو ذلك الذي يصنع المستقبل».

(٢) متّى؛ الاصحاح ٢٤/٢٨: «لأنه حيث تكون الجثّة هناك تجتمع النسور».

وُلد فوق الجبال؛ حكمة متوحشة حقا! ـ شوقي الكبير ذو الجناحين المصطفقين.

وغالبا ما ينتشلني شوقي بعنف في غمرة الضحك ويطير بي بعيدا عاليا: وأطير عندها مرتعشا خافقا، سهما ينطلق عبر نشوة سكرى برحيق الشمس.

ـ بعيدا داخل أصقاع مستقبلية نائية لم تتراء بعد لأي حلم، في الجنوب الأكثر حَرًّا مما يمكن أن يحلم به أيّ من الفنّانين: إلى هناك، حيث ترقص آلهة تخجل من كل لباس:

ـ كي أرى نفسي أتكلم بأمثالٍ وأعرج وأُلجلج مثل الشعراء؛ والحقَّ أقول لكم، إنني أخجل لكوني مازلت شاعرا(١). ـ

هناك حيث كل صيرورة كانت تتراءى لي رقصَ آلهة ومعابثات آلهة، والعالم منطلق جذلان فارّ إلى نفسه:

ـ مثل فرار أبدي وبحث عن الذات لآلهة عديدة، آلهة عديدة تناقض بعضها وتصغي إلى بعضها وتلتئم مع بعضها في غبطة عارمة:

ـ حيث الزمن يتراءى لي استهزاء سعيدا باللحظة، وحيث الضرورة هي الحرية نفسها، مغمورةً غبطةً بمداعبة أشواك الحرية:

ـ هناك حيث التقيت مجددا بشيطاني القديم أيضاً وعدوي اللدود، روح الثقل وكل ما ابتدعه من: إكراه وتشريع وحاجة ونتيجة وغاية وإرادة وخير وشر:

---

(١) أنظر ما ورد في فصل «الشعراء» من أن «الشعراء يكذبون كثيرا»، «كما أننا قليلوا معرفة، ونحن متعلّمون رديئون علاوة على ذلك: لذلك ينبغي علينا أن نكذب». أنظر أيضاً الهامش رقم ٢ ص٢٥٠.

ألا ينبغي فعلا أن تكون هناك تلك الأشياء التي نرقص فوقها ونمر فوقها ونتجاوزها راقصين؟ ومن أجل الخفيفين والأكثر خفة، ألا ينبغي أن تكون هناك خُلديّات وأقزام ثقيلة؟

٣

وهناك أيضاً التقطت من قارعة الطريق عبارة «الإنسان الأعلى» وفكرة أن الإنسان شيء لا بد من تجاوزه.

ـ كونَ الإنسان جسرا وليس غاية؛ مغتبطا بظهيرته ومسائه كطريق إلى فجر جديد:

ـ تلك هي كلمة زرادشت عن الظهيرة، وكلّ ما علّقتُ فوق الإنسان مثل شفق مسائيّ قرمزيّ جديد.

والحقَّ أقول لكم، لقد أريتهم أيضاً نجوما جديدة مع ليال جديدة؛ وفوق السحب والليل والنهار نشرت الضحك مثل خيمة زاهية الألوان.

ولقنتهم كل مسعاي ومبتغاي: أن أجمع وأوحد داخل كيان واحد كل ما كان شظايا ولغزا وصدفة فظيعة في الإنسان، ـ

ـ شاعرا وفكاك ألغاز ومخلّصا للصدفة كنت أعلّمهم العمل على إبداع المستقبل، وكل **ما كان** أن يخلّصوه فيما هم يبدعون.

أن نخلّص كل ما هو ماض في الإنسان، وكل ما «كان» نعيد صياغته حتى تنطق الإرادة: «ولكنني هكذا أردت! وهكذا سأريد!» ـ

وسمّيت لهم ذلك خلاصا؛ ذاك فقط ما علمتمهم أن يسموه خلاصا. ـ

والآن أنتظر خلاصي **أنا** ـ ، كي أعود إليهم للمرة الأخيرة.

ذلك أنني أريد أن أذهب مرة أخرى إلى الناس: **بين ظهرانيهم** أريد أن أعرف غروبي، وبموتي أريد أن أمنحهم أثرى هباتي!

من الشمس تعلمت ذلك، عند غروبها، تلك الفائضة ثراءً: ذهبا تنثر هناك في البحر من معين ثرواتها الذي لا ينضب، ـ

ـ هكذا، حتى يستطيع الصياد الفقير أن يبحر بزورق من ذهب هو أيضا! ولقد شاهدت ذلك فعلا في مامضى، وما كان لي عندها أن أعرف كيف أحبس سيل دموعي أمام ذلك المشهد(١).

وكما الشمسُ يريد زرادشت أيضاً أن يغرب: والآن هو ذا يجلس هنا وينتظر ومن حوله ألواح قديمة محطمة وألواح جديدة أيضاً ـ لم تكتمل كتابتها بعد.

٤

أنظر، ههنا لوح جديد: لكن أين هم إخوتي الذين سيحملونه معي إلى الوادي، وفي قلوبٍ من لحم ودم(٢)؟ ـ

---

(١) هذه الصورة المرهفة والمفعمة رقة وشعرية هي استعادة لمديح السخاء وغبطة الفيض السخي التي يعبر عنها في الشذرة ٣٣٧ من كتاب **المعرفة المرحة**: «أن يحتضن الإنسان في نفسه كل ما للإنسانية من أقدم القديم ومستجد الجديد وكل ما لها من خسارات وآمال وفتوحات وانتصارات؛ أن يجمع كل هذه الأشياء في نفس واحدة ويلاصق بينها في شعور موحد؛ فذلك ما ينبغي أن يولّد سعادة لم يعرف الإنسان مثيلا لها من قبل ـ سعادة إلهية ممتلئة قوة ومحبّة، مفعمة دموعا وممتلئة ضحكا؛ سعادة شبيهة بالشمس ساعة الغروب تواصل الهبات من معين ثروتها الذي لا ينضب، تقذف بفيض ضيائها في البحر، وكيف تشعر بنفسها عندها وعندها فقط، أكثر ثراء وهي ترى إلى أفقر الصيادين يدفع هو أيضاً قاربا من ذهب! هذا الشعور الإلهي هو ما يسمّى إذًا: إنسانيّة». أنظر أيضاً قصيدة «الشمس تنحدر» من قصائد «داثيرمبوس ديونيزوس».

(٢) أنظر حزقيال (العهد القديم)؛ الاصحاح ١١/١٩: «وأعطيهم قلبا واحدا وأجعل في داخلهم روحا جديدا وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم».

هكذا تأمر محبتي الكبرى للبعيد الأبعد: **لا ترفق بقريبك!** إن الإنسان شيء لا بدّ من تجاوزه.

هناك دروب عديدة للتجاوز وطرائق متنوعة: لتنظر في الأمر بنفسك إذًا! لكن من كان مهرّجا هو وحده الذي يفكر: «يمكن أيضاً أن **نقفز** من فوق الإنسان».

تجاوز نفسك أيضاً من خلال قريبك؛ والحق الذي يمكنك انتزاعه لا ينبغي لك أن تقبل بأن يمنح لك!

الذي تفعله، ما من أحد سيفعله بك من بعد. أنظر! إنه لا ثأر هناك.

والذي لا يستطيع أن يأمر عليه أن يطيع. غير أن هناك من يستطيع أن يأمر، لكن يظل ينقصه الكثير كيما يطيع نفسه أيضا[١]!

٥

هكذا يريد طبع النفوس النبيلة: إنها لا تريد شيئا **دون مقابل**، وأقل من كل شيء الحياة.

من كان من الرعاع فإنه يريد أن يعيش دون مقابل[*]؛ أما نحن الألى الذين منحت الحياة نفسها إلينا، فإننا ما ننفك نفكر في أفضل شيء يمكننا أن نقدمه **كمقابل!**

---

(١) وفقا لمبدإ سولون الحكيم الذي كان يقول لتلامذته: «لا تأمروا حتى تتعلموا الطاعة» - يورده ديوجينس في «حياة سولون».

(*) مرة أخرى يعمد نيتشه إلى تضمين معنى مزدوج بلعبته المفضلة بالكلمات في استعمال عبارة umsonst التي تعني مجاناً وكذلك: دون فائدة.

والحقَّ أقول لكم إنه لكلام نبيل ذلك الذي يقول: «ما تعِدنا به الحياة فذلك هو ما نريد ـ أن نفي به للحياة!».

لا ينبغي للمرء أن يريد التمتع، هناك حيث لا يوجد شيء للمتعة. و- لا ينبغي للمرء أن **يريد** المتعة!

فالمتعة والبراءة هما بحق أكثر الأشياء حياء: كلاهما لا تريدان أن يُسعى إليهما.

لا بد أن يكون المرء حائزا عليهما ـ ، وإلا فإنه من الأفضل عندها أن **يبحث** عن ذنب وآلام! ـ

٦

آه يا إخوتي إن بكر المولودات هو الذي يضحّى به دوما. وقد شاءت الأمور أن نكون أبكارا[(١)].

دمُنا جميعا يسيل على مذابح سريّة، ونحترق ونُشوى جميعا قربانا لأصنام عتيقة.

أفضل ما لدينا ما يزال طريا يافعا؛ وذلك هو ما يشحذ شهية الأحشاء الهرمة. لحمنا طري، وجلدتنا ليست سوى جلدة حَمل صغير: فكيف لا نوقظ إذًا شهية قساوسة الأصنام المسنين!

في داخلنا نحن أنفسنا ما زال يسكن قس الأصنام العجوز الذي يعِدّ من أفضل ما لدينا شواء لسفرته الفاخرة. آهٍ إخوتي، كيف يمكن للأبكار أن لا يكونوا أُضحية!

---

(١) سفر «الخروج» (العهد القديم)؛ الاصحاح ٢٣/١٩: «أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الربَ إلهك».

لكنّ ذلك ما تريده طبيعتنا؛ وإنني لأحب أولئك الذين لا يريدون الحفاظ على أنفسهم. أولئك الذين يمضون إلى حتفهم؛ بكل ما لديّ من محبّة أحبهم: ذلك أنهم يعبرون إلى الضفة الأخرى[1].

٧

أن يكون المرء صادقا ـ قليلون هم الذين يستطيعون ذلك! والذي يستطيع ذلك لا يريده! لكنّ أقل من يستطيع ذلك هم أهل الصلاح.

أوه، أولئك الصالحون! ـ **أهل الصلاح لا ينطقون بالحق أبدا**؛ أن يكون المرء على هذا القدر من الصلاح مرضٌ للعقل.

أولئك الذين يتنازلون ويُسلمون أنفسهم؛ قلبهم يردد ما يملى عليه وباطنهم يطيع؛ لكنّ الذي يطيع **لا يمكنه أن يصغي إلى نفسه!**

لا بد أن يجتمع كل ما يدعوه أهل الصلاح شرا كي تولد حقيقة واحدة؛ آه إخوتي، هل أنتم أشرار بما فيه الكفاية لمثل **هذه** الحقيقة؟

الجرأة العنيدة، والريبة الطويلة، والـ(لا) الفظيعة، والقرف، والحزّ في اللحمة الحيّة ـ لكم هو نادر أن تجتمع كلها معا! لكنْ مِن هذا البذار يكون نبْت الحقيقة!

جنبا إلى جنب مع الضمير الخبيث[*] كانت تنمو كل **المعرفة** إلى

---

(١) قارن مع كلام يسوع إلى حواريّيه؛ متّى الاصحاح ١٦/ ٢٤ ـ ٢٥: «حينئذ قال يسوع لتلاميذه إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكرْ نفسه ويحمل صليبه ويتبعني. فإن من أراد أن يُخلّص نفسه يُهلكها. ومن يُهلك نفسه من أجلي يجدها».

(*) قد يجد القارئ شيئا من الغرابة في عبارة «الضمير الخبيث» التي اخترناها عوضا عن الضمير المؤنّب، أو الشعور بالذنب. ذلك أن نيتشه يستعمل هنا عبارة Böses Gewissen عوضا عن schlechtes Gewissen المتداولة والتي تعني تأنيب الضمير والشعور بالذنب. =

حد الآن! لتحطموا، لتحطموا كل هذه الألواح القديمة أيها الساعون إلى المعرفة!

٨

عندما تكون هناك صواري خشب فوق الماء، وعندما تكون هناك جسور وحواف ممتدة فوق النهر، فإنه لن يكون هناك من أحد ليصدّق من يقول: «كل شيء في الماء».

بل سيعارضه حتى بليدو الذهن والمغفلون. «ماذا؟ سيقول المغفلون، كل شيء في الماء؟ لكن الأعمدة والحواف فوق النهر!».

كل شيء ثابت فوق النهر، كل قيم الأشياء والجسور والمفاهيم، وكل «خير» و«شرّ»: كل ذلك ثابت!» ـ

لكن ليأت الشتاء مروّض الأنهار، وعندها سيتعلم حتى أكثر الناس فطنة الريبة والحذر؛ والحق أقول لكم، لن يكون المغفلون

=والفرق هنا أن böse تعني الشرّير والخبث وهي صفة من إسم Böse التي تعني الشرّ والسوء والخبث. وقد أوقعت الترجمات الفرنسية بعبارة mauvaise consciensce عوضا عن conscience maligne المترجمين العرب في هذا الخطأ. لكنّ من يعرف مدى حرص نيتشه على دقة العبارة وولعه بتنويع التعبيرات من أجل تضمين دلالة مغايرة لا يسعه إلا أن يشك في صحة هذه الترجمة، خاصة إذا ما عرفنا أنه في مواضع أخرى يستعمل عبارة schlechtes Gewissen وذلك عندما يكون المقصود هو تأنيب الضمير أو الشعور بالذنب، مثلا في **جنيالوجيا الأخلاق** هناك فصل بأكمله (المطارحة الثانية) مخصص لهذه المسألة ويحمل عنوان: «الذنب» و«الشعور بالذنب» وما شابهها (schlechtes, éschlechtes Gewissen' und Verwandtes). إن الأمر يتعلق هنا إذا ما انتبهنا إلى السياق الذي وردت فيه هذه العبارة بضميرٍ ـ سلطةٍ (دينية أوأخلاقية) كاذب مراوغ «لا يستطيع أن يكون صادقا» و«لا يريد أن يكون صادقا»، وبذلك قد أساء إلى المعرفة كما إلى الحياة عبر التاريخ.

وحدهم هم الذين سيتكلمون: «ألا ينبغي أن تكون كل الأشياء ـ ساكنة؟».

«كل شيء ساكن في العمق» ـ؛ إنه مبدأ شتويّ حقيقي، شيء جيد للزمن العقيم، عزاء جميل للمستسلمين للسبات الشتوي والقابعين حول المواقد.

«كل شيء ساكن في العمق» ـ؛ لكن الريح المذيبة للجليد تكرز **بعكس ذلك!**

الريح المذيبة للجليد، ثوْرٌ ليس بثور نيّرٍ وحراثة، ـ ثور هائج، مدمّر يكسر الجليد بقرنين مستعرين حنقا! لكن الجليد ـ **يحطم المعابر**.

آهِ إخوتي، أليس كل شيء في الماء؟ فمن ذا الذي سيظل متمسكا بـ«الخير» و«الشر» بعد؟

«الويل لنا! يا لسعادتنا! هي ذي الريح المذيبة للجليد تعصف الآن!» ـ لتكرزوا هكذا في كل الأزقة، يا إخوتي!

٩

هنالك وهم قديم إسمه الخير والشر. وحول العرّافين والمنجمين ظل يدور دولاب هذا الوهم إلى حد الآن.

قديما كان للناس **إيمان** بالعرّافين والمنجّمين؛ **ولذلك** كان يُعتقد بأن «كل شيء قدَر؛ وبما أنه ينبغي عليك، فإنه لا بدّ لك!».

ثم إن الناس ارتابو مجددا في كل العرّافين والمنجمين؛ ولذلك اعتقد المرء بأن «كل شيء حرية؛ ينبغي عليك، إذًا لا بدّ لك!».

آهٍ إخوتي، لم يكن للناس عن النجوم والمستقبل سوى ما تخيّلوه، لا ما عرفوه بعلم؛ لذلك لم يكن لهم عن الخير والشر سوى ما تخيلوه، لا ما عرفوه بعلم!

١٠

«لا تسرق! لا تقتل!»[١] ـ مثل هذه الكلمات كان الناس يسمونها في ما مضى كلاما مقدسا؛ وأمامها كان الإنسان يثني ركبته ويحني رأسه ويخلع نعليه.

لكنني أسألكم: أين وُجد في العالم كله لصوصٌ وقَتَلة أكبر مما كانت تمثله هذه الكلمات؟

أليست الحياة نفسها ـ بكليتها سرقة وقتلا؟ وأن تُدعى هذه الكلمات كلاما مقدسا، أليس ذلك قتلا ـ للحقيقة نفسها؟

أم ترى هذه دعوة إلى الموت، أن يدعى مقدسا كل ما جاء معارضا الحياة ومثبّطا لها؟ ـ آه إخوتي، لتحطموا، لتحطموا كل هذه الألواح القديمة!

١١

تلك هي شفقتي على كل الماضي، أن أراه متروكا ـ

ـ لرحمة وعقل وأوهام كل جيل سيأتي متأولا كل ما كان على أنه جسر عبور إليه!

---

(١) من وصايا الرب لموسى؛ الخروج (العهد القديم)؛ الاصحاح ٢٠/ ١٣، ١٤، ١٥: «لا تقتلْ، لا تزن، لا تسرقْ».

وقد يأتي طاغية مستبد، مارد داهية يدجن برحمته وسطوته كل ذلك الذي مضى ويُخضعه، إلى أن يغدو جسرا له وعلامةً وصوتَ بشير وصياحَ ديكٍ مؤذنا بحلول فجره.

لكن إليكم الخطر الثاني وشفقتي الأخرى: من كان من الرعاع تصعد ذاكرته حتى الجَد ـ لكن عند الجد ينتهي الزمن.

وهكذا يكون كل الماضي متروكا: ذلك أنه قد يحدث أن يغدو الرعاع سيّدًا ويُغرق الزمن بكليته في مياهه الآسنة[١].

لذلك لا بد من نوع جديد من **النبلاء** يا إخوتي، نقيضا يكون لكل الرعاع وكل استبداد طغياني، وعلى ألواح جديدة يعيد كتابة عبارة «نبيل» من جديد.

لا بد من الكثير من النبلاء في الحقيقة ونبلاء متنوعين حتى تكون **هناك نبالة!** أو كما سبق لي أن قلت متكلما بأمثال: «بل هذه هي القداسة فعلا، أن تكون هناك آلهة، لا أن يكون هناك إله!».

١٢

أي إخوتي إنني أكرّسكم وأعلنكم نوعا جديدا من النبلاء؛ وينبغي أن تكونوا لي منجبين ومربين والذين يزرعون بذار المستقبل، ـ

ـ لكنني حقا أقول لكم، ليس لنبالةٍ يمكنكم أن تشتروها مثلما يفعل البقال وبذهب البقال أريدكم؛ إذ وضيعُ القيمة يكون كل ما يُشترى بثمن.

(١) توجّس شبيه بتنبوء بمجيء الطاغية النازي، وقد كان نيتشه ينظر بعين الاحتقار إلى حركة القوميين الاجتماعيين في زمنه الذين يصنفهم ضمن الرعاع ـ وكثيرا ما عبر عن تخوفه من أن يتأول الرعاع أفكاره في الاتجاه الذي يخدم أغراضهم. أنظر «**هذا هو الإنسان**».

ليس مأتاكم هو الذي سيصنع شرفكم مستقبلا، بل الغاية التي تمضون إليها! إرادتكم وقَدمكم التي تريد المضي إلى ما ورائكم، إلى ما بعدكم هي التي ستصنع شرفكم الجديد!

ليس لأنكم خدمتم أميرا ـ وما أهمية الأمراء بالنهاية! ـ أو لأنكم كنتم قلعة لما هو قائم كي يغدو أكثر ثباتا ومتانة!

ليس لأنكم من النوع الذي كان يرتاد البلاطات، وأنكم تعلمتم الوقوف بحلّة مزدانة مثل البجع لساعات طويلة في الغدران الضحلة.

ـ ذلك أن **القدرة** على الوقوف خصلة لدى مرتادي البلاط، وكل مرتادي البلاط يعتقدون أنّ ذلك من نعيم ما بعد الموت، أن ـ **يحق** للمرء الجلوس!

وليس لأنّ روحا يسمونه قدُساً قد قاد أسلافكم في ما مضى إلى أرض ميعاد، لا أثني عليها البتة؛ ذلك أن أرضا قد نبتت فوقها أسوأ أنواع الأشجار: الصليب، ليس فيها ما هو جدير بالثناء!

والحقّ أقول لكم، حيثما مضى هذا «الروح القدس» يقود فرسانه، كان هناك على الدوام ماعز وإوزّ ورؤوس حمقاء مبلبلة راكضة كلها ـ في موكب تلك الحملات(*)!

أي إخوتي، ليس إلى الخلف ينبغي على نبالتكم أن تنظر، بل **خارجا!** مشردين ينبغي أن تكونوا ومطرودين من كل وطنٍ أمٍّ وكل أوطان الآباء والأجداد!

(*) يتعذر هنا أيضاً نقل التلاعب اللفظي على عبارة الصليب وما يجترحه نيتشه منها من تنويعات يضمنها سخرية لاذعة من الصليبيين والحملات الصليبية.

وطنَ **أبنائكم** ينبغي أن تحبّوا؛ ولتكن هذه المحبة عنوان نبالتكم الجديدة، ـ أرضا نائية لم تُكتشف بعد وسط بحار بعيدة! نحوها أدفع بشراعكم إلى البحث والبحث!

عبر أبنائكم ينبغي أن تكفّروا عن كونكم أبناء لآبائكم: هكذا ينبغي أن تخلصوا كل ماض! هذا هو لوح القيم الجديد الذي أعلقهم فوق رؤوسكم!

١٣

«لِم الحياة؟ فالكل باطل! الحياة ـ إنها دِراس قش بلا حب؛ الحياة ـ هي أن يحترق المرء بنارٍ ولا يحصل له دفء». ـ

هذا الهراء العتيق مازال يعتبر «حكمة»؛ ولأنه قديم ويفوح رطوبةً عطِنةً فإنه يحظى بأكثر إجلال. العفونة أيضاً مصدر نبالة. ـ

يحق للصبية أن يتكلموا بمثل هذا الكلام؛ إنهم يخافون النار لأنهم احترقوا بها! ولكم هناك من الصبيانيات في كتب الحكمة القديمة!

ومن «يدرس قشا» طوال الوقت، كيف يحق له أن يعيّر الدِّرَاس! مثل هؤلاء الحمقى ينبغي أن تكمم أفواههم!

هؤلاء يجلسون إلى المائدة ولا يجلبون شيئا معهم، ولا حتى شهيّة جيّدة: وها هم الآن يجدّفون: «الكل باطل!».

لكنّ أكلا وشرابا جيدا فنٌّ ليس فيه ما هو باطل يا إخوتي! لتحطموا، لتحطموا لي ألواح الكئيبين الذين لا يعرف الفرح ساحتهم.

١٤

«كل شيء طاهر للطّاهرين» - هكذا يقول الشعب. لكنني أقول لكم: للخنازير يكون كل شيء بنجاسةِ الخنازير[١]!

لذلك ترى المتحمّسين والمثقَلة رؤوسهم بالهموم، والذين ترزح قلوبهم أيضاً على أحشائهم يكرزون جميعهم هكذا: «إن العالم في حد ذاته فظاعة من قاذورات».

ذلك أن هؤلاء جميعا عقول غير نقيّة، وبخاصة أولئك الذين لا يعرفون راحة ولا هدنة حتى يرون العالم من دبر؛

- أولئك الما - ورائيّون!

لهؤلاء أقول في وجوههم، وإن كان كلاما لا يبدو مهذّبا: إن العالم يشبه الإنسان بما هو ذو مؤخّرة، - إنها حقيقة لاجدال فيها!

هناك الكثير من القاذورات في العالم: إن هذا حقيقة لا جدال فيها! لكنّ ذلك لا يعني أن العالم فظاعة من قاذورات!

إنه من الحكمة أن يكون هناك الكثير مما هو كريه الرائحة في العالم: فالقرف نفسه يصنع أجنحة وطاقة على استشعار الينابيع!

في أفضل الأشياء هناك دوما شيء ما يبعث على القرف؛ وأفضل الأشياء هو أيضاً شيء ينبغي تجاوزه! -

آه إخوتي إنها لحكمة كبيرة أن تكون هناك قاذورات كثيرة في العالم! -

---

(١) أنظر رسالة بولس إلى تيطُس؛ الاصحاح ١/ ١٥: «كل شيء طاهرٌ للطاهرين وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيءٌ طاهرٌ بل قد تنجّس ذهنهم أيضًا وضميرُهم».

١٥

ومثل هذه الكلمات سمعت ماورائيين أتقياء يرددونها على ضميرهم؛ وذلك دون سوء نية أو تكلف، ـ بالرغم أنه ليس في العالم من شيء أكثر سوء وتكلفا من هذا الكلام.

«دع الدنيا للدنيا» ولا تحرك إصبعا لمعارضتها!».

«ومن كانت لديه رغبة في أن يخنق الناس ويطعنهم ويقطّعهم إربا ويعلّقهم، دعه يفعل، ولا تحرك إصبعا لمعارضة ذلك أيضا! إنهم بذلك يتعلمون التنكر للدنيا ورفضها».

«أما عقلك الخاص، فعليك أن تطمسه وتخنقه بيدك؛ ذلك أنه عقل من هذه الدنيا، ـ وبذلك تتعلم بنفسك كيف تتنكر للدنيا وترفضها».

لتحطموا، لتحطموا يا إخوتي ألواح الأتقياء العتيقة هذه! ولتسفهوا مقولات المجدّفين على الدنيا!

١٦

«من يتعلم الكثير، يتخلص من كل الرغبات الجامحة» ـ ذلك هو ما يتهامس به الناس في كل الأزقة المعتّمة.

«إن الحكمة ترهق، ولا شيء ـ جدير بالعناء؛ فلا ينبغي لك أن ترغب!» ـ لوح القيم الجديد هذا وجدته يعلّق حتى في الأسواق العمومية.

لتحطموا ياإخوتي، لتحطموا أيضاً هذا اللوح **الجديد**! فالمتعبون الذين عافوا الدنيا ودعاة الموت هم الذين علقوا هذا اللوح، وكذلك الجلادون: ترون إذًا إنها أيضاً دعوة إلى العبودية! ـ

ولأنهم تعلموا خطأ، وتعلموا كل شيء، عدا أفضل الأشياء، قبل الأوان وبسرعة شديدة؛ ولأنهم **أكلوا** بطريقة رديئة، لذلك أصيبوا بفساد المعدة، ـ

معِدة فاسدة هو عقلهم في الحقيقة، ذلك الذي أشار عليهم بالموت! إذ، الحق أقول لكم يا إخوتي، إن العقل معِدة[(١)]!

إن الحياة ينبوع مسرة؛ لكن الذي تتكلم على لسانه معدة فاسدة ـ أمّ الكآبة ـ ذلك سيرى كل الينابيع مسمومة.

المعرفة: إنها متعة ذوي الإرادة الأسديّة! لكنّ من أصابه العياء، ذاك سيكون «موضوع إرادة» تتلاعب به كل الأمواج.

وكذا هو دوما نوع الإنسان الضعيف: أولئك يضيعون أنفسهم على

---

(١) في الشذرة ٢٣٠ من **ما وراء الخير والشر** يتطرق نيتشه إلى هذه المقارنة بأكثر تفصيل: «ذلك الشيء الآمر الذي يسميه الشعب «عقلا» يجب أن يكون سيدا على ما حوله وأن يشعر بنفسه سيدا: إنه يريد المضي من التعدد إلى الوحدة بإرادة توليفيّة مقيّدة نازعة إلى السيادة ومسيطرة سيطرة حقيقية. وإن حاجياته وإمكانياته في هذا المضمار هي نفس ما أقره علماء الطبيعة من حاجياتٍ وإمكانياتٍ لدى كل ما يحيا وينمو ويتعدد. وتتجلى طاقة العقل على تقبّل وتملك كل جديد في نزوعه القوي إلى مطابقة الجديد بالقديم وتبسيط المركّب والتغافل عن كل المناقض بالكل أو إقصائه؛ تماما كما يؤكد بصفة اعتباطية على ملامح وقسمات بعينها من كل عنصر من «العالم الخارجي» ويبرزها بشدة ويزوّرها بحسب ما يلائمه. غرضه في ذلك كله يمضي باتجاه احتواء «تجارب» جديدة، وباتجاه تنضيد أشياء جديدة داخل خانات قديمة(. . .) هذه الإرادة نفسها تجد ما يخدمها أيضاً في نزوع آخر يبدو في الظاهر مناقضا للعقل: قرار فجائي بالانكفاء على الجهل وبانغلاق لا مبرر له، غلق لكل النوافذ ورفض باطني لهذا الشيء أو ذاك، تصدّ لكل محاولات الاقتراب، ضرب من حالة دفاعية ضد العديد مما يمكنه أن يُعرف، رضا وارتياح إلى العتمة وإلى الأفق المغلقة، استجابة بالإثبات للجهل وترحيب به. أما إلى أي حد تكون هذه العمليات كلها ضرورية بالنسبة له فذلك يظل مرتبطا بقدراته على الاحتواء و«طاقته على الهضم» ـ بعبارة تصويرية. وبالفعل فإن العقل شبيه حقا بمعدة».

دروبهم. وبالنهاية يتساءل عياؤهم: «لم ترانا سلكنا كل هذه الدروب؟ فالكل سواء!».

أولئك يحلو لآذانهم سماع هذه الدعوة: «لا شيء جدير بالعناء! لا ينبغي أن تريدوا!» لكنّ هذه دعوة إلى العبودية.

أي إخوتي، ريح باردة عاتية هو زرادشت في وجه كل المتعبين من الطريق؛ والكثير من الأنوف سيصيبها بالعطاس!

عبر الجدران أيضاً تهب أنفاسي الحرّة، وتقتحم السجون والعقول السجينة!

الإرادة تُحرر؛ ذلك أن الإرادة إبداع: هكذا أعلمكم؛ وفقط من أجل الإبداع عليكم أن تتعلموا!

وهذا التعلم أيضاً عليكم أن **تتعلموه** مني، التعلم الجيد! ـ ومن له إذنان للسمع فليسمع!

١٧

هو ذا القارب، ـ لعلّه يمضي إلى هناك، إلى العدم الكبير. لكن من يريد أن يركب إلى ذلك الـ«لعلّ»؟

لا أحد منكم يريد أن يبحر على قارب الموت! فكيف يمكنكم إذًا أن تكونوا متعبين من الدنيا!

متعبون من الدنيا! وأنتم لم تغيبوا عن الأرض ولو مرة واحدة! متلهفين أراكم دوما على الأرض، عاشقين ماتزالون لمللكم الأرضي!

ليس دون سبب تتدلى شفتكم هكذا: هناك رغبة أرضية صغيرة ما تزال جاثمة فوقها! وهذا الذي في عينكم؛ أليست غيمة صغيرة متموجة لرغبة أرضية غير منسية؟

هناك مبتكرات جيّدة عديدة فوق الأرض، بعضها مفيد، والبعض الآخر ممتع: ومن أجل هذه الأشياء تكون الأرض جديرة بالمحبة.

وهناك من المبتكرات ما هو شبيه بصدر المرأة: نافع هو وممتع في الآن ذاته.

لكنكم أيها المتعبون من الدنيا! كائنات الأرض الخاملة! بالعصا ينبغي أن يداعبكم المرء! بضرب العصيّ ينبغي أن تنشّط أقدامكم.

لأنكم؛ إن لم تكونوا مرضى وكائنات ضعيفة واهنة قد عافتها الأرض، فأنتم دواب كسولة ماكرة أو قطط متعة شرهة متكورة في مراقدها. وإن لم تريدوا العودة إلى الجري بمتعة، ـ فلتضمحلوا!

على المرء أن لا يكون طبيبا للميؤوس من شفائهم: هكذا يعلم زرادشت؛ ـ لتضمحلّوا إذًا!

غير أن إنهاء شيء يتطلب أكثر شجاعة من وضع بيت شعري إضافي: كل الأطباء والشعراء يعرفون ذلك. ـ

١٨

أي إخوتي، هناك ألواح قد ابتكرها الإعياء، وأخرى من صنع الكسل، تلك المتعفنة؛ وهي، وإن كانت تتكلم نفس الكلام فإنها تريد أن يصغى إليها كشيء مختلف.

أنظروا هذا الذي يستلقي منهكا! لقد غدا على مرمى حجر من هدفه، لكن التعب جعله يصر على الاستلقاء هنا في التراب: هذا الشجاع!

إنه يتثاءب تعبا وسأمًا من الطريق ومن الأرض والسماء ومن نفسه؛ ولا خطوة واحدة يريد أن يخطو، ـ ذاك الشجاع!

والآن هي ذي الشمس تضطرم فوقه والكلاب تلعق عرقه؛ لكنه يظل مستلقيا هنا بإصرار عنيد ويفضّل أن يموت عطشا[1]:

أن يموت عطشا على مرمى حجر من هدفه! الحق أقول لكم، سيكون عليكم أن تسحبوه من شعره إلى سماء جنته، ـ هذا البطل!

بل من الأفضل أن تدعوه مستلق حيث ألقى بنفسه، حتى يهبط عليه النوم، النوم المواسي بهسهسة المطر الطرية المنعشة:

دعوه يستلقي إلى أن يستيقظ من تلقاء نفسه، ـ إلى أن يسأم تعبه وينكره وينكر كل ما علّم التعب من خلاله.

لكن لتطردوا عنه الكلاب والمتزلفين الخاملين وكل الزعانف المتحمسة:

ـ كل الزعانف المتحمسة من «المتعلمين»، التي تجد في عرق كل بطل وليمة لشرهها!

١٩

أرسم دوائر من حولي وأضرب حدودا مقدسة؛ وإن عدد الذين يصعدون معي إلى قمم أعلى فأعلى لفي تناقص مطّرد؛ إنني أرفع سلسلة من الجبال أكثر فأكثر قداسة.

لكن، أيّا كانت الأعالي التي تريدون الصعود إليها معي يا إخوتي؛ فلتنتبهوا أن لا يصعد معكم واحد من **الطفيليين!**

---

(١) أنظر لوقا؛ الاصحاح ١٦/١٩ ـ ٢٣: «كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبزّ وهو يتنعّم كل يوم مترفها. وكان مسكين إسمه لَعازَرُ الذي طُرح عند بابه مضروبا بالقروح. ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنيّ. بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم».

الطفيلي: إنه دودة، زاحفة لدنة تريد أن تسمن من زواياكم المقروحة والمريضة.

وذاك هو فن الطفيلي وحيلته؛ أن يحدس مواضع التعب في الأنفس المتسلقة درب الارتقاء: في أساكم وفتور همّتكم، وفي حيائكم الرقيق يبني عشه المقرف.

في موقع الضعف من الأقوياء، وفي موقع اللين من النبلاء يبني عشه المقرف: إن الطفيلي يسكن هناك حيث يكون للعظيم زاوية مكلومة صغيرة.

ما هي أرفع فئة، وما هي أحط فئة من بين الأنواع كلها؟ الطفيلي هو أحط فئة، لكنّ أرقى فئة وأرفعها هي التي تغذّي أغلب الطفيليين.

فالنفس التي تمتلك السلّم الأطول[1]، والتي تستطيع أن تنحدر إلى أعمق الأغوار؛ كيف لها أن لا تكون المكان الذي يندس فيه أكبر عدد من الطفيليين؟ -

النفس الأكثر رحابة والتي تستطيع أن تركض وتتوه وتتسكع أبعد ما يمكن في رحاب نفسها؛ النفس الأكثر ضرورة والتي تقذف بنفسها عن رغبة في غمار الصدفة:

- النفس الكائنة التي تغوص داخل الصيرورة؛ المالكة التي **تريد** أن تحل في الإرادة والرغبة:

- التي تفر من نفسها وتدرك نفسها في الدوائر الأكثر اتساعا؛ النفس الأكثر حكمة التي يناغيها الحمق بأعذب الكلمات:

---

(١) يرى مونتي وكولليناري في هذه الصورة إحالة على ما يرد في سفر «التكوين»؛ الاصحاح ٢٨/ ١٢ من رؤيا حُلم يعقوب الذي تمدد على الأرض ونام بعد أن خرج من بئر سبْع واتجه إلى حاران «ورأى حلما وإذا سلّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء».

ـ النفس التي تعشق نفسها أكثر من أي شيء، والتي تجد الأشياءُ كلُّها دفقها ودفقها المعاكس ومدها وزجرها داخلها: أواه، كيف يمكن **للنفس الأرقى** أن لا يندس إليها أسوأ الطفيليين؟

٢٠

أي إخوتي، هل أنا شنيع؟ لكنني أقول لكم: ما يكون في طور السقوط، على المرء أن يساعده بدفعة!

كل ما هو في طور السقوط والانهيار من الحاضر، من تُرى ـ وإن بدا هذا غير لطيف ومهذب ـ سيريد أن يمنعه من الوقوع؟ أما أنا ـ فإنني أريد أن أدفعه!

هل تعرفون الشهوة التي تدحرج الصخور إلى الهُوى السحيقة؟ ـ رجال اليوم هؤلاء؛ أنظروا إليهم كيف يهوون متدحرجين في هوتي السحيقة!

مقدّمة أنا للاعب أكثر مهارة يا إخوتي! مثال أنا! فلتصنعوا بحسب مثالي(١)!

والذي لا تعلّمونه الطيران، لتعلموه إذًا ـ كيف يقع بأكثر سرعة. ـ

٢١

أحب الشجعان؛ لكن الطعن بالقنا لا يكفي؛ بل على المرء أن يعرف أيضاً في من يطعن!

---

(١) يوحنا؛ الاصحاح ١٣/ ١٥ : «فإن كنت وأنا السيد والمعلّم قد غسلتُ أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض، لأنّي أعطيتكم مثلا حتّى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضا».

وغالبا ما يكون المرء أكثر شجاعة وهو يتمالك نفسه ويغض الطرف؛ كي يوفّر طاقاته لعدو أكثر جدارة!

لا ينبغي أن يكون لي سوى أعداء أستطيع أن أحقد عليهم، وليس أعداء يمكنني أن أحتقرهم: عليكم أن تكونوا فخورين بعدوكم: هكذا علمتكم في ما مضى.

للعدو الأكثر جدارة ينبغي أن توفروا طاقاتكم يا إخوتي؛ ولذلك ينبغي أن تغضوا الطرف عن الكثير وتمروا، -

- وخاصة عن الكثير من الرعاع الذين يصدّعون آذانكم بضجيجهم حول الشعب والشعوب.

لتصونوا صفاء عينكم من مواقفهم القائمة على الـ«مع» و«ضد»! مشاهدة بالعين، مشاركة باليد - إنه الأمر نفسه: لذلك ينبغي أن تنصرفوا إلى الغاب وتدعوا سيفكم يضطجع!

امضوا في **طريقكم**! ودعوا الشعب والشعوب تمضي على طريقها! - طرقا معتمة في الحقيقة هي، لا يومض فوقها بصيص من أمل!

ليَسود البقّال هناك حيث كل برّاق - ذهب بقّالين! والزمن لم يعد زمن ملوك؛ ذلك أنّ ما يدعى اليوم شعبا ليس جديرا بأي ملك.

لتنظروا إذًا، كيف تحاكي هذه الشعوب سلوك البقّالين: إنهم يلتقطون أحقر المنافع حتى من القمامات!

يتربصون ببعضهم البعض، ويقتنصون أيّ شيء من بعضهم البعض، - ويسمون ذلك «حسن جوار». أواه، أيتها الأزمنة السعيدة البعيدة، عندما كان هناك شعب يقول: «أريد أن أكون **سيدا** - على الشعوب!».

ذلك أنه على الأفضل أن يسود، والأفضل **يريد** أيضاً أن يسود، يا إخوتي! وحيثما تكون تعاليم بغير ذلك، فهناك **يُفتقر** إلى الأفضل.

٢٢

لو أن هؤلاء ينالون خبزهم دون مقابل[١]، فالويل! إذ بأي شيء سيطالبون إذًا؟ إذ رزقهم هو سلْوتُهم الحقيقية؛ ولا بدّ أن يكون كسبه عسيرا[٢]!

حيوانات مفترسة هم؛ في «عملهم» انتزاع، وكسبهم احتيال! لذلك ينبغي أن لا يحصلوا عليه إلا بعسر!

حيوانات مفترسة من نوع أفضل ينبغي أن يصبحوا، أكثر رهافة وأكثر حيلة؛ شيئا **أشبه بالإنسان**: فالإنسان بالنهاية أفضل الحيوانات المفترسة.

لقد سرق الإنسان من الحيوانات كل فضائلها: وذلك هو ما يجعل الإنسان أكثر الحيوانات معاناة.

الطيور وحدها هي التي ما تزال تفوقه. وإذا ما تعلم الإنسان الطيران أيضاً، فالويل! إلى أية أعال ستحلق رغبته المفترسة!

---

(١) لعل هنا إشارة إلى ما جاء في الأناجيل من حديث توزيع يسوع الطعام مجانا على الشعب: متّى الاصحاح ١٤/١٣ ـ ٢١؛ مرقس ٦/٣٠ ـ ٤٤؛ لوقا ٩/١٠ ـ ١٧؛ يوحنا ٦/١ ـ ١٥.

(٢) في المسودات: شذرات نهاية سنة ١٨٨٣ من منشورات ما بعد الوفاة، القسم ٢٢ [٥]: «عليهم أن يصارعوا الوحوش من أجل لقمتهم ـ وإلاّ فإن سُلْوتهم ستكون أن يلعبوا دور الوحوش ـ معنا نحن».

٢٣

هكذا أريد أن يكون الرجل والمرأة: الأول كفء للحرب، والثاني للولادة، لكنهما كفئان كلاهما للرقص بالقدمين وبالرأس.

وليكن يوما ضائعا من حياتنا كل يوم لا نرقص فيه مرة واحدة! ولنعتبر خطأً كل حقيقة لا تكون فيها ضحكة مقهقهة[١]!

٢٤

أما عِقد قرانكم، فلتعملوا على أن لا يكون عَقدا سيئا! فأنتم تعقدون بسرعة؛ وتكون النتيجة بالتالي: انفراط الرابطة الزوجية[*].

---

(١) الضحك والرقص هما العنصران الثابتان في طبع الفيلسوف في نظر نيتشه؛ «**المعرفة المرحة**» كنقيض لروح الثقل. القدم الراقصة كنقيض للركوع والسجود أمام الأصنام. في الشذرة ٢٩٤ من «**ما وراء الخير والشر**» يكتب نيتشه عن الضحك تحت عنوان: «الخلاعة الأولمبية»: «خلافا ومناقضة لذلك الفيلسوف الذي كان يسعى، كأنكليزي حقيقي، إلى تثبيت إدانة الضحك في أذهان كل المفكرين، هو القائل: «الضحك نقص مشين في الطبيعة الإنسانية يطمح كل عقل مفكر إلى تجاوزه» (هوبز) ـ، خلافا له ورغما عنه سأعمد إلى ترتيب لمنزلة الفلاسفة، كل بحسب المكانة التي يحتلها الضحك لديه ـ صعودا حتى موقع أولئك القادرين على القهقهة بالضحك الذهبي. وإذا ما افترضنا أن الآلهة تتعاطى الفلسفة، وهو رأي قادتني إليه استنتاجات عديدة، فإنني لا أشك لحظة في أنها تفعل ذلك وهي تقهقه بضحك من نوع جديد ومن منزلة فوق منزلة الإنسان ـ ضحك على ذقن كل الأشياء الجدية! إن الآلهة كائنات مولعة بالسخرية: وإنه ليبدو أنها في كل أفعالها المقدسة لا تستطيع الاستغناء عن الضحك البتة».

ـ في هوامش مونتي وكولليناري إحالة على الشذرة ٩٥ من الكتاب الثاني من **المعرفة المرحة**؛ «حول شامفورت ـ Chamfort»: «شامفورت وهو رجل ثري العمق الروحي، قاتم، معذَّب ومتوهِّج، مفكِّر كان يجد في الضحك علاجا ضروريا ضد وجع الحياة، ويرى نفسه موشكا على التلف إذا مر عليه يوم لم يضحك فيه».

(*) الترجمة الصحيحة لعبارة Ehebrechen (وهي عبارة مركبة من Ehe وتعني الزواج والرابطة الزوجية، و brechen وتعني كَسَر، وحطَّم، وانكسر، وتفتّت، وانفرط ـ عبارة يجترحها=

وإنّ كسر رابطة زواج لأفضل على أية حال من زواج معوجّ وزواج كاذب! ـ وهكذا كلمتني امرأة ذات مرة: «صحيح أنني كسرت الرابطة الزوجية، لكن قبلها كانت الرابطة الزوجية هي التي كسرتني!».

ولقد وجدت دوما أن المُتزَاوجين بشكل سيء أسوأ أنواع المتأججين برغبة الانتقام: ينتقمون من العالم كله لكونهم أصبحوا لا يسيرون منفردين.

لذلك أريد أن يتكلم المستقيمون الصادقون إلى بعضهم هكذا: «إننا نحب بعضنا، فلنعمل إذًا على أن نظل ودودين تجاه بعضنا! أم تُرى عهْدُنا مجرد زلّة لسان؟».

ـ لتمنحونا مهلة وزواجا مصغرا كي نعرف إن كنا قادريْن على زواج كبير! إنه لأمر غير هيّن أن نكون إثنين دوما معا!».

بهذا أنصح كل المستقيمين الصادقين؛ وإلا فماذا سيكون حبي للإنسان الأعلى ولكل ما ينبغي أن يأتي إن أنا نصحت وتكلمت بغير هذا!

ليس من أجل الامتداد عددا، بل **ارتقاء** ـ ذلك هو ما ينبغي أن يساعدكم عليه جِنان الزيجة يا إخوتي!

=نيتشه من Ehebruch)، هي «الخيانة الزوجية»، أو «الزنا»، لكن لعبة الجناس بين عبارتي «عِقْد» و«عَقْد»، والمقابلة بين الـ«عقد» من جهة والـ«كسر» أوالـ«انفراط» الذي تتضمنه عبارة brechen من الجهة المقابلة لا يمكن أن تؤديها مقابلة «العقد» بـ«الخيانة الزوجية» وأقل منها «الزنا»، وحرصا على الحفاظ على روح التلاعب اللفظي فضلنا عبارة «انفراط الرابطة الزوجية» على عبارة «الخيانة».

٢٥

الذي استقى الحكمة من الأصول القديمة[١]، ذلك هو الذي سينتهي إلى البحث عن ينابيع مستقبلية وعن أصول جديدة. ـ

أي إخوتي، لم يعد بعيدا ذلك الوقت الذي ستبرز فيه شعوب جديدة وتخرّ ينابيع جديدة في أعماق جديدة.

ذلك أن الزلزال يهدم الكثير من الآبار ويجعل الكثيرين يهلكون عطَشا؛ لكنه يستنهض أيضاً طاقات باطنية وينابيع خفيّة يطرحها إلى النور.

إن الزلزال يكشف ينابيع جديدة. وفي الزلزال الذي يهز شعوبا قديمة تنفجر ينابيع جديدة.

ومن سيصرخ: «أنظر هنا بئر لعطشى كثيرين، وقلب لكثير من المشتاقين، وإرادة لأدوات كثيرة!»، ذلك سيجتمع حوله **شعب**، أعني: الكثير من المجرِّبين.

من الذي يستطيع أن يأمر، ومن ينبغي عليه أن يطيع ـ **ذلك هو ما يُختبَر هنا!** آه، وكم من البحث الطويل والحدْس والأخطاء والتعلم والمحاولات المتجددة!

المجتمع البشري اختبار، هكذا أعلمكم ـ بحث طويل؛ لكنه يبحث عن الآمر! ـ

(١) لعل المقصود هنا بالأصول القديمة للحكمة هي الفلسفة الإغريقية لما قبل سقراط التي يعتبرها نيتشه مرحلة راقية في الفكر البشري، وفي الفنّ أيضاً. كما يعتبر فلسفته عودة إلى تلك المنابع القديمة: فلسفة ديونيزية، أو النقيض للفكر ما بعد السقراطي والأفلاطوني.

ـ اختبار وتجربة، أي إخوتي، وليس بـ«عقد»[1]! لتحطموا، لتحطمو مثل هذه العبارة التي تصلح لضعيفي القلوب وأتباع التوسّط والبيْن ـ بيْن!

٢٦

أي إخوتي، أين يكمن الخطر الأكبر الذي يتهدد كل المستقبل البشري؟ أليس لدى الصالحين والعادلين؟

ـ لدى أولئك الذين يقولون ويحسّون من صميم القلب: «إننا نعرف ما هو صالح وعادل، وهو كائن فينا؛ فالويل إذًا للذين ما زالوا يبحثون!».

ومهما بلغت مضارّ الشرّيرين؛ فإن ضرر أهل الصلاح يظل أكثر الأضرار مضرّة!

ومهما بلغت مضار المفترين على العالم أيضا؛ فإن ضرر الصالحيين يظل أكثر الأضرار مضرّة!

أي إخوتي، هناك واحد قد استطاع في يوم من الأيام أن يسبر عمق سرائر الصالحين والعادلين عندما قال: «هؤلاء هم الفرّيسيّون»[2]. لكن لم يفقه قوله أحد.

وأهل الصلاح والعدل أنفسهم لم يستطيعوا فهمه، ذلك أن عقلهم

(١) مرة أخرى إشارة إلى «العقد الاجتماعي» لروسّو.
(٢) العبارة ليسوع المسيح؛ أنظر متّى؛ الاصحاح ٢٣ بكامله.

منحبس داخل راحة ضميرهم. إن غباء الصالحين والعادلين ماكر مكرا لا يسبر له غور[١].

لكن هي ذي الحقيقة: إن أهل الصلاح والعدل **لا يسعهم** إلا أن يكونوا فرّيسيّين، - ليس لهم من خيار!

على أهل الصلاح أن يصلبوا ذلك الذي يبتدع فضيلته الخاصة! إنها الحقيقة!

أما الثاني، ذلك الذي اكتشف موطنهم: أرض وقلب وموطن الصالحين والعادلين، فهو ذلك الذي سأل: «على من يحقدون أشد الحقد؟».

على المبدع يحقدون أشد الحقد، ذلك الذي يحطم ألواحا وقيما قديمة؛ المدمّر - ذاك يسمونه مجرما.

فأهل الصلاح **لا يستطيعون** إبداعا: إنهم بداية النهاية دوما:

- يصلبون كل من يكتب قيما جديدة على ألواح جديدة، ويضحّون بالمستقبل من أجل أنفسهم، - إنهم يصلبون مستقبل الإنسانية بكليته!

أهل الصلاح - كانوا بداية النهاية دوما[٢].

---

(١) أنظر فصل «العودة إلى الوطن» والهامش رقم ١ ص٣٥٤.

(٢) في **هذا هو الإنسان** يقدم نيتشه تفسيرا مفصلا عن نفسيّة الصالحين (وكنّا قد استعملنا في ترجمتنا للكتاب المذكور عبارة «الخيّرين»، وقد استعضنا عنها في ترجمة زرادشت بعبارة «الصالحين»، أو «أهل الصلاح» التي غالبا ما تأتي أيضاً مقترنة بـ«العادلين» أو «أهل العدل»): «سأتوقّف أولا عند سيكولوجية الصالح. كي نقدر قيمة نموذج ما من البشر، علينا أن نحدد الثمن الذي يدفعه من أجل البقاء؛ أي أن نتعرّف على شروط وجوده. إن شرط الوجود لدى الصالحين هو الكذب: بتعبير آخر الإصرار على عدم الرغبة في رؤية=

أي إخوتي، هل فهمتم هذه الكلمة أيضا؟ وما قلته ذات يوم عن «الإنسان الأخير»[(١)]؟

لدى من يكمن الخطر الأكبر الذي يتهدد مستقبل الإنسانية؟ أليس لدى أهل الصلاح والعدل؟

لتدمروا، لتدمروا أهل الصلاح والعدل! ـ أي إخوتي، هل تفهمون هذه الكلمة أيضا؟

=الكيفيّة التي يتشكل عليها الواقع في الأساس؛ أي على ذلك المنحى الذي يجعله يستدعي في كل آونة حضور الغرائز الخيّرة، وأقل من ذلك وفقا للمنحى الذي يغدو بموجبه في متناول أيدي قصيري النظر وأصحاب النوايا الطيبة. أن يُنظر إلى جميع أنواع البؤس كاعتراض وكشيء ينبغي في جميع الأحوال إزالته، فذلك هو عين الحمق، وإذا ما حسبنا لها الحساب الأقصى فهي كارثة كبرى من حيث النتائج المنجرّة عنها؛ قدرٌ أعمى على درجة من الغباء تعادل حماقة إرادة إزالة الطقس الرديء ـ رأفة بالفقراء مثلا... (...) ومن حسن الحظ أن الحياة ليست متأسسة وفقا لتلك الغرائز التي تجد فيها دابّة القطيع سعادتها الضيّقة. إن المطالبة بأن يغدو الكل «إنسانا صالحا»، دابّة قطيع، أزرق العينين، خيّر النوايا، «روحا جميلة»، أو غيرانيّا، كما يتمنى ذلك السيّد هربرت سبنسر، فذلك معناه أن يُسلب الوجود عظمة طبعه؛ أي إخصاء الإنسانيّة والنزول بها إلى مستوى chinoiseries (بالفرنسية في النص) ـ سخافات بائسة. وقد حصلت تلك المحاولات بالفعل!... وذلك بالضبط ما سمّي بالأخلاق... وفقا لهذا المعنى يدعو زرادشت الصالحين «حثالة البشر» حينا، و«بداية النهاية» حينا آخر، وفي كل الأحوال يعتبرهم الصنف الأكثر ضررا من بين البشر، ذلك أنهم يفرضون وجودهم على حساب الحقيقة كما على حساب المستقبل...» (منشورات الجمل ٢٠٠٣).

(١) ترد هذه الجملة في المخطوطة النهائية المقدمة للطباعة قبل التنقيحات الأخيرة: «أي إخوتي، هل فهمتم هذه الكلمة أيضا؟ وما قلته ذات يوم عن «الإنسان الأخير»؟ وأن ذلك هو الإنسان الذي لم يعد قادرا على احتقار نفسه»؟

تفرون مني؟ أخائفون أنتم؟ أوترتعدون أمام هذه الكلمات؟

أي إخوتي، عندما طالبتكم بتحطيم الصالحين وألواح الصالحين، عندها فقط أبحرت بالإنسان في بحره الأبعد.

والآن فقط يداهمه الذعر الكبير والالتفات حواليه والغثيان الكبير ودُوار البحر الكبير.

سواحل وهمية وأمانًا كاذبا ظل يعلمكم أهل الصلاح؛ داخل أكاذيب الصالحين ولدتم، وفي حضنها كان مخدعكم الآمن[١]. وكل شيء مزوّر في العمق ومحرّف من طرف الصالحين.

لكن الذي اكتشف «الأرض ـ الإنسان» قد اكتشف أرض «مستقبل الإنسان» أيضاً. والآن عليكم أن تغدوا لي نوتيين متحفّزين، صبورين!

لتسيروا منتصبي القامة وفي الوقت المناسب. لتتعلموا المشي منتصبي القامة يا إخوتي! فالبحر هائج مضطرب؛ والكثيرون يريدون الاستناد عليكم كي ينهضوا من جديد.

البحر يميد مضطربا؛ وكل شيء في البحر. لتنهضوا! إلى الأمام! يا من تسكن قلوبكم عزائم الملاّحين القدامى!

أيّ وطن آباء! بل **إلى هناك** يريد شراعنا حيث **وطن أبنائنا!** إلى هناك، وبأعتى من اندفاع البحر الهائج يندفع حنيننا الأكبر هائجا مضطربا.

---

(١) يحيل مونتي وكولليناري هنا على المزامير؛ الاصحاح ٥١/ ٥: «ها أنذا بالإثم صُوّرت وبالخطيئة حبلت بي أمّي».

٢٩

«لِم هذه القسوة؟ قال الفحم الحجري ذات مرة مخاطبا حجر الماس؛ أليستْ بيننا قرابة ونسب؟» ـ

لِم هذا اللين! هكذا أسألكم **أنا** يا إخوتي: ألستم بإخوتي؟

لِم أنتم ليّنون مُلاينون وملاءِمون؟ لِم كل هذا النكران والتنكر الذي يعمّر قلوبكم؟ وهذا القليل القليل من إرادة المصير في نظرتكم؟

ألا تريدون أن تكونوا قدرا، ومصيرا لا يقهر؟ فكيف يمكنكم أن تنتصروا معي إذًا؟

وإذا ما كانت قسوتكم لا تلتمع وتقطع وتفصل؛ فكيف يمكنكم أن تبدعوا معي؟

إذ قساةٌ هم المبدعون فعلا. ولتجدوا غبطتكم إذًا وأنتم تُحكمون أيديكم في آلاف السنين كما لو كانت تعرك شمعا، ـ

غبطةً ينبغي أن تخطوا على إرادة آلاف السنين كما النقش على لوح من البرونز، ـ أصلب من البرونز، وأنبل من البرونز، ـ وحده المعدن الأكثر نبلا يكون شديد الصلابة.

هذا اللوحَ الجديدَ يا إخوتي أعلقه فوقكم: **لتغدوا قُساةً!**[١].

---

(١) عن القسوة كشرط من شروط المبدع يكتب نيتشه في **هذا هو الإنسان** ـ ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة؟ فصل «هكذا تكلم زرادشت»؛ الفقرة ٨: «إيه يا معشر البشر، في الحجر يرقد تمثال؛ صورة الصور! (...) والآن هي ذي مطرقتي تضرب بحنق على جدار سجنه، ومن الحجارة تتطاير الشظايا ترابا: ما الذي يهمني في ذلك! (...) إن حدة المطرقة ورغبة التدمير ذاتها تعدّ شروطا أوليّة لا غنى عنها بالنسبة للمهمة الديونيزية. وإنّ الأمر القائل: «كونوا قساة أشدّاء»، والقناعة الأساسية بأن كل المبدعين قساة لهي العلامة المميّزة لجبلّة ديونيزية. ـ».

أنت يا إرادتي! يا منعرج كل فاقة، ويا ضرورتي! لتحرسيني من كل انتصار حقير!

أنت يا قدر روحي الذي أسميه مصيرا! أنت الذي في داخلي! والذي فوقي! لتحرسني وتحفظني لمصيرٍ أكبر!

لتصوني عظمتك الأخيرة يا إرادتي لهدفك الأقصى، ـ كي تكوني في انتصارك ثابتة لا تنثنين! آه، من ذا الذي لم يستسلم لسطوة انتصاره!

آه، أي عين لم تتعتّم في ذلك الغروب الثمِل! آه، أي قدمٍ لم تترنح وتنسى في الانتصار ـ قدرتها على الوقوف من جديد! ـ

ـ ليكنْ لي أن أغدو في يوم ما جاهزا وناضجا في الظهيرة الكبرى: جاهزا وناضجا مثل معدن ملتهب، سحابة حبلى ببرق ورعود، وضرعا ممتلئا:

ـ جاهزا لنفسي ولإرادتي الأكثر خفاء: قوسا متوهجا بالحنين إلى سهمه، سهما متوهجا بالحنين إلى نجمه:

ـ نجما جاهزا وناضجا في ظهيرته، ملتهبا، مختَرَقا، سعيدا بسهام الشمس التي تحرقه وتبيده:

ـ شمسا وإرادة شمس لا تنثني، مستعدة للهلاك في الانتصار!

أيتها الإرادة، يامنعرج كل فاقة، أنت يا ضرورتي! لتحفظيني لانتصار عظيم! ـ

هكذا تكلم زرادشت.

النّاقِه(١)

١

ذات صباح، وبعد عودته إلى مغارته بقليل قفز زرادشت من مضجعه مثل المسعور وراح يصرخ بصوت حانق مخيف ويحرك يديه كما لو أن أحدا ما يزال مضطجعا في مرقده لا يريد النهوض؛ وكان صوته يدوي ملعلعا مما جعل كلا حيوانيه يهرعان إليه مذعورَيْن، ومن

---

(١) هناك نصان جمعهما نيتشه في هذا الفصل الموحد (كما يلاحظ مونتي وكولليناري): النص الأول يتكون من الفقرة ١ كلها والجملة الأولى من الفقرة ٢. وهي شذرة من المسودات جاءت تحت عنوان «المؤامرة الكبرى». وقد كان من المفترض أن يُختتم بها الكتاب الثالث من «هكذا تكلم زرادشت». وفي المخطوطة الأولى يرد أيضا: «مرات عديدة كنت موجودا، ومرات عديدة سأكون: بين الموت والبداية الجديدة تمتد دورة الوجود المغرورة. ـ كل شيء يمضي ويفنى ـ كل شيء يعود ـ وهذا المضي والفناء يعود هو أيضاً من جديد. هذا الآن كان هنا في ما مضى ـ مرات لا تحصى كان هنا. ـ هذا المبدأ لم يُعلّم به ابدا من قبل. ماذا؟ بل قد عُلم عددا لا يحصى من المرات ـ عددا لا يحصى من المرات علّمه زرادشت». لكنه سبق لنا أن التقينا بهذا العود الأبدي في كلام الجامعة سليمان بن داود؛ سفر الجامعة؛ الاصحاح الأول/ ١ ـ ١١ (انظر الهامش ٢٢٧ أدناه)، ونيتشه يعرف ذلك بطبيعة الحال. لكن الفارق الهام بين كلام الجامعة وهذا الإثبات النيتشوي لمبدأ العود الأبدي يتمثل في أن الأول يأتي في شكل تبرم يفضي إلى اعتبار الكل باطل وقبض الريح؛ الانتهاء إلى رؤية عدمية ـ، بينما يرد الثاني في هيأة إثبات واستجابة إثباتية Bejahung.

كل المغارات المحاذية لمغارته انطلقت كل البهائم فزعة، طائرة، مرفرفة، زاحفة، قافزة بكل ما كانت تسمح لها قوائمها وأجنحتها من قدرة. لكن زرادشت تكلم بهذه الكلمات:

اصعدي أيتها الفكرة السحيقة من أعماقي! إنني صياح ديكك وفجرك الطالع، أيتها الدودة النائمة: انهضي! انهضي! ولْيقظّ صوتي مضجعك، صياحَ ديكٍ يوقظك من نومك!

أزيحي السدّادات عن أذنيك: استمعي! لأنني أريد أن أسمع صوتك! انهضي! انهضي! إن هنا ما يكفي من الرعود لكي تتعلم حتى القبور الإصغاء!

لتفركي عينيك وتزيحي عنهما النعاس وكل تبلّد وعماء! لتسمعيني بعينيك أيضا: إن صوتي لدواء حتى للعُميان من الولادة[١].

وإذا ما استيقظتِ فمستيقِظةً دوما أريد أن أراك. إذ ليس من طبعي أن أوقظ جدّات الجدّات من نومهن كي أقول لهنّ: واصلي نومك[٢]!

تتحركين؟ تمطّين أعضاءك وتغمغمين؟ انهضي! انهضي! بلا غمغمة؛ بل أريدك أن تكلميني! إن زرادشت يناديك، زرادشت الكافر!

---

(١) إحالة على كرامات يسوع المسيح الذي يجعل العميان من الولادة يبصرون.

(٢) إحالة ضمنية ساخرة على استحضار روح «إيردا» (إلهة من الميثولوجيا الجرمانية) في أوبرا «زيغفريد» لريتشارد فاغنر. أنظر كتاب «قضيّة فاغنر»؛ الفقرة ٩: «لنأخذ مثالا أن فاغنر يحتاج ضرورةً إلى صوت أنثوي. ذلك أن فصلا بكامله من دون صوت أنثوي ـ فذلك ما لا يستقيم! لكن «البطلات» جميعهنّ مشغولات في هذه الآونة. ما الذي يفعله فاغنر إذًا؟ إنه يوقظ أقدم أنثى في العالم ـ إيردا: «إنهضي أيتها الجدة العجوز!» «يجب أن تغنّي!» وتغني إيردا. وإذا فاغنر قد حقق بغيته. ومباشرة بعدها يقصي السيدة العجوز مجدّدا. «ما الذي جاء بك بالنهاية؟ تنحّي! لتعودي إلى نومك أرجوك!»».

أنا، زرادشت المنافح عن الحياة، المنافح عن الألم، المنافح عن الدورة الأبدية ـ أناديك أنت يا فكرتي السحيقة!

يا لسعادي! ها أنت قادمة ـ إنني أسمعك! عمقي السحيق **يتكلم**، وعمقي القصي قد طرحته للنور!

يا لسعادتي! ناوليني يدك ـ ـ ها! دعي ذلك! هاها! ـ قرف، قرف، قرف ـ ـ ـ يالشقائي!

٢

وما إن فرغ زرادشت من هذا الكلام حتى تهاوى مجددا مثل الميت، وكالميّت ظل طويلا بلا حراك. لكنه بعد أن عاد إلى وعيه كان شاحبا مرتعدا، ولمدة من الزمن ظل ممددا عازفا عن الأكل والشراب. لسبعة أيام ظل على تلك الحالة؛ وكان حيواناه لا يغادرانه ليلا نهارا، عدا النسر الذي كان يطير بين الحين والآخر بحثا عن طعام. وكل ما كان يختطفه ويجلبه كان يضعه على فراش زرادشت، حتى غدا هذا الأخير ممددا تحت كم هائل من التوت الأصفر والأحمر والعنب وتفاح وردي وأعشاب زكية الرائحة وثمار صنوبر. وإلى قدميه كان ينطرح خروفان قد اختطفهما النسر بعد عناء من راعي القطيع.

أخيرا، وبعد سبعة أيام انتصب زرادشت جالسا فوق مخدعه وتناول تفاحة وردية قربها من أنفه فوجد رائحتها ذكية. عندها ظن حيواناه أن الوقت قد حان للتحدث إليه.

«أي زرادشت ها أنك منذ سبعة أيام مستلقٍ بجفنين ثقيلين؛ ألا تريد أن تنهض أخيرا وتقف على قدميك؟

أخرج من مغارتك؛ إن العالم ينتظرك مثل جنان. الريح تلعب بروائح زكية دسمة تريد كلها أن تأتي إليك؛ وكل الجداول تريد أن تنساب جارية نحوك.

كل الأشياء يهزها الشوق إليك، لأنك منذ سبعة أيام وحيدا تجلس؛ لتخرجْ من مغارتك! إن الأشياء جميعها تود أن تكون طبيبا لك!

هل هناك حقيقة جديدة حامضة وثقيلة قد جاءت إليك؟ مثل عجين مختمر كنت تستلقي هنا، وروحك قد انتفخت فائضة على حوافّها من جميع الجهات. ـ».

ـ أي حيوانيّ، قال زرادشت، استمرا في ثرثرتكما ودعاني أستمع! إن ذلك ينعشني؛ فحيثما تكون هناك ثرثرة يكون العالم منبسطا أمامي مثل جنان.

ما أعذب ذلك، أن تكون هناك كلمات وأصوات! أليست الكلمات والأصوات أقواس قزح وجسورا وهمية بين كائنات منفصلة إلى الأبد؟

لكل نفس عالمها المختلف؛ ولكل نفس تكون كل نفس أخرى عالما ماورائيا.

وبين أكثر المتشابهات تشابها بالذات، تكون المظاهر أكثر خداعا؛ ذلك أن أصغر الفجوات لهي أشدها استعصاء على التجاوز.

وبالنسبة لي ـ كيف يمكن أن يكون هناك خارجٌ ـ عنّي؟ ليس هناك من خارج. لكننا ننسى ذلك مع كل هذه الأصوات؛ ـ لكم هو لذيذ أن ننسى!

ألم تُمنح الأشياء أسماء وأصواتا من أجل أن يجد الإنسان راحته

في الأشياء؟ حمقٌ جميل لَهُو الكلام؛ بواسطته يرقص الإنسان فوق الأشياء كلها.

كم لذيذ هو كل كلام وكل أكاذيب الأصوات! بأصوات منغّمة ترقص نفسنا فوق أقواس قزح زاهية الألوان. ـ

ـ «أي زرادشت، قال حيواناه تعقيبا على كلامه، إن الأشياء نفسها هي التي ترقص بالنسبة لمن يفكر مثلنا: تأتي وتمد أيديها لبعضها البعض وتضحك وتفر ـ وتعود.

كل شيء يمضي، كل شيء يعود؛ وبصفة أبدية تدور عجلة الوجود. كل شيء يموت، وكل شيء يينع من جديد؛ بصفة أبدية تمضي الدورة السنوية للوجود.

كل شيء ينكسر، وكل شيء يلتئم من جديد؛ بصفة أبدية يظل يُبنى بيت الوجود. كل شيء ينفصل، وكل شيء يلتقي من جديد؛ بصفة أبدية تظل دورة الوجود وفيّة لذاتها[1].

في كل لحظة يبدأ الوجود؛ حول كل **هنا** تدور الكرة **هناك**. في كل مكان هو المركز. منعرجة هي طريق الأبدية».

ـ أيها المهرّجان العابثان وطاحونة الثرثرة! أجابهما زرادشت وهو

---

(١) كل هذه الفقرة التي تتكلم عن العود الأبدي هي استنساخ يكاد يكون حرفيا للإصحاح الأول بكامله من كلام «الجامعة» سليمان ابن داود. أ نظر مثلاً ٥ ـ ٦: «دوْر يمضي ودوْر يجيء والأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق. الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال. تذهب دائرة دورانا وإلى مداراتها ترجع الريح».، ثم ٩ ـ ١٠: «ما كان فهو ما يكون والذي صُنع فهو الذي يُصنع فليس تحت الشمس جديد. إن وُجد شيء يقال عنه أنظر هذا جديد، فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا».

يضحك من جديد، إنكما تعلمان جيدا بما كان ينبغي أن يُنجَز خلال سبعة أيام:

ـ وكيف اندس ذلك الوحش الفظيع في حلقي وكاد يخنقني(١)! لكنني عضضت على رأسه ولفظته بعيدا عني.

وأنتما، ـ ها قد جعلتما من تلك الواقعة لازمة تلوكانها؟ لكن ها أنا أستلقي الآن هنا، ومازلت متعبا مما عضضت وما لفظت، مريضا لم أشف بعد من مما فعلت لأجل خلاصي(٢).

وقد شاهدتما ذلك كله؟ أيْ حيوانيّ، أفظيعان أنتما أيضا؟ أكنتما تريدان التفرج على آلامي كما يفعل الآدميون؟ إن الإنسان حقا لأشد الحيوانات فظاعة.

في مسرحيات المآسي وفي مصارعة الثيران وأعمال الصلب كان يجد دوما أكثر ما يغمره سعادة على وجه الأرض؛ وعندما اخترع الجحيم، كان ذلك هو جنته على الأرض.

---

(١) قارن مع ما ورد في فصل «الرؤية واللغز» (الراعي الذي اندس في حلقه ثعبان)

(٢) في شذرات المسودات هناك صياغتان أخريان مختلفتان قد تم تكثيفهما هنا في هذا المقطع القصير وهما: (أ): «أي حيوانيّ، أجابهما زرادشت ضاحكا من جديد، عن أية سعادة أخيرة تحدثانني هنا؟ لكنها ما تزال بعيدة، بعيدة عن روحي الخرقاء./ مرض عذب عجيب إسمه نقاهة ما يزال يجثم فوقي./ حقا خرقاء هي سعادة الناقه، وكلاما أخرق [تغني] تتكلم: صغيرة غرّة ما تزال، ياحيوانيّ. فلتكونا صبوريْن معي لمدة من الزمن! هكذا تكلم زرادشت.

(ب) مرض عذب أخرق إسمه نقاهة ما يزال يجثم فوقي. ربيع جديد يسري في كل أغصاني؛ إنني أسمع صوت ريح الجنوب. خجل جديد يرزح بثقله عليّ: إلى لحاف من أوراق داكنة جديدة يهفو خجل سعادتي الجديدة. أي حيوانيّ، هل أنا أتكلم كلاما أخرق؟/ صغير غرّ ما يزال ربيعي الجديد: كلاما أخرق يجب أن تتكلم كل نقاهة جديدة حديثة الولادة. أي حيوانيّ ـ لتكونا صبوريْن معي!/ هكذا تكلم زرادشت.

وعندما يصرخ الرجل العظيم، بسرعة يطير إليه الصغير ولسانه يتدلى من شدقيه من شدة التلهف على المشهد. لكنه يسمي ذلك «شفقة».

الإنسان الحقير، والشاعر على وجه الخصوص ـ بأي حماس ينطق باتهام الحياة! استمعوا إليه، لكن لا تفوتنكم الشهوانية التي تنضح بها كل اتهاماته.

هؤلاء الذين يتهمون الحياة تتجاوزهم الحياة وتستهزئ بهم بغمزة عين. «أنت تحبني؟ تقول الجسورة، انتظر قليلا، فليس لديّ وقت لك الآن».

إن الإنسان أفظع الحيوانات مع نفسه؛ ولدى كل أولئك الذين يُدعون «مخطئين» و«حاملي الصلبان» و«التائبين»، لتنتبهوا كي لا تفوتكم الشهوانية التي تسكن شكواهم واتهاماتهم!

أما أنا ـ أأريد أن أكون بهذا متّهِما للإنسان؟ آه يا حيوانيّ، هذا هو كل ما تعلمت إلى حد الآن، وهو أن الإنسان بحاجة إلى الأسوأ من أجل خيره الأكبر.

ـ وأن الشرّ الأكبر هو **طاقته** الكبرى، والحجر الأكثر صلابة بالنسبة للمبدع الأرقى؛ وأنه على الإنسان أن يغدو أفضل، وأكثر شراً[(١)].

وإنني لم أكن مسمّرا على عمود التعذيب **هذا** بمعرفتي بأن الإنسان شرّير، ـ بل كنت أصرخ كما لم يصرخ أحد البتة:

«أواه، لكم هو صغير شرّه الأعظم! آه، لكم هو صغير خيره الأعظم!».

---

(١) قارن مع الفقرة ٢٩٥ من ما ورء الخير والشر.

إن **القرف** الكبير من الإنسان **هو الذي** كان يخنقني ويتكور في حلقي؛ ونبوءة العرّاف الصائبة إذ رأت(*): «كل شيء سواء، لا شيء جدير بالعناية، وإنّ المعرفة تخنق صاحبها»(١).

غروب طويل كان يتقدم عرجا أمامي، وحزن منهك تعبا، مدمَّر سكرا هو الذي كان يتكلم بفم متثائب:

«عَودًا أبديا يعود الإنسان الذي سئمته؛ الإنسان الحقير». ـ هكذا كان حزني يتثاءب مجرجرا قدمه ولا يستطيع أن ينام.

مغارةً تحوّلت أرض الإنسان بالنسبة لي، صدرها قد ترهل وتجوّف، وقذارةً غدا في عيني كل كائن حيّ، وعظاما وماض متعفّناً.

جاثية فوق القبور البشرية كانت زفراتي، لا تستطيع الوقوف؛ زفراتي وسؤالي تنعق وتخنقني وتقضمني ولا تكف عن التذمر ليلا نهارا:

(*) هنا أيضاً شيء من الغموض المقصود يتعمده نيتشه في استعمال عبارتين متجانستين في هذه الصيغة: was der Wahrsager wahrsagte وتعني «ما تنبأ به المتنبئ»، أو «ما رأى الرائي» وإذا ما أردنا ترجمة حرفية: «ماقال الرائي عن حق»، أو «عن صواب». وقد قادت بعض الترجمات الفرنسية الخاطئة، أو غير الدقيقة، من نوع: «cette parole du prophète» (كما لو أن نيتشه قال: «was der Wahrsager sagte») المترجم العربي إلى التغافل عن هذه الفارقة الهامة في العبارة والتي تدل على أن نيتشه أثناء اختناقه قرفاً كان هو أيضاً على رأي العراف، ولذلك فهو لم يكن مشمئزا من نبوءة العراف فقط، بل من اعتقاده هو أيضاً في فحوى تلك النبوءة. ذلك ما تفشيه كلمة wahrsagen إيماء وتلميحا. ، وستأتي الجمل اللاحقة لتثبت ذلك: «عَودًا أبديا يعود الإنسان الذي سئمته؛ الإنسان الحقير». وا أسفاه، عوداً أبديا يعود الإنسان! عوداً أبديا يعود الإنسان الحقير!» وكذلك الجمل الأخرى التي تليها.

(١) أنظر «الجامعة» ـ الاصحاح ١/ ١٧ ـ ١٨: «ووجّهت قلبي بمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل، فعرفت أن هذا قبض الريح. لأنّ في كثرة الحكمة كثرةُ الغمّ والذي يزيد علما يزيد حزنًا».

ـ وا أسفاه، عوداً أبديا يعود الإنسان! عوداً أبديا يعود الإنسان الحقير!».

عارييْن كليهما رأيت ذات مرة أحقرَ الناس وأعظمَهم: متشابهيْن جدا وجدتهما؛ مفرط في الإنسانية أعظمهم أيضا!

صغير جدا هو أعظمهم! ـ ذلك كان علّة قرفي من الإنسان! عود أبدي للإنسان الحقير أيضا! ـ لقد كان ذلك مصدر قرفي من الوجود بكلّيته.

آه، قرف! قرف! قرف! ـ هكذا تكلم زرادشت وهو يتنهد ويرتعد؛ إذ عاودته عندها ذكرى مرضه. لكن حيوانيه منعاه من مواصلة الكلام.

«كفاك كلاما أيها الناقهُ! هكذا خاطبه حيواناه، ـ بل لتخرج إلى حيث العالم في انتظارك مثل جنان.

أخرج إلى الورود والنحل وأسراب الحمام! وإلى الطيور المغنية خاصة؛ ـ كي تتعلم منها **الغناء!**

إن الغناء ملائم للناقه؛ أما المعافى فيحبّ الكلام. وإذا ما أراد المعافى أناشيد، فإنه يريد أناشيد أخرى غير تلك التي للناقه».

ـ «أيها المهرجان العابثان ويا طاحونة الكلام! لتخرسا! ـ هكذا أجابهما زرادشت وهو يضحك من حيوانيه. ما أدراكما بما ابتكرت لنفسي من العزاء خلال سبعة أيام!

أن ينبغي عليّ أن أغنّي ـ ذلك العزاء قد ابتكرته لنفسي وهذه النقاهة؛ أتريدون أن تجعلوا منها هي أيضاً أغنية تلوكونها؟

ـ «كفاك كلاما، أجابه حيواناه؛ بل إنه من الأفضل أن تصنع لك قيثارة أيها الناقه؛ قيثارة جديدة!

ألا ترى يا زرادشت، أنك بحاجة لقيثارات جديدة من أجل أغانيك الجديدة!

لتغنّ ولتهدرْ يا زرادشت، ولتشف روحك بأغان جديدة؛ كي تستطيع أن تحمل قدرك العظيم الذي لم يسبق أن كان قدرا لإنسانٍ حتى الآن!

ذلك أن حيوانيك يعرفان من أنت يا زرادشت وماذا ينبغي أن تصير؛ أنظر، **إنك معلم العَوْد الأبدي** ـ ذلك هو قدرك الآن!

وأن تكون أول من سيكون عليه أن يكرز بهذا التعليم، فكيف يمكن لهذا القدر أن لا يكون خطرك الأعظم وداءك الأكبر إذًا!

أنظر، إننا نعرف ما الذي تعلّمه: أن الأشياء جميعا في عود أبدي ونحن معها، وأننا كنا لمرات عديدة هنا، وكل الأشياء معنا.

إنك تعلّم بأن هناك سَنة عظمى للصيرورة، سَنة فظيعة العظمة؛ شيء لا بد له، كما الساعة الرملية، أن يظل على الدوام ينقلب وينقلب مجددا كيما يستطيع أن يمضي في سيره من جديد وينقضي:

بما يجعل كل هذه السنين متشابهة بما فيها من عظيم ومن حقير، ـ بما يجعلنا نحن أيضاً في كلّ من هذه السنوات العظمى متشابهين مع أنفسنا، في كل عظيم وحقير.

وإذا ما أردت أن تموت الآن يازرادشت، فإننا نعرف أيضاً بما يمكن أن تتكلم إلى نفسك عندها: لكننا نحن حيواناك نرجوك أن لا تموت الآن!

سيمكنك أن تتكلم دون أن ترتعش، بل وأنت تتنفس ملء رئتيك غبطة؛ ذلك أن عبئا واختناقا سيكون قد رُفع عنك، أيها الصبور الذي لا يضاهى صبرا! ـ

«الآن أموت وأضمحل، سيمكنك عندها أن تقول، وبعد لحظة سأكون لاشيء. فالأرواح فانية كما هي الأجساد.

لكن شبكة العلل التي أرتبط بها تعود مجددا، وهي التي ستبعثني إلى الوجود من جديد! فأنا نفسي جزء من علل العَوْد الأبدي.

سأعود مع هذه الشمس، مع هذه الأرض، مع هذا النسر ومع هذه الحيّة ـ ليس لحياة جديدة أو حياة أفضل أو حياة مشابهة:

ـ عودًا أبديا أظل أعود إلى هذه الحياة نفسها وذاتها بما فيها من عظيم ومن حقير، كي أعلّم العوْد الأبدي للأشياء كلها من جديد، ـ

ـ كي أنطق بكلمة ظهيرة الأرض والإنسان الكبرى، وأن أبشر الإنسان بالإنسان الأعلى.

لقد قلت كلمتي، والآن أتحطم بكلمتي: ذلك هو قدري الأبدي ـ، مبشّرا أمضي إلى حتفي!

لقد حانت الساعة الآن كي يبارِك المنحدرُ إلى حتفه نفسَه. هكذا ـ **يتمّ** انحدار زرادشت نحو الأفول». ـ

ولما فرغت البهيمتان من هذا الكلام صمتتا وظلتا تنتظران أن يقول زرادشت لهما شيئا. لكن زرادشت لم يدرك أنهما قد صمتتا. بل إنه ظل مستلقياً ساكناً بعينين مغمضتين، وهو أشبه بالنائم وما هو بنائم؛ ذلك أنه كان يتحاور مع روحه. لكن النسر والحية وهما يرَيانه على مثل هذا السكون، قدّرا ذلك الصمت الكبير من حوله وانصرفا بهدوء.

عن الشوق الأعظم[١]

لقد علمتك يا نفسي[٢] أن تقولي «اليوم» كقولك «من قبل» و«في ما مضى»، وأن تمضي راقصة في ماوراء الهنا وهناك وهنالك.

لقد خلصتك يا نفسي من كل ثني وكنست عنك الغبار والعنكبوت وبدّدتُ العتمة.

لقد جلوْت عنك الخجل الحقير يا نفسي والفضائل المشبوهة وأقنعتك بأن تقفي عارية أمام عين الشمس. بإعصار إسمه «عقل» نفختُ فوق بحرك المتموّج، وكلَّ السحب الداكنة قد كنستُ عن صفحته وخنقت الخانقةَ نفسها، تلك التي تدعى «خطيئة».

---

(١) العنوان الأولي في المخطوطة الأولى كان: «أريان». ويضيف مونتي وكولليناري هنا بأن فصل «الأختام السبعة» كان يحمل بدء عنوان «ديونيزوس». وعن أريان كصورة تجسّد روح زرادشت، يحيل م. وك. على الشذرة ١٣ [١] من كنشات صائفة ١٨٨٣: «ديونيزوس ممتطيا نمرا؛ فوق جمجمة عنز؛ فهد. أريان حالمة: «مهجورة من البطل أحلم بالبطل الأعلى». أما عن ديونيزوس فلا تحدّث!» ـ أنظر أيضاً الجملة الأخيرة من فصل «ذوي المقام الرفيع/ عن أصحاب السموّ» ـ الكتاب الثاني من هكذا تكلم زرادشت: «إذ هذا هو سر الروح؛ فقط عندما يكون قد هجرها البطل، يقترب منها في الحلم ـ طيف البطل الأعلى».

(٢) «أيا نفسي!»، قارن مع الصيغة التي ترد أحيانا في المزامير، المزمور ١٠٣/ ١و٢ على سبيل المثال: «باركي يا نفسي الربَّ. . . .، باركي يانفسي الربّ ولا تنسي كل حسناته».

حقّاً أمنحك يا نفسي في أن تقولي «لا» مثل إعصار و«نعم» مثل سماء صافية: ساكنة مثل النور تقفين الآن وتمضين عبر أعاصير نافية.

لقد أعدت إليك يا نفسي حرية سلطانك على كل ما خُلق وما لم يُخلق؛ ومن ذا الذي مثلك يعرف تلك الرغبة الشبقيّة في كل ما هو مستقبليّ؟

لقد علمتك يا نفسي احتقارا لا من ذلك الذي يتكوّن كنخر السوس، بل الاحتقار العظيم المحِب الذي لا يحب أكثر مما يفعل وهو يحتقر أشد الاحتقار.

لقد علمتك يا نفسي فنّ الإقناع بما يجعل الأسس والأعماق نفسها تنقاد إليك؛ تماما كالشمس تجعل البحر يرتفع مندفعا توقا إلى أعاليها.

لقد رفعت عنك يا نفسي ركوع الطاعة ولفظ سيّدي؛ ومنحتك أنت إسم «منعرج الضرورة» و«القدر».

لقد منحتك يا نفسي أسماء جديدة ولعبا ملوّنة؛ سمّيتك «قدرا» و«دائرة الدوائر» و«حبل سرة الزمن» و«جرسا لازورديًّا».

لقد منحتك يا نفسي كل الحِكم شرابا لتربتك، وكل الخمور الجديدة وكل ما لا يتصور من خمور الحكمة المعتّقة القوية.

لقد سكبت عليك يا نفسي كل شمس وكل ليل وكل صمت وكل شوق؛ ـ وهكذا ترعرعتِ لي مثل كرْمة.

ممتلئة ثراء وثقيلة تنتصبين يا نفسي الآن هنا؛ كرمة بأثداء مكتنزة وحبات عنب ذهبية متلاصقة:

ـ غاصّة مضغوطة بسعادتك، منتظرة بزخمك وخجولة في الآن نفسه من انتظارك.

أي نفسي، ما من نفس هناك بإمكانها أن تكون الآن أكثر حبا وأكثر تقبّلا وأكثر رحابة! وأين يمكن أن يكون المستقبل والماضي أكثر قربا واقترانا كما لديك أنت؟

لقد وهبتك كل شيء يا نفسي، ويداي قد أفرغتهما في العطاء: والآن! الآن تقولين لي مبتسمة وبكل كآبة: «من منا ينبغي عليه أن يشكر الآخر؟ ـ

ـ أليس على الواهب أن يكون شكورا لأن المتسلّم قد تسلّم من يده؟ أليس العطاء ضربا من الحاجة؟ أليس الأخذ رحمة؟» ـ

إنني أفهم ابتسامة كآبتك يا نفسي؛ ففيض ثرائك هو الذي يمد يديه المفعمتين رغبة!

زخم ثرائك يرسل نظره في ما وراء البحار الهادرة، يبحث وينتظر؛ إن رغبة فائض وفرتك تتوهج في سماء عينك الباسمة.

حقا أقول لك يا نفسي! من سيرى ابتسامتك دون أن يذوب سيلا من الدموع؟ إن الملائكة نفسها لتذوب سيلا من الدموع لمرأى فيض الطيبة التي في ابتسامتك.

طيبتك وسخاؤك المفرط هي التي لا تريد أن تبكي وتشتكي: ومع ذلك فإن ابتسامتك تحن إلى دموع يا نفسي، وفمك المرتعش إلى زفرة!

«أوليس كل بكاء شكوى؟ وكل شكوى شكاية؟» هكذا تتحدثين إلى نفسك، ولذلك تفضلين الابتسام على أن تنثري أوجاعك يا نفسي.

ـ أن تنثري في دفق من الدموع أوجاع فيضك وأوجاع الكرمة يهصرها الشوق إلى الكرّام ومقص الكرّام!

لكن، إن كنت لا تريدين البكاء ولا أن تُغرقي في الدموع كآبتك القرمزية، فسيكون عليك أن **تغنّي** إذًا، يا نفسي! ـ أنظري، ها أنني بدوري أبتسم، أنا الذي أنبؤك مسبقا بما يلي:

ـ أن تغني بأناشيد هادرة حتى تغدو كل البحار ساكنة كي تصغي إلى رغبتك، ـ

ـ وحتى يطفو الزورق الذهبي على سطح البحر الساكن، رائعة الروائع التي تتراقص حول هالته الذهبية وتنط كلُّ الأشياء الحسنة والسيئة والرائعة معا:

ـ وكذلك الكثير من الحيوانات الصغيرة والكبيرة وكل ما له قوائم خفيفة وبديعة كي يستطيع الركض فوق دروب بنفسجية، ـ

ـ جميعا نحو الرائعة الذهبية، نحو الزورق المتقدم طوعًا ونحو سيّده: لكنّ ذاك هو الكرّام الذي ينتظر وبيده المقص الألماسي، ـ

ـ مخلّصك العظيم، يا نفسي، ذاك الذي ليس له من إسم بعد ـ ـ وسيكون على أغاني المستقبل أن تكون أول من سيمنحه إسما! والحق أقول لك، إن أنفاسك لتعبق الآن برائحة أغانٍ مستقبلية، ـ

ـ ها أنت تتحرّقين الآن وتحلمين، ها أنت تكرعين بلهفة من ينابيع السلوان الصاخبة، وها كآبتك تركن إلى السكون داخل غبطة الأغاني المستقبلية! ـ ـ

أي نفسي، ها قد وهبتك كل شيء وآخر ما أملك أيضاً ويداي قد أفرغتهما في العطاء: **وعندما دعوتك إلى الغناء** كان ذلك هو آخر ما أملك!

ولأنني طلبت منك أن تغني، فلتتكلمي الآن، ولتقولي: من منّا الذي ينبغي عليه الآن - أن يشكر؟ - بل أفضل من ذلك وأحَبّ: لتغنّ لي، لتغنّ، يا نفسي! ودعيني أنا الذي أشكر! -

هكذا تكلم زرادشت.

نشيد آخر للرقص[١]

١

«قبل قليل نظرت في عينك أيتها الحياة، وماذا رأيت؟ ذهبا يبرق في دجى عينك رأيت، وإذا قلبي يتوقف عن النبض أمام هذه الشهوة المتأججة:

ـ زورقًا ذهبيا يلتمع فوق مياه الليل الداكنة رأيت، زورقا ذهبيا[٢] متأرجحا ينغمس، يمتلئ ثم يطفو ملوحا من جديد!

ـ بعين راقصة ضاحكة مسائلة ليّنة نظرت إلى قدمي، أنا المحموم بالرقص:

مرتين فقط حركتِ الصنوج بيديك الصغيرتين، وإذا رجلي تميد مستعرة بحمى الرقص. قدماي متحفّزان وأصابع رجلي مشرئبة مصغية تحاول أن تفهمك؛ ـ ترى أتكون أذنا الراقص في أصابع قدميه؟

(١) العنوان الأولي: «vita femina» ـ أنثى هي الحياة. بعدها ترد هذه الجملة: «أحتقر الحياة كأفضل ما يكون الاحتقار: أحب الحياة أكثر من أي شيء: لا تناقض في هذا».

(٢) لقد سبق لنا أن اعترضنا صورة القارب الذهبي في فصلي «عن الألواح القديمة والألواح الجديدة» و«الرغبة العظمى». كما ورد ذكر خصال الذهب في فصل «الفضيلة الواهبة. وفي الشذر ٢٥ (٣٥٢) من كنشات ربيع ١٨٨٤ يكتب نيتشه عن رمز الذهب لدى زرادشت هذه الجملة المقتضبة: «بالنسبة لزرادشت: «الذهبي» كدرجة أرقى».

وقفزتُ نحوك، لكنك ارتدذتِ مولّية أمام قفزتي، مرسلة من شعرك المتطاير الهارب لسانا ملوّحا باتجاهي.

بقفزة ابتعدت عنك وعن ثعابينك؛ لكنك كنت واقفة هناك، ملتفتة بنصفك وعينك تنضح رغبة.

نظراتك الموازبة علمتني دروبا ملتوية؛ وفوق دروب ملتوية تعلمت قدمي حيَلا شتى!

أخافك في القرب، أحبك في البعد؛ فرارك يجذبني وسعيك يجمّدني: أتعذب، لكن أي عذاب لا أذوق طوعا من أجلك!

بردك يُلهب وحقدك يغوي، فرارك يشدّ وسخريتك ـ تحرك المشاعر:

ـ من ترى لم يحقد عليك أيتها المقيِّدة الكبرى، الحاضنة، الغاوية، الباحثة، الواجدة!

ومن ترى لم يعشقك، أنت البريئة، القلقة، المنفلتة كالريح، الآثمة بعين طفل بريء!

إلى أين تجرينني الآن أيتها البديعة الخارقة المارقة؟ والآن ها أنت تفرّين مني مجددا؛ ـ أيها الطائر المتوحّش والمتنكّر للجميل!

ألاحقك راقصا، أتبعك متقفيا أقلّ أثر. أين أنت؟ مدي لي يدك. أو إصبعا فقط.

هنا مغاور وأدغال؛ سيبتلعني التيه! قفي! لا تتحركي! ألا ترين البوم والخفافيش وهي تحلق مخشخشة بأجنحتها؟

أيتها البومة! أيها الخفاش! أتريدين أن تسخري مني؟ أين نحن؟ من الكلاب تعلمتِ هذا العواء والنباح.

تكشرين نحوي بودّ كاذب بأسنانك البيضاء الصغيرة، وعيناك الخبيثتان تقفزان باتجاهي من تحت لِبْدتك الصغيرة الجعداء!

إنها رقصة فوق الجبال والوهاد: أنا الصيّاد، فهل تريدين أن تكوني كلبي، أم الظبي؟

إلى هنا الآن؛ إلى جانبي! وبسرعة أيتها القافزة الشريرة! اقفزي؛ إلى فوق الآن! وإلى جنب! ـ الويل! ها أنني أنا الذي أقع في رقصتي.

آه، أنظري كيف أنني أستلقي طريحا أيتها المغرورة، أتوسل رحمتك! وإنني لأفضّل الآن أن أسلك معك دروبا ألطف وأرقّ.

درب الحبّ بين غياض ساكنة بديعة الألوان! أو هناك على شاطئ البحيرة: هناك تسبح وترقص أسماك ذهبية!

أمتعَبةٌ أنتِ الآن؟ هناك بعيدا توجد خرفان وشفق ملتهب؛ أليس جميلا أن ينام المرء حيث تصدح شبّابات الرعاة؟

أنت متعَبة جدا؟ سأحملك إلى هناك، دعي فقط ذراعيك تتدليان! ظمآنة أنت؟ إنّ لدي ما يمكن أن أقدمه لك، لكن شفتيك لا ترغبان في هذا الشراب! ـ

ـ يا لهذه الحيّة السريعة اللدنة اللعينة، الساحرة الشريرة التي تنزلق من بين الأصابع! إلى أين مضيت؟ لكنني أحسّ بأثرين ليدك على وجهي وبقعتين حمراوين!

لقد مللت حقا أن أظل على الدوام راعيك الليّن الوديع! لقد غنّيت لك كثيرا إلى حد اللحظة أيتها الساحرة الشريرة، والآن سيكون عليك ـ أن تصرخي!

على إيقاع السوط سيكون عليك أن ترقصي الآن وتصرخي! أم تراني قد نسيت السوط؟ ـ كلاّ! ـ

* * *

٢

عندها أجابتني الحياة وهي تحكم يديها على أذنيها اللطيفتين:

«أي زرادشت! لا تصْفق بسوطك بهذا الدوي الفظيع! إنك تعلم بالتأكيد أن الضجيج يقتل الأفكار(١)؛ وها أنّ أفكارا رقيقة تحلّ بذهني الآن.

أنا وأنت كلانا لسنا لا بالخيّريْن ولا بالشريريْن. في ماوراء الخير والشر قد وجدنا جزيرتَنا ومرْجَنا الأخضرَ ـ نحن الإثنان ولا أحد غيرنا! لذلك ينبغي علينا أن نكون ودوديْن مع بعضنا.

وإذا ما كنا لا نحب بعضنا حبا عميقا ـ فهل ينبغي أن نتباغض مع ذلك، إن لم نحب بعضنا من الأعماق؟

أما أنني ودودة تجاهك، بل وغالبا أكثر ودًّا مما ينبغي، فذلك ما لا تجهله؛ والسبب في ذلك هو أنني أغار من حكمتك. آه، يا لتلك الحكمة الحمقاء العجوز الرائعة!

---

(١) نجد ما يماثل هذه الفكرة لدى شوبنهاور في كتاب «Parerga Paralipomena» فصل: «عن الضجيج والأصوات»، حيث نقرأ من بين ما يمكن أن نقرأه من الأشياء الطريفة والمفيدة: «إن الأمة الأكثر فهما وعمقا فكريا من بين الأمم الأوروبية قد عمّدت القاعدة القائلة never interrupt ـ لا تقاطع أبدا ـ بإسم الوصية الحادية عشر. غير أن الضجيج هو أكثر أنواع المقاطعة وقاحة، ذلك أنه يقاطع حتى أفكارنا الخاصة، بل إنه يقصفها».

ولو عنّ لحكمتك أن تتخلى عنك يوما؛ فإن حبّي سينصرف عنك بسرعة هو أيضا!».

ثم نظرت الحياة إلى ما ورائها ومن حولها متفكرة وقالت بصوت خفيض: «أي زرادشت، إنك لست وفيا لي بما فيه الكفاية!

أنت أبعد عن أن تحبني بالقدر الذي يدّعيه كلامك؛ وأعرف أنك تفكر في التخلي عني عما قريب.

هناك جرس عتيق ثقيل مدوّ: يدوّي ليلا ويصعد دويّه إلى مغارتك:

ـ وعندما تسمع ذلك الجرس ساعة منتصف الليل تفكر ما بين الرنة الأولى والرنة الثانية عشر ـ

ـ أي زرادشت، إنك تفكر في ذلك الأمر، وإنني أعرف أنك تريد أن تتخلى عنّي عما قريب!».

«أجل، أجبتها مترددا، لكنّك تعرفين ذلك ـ» ثم همست لها بشيء في أذنها بين جدائل شعرها الأصفر المتداخلة الهائجة.

أوتعرف **ذلك**، يا زرادشت؟ لا أحد يعرف ذلك. ـ ـ ـ

ونظرنا واحدنا إلى الآخر، ورحنا نرقب المرج الأخضر الذي كانت تسري فوقه برودة المساء، وبكينا معا. ـ في تلك اللحظة كانت الحياة أحب إليّ من كل حكمتي. ـ

هكذا تكلم زرادشت

* * *

٣

واحد[١]!

إنتبه أيها الإنسان!

إثنان!

بِم يحدّث منتصف الليل العميق؟

ثلاثة!

لقد نمت، لقد نمت ـ ،

أربعة!

«من حلم عميق افقْت:

خمسة!

عميق هو العالم،

ستّة!

«وأعمق مما كان يظن النهار.

سبعة!

عميقٌ ألمه،

ثمانية!

---

(١) يبدو أن الشذرة ٢٣ (٤) من كنشات أواخر سنة ١٨٨٣ كانت مسودة أولية لهذا المقطع قبل أن يحوّر نيتشه النص ويعطيه صيغته الحالية. «واحد! ساعة منتصف الليل تشرع في الحديث! قادمة من بعيد، صاعدة من هُوى عالم عميق ـ ألديّ، أنا المتوحّد تبحث كلماتها عن مستقر لراحتها الأخيرة؟/ إثنان! الراحة الأخيرة لعالم الأعماق ـ أتراها إذًا في أعالي المعتزل المتوحد؟ وعندما تخترق نغماتها أذني ولحمي وعظامي ـ أتراها تبحث وتجد سلام روحها هكذا؟؟».

والغبطة ـ أعمق من آلام القلب:
تسعة!
مرّ واندثر! يقول الوجع
عشرة!
لكنّ كل غبطةٍ تريد الخلود ـ ،
إحدى عشر!
ـ خلودا عميقا؛ عميقا تريد.
إثنا عشر!

* * *

الأختام السبعة[1]
(أو: نشيد نعم وآمين)

١

إن كنتُ رائيًا وممتلئا بتلك الروح النبوئية المتنقلة فوق شِعْب مرتفع ما بين بحرين، -

مثل سحابة ثقيلة تمضي بين ما مضى وما هو آت، - عدوّا لكل الأودية الرطبة الخانقة وكلّ ما هو متعَب لا هو يستطيع أن يموت، ولا هو قادرٌ على الحياة:

جاهزا للانفجار صواعق تتكوّر في صدري المظلم، ولبروق ساطعة

---

(١) هذا العنوان مستمد من صورة إنجيلية ترد في رؤيا يوحنا الاصحاح ٥/١: «ورأيت على يمين الجالس على العرش سِفرا مكتوبا من داخلٍ ومن وراءٍ ومختوما بسبعة خُتوم».
وعبارة «نعم آمين» مأخوذة هي أيضاً من رؤيا يوحنا الإصحاح ١/٧: «هو ذا يأتي مع السحاب وستنظره كل عينٍ والذين طعنوه وينوح عليه جميع قبائل الأرض. نعم آمين».
- يعلق نيتشه على هذا الفصل في كتاب **هذا هو الإنسان** (ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة - الفقرة ٤): «إن فنّ الإيقاع العظيم والأسلوب الراقي للانتظام الدوري للتعبير عن حركات الصعود والهبوط الرهيبة للصبوة الجليلة والجبّارة قد تم اكتشافها من قِبلي أنا. لقد استطعت بنشيد مدائحي مثل ذلك الذي اختُتم به الكتاب الثالث من زرادشت، تحت عنوان «الأختام السبعة»، أن أحلُق على مسافة ألف ميل فوق كل ما كان يسمّى شعرا حتى ذلك الحين».

مخلِّصة، ممتلئا صواعق تقول نعم! وتضحك نعم! جاهزا لبروق نبوئية ساطعة:

ـ مبارك إذًا من كانت أحشاؤه حبلى بمثل هذا الحمل! والحق أقول لكم، إنه ليجب أن يظل طويلا معلقا فوق الجبال مثل سحابة خريف ثقيلة ذاك الذي سيكون عليه أن يولّع نور المستقبل في يوم ما! ـ

أواه، كيف لا أرنو بحرقة إلى الأبديّة وإلى دورة الدوائر؛ دورة العرس النهائية ـ دورة العوْد!

إنني لم أعثر بعد على المرأة التي يمكنني أن أبتغيها أمًّا لأبنائي، إن لم تكن هذه الأنثى التي أحبّ؛ ذلك أنني أحبّك أيتها الأبدية!

ذلك أنني أحبك أيتها الأبدية!

* * *

٢

وإذا ما حدث أن حطّم حنقي قبورا وحوّل علامات حدود، وقذف بألواح قديمة في هوى سحيقة:

وإذا ما بعثرتْ سخرياتي كلماتٍ متعفنةً، وكنتُ كالمكنسة على عناكب الصلبان، وريحا مطهِّرة تهب على أقبية القبور القديمة العطنة:

وإذا ما كنت أجلس منتش غبطة حيث ترقد رفات آلهة قديمة، مبارِكا للدنيا، محبا للدنيا بالقرب من تماثيل قدماء المفترين على العالم:

ـ ذلك أنني أحب حتى الكنائس وقبور الآلهة عندما تطل السماء

بعينها الصافية من خلال سقوفها المتداعية؛ وإنه ليعجبني أن أجلس، مثل العشب والأقحوان، فوق خرائب الكنائس المتداعية ـ

أواه، كيف لا أرنو بحرقة إلى الأبديّة وإلى دورة الدوائر؛ دورة العرس النهائية ـ دوّرة العودْ!

إنني لم أعثر بعد على المرأة التي يمكنني أن أبتغيها أمًّا لأبنائي، إن لم تكن هذه الأنثى التي أحبّ؛ ذلك أنني أحبّك أيتها الأبدية!

ذلك أنني أحبك أيتها الأبدية!

* * *

٣

وإذا ما هبت عليّ نفحة من نفحات الخلق ومن تلك الضرورة القُدسية التي تُجبر الصدف على الرقص في حلبة فلكية:

وإذا ما ضحكت ضحكة البرق المبدع يتبعها رعد الفعل مزمجرا، لكنه منصاع:

وإذا ما لعبت النرد مع الآلهة على مائدة الأرض القُدُسية حتى تتزعزع الأرض وتنشق وتتدفق أنهارا من الجمر:

ـ ذلك أن الأرض مائدة قُدُسيّة ترتعش تحت كلمات جديدة مبدعة ورميات نرد إلهية.

أواه، كيف لا أرنو بحرقة إلى الأبديّة وإلى دورة الدوائر؛ دورة العرس النهائية ـ دورة العود!

إنني لم أعثر بعد على المرأة التي يمكنني أن أبتغيها أمّا لأبنائي، إن لم تكن هذه الأنثى التي أحبّ؛ ذلك أنني أحبّك أيتها الأبدية!

ذلك أنني أحبك أيتها الأبدية!

٤

وإذا ما شربت حتى الثمالة من ذلك القدح المزبد بخلْطة العقاقير والتّوابل، الذي مُزجت الأشياء كلها داخله خير مزيج[(١)]:

وإذا ما مزجتُ يدي البعيدَ بالقريب، والنارَ بالروح، واللذةَ بالألم، والأسوأ بالأفضل:

---

(١) تتحول الفلسفة لدى نيتشه إلى كيمياء، أو مخبر كيميائي تمزج داخله شتى العناصر (شتى العلوم التاريخية والفيزيائية والطبيعية خاصة) لأن ذلك المزيج الذي لا يقصي شيئا هو مخبر المعرفة الحق لديه. الكيمياء هي طريقة الفلسفة التاريخانية كمقابل ونقيض للفسفة الميتافيزيقية القائمة على إقامة الحدود وتأسيس الثنائيات ونفي لكل علاقة بين الأمر ونقيضه. يتناول نيتشه هذه المسألة بأكثر تفصيل في الفقرة الأولى من الفصل الأول من كتاب «**إنســاني مفرط الإنسانية**»: «إن الإشكالات الفلسفية تطرح نفسها اليوم بنفس الصيغة تقريبا التي كان يُطرح بها سؤالها قبل ألفي سنة: كيف يمكن لشيء أن ينشأ عن نقيضه، كأن ينشأ المعقول عن اللامعقول مثلا، والحسّاس عن الجامد، والمنطق عن اللامنطق، والرؤية اللانفعية عن إرادة التملك، والغيرية عن الأنانية والحقيقة عن الخطأ؟ لقد نجحت الفلسفة الميتافيزيقة إلى حد الآن في تفادي هذه المعضلة بأن نفت نشأة الواحد من الآخر، وافترضت وجود أصل خارق للأشياء التي منحتها قيمة سامية. أصل جعلته نابعا من صميم وجوهر «الشيء في ذاته». وبالمقابل فإن الفلسفة التاريخانية التي لم يعد بالإمكان تصورها بمعزل عن العلوم الطبيعية، هذه الفلسفة التي تمثل أحدث ما توصّل إليه من المناهج الفلسفية قد أقرّت في حالات منفردة (ومن المحتمل أنها ستكون النتيجة التي ستتوصل إليها بشأن الكل) بأنه ليس هناك من نقائض إلا في المبالغة المعتادة للرؤية الشعبية أو الميتافيزيقية، وأن هناك خطأ عقليا كان الأساس الذي انبنت عليه علاقة التعارض هذه: ليس هناك حسب تفسيرها لا سلوكات أنانية ولا رؤية كاملة الغيرانية، والأمران ليسا سوى محض تصعيدات يتراءى العنصر الأساسي المكون لها بخاريا غائما ولا يتجلى حضوره إلا للمعاينة الدقيقة المرهفة. ـ إن كل ما نحتاجه وما لا يمكننا الحصول عليه إلا عن طريق أرقى ما توصلت إليه العلوم الحالية كل على حده هو كيمياء للتصورات والانطباعات الأخلاقية والدينية والجمالية، وكذلك لكل تلك الانفعالات التي نعيشها في كل علاقاتنا الصغرى والكبرى بالثقافة والمجتمع، بل وفي الوحدة: ماذا لو أن هذه الكيمياء تنتهي إلى الاستنتاج بأنه، وفي هذا المجال، يمكن استحضار الألوان=

وإذا ما كنت بدوري حبّة من ذلك الملح المبارك[1] الذي يجعل الأشياء كلها تمتزج خير مزيج داخل إناء الخلط:

ـ ذلك أن هناك ملحا يلْحم الخير بالشر؛ والشرُ هو أيضاً ذو فضائل في التتبيل واستكمال الطفح الأخير:

أواه، كيف لا أرنو بحرقة إلى الأبديّة وإلى دورة الدوائر؛ دورة العرس النهائية ـ دورة العود!

إنني لم أعثر بعد على المرأة التي يمكنني أن أبتغيها أما لأبنائي، إن لم تكن هذه الأنثى التي أحبّ؛ ذلك أنني أحبّك أيتها الأبدية!

ذلك أنني أحبك أيتها الأبدية!

* * *

٥

إن كنت أحبّ البحر وكل ما كان شبيها بالبحر، وأكثر حبّا له عندما يقف في وجهي بحنق؛

وإن كنت أحمل في داخلي تلك الرغبة الباحثة التي تدفع بشراعها نحو أقاصي مجهولة، وإن كانت هناك رغبة ملاّح تسكن رغبتي؛

وإذا ما صرخت غبطتي في يوم ما: «اختفى الساحل ـ هو ذا قيدي الأخير قد سقط! ـ

=البديعة من المواد البخسة والمحتقرة حتى؟ هل سيكون هناك الكثيرون ممن سيرغبون في متابعة مثل هذه البحوث؟ إن الإنسانية تحب أن تطرح من ذهنها الأسئلة المتعلقة بالأصل والبداية: ألاينبغي على الإنسان أن يكون مجردا من إنسانيته إذًا كي يشعر في داخله بالنزوع المعاكس؟ ـ».

(١) متّى الاصحاح ٥/١٣: «أنتم ملح الأرض. ولكن إن فسد الملح فبماذا يملّح».

ـ المدى اللامتناهي يهدر من حولي، وبعيدًا بعيدًا يبرق لي المكان والزمان؛ قُدمًا! إلى الأمام! يا قلبي العجوز!».

أواه، كيف لا أرنو بحرقة إلى الأبديّة وإلى دورة الدوائر؛ دورة العرس النهائية ـ دوْرة العودْ!

إنني لم أعثر بعد على المرأة التي يمكنني أن أبتغيها أما لأبنائي، إن لم تكن هذه الأنثى التي أحبّ؛ ذلك أنني أحبّك أيتها الأبدية!

ذلك أنني أحبك أيتها الأبدية!

* * *

٦

إذا ما كانت فضيلتي فضيلة راقص، وغالبا ما أقفز بكلتيْ قدميَّ داخل نشوة من ذهب وزمرّد؛

وإذا ما كان خبثي خبثا ضاحكا ومسكنه بين عرائش الورود وخمائل الزنابق؛

ـ إذ في الضحك يلتقي كل الخبث ويتجمع، لكنه يغدو مقدّسا ومطهّرا بغبطته الخاصة ـ

وإذا ما كان الألف والياء(١) من مُتعلّقي هو أن يغدو كل ثقيل

---

(١) عبارة «das A und O» أو Das Alpha und Omega، مستقاة هي أيضاً من اللغة الإنجيلية؛ رؤيا يوحنا، الاصحاح ١/ ٨: «أنا هو الألِف والياء، البداية والنهاية يقول الربّ الكائن والذي كان والذي يأتي القادرُ على كل شيء». وقد فضّلناها على عبارة «مبدئي الأول والأخير» مثلا، التي تبدو أكثر استقامة في اللغة العربية وفي هذا السياق بالذات، وذلك حفاظا على النبرة الإنجيلية التي ترشح بها هذه العبارة، وحرصا على التلاؤم مع الأسلوب الذي تعمد نيتشه اختياره لكتابه هذا ـ والذي كان يحلو له أن يدعوه بـ«الإنجيل الخامس».

خفيفا وكلُّ جسد راقصا وكلُّ فكر طائرا؛ والحق أقول لكم إن ذلك هو الألف والياء من متعلِّقي.

أواه، كيف لا أتحرّق شوقا إلى الأبديّة وإلى دورة الدوائر؛ دورة العرس النهائية ـ دورة العود!

إنني لم أعثر بعد على المرأة التي يمكنني أن أبتغيها أما لأبنائي، إن لم تكن هذه الأنثى التي أحبّ؛ ذلك أنني أحبّك أيتها الأبدية!

ذلك أنني أحبك أيتها الأبدية!

* * *

٧

إذا ما بسطتُ سماءً ساكنة من فوقي وطرت بجناحي في سمائي؛

وإذا ما سبحت لاعبا في أقاصٍ نورانية عميقة واكتسبتْ حريتي حكمة الطير؛ ـ

ـ لكنْ هكذا تتكلم حكمة الطير: «أنظر، ليس هناك من فوق ولا تحت! لتقذف بنفسك في كل الاتجاهات، إلى الأمام، إلى الوراء أيها الكائن الخفيف! غنّ! وكفّ عن الكلام!

ـ «أليس للكائنات الثقيلة قد تمّ ابتداع كل الكلمات؟ أوليست الكلمات كلها كاذبة بالنسبة للإنسان الخفيف؟ غنّ! وكفّ عن الكلام!».

أواه، كيف لا أتحرق شوقا إلى الأبديّة وإلى دورة الدوائر؛ دورة العرس النهائية ـ دورة العود!

إنني لم أعثر بعد على المرأة التي يمكنني أن أبتغيها أما لأبنائي، إن لم تكن هذه الأنثى التي أحبّ؛ ذلك أنني أحبّك أيتها الأبدية!

ذلك أنني أحبك أيتها الأبدية!

* * *

الكتاب الرابع والأخير

آه، أين وجدت في العالم كله حماقات أكبر مما لدى المشفقين؟ وأي أمر أحدث أكثر آلاما في العالم من حماقات المشفقين؟

ويل لكل المحبين الذين ليس لهم من سموّ يعلو على منزلة شفقتهم!

هكذا خاطبني الشيطان ذات مرة: «للربّ أيضا جحيمه: إنها محبته للبشر».

ومؤخرا سمعته يقول لي هذا الكلام: «إنّ الله قد مات! جراء محبته للبشر مات الله».

هكذا تكلم زرادشت ـ الكتاب الثاني: «عن أهل الشفقة»

قربان العسل[1]

ثم مرت شهور وسنوات على زرادشت وهو لا يشعر بها؛ لكن شعره ابيضّ في الأثناء. وذات يوم بينما كان جالساً على صخرة أمام مغارته وهو ينظر إلى البعيد بصمت، ـ لكن المرء ينظر من هناك إلى البحر البعيد، هناك في ما وراء الأودية السحيقة الملتوية ـ كان نسره وحيّته يحومان حوله منشغلي الخاطر، ثم أقبلا عليه أخيرا ومثلا أمامه.

«أي زرادشت، قالا يخاطبانه، أتُراك تبحث بعينيك عن سعادتك في هذا المدى البعيد الذي تحدق فيه؟» ـ «ما لي والسعادة! أجابهما زرادشت، منذ زمن بعيد لم أعد أتوق إلى السعادة، بل لا أتوق إلا إلى عملي». ـ «أي زرادشت، قالا يخاطبانه ثانية، إنما أنت تتكلم

(١) في كنشات صائفة ١٨٨٠ من منشورات «التركة» نقرأ في الشذرة ٤[٢٢٤] ما يلي: «كان إغريق العصور القديمة يعتبرون الحليب والعسل غذاء الآلهة ـ لم يكن ذلك الزمن زمن شريبي خمر...» ويشير ماركو بروزوتي في مقالته عن «التضحية والقوة» (من منشورات مجلة (Nietzsche Studien Band 22, 1993 إلى أن نيتشه قد استغل هنا عمل طالبه القديم فاكرناغل حول «أصل البراهمانية» (أنظر الهامش ٣٠). ويكتب فاكرناغل في هذا الشأن: «يتقول البعض بأن الإغريق القدامى لم يكونوا يتقبلون خمرة، بل عسلا مسكرا». أو «إن الحليب والعسل أو ما يستخرج منهما كخلاصة رفيعة كانت تعتبر شراب الآلهة لدى الإغريق القدامى، حسب رواية قديمة». ويضيف نيتشه في الشذرة ٤ [٢٣٢]: «لقد كان للخمرة مفعول أخر يختلف عن ذلك الذي تحدثه في أدمغتنا الكحولية. «أو الخمرة غير الممزوجة تسبب الجنون» هكذا كانوا يقولون».

كواحد مُتْخَم خيرا. ألا ترى أنك تستلقي الآن في بحر من السعادة لازوردي الصفاء؟» ـ أيها المهرّجان الماكران، أجابهما زرادشت مبتسما، لكم كنتما مصيبيْن في اختيار المثل! لكنكما تعلمان أيضا أن سعادتي ثقيلة وليست كالموجة المائية السائلة؛ إنها تضغط على روحي ولا تفك عني وتلصق بي لصق الرّاتنْج اللزج».

عندها راحا يتحركان من حوله ثانية متفكرين بحيرة، ثم أقبلا عليه مجددا ووقفا أمامه. «أي زرادشت، **ألذلك** إذًا ما فتئتَ تزداد شحوبا وقتامة فيما شعرك يتراءى أبيض وشبيها بالقنّب؟ أنظرْ، إنك تجلس داخل مادتك الراتنجية اللزجة!» ـ «ما هذا الذي تقولانه يا حيوانيّ، قال زرادشت ثم ضحك؛ حقا لقد كنتُ مجدّفا حين تكلمت عن راتنج. إن ما بيَ هو ما يحدث في الحقيقة لكل الثمار في نضجها. إنه العسل في عروقي يجعل دمي أكثر ثخونة وروحي أكثر سكونا». ـ «لا بد أن الأمر كذلك يا زرادشت، أجابته البهيمتان وهما تندفعان إليه؛ لكن ألا تريد أن تصعد اليوم إلى قمة جبل؟ إن الهواء نقي، وبإمكان المرء أن يرى اليوم من العالم أكثر من أي وقت». ـ «أجل، يا حيوانيّ، أجاب زرادشت؛ لقد أصبتِما النصيحة ونطقتما بما يشتهيه قلبي: إنني أريد أن أصعد اليوم إلى قمة جبل. لكن لتعملا على أن يكون لي عسل هناك؛ عسل أصفر، أبيض وطيّب؛ شهدة عسل ذهبي بارد كالثلج[1]. ذلك أنني أريد أن أقدم قربان عسل هناك فوق الجبل».

---

(١) في هذا الموضع يكتب نيتشه في المسودات: كنشات خريف سنة ١٨٨٤ ـ الشذرة ٢٨[٣٦] تحت عنوان «قربان العسل»:
«اجلبا لي عسلا، شهد عسل طازج!/ من العسل أجعل قربانا من كل ما هو واهب،/ وكل ما هو معطاء، وكل ما هو خيّر: ما ينعش القلب!».

لكن لما بلغ زرادشت قمة الجبل صرف البهيمتين اللتين رافقتاه إلى هناك ليجد نفسه وحيدا مع نفسه من جديد. عندها ضحك من كل قلبه، ونظر من حوله وتكلم هكذا:

إن كنت قد تكلمت عن أُضحية وقربان عسل فإن ذلك لم يكن سوى حيلة من حيلي الكلامية وحمقا نافعا في الحقيقة! أما ألآن وفوق هذه القمة فيمكنني أن أتكلم بحرية أكثر مما أفعل أمام مغارات الرهبان وحيواناتهم الأهلية.

أية أضحية وقربان! إنني أبدد ما يُمنح لي، أنا المبدد بألف يد: كيف يحق لي إذًا أن أسمي ذلك ـ قربانا!

وعندما كنت أطلب عسلا، إنما طُعما كنت أطلب وسائلا ثخينا حلوا ولزجا يسيل له حتى لعاب الدببة المدمدمة والطيور العجيبة ذات الطبع المتوحش الشرس:

ـ أريد طُعما من أجود ما يكون، كذلك الذي يحتاجه صياد البر وصياد البحر. ذلك أن العالم وإن كان مثل غاب وحوش قاتم وجنان متعة لكل الصيادين، فإنه يبدو لي بالأحرى شبيها ببحر سحيق زاخر بالثروات،

ـ بحر مليء أسماكا وقِشريّات بألوان بديعة تجعل الآلهة نفسها تشتهي أن تتسلى بالصيد وتلقي بشباكها في مياهه؛ لكثرة ما هو ثري هذا العالم بالأشياء البديعة كبيرها وصغيرها.

وخاصة عالم الإنسان، هذا البحر الإنساني؛ ـ إليه أقذف الآن بصنارتي الذهبية وأقول: انفتحي أيتها الأغوار الإنسانية العميقة!

انفتحي واقذفي لي بأسماكك وقشرياتك الملتمعة! بأجود ما لدي من طُعم أستدرج إليّ اليوم أروع الأسماك البشرية[1]!

سعادتي نفسها هي التي أقذف بها في كل فج وكل الأقاصي البعيدة ما بين البداية والظهيرة والغروب لأرى إن كانت هناك أسماك بشرية كثيرة ستتعلم كيف تعض وتتخبط فوق طعم سعادتي.

حتى إذا ما عضّت على الطرف الحاد والخفي لصنارتي لن تملك سوى أن تصعد إلى **الأعالي** التي أقف فوقها؛ أسماك الأغوار والأعماق السحيقة ذات الألوان البديعة صاعدة نحو أكثر صيادي الأسماك البشرية خبثا وقسوة.

إذ ذاك هو أنا في جوهري وطبيعتي؛ ساحبا، جاذبا، مقرّبا، رافعا، مربّيا؛ أنا المربي والمروِّض بيد صارمة، الذي لم يكن مجانا قوله ذات مرة: «لتصرْ من أنت[2]»!

ليصعد إليّ الناس الآن إذًا؛ ذلك أنني أنتظر العلامة المؤذِنة بحلول ساعة انحداري، لأنه لا ينبغي لي أن أهبط الآن هكذا بين الناس.

سأنتظر تلك العلامة ماكرا مستهزئا هنا فوق الجبال العالية، لا قلقا

---

(١) استعارة للصورة الإنجيلية الواردة في مقولة يسوع المسيح: «هلمّ ورائي فأجعلكما صيّدي الناس» متّى؛ الاصحاح ٤/١٩

(٢) قارن مع الشذرة ٢٧٠ من **المعرفة المرحة**: «ماذا يقول ضميرك؟ ـ عليك أن تصير من أنت». ـ أنظر أيضا عنوان كتاب **هذا هو الإنسان**: «هذا هو الإنسان؛ أو كيف يصير المرء ما هو» مع ضرورة الانتباه إلى التنويعات البسيطة في صياغة هذه المقولة:
(Du sollst der werden, der du bist) ـ «عليك أن تصير من أنت». (**المعرفة المرحة**)،
(Wie man wird, was man ist). ـ «كيف يصير المرء ما هو». (**هذا هو الإنسان**)
(Werde, der du bist). «لتصرْ من أنت». (زرادشت).

فاقد الصبر، ولا صبورا، بل واحدا قد نسي حتى الصبر نفسه ـ لأنه لم يعد «يملك صبرا» على شيء.

قدري هو الذي يمهلني: تُراه قد نسيني؟ أم تراه يجلس الآن في الظل وراء صخرة ويتلهى باقتناص الحشرات؟

والحق أقول لكم إنني لممتنّ لقدري الأبدي لأنه لا يلاحقني ويستحثني، بل يدع لي وقتا للمعابثة وشتى الأدوار الخبيثة؛ وهكذا تسنّى لي أن أصعد اليوم صيادَ أسماك إلى قمة هذا الجبل!

هل رأيتم أحدا قد اصطاد سمكا فوق قمم الجبال؟ وحتى إذا ما كان حمقا هذا الذي أريده وأفعله هنا فوق هذه الأعالي، فإن ذلك أفضل من أن أظل قابعا في سكون حتى أبهت وأخضرّ وأصفرّ لكثرة الانتظار هناك على السفح ـ

ـ متصلّبا مستعرا حنقا لفرط الانتظار، عاصفة قدسية مولولة من فوق الجبال، واحدا نافذ الصبر يصرخ باتجاه الأودية والوهاد: «اسمعوني، وإلا جلدتكم بسوط الربّ!»

لا نقمة لي على مثل هؤلاء الحانقين؛ بل إنني لأجدهم موضوعا جيدا للضحك! إذ لا بد لها أن تكون حانقة تلك الطبول المدوية الكبيرة التي لا يسعها إلا أن تقول كلمتها الآن؛ الآن وإلا فلا!

أما أنا وقدري فلا نتكلم للحاضر، ولا نتكلم لزمن اللازمن أيضا: إن لدينا ما يكفي من الصبر عن الكلام وما يكفي من الوقت وفائض الوقت. ذلك أنه سيأتي ذات يوم ولن يكون مجيؤه مجرد مرور عابر.

من هذا الذي سيأتي ولن يكون مجيؤه عابرا؟ إنها صدفتنا

العظيمة[١]، مملكتنا الإنسانية العظمى البعيدة، مملكة زرادشت التي تعمّر ألف سنة ـ

---

(١) يستعمل نيتشه هنا عبارة Hazar وليس Hasard كما تستعمل ـ وتكتب ـ عادة في الفرنسية والتي معناها الصدفة والحظ. وHazar في صيغتها هذه تعني الزهْر في اللغة العربية كما يشير إلى ذلك بول ماتياس في تعليقاته المرفقة في هوامش ترجمة جنفييف بيانكي الفرنسية لزرادشت. ويضيف بأن الكلمة مستعملة في اللغة اليونانية الحديثة أيضا. ويشير قاموس روبرت الفرنسي إلى نفس المصدر العربي للعبارة الفرنسية نفسها. لكن القواميس الألمانية، بما في ذلك قاموس المفردات ذات الأصل الأجنبي، لا تثبت وجود هذه العبارة مما جعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن نيتشه قد تعمد استعمالها هنا عوضا عن عبارة Zufall التي تعني الصدفة، والتي يرد استعمالها كثيرا لديه. لغاية مقصودة تعمد هذا الاستعمال، وهي الإشارة الضمنية إلى لعبة النرد المحببة لديه كصورة استعارية لإثبات، لا المكانة المبجلة التي تحظى بها الصدفة في فلسفته فحسب، بل كذلك طابع اللعب، أو المصادفة اللاعبة والعابثة التي لا تمتثل إلى إرادة الإنسان أو أية إرادة متعالية على صيرورة الحياة ذاتها. ويلاحظ القارئ أن استعارة لعبة النرد، ورميات الزهر تعود بكثرة في كتابات نيتشه: القانون الوحيد في دورة العود التي لا تخضع لغائية بعينها، بل لا مسيّر لها غير عامليْ الصدفة والضرورة («ضرورة لا عقلانية وغير غائيّة» يوضح جيل دولوز في كتاب «نيتشه والفلسفة»). وعلى عكس أفلاطون الذي يملأ فراغ الصيرورة غير المحدودة، والصيرورة المجنونة، والصيرورة الهجينة والمذنبة بـ«إقحامها داخل الدائرة وإخضاعها لعمل خالق يطويها بالقوة ويفرض عليها حدّ الفكرة ومثالها» (دولوز)، يعود نيتشه إلى هيرقليطس، يحرر الصيرورة من أجل إثبات الصدفة، ويرى أن كل من سبقه من الفلاسفة باستثناء هيرقليطس لم يكونوا قد رأوا «حضور القانون في الصيرورة واللعب في الضرورة». (ولادة الفلسفة). الدورة لعب إذًا وبذلك فإن رمية الزهر، بل وقوعه هو هذا «الحدث العظيم» الذي ينتظره زرادشت واثقا كل الوثوق من حدوثه: ثقة في الصدفة.

لكن هانس فايشلت يذهب في كتاب «التعليقات على زرادشت» (Zarathustra Kommentar. Verlag Felix Meiner. Leipzig 1922) إلى معنى آخر للعبارة ويحيل على Hazãra في اللغة الفارسية القديمة ومعناها «ألف سنة». هل كان زرادشت ينتظر الألفية القادمة إذًا؟ أم أنه كان يرى أنه سيكون عليه انتظار ألف سنة أخرى كي تحين ساعته وتصبح كلمته مسموعة ومفهومة؟

على مضض ـ نوعا ما ـ إذًا فضلنا بعد تردد استعمال عبارة «صدفة» هنا وتخلينا عن عبارة «الزهر» التي يمكن أن يكون لها وقع غريب في هذا الموضع ويلفها شيء من الالتباس. =

وكم سيكون بعيدا هذا «البعيد»؟ ما الذي يعنيني في ذلك! لكن هذا لا ينقص شيئا من ثقتي الراسخة في الأمر؛ وإنني لأقف بقدمين ثابتتين على هذا الأساس.

ـ على أساس أبديَ فوق صخرة صلبة من زمن البدء، فوق هذه الجبال الشاهقة الصلبة الضاربة في القدم حتى ساعة التكوين، تلك التي تلتقي عندها كل الرياح كما على الخط الفاصل بين الأصقاع، وكلها تسأل إلى أين؟ ومن أين؟ وعبر أي طريق؟

لتضحك هنا ولتضحك يا خبثي الصحيّ المشرق! ولتقذف من أعالي الجبال بقهقهة سخريتك البراقة نحو الوهاد والأودية! ولتجعل من بريقك طعما يستدرج إليّ أجمل الأسماك البشرية!

وما ينتمي إليّ في أعماق كل البحار؛ وكل ما «في ذاتي ـ ولذاتي»[١] في الأشياء جميعها؛ ذاك اصطدْه لي، وقُدْه إليّ، وارفعْه إليّ: ذاك هو ما أنتظره، أنا الصياد الأكثر خبثا وقسوة.

أخرجي، أخرجي يا صنارتي! غُصْ وانحدرْ إلى الأعماق يا طُعم

=ونكتفي فقط بالإشارة إلى المعابثة اللغوية التي يعمد إليها نيتشه هنا باستعماله لعبارة لا توجد في اللغة الألمانية، حرصا منه على التلميح والغمز والتضمين كما يحب ذلك عادة.

(١) «الشيء في ـ و ـ لذاته» مصطلح مركّب يجمع بين «الشيء في ذاته» و«الشيء لذاته» وهما عبارتان لمفهومين متقابلين داخل اللغة الفلسفية. أنظر المعجم الفلسفي «لآلاند». يجترح نيتشه مصطلح «ما في ـ ولذاتي». نعرف أن نيتشه ينكر مفهوم «الشيء في ذاته» مثل «الأخلاق في ذاتها» و«الحقيقة في ذاتها» ضمن رؤيته القائمة على دحض فكرة الهوية الأصلية والثابتة للأشياء؛ أي رفض هوية ما للشيء قائمة فيه (أو في كنهه) بصفة مستقلة عن تصوراتنا وتمثلنا له. بينما «الشيء لذاته» يحدد هويته في علاقته الواعية بذاته أو تملكه لذاته ضمن علاقة تمثل وتصور واعية للذات بذاتها.

سعادتي! واسكب قطرات نداك الحلو يا عسل قلبي! ولتحكمي طرفك الحاد في بطن كل الخواطر الكئيبة السوداء يا صنارتي!

اسرحي بعيدا، بعيدا يا عيني! أواه، كم من البحار من حولي، وكم من صباحات مستقبلية للإنسان تتوهج على خط الأفق! وأية سكينة وردية من فوقي! وأي صمت لا تكدره غيوم!».

صرخة الاستغاثة(١)

وفي الغد جلس زرادشت مجددا على صخرته أمام المغارة، بينما كان حيوناه يجولان في الأنحاء بحثا عن شيء من الغذاء، وعن عسل جديد؛ ذلك أن زرادشت قد بذّر عسل البارحة وبدده حتى آخر قطرة. لكنه وهو يجلس هناك يرسم ظِلّ جسده على الأرض بعصا كانت في يده، غارقا في التفكير، لكن في أمرٍ آخر غير نفسه وظله في الحقيقة. ثم ها هو ينتفض مذعورا، إذ رأى ظلا ثانيا إلى جانب ظله. وعندما قفز من مجلسه ونظر من حوله رأى الرائي يقف إلى جانبه، ذاك الذي سبق أن قاسمه أكله وشرابه ذات مرة، نبيّ الإعياء الأكبر الذي كان يكرز: «الكل سواء، ولا شيء جدير بالعناء؛ العالم لا معنى له، والمعرفة تخنق». لكنّ وجهه قد تغير في الأثناء، وعندما نظر زرادشت في عينيه أصاب قلبه الفزع لكثرة ما كان يسري على صفحة ذلك الوجه من طلائع الشؤم والرعود القاتمة.

وإذا الرائي الذي لم يخْف عنه ما كان يختلج في نفس زرادشت يمسح بكفه على وجهه كما لو كان يريد أن يمحو ما ارتسم على صفحته؛ ومرر زرادشت أيضا كفه على وجهه مثله. وبعد أن استعاد

---

(١) في كنشات صيف ـ ربيع ١٨٨٤ الشذرة ٢٦ [٢٨٩] يرد عنوان هذا الفصل ضمن مخطط المسودات كالتالي: «استغاثة الإنسان الأعلى؟ نعم، ذلك الذي مني بالفشل»

كل منهما هدوءه في صمت واسترد قواه تصافحا علامة على الرغبة في تجديد التعارف.

«مرحبا بك يا نبيّ الإعياء الأكبر، قال زرادشت. لم يكن عبثا بالتأكيد أن حللت ضيفا وشريك مائدة لي ذات مرة. لتأكل اليوم أيضا وتشرب معي، ولْتغفرْ أن يكون شريك مائدتك عجوزا هانئا!» ـ «عجوز هانئ؟ أجابه الرائي وهو يهزّ برأسه؛ أيًّا كنت أو تريد أن تكون يازرادشت فقد طال جلوسك فوق هذا المرتفع على أية حال، وعن قريب لن يظل قاربك في مأمن من الغمر!» ـ «وهل أجلس في مأمن من الغمر؟» سأله زرادشت ضاحكا. ـ «إن الأمواج صاعدة من حول جبلك، أجابه الرائي، صاعدة دون توقفٍ أمواجُ المحنة الكبرى والأسى؛ وعما قريب ستهزّ قاربك أيضا وتدفع بك بعيدا». عندها صمت زرادشت وقد تملكته الدهشة مما سمع. ـ «أما زلت لا تسمع؟» قال الرائي مواصلا كلامه. ألا تسمع هديرا ودمدة صاعدة من الوادي السحيقة؟ وواصل زرادشت صمته وقد أضحى مصخيا بسمعه الآن، وإذا صرخة طويلة تتقاذفها تلك الأعماق وتعيدها الواحدة إلى الآخرى وما من هوّة تريد الاحتفاظ بها في جوفها لفرط ما كانت ترن به من قسوة مفجعة.

«أيْ نذير الشؤم أنت! قال زرادشت أخيرا، إنها صرخة استغاثة، صرخة إنسان تبدو طالعة من عمق بحر مظلم. لكن ما الذي يهمني في أسى الإنسان؟ أتعرف ما اسم الخطيئة الأخيرة التي مازلت أوفّرها على نفسي؟

ـ «**الشفقة!** أجابه الرائي بصوت صاعد من أعماقه المضطرمة وهو

يرفع ذراعيه، - أي زرادشت، إنما جئت لكي أستدرجك إلى خطيئتك الأخيرة!»[١].

ولم ينته العراف من كلامه حتى ارتفع الصوت مجددا أكثر امتدادا وأشد روْعا من المرة الأولى، وأكثر قربا أيضا. «أتسمع؟ أتسمع يا زرادشت؟ إنها موجّهة إليك هذه الصرخة، إنها تناديك: تعال، تعال، تعال، لقد حان الوقت، وآن الأوان!».

لكن زرادشت ظل صامتا، مبلبل الخاطر ومهزوزا؛ وأخيرا سأل مثل واحد كان يتردد في ما بينه وبين نفسه: «ومن هو هذا الذي يناديني من هناك؟»

«لكنك تعرف ذلك يازرادشت، أجابه الرائي بحدّة، فلم تتماكر إذًا وتخادع؟ إنه **الإنسان الأعلى** هو الذي يصرخ نحوك!

«الإنسان الأعلى!» صاح زرادشت وقد تلبّس به الذعر. ماذا يريد هذا؟ ماذا يريد هذا؟ الإنسان الأعلى! وعمّ يبحث هنا؟»؛ ظل يردد وقد غمر سحنته العرق.

لكن الرائي لم يردّ بشيء على خوف زرادشت وظل يصخي بسمعه

---

(١) عن «غواية الشفقة» والاستجابة إلى صرخة المستغيث يكتب نيتشه في **هذا هو الإنسان** - فصل: لماذا أنا على هذا القدر من الحكمة: «إن تجاوز الشفقة يعد بالنسبة لي من ضمن الفضائل السامية، ولقد وصفت تحت عنوان «غواية زرادشت» حالة تتناهى فيها إلى أذنيْ زرداشت صرخة استغاثة عظمى، وفيها تظهر الشفقة كآخر خطيئة تتلبس به وتسعى إلى انتزاعه من ذاته. أن يظل المرء هنا سيّد نفسه، وأن يحرص على الحفاظ على سموّ مهمته نقيا من الغرائز الوضيعة الكثيرة التي لا ترى إلى أبعد من أنفها والتي تحرّك الأفعال الغيرانية المزعومة، لهو الاختبار، ولعله الاختبار الأخير الذي كان على زرادشت أن يجتازه: البرهان الحقيقي على قوّته...».

إلى الوادي. وبعد أن ساد الصمت لمدة طويلة استدار بوجهه عن الوادي مجددا ليرى زرادشت يقف مرتعدا.

«أي زرادشت، قال يخاطبه بصوت حزين، إنك لست واحدا تصيبه سعادته بالدوار؛ وسيكون عليك أن ترقص كي لا تقع مغشيا عليك[1].

لكن، وحتى لو أنك أردت أن ترقص وأن تقفز كل قفزاتك البهلوانية أمامي فليس لقائل أن يقول لي: «أنظر، هنا يرقص الإنسان المرح الأخير!»

بلا جدوى سيكون صعود امرئ إلى هذه الأعالي بحثا عن هذا الإنسان المرح: مغاورَ سيجد دون شك ومغاورَ خلفيّة متوارية، ومخابئ لمختبئين، لكن لا آبار سعادة ولا حجرات كنوز وعروق ذهب السعادة الجديدة.

السعادة! ـ كيف للمرء أن يعثر على السعادة بين هؤلاء المطمورين والنسّاك المعتزلين! هل سيكون عليّ أن أبحث عن هذه السعادة الأخيرة في الجزر السعيدة النائية وبعيدا بين البحار المنسية؟

لكنّ الكل سواء، ولا شيء جدير بالعناء؛ عبث هو كل بحث وعديم الفائدة، فليس هناك من جزر سعيدة!»

هكذا أنهى العراف كلامه متنهدا، لكن مع زفرته الأخيرة كان زرادشت قد استعاد صفاءه وثقته، مثل واحد قد طلع للتو من هاوية

---

(١) في كنش المسودات؛ شتاء ١٨٨٤ نقرأ في الشذرة ٣١ [٣٤] نقرأ هذه الكلمات على لسان زرادشت الذي كان يخاطب نسره وحيته: «أي حيوانيّ إن سعادتي العظمى تصيبني بالدوار! علي الآن أن أرقص، كي لا أقع مغشيًا عليّ!»

عميقة إلى الضياء. «كلا، كلا، وكلاّ ثالثة! صاح بصوت حادّ وهو يمسح بكفّه على لحيته - إنني أدرى بالأمر! ما تزال هناك جزر سعيدة! ولتكفّ عن **مثل هذا** الكلام يا كيس الأحزان المتنهّد!

كفّ عن الغرغرة أيها السحابة الثقيلة في سماء الضحى! ألا ترى كيف أنني أقف هنا مبللا بِأَساك أقطر مثل كلب؟

والآن ها أنذا أنفض نفسي وأفرّ بعيدا عنك كي أجفّ من جديد؛ فلا يفاجئنّك هذا! أم تراني أبدو لك غير مهذب معك؟ لكنني في **مملكتي هنا**(١).

أما عن إنسانك الأعلى، فأنا ذاهب توًّا لأبحث عنه في هذه الغابات؛ لقد كان صوته قادما من هناك. لعل وحشا مفترسا يهدده هناك.

إنه في أرض سيادتي الآن، لذلك لا أريد أن يمسه سوء هنا، وحقا أقول لك إن هناك وحوشا مفترسة شرسة في مملكتي».

بهذه الكلمات استدار زرادشت يريد الانصراف. لكن الرائي خاطبه: «أي زرادشت، إنك مهرج ماكر!

أعرف ذلك، إنك تريد أن تتخلص مني؛ وإنك لتفضّل أن تدخل الغاب وتركض وراء الوحوش المفترسة!

لكن أيّ نفع لك في هذا؟ فمساء ستجدني مجددا، ذلك أنني سأظل جالسا هنا في مغارتك صبورا وثقيلا مثل جذع عتيق - منتظرا عودتك!»

---

(١) Mein Hof تعني في الألمانية ساحة بيتي، وبستاني ومزرعتي، كما تعني بلاطي، ومملكتي.

«ليكن! أجابه زرادشت وهو يبتعد، وكل ما هو ملك لي في هذه المغارة هو لك أيضا يا ضيفي!

وإذا ما وجدت عسلا فهو لك أيضا؛ لتلعقه وتلتهمه وتخفّف به من مرارة روحك أيها الدب المدمدم، لأننا سنكون على مزاج رائق معا هذا المساء،

على مزاج رائق ومبتهجيْن لانقضاء هذا النهار! وستكون أنت الذي تؤدي رقصة الدب على إيقاع أناشيدي.

ألا تصدق ذلك؟ أوتهز برأسك؟ هيّا! هيّا أيها الدبّ العجوز! لأنني أنا أيضا راءٍ».

هكذا تكلم زرادشت.

محادثة مع الملكيْن[1]

١

لم تكن قد مرت ساعة على زرادشت وهو يتمشى داخل جباله وغاباته حين لمح فجأة قافلة غريبة تسير هناك. فوق الطريق نفسها التي كان يريد الانحدار منها كان هناك ملكان يتقدمان باتجاهه يزيّنهما

---

(١) المحادثة مع الملوك تظهر في أكثر من موقع داخل مسودات نيتشه؛ في كنشات صائفة ١٨٨٣ الشذرة رقم ١٣ [٤] وقد أهملها نيتشه كليا في ما بعد ولم يستغلها في هذا الفصل، ثم كنشات شتاء ١٨٨٤ ـ ٨٥. الشذرة ٣١ [٦١] تحت عنوان: «محادثة مع الملك» حيث يظهر موقف نيتشه بأكثر وضوح، أو أكثر مباشرة مما هو عليه في الصيغة النهائية التي اتخذتها المحادثة في هذا الفصل حيث يطغى التضمين والتلميح على الخطاب المباشر داخل نص قد نضج أكثر وأخذ شكلا فنيا أكثر دقة وأكثر مراوغة أيضا، بما يتناسب أكثر وروح الدعابة والخفّة النيتشوية:

ـ أرى ملوكا أمامي، لكنني أبحث عن الإنسان الراقي. (وليس الإنسان الأرقى أو الأعلى ـ المترجم).

ـ بسيف كلمتك القاطع هذه تفلق العتمة الكثيفة التي تغمر قلوبنا.

(. . .)

ـ أي زرادشت إن في قلوبهم من الحس بما هو صحيح أقل مما في إصبع قدمك الأيسر.

ـ بين الرعاع الكريهة يختنق حتى الطموح: وهنا يشتهي المرء أكثر ما يشتهي أن يكون آخر الخلق على أن يكون الأفضل بين الشعب.

ـ أنظروا إليه كيف يأتي وكيف ينبغي له أن يأتي: على المرء أن يكون حاملا لعينه في قفاه!

ـ شكليون/ متظاهرون/ ظالمون: ذلك أنهم يريدون وضع نفس المقاس للجميع. =

تاجان وحزامان من الأرجوان ومزوّقيْن بألوانِ نُحامتيْن[1]. وكانا يسوقان حمارا محملا يسير أمامهما. «عم يبحث هذان الملكان في مملكتي؟» قال زرادشت مخاطبا نفسه وسارع إلى الاختباء وراء دغل. لكن عندما اقترب الملكان من مخبئه قال بصوت نصف مسموع كمن يخاطب نفسه: «يا للغرابة! يا للغرابة! أي منطق في هذا؟ ملكيْن أرى - وحمارا واحدا!»

عندها توقف الملكان عن المسير وابتسما ملتفتيْن إلى الموقع الذي جاء منه الصوت، ثم نظرا إلى بعضيهما. «هذه أشياء تخطر بذهن المرء عندنا أيضا، لكن لا أحد ينطق بها». هكذا قال الملك الذي على اليمين.

= - عنيد مثل فلاح قروي فظ وماكر على حد السواء.
- يتشبثون بالقوانين ويحلو لهم أن يسموا القوانين «أرض اليابسة»؛ ذلك أنهم متعبون من المخاطر، لكنهم في الحقيقة يبحثون عن رجل عظيم، ملاح عتيد تنسحب القوانين ذاتها متقهقرة أمامه.

(. . .) أناس ذوو نوايا طيبة لكنهم غير ثابتين على أمر، يتطلعون بشهوة إلى كل جديد هؤلاء الأقفاص بقلوب ضيقة، الغرف المدخّنة والحجرات الرطبة - يريدون أن يكونوا عقولا حرة -

- من جنس الرعاع يحسون بأنفسهم لحما ودما وقلبا، ويرغبون في إخفاء ذلك وفي الاتّشاح بحلية الرفعة. إن الشرف غطاء فوق رعاعيتهم: تربية يسمون ذلك، ويجتهدون في ذلك بكل حماس./ يتكلمون عن سعادة السواد الأعظم ويضحون بكل مستقبليّ، ولهم فضيلتهم التي لا تشترى بأي ثمن. لا تعرض عليهم ثمنا زهيدا لئلا يقولوا «لآ» وينصرفوا عنك منتفخين واثقين أكثر في فضيلتهم: «نحن الذين لا تشترى ضمائرنا بثمن!»(. . .).

(١) يشير مونتي وكوللينارى إلى إمكانية اقتباس هذه الصورة عن غوته في «الشعر والحقيقة» الكتاب الخامس (حول احتفالات تتويج القيصر جوزيف الثاني في مدينة فرنكفورت التي يصورها غوته بطريقة كرنفالية تقريبا). وقد سبق لنا أن تعرضنا لصورة النّحام في فصل «الألواح القديمة والألواح الجديدة» في وصف الهيآت المزوقة الملوّنة لأهل البلاط أيضا.

لكن الملك الذي على الشمال هز بكتفيه وأجاب: «إنه دون شك واحد من الرعاة. أو لعله ناسك قد مر عليه زمن طويل بين الصخور والأشجار. إن العيش في عزلة تامة يفسد الأخلاق الحميدة هو أيضا».

«الأخلاق الحميدة؟» ردّ عليه الملك الآخر مكفهرا وبشيء من المرارة، «وممّا ترانا فارّيْن إذًا؟ أليس من «الأخلاق الحميدة»؟ ومن «مجتمعنا الفاضل»؟

إنه لأحب وأفضل أن يعيش المرء بين الرعاة والنسّاك من العيش بين الرعاع المذهّبة الكاذبة المزوّقة أيّما تزويق، ـ وإن سمّت نفسها «مجتمعا فاضلا»،

ـ وإن سمّت نفسها «نبيلة» أيضا. فكل شيء كاذب فيها وفاسد، والدم على وجه الخصوص، وذلك بسبب من أمراض سيّئة قديمة ومتطبّبين أكثر سوء.

أفْضل لديّ وأحبّ اليوم فلاح قرويّ معافى فظّ، ماكر، مثابر عنيد؛ فذلك هو النوع الأشرف في هذا الزمن.

إن الفلاح القروي هو الأفضل اليوم؛ وإنّ جنس الفلاحين هو الذي ينبغي أن يكود سيدا! لكنها مملكة الرعاع، ـ ولن أدع نفسي أُخدع بوهمٍ بعد الآن. لكنّ الرعاع تعني: الخليط.

خليط رعاع: فيه يتداخل ويتمازج الكل بالكل، القدّيس والوغد والنبيل واليهودي وكل ضروب الدابّة مما جمّعت سفينة نوح.

أخلاق حميدة! كل شيء كاذب وفاسد. لا أحد يعرف معنى للاحترام؛ ذلك بالذات هو ما أردنا الفرار منه. كلاب متذللة متطفلة تشتغل على طلاء السعف بالذهب.

يخنقني هذا القرف، أن نغدو نحن الملوك أيضا مزيّفين، متشحين مغمورين بشتى الأوشحة والنياشين متنكرين في زيّ الأبهة العتيقة الذابلة لأجدادنا، ميداليات فخريّة لأغبى الأغبياء وأشطر الشاطرين وكل من يتعاطى السمسرة بالسلطة في هذا الزمن!

لسنا صفوة الناس ـ ومع ذلك علينا أن نظهر كذلك؛ لقد شبعنا أخيرا وأصابنا القرف من هذا الخداع.

هربنا من الرعاع وكل الزاعقين وذباب الكتابة الأزرق، من عطونة البقّالين وارتعاصات الطموح ومن الأنفاس الكريهة ـ؛ أفّ، أن يعيش المرء بين الرعاع!

أفّ! أن نكون الأخيارَ بين الرعاع! أفّ! يا للقرف! يا للقرف! يا للقرف! أيّة أهمية لنا بعد نحن الملوك!»

«إنه مرضك القديم يعاودك، قال الملك الذي على الشمال؛ إنه القرف يستبد بك يا أخي المسكين. لكنك تعلم أنّ هنا أحدا يستمع إلينا».

وفي الحين هبّ زرادشت الذي كان يستمع مصغيا بكل انتباه إلى ذلك الحديث، وخرج من مخبئه متقدما نحو الملكين ثم شرع في الكلام هكذا:

هذا الذي كان يستمع إليكما، ويستسيغ الاستماع إليكما أيها الملكان إنما يدعى زرادشت.

إنني زرادشت الذي قال ذات مرة: «وما أهمية الملوك؟» لتغفرا لي فقد ابتهجت لسماعكما وأنتما تقولان لبعضكما: «أيّة أهمية لنا بعد نحن الملوك!»

أما هذه فمملكتي هنا ورقعة سيادتي؛ فعمّ تبحثان إذًا هنا في مملكتي؟ لكن لعلكما قد عثرتما في الطريق على ما أبحث عنه أنا: أعني الإنسان الأعلى».

ولما سمع الملكان هذا الكلام ضربا على صدريهما وتكلما بصوت واحد: «لقد كُشف أمرنا!

بسيف كلماتك القاطع تفلق العتمة الكثيفة التي تغمر قلبينا. لقد كشفت عن أسانا، ذلك أننا ماضييْن في رحلة للبحث عن الإنسان الأعلى -

- الإنسان الذي هو أرقى منا؛ وإن كنّا ملكيْن. وقد جئنا بهذا الحمار ليكون مطيّة له؛ فالإنسان الأعلى لا بد أن يكون السيّد الأعلى على الأرض أيضا.

وليس هناك من مصيبة أكبر وأقسى في المصائر البشرية كلها من أن لا يكون أصحاب الجاه في الأرض هم الأولون من أفاضل الناس. إذ عندها يغدو كل شيء مزيّفًا كاذبًا ومعوجًّا وفظيعًا.

وإذا ما كان أصحاب الجاه من أسافل الناس وأقربَ إلى الدابة منهم إلى الإنسان، فسيرتفع عندها شأن الرعاع ويرتفع، وبالأخير تنطق فضيلة الرعاع أيضا: «أنظر، أنا وحدي الفضيلة!».

ما هذا الذي أسمع؟ أجابهما زرادشت. أيّ حكمة على أفواه ملوك! إنني لمفتون، والحق أقول لكما إن بي رغبة في أن أنظم مقطعا في هذا الأمر:

- وليكن مقطعا قد لا تستسيغه كل أذن، فأنا قد نسيت من زمان مراعاة الآذان الطويلة. هيّا! إذًا!

(لكن هنا حدث أن أخذ الحمار بدوره الكلمة: لكنه بوضوح وبنيّة خبيثة صاح: إي ـ آ!)[1]

ذات مرة ـ في السنة الأولى من زمن الخلاص على ما أظن ـ

قالت العرّافة[2] سكرى من دون خمر:

«الويل، هي ذي الحال تسوء!

يا للانهيار! يا للانهيار! أبدا لم ينحط العالم إلى مثل هذا الدرك!

روما تنحطّ عاهرا[3]، وتتدنّى وكرًا للعاهرات،

إلى منزلة الدابّة تدنّى قيصر روما[4]، والرب نفسه ـ استحال يهوديا!»[5]

* * *

(١) أنظر الهامش رقم ٢ ص٣٦٩ من فصل «عن روح الثقل».

(٢) يذكر زرادشت العرافة بإسمها الروماني المعروف Sibylla وهي لدى الرومان نبية وعرافة في الآن نفسه ومعلنة تكهنات الآلهة. ابنة داردانوس ملك طروادة في المعتقد الروماني. وهي التي قادت إينيه في رحلته إلى العالم السفلي، ومؤلفة الكتب السيبيللينية التي كانت محفوظة في معبد الكابيتول بروما. قد رسم صورتها كل من ميكيل أنجلو وتينتوريتو ورامبراندت.

(٣) صورة المدينة العاهرة مستقاة من رؤيا يوحنا الإصحاح ١٧ بكامله في كلامه عن بابل؛ مثلا «ثم جاء واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعةُ الجامات وتكلم معي قائلا لي هلمّ فأريك دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة، التي زنى معها كل ملوك الأرض وسكر سكان الأرض من خمر زناها...». لكن نيتشه يقلب الصورة فالعاهرة هنا هي روما التي سلمت نفسها للمسيحية.

(٤) لعل هنا إشارة إلى تبني روما للمسيحية كديانة رسمية للدولة الرومانية على عهد قسطنطين الكبير في سنة ٣١٣ بعد أن كانت تناصبها العداء وتعاملها باحتقار معتدة بآلهتها المنحدرة من أصل إغريقي. لكن بول ماتياس يرى في ذلك إحالة ممكنة على الملك كالوغولا الذي يروي عنه المؤرخ سويتون بأنه قرر أن يجعل ذات يوم من حصانه إينسيتاتوس قنصلا.

(٥) بحسب التصور المسيحي لتجلي الله في صورة وجسد عيسى ابن الإنسان.

٢

استساغ الملكان هذا النشيد الذي نظمه زرادشت أمامهما، لكن الملك الذي على اليمين تكلم قائلا: «أي زرادشت، لكم كان حسنا ما فعلنا عندما سرنا بحثا عن لقياك!

لأنّ أعداءك أرونا صورتك في مرآتهم؛ وكنت تظهر بتكشيرة شيطان وضحكة ازدراء، مما جعلنا نفزع منك.

لكن مانفع خوفنا ذاك! لأنك على الدوام كنت لا تكف عن وخز مسامعنا وقلوبنا بمقولات حكمك. حتى نطقنا أخيرا: وما أهمية منظره بالنهاية؟

لا بد أن **نستمع إليه**، هو الذي يعلّم «عليكم أن تحبوا السلام وسيلة لحروب جديدة، والقصيرَ من فترات السلام أكثر من طويلها!».

أبدا لم يكن لأحد أن تكلم من قبل بمثل هذه العبارات الحربية: «أي شيء يُعدّ حسنا؟ أن يكون المرء شجاعا أمرٌ حسنٌ. والحرب الجيّدة هي التي تضفي قداسة على كل قضيّة».

أي زرادشت إن دم آبائنا قد اضطرب في عروقنا لسماع هذه الكلمات؛ لقد كانت مثل حديث الربيع إلى دنان الخمر المعتقة.

عندما تتلاحم السيوف وتتداخل مثل حيات مرقطة بالحمرة، عندها كانت تروق لآبائنا الحياة؛ وكل شموس السلام كانت تتراءى لهم شاحبة فاترة؛ وفترات السلام الطويلة كانت تغمرهم بالخجل.

وكيف كانوا يتنهدون؛ أولئك الآباء وهم يرون إلى السيوف المعلقة جافة ملتمعة على الجدران! ومثلها تماما كانوا يتلهفون ظمأ إلى

الحرب. لأن كل سيف يتعطش إلى شراب من الدم ويبرق متوهجا بالرغبة في الدم»[1].

وبينما كان الملكان يدردشان هكذا ويتكلمان بحماس عن سعادة آبائهما تملكّت زرادشت رغبة كبيرة في أن يسخر من حماستهم؛ ذلك أن هذين الرجلين الذين كانا أمامه ملكان مسالمان كما كان يبدو واضحا من سحنتيهما المترعة برقة وسكينة الشيخوخة. لكنه تمالك نفسه، وهكذا تكلم يخاطبهما: «هيا! إلى هناك تمضي الطريق؛ هناك توجد مغارة زرادشت؛ وليكن لهذا اليوم مساء طويل! لكنّ صرخة مستغيث تستحثّني الآن للانصراف عنكما.

وإنه لشرف لمغارتي أن تستقبل ملكيْن يتفضلان بالجلوس داخلها وبالانتظار؛ غير أنّه سيكون عليكما أن تنتظرا طويلا!

لكنْ ما أهمية ذلك؟ إذ أين يمكن للمرء اليوم أن يتعلم الانتظار كما في القصور؟ وكل ما تبقى من فضيلة للملوك اليوم ـ أليس ذلك الذي يسمّى: القدرة على الانتظار؟».

هكذا تكلم زرادشت.

(١) في كنشات ربيع ١٨٨٤ نقرأ في الشذرة ٢٥[٣١] «الجنة في ظل السيف» (مثل مشرقي).

العلقة(١)

وواصل زرادشت سيره متفكرا وهو ينحدر أكثر فأكثر عبر الغابات، مارا بمستنقعات؛ لكن وكما يحدث لكل من يفكر في أشياء عظيمة الأهمية، ها هو يدوس في غفلة منه على إنسان. وإذا وابل من صراخِ ألمٍ وبذاءتيْن وعشرين شتيمة تُبصق كلها دفعة واحدة في وجهه؛ مما جعله في غمرة الذعر يرفع عصاه ويهوي بها على ذلك المُداس. لكنه سرعان ما ثاب إلى رشده، وإذا قلبه يضحك من الحماقة التي ارتكبها للتو.

---

(١) العنوان الأولي الذي جاء في المسودات هو: «صارم الضمير العقلي الصارم» أو «رجل التدقيق والتمحيص الصارم». كما تحتوي الشذرة ٣٢ [٩ من كنشات شتاء ١٨٨٤ ـ ٨٥ على مخطط أولي لهذا الفصل تحت عنوان «ضمير العلم الصارم» نورد منها بعض المقاطع التي تبرز بصفة واضحة ومباشرة التقابل الذي يقيمه بين العارف، أو الساعي إلى المعرفة وذوي التدقيق العلمي الصارم، أو حرّاس المعرفة. سالك دروب المعرفة يتساءل، بينما حارس المعرفة يجيب ويهزّئ ويقصي وينبذ:

ـ «واحد من علماء وقتنا الحاضر يسأل: ما هو الإنسان ياترى؟ أهو الله نفسه في هيأة حيوان؟ إذ يبدو لي أن الله قد أراد في وقت مضى أن يتحول إلى حيوان.

(يجيب نيتشه بنفسه عن هذا السؤال في كتاب **ما وراء الخير والشر** فيكتب في الشذرة ١٠١: «واليوم بوسعي أن أرى بسهولة في أحد العلماء تحوُّلَ الإله إلى حيوان»).

ـ أناس فاترون باردون أولئك الذين لا يريد المرء أن يصدق حماقاتهم؛ حماقات يتأولها المرء تأولا سيئا على أنها حيل كريهة.

(هذه الجملة أيضا ترد في **ما وراء الخير والشر**؛ الشذرة ١٧٨ كالآتي: «لا أحد يصدق=

«عفوا!» قال مخاطبا ذلك المُداس الذي هب حانقا ثم جلس من جديد. «عفوا، ثم إليك أولا بهذا المثل.

مثل مسافر منشغل بالتفكير في أشياء بعيدة ترتطم قدمه دون انتباه منه بكلب نائم؛ كلب كان مستلق في الشمس؛

وكيف يقفز كل منهما ويرتميان الواحد على الآخر مثل عدوّين

=بحماقات الفطِنين: أيُّ ضرر يُلحق بحقوق الإنسان!).

- لضمير العلم الصارم عينان باردتان وجافتان، وكل شيء يستلقي أمامه مجردا من الريش وبلا لون؛ يعاني من عجزه عن الكذب ويسمي ذلك «إرادة الحقيقة»!

- ينتفض، ينظر حواليه، يمسح بكفه على رأسه ويدع نفسه يسخر ويستهزئ بطالب معرفة. لكن التحرر من الحمى لا تعني «عرفانا».

- المحمومون يرون في الأشياء كلها أشباحا والذين لا حرارة لهم يرون فيها ظلالا خاوية - لكنهما يحتاجان كلاهما إلى نفس الكلمات.

- لا يكفي أن يكون للمرء اليوم عقل: على المرء أيضا أن يتخلص منه، أن «يجتث» من نفسه العقل؛ لكن ذلك يتطلب الكثير من الشجاعة.

- هناك أيضا أولئك الذين طالهم الفساد بما فيه الكفاية كيما يجدوا طريقا إلى المعرفة، لأنهم معلمون: فقط من أجل تلامذتهم يأخذون الأشياء - وأنفسهم أيضا - بجديّة.

(نجد صدى لهذه الجملة أيضا في **ما وراء الخير والشر**؛ الشذرة ٦٣: «من كان معلما في طبعه العميق، يأخذ الأشياء - بما في ذلك نفسه ذاتها - بجدية وعينه على تلامذته -».

- هي ذي تقف هنا تلك القطط الغرانيتية الثقيلة؛ قيم الأزمنة الغابرة: وأنت تريد أن تقلبها وتقوضها يا زرادشت؟

(...)

- أيها العقل المثابر العنيد، الدقيق والتافه

- دعني أحزر، فإن برهانك يتعب جوع عقلي.

- إنك لا تشعر حتى بأنك تحلم؛ فما أبعدك إذًا عن اليقظة!

- يا صديقي، إن الفضيلة لا تفعل شيئا «من أجل» و«لأن» و«لكي»؛ فهي لا تملك أذنا لمثل هذه الكلمات الصغيرة.

(...)

- عاجز... مثل جثة، ميت حيّا، مدفون، مغمور، لم يعد قادرا حتى على الوقوف هذا المجترّ المتلصّص فكيف له أن ينهض منبعثا من جديد؟!».

لدودين مذعوريْن كليهما الواحد من الآخر؛ هكذا حدث لنا الآن نحن أيضا.

لكن! وكيف وجدا نفسيهما على أهبة أن يعانق أحدهما الآخر، ذلك الكلب وذلك المسافر الوحيد! إذ كانا كلاهما ـ وحيديْن!»

«أيا كنت أيها الرجل، قال المداس ولا يزال حانقا، فإنك تدوس عليّ الآن بمَثَلك أيضا وليس بقدمك فقط!

لتنظر إذًا! أأنا كلب؟» وبهذه الكلمات نهض ذلك الجالس وقد أخرج ذراعه العارية من المستنقع. ذلك أنه كان مستلق على الأرض مختبئا ومستترا مثل واحد يتربّص بطريدة من وحوش المستنقعات.

«لكن ماهذا الذي تفعله!» صاح زرادشت مذعورا إذ رأى دما غزيرا يسيل فوق الذراع العارية، ـ وما الذي جرى لك؟ هل عضك حيوان مفترس أيها الشقيّ؟

عندها أجابه المدمّى ضاحكا وهو مايزال حانقا مع ذلك: «ما الذي يعنيك في هذا؟» وكان يهمّ بالانصراف، «إنني هنا في موطني ومملكتي!

ليسألني من يريد أن يسألني، غير أنه سيكون من الصعب على أهوجٍ أن يظفر مني بجواب».

«هيهات! أجابه زرادشت مشفقا وهو يمسك به من ذراعه، إنك مخطئ؛ أنت لست في موطنك هنا بل في مملكتي، ولا أسمح بأن يصاب أحد فيها بأذى.

ولتدْعُني بما يحلو لك من الأسماء على أية حال؛ إنني الذي يجب أن أكون. أما أنا فأدعو نفسي بإسم زرادشت.

هيا! إلى هناك فوق المرتفع يمضي الدرب الذي يقود إلى مغارة زرادشت، وهي ليست بعيدة ـ ألا تريد أن تضمد جراحك عندي؟

لقد أصابك الكثير في هذه الحياة أيها الشقي؛ في الأول عضك الحيوان، وبعدها داس عليك الإنسان!».

لكن ما أن سمع المداس إسم زرادشت حتى تبدلت سحنته. «ما الذي جرى لي إذًا؟ راح يصرخ، ومن تُراه يشغلني أكثر في هذه الحياة أكثر من ذاك الإنسان الفريد الذي يدعى زرادشت، وذلك الحيوان الفريد الذي يغتذي من الدم: العلقة؟

من أجل هذه العلقة أستلقي في هذا المستنقع مثل صيّاد، وكانت ذراعي الممددة قد عُضّت عشرة مرات عندما جاءت علقة ألطف لتمتص دمي: زرادشت شخصيا!

يا للسعادة! ياللمعجزة! مبارك هذا اليوم الذي قادني إلى هذا المستنقع! مبارك أفضل محْجم حيّ والأكثر حيوية من بين كل المحاجم، مبارك زرادشت علقة الوعي العظيمة!».

هكذا تكلم المُداس، وقد أفرحت زرادشت كلماته وما ترشح به من إجلال وإكبار. «من أنت؟» سأله عندها وهو يمد يده للمصافحة، إن بيننا أمورا كثيرة سيكون علينا أن نوضّحها ونجلوها؛ لكنني أرى النهار وقد غدا الآن أكثر صفاء وجلاء».

أنا رجل التدقيق والتمحيص العقلي، أجاب الرجل، وليس هناك في مسائل الفكر من هو أكثر صرامة وأكثر شدة وأكثر قسوة مني، سوى ذلك الذي كان معلّمي في هذا كله؛ ألا وهو زرادشت.

وإنه لمن الأفضل أن لا يعرف المرء شيئا من أن تكون له نصف

معرفة بالكثير من الأشياء! وأفضل أن أكون أحمق مستقلا بذاتي من حكيم يقتات من أحكام الآخرين. أنا ـ أمضي إلى العمق.

وأية أهمية أن يكون ذلك العمق كبيرا أم صغيرا، أن يدعى مستنقعا أم سماء؟ إن سعة الكف من أرض لكافية بالنسبة لي؛ شريطة أن تكون بحق أرضا متينة وقاعدة صلبة(*).

سعة الكف من الأرض؛ فوقها يمكن للمرء أن يقف بقدم ثابتة. ففي مجال التدقيق المعرفي الحقّ ليس هناك من كبير أو من صغير.

ـ «لعلك الخبير العارف بأحوال العلقة إذًا؟ وأنك تذهب في سبر أغوار العلقة إلى أعمق الأعماق، أيها المدقّق الصارم؟»

«أي زرادشت، سيكون ذلك أمرا رهيبا، من أين لي أن أدّعي التحرش به!

وإذا ما كان هناك من مجال أعتبر نفسي العارف به والمعلّم الحاذق فيه، إنما هو **دماغ** العلقة: ـ ذلك هو عالمي **أنا**!

وهو عالم قائم بذاته على أية حال! ولتغفر لي إن نطق افتخاري هنا بصريح العبارة، إذ ليس هنالك من يضاهيني في هذا المجال. لذلك قلت قبل حين «إنني هنا في مملكتي».

(*) عبارة Grund und Boden تعني حرفيا: أرضية وقاعدة. لكن هناك تلاعب على المعاني المختلفة التي تؤديها عبارة Grund فهي تعني العمق، والقاع، والأساس، وفي الوقت نفسه الأرض، والقاعدة؛ كما أن عبارة Grund und Boden التي معناها الحرفي قاعدة وأرضا، أو أرضا وقاعا، تعني في الاستعمال الألماني: كليّا، وبصفة جذرية وعنيفة. من هنا الصعوبة الكبرى في ترجمة المقصود من وراء ظاهر اللفظ.

ولكم قضّيت من الزمن متفلّيا هذه المسألة **الوحيدة**؛ دماغ العلقة، وذلك كي تكف الحقيقة المتفلتة دوما عن الإفلات من قبضتي! إنني هنا في **مملكتي!**

ـ من أجل ذلك أهملت كل شيء سواه، ومن أجل ذلك غدا كل شيء سواه لا يعنيني؛ وجنبا إلى جنب مع علمي تمتد ظلمة جهلي.

ضميرُ عقلي هو الذي يريد لي أن أعرف شيئا واحدا وأكون جاهلا بكل ما عداه: إنني أقرف من كل أنصاف العقول، كل العقول الضبابية، المحلّقة والمتأججة حماسة.

وحيث تنتهي نزاهتي أكون أعمى، وأريد أيضا أن أكون أعمى. لكن حيث أريد أن أعرف أريد أيضا أن أكون نزيها؛ أي قاسيا، شديدا، صارما، فظيعا، بلا هوادة.

وإن قولك ذات مرة يازرادشت: «العقل هو الحياة التي تحز وتقطع في لحمها الخاص» هو الذي استهواني وقادني إلى تعاليمك. وحقا أقول لك إنني بدمي قد جمّعت وراكمت علمي الخاص!»

ـ «وإن منظرك لشاهد على ذلك، والمشاهدة خير دليل» قال زرادشت؛ ذلك أن الدم ما يزال متدفقا من الذراع العارية للمدقّق الصارم. إذ كانت عشرة علقات في الحقيقة قد عضت على ذلك الموضع.

«أو، أيها الرفيق العجيب، أيّة دروس ترشح لي بها هذه الهيأة؛ أعني شخصك! ولعله لا يحق لي أن ألقي بكل شيء إلى أذنك الصارمة.

هيّا! لنفترق هنا! لكنني أريد أن ألقاك ثانية. إلى هناك يصعد الدرب الذي يقود إلى مغارتي، ولتكن ضيفي المعزز في هذه الليلة!

وإنني أريد أن أراضي جسدك أيضا، إذ داس عليك زرادشت بقدمه: ذلك ما أفكر فيه الآن. لكن علي أن أنصرف عنك الآن إلى حيث تستحثني صرخة مستغيث».

هكذا تكلم زرادشت.

الساحر[1]

١

وبينما كان زرادشت يلف حول صخرة رأى غير بعيد من تحته وعلى نفس الطريق التي كان يسلكها رجلا يلوّح بذراعيه مثل المعتوه ثم ينطرح بكل جسده على الأرض. «قف! قال زرادشت مخاطبا نفسه، هذا الذي أرى هناك لا بد أنه الإنسان الأعلى، وأنه هو الذي كان يرسل بكل ذلك الصراخ المستغيث الأليم؛ لا بد أن أنظر إن ثمة ما يمكن مساعدته به». لكنه عندما هرع إلى الموضع الذي كان يستلقي فيه ذلك الرجل وجد أمامه عجوزا مسنا مرتعدا وبعينين متجمدتين، وعبثا كانت بعدها كل جهود زرادشت ومحاولاته أن يُنهضه ويجعله يقف مجددا على قدميه. بل إن ذلك الشقيّ قد بدا كما

---

(١) العنوان الأولي كما يرد في المخطوطة الأصلية هو: «تائب العقل»، لكن الشذرة ٣٠ [٨] من كنشات خريف ١٨٨٤ تثبت عنوان «الساحر». في هذه الشذرة يرد ما يلي: «متعب أنا؛ دون جدوى بحثت طوال حياتي عن إنسان عظيم. لكن لم يعد هناك من زرادشت أيضا. / عرفتك قال زرادشت جادّا، إنك ساحر الجميع، لكن يبدو لي أنك وحدك الذي جنيت كل القرف./ إنه لمشرف لك أن كنت قد سعيت إلى العظمة، لكن سعيك قد خانك هو أيضا؛ فأنت لست عظيما. / من أنت؟ قال الساحر مستاء وبعين ملؤها العداء، من يسمح لنفسه بمخاطبتي هكذا؟/ أنا ضميرك القاسي الشديد، أجابه زرادشت وأدار ظهره للساحر».

لو أنه لم يكن يدرك حتى وجود شخص إلى جانبه أصلا، بل أكثر من ذلك فقد كان يجول بعينيه من حوله ملوحا بيديه بحركات مثيرة للشفقة مثل امرئ أعزل وحيد، متروك ومنسي من العالم بأسره. لكنه، وبعد ارتعاشات وتشنجات وتلوّيات كثيرة راح بالأخير يشتكي متفجعا هكذا:

من يدفئني؟ أمن أحد ما يزال يحبني[1]؟

ناولوني أيدٍ حارّة!

ناولوني مجامر للقلب!

ممددا، تقضّني الرعدة

مثل محتضرٍ تدلّك قدماه الباردتان ـ

مزعزع الأركان أواه! بحمّى غريبة،

مرتعدا تحت وقع سهام من جليدٍ قاسية/ ،

ملاحَقًا بك، أيتها الفكرة!

الفكرة النكرة!المقنَّعة! الفظيعة!

الصياد المستتر وراء الغيوم!

---

(١) بكائية الساحر هذه قد نظمها نيتشه في البداية كقصيدة مستقلة بذاتها في ربيع ١٨٨٤. في المجلد ١١ من الأعمال الكاملة؛ الشذرة ٢٨[٢٧] توجد الصياغة الأولى لهذه القصيدة تحت عنوان: «الشاعر ـ معاناة المبدع»، ثم نقرأ في الشذرة ٢٩ [٢٢] هذا المقطع القصير: «هل من أحد يحبّني بعد؟ ـ عقل يقضّه البرد/ صرَعيّ/ شاعر/ ملك». بعدها يعيد كتابة هذه القصيدة في مسودات الكتاب الثاني من زرادشت تحت عنوانين مختلفين: «من الوحدة السابعة» و«الفكرة»، ثم يعيد كتابتها في الشذرة ٣١[٣٢] من نفس الكنش، لكن بصياغة تكاد تكون نهائية، أو أقرب كثيرا إلى الصيغة التي ترد عليها في هذا الفصل. وفي كنش ديسمبر ١٨٨٨ ـ جانفي ١٨٨٩ تتحول بكائية الساحر إلى قصيدة «شكوى أريان» التي ضمنها نيتشه داخل «داثيرامبوس ديونيزوس».

مصعوقا بك،

أيتها العين الهازئة التي ترمقني من وراء العتمة:

ـ هكذا أستلقي،

أتلوّى، أتثنّى، معذّبًا

بكل الضربات الموجعة الأبدية،

مصابا بسهمك أيها الصيّاد الفظيع

أنت، أيها الإله المجهول!

* * *

لتضربْ عميقًا وأعمقَ

اضربْ مرة أخرى!

مزّقْ وفتّتْ هذا القلب!

ما نفع هذا التعذيب بسهام كليلة؟

لِم ترمقني مجدّدا هكذا،

مثابرًا لا تعرف كللا من عذاب الآدميين،

بعينين صاعقتين تبرقان برغبة إله شامت متشفّ؟

لا قتلاً تريد،

بل عذابًا فقط؟ وعذابا؟

لأي غرض ـ تعذبني أيها الإله الشّامت المجهول؟ ـ

* * *

ها ها! تتسلل خفية؟

عمّ تبحث في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟
تكلّمْ!
تضغطني، وتهصرني ـ
ها! تضيّق عليّ الخناق!
تنحّ! تنحّ!
تُصغي إلى أنفاسي؟
تسترق السمع إلى قلبي؟
أيها الغيور ـ
غيور ممّاذا يا ترى؟
تنحّ! تنحّ! لِم هذا السلّم؟
تريد **الدخول**؟
ولوج قلبي؟
تريد الصعود؟
إلى أفكاري الخفيّةِ تريد الصعود؟
أيها اللص المجهول ـ الذي لا يستحي!
ما الذي تريد أن تسرق؟
عمّ تريد أن تتجسّس؟
ماذا تريد بهذا التعذيب؟
يا معذب الأرواح!
أيها الإله الجلاد!
أوتريدني أن أرتمي كالكلب

متمرغا بين قدميك؟
مخلصا، مولعا أطير ولهًا،
مبصْبِصًا بحبّي لك؟

عبثا! لتواصلْ لسعاتك،
أيتها الحسكة الفظيعة! كلاّ،
لستُ كلبا - بل فقط طريدتك الوحشيّة أنا،
أيها القنّاص الشنيع!
أسيرُك ذو الكبرياء،
أيها اللص المتسترّ وراء السحب!
تكلم إذًا!
ماذا تريد مني يا قاطع الطرقات؟
أيها المجهول المتلفّع بالبروق! تكلّم!
ماذا تريد أيها الإله المجهول؟ - -

ماذا؟ فديةً؟
تريد فديةً؟
لتطلب الكثير إذًا؛ تلك نصيحة كبريائي لك!
وليكن كلامك قليلا؛ تلك نصيحة كبريائي الأخرى!
ها ها!

تريدني ـ أنا؟ أنا الذي تريد؟
أنا ـ بكلّيتي؟

ها! ها!
وتعذبني، أيها المجنون،
وتجلد كبريائي؟
بل لتمنحْني **محبّة!** ـ من يدفئني؟
أمِنْ أحد ما يزال يحّبني؟ ـ ناولني يديْن حارّتين،
ناولني مجامر للقلب،
أعطني، أنا المتوحّد
الذي علّمه الصقيعُ وسبعُ طبقات من الثلج على القلب
كيف يحنّ ويشتاق حتى إلى أعداءٍ،
سلّمني، وسلّم ـ
أيّها العدو الفظيع ـ
نعم، سلّم **نفسك** ـ لي!

ابتعد!
ها هو قد فرّ
رفيقي الوحيد والأخير،
عدوّي الأكبر،
عدوي المجهول،

إلهي الجلاّد! ـ

كلاّ، لتعدْ،
بكلّ ضرباتك الموجعة!
أواه! لتعدْ إلى آخر وحيدٍ من بين المتوحّدين!
عدْ، فكل جداول دموعي تنسكب
سائلة نحوك!
وشعلة قلبي الأخيرة ـ
تضطرم لك **أنت** وحدك!
أواه عدْ،
إلهي المجهول! يا عذابي! وسعادتي ـ الأخيرة!

* * *

٢

ـ ههنا نفذ صبر زرادشت ولم يعد يتحمل من مزيد، فأخذ عصاه وبكل ما لديه من قوة راح يضرب المتذمر المتفجع. «إخرس!» صاح فيه مجلجلا بضحكة الحانق، «إخرس، أيها الممثل! أيها المزوّر! أيها الكذاب حتى النخاع! إنني أعرف جيدا من أنت!

سألهب ساقيْك أيها الساحر المشؤوم، إنني على دراية جيدة بالطريقة التي تحرق جلد هذا الرهط الذي على شاكلتك».

ـ «دع هذا، قال العجوز وهو يهبّ واقفا، كُفّ عن الضرب يا زرادشت، إنما كنت أفعل ذلك لمجرد اللعب!»

إن مثل هذا اللعب جزء من صناعتي، وقد أردت فقط أن أجرّبك عندما قدمت هذا العرض الاختباري! والحق أقول لك، إنك نفذت إلى أعماقي بعينك الثاقبة!

لكنك أنت أيضا قد قدمت لي عرضا لا يستهان به عن حقيقتك: إنك **قاس** يازرادشت الحكيم! بقسوة تجلد «بحقائقك» ـ وعصاك القاسية هي التي انتزعت مني هذه الحقيقة انتزاعا!»

ـ «لا تتملّق، أيها الممثل الزائف حتى النخاع! أجابه زرادشت وهو ما يزال حانقا قاتم السحنة. مزيّف أنت؛ فأيّ كلام لك ـ عن الحقيقة!

يا طاووس الطواويس! يا بحر الغرور! أيّة مسرحية هذه التي تمثّلها هنا أمامي، أيها الساحر المشؤوم! في منْ كنت تريدني أن أعتقد عندما كنت تتفجع بتلك الطريقة؟»

«في تائب **العقل**، قال العجوز؛ ذاك هو الذي كنت أمثّل دوره أمامك، وإنك أنت نفسك من ابتدع هذه العبارة في ما مضى ـ

ـ الشاعر والساحر الذي يوجّه عقله ضد نفسه بالنهاية، المتحوِّل الذي يتجمد بصقيع علمه السيء وضميره.

ولتعترفْ يا زرادشت الآن: لقد كان عليك أن تنتظر طويلا قبل أن تدرك حقيقة صناعتي وكذبتي! لقد **اعتقدتَ** في أساي مصدقا وأنت ترفع رأسي بكلتي يديك، ـ

وقد سمعتك تتحسّر هكذا: «لم يُمنح ما يحتاج من المحبة، لم يُمنح محبّة!» أن أنجح إلى هذا الحد في خداعك، فذلك هو ما غمر خبثي غبطةً حتى الأعماق.

«من الأكيد أنك قد نجحت في مغالطة أناس أكثر شطارة مني،

أجابه زرادشت بحدة. أنا لست بالذي يحتاط من المخادعين؛ **ينبغي عليّ** أن أكون دون حذر: ذلك ما يريده قدري.

أما أنت، فـ**في حاجة** إلى الخداع؛ إنني أعرفك جيدا كي أدرك ذلك! عليك دوما أن تكون مزدوج المعنى، ثلاثا ورُباعا وخُماسا في كل ما تنطق به وتفعله. وحتى هذا الذي اعترفت به الآن فلا هو بصادق بما فيه الكفاية بالنسبة لي ولا هو بكاذب بما فيه الكفاية!

هكذا كنت تزيّن وتقنّع كذبتك أمامي وأنت تقول: «إنما كنت أفعل ذلك لمجرد اللعب!» لقد كان هناك شيء من **الجد** أيضا في ذلك؛ ففيك أيضا شيء من تائب العقل!

إنني أكْتنِه شخصك جيّدا: لقد كنتَ ساحر الجميع، لكن ما من حيلة لديك أو كذبة تجاه نفسك، ـ فأنت منكشف السر منقشع الهالة أمام نفسك!

القرف هو ما جنيْته كحقيقتك الوحيدة. وما من كلمة ظلت صادقة لديك، لكنّ فمك صادق مع ذلك؛ أعني هذا القرف الذي يلتصق بشفتيك».

ـ «من أنت إذًا؟ صاح الساحر العجوز بصوت ملؤه التحدي؛ من يسمح لنفسه بأن يخاطبني بمثل هذا الكلام، أنا، أعظم من يحيا على وجه الأرض في هذا الزمن؟» وقذف زرادشتَ بنظرة برْقًا أخضر يومض من عينيه. إلا أنه سرعان ما تغير وقال يخاطب زرادشت بصوت حزين:

«أي زرادشت! لقد تعبت من كل هذا، وقرفت من فنون أحابيلي. أنا لست عظيما، فما نفع التظاهر؟ لكنك تعلم جيدا ـ لقد كنت أسعى إلى العظمة!

كنت أريد أن ألعب دور الإنسان العظيم وقد أقنعت الكثيرين: لكنّ هذه الكذبة كانت أكبر من طاقتي، وعليها تحطمتُ.

أي زرادشت! كل شيء فيّ كذب؛ لكنْ أن أتحطم على كذبتي؛ فهذه حقيقة **صادقة!**».

إنه لمشرّف لك، قال زرادشت قاتما وهو ينظر جانبا وقد خفض عينيه، إنه أمر مشرّف لك أن تكون قد سعيت إلى العظمة، لكنّ سعيك نفسه قد خانك هو أيضا. فأنت لست عظيما.

هذا هو أفضل وأصدق ما فيك أيها الساحر المشؤوم العجوز، وذلك ما أقدّره فيك: أن تكون مللت من نفسك، وأن تصرح بذلك: «أنا لست عظيما».

هذا هو ما أقدّره فيك كواحد تائب العقل؛ حتى وإن كان صدقك لحظة مثل نفحة عابرة في كف الريح، فإنك في تلك اللحظة كنت ـ صادقا.

لكنْ، قل لي عمّ تبحث هنا في أدغالي وبين صخوري؟ وأي اختبار كنت تريد أن تختبرني عندما استلقيتَ في الطريق أمامي؟

وبأي شيء كنت تريد أن تغويني؟»

هكذا تكلم زرادشت وعيناه تومضان. وهنا سكت الساحر العجوز لبرهة من الزمن، ثم قال: «هل أنا أغويك؟ بل إنني ـ أبحث فقط.

أي زرادشت، إنني أبحث عن واحد صادق، مستقيم، بسيط، واضح، إنسان في منتهى النزاهة، وعاء حكمة وقديس معرفة، إنسان عظيم!

ألا تعرف ذلك، يا زرادشت؟ إنني **أبحث عن زرادشت**».

ههنا ساد صمت طويل بين الرجلين؛ لكنّ زرادشت غاص بعيدا

في أعماق نفسه، حتى أنه أغمض عينيه. ثم إنه عاد إلى مخاطبه وأمسك بيده قائلا بكل أدب ودهاء:

هيا! هو ذا الدرب الصاعد الذي يقود إلى حيث توجد مغارة زرادشت. هناك يمكنك أن تبحث عمن تطلبه نفسك.

ولتطلبْ نصيحة من حيوانيّ؛ نسري وحيّتي؛ إنهما سيساعدانك في بحثك. لكن مغارتي رحبة فسيحة!

أما أنا شخصيا فلم أر أي إنسان عظيم في الحقيقة. وإنّ العين الأكثر رهافة في وقتنا هذا تظل خشنة أكثر مما ينبغي كيما ترى عظيما. إنها مملكة الرعاع.

وكم من واحد رأيته ينتفخ ويتمطط والشعب يصيح من حوله: «أنظروا، هو ذا إنسان عظيم!» لكن ما نفع كل منافيخ الحدّادين؟ فبالنهاية لا يخرج منها سوى الريح.

وبالنهاية تنفلق الضفدعة التي ظلت تمتلئ طويلا بالهواء؛ ومن بطنها تخرج ريحٌ. أن يُشكّ بطن المنتفخ بمسمار، فذلك ما أسميه لعبة مسلّية. لتسمعوا هذا أيها الأطفال!

إن الزمن اليوم للرعاع؛ ومن ذا الذي مازال يعرف ما العظيم وما الحقير؟ ومن ذا الذي يسعى اليوم إلى العظمة فيوفّق؟ الأحمق وحده: وحده الأحمق ينجح في ذلك.

أتبحث عن الإنسان العظيم أيّها الأحمق العجيب؟ من **علّمك** أن تفعل هذا؟ هل هذا الزمن هو الوقت المناسب لذلك؟ أيّ شيء أتيتَ تغويني به، يا ساعي الشؤم أنتَ؟».

هكذا تكلم زرادشت منفّسا عن كروب قلبه، ثم مضى ضاحكا في طريقه.

العاطل[1]

لكن لم يمض وقت طويل بعد أن تخلص زرادشت من الساحر حتى رأى مجددا واحدا يجلس على حافة الطريق التي كان يسلكها؛ رجل طويل أسود بوجه نحيل شاحب. «الويل، قال زرادشت مخاطبا نفسه وقد أزعجه منظر هذا الرجل إزعاجا بالغاً، هو ذا الحزن يجلس مقنّعا هنا، وإنه ليبدو لي من رهط أولئك القساوسة: ما الذي يريده هؤلاء في مملكتي؟

ماذا! ما كدت أنجو بنفسي من ذلك الساحر حتى يعترض طريقي واحد آخر من ممتهني الشعوذة السوداء، ـ

ـ واحد من أولئك السحرة الذين يمارسون بسط الكفّ، صاحب معجزات ترعاها بركة الربّ، مفترٍ على العالم منقّع في المُسوح؛ ليأخذه الشيطان!

لكنّ الشيطان لا يكون في المكان المناسب أبدا، وهناك حيث يُحتاج إليه؛ دائما يأتي متأخرا ذاك القزم الأعرج الملعون!»

هكذا راح زرادشت يلعن ويشتم منزعجا في دخيلته متفكّرا في

---

(١) ورد هذا العنوان في المسودات والمخطوطات الأولية في صياغات مختلفة: «البابا العاطل» و«البابا (أو عن الأتقياء)»، وعبارة Ausser Dienst الألمانية لا تُطلق في الحقيقة على العاطلين عن العمل، بل عن الآلة المعطّبة.

طريقة ليتسلل منفلتا من أمام هذا الرجل الملفّع بالسواد مستديرا عنه بنظره. لكن ها قد حدث أمر مغاير فجأة. ففي اللحظة ذاتها كان ذلك الجالس قد لمحه، ومثل واحدٍ قد هبطت عليه فرصة سعيدة غير متوقعة هب واقفا وانطلق نحو زرادشت.

«أيّا كنت أيها العابر، مدّ يد المساعدة لرجل تائه يبحث عن طريقه، عجوز معرّض للمخاطر في هذا المكان.

العالم هنا غريب عني وبعيد؛ لقد سمعت وحوشا تعوي وتزأر، وذاك الذي كان بإمكانه أن يحميني لم يعد هو أيضا بين الأحياء.

كنت أبحث عن الإنسان التقيّ الأخير، قديس وناسك لم يسمع بعد في أدغاله بذلك الأمر الذي غدا يعرفه العالم بكليته اليوم».

وما هذا الذي يعرفه العالم كله؟ سأله زرادشت. أيكون ذلك النبأ بأن الإله القديم قد مات، ذاك الذي كان العالم كله يؤمن به في ما مضى؟»

«هو ما قلتَ، أجابه العجوز بحسرة. وقد خدمتُ ذلك الإله القديم حتى آخر ساعة من وجوده.

والآن ها أنا عاطل عن العمل، بلا سيّد لكنني لست حرا مع ذلك، ولا أعرف ساعة واحدة من المرح إلا على سبيل الذكرى.

لذلك صعدت إلى هذه الجبال كي أستطيع أخيرا أن أعمل لي من جديد عيدا كما يليق ببابّا وأب كنيسة قديم ـ ولتعلم أنني البابّا الأخير! ـ عيدًا بقُدّاسات وتذكّرات تقيّة ورعة أريد أن أعمل.

لكنه الآن قد مات هو أيضا، ذلك التقيّ الأكبر الأخير، قدّيس الغاب الذي كان يسبّح لربه بالهمهمات والأناشيد.

لـم يكـن هـو الـذي وجدت عـندمـا عثـرت أخيـرا عـلى كـوخه، بـل ذئبين داخله كانا يندبان موته منتحبيْن؛ ذلك أن كل الحيوانات كانت تحبه. عندها انصرفت من هناك.

لكـن، هل كـان عبثا إذًا مجيئي إلى هنـا؟ أيعقـل أن أعـود صفـر اليدين من هذه الأدغال والجبال؟ لكن هو ذا قلبي يستقر على قرار أن أنطلق في البحث عن أكبر المتقين من بين كل الذين لا يؤمنون بالله؛ - أن أمضي في البحث عن زرادشت!»

هكذا تكلم العجوز وهو ينظر بعين متفحصة ثاقبة إلى الرجل الذي كان يقف أمامه؛ لكن زرادشت أمسك بيد البابا القديم وراح ينظر فيها طويلا وبإعجاب.

«أنظر أيها الرجل الجليل، قال زرادشت، أيّ كفّ جميلة ورشيقة هذه! إنها كفّ لواحد تعوّد على منح البركة على الدوام. والآن هي ذي تمسك بذاك الذي تبحث عنه؛ تمسك بي أنا، زرادشت.

أنا هـو زرادشـت الكـافر بالآلـهة الـذي يتكـلـم الآن قـائلا: مـن هـو الكافر الأكثر كفرا مني كي أستطيع أن أحظى بتعاليمه؟

هكـذا تكـلم زرادشت وكان يرشقه بنظراته التي تخترق عمق أفكار وخلفيات أفكار ذلك البابا القديم. وأخيرا نطق هذا الأخير:

«إنّ ذاك الذي أَحَبّه أكثر وامتلكه أكثر، لـهو اليوم أكبر من مُنيَ بخسرانه أيضا[1]؛

---

(١) موت الله يمثل كارثة وانهيارا وتصدعا في وعي الإنسان الذي تعوّد على وجود الله. وهذه الكارثة لا تخفى على نيتشه، بل يختارها اختيار الملاّح الذي يحب الابحار في محيطات المخاطر. ويعبّرعن ذلك في العديد من المواقع من كتاباته وبغبطة أيضا. في **هذا هو الإنسان** مثلا يقول: «أعرف قدَري. ذات يوم سيقترن إسمي بذكرى شيء هائل رهيب؛=

ـ أنظر فأنا الآن أكثر كفراً من بيننا نحن الإثنين! لكن من تراه يجد متعة في ذلك؟».

ـ «كنت تخدمه حتى آخر لحظة؟ قال زرادشت يسأله متفكّرا، فهل تعرف كيف مات؟ أصحيح ما يقوله الناس من أنه مات مختنقا بشفقته،

وأنه رأى **ابن الإنسان** مسمّرا على الصليب، ولم يستطع أن يتحمّل أنّ محبته للآدميين كانت جحيمَه، ثم موتَه بالنهاية؟».

لكنّ البابا العجوز لم يجبه بل ظل ينظر جانبا، مستوحشا وبعينين ملؤهما الأسى والألم.

=بأزمة لم يعرف لها مثيل على وجه الأرض، أعمق رجة في الوعي... فأنا لست إنسانا، بل عبوة ديناميت». وليس عبثا أن يبوّب الكتاب الخامس من **المعرفة المرحة** بهذه الجملة لتوران (Turenne): «ترتعد أيها الهيكل؟ لكم سترتعد أكثر لو عرفتَ إلى أين أقودك!» أنظر الشذرة ٣٤٣ التي يبدأ بها الفصل المذكور: ـ إن الحدث العظيم الجديد المتمثل في «أن الله قد مات» وأن الاعتقاد في الإله المسيحي قد فقد مصداقيّته ـ قد شرع في بسط ظلاله فوق أوروبا. وبالنسبة لتلك الأقليّة على الأقل التي تمتلك عين ثاقبة ونظرة ارتياب دقيقة ومرهفة بما فيه الكفاية لهذا المشهد سيبدو هناك غروب ما ومعتقد ما قديم وعميق قد أصبح محل شك: وسيغدو عالمنا القديم أمام أعين هؤلاء أكثر انغماسا في الغروب، أكثر ارتيابا وأكثر غرابة وأكثر «شيخوخة». لكن، وفي ما يخص الأمر الجوهري، يحق للإنسان أن يقول: إن الحدث في حد ذاته على قدر من الجسامة وعلى قدر من البعد، وعلى قدر من المسافة في ماوراء المقدرة الادراكية لأغلبية الناس كيما نعتقد بأن خبر حدوثه قد بلغ الأسماع، ناهيك عن علم هؤلاء بما حصل فعلا مع هذا الحدث؛ وعن كل ما سيكون عليه أن ينهار بعد أن طُمر هذا الاعتقاد، لأنه على أساس هذا الاعتقاد قد تم البناء، وعليه كان المتكأ، وداخله نما كل شيء وترعرع: مجمل أخلاقنا الأوربية على سبيل المثال. وكل هذا الزخم وهذه السلسلة الطويلة من التصدع والدمار والتدهور والانهيار التي على الأبواب؛ من تراه يحزر اليوم مقدارا كافيا من حجمها وكمها كي يكون عليه أن يأخذ على عاتقه مهمة المعلّم والمنبئ بمنطق الرعب الهائل هذا، ولكي يكون نبيّ العتمة الزاحفة والكسوف التي لم تشهد الأرض مثيلا لها من قبل على ما أعتقد؟...

«دعه لمصيره، قال زرادشت بعد تفكُّرٍ طويل كان لا يكف أثناءه عن النظر في عيني الرجل العجوز.

دعه لمصيره، فقد تلِف وانتهى أمره. ولئن كان ذلك مما يشرفك أن تظل تذكر هذا الميت بخير، فإنك تعلم مع ذلك مثلي تماما تقريبا بهويته الحقيقية، وتعلم أنه كان يسلك طرقا عجيبة».

«ولكي أقولها لك في ما بيننا؛ عينًا في عينين، قال العجوز (ذلك أنه كان بعين واحدة سليمة)، فأنا في ما يتعلق بالمسائل الإلهية على دراية بالأمر أكثر من زرادشت نفسه ـ ويحق لي ذلك.

لقد وضعتُ محبتي في خدمته لسنوات طويلة، وإرادتي كانت تتبع إرادته في كل شيء. غير أن خادما جيّدا يعرف كل شيء، وكذلك الكثير مما يخفيه سيّده حتى عن نفسه أيضا.

لقد كان إلها خفيّا منطويا على الكثير من الأسرار. والحق أقول لك إنه لم يأت ولدَه أيضا إلا عبر دروب مواربة. وعلى باب عقيدته ينتصب الزنا[1].

---

(١) أنظر القصيدة القصيرة التي تحمل عنوان «العهد الجديد» من كنشات خريف سنة ١٨٨٤ / ٢٨ [٥٣]: «أهذا هو كتاب العبادات والأفراح والأحزان؛ الكتاب الأكثر قداسة؟ / ـ وعلى عتبته ينتصب الزنا الإلهي!».
في **المسيح الدجّال** (الفقرة ٣٤) ينتقد نيتشه التصور الكنسيّ لمسألة «الأبوة» و«البنوّة»، ويرى أنه تصور سخيف، بل ومخز.
لكن لنعد قليلا إلى تفحص مسألة الأب والإبن في الديانتين اليهودية والمسيحية، إذ نجد أن مفهوم الأبوة سابق على ميلاد يسوع بطريقة «الحبل بلا دنس»، وهي أبوة بالمعنى المعنوي، أو بمعنى التبني كما يبدو مما يرد في مواقع عديدة من كتاب العهد القديم:
ـ صموئيل الثاني الاصحاح ٧/ ١١٢ ـ ١٤ (من كلام الرب للملك داود): «متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبّت مملكته. =

ومن يمجده كإلهٍ محبّة فهو لا يولي المحبة نفسها اعتبارا ذا بال. أوَلم يكن ذلك الإله يريد أن ينصّب نفسه قاضيا أيضا؟ لكن المحب يحب في ماوراء الجزاء والعقاب.

=هو يبني بيتا لإسمي وأنا أثبّت كرسيّه إلى الأبد. أنا أكون له أبًا وهو يكون لي إبناً». ـ المزامير؛ الاصحاح ٢/ ٧: «إني أُخبر من جهة قضاء الربّ. قال لي أنت إبني. آنا اليوم ولدْتُك. ./ الاصحاح ٢٨/٨٩: «هو يدعوني أبي أنتَ، إلهي وصخرة خلاصي. . .». من هنا فإن شعب إسرائيل بكليته يغدو أبناء لله. أنظر «التثنية»؛ الاصحاح ١/١٤: «أنتم أولادٌ للربّ إلهُكم». و«أشعياء» الاصحاح ١/ ٢: «إسمعي أيتها السموات وأصغي أيتها الأرض لأنّ الرب يتكلم؛ ربّيتُ بنين ونشّأتهم».

فكرة الأبوة الإلهية سابقة إذًا على واقعة ميلاد يسوع بن مريم من «حبَل بلا دنس» وسابقة على القصة التي تداولت فيما بعد عن أن عيسى هو ابن الله مع ما حصل من التباس في المعنى الحقيقي الذي تفيده عبارة البنوّة، حتى عمّت البلبلة في شأن نوعية الأبوة: أمادية هي، ناتجةعن إخصاب بمادة ومضاجعة، أم روحانية؟ إلى أن جاء التأويل الإسلامي الذي جعل الحبَل ضربا من «نفخ من روح الله» وهو تأوّل يتماشى أكثر مع فكرة «الروح القدس» أيضا. وبالتالي فإن الإسلام قد أعاد الأمور إلى نصابها الأول، أي إلى المنظومة المعتقدية اليهودية التي لا تقر باختلاط بين الآلهة والآدميين وبإنجاب مشترك مثلما كان سائدا في المعتقد الإغريقي مثلا.

لكن الغريب في الأمر أن كتاب العهد القديم يثبت في سفر التكوين وجود مثل هذه العلاقة النكاحية والإنجابية بين «أبناء الله» وبنات الإنسان، ويشجب هذه العلاقة ويجعل منها سببا في حزن الله وندمه على خلق الإنسان، الأمر الذي دفع به إلى إهلاك بني الإنسان جميعا في واقعة الطوفان. أنظر التكوين؛ الاصحاح ٦/ ١ ـ ٤: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض ووُلد لهم بناتٌ أنّ أبناء الله رأوا بنات الناس أنّهنّ حسناتٌ فاتّخذوا لهم نساءً من كلّ ما اختاروا. فقال الربّ لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزَيَغانه، هو بشرٌ وتكون أيامه مئة وعشرين سنةً. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدْن لهم أولادا؛ هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو إسم». غريبة تبدو هذه الرواية لأمرين على الأقل؛ أولهما أن المعتقد الهيودي (ومن بعده المسيحي والإسلامي) يقر بواقعة طرد آدم وحواء من الجنة ولا يذكر شيئا عن أبناء للرب في أي موضع، لا في السماء ولا في الأرض. فمن أين أتى بنو الله هؤلاء الذين أغراهم حسن بنات الإنسان فناكحوهنّ وأنجبوا منهن الجبابرة؟! والأمر الغريب الثاني هو: لِمَ يغضب الله على الإنسان في حين أن أبناءه هم الذين ضاجعوا بناتنا لأنهم «وجدوهنّ=

وعندما كان شابا، ذلك الإله القادم من المشرق كان قاسيا ومتعطشا للانتقام، وقد شيّد له جحيما من أجل تسلية أحبّائه المقرّبين.

لكنه غدا عجوزا في الأخير، ليّنا وهشا وشفوقا؛ أشبه بالجد منه بالأب، بل أقرب إلى جدة هرمة مدكوكة الأركان.

ذاويًا غدا يقبع هناك في ركنه إلى الموقد، متذمرا من وهن رجليه، متعبا من الحياة، منكسر الإرادة، وذات يوم مات مختنقا بشفقته».

«أرأيت ذلك بعينك أيها البابا القديم؟ قال زرادشت مقاطعا. قد يكون هلاكه قد تم على هذا النحو؛ هكذا أو بطريقة أخرى أيضا. فالآلهة عندما تموت، فإنها بأنواع وألوان مختلفة من الموت تموت دوما.

لكن ليكن! على هذا النحو أو ذاك، أو على هذا النحو وذاك معا ـ فهو قد هلك وانتهى! وقد كان على أية حال الكائن الذي تشمئز منه عيني وينفّر أذني. ولن يكون بوسعي أن أذكره بأسوأ من هذا.

فأنا أحب كل ما كانت عينه صافية وتكلّم بوضوح. أما هو ـ وأنت تعرف ذلك جيدا أيها القسّ العجوز ـ فقد كان لديه شيء من طبع نوعك؛ أي من نوع القساوسة. ـ كان مبهما ملتبسا.

=حسنات»؟ وقد كان أحرى به أن يردع أبناءه ويرغمهم على أن يكفّوا أيديهم عن بناتنا!!! نيتشه لا يستنكر مفهوم الأبوة في حد ذاته بقدر ما ينتقد التصور المسيحي الجديد للمسألة والذي يتمثل في «الحبَل بلا دنس» أو ما يسمية بـ«الطريق المواربة» في إنجاب الولد، وينعت هذا التصور للحبل بلا دنس بأنه في حد ذاته «تدنيس للحبل» (**المسيح الدجّال**). ولعله يفضل على هذه الطريقة الملتبسة طريقة الآلهة الإغريقية التي كانت تنزل إلى الأرض وتضاجع النساء اللاتي يعجبنها وتعقد علاقات زواج، أو تجعل لها خليلات من تلك النساء. لكن ألم تكن تلك الآلهة تأتي بالطرق المواربة نفسها هي أيضا؟ إذ غالبا ما كانت تأتي متنكرة في هيآت حيوانات وطيور وتدخل على نساء «الفانين» بيوتهنّ من النوافذ والمداخن ـ أو تداهمها ـ بطريقة اللصوص والمخاتلين؟

وكان غامضا أيضا. ولكم صبّ علينا من جام غضبه، ذلك الحانق لأننا لم نفهمه على النحو الصحيح حسب زعمه! لكن، لِمَ لمْ يكلّمنا بأكثر وضوح؟

وإن كان ذلك بسبب آذاننا، فلِم وهبنا إذًا آذانا لا تسمعه جيدا؟ كان في آذاننا طين يسدّها؟ ليكن! لكن من وضع ذلك الطين داخلها؟

لكم فشل في الكثير مما عمل، ذلك الخزّاف الذي لم يتعلم صناعته كما ينبغي! أما أن ينتقم من أوانيه ومخلوقاته لأنه فشل في صناعتها على الوجه المطلوب، ـ فإن ذلك كان خطيئة في حق **الذوق السليم**[1].

هناك ذوق سليم في التقوى أيضا؛ وذلك الذوق السليم هو الذي تكلم أخيرا: «ليتنحّ عنّا هذا **النوع** من الآلهة، وإنه لأفضل وأحبّ أن لا يكون هناك إله، وأن يأخذ المرء مصيره بيده؛ أفضل أن يكون المرء أحمق، وأفضل أن يكون هو نفسه إلها!».

ـ «ما هذا الذي أسمع هنا؟ صاح البابا القديم عندها وقد كان مصخيا بسمعه؛ أي زرادشت! إنك أكثر تقوى مما تعتقد، ومع هذا الكفر! إن إلها ما في داخلك هو الذي هداك إلى الكفر بالآلهة.

---

(١) يمكننا أن نحيل هنا مرة أخرى على سفر التكوين الاصحاح ٦/ ٥ ـ ٧: «ورأى الربّ أنّ شرّ الإنسان قد كثُر في الأرض، وأنّ كل تصوّر أفكار قلبه إنما هو شرّيرٌ كلَّ يوم. فحزن الربّ أنّه عمل الإنسانَ في الأرض. وتأسّف في قلبه، فقال الربّ أمحو عنْ وجه الأرض الإنسانَ الذي خلقْتُه، الإنسانَ مع بهائمَ ودبّاباتٍ وطيور السماء، لأنّي حزنْتُ أني عملْتُهم». . لكن الغريب هنا أيضا هو أننا كنا قد رأيناه في الإصحاح الأول فرحا بعمله الذي عمل: «ورأى الله كلّ ما عمله فإذا هو حسنٌ جدًّا، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يومًا سادسا».

أليست تقواك نفسها هي التي غدت تمنعك من الإيمان بإلهٍ بعيْنه؟ وإن نزاهتك اللامتناهية ستقودك أيضا إلى ماوراء الخير والشرّ!

أنظر، أيّ شيء ينقصك؟ إن لك عينين ويدا وفما؛ من أجل المباركة جُعلتْ لك كلُّها منذ الأزل، إذ ليس باليد وحدها يبارِك الإنسانُ.

بقربك، وإن كنت تريد أن تكون أكثر الناس كفرا بالآلهة، أشتمّ رائحة ذكية وبخورا سريّا من ذلك الذي يرافق طقوسَ مباركةٍ طويلةٍ: شيء يملأني ارتياحا وألما في الآن نفسه.

دعني أكون ضيفك لليلة واحدة، أي زرادشت! فليس هناك من مكان في الدنيا سأشعر فيه بالارتياح أكثر مما أشعر به عندك!».

آمين! وليكن! أجابه زرادشت متعجبا شديد العجب. إلى هناك تمضي الطريق صاعدة إلى المكان الذي توجد به مغارة زرادشت.

إنه بودي حقا لو أنني أقودك إلى هناك أيها الرجل الجليل، فأنا أحب الورعين. لكنّ صرخة مستغيث تستحثني للإنصراف عنك الآن.

فلا يحق أن يصاب أحد بأذى في مملكتي؛ إن مغارتي مرفأ أمان للجميع. وإنّ أكثر ما أود هو أن أساعد كل مكروب وأجعله يقف مجددا على أرض صلبة وقدمين ثابتتين.

لكن من ذا الذي سيكون بوسعه أن يضع عنك حمل كآبتك؟ فأنا أضعف من أن أقدر على ذلك. والحقَّ أقول لك إنه سيكون علينا أن ننتظر طويلا حتى يأتي واحد يستطيع أن يوقظ لك ربك من جديد.

فذلك الإله القديم في الحقيقة قد مات: لقد مات إلى الأبد».

هكذا تكلم زرادشت.

أقبح الآدميين

ومجددا أسلم زرادشت قدميه للسير عبر الجبال والغابات بينما عيناه تجولان في الأرجاء وتبحثان، لكن لا أثر في أي مكان لذلك الذي كانتا تريدان الوقوع عليه، ذلك المكروب الكبير المستغيث. غير أنّ غبطة كبيرة كانت تملأ قلبه طوال المسير، وكان راضيا ممتنا: «أيّة أشياء جميلة وهبني هذا اليوم كي يعوّض لي عن بدايته الكريهة! وأيّ محادثين عجيبين التقيت بهم على هذه الطريق!

وإني لأريد أن أظل أمضغ كلماتهم طويلا كمن يمضغ حبّا طيّبا؛ ولْتجرشْها أضراسي وتطحنها حتى تستحيل طحينا ناعما، وحتى تنسكب مثل الحليب داخل روحي!»

لكن عندما لفّت الطريق مجددا حول جدار صخري شاهق تغير المنظر فجأة، وإذا زرادشت يطأ مملكة الموت. صخور عالية سوداء وحمراء تنتصب هناك: لا عشب، لا شجر ولا صوت طائر في الأرجاء. كانت في الحقيقة وادٍ تنفر منها كل الوحوش بما في ذلك الوحوش المفترسة؛ هناك نوع واحد فقط من أفاعي كريهة غليظة خضراء كانت تأتي لتموت هناك عندما تهرم. لذلك سمّى الرعاة تلك الوادي: «موت الأفاعي».

لكن زرادشت غاص بعيدا داخل ذكرى سوداء، ذلك أنه بدا له

وكأنه قد سبق له أن وجد نفسه في هذه الوادي في ما مضى. أفكار ثقيلة غدت تجثم بكلكلها على ذهنه الآن، حتى أنّ خطواته غدت ثقيلة ثم أثقل فأثقل إلى أن توقف وظل ثابتا في مكانه. ههنا لمح وهو يفتح عينيه شيئا كان قابعا على حافة الطريق له هيأة إنسان ولا شبه له بالإنسان تقريبا، كائنا تعجز عن وصفه الكلمات. وفجأة غمر زرادشت شعور عارم بالخجل لكونه رأى بعينيه مثل هذا الشيء؛ ومحمرا من إخمص القدمين حتى منبت لمّته البيضاء حوّل نظره عنه وحرك قدمه يهمّ بمغادرة ذلك الموضع. لكن ذلك الخلاء الموات قد امتلأ ضجة من حوله، ومن الأرض تصاعدت غرغرة وحشرجة مثل ما تحدثه المياه ليلا وهي تغرغر وتحشرج عبر أنبوب مائي مسدود، وبالنهاية تحولت تلك الضجة المبهمة إلى صوت بشري وكلام بشري قد أفصح هكذا:

«زرادشت! لتفك لي هذا اللغز يا زرادشت! تكلم! وقل لي **ما هو الانتقام من الشاهد**؟

لكن أناشدك أنْ لا تتقدم أكثر، فالأرض هنا جليد زلَقٌ! احذر، احذر أن لا تنكسر ساق كبريائك هنا!

إنك تعدّ نفسك حكيما يازرادشت المعتدّ بنفسه! لتحل إذًا هذا اللغز يا مذلّل المعضلات؛ اللغز الذي هو أنا! لتقل لي إذًا: **من أنا؟**»

ولكُم أن تتصوروا الحالة التي غدا عليها زرادشت وما حدث لقلبه عندما استمع إلى هذه الكلمات! **تملّكته الشفقة** وهوى دفعة واحدة مثل شجرة بلّوط قد صمدت طويلا أمام ضربات العديد من الحطابين، تهوي بكل ثقلها فجأة بما يرعب الحطابين أنفسهم، أولئك الذين كانوا لا يريدون غير سقوطها. لكنه سرعان ما هب واقفا من جديد وقد غدا وجهه الآن قاسيا صلبا.

عرفتك طبعا، قال زرادشت بصوت قلّزيّ؛ **أنت قاتل الربّ!** دعني أمرّ الآن.

لم تستطع أن تتحمّل ذلك الذي كان يراك؛ ذاك الذي كان يراك على الدوام وينفذ إلى أعماقك يا أقبح إنسان! وهكذا انتقمت لنفسك من ذلك الشاهد!»

هكذا تكلم زرادشت وأراد الانصراف، لكن ذلك الكائن الذي لا يوصف أمسك بطرف ثوبه وراح يغرغر من جديد مجهدا نفسه في البحث عن كلمات. «لا تنصرف!» قال أخيرا.

إبق هنا! لا تمض! لقد حزرتُ أيّ فأسٍ هوتْ عليك وألقتك طريحا؛ مرحى لك يا زرادشت إذْ نهضت على قدميك من جديد!

لقد حزرْتَ، كما أرى ذلك جيدا، أيَّ إحساس يكون لدى ذلك الذي قتله؛ قاتل الربّ. لا تذهب! إجلس إليّ هنا، ولن يكون ذلك دون فائدة.

إلى من كنتُ أريد المضي إذًا ياترى، إن لم يكن إليك أنت؟ لا تذهب، اجلس! لكن لا تنظر إليّ! إذ هكذا ستحترم ـ قبحي[1]!

---

(١) رأينا أن زرادشت قد حوّل نظره حياء عن منظر ذلك الرجل القبيح، وقد همّ بالانصرف مهموما لكونه رأى بعينه ذلك القبح. بينما الربّ كان فضوليا ولا يكف عن النظر في قبح الإنسان. إحدى دعائم الأخلاق الزرادشتية هي إذًا غض النظر عن القبح، الحياء أمام القبح وعدم تحويل القبيح إلى فرجة. وفي كنشات ربيع ١٨٨٤؛ الشذرة ٢٥[١٠١] يتطرق نيتشه إلى مسألة القبح والجمال من وجهة نظر الفن ومن وجهة نظر الدين والأخلاق الدينية: «أن يجعل الفن مشهدَ الأشياء شيئا محتملا . . . (. . .) هناك متعة في القبح عندما يكون مرعبا: والانفعال أمام المشهد المرعب للطبيعة الإنسانية الحقيقية هو ما يُبحث عنه غالبا من قِبل الأخلاقانيين. إن النتيجة الإجمالية لكل الأخلاقانيين هي: الإنسان شرّير ـ حيوان مفترس. وعملية «الإصلاح» لا تمضي إلى العمق، بل تتوقف عند المظهر=

إنهم يلاحقونني؛ وأنت الآن ملاذي الوحيد. ليس بحقدهم يلاحقونني، وليس بزبانيتهم؛ لأن مثل هذه الملاحقات لن تثير سوى سخريتي، بل وسأكون فخورا بها ومغتبطا!

ألم يكن النجاح دوما حليف الملاحَقين؟ كما أن الذي يلاحِق جيّدا يتعلم بسهولة كيف **يتبع**؛ إذ هو يركض دوما ـ وراء من يلاحق! لكنّ شفقتهم،

شفقتهم هي التي أفر منها، وهي التي جئت ألوذ بك من شرها. أي زرادشت أحمني يا ملاذي الأخير، أنت الوحيد الذي حزرتني جيدا،ـ

ـ لقد حزرتَ أي إحساس يكون لدى ذلك الذي قتل الربّ. لتبق هنا إذًا! وإذا ما كنت تريد الذهاب، أيها الذي لا صبر له؛ فلا تمض إذًا على الطريق التي أتيتُ منها أنا، فبئس الطريق **تلك**.

أساءك مني أن أظل أتكلم وألجلج وأرطن كل هذا الوقت؟ وأن أقدّم لك نصيحة؟ لكن لتعلم بأنني أقبح الآدميين،

ـ والذي له أضخم وأثقل قدمين أيضا. حيثما سرتُ تغدو الطريق سيئة؛ إنني أدهس كل الدروب، أدمّرها وأغمرها بالعار.

لكنْ لم يخْف عني كيف كنت تريد المرور بجانبي بصمت، وكيف احمرّ وجهك عندها؛ وذلك هو ما جعلني أتعرف عليك وأعرف أنك زرادشت.

=الخارجي؛ و«الحسن» يكون في جوهره زينة، أو ضعفا. «لا بد من تجميل الإنسان وجعله قابلا للاحتمال»؛ وفي مقابل هذا المبدأ تقول المسيحية والبوذية: بل لا بد من نفيه (. . .) إن الفلاسفة اليونانيين لم يكن لهم من بحث عن «السعادة» إلا في أن يروا أنفسهم جميلين داخل الشكل الفني؛ يعني أن ينحتوا انطلاقا من أنفسهم التمثال الذي يسر منظره المتفرج (ولا يثير رعبا ولاقرفا).

ذلك أن كلّ أحد سواك كان سيقذف لي بصدقة، وبنظرة وكلمة تعبّران عن شفقته. لكنني، وكما حزرتَ ذلك، لست متسولا بما فيه الكفاية،

إنني **أغنى** من أن أحتاج إلى هذه الصدقة؛ غنيٌّ عظائمَ وفظائعَ، وبأقبح الأشياء وبما لا يوصف! لقد كان خجلك **إكراما** لي يا زرادشت!

بعناء شديد استطعت أن أنجو بنفسي من زحمة المشفقين، كي أجد الإنسان الوحيد الذي يعلّم اليوم: «إن الشفقة مضايقة» ـ أن أجدك أنت، يا زردشت!

ـ سواءٌ أكانت شفقة إله أو شفقة إنسان؛ فالشفقة استهتار بالحياء. ولعل حبس المعونة أرقى من هذه الفضيلة التي ترتمي بالأحضان. لكن هذه الشفقة غدت فضيلة لدى أصاغر الناس اليوم. إذ ليس لهؤلاء من احترام للمَصَاب العظيم، والقبح الكبير، والفشل الكبير.

أنزلق بنظري فوق هؤلاء جميعا مثل الكلب يسرح بنظره بعيدا من فوق الظهور المتلاصقة لقطيع من الغنم. فهمْ كائنات صغيرة رماديّة تنعم بغبطة الحملان، وديعة طيّعة.

مثل البجعة ترسل نظرها باحتقار فوق الغدران الضحلة ساحبة عنقها الطويل إلى الوراء؛ كذلك أرسل نظري فوق هذه الكتلة المتراصة لتلك الهيآت المتموجة الرمادية الصغيرة والإرادات والأنفس الحقيرة والرمادية كلها.

لزمن طويل جدا ظل هؤلاء الأصاغر يلاقون عبارات الاستحسان؛ وأخيرا مُنحوا السلطة أيضا، والآن هاهم يكرزون بهذا التعليم: «لا خير سوى ما يعتبره صغار الناس خيرا».

و«الحقيقة» تعني اليوم ما جاء في أقوال الواعظ الذي طلع من بينهم هو أيضا، ذلك القديس العجيب الناطق بإسم الصغار، الذي كان يقول عن نفسه: «أنا الحق»(١).

---

(١) أنظر إنجيل يوحنا؛ الاصحاح ١٤/٥: «قال له توما يا سيّدُ لسنا نعلم أين نذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريقَ. قال له يسوع أنا هو الطريق والحقّ والحياة». وفي كنشات ربيع ١٨٨٤ يكتب نيتشه في الشذرة ٢٥ [٣٣٨]: «ويروى أن المؤسس الشهير للديانة المسيحية قد قال أمام بلاطس «أنا هو الحق»؛ وكان جواب الروماني على هذه القولة جديرا بمقام روما كأكبر مركز حضريّ في التاريخ». لكن إنجيل يوحنا لا يثبت أن يسوع تلفظ بعبارة «أنا هو الحق» أمام بيلاطس. أنظر الاصحاح ١٨/٣٨: «فقال له بيلاطس أفأنت إذا ملك. أجاب يسوع أنت تقول أني ملكٌ. لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيتُ إلى العالم لأشهد للحقّ. كل من هو من الحق يسمع صوتي. قال له بيلاطس ما هو الحقّ؟».
سيتذكر القارئ العربي مباشرة عبارة الحلاج: «أنا الحق». لكن الإحالة هنا على يسوع المسيح، والسياق كما المدلول كلاهما مختلفان، فللعبارة على لسان الحلاج معنى التماهي الكلي مع مطلق المعرفة ونوع من الوصول بعد شق الطريق الطويلة للبحث عن المعرفة وبلوغ منزلة العارف التي تقابلها في القاموس النيتشوي عبارة der erkennender التي لها معنى مختلف، بل ومناقض لعبارة العالِم، وهو التقابل نفسه الذي يقيمه المتصوفة بين العارف، وسالك طريق المعرفة من جهة، والعلماء والفقهاء من جهة ثانية. يسوع المسيح يتكلم هنا من منطلق تماهيه مع الحقيقة كصورة لا للعلم الإلهي الشامل فحسب، بل للسلطان الإلهي إيضا، إذ كان يجيب على أسئلة بيلاطس ممثل السلطة الرومانية آنذاك. وعندما سأله هذا الأخير إن كان ملك اليهود لم يجب بالنفي، بل أكد له ذلك، لكن بطريقة غير مباشرة: «أنت تقول إني ملك». سلطة مقابل سلطة، وسلطان مقابل سلطان إذًا. وإذا بيلاطس يخرج بعدها إلى اليهود وخاطبهم: «أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟».
وفي كتاب **المسيح الدجّال** (الفقرة ٤٦) يستحضر نيتشه مرة أخرى هذه الواقعة كالآتي: «ألا ينبغي علي أن أضيف أيضا أنه لا توجد غير شخصية واحدة جديرة بالاحترام داخل العهد الجديد؟ بيلاطس، حاكم المدينة الروماني... وإن ذلك الموقف الهازئ النبيل لروماني يُتجرّأ أمامه على استخدام وقح لعبارة «الحق» قد أثرى العهد الجديد بالعبارة الوحيدة التي لها قيمة ـ عبارة تمثّل نقدا كليا لذلك الكتاب وتصفية له: (وما هو الحقّ؟)...».

ذاك الدّعي الذي لا يعرف التواضع هو الذي جعل صغار الناس يرفعون أعرافهم في السماء مثل الديَكة ـ هو الذي لم يكن قد علّمهم ضلالا يسيرا لمّا كان يكرز بينهم: «أنا ـ هو الحق».

وهل من أحد قد ردّ على هذا الذي لا يعرف التواضع بأدب ولباقة؟ ـ أما أنت يا زرادشت، فقد مررت عليه مر الكرام قائلا: «لا! لا! وألف لا!»

لقد حذّرتَ من ضلالاته، وكنتَ أول من حذّر من الشفقة ـ لا الجميعَ ولا أحدَ بعينه[1]، بل نفسَك ومن شابهَك حذّرتَ.

إنك تستحي لحياء المتألم الكبير، وحقا كان كلامك عندما كنت تقول: «سحابة ثقيلة تأتي من المشفقين، فكونوا على حذر أيها البشر!»

ـ ولكم تبدو لي على دراية بعلامات التقلبات الجويّة يازرادشت عندما تعلّم: «كل المبدعين قساة، وكل محبة عظيمة تسمو على شفقتهم»!

لكن لا تنس نفسَك أيضا ـ لتحذّر نفسك أيضا من **شفقتك الخاصة!** ذلك أن الكثيرين في طريقهم إليك، العديد من المعذّبين والممزقين بالشكّ واليائسين والغرقى والمقرورين ـ

وإنّي أحذّرك منّي أيضا. فقد حدستَ أفضل ألغازي وأسوأها، وحزرتني أنا نفسي وما الذي كنت أفعله. إنني أعرف الفأس التي تلقيك طريحا.

---

(١) قارن بالعبارة التي جعلها نيتشه عنوانا ثانيا لكتاب زرادشت «كتاب للجميع ولغير أحد».

أمّا هو ـ فـ**كان لا بد** أن يموت: لقد رأى بعينه ما رأى **الجميع**، ـ رأى أعماق الإنسان وأغواره، وكل قبحه وعيوبه الدفينة.

لم تكن شفقته لتعرف حياء؛ كان يقبع في زاويتي الأكثر قذارة، وكان لا بد أن يموت ذاك الكائن الأكثر فضولا، الثقيل المتطفل دون حدود والمشفق بلا تحفّظ.

لم تكن له من عين إلاّ عليّ؛ وكنت أريد أن أنتقم من مثل هذا الشاهد ـ أو أن أكون أنا الذي أكف عن الحياة.

الربّ الذي كان يرى كل شيء، **بما في ذلك الإنسان**: ذلك الرب كان لا بدّ أن يموت! فالإنسان **لا يستطيع أن يتحمل** أن يظل مثل هذا الشاهد على قيد الحياة».

هكذا تكلم أقبح الآدميين. لكن زرادشت نهض يهمّ بالانصراف؛ ذلك أنه كان يشعر بالبرد ينفذ إليه حتى الأحشاء.

«إسمع أيها الكائن الذي لا يوصف، لقد حذرتني من طريقك، وكمكافأة لك على ذلك سأمتدح لك طريقي. أنظر، هناك فوق القمة توجد مغارة زرادشت.

إن مغارتي كبيرة وفسيحة وبها زوايا كثيرة؛ هناك يجد أكثر الناس تخفّيا مخبأ له. وإلى جانبها مباشرة هناك مائة مخبأ ووكرا لكل زاحفة وخافقة الجناحين وقافزة من الدواب.

وأنت أيها المقصى الذي أقصى نفسه بنفسه، لا تريد أن تعيش بين الناس وشفقة الناس؟ إذًا! لتفعل مثلي! وهكذا يمكنك أن تتعلم منّي؛ فالفاعل وحده هو الذي يتعلم.

ولتتحدث أولا وبدء مع حيوانيّ! الحيوان الأكثر كبرياء والحيوان الأكثر فطنة ـ إنه بإمكانهما أن يكونا خير نصيحيْن لنا معا!».

هكذا تكلم زرادشت ومضى في طريقه، أكثر تفكّرا، وبأكثر بطء من ذي قبل؛ ذلك أنه كان يسأل نفسه أسئلة كثيرة ولا يجد أجوبة بسهولة.

«لكم بائس هو الإنسان! كان يفكّر في ما بينه وبين نفسه، لكم هو قبيح، وكم هو مدمدم، وكم هو مليء خجلا دفينا!

ويقال لي إن الإنسان يحب ذاته؛ فأي حجم يمكن أن يكون لحب الذات هذا! وكم هناك من الاحتقار الذي يناقضه!

وهذا الرجل هو أيضا يحب نفسه بالقدر الذي يحتقر نفسه، ـ محب كبير هو في نظري ومحتقر كبير.

أبدا لم أر أحدا قد احتقر نفسه بمثل هذا العمق؛ **وهذا** أيضا سموّ. الويل، أيكون هذا هو الإنسان الأعلى الذي كنت أسمع صراخه؟

إنني أحب هذا المحتقِر العظيم[1]. لكن الإنسان شيء لا بد من تجاوزه».

* * *

---

(١) يرد هذا المقطع في المسودات كالآتي: «أحبّ المحتقِرين الكبار لأنهم يصبحون سهام الرغبة: أحب أولئك المنحدرين إلى الأفول إذ في هؤلاء يمضي الإنسان إلى حتفه. هكذا تكلم زرادشت».

المتسوّل طوعًا واختيارًا

ولما غادر زرادشت أقبح الآدميين شعر بنفسه مقرورا ووحيدا: فقد كانت تخامر ذهنه العديد من الأفكار الباردة والوحيدة بما جعل أعضاءه تغدو بدورها باردة. لكن وهو يمضي في سيره صعودا نزولا، مرة يمر بمرج أخضر ومرة يعبر مناطق صخرية موحشة حيث حفر سيلٌ عنيفٌ في ما مضى مجرى له هناك؛ ها هو يشعر فجأة بالدفء مجددا وبخواطر أنيسة تداعب قلبه.

«ما الذي حدث لي؟ قال زرادشت متسائلا، شيء دافئ وحيوي ينعشني الآن، شيء لا بد أن يكون على مقربة مني هنا.

أحس بأنني أقل وحدة؛ رفقاء وإخوة مجهولون يحومون حولي، وأنفاسهم الدافئة تداعب أوتار روحي».

وبينما كان يجول بنظره في ما حوله بحثا عن ذلك الذي كان يبعث السلوان في وحشة وحدته، هاهو يرى أبقارا كانت تقف مجتمعة فوق مرتفع قد بعث قربُها ورائحتها الدفءَ في قلبه. لكن الأبقار كانت تبدو منشغلة بالاصغاء باهتمام إلى شخص يحادثها ولم تنتبه البتة إلى ذلك الذي كان قادما عليها. ولما غدا على مقربة منها تناهى إليه بوضوح صوت بشري كان يتكلم بينها، وكان واضحا أنها مستديرة كلها برؤوسها نحو ذلك الذي كان يخاطبها.

عندها قفز زرادشت بحيوية إلى المرتفع وفرّق جمع الأبقار، إذ كان يعتقد أن أحدا ما قد أصابه مكروه هنا ولن يكون بوسع شفقة الأبقار أن تقدم له ما يكفي من العون لإنقاذه. لكنه كان مخطئا في ذلك؛ إذ، ها رجل كان يجلس هناك، ويبدو أنه كان يحاول إقناع الأبقار بأنه لا داعي لها للخوف منه؛ رجل مسالم وواعظ جبل(١) كان الخير نفسُه هو الذي يكرز مشعا من عينيه. «عمّ تبحث هنا؟» صاح فيه زرادشت مندهشا.

«عمّ أبحث هنا؟» أجاب الرجل؛ عن الأمر الذي تبحث عنه أنت أيضا، يا مشوّش الأفراح! أعني سعادة الحياة فوق هذه الأرض.

لكن من أجل ذلك عليّ أن أتعلم من هذه الأبقار. ولتعلم أنني منذ الصباح وأنا أحاول إقناعها، وكانت على أهبة أن تمنحني نصيحتها في هذه الآونة. فلِم أتيت تزعجها إذًا؟

طالما لم نرجع ونصير مثل هذه الأبقار لن يكتب لنا أن ندخل ملكوت السماوات(٢). لأن هناك أمرا واحدا لا بد أن نتعلمه منها، ألا وهو: الاجترار.

وحقا أقول لك، لو كان بإمكان الإنسان أن يمتلك الدنيا بكليتها ولم يتعلم هذا الأمر الوحيد، وهو الاجترار، فأي نفع سيكون له في ذلك(٣)؟ إذ هو لن يتخلص من بؤسه،

---

(١) واعظ الجبل إشارة إلى يسوع المسيح فوق جبل الزيتون.
(٢) أنظر متّى ١٨/٣: «الحق أقول لكم، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات».
(٣) متّى ١٦/٢٦: «لأنه ماذا ينتفع الإنسانُ لو ربح العالمَ كلّه وخسر نفسه».

ـ بؤسه الأعظم؛ هو ما يسمى اليوم **بالقرف**. ومَنْ مِنَ الناس ليس لديه ملء القلب والفم والعين من القرف؟ أنت أيضا! أنت أيضا! لكن أنظر إلى هذه الأبقار!».

هكذا تكلم واعظ الجبل ثم حوّل عينيه نحو زرادشت، ذلك أنه كان طوال الوقت منشدا بنظره بكل حب إلى تلك الأبقار ـ؛ لكن هو ذا يتغيّر الآن ليصيح بذعر وهو يهبّ واقفا: «من هذا الذي أتكلم إليه الآن؟»

إنه الإنسان الذي لا يعرف القرف، إنه زرادشت نفسه، المتغلّب على القرف الأعظم، هذه عين زرادشت، وهذا فمه، وهذا قلبه».

وفيما هو يتكلم هكذا كان يقبّل يدي زرادشت وعيناه تنهمران دموعا، وكان يفعل مثل واحد قد وقعت عليه من السماء هدية ثمينة وجوهرة غير منتظرة. أما الأبقار فكانت تنظر إلى ذلك كله وتتعجب.

«لا تتكلم عنّي أنا أيها الرجل الرائع واللطيف! قال زرادشت وهو يغالب رقّة عواطفه، بل حدثني أولا عن نفسك! ألست المتسوّل الطوعيّ الذي تخلّى في ما مضى عن ثروة طائلة[(١)]،

ـ ذاك الذي كان يخجل من الثروة ومن الأثرياء وفرّ إلى الفقراء ليهبهم ماله وقلبه؟ لكنهم لم يتقبّلوه».

«لكنهم لم يتقبّلوني، إنك تعلم ذلك. وهكذا ذهبت بالنهاية إلى الدواب وإلى هذه الأبقار».

---

(١) إشارة إلى القديس فرنسيس الأسّيزي (١١٨٢ ـ ١٢٢٦) قديس إيطالي امتاز بتواضعه وبحبه للفقراء. مؤسس أول طريقة للمتسولين ورهبانية الفرنسيسكان بعد أن اعتزل حياة الثراء واختار حياة التبتل والفقر. أصبح له تأثير كبير في أوروبا خلال القرون الوسطى.

«وعندها تعلمتَ أنه أصعب على المرء أن يجيد العطاء من أن يجيد الأخذ، قال زرادشت مقاطعا، وأن العطاء فنّ، وهو أرقى أشكال المكر في براعة الخير».

«وبخاصة في هذا الزمن، أجابه المتسوّل الطوعيّ؛ اليوم حيث كل وضيع قد أصبح متمرّدا نفورا ومتكبرا على طريقته؛ أي على طريقة الرعاع.

ثم حلت الساعة، كما تعلم ذلك، لزمن التمرد الكبير الشنيع الطويل والبطيء للرعاع والعبيد؛ تمرد ما انفك يتنامى ويتعاظم!

والآن تثور ثائرة حَطاطة القوم أمام كل إحسان وكل صدقة صغيرة؛ وعلى أصحاب الثراء المشطّ أن يكونوا على حذر!

أولئك الذين على غرار أكواز واسعة البطن لكنها لا تهب سوى قطرٍ شحيح عبر أعناق دقيقة؛ مثل هذه الأكواز هي التي يحبّذ الناس اليوم كسر أعناقها.

جشع متلهّف، حسد مرير، تعطش مرضي للانتقام، كبرياء رعاع؛ صفعتني كلها معا. لم يعد صحيحا أن الفقراء في نعيم. لكن ملكوت السماء هنا بين الأبقار»(١).

ولِم لا يكون لدى الأثرياء؟ سأله زرادشت مجرّبًا وهو يبعد الأبقار التي كانت تتشمم بألفة ذلك الرجل المسالم.

لم تجرّبني؟ قال هذا الأخير. إنك أعلم مني بالأمر. فما الذي دفع بي إلى الذهاب إلى الفقراء إذًا يا زرادشت؟ أليس القرف من كبار أثريائنا؟

---

(١) المتسول الطوعي ينقض المقولة الإنجيلية كما ترد في إنجيل لوقا، الاصحاح ٦/ ٢٠: «ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال طوبى لكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت السماوات».

ـ القرف من سجناء الثروة[1] الذين يستخرجون منافعهم من كل قمامة بعيون باردة وأفكار مغتلمة، من أولئك الأوباش الصارخة عفونتُهم في وجه السماء.

ـ قرف من هذا الرعاع المزوّر المتحلّي بالذهب، أولئك الذين كان آباؤهم لصوصا أو عُقبانا تغتذي من الجيف أو لقّاطي خرق وأطمار، متحذلقون أمام النساء، شهوانيّون سريعوا النسيان، ـ إذ لا شيء تقريبا يميّزهم في الحقيقة عن العاهرات.

رعاع من فوق، ورعاع من تحت! فأي معنى اليوم لـ«غنيّ» و«فقير»! لم أعد أرى شيئا من هذا الفرق، ـ لذلك هربت بعيدا وأبعد حتى انتهى بي السير إلى هذه الأبقار».

هكذا تكلم الرجل المسالم وهو ينهج ويتصبب عرقا، الأمر الذي جعل الأبقار تندهش وتتعجب من جديد. لكن زرادشت ظل ينظر إليه مبتسما وهو يهز برأسه صامتا بينما كان هو يتكلم بتلك الحدّة.

إنك ترهق نفسك يا واعظ الجبل باستعمال مثل هذه العبارات القاسية. فلا فمك قد قُدّ لمثل هذه القسوة ولا عينك.

ولا معدتك أيضا كما يبدو لي؛ فكل هذا الحنق وهذا الحقد وهذا الاستعار يعكّر صفوها. إن معدتك تريد غذاء ألطف وأخفّ: فأنت لست لحّاما.

بل إنك تبدو لي من الذين يغتذون بالنباتات وعروق النبات. لعلك

---

(١) قارن بالقصيدة القصيرة في الشذرة ٢٨[٢٥] من كنشات خريف ١٨٨٤ تحت عنوان «مديح الفقر»: «سجناء الثروة،/ الباردة أفكارهم/ سيكون لنشيدي وقع صلصلة السلاسل في آذانهم».

تحب مضغ الحبوب. لكنّ الأكيد هو أنك تنفر من متعة اللحوم، وأنك تحب العسل».

«لقد حزرتني جيدا، أجاب المتسول الطوعي بقلب منشرح. إنني حقا أحب العسل ومضغ الحبوب، ذلك أنني أبحث دوما عما يكون لطيفا في الفم ويجعل الأنفاس نقية طيبة:

ـ وكذلك كل ما يتطلب وقتا طويلا ويكون شاغلا وتسلية نهار بأكمله لمن يعيش حياة عطالة رقيقة.

وإن هذه الأبقار في الحقيقة قد مضت شوطا بعيدا في إتقان هذا الفن؛ فهي التي اخترعت لنفسها الاجترار والاستلقاء في الشمس. كما أنها تُمسك عن كل الأفكار الثقيلة التي تحدث انتفاخا في القلب».

ـ «هيا إذًا! قال زرادشت، لا بد أن ترى حيوانيّ أيضا؛ نسري وحيّتي، ـ فليس هناك من مثيل لهما اليوم على وجه الأرض.

أنظر، إلى هناك تمضي الطريق صاعدة إلى مغارتي؛ لتكن ضيفا عليها هذه الليلة، وتحدث هناك مع حيوانيّ عن سعادة الدواب، إلى أن أعود ـ

ـ ذلك أن صرخة مستغيث تستحثني الآن للانصراف عنك. وستجد كذلك عسلا لديّ؛ شهدا ذهبيا باردا، فكلْ!

والآن، لتودّع أبقارك بسرعة أيها الرجل الغريب اللذيذ! وإن سيكون ذلك صعبا على قلبك؛ إذ هي معلّمتك وصديقاتك الحميمة!

ـ «لكن مع استثناء واحد هو أحبّ إليّ منها، أجاب المتسول الطوعي. فأنت أيضا جيّد، بل وأفضل من بقرة يازرادشت!»

ـ «أغرب، أغرب عني، أيها المتملّق الكريه! صاح زرادشت غاضبا، لِم تريد إفسادي بإطرائك ومعسول كلامك؟»

أغرب، أغرب عنّي! صاح ثانية وهو يلوح بعصاه في وجه المتسول الرقيق: لكن هذا الأخير أطلق ساقيه للريح.

الظلّ

لكن ما إن ابتعد المتسول الطوعي هاربا وبدأ زرادشت يعود إلى وحدته حتى سمع صوتا ينادي من ورائه: «انتظر يازرادشت! انتظرني! إنني أنا يازرادشت، أنا ظلك!» لكن زرادشت لم ينتظر، فقد استولى عليه شعور مفاجئ بالضيق من هذه الحركة الكثيرة وهذا الزحام الذي راح يعج به جبله. «أين هي وحدتي؟ قال لنفسه.

إن هذا حقا لكثير! هذا الجبل يعج بالحركة. مملكتي لم تعد من هذا العالم(١)، ولا بدّ لي من جبال جديدة.

ظلّي يناديني(٢)؟ ما لي وظلّي! ليركض ورائي ـ أما أنا فسأظل أفرّ من أمامه».

---

(١) يوحنا الاصحاح ١٨/٣٦: «أجاب يسوع، مملكتي ليست من هذ العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدّامي يجاهدون لكي لا أسلّم إلى اليهود. ولكن الآن مملكتي ليست من هنا».

(٢) شخصية الظل ترد عدة مرات في كتابات نيتشه. في المسافر وظله يفتح نيتشه هذا الفصل بحوار بينه وبين ظله ونقرأ من بين ما جاء في هذا الحوار: «ستعلم ذلك، إنني أحب الظلّ مثلما أحب النور. ولكي يكون هناك جمال للوجه ووضوح في الخطاب وجودة ومتانة في الطباع فإن الظل لا يقل ضرورة عن الضوء. ليسا نقيضين هما، بل إنهما يسيران معا ممسكين أحدهما بيد الآخر، وعندما يضمحل النور يتبعه الظل متسللا من ورائه». لكن من هو هذا الظل بالتحديد؟ في مجلد الهوامش والتعليقات يكتب مونتي وكولليناري: =

هكذا تحدث زرادشت إلى قلبه واستمر في الهروب. لكن ذلك الذي كان وراءه ظل يتبعه، وإذا هم قد غدوا ثلاثة يركضون الواحد وراء الآخر: المتسول الطوعي في المقدمة، ووراءه زرادشت وفي المؤخرة ثالثهم وهو ظله. ولم يمر وقت طويل على مسيرتهم هذه حتى تدارك زرادشت نفسه وانتبه إلى حمقه ودفع عنه كل انزعاجه ومزاجه المعكّر.

«ماذا! قال لنفسه، ألم نكن دوما، نحن النسّاك والقدّيسون القدامى، من تحدث لهم أكثر الأشياء المضحكة والسخيفة؟

حقا إن حمقي ما فتئ يتنامى هنا فوق الجبال! والآن ها أنا أسمع وقع ست أقدام مجنونة تطقطق متلاحقة!

=«إن صورة المسافر و«الظل» تتطابق مع التنويعة المتفرعة عنها لـ«الأوروبي الجيّد»، وبإمكاننا أن نقارن بالعناوين الكثيرة الواردة تحت هذا الإسم من ضمن التخطيطات لكتاب عن «الأوروبي الجيّد»، مثل ما نقرأ في المجلد ١١ (من الأعمال الكاملة) في الشذرة ٢٦ [٣٢٠]: «الأوروبين الجيدون». مقترحات لتربية طبقة نبلاء جديدة». ثم يورد مونتي وكولليناري الفقرة اللاحقة من كنشات شتاء ١٨٨٤/ ٨٥: «... لكنّ قلب زرادشت انقبض من شذه الفزع لما رآه؛ لفرط ما كان ملاحقه يشبهه حد التطابق وذلك ليس في ملبسه كما في لحيته فحسب، بل في مجمل هيأته وصورته./ من أنت؟ سأله زرادشت بحدة. أم تُراني أنا نفسي؟ ما الذي أنت تصنعه معي أيها المهرّج؟ أم كيف أسميك يا ترى؟/ لتغفر لي هذه المهزلة يا زرادشت أجابه الصنو والظل، وإذا ما كنت تريد لي إسما فلتدعني بالأوروبي الجيد./ أما أن أكون مقلدا لك في لباسك وهيأتك فإن ذلك من باب الموضة المتداولة الآن في أوروبا. أما أنا فأدعو نفسي من بين ما أسمي به نفسي بالمسافر الجوال،/ لكن غالبا بظل زرادشت أيضا. والحق أقول لك أنني كنت أتبعك ملتصقا بخطواتك وفي أقصى الأصقاع أكثر مما تعلم ومما يمكنك أن تتوقع./ وإذ ما أردت أن تسميني باليهودي الأبدي فإن ذلك لن يثير حفيظتي؛ فأنا دائم التنقل مثله بلا هدف ولا موطن - مع فارق أنني لست باليهودي ولا أنا بأبديٍّ».

لكن أيحق لزرادشت أن يخاف من ظل؟ بل يبدو لي أنني سأنتهي إلى الاعتقاد بأن له ساقين أطول من ساقيّ».

هكذا تكلم زرادشت وهو يضحك من عينيه ومن أحشائه، ثم توقف واستدار فجأة ـ وها هو يكاد يلقي بملاحقه وظله طريحا على الأرض لفرط ما كان يلاحقه عن قرب يكاد يلاصقه، ولفرط وهنه أيضا. وعندما ألقى عليه نظرة فاحصة ذُعر كما لو أن شبحا برز له فجأة؛ إذ لَكم بدا له نحيلا، داكنا، خاويا ومنهكا ذلك الذي كان يتبعه!

«من أنت؟ سأله زرادشت بحدّة. وماذ تفعل هنا؟ ولِم تسمي نفسك ظلّي؟ إنّ هيأتك لا تعجبني».

معذرة إن كنت ظلك، أجابه الظل؛ وإن كنت لا أعجبك فلك ذلك يازرادشت! وإنني لأحيّيك لهذا وأحيّي ذوقك الرفيع.

مسافر أنا، قد أمضيت وقتا طويلا أتبع خطاك؛ متنقلا على الدوام لكن دونما هدف ودون موطن أيضا؛ بما يجعلني لا أقلّ عن اليهودي الأبدي سوى أنني لست خالدا ولا أنا باليهودي.

ماذا؟ أينبغي علي أن أظل متنقلا إلى الأبد؟ ألفّ حيث تلف بي الرياح، مدفوعا على الدوام لا مستقر لي. أواه، أيتها الأرض، لكم ترهقني استدارتك هذه!

فوق كل سطح حططْت، ومثل غبار متعب استلقيت فوق مرايا وزجاج نوافذ ونمت؛ كل شيء يأخذ حصة مني وما من شيء يعطي فآخذ منه، حتى غدوت نحيلا، ـ شبيها بشبح أكاد أكون.

لكنك كنتَ أكثر من أمضيتُ من الوقت في اقتفاء آثاره وملاحقته يا زرادشت، ولئن بقيتُ متسترا مختفيا عن نظرك فإنني كنت مع ذلك ظلك الأكثر وفاء؛ وحيثما جلستَ كنتُ أجلس أنا أيضا.

معك طوّحت في أقصى الأقاصي وأشدها بردا، مثل طيف يمضي طوعا فوق السطوح الشتوية وعلى الثلوج.

ومعك ركضت إلى كل ممنوع وكل شنيع وكل قصيّ، وإذا ما كانت لي من فضيلة فهي أنني لم أكن لأخشى أي ممنوع.

معك حطمت ما كان قلبي يجلّه دوما، وقلبت كل معالم الحدود ونقضت كل الصور؛ لاحقت الرغبات الأكثر خطرا ـ والحقَّ أقول لك، لقد مضيت فوق أكثر من جريمة في مسيرتي.

معك تعلمت أن لا أعتقد في الكلمات والقيم والأسماء الكبيرة. إذ عندما يغيّر الشيطان جلدته، ألا يسقط عنه إسمه أيضا؟ إذ إسمه أيضا جلدة. ولعل الشيطان نفسه مجرد ـ جلدة.

«الكل باطل، وكل شيء مباح»؛ هكذا كنت أحدّث نفسي. في مياه جليدية قذفت بنفسي، برأسي وقلبي معا. آه، وكم مرة وجدتني أقف عاريا هناك مثل سرطان أحمر.

آه، كيف زال عني كل اعتقاد في الخير وكل خجل وكل إيمان بالخيّرين! تُرى، أين ذهبت تلك البراءة الكاذبة التي كانت لدي في ما مضى، براءة الخيّرين وأكاذيبهم النبيلة!

ولكم ركضت وراء الحقيقة ملتصقا بتلابيبها(١)؛ وغالبا ما كانت تفلت من أمام أنفي. وأحيانا أريد أن أكذب، وها أنا عندها، وعندها فقط أصيب ـ الحقيقة.

الكثير من الأشياء قد اتّضحت لي؛ والآن لم يعد هناك من شيء

---

(١) قارن بهذه الشذرة (٢٥[٥]) من كنشات ربيع ١٨٨٤ : «من يركض وراء الحقيقة عن قرب يكاد يلاصقها يكون مهددا بخطر انكسار الرقبة». ـ مثل أنكليزي ـ .

يهمني. لا شيء أُحبّ مما يحيا من حولي، ـ فكيف سيمكنني أن أحب نفسي إذًا؟

«أن أحيا كما أريد، أو لا أحيا إطلاقا»؛ تلك هي إرادتي، وتلك هي إرادة أقدس القديسين أيضا. لكن الويل! كيف يمكن أن تظل لي ـ رغبة؟

هل لديّ ـ من هدف بعد؟ مرفأ يمضي إليه قلاعي؟

ريح مؤاتية؟ لكن، أواه، وحده من يعرف إلى أين يمضي، يعرف أيضا أية ريح هي المؤاتية وريح رحلته.

ما الذي تبقّى لي إذًا؟ قلب متعب ومتجاسر؛ إرادة لا تستقر على قرار، جناح مضطرب وظهر منقصم.

وذلك البحث عن موطني؛ أي زرادشت، إنك تعرف جيدا أن ذلك البحث كان محنتي، وهو الذي استنفذني.

«أين هو ـ موطني؟» ذاك هو ما أسأل عنه وأبحث، وعنه بحثت طويلا ولم أجده. أواه أيها الـ كل مكان الأبدي! أيها اللا مكان الأبدي! أواه اللاجدوى ـ الأبدية!»

هكذا تكلم الظل وكان وجه زرادشت يتمدد ويزداد طولا مع كل كلمة من كلماته. «أنت ظلّي!» قال أخيرا بصوت حزين.

«إن الخطر الذي يحيق بك ليس باليسير، أيها العقل الحر والمسافر الجوّال! إن وراءك يوما سيئا؛ فلتحرص على أن لا يكون مساؤك أكثر سوءا!

ففي عين القلقين من أمثالك يتراءى حتى السجن مرفأ هناء في آخر

المطاف. أما رأيت أبدا كيف ينام المجرمون في الإيقاف؟ إنهم ينامون نوما هادئا متنعّمين بأمانهم المكتسب في ذلك الحين.

فلتحذر أن لا يأسرك في آخر المطاف معتقد ضيّق: جنونٌ قاس متشدد! فأنت الآن بالذات عرضة لإغراءات وغواية كل ما هو ضيّق وصلب.

لقد أضعت هدفك: الويل! كيف سيمكنك أن تتداوى من هذا الفقد وتنساه؟ وبضياع الهدف ـ أضعت الطريق أيضا!

أيها التائة المسكين، المتحمس، أيتها الفراشة المتعبة! أتريد مأوى ومكان استراحة لهذا المساء؟ لتصعد إذاً إلى مغارتي هناك!

إلى هناك تمضي الطريق صاعدة حيث توجد مغارتي. والآن أريد أن أنصرف عنك بسرعة، فها أن شيئا شبيها بالظل يحط فوق رأسي.

أريد أن أسير وحيدا كي تنقشع العتمة ويكون ضياء من حولي مجددا، لذلك ينبغي علي أن أمضي طويلا على قدم مرحة. لكن مساء سيكون لنا حفل راقص عندي هناك!».

هكذا تكلم زرادشت.

الظهيرة

ومضى زرادشت سائرا وسائرا دون أن يعترض سبيله أحد حتى وجد نفسه لوحده من جديد، وما فتئ يعود إلى نفسه مستمتعا بوحدته يرتشفها بلذة مفكرا في أشياء جميلة لساعات طويلة. وفي حوالي منتصف النهار، ساعة استقرت الشمس فوق رأس زرادشت وصل به المسير إلى شجرة عتيقة مائلة بجذع مليء عقدا قد التفّت عليها كرمة تحضنها بتحنان كانت بدورها مغطاة بكم وفير من العناقيد الصفراء التي تمنح نفسها بسخاء لعابر الطريق. عندها أخذت زرادشت الرغبة في أن يقتطع له عنقودا يروي به ظمأه، لكنه عندما مد يده إلى العناقيد تملكته رغبة أكبر من الأولى في أن يستلقي إلى جانب تلك الشجرة في ساعة اكتمال الظهيرة وينام.

وذلك ما فعله، وما أن تمدد على الأرض داخل السكون وحميمية العشب الملوّن حتى رأى نفسه ينسى ظمأه ويأخذه النعاس. إذ، وكما يقول مَثل زرادشت: أمر أكثر ضرورة من أمر[1]. إلا أن عيناه ظلتا مفتوحتين، لأنهما لم تشبعا من النظر إلى الشجرة ومن مناجاة ذلك الحُب الذي كانت تحضتنها به الكرمة. لكنه وهو يستسلم للنعاس خاطب قلبه قائلا:

---

(١) أنظر لوقا الاصحاح ١٠/٤٢ ـ ٤٣: «فأجاب يسوع وقال لها مرْثا مرْثا أنتِ تهتمّين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكنّ الحاجة إلى واحدٍ».

سكوتا! سكوتا! ألم يبلغ العالم الآن الاكتمال[١]؟ ما الذي يحدث لي إذًا؟

مثل نسمة رقيقة لا مرئية ترقص فوق بحر صقيل السطح، خفيفةً، بخفة الريش؛ هكذا ـ يرقص فوقي النعاس الآن.

لا يُغمِض لي عينا، وروحي يدعها يقظة. خفيف هو حقا! بخفة الريش.

يقنعني، لا أدري كيف؟ ويداعب روحي بيد رقيقة حنون، يغلبني على أمري. أجل، يغلبني على أمري ويجعل روحي تتمدّد وتهجع:

لكم غدت تبدو لي طويلة ومتعَبة روحي العجيبة! هل هو مساء يوم سابعٍ هذا الذي أتاها في ساعة الظهيرة[٢]؟ تراها قد ركضت طويلا مبتهِجة سعيدة بين أشياء حسنة وناضجة؟

هي ذي تستلقي بكامل طولها، طويلة، وأطول! تستلقي ساكنة روحي العجيبة. طيّبات كثيرة تذوّقت، وهذا الحزن الذهبي يضغط عليها ويهصرها، فتنقبض شفتاها.

---

(١) ساعة الظهيرة كصورة لساعة الاكتمال، هكذا يعبر عنها نيتشه في رسالة إلى كارل فون غيرسدورف بتاريخ ٧ أبريل ١٨٦٦: «. . . مثل تلك النهارات الصيفية التي تستقر عريضة ومطمئنة فوق الربى كما يصفها إيمرسن بطريقة صائبة جدا؛ ذلك أن الطبيعة تكون قد بلغت طور الاكتمال، كما يقول».

(٢) إشارة إلى يوم السابع؛ يوم استراحة الرب بعد إنهاء الخلق. أنظر الشذرة ٣١[٤٠] من كنشات شتاء ١٨٨٤: «سعيدا ومتعَبا مثل كل مبدع في يومه السابع». قارن مع ما يرد في العهد القديم؛ سفر التكوين الاصحاح ٢/ ١ ـ ٣: «فأُكملت السماواتُ والأرضُ وكلُّ جُندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمِل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليومَ السابعَ وقدّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل اللهُ خالقا».

مثل سفينة تلج خليجها الأكثر هدوء تتكئ الآن على اليابسة وقد أعيتها الرحلات الطويلة وبحار المجهول. أليست الأرض أكثر وفاء من البحار؟

مثل تلك السفينة التي ترسي على اليابسة وتتخذ الأرض متكأ؛ حتى أنه ليكفي أن يمد عنكبوت من الأرض خيط نسيجه إليها فلا تحتاج بعدها إلى حبال متينة لتشدها.

مثل تلك السفينة المتعبة الراسية في الخليج الأكثر هدوء، كذا أستريح الآن ملاصقا للأرض، وفيًّا، مستأنسًا، منتظرًا، مشدودًا إليها بخيط رفيع.

يا للسعادة! يا للسعادة! أتريدين الغناء حقا ياروحي؟ وأنت تستلقين في العشب! لكنها ساعة الغبطة السرية، حيث لا يعزف راع على شبابته.

تورّعي! فالظهيرة المتّقدة ترقد على المروج! لا تغنّي! أصمتي! فالعالم قد بلغ الاكتمال.

لا تغنّ يا طائر المروج، أنت ياروحي! بل لا تهمسي حتّى! سكونًا! لتنظري إذًا! ـ هي ذي الظهيرة العجوز نائمة، إنها تحرك شفتيها؛ ألا ترتشف الآن قطرة سعادة ـ

ـ قطرة سعادة ذهبية عتيقة، خمرة ذهبية اللون؟ شيء ما يمر خافقا سريا من فوقة؛ سعادتُه تضحك؛ هكذا يضحك إله. أصمتي! ـ

ـ «كي يكون الواحد سعيدا؟ ـ إنه ليكفي القليل القليل لكي يكون الواحد سعيدا!» هكذا قلت في ما مضى، وكنت أعتقد نفسي فطنا. لكن ذلك كان تجديفا: ذلك ما تعلمته في ما بعد. إن عقلاء المجانين لَهُمُ الأبلغ كلاما.

القليل بالذات، ماقلّ، والأكثر سكونا والأكثر خفة، تسلّل سحليّة، نفحةٌ، رقّةٌ، رمشة طرف - **القليل** هو ما يصنع كنه السعادة **الأفضل**. سكوتا!

- ما الذي جرى لي؟ أنصتي يا روحي! ترى الزمن قد ولّى وتوارى؟ ألست بصدد الوقوع؟ ألم أقع - أنصتي! - في بئر الخلود؟

- ما الذي يحدث لي؟ سكوتا! شيء يطعنني في القلب؟ يا للويل، في القلب! أواه، تفتّت، تفتّت أيها القلب تحت وقع هذه السعادة، تحت هذه الطعنات!

ماذا؟ ألم يغدُ العالم مكتملا قبل حين؟ مكتمل الاستدارة وناضجا؟ يا لهذا النضج المستدير الذهبي - إلى أين يمضي طائرا ياترى؟ ترى أمضي وراءه ألاحقه؟ سريعا إذًا!

سكوتا - (وهنا مطّ زرادشت أعضاءه وشعر عندها أنه قد نام.)

«انهض! قال مخاطبا نفسه، انهض أيها النوام! يا نوام الظهيرة! هيا! انهضي أيتها الساقان العجوزتان! لقد حان الوقت، وآن الأوان وما يزال أمامكما جزء غير قليل من الطريق -

لقد شبعتما نوما، ولِكم من الوقت؟ زمنا يعادل نصف الأبدية! هيا، انهض أيها القلب العجوز! كم ينبغي لك من الوقت كي تستيقظ من هذا النعاس؟

(لكن ها هو ينام من جديد وكانت روحه تقاوم محاولاته، تتصدى وتمتنع وتستلقي من جديد) - دعني إذًا! سكونا! ألم يبلغ العالم الاكتمال قبل حين؟ آه لهذه الكرة الذهبية مكتملة الاستدارة!».

«إنهضي! قال زرادشت، أنتِ أيتها اللصة الصغيرة، أيتها الكسولة!

ماذا! أما زلتِ تمطّين أعضاءك وتتثاءبين متنهدة وأنت تهوين إلى قاع بئر سحيقة؟

من أنت إذًا ياروحي؟» (وهنا ذعر زرادشت إذ هو ذا شعاع شمسي يقع من السماء على وجهه)

«أيتها السماء التي فوقي! تكلم متنهدا واستوى جالسا؛ أتنظرين إليّ؟ وتنصتين إلى روحي العجيبة؟

متى ستتشرّبين قطر الندى، هذا الذي يقع فوق كل الأشياء على وجه الأرض، - متى ستتشرّبين هذه الروح العجيبة - متى؟ يا بئر الخلود؟ يا هوة الظهيرة الساكنة والفظيعة! متى ستمتصين روحي وتعيدينها إليك؟»

هكذا تكلم زرادشت وهبّ من مضجعه إلى جانب الشجرة كمن ينهض من سكر غريب؛ لكن انظر! ها هي الشمس ما تزال مستقرة فوق رأسه مباشرة! ولمخمِّنٍ أن يستنتج دون خطأ إذًا بأن زرادشت لم ينم طويلا ساعتها.

كلمة التّرحاب

كانت العشية قد انحدرت باتجاه الغروب عندما عاد زرادشت أخيرا إلى مغارته بعد أن هام وبحث طويلا دون جدوى. لكن وهو يقف قبالة مغارته على مسافة لاتزيد عن العشرين خطوة من هناك، ها قد حدث ما لم يكن يتوقعه في تلك اللحظة: مرّة أخرى تناهت إليه **صرخة الاستغاثة** الحادة. لكن الأعجب من ذلك هو أن نفس الصرخة تأتي إليه الآن من مغارته. كان صراخا غريبا مسترسلا ومتنوعا، وكان بإمكان زرادشت أن يميز بوضوح أنه مكوّن من أصوات عديدة مختلفة وإن كان يبدو من بعيد مثل صوت طالع من فم واحدة.

وثب زرادشت عندها إلى مغارته؛ وأي مشهد كان يمنح نفسه لعينه هناك بعد حفل الأصوات الذي كان يتناهى إلى أذنيه! إذ كان كل أولئك الذين مر بهم خلال يومه يجلسون هناك مجتمعين: ملك الميمنة وملك الميسرة والساحر العجوز والبابا والمتسول الطوعي والظل وتائب العقل والرّائي الحزين والحمار، بينما أقبح الآدميين يعتمر تاجا وقد تمنطق بحزامين من الأرجوان، ـ ذلك أنه، مثل كل قبيح، يحب أن يتنكر ويجعل مظهره جميلا. وكان النسر يقف مستنفرا وقلقا وسط هذا المجمع الكئيب، إذ كان عليه أن يجيب على الكثير مما لم يكن لكبريائه من إجابة عنه؛ بينما الحيّة الفطنة تتدلى ملتفّة على عنقه.

شاهد زرادشت كل ذلك باندهاش شديد؛ ثم راح يتفحص ضيوفه واحدا واحدا بفضول ولطف مستقرئا خبايا نفوسهم، متعجبا من جديد. وفي الأثناء كان المجتمعون قد هبوا من مجالسهم واستووا واقفين ينتظرون بإجلال أن يشرع زرادشت في الكلام. وبهذه الكلمات خاطبهم زرادشت:

«أيها اليائسون! أيها الرجال العجيبون! لقد كانت صرخةَ **استغاثتكم** إذًا تلك التي كنت أسمعها! والآن ها أنني أصبحت أعرف أين ينبغي عليّ أن أبحث عن ذاك الذي كنت أبحث عنه دون جدوى طوال النهار: **الإنسان الأعلى** ـ :

ـ في مغارتي يجلس الإنسان الأعلى! لكن أيّ غرابة في ذلك؟ ألست أنا نفسي الذي كنت أدعوه إليّ وأستدرجه بهبة العسل وبالحيل الماكرة لنداء سعادتي؟

لكن يبدو لي أنكم لا تصلحون للعيش معا، إذ تجعلون قلوب بعضكم البعض تتكدر بالجلوس معا أيها المستغيثون. لا بدّ أن يأتي واحد إليكم،

ـ واحد يجعلكم تضحكون من جديد، مهرّج مرح جيّد، راقص بهلواني، ريح، طفل مشاغب، أحمق عجوز ما؛ ـ فما رأيكم؟

لكن، معذرة أيها اليائسون إن تكلمت بمثل هذه الكلمات الحقيرة أمامكم؛ موقف غير لائق حقا! وأمام مثل هؤلاء الضيوف الموقّرين! لكنكم لا تعلمون **ما الذي** يجعل قلبي مرحا؛ ـ

إنكم أنتم الذين تفعلون ذلك، والوقوف على مشهدكم هذا، فلتغفروا لي ذلك! إذ ممتلئا شجاعة يغدو كل من يُمنح مشهد واحد يائس. وكل امرئ يعتقد أن له ما يكفي من القوة لمواساة يائس.

وقد منحتموني أنا أيضا هذه الطاقة: هبة جيّدة يا ضيوفي الأفاضل! هديّة ضيف محترمة! هيا إذًا ولا يغضبنّكم الآن أن أهبكم بدوري شيئا من عندي.

إن هذه مملكتي وأرض سيادتي؛ لكن ليكن كل ما هو ملك لي ملكا لكم أيضاً هذا المساء وهذه الليلة. ليكن حيوانايَ هذان في خدمتكم، ولتكن مغارتي منزل استراحة لكم!

هنا في بيتي وموطني لا ينبغي أن يصاب أحد باليأس، وفي مقاطعتي أقدّم لكلّ امرئ حماية ضد حيواناته المفترسة. وهذا هو أوّل شيء أمنحكم إيّاه: الأمان!

أما الشيء الثاني، فهو إصبعي الصغير، وإن أنتم أمسكتم بالإصبع فلتأخذوا باليد كلها، وبالقلب معها أيضا! إذًا! مرحبا بكم هنا، مرحبا بكم أيها الضيوف!» هكذا تكلم زرادشت وهو يضحك بحبّ وخبث في الآن نفسه. وبعد هذه التحيّة انحنى ضيوفه مرة أخرى وصمتوا بإجلال؛ لكنّ ملك الميمنة تقدم ليجيب بإسمهم جميعاً على كلمات زرادشت.

«أي زرادشت، إن الطريقة التي قدمت لنا بها تحيتك وناولتنا يدك تدل على هويتك وتجعلنا نعرف أنك زرادشت. إنك تضع من نفسك أمامنا، بل إنك كدت أن تجرح إكبارنا لك بتواضعك هذا.

- ومن تُرى سواك يستطيع أن يتواضع بمثل هذه الأنفة؟ إن **ذلك** ينعشنا من جديد؛ بلْسمٌ هو لأعيننا وقلوبنا.

ومن أجل أن نشاهد هذا بأعيننا فنحن مستعدون لتسلق جبال أعلى من هذا الجبل. كمتفرجين فضوليين أتينا إلى هنا نريد أن نرى هذا الذي يرفع الغشاوة عن العين الكدرة ويصقل صفاءها.

أنظرْ، ها قد انقطع صراخ استغاثتنا وانتهى. وهاهي أذهاننا وقلوبنا قد انفتحت مبتهجة نشوى. وبالكاد لا نرى شجاعتنا تتحول إلى تهوّر أهوج.

فلا شيء مما ينمو على الأرض، يازرادشت، أكثر حبورا من إرادة قوية راقية؛ أجمل نبت للأرض! وإن شجرة واحدة من هذه الفصيلة تبعث الحياة في كامل المحيط الذي حولها.

من ينمو مثلك أشبّهه بشجرة صنوبر تنتصب عالية صامتة متينة وحيدة ولها أجود أنواع الخشب المرن الطيّع؛ رائعة،

تمد أغصانا خضراء قوية؛ أيادٍ لبسْط سيادتها، وتستنطق الرياح والأعاصير وكل ما هو غامض وسري مما يدور في الأعالي بأسئلة صارمة.

إجاباتٍ صارمةً أيضا تقدم بنبرة الآمر الظافر: آه، من تراه لا يرغب في تسلق الجبال العالية من أجل مشاهدة مثل هذه الشجرة؟

مشهد شجرتك يا زرادشت يبعث البهجة حتى في قلب الكئيب والذي مُني بالفشل، ولرؤياك يغدو الحائر القلِق أيضا واثقا وقلبُه يُشفى.

والحقَّ أقول لك، إن عيونا كثيرة تتطلع نحو جبلك وشجرتك اليوم؛ شوق عظيم قد نما بين الناس، والكثيرون قد أصبحوا يسألون: من هو زرادشت؟

وكل من سكبْتَ قطرة من أناشيدك وعسلك في أذنه في يوم ما؛ كل المختبئين والنساك المتوحدين المنفردين منهم والمثنويّين، كلهم قد خاطبوا قلوبهم بصوت واحد:

«ترى زرادشت ما يزال حيا؟ لم يعد هناك من مبرر للحياة، فكل شيء سواء، والكل عبث؛ ـ سوى أن نعيش مع زرادشت!»

«لم لا يأتي إذًا هذا الذي بشّرنا بقدومه منذ زمن طويل؟ هكذا يتساءل الكثيرون؛ تُرى هل ابتلعته وحدته؟ أم علينا نحن أن نمضي إليه؟»

والآن ها أن الوحدة نفسها قد غدت هشة، وها هي تتفتّت من لدن نفسها مثل قبر ينشق ويتحطم ولم يعد قادرا على احتواء جثمان الميت الذي بداخله. وفي كل مكان يرى المرء اليوم منبعثين عائدين من ملكوت الموت(١).

والآن هي ذي الأمواج ترتفع وترتفع حول جبلك يازرادشت. وأيّا كان علو مرتفعك فإنه سيكون على الكثيرين أن يصعدوا إليك؛ ولن يظل زورقك طويلا يربض فوق أرض جافة جحود بعد الآن.

أما أن نكون قد وفدنا نحن اليائسون على مغارتك ولم نعد يائسين، فما ذلك إلا علامة وطالعا بأن آخرين أفضل منا في طريقهم إليك،

إذ، في طريقه إليك يمضي أيضا آخر ما تبقى من القبس الإلهي

(١) كلام الملك ما يزال محمّلا بصور الوعود الإنجيلية، وانتظارات البعث والنشور، حتى أنه يبدو وكأنه يخلط بين زرادشت ورسالته المتميزة وعودة يسوع المنتظر. قارن مع ما جاء في إنجيل متّى؛ الاصحاح ٢٧/ ٥١ ـ ٥٣: «وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى إثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت والصخور تشققتْ، والقبور تفتّحت وقام كثير من أجساد القدّيسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرينَ». لا غرابة إذًا أن يردّ زرادشت هذا الرجل واصحابه ويصارحهم بأنهم ليسوا من كان ينتظر هناك فوق جبله. وبالتالي فالإنسان الراقي ليس بإنسانه الأعلى.

بين الآدميين؛ كل أصحاب الشوق الأعظم والقرف الأعظم والمتخمون اشمئزازا،

كل أولئك الذين لم تعد لديهم من رغبة في الحياة سوى أن يتعلموا كيف يأملون من جديد ـ سوى أن يتعلّموا عنك الأمل الأعظم يا زرادشت!».

هكذا تكلم ملك الميمنة وأمسك بيد زرادشت يريد تقبيلها، إلا أن هذا الأخير صدّه عن ذلك وتراجع فزِعا صامتا، وبدا فجأة كما لو كان يفرّ بنفسه إلى أصقاع بعيدة. لكنه بعد برهة قصيرة هو ذا قد عاد مجددا إلى ضيوفه وراح ينظر إليهم بعينين صافيتين متفحصتين، ثم خاطبهم:

«يا ضيوفي، أيها الناس الراقون، أريد أن أكلمكم بلغة ألمانيّة(*) وواضحة. لستم أنتم من كنت أنتظر فوق هذا الجبل.

(ألماني وواضح؟! ليحفظنا الله! قال ملك الميسرة مخاطبا نفسه جانبا. واضح أنه لا يعرف الألمان الأعزّاء هذا الملك القادم من بلاد المشرق!

لعله يعني «ألماني وفجّ» ـ ليكن! فليس هذا الخلط على أيّة حال أكثر الأمور فسادا في الذوق في أيامنا هذه!).

(*) عبارة «الكلام بلغة ألمانية» تفيد في الاستعمال الدارج الكلام بوضوح؛ بطريقة مباشرة ودون لبس أو تضمين. وقد فضلنا ترجمتها حرفيا هنا بسبب الجملة الساخرة التي سترد بعدها. قارن أيضا مع ريتشارد فاغنر: ماذا تعني عبارة ألماني؟ من أوراق بايرويت فبراير ١٨٧٨: "Das Wort, deutsch' findet sich in dem Zeitwort bedeuten) wieder: (deutsch) ist demnach, was uns deutlich ist..."

أي بما معناه (أن عبارة «ألماني» تستمد جذورها من كلمة «يوضح»؛ وتبعا لذلك فألماني هو ما يعد واضحا بالنسبة لنا).

«تريدون جميعكم أن تكونوا من صنف الإنسان الأعلى، قال زرادشت مواصلا كلامه؛ لكنكم في نظري لستم بما يكفي من السموّ والقوة لذلك.

و«في نظري» هذه تعني: بالنسبة لذلك الصارم المتشدد الذي يصمت الآن في داخلي، لكنه لن يظل صامتا إلى ما لا نهاية. وحتى إذا ما كنتم تنتمون إليّ، فلن تكونوا بمكانة ساعدي الأيمن(١).

ذلك أن من يقف مثلكم على قدمين ليّنتين ومريضتين، يرغب في المقام الأول، سواء كان على علم بذلك أم أخفاه عن نفسه، في أن **يعامَل برفق**.

غير أنني لا أرفق بذراعي وقدميّ، وأنا لا أرفق بجنودي: فكيف يمكنكم أن تكونوا جنودا **لحربي**؟

معكم سأفسد على نفسي كل انتصار. والكثيرون منكم سيقعون مُغمّى عليهم إذا ما سمعوا الدويّ الهائل لقرع طبولي.

ثم إنكم لستم جميلين بما فيه الكفاية في نظري ولا من ذوي

---

(١) في مسودات كنشات شتاء ١٨٨٤/ ٨٥ ـ تحت رقم Z II 8 (المجلد ١١ من الأعمال الكاملة) نقرأ في هذا الموقع: «. . . لكنكم لستم بالخطر الهيّن عليّ ـ هذا ما همس لي به حيواناي: «لتكن حذرا من هؤلاء اليائسين»، قالت لي الحية همسا؛ فمعذرة عن هذا الحذر النفور! / عن غرقى حدثتني حيتي سرًّا: الماء يسحبهم إلى التحت؛ وهكذا يرغبون في التشبث بسباح قويّ. / والحقّ أقول لكم إن الغرقى ينقضّون بعماء وبكل قوة بأيديهم وأرجلهم على كل منقذ وذي نية طيّبة حتى أنهم يسحبون أقوى الرجال معهم إلى أعماق غرقهم. فهل أنتم أولئك الغرقى؟ / إني أمد إليكم إصبعي الصغير الآن، فالويل لي! أية أشياء أخرى ستأخذون مني بعدها وتنتزعون!» / هكذا تكلم زرادشت وهو يضحك بكل حب وخبث، ممررا كفه على عنق نسره الذي كان يقف إلى جانبه متحفّزا كما لو كان يريد أن يحمي زرادشت من أولئك الضيوف. . .».

الطبيعة النقيّة والمنبت الرفيع. أريد مرايا صقيلة صافية لتعاليمي؛ وعلى سطحكم تتشوه صورتي نفسها.

كواهلكم تنوء تحت عبء ثقيل ما وبعض ذكريات قديمة، وفي زاوية خفية من أنفسكم يقبع قزم شرير ما. هناك رعاع خفيّ يختبئ في داخلكم أنتم أيضا.

ولئن كنتم راقين ومن النوع الأرقى، فإنّ لديكم مع ذلك الكثير من الأشياء المعوجّة والمشوّهة؛ وليس هناك في الدنيا من حدّاد بإمكانه أن يصلح لي اعوجاجكم ويجعلكم قويمين(*).

لستم سوى جسور؛ فليكن لآخرين أرقى منكم أن يعبروا فوقكم إلى الضفة الأخرى. درجات سلم أنتم؛ فلا تؤاخذوا ولا تلوموا إذًا من يعبر فوقكم متسلقا دربه إلى **أعاليه!**

وليكن لي من بذاركم في يوم ما إبن حقيقيّ ووريث حقيق بي؛ لكنّ ذلك ما يزال بعيدا، ولستم بأولئك الذين ستعود إليهم تركتي ويكونون الحاملين لإسمي.

لستم أنتم من أنتظر هنا فوق هذ الجبل، وليس معكم أنتم سيحق لي أن أنجز انحداري الأخير. كعلامة فقط أتيتم إليّ وطالعا مبشرا بأن آخرين أرقى منكم في طريقهم إليّ، -

ـ لا أصحابَ الشوق الأعظم والقرفْ الأعظم والإشمئزاز الأعظم، ولا ذلك الذي سميتموه بآخر ما تبقى من القبس الإلهي بين الآدميين.

(*) ليتأمل القارئ جيدا هذه الجملة؛ فكيف يمكننا بعد هذا الكلام أن نترجم Übermensch بـ«الإنسان الأرقى»؟ أما عن ترجمتها بـ«الإنسان الراقي» فذلك ما لم يعد يستأهل حتى مجرّد التعليق!!!

لا! لا! وألف لا! آخرين أنتظر هنا فوق هذا الجبل، ولن أزحزح قدمي عن هذا الموضع من دونهم، -

- آخرين، أرقى وأصلب، أكثر قدرة على الانتصار وأكثر مرحا، أولئك الذين استوى كيانهم بنيانًا متينًا حصينًا روحًا وجسدًا: **أسودٌ ضاحكةٌ** ينبغي أن تأتي إليّ!

أي ضيوفي! أيها الرجال العجيبون! ألم تسمعوا بعد شيئا عن أبنائي؟ هل هم الآن في طريقهم إليّ؟

لتحدّثوني عن حدائقي، عن جزري السعيدة وعن نوعي الجديد الرائع، - لم لا تحدثوني عن هذه الأشياء؟

هدية الضيف للمضيّف هذه التي أتوسلها من حبكم؛ أن تحدثوني عن أبنائي. بهم أنا الآن غنيّ، ومن أجلهم غدوت فقيرا معدما؛ أيَّ شيء لم أنفق من أجلهم!

وأيّ شيء لن أنفق من أجل أن يكون لي هذا الشيء الوحيد: هؤلاء الأبناء، هذا الغرس الحيّ، هذه الشجرة؛ شجرة حياة إرادتي وأملي الأرقى!»

هكذا تكلم زرادشت، ثم توقف فجأة عن الكلام؛ فقد استبد به شوقه فأغمض عينيه وأطبق فمه لفرط ما كان يهزّ قلبه من انفعالات. وصمت أيضا كل ضيوفه وظلوا يقفون هناك ساكنين يجمّدهم الذهول؛ وحده الرائي العجوز كان يرسم حركات وإشارات بيديه.

* * *

العشاء السرّي[1]

عند هذا الموضع من الكلام قاطع الرائي كلمات الترحاب المتبادلة بين زرادشت وضيوفه. اندفع إلى الأمام مثل واحد في عجلة من أمره وأمسك بيد زرادشت وصاح فيه: «لكن يازرادشت!

هناك دوما أمر أكثر ضرورة من أمر، هكذا كنت تحدثنا أنت نفسك: إذًا! فهناك الآن أمر أهم بالنسبة لي من كل شيء سواه.

هنا كلمة في أوانها: ألم تدعوني **للعشاء**؟ وهاهنا أمامك رجال كثيرون قد قطعوا طريقا طويلة؛ أم تراك تريد أن تطعمنا خُطبا؟

ثم إنكم ذكرتم جميعكم الكثير عن التجمّد والغرق والاختناق وبلايا جسدية أخرى عديدة؛ لكن لا أحد ذكر أساي، ألا وهو الجوع...».

(هكذا تكلم الرائي، وإذا حيوانا زرادشت يفرّان مذعوريْن، إذ بدا لهما عندها أن كل ما جمعاه طوال اليوم لن يكون كافيا لسد فم هذا العرّاف الجائع).

---

(١) الاستعارة التي تستند على واقعة العشاء الأخير ليسوع مع تلاميذه واضحة هنا. أنظر الأناجيل: متّى، الاصحاح ٢٦/١٧ ـ ٣٠؛ مرقس، الاصحاح ١٤/١٢ ـ ٣١؛ لوقا، الاصحاح ٢٢/ ٧ ـ ٢٨....

«. . . أضف إلى ذلك العطش، واصل الرائي كلامه، ولئن كنتُ أسمع ماءً ينسكب مثل خطابات الحكمة. إلا أنني ـ أريد خمرا!

فلسنا كلّنا شاربي ماء مثل زرادشت. وليس الماء إلى جانب ذلك ذا نفع بالنسبة للمتعبين والذاوية أعوادهم: إنما خمرًا تتطلّب حالتنا؛ إذ هي وحدها التي تمنح المرء شفاء سريعا وعافية فجئيّة!»

وهنا أخذ ملك الميسرة الصموت الكلمة بدوره الآن وهو يسمع الرائي يطلب خمرا: «أمّا عن الخمر فقد احتطنا لذلك أنا وأخي ملك الميمنة؛ إن لدينا كفاية منها؛ حمولة حمار بأكملها. وبالتالي فإنه لا ينقصنا غير الخبز».

«خبز؟ رد عليه زرادشت وهو يضحك. بل الخبز فقط هو ما لا يملكه الناسك. لكنْ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان(١)، بل وبلحم خروف جيّد أيضا، وها عندي إثنان هنا:

فليُذبحا بسرعة وليبهّرا ويطبخا في القُويْسة؛ إذ هكذا أحبّ لحم الخروف. ولا تنقصنا هنا أعشاب ولا فاكهة، فهناك ما يكفي حتى لأكثر الذوّاقين رهافة ومحبي الطيبات جميعا؛ ولدينا أيضا كفاية من الجوز وغيرها من مكسّرات الألغاز والأحاجي(٢).

---

(١) استعمال ساخر للمقولة الشهيرة ليسوع المسيح في ردّه على المجرّب: متّى، الاصحاح ٤/ ٤: «فأجاب وقال مكتوبٌ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله».

(٢) قد تبدو هذه العبارة غريبة للقارئ العربي، لكنها مرة أخرى إحدى الألاعيب الكلامية التي يحبذها نيتشه. فعبارة Nussknacker تعني حرفيا: الذي يكسّر الجوز، لكنها تعني اصطلاحا فكّاك الألغاز والأحاجي، وهي استعارة تقوم على تشبيه عملية فك الألغاز بكسر القشرة من أجل الوصول إلى اللبّ.

سنُعدّ إذًا بسرعة وليمة جيّدة. لكن من يريد أن يشاركنا أكلنا فسيكون عليه أن يضع يديه في العمل، بما في ذلك الملوك. إذ في بيت زرادشت يحق للملك أيضا أن يكون طباخا».

وقد وافق اقتراح زرادشت هذا هوىً في نفس الجميع ما عدا المتسول الطوعي الذي كان ينفر من اللحوم والبهارات والخمر.

«انظروا هذا الشرِه الذي يُدعى زرادشت! قال مشاكسًا ساخرا. أمن أجل إعداد مثل هذه الولائم يصعد المرء إلى الجبال العالية ويلجأ إلى المغارات؟

الآن أصبحت أفهم دون شك ما كان يعلمنا في مامضى إذ قال: «مبارك هو الفقر الصغير!» وكذلك لماذا يريد إبطال التسوّل».

«لتكنْ أريحيًا مثلي، أجابه زرادشت. لتظلّ على عاداتك أيها الرجل الكريم: امضغ حبوبك واشرب ماءك واحمد خصال مطبخك؛ إذا كان هذا مما يُسعدك!

إنما أنا ناموسٌ لأتباعي فقط، ولست قانونا للجميع. لكن من ينتمي إليّ عليه أن يكون ذا عظام صلبة، وذا قدمين خفيفتين أيضا، -

- مقبلا على الحروب كما على الحفلات لا كئيبا ولا حالما؛ مستعدا لصعاب المشاقّ استعدادَه لعيده وحفله؛ موفور الصحة ومعافى.

لي ولأصحابي أفضل الأمور وأجودها؛ وإن نحن ما لم نُمنحها، فإننا ننتزعها بأيدينا: أجود الغذاء، والسماء الأكثر صفاء والأفكار الأكثر قوة، وأجمل النساء!».

هكذا تكلم زرادشت؛ لكنّ ملك الميمنة نطق قائلا: «عجيب! أيسمع المرء مثل هذه الأشياء الذكية من فمِ حكيم؟

والحقَّ أقول لكم، إن أغرب ما في حكيمٍ هو أن يكون ذكيا علاوة على ذلك وليس بحمار».

هكذا تكلم ملك الميمنة متعجبا، لكن ها هو الحمار يجيب عن كلامه بخبث ونيّة مضمرة صارخا: إي ـ آ.

وكانت تلك بداية وجبة مساءٍ طويلة تسمّى في كتب التاريخ بـ«العشاء السري». لكن، لم يكن لحديث الجماعة خلال هذا العشاء من موضوع غير **الإنسان الأعلى**.

عن الإنسان الراقي(١)

١

عندما جئت إلى الناس أول مرة ارتكبت حماقة الناسكين

---

(١) لقد أدخل نيتشه بعض التعديل على هذا العنوان خلال تخطيطاته الأولية للفصل اللاحق. فقد جاء في الشذرة ٢٦[٢٧٠] من كنشات صيف وربيع ١٨٨٤ هذا العنوان: «إلى الناس الراقين: نداء منادي الناسك المتوحّد» ـ بقلم فريدريش نيتشه. ثم نجد العنوان نفسه في الشذرة ٢٩ [٥] من كنشات خريف ١٨٨٤ ـ بداية ١٨٨٥. لكن العنوان يرد بصيغة المفرد في الشذرة ٢٦[٣١٨]: «الإنسان الراقي» ملحقا بعناوين فرعيّة هي: عن الفيلسوف/ عن قائدي القطعان/ عن الأتقياء/ عن الفضلاء/ عن الفنانين. ثم يضيف عنوانا ثانيا (ليس بعنوان فرعي): «في نقد الإنسان الراقي».

حول مفهوم «الإنسان الراقي» لننظر ما يرد في الشذرة ٢٩[٨] من كنشات خريف ١٨٨٤ ـ بداية ١٨٨٥: مخطط: أبحث وأنادي عن أناس يحق لي أن أفاتحهم بهذه الأفكار، أناس لا يلقون حتفهم بسببها. «مفهوم الإنسان الراقي: ذلك الذي يعاني من الإنسان وليس من نفسه فقط، ذلك الذي لا يسعه إلا أن يبدع «الإنسان» من خلال نفسه أيضا؛ ـ ضدّ كل انسحاب ممتع وكل تهويمات أحلام المتصوّفة/ ـ ضد «المتلائمين»/ ـ أن نخلّص أنفسنا نحن الذين منينا بالفشل! نحن النوع الأرقى! فذلك يعني أن نخلّص «الإنسان نفسه»: تلك هي «أنانيّتنا»!

لا بد من الإشارة هنا إلى أن نيتشه يستعمل في هذا الموضع عبارة der höhere Mensch (الإنسان الأعلى) وليس Übermensch (أو كائنه المحلوم والمنتظر الذي يسميه «الإنسان الأعلى»). ونود جلب انتباه القارئ إلى متابعة الجمل الأخيرة من هذه الفقرة بانتباه لتبين الفوارق اللفظية في تسمية طائفة «الناس الراقين» التي بعثت إلى الحياة من جديد، لكنها تختلف مع ذلك عن كائنه الأعلى المنتظر والذي ينبئ بقدومه في آخر جملة من الفقرة=

المعهودة؛ تلك الحماقة الكبرى؛ أن وقفت في ساحة السوق(١).

وعندما كنت أتكلم إلى الجميع لم أكن أخاطب أحدا(٢). وفي المساء كان رفيقاي بهلوانيّ وجثة، وكنت بدوري شبيها بالجثة.

لكن حكمة جديدة أتتني مع صباح اليوم الجديد: إذ رأيتني أتكلم هكذا: «ما لي والسوق ورعاع السوق وصخب الرعاع والأذنين الطويلتين للرعاع؟»

أيها الرجال الراقون، خذوا عني هذه الحقيقة: في ساحة السوق ليس هناك من أحد يؤمن بالإنسان الأعلى. وإن كنتم تريدون الكلام هناك، فلكم ذلك ـ لتتفضلوا! لكن الشعب يظل يغمز: «كلنا سواسية».

«أيها الرجال الراقون ـ هكذا يغمز الرعاع ـ ليس هناك من إنسان أعلى، ونحن جميعا سواسية، والإنسان هو الإنسان، وأمام الله ـ كلّنا سواسية!»

أمام الله! ـ لكن هذا الإله قد مات. ونحن لا نريد أن نكون سواسية أمام الرعاع. لتبتعدوا عن السوق إذًا أيها الرجال الراقون!

* * *

=ويسمّيه هنا بعبارة Über - mensch. إن الانتباه إلى هذا الفارق سيمكننا من تلافي الوقوع في الخلط بين الإنسان الراقي والإنسان الأرقى من جهة، والإنسان الأعلى من جهة ثانية.

(١) أنظر «ديباجة زرادشت» (الكتاب الأول) الفقرات: ٣ ـ ٩.

(٢) أنظر العنوان الفرعي للكتاب: «كتاب للجميع ولغير أحد».

٢

أمام الله! ـ لكن ذلك الإله قد مات! وذلك الإله كان خطركم الأعظم أيها الرجال الراقون.

ومنذ أن غدا يرقد في القبر، مذّاك فقط بُعثتم أحياء من جديد. الآن فقط حلت ساعة الظهيرة العظمى، والآن فقط غدا الإنسان الراقي ـ سيّدا!

هل أدركتم معنى هذه الكلمة يا إخوتي؟ مذعورون أنتم؛ هل تملّك بقلوبكم الدّوار؟ هل هي الهاوية فاتحة شدقيها أمامكم هنا؟ هل هو كلب الحجيم يعوي في وجوهكم؟

هيّا! إلى الأمام إذًا أيها الناس الراقون! الآن فقط سيتمخّض جبل المستقبل الإنساني عن مولوده الجديد. إن الله قد مات؛ والآن نريد ـ أن يحيا الإنسان الأعلى.

٣

إن أكبر سؤال من بين الأسئلة المحيرة اليوم هو: «كيف يمكن حفظ الإنسان؟» لكن زرادشت يظل الوحيد والأول الذي يسأل: «كيف يمكن **تجاوز** الإنسان؟»

الإنسان الأعلى هو شاغلي، وهو غايتي الأولى والوحيدة، ـ وليس الإنسان: لا أقرب الأقربين، ولا أفقر المعدمين، ولا أكبر المعذّبين، ولا خير الخيّرين ـ

أي إخوتي، إن ما يمكنني أن أحب في الإنسان هو كونه نُقلةً وانحدارًا. وفيكم أنتم أيضا هناك الكثير مما يجعلني أحب وأأمل.

أن تكونوا قد عرفتم الاحتقار أيها الناس الراقون، فذلك ما يجعلني آأمل. إذ أعظم المحتقرين في الحقيقة هم أعظم المجِلّين.

أن تكونوا قد عرفتم اليأس، ففي ذلك الكثير مما يستحق الإكبار. ذلك أنكم لم تتعلموا الاستسلام، ولم تتعلموا الشطارات الحقيرة.

فاليوم أضحى صغار الناس سادةً: وهؤلاء يكرزون الآن للاستسلام والتواضع والشطارة والكدّ والاحترام وسلسلة طويلة من «وغيرها وغيرها» من حقيرات الفضائل.

وكل ما كان من طبع الإناث، وكل ما هو منحدر من نوع العبيد المسخّرين ومن خليط الرعاع خاصة يريد الآن أن يتولّى مصير الإنسانية بكليتها ـ يا للقرف! القرف! القرف! ـ

كل **هذا الرهط** يتسائل ويتساءل، دون كلل ولا ملل: «كيف يُحفظ الإنسان على أفضل وجه ولأطول مدة من الزمن وبأكثر ما يمكن من اللطف؟» بهذا ـ ينتصبون سادة على هذا الزمن[(١)].

لترتفعوا على منزلة سادة هذا الزمن يا إخوتي ـ هؤلاء الصغار؛ فهم أكبر خطر على الإنسان الأعلى!

لترتفعوا فوق فضائلهم الصغيرة وشطاراتهم الصغيرة وحبّات رمل المراعاة وشؤون عَجَاج النمل والارتياح البائس و«سعادة عموم الناس». !

---

(١) أنظر **المعرفة المرحة**؛ الكتاب الأول ـ الفقرة١. يرى نيتشه أن جل اهتمام الإنسان وفي جميع أوجه نشاطاته موجه إلى غاية «حفظ النوع» وذلك من منطلق غريزة ثابتة وقوية وعنيدة. بما يجعل ما هو سيء وضار يغدو نافعا بدوره بما هو يلعب بدوره دورا في هذا الاتجاه؛ إذ يغذي بطريقة مباشرة أو بواسطة من غيره طاقات تحفز من دونها ترتخي وتيرة الاندفاعات الحيوية للإنسانية لتنتهي إلى الانقراض.

وإنه لأفضل لكم أن تكونوا يائسين من أن تستسلموا. والحق أقول لكم إنني أحبكم لأنكم لا تعرفون كيف تعيشون في هذا الزمن أيها الناس الراقون! وهكذا بالذّات تحيون ـ على أفضل وجه!

* * *

٤

أشجعان أنتم يا إخوتي؟ أأشداء سديدوا القلب أنتم؟ **ليس** شجاعةً مستعرضة أمام شاهد، بل شجاعة الناسك المتوحد والصقر، تلك التي ما من إله هناك ليشاهدها.

ليست سديدة القلب في نظري كل الأرواح الفاترة وكل البغال والعمي والسكارى. ذو قلب هو الذي يعرف الخوف، لكنه **يدجّن** الخوف أيضا، والذي يرى الهاوية، لكن بأنفة وكبرياء.

من يرى الهاوية، لكن بعيني صقر، ومن **يلمس** قاع الهاوية بمخالب صقر: ذاك هو الشجاع.

٥

«الإنسان شرّير» ـ هكذا كلمني كل الحكماء والأكبر حكمة لمواساتي. آه، ليت ذلك ما يزال حقيقة في وقتنا هذا! إذ الشر هو أفضل طاقة في الإنسان.

«على الإنسان أن يغدو أفضل وأكثر شرّا»[١] ـ هكذا أكرز. وإن الشر الأعظم ضروري لما فيه خير الإنسان الأعلى.

(١) أنظر **ما وراء الخير والشر**؛ الشذرة ٢٩٥ (المحادثة بين نيتشه وديونيزوس) ـ ديونيزوس: =

قد يكون ذلك نافعا بالنسبة لوعّاظ الصغار البسطاء أن يتألموا ويحملوا على عاتقهم خطايا الإنسان(١). لكنني أفرح بالخطيئة العظمى **كسلوتي** الكبرى. -

لكن هذا ليس كلاما لطويلات الأذنين. وليست كل كلمة صالحة لأي شدق. إنها أشياء لطيفة وبعيدة المرامي؛ ليس لأظلاف الأغنام أن تطمع في الإمساك بها!

٦

أيها الناس الراقون، أتعتقدون أنني هنا من أجل إصلاح ما لم تحسنوا صنعه؟

أو أنني أردت أن أحرص من هنا فصاعدا على تهيئة المراقد الوثيرة لكم أيها المتألمون؟ أو أن أدلّكم، أنتم أيها الذين لا مستقر لكم والتائهون والذين أخفقوا في التسلق، على مواطئ آمنة ودروبا أسهل لأقدامكم؟

لا! لا! وألف لا! بل ليمض أكثر وأكثر من أفاضلكم إلى حتفهم، إذ ينبغي أن تزداد حالكم سوء وشدة. وهكذا فقط،

=«إن الإنسان في نظري حيوان لطيف وشجاع وذو طاقة على الابتكار/ ليس له من مثيل على وجه الأرض، وما من متاهة هناك لا يجد طريقه داخلها. وأنا أكنّ له عطفا خاصا؛ وغالبا ما أفكّر في الكيفية التي تجعلني أدفع به إلى الأمام وأجعله أكثر قوة وأكثر خبثا وعمقا مما هو عليه الآن». ـ «أكثر قوّة وأكثر خبثا وعمقا؟» سألته مذعورا. «أجل، أكثر قوة وأكثر خبثا وعمقا؛ بل وأكثر جمالا أيضا». قال لي ثانية وابتسم ابتسامته الألقيونية ذلك الإله المجرِّب كما لو أنه نطق بلطافة عذبة ساحرة.

(١) إشارة إلى المقولة المسيحية بأن يسوع يصلب ويعذّب من أجل خطايانا.

هكذا فقط ينمو الإنسان ويرتقي إلى الأعالي التي تلاقيه فيها الصاعقة وتفتته: عاليا بما فيه الكفاية لملاقاة الصاعقة!

نحو الأقلّ ونحو الأطول مدى، والأبعد تمضي رغبتي واهتمامي؛ مالي إذًا وبؤسكم؛ صغيره وكثيره وقصيره؟

إنكم لا تعانون بما فيه الكفاية في نظري! ذلك أنكم تتعذبون بأنفسكم ولم تتعذبوا بعد **بالإنسان**. وستكونوا كاذبين إذا ما ادعيتم غير هذا! إذ لا أحد منكم جميعا يتعذب بما عانيت **أنا**(١).

* * *

٧

ليس كافيا بالنسبة لي أن تغدو الصاعقة غير مضرة. فأنا لا أريد أن أحوّل مسارها، بل عليها أن تتعلم كيف تعمل ـ لحسابي. ـ

---

(١) المعاناة لدى نيتشه من إحدى العناصر القارة في فلسفة الاستجابة الاثباتية للحياة Bejahung ـ نعم الاستجابة الإثباتية تعني لديه: نعم للشرّ أيضا وللألم والمعاناة. لأن الإّثبات لا يعترف بالبتر والإقصاء. ويمكننا أن نجد هنا تشابها مع الاستجابة الإثباتية لدى المتصوفة، تلك التي لا تنفر من المعاناة هي أيضا بل تستدعيها وتبتهج بها وتحتضنها ضمن العناصر المكوّنة لسعادتها. لكن نيتشه يضع «المعاناة الكبرى»؛ المعاناة المبدعة في مقابل ما يسميه بالمعاناة الصغيرة التي تنوّه بها المسيحية. أنظر **ما وراء الخير والشر**؛ الفقرة ٢٢٥: «تريدون إلغاء المعاناة؛ أما نحن؟... يبدو حقا أننا نريدها بالأحرى أعظم وأسوأ مما كانت عليه في أي زمن مضى! إن الرفاه كما ترونه أنتم ليس بهدف البتة؛ بل يبدو لي نهاية! وضع سيجعل من الإنسان كائنا مضحكا وجديرا بالاحتقار، بل ويجعله يرغب في هلاكه. تربية المعاناة؛ المعاناة الكبرى ـ ألم تعرفوا أن هذه التربية وحدها التي خلقت أسباب ارتقاء الإنسان؟ ذلك التوتر الذي تعرفه النفس في الأسى والذي يربيها على الشدّة ويغذي قوّتها وصلابتها، وتلك القشعريرة التي تخترقها أمام مشهد الهلاك الكبير، وكذلك قدرتها على التدبير وبسالتها في تحمل الشقاء ومجالدته وتأوّله واستغلاله، وكل ما مُنحت من عمق وأسرار وأقنعة وعقل ومكر وعظمة؛ ـ أليس كل ذلك من الهبات التي مُنحتها في خضم المعاناة وتربية المعاناة الكبرى؟».

طويلا ظلت حكمتي تتجمع مثل سحابة، غمامة تزداد صمتا وقتامة. هكذا تفعل كل حكمة سيكون عليها أن تولد صاعقة **في يوم ما**.

أما أبناء هذا الزمن فلا أريد أن أكون **نورا** لهم ولا أن أدعى نورا بينهم. **هؤلاء** ـ أريد أن أعميَ أبصارهم: ولتفقأ أعينهم يا برق حكمتي الصاعقة(١)!

* * *

٨

لا تطلبوا ما يفوق طاقتكم؛ هناك زيف خبيث لدى أولئك الذين يرومون أشياء تفوق طاقتهم،

خاصة عندما يطلبون أمورا عظيمة! إذ هم يثيرون الاتياب في الأمور العظيمة أولئك المزوِّرون والممثلون،

حتى ينتهي بهم المطاف إلى أن يغدوا مزيّفين في أعين أنفسهم أيضا بنظراتهم الحولاء وخشبهم المنخور الملمّع بالشمع، مقنّعين بحلّة من الكلمات المدوية وبحلية من الفضائل الاستعراضية، وبأعمال برّاقة مزيّفة.

---

(١) في الشذرة ٣١ [٣٨] من كنّشات شتاء ١٨٨٤/ ٨٥ نقرأ: «أردتَ أن تكون نورا لهؤلاء، لكنكّ أعميتهم. إن شمسك نفسها هي التي فقأت أعينهم». نرى أن نيتشه قد حوّر هذه الجملة بما جعلها لم تعد نوعا من اللوم أو الندم، بل كما لو أنه يجيب نفسه: كلاّ، ذلك ما اريده لهم، وليس غير ذلك.

لتكونوا حذرين كل الحذر أيها الناس الراقون! فليس ثمة شيء أغلى لديّ اليوم وأندر من الصدق[١].

أليس الزمن اليوم للرعاع؟ لكن الرعاع لا تفقه ما العظيم وما الحقير وما المستقيم وما الصادق؛ إنها معوجّة عن غير قصد ووعي؛ إنها تكذب دوما.

* * *

٩

لتكونوا شديدي الريبة في هذا الزمن أيها الناس الراقون، أيها المفعمة قلوبهم شجاعة! أيتها القلوب الصادقة النزيهة! ولتتكتموا على براهينكم! فالزمن اليوم للرعاع!

والذي تعلمته الرعاع في ما مضى دون براهين، كيف يمكن دحضه ببراهين؟

---

(١) الصدق (النزاهة والأمانة الفكرية) قيمة أخلاقية مركزية في فلسفة نيتشه كمقابل للتكلف والمغالطة، وهي القيمة التي تحرر الفيلسوف من قيود المجاملة والمداراة والتحفظ والحرص على التلاؤم مع المواضعات الفكرية الاجتماعية والأخلاقية والدينية. وفي كلمة هي الدعامة الأساسية التي تنبني عليها روح المخاطرة والفكر الصدامي. أنظر ما **وراء الخير والشر**؛ الفقرة ٢٢٧: «الصدق ـ لنفترض أنه الفضيلة التي لا نستطيع أن نتخلص منها نحن العقول الحرة ـ فإننا نريد أن نعمل بكل ما أوتينا من خبث ومحبة على تغذيتها أكثر وتنميتها داخل أنفسنا، وأن لا نكل أبدا من السعي إلى بلوغ «كمالنا» داخل فضيلتنا الوحيدة المتبقية لنا: وليكن لبريقها أن يظل مخيما مثل نور مسائي أزرق مذهّب هازئ فوق هذه الحضارة الماضية إلى الشيخوخة، وجدّيتها القاتمة الثقيلة! وحتى إذا ما أصاب فضيلتنا التعب في يوم ما وراحت تمطط أعضاءها متنهدة، وهي تجد أننا قساة متمنية حالا أفضل وأرقّ وأخف تماما مثل حمل مريح مستحبّ؛ فلنظل على قسوتنا، نحن آخر الرواقيين!...».

في السوق العمومية يكون الإقناع بالحركات؛ لكن البراهين تثير ارتياب الرعاع.

وإذا ما كُتب للحقيقة أن تنتصر مرة، فلكُم أن تتساءلوا بريبة مبرّرة: «أي ضلال مكين قد ناضل من أجل انتصارها؟»

لتحترسوا أيضا من العلماء! إنهم يحقدون عليكم؛ ذلك أنهم عقيمون! إنّ لهم عيونا باردة وجافة، وكل طائر في عينهم مجرّدٌ من الريش.

هؤلاء يتبجحون بأنهم لا يكذبون؛ لكن العجز عن الكذب لا يعني البتة حب الحقيقة. لتحترسوا إذًا!

إن التعافي من الحمّى لا يعني البتة وبالضرورة رسوخا في المعرفة! فأنا لا أؤمن بالعقول المتبرّدة؛ ومن كان غير قادر على الكذب لا يعرف ما هي الحقيقة.

١٠

إذا أردتم بلوغ الأعالي، فلتكن أرجلكم هي التي تحملكم إليها! لا تدعوا أنفسكم تُحملون، ولا تمتطوا ظهور ورؤوس غيركم!

أما أنت فتصعد راكبا فرسا؟ وتصعد الآن راكضا نحو هدفك؟ ليكن يا صديقي! لكن رجلك المشلولة ترافقك هي أيضا على صهوة الفرس!

وعندما تكون أمام هدفك، وعندما تقفز عن ظهر فرسك؛ هناك فوق درجتك **العالية** ستتعثّر قدمك - أيها الإنسان الراقي.

١١

أيها المبدعون، أيها الناس الراقون! إن المرء لا يحبل إلا بالولد الذي هو من صلبه.

لا تدعوا أحدا يلقّنكم أو يوهمكم بقناعة. إذ، مَن هو بالنهاية أقرب الأقربين إليكم؟ ولئن عملتم لفائدة «ذي القربى» أيضا، فإنكم لا تبدعون من أجله!

لتزيحوا عن أذهانكم هذه الـ«من أجل»، أيها المبدعون؛ ففضيلتكم هي التي تريد أن لا يكون لكم عمل «لِ» و«من أجل» و«بسبب». ولتسدّوا أسماعكم عن هذه الكلمات الصغيرة المزيّفة.

فضيلة أصاغر الناس فقط هي هذه الـ«من أجل القريب»؛ وتعني «المثل بالمثل» و«يد تغسل الأخرى»؛ ـ وليس لهؤلاء الصغار من حقّ ولا طاقة على أنانيّتكم!

إن في أنانيتكم أيها المبدعون حذرَ الحُبلى واحتياطها الحازم(١)! تلك الثمرة التي لم ترها عين بعد، هي التي ترعاها كل محبتكم وتحفظها وتغذيها.

وحيثما تكون كل محبتكم مركزة على طفلكم، فهناك تكون كل فضيلتكم! عملكم وإرادتكم، تلك هي «أقرب الأقربين» إليكم؛ فلا تدعوا أحدا يلقّنكم قيما زائفة!

---

(١) في الشذرة ٣١[٣٧] من كنشات شتاء ١٨٨٤/٨٥ ترد هذه الجملة بضمير المخاطَب: زرادشت مخاطبا نفسه: «فضيلتك هي حذَر الحبلى: إنك تحمي ثمرتك ومستقبلك المقدّسيْن».

١٢

أيها المبدعون، أنتم أيها الناس الراقون! من كان عليه أن يلد، فهو مريض؛ أما من ولَد فهو نجِسٌ.

اسألوا النساء؛ فما من واحدة تلد لمتعة تجدها في الولادة؛ وإن الأوجاع لهي التي تجعل الدجاج والشعراء يقوقئون.

أيها المبدعون، إن فيكم الكثير مما هو نجس؛ ذلك أنه كان عليكم أن تلدوا.

مولود جديد؛ كم من قذارة جديدة ترافق مجيء كل مولود جديد إلى الحياة! تنحّوا جانبا! ومن ولد ولدًا عليه أن يغسل روحه ويطهّرها!

١٣

لا تكلفوا أنفسكم من الفضيلة ما يفوق طاقتكم! ولا تطالبوا أنفسكم بما يفوق الاحتمال.

ولتقتفوا آثار فضيلة آبائكم! إذ كيف تريدون الصعود عاليا إن لم ترافقكم إرادة آبائكم في صعودكم؟

أما من أراد أن يكون أولا، فليحترس من أن لا يصير آخِرًا[(١)]. وحيث كانت لآبائكم خطيئة لا تحاولوا أن تكونوا قدّيسين.

ومن كان آباؤه مولعين بالنساء والخمور المعتّقة ولحوم القنائص الوحشية، أيّ معنى سيكون لصنيعه إن هو أرغم نفسه على العفة والتبتل؟

---

(١) مقولة إنجيلية يوردها في نوع من الباروديا القائمة على قلب المعادلات والقيم؛ أنظر متّى الاصحاح١٩/ ٣٠: «ولكنْ كثيرون أوّلون يكونون آخِرينَ وآخِرون أوّلينَ».

حمقا سيكون ذلك! وإنه لكثير حقا أن يكتفي هذا الأخير بأن يكون زوجا لامرأة واحدة أو إثنان أو ثلاثة فقط.

وإذا ما بنى ديرا وكتب على بابه: «الطريق إلى القداسة»، فسأقول له: ولأيّ غرض إذًا؟ إنما هذه حماقة جديدة!

لقد شيّد هذا الأخير لنفسه سجنا وملجأ عزلة؛ فليطبْ له المقام! أما أنا فلا أؤمن بهذا.

ففي العزلة لا ينمو ويترعرع سوى ما أتى المرء به معه إلى هناك، بما في ذلك الدابّة الكامنة فيه. ولهذا السبب فإن الكثيرين لا يُنصحون بالعزلة.

وهل وُجد إلى حد الآن ما هو أقذر من نسّاك الصحراء؟ فمن حولهم لم يكن الشيطان وحده هو الذي يرتع بلا قيد، بل الخنزير أيضا.

١٤

خائفين، خجولين مرتبكين، مثل نمر أخطأ قفزته: هكذا أراكم أيها الناس الراقون غالبا ما تتسللون منسحبين جانبا. لقد أخطأتم رمية نرد.

لكن ما همّكم أنتم لاعبوا النرد! إنكم لم تتعلموا اللعب والسخرية كما ينبغي على امرئ أن يلعب ويسخر! ألسنا نجلس على الدوام إلى طاولة لعب وسخرية كبيرة؟

وإذا ما فشلتم في أمر عظيم، فهل يعني ذلك أنكم أنتم أنفسكم ـ فاشلون؟ وإذا ما كنتم فاشلين، فهل يعني ذلك فشل الإنسان؟ وإذا ما كان الإنسان هو موضوع الفشل؛ فحبّذا! وإلى الأمام!

١٥

كلما ازداد أمر سموًّا في نوعه، إلا وكان نجاحه نادرا. أولستم كلكم هنا نموذجا ـ للفشل، أيها الناس الراقون؟

فلتتقبلوا الأمر بمرح، ولا تبالوا! فلكَم هناك من أشياء ما تزال ممكنة! ولتتعلموا كيف تضحكون من أنفسكم كما ينبغي لامرئ أن يضحك!

ما الغرابة في أن تكونوا نماذج فاشلة أو تجربة نصف ناجحة، أنتم شبه المحطّمين؟ ألا يتململ في داخلكم **مستقبل** الإنسان ويفحص بقدميه؟

وكل أشياء الإنسان الأكثر بعدا والأكثر عمقا والأكثر علوّا؛ ألا تضطرب جميعها وتغلي داخل مراجلكم؟

أيّة غرابة إذًا إذا ما انكسرت بعض القُدور وتحطمت؟ لتتعلموا كيف تضحكون من أنفسكم كما ينبغي لامرئ أن يضحك. فكم هناك من الأشياء التي ما تزال ممكنة أيها الناس الراقون!

والحقَّ أقول لكم، لكَم هناك الآن من الأشياء الناجحة! ولكَم هي ثرية هذه الأرض بالأشياء الصغيرة المكتملة، وبالأمور الموفَّقة!

لتحيطوا أنفسكم بأشياء صغيرة مكتملة أيها الناس الراقون! إن نضجها الذهبيّ يشفي القلب. فالشيء المكتمَل يعلّمنا كيف نأمل.

١٦

ما هي أعظم خطيئة من بين ما ارتُكب على وجه الأرض إلى حد

الآن؟ أليست كلمة ذلك القائل: «ويل لمن يضحكون في هذه الدنيا!»[1]

ألم يجد ذلك القائل في الدنيا ما يدعو إلى الضحك؟ إنه لم يبحث كما ينبغي إذًا؛ إذ بوسع أي طفل أن يجد هنا أكثر من سبب للضحك.

هذا الأخير ـ لم يكن لديه ما يكفي من المحبّة؛ وإلا لأحبّنا نحن أيضا معشر الضاحكين! لكنه بُغضًا كان يبغضنا، مستهترا بنا وبالنحيب وصرير الأسنان[2] كان يتوعدنا.

أترى ينبغي على المرء أن يلعن حيث لا يحبّ؟ إن هذا ليبدو لي سلوكا عديم الذوق. لكنّ ذلك هو مافعله ذلك المتزمّت؛ إذ من الرعاع كان مأتاه ومنبته.

ولم يكن هو بدوره يحب بما فيه الكفاية، وإلا لما اغتاظ بذلك القدر من الحنق لأنه لم يُحَبّ. فكل محبة عظيمة لا تطلب حبّا؛ بل تريد أكثر من ذلك.

لتتجنّبوا كل هؤلاء المتزمتين! إنهم نوع بائس مريض، جنس رعاع؛ ينظرون بخبث إلى هذه الحياة، وعينهم عين سوء على هذه الأرض.

لتتجنّبوا كل هؤلاء المتزمتين! إن لهم أقداما ثقيلة وقلوبا تختنق

---

(١) أنظر لوقا؛ الاصحاح ٦/ ٢٥: «ويل لكم أيها الضاحكون الآن، لأنكم ستحزنون وتبكون».

(٢) متّى الآصحاح ٨/ ١٢: «وأمّا بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظُلمة الخارجيّة. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان».

رطوبة؛ - لا يعرفون الرقص، فكيف للأرض أن تكون خفيفة بالنسبة لهذا النوع إذًا؟!

١٧

عبر سبل ملتوية تبلغ كل الأشياء الحسنة غاياتها؛ ومثل القطط تحدّب ظهورها وتهرّ في دخيلتها وهي تقترب من سعادتها، - كل الأشياء الحسنة تضحك.

إن خطو المرء ينبئك بما إذا كان يمضي على **دربه الخاص**؛ فلتنظروا كيف أمضي! أما من صار على مقربة من غايته فراقصًا يغدو.

وحقا أقول لكم إنني لم أتحوّل تمثالا، ولا أنا أقف متيبسا، متجمدا، متحجرا، عمودا ثابتا؛ فأنا أحب الركض السريع.

وبالرغم من أن هناك مستنقعات فوق الأرض وأحزان ثقيلة، فإن من له قدمان خفيفتان يعبر ركضا فوق الأوحال وهو يرقص كما لو كان يسير فوق جليد صقيل.

ارفعوا قلوبكم يا إخوتي، عاليا وأعلى! ولا تنسوا أرجلكم أيضا! ارفعوا أرجلكم أيضا أيها الراقصون الممتازون؛ بل لتنتصبوا على رؤوسكم أيضا(١)!

١٨

تاج الضاحك هذا، هذا التاج المكلل بالورود(٢)؛ أنا الذي ألبست

---

(١) لكأنه نداء منصور الحلاج وهو يمضي راقصا في أسواق بغداد ويتلو مدائحه ومناجاته منتصبا عل رأسه كما تفيد بعض الروايات.

(٢) إكليل الورد الذي يتوّج به زرادشت نفسه كنقيض لإكليل الشوك الذي ألبسه اليهود ليسوع-

نفسي هذا التاج، وأنا الذي أعلنت ضحكي مقدّسًا. وإلى اليوم لم ألتق بأحد له ما يكفي من القدرة على إتيان مثل هذا الأمر؛

لكنني أنا زرادشت الراقص، زرادشت الخفيف، الذي يومئ بجناحيه جاهزا للطيران، ملوحا لكل الطيور، متأهبا جاهزا، مغتبطا نزَقا؛

زرادشت العرّاف صادق النبوءة، صادق الضحكة؛ لا نافذَ الصبر، لامتزمتًا، بل واحدا محبا للقفز والقفزات الجانبية؛ أنا الذي ألبست نفسي هذا التاج!

١٩

ارفعوا قلوبكم يا إخوتي، عاليا وأعلى! ولا تنسوا أرجلكم أيضا! ارفعوا أرجلكم أيضا أيها الراقصون الممتازون؛ بل لتنتصبوا على رؤوسكم أيضًا!

ففي السعادة أيضا هناك دوابّ ثقيلة، أقدام دببة بالولادة. أولئك الذين يجهدون أنفسهم بطريقة مضحكة، مثل فيل يحاول الانتصاب على رأسه.

إنه لأحب أن يكون المرء أحمق من فرط السعادة من أن يكون مجنونًا شقاءً؛ وأفضل أن يرقص الواحد بقدم ثقيلة من أن يمشي مجرجرا قدما عرجاء.

لتتعلموا من حكمتي هذا الأمر إذًا: أقبح الأشياء لها أيضا وجهين حسنيْن، -

---

=المسيح قبل صلبه. إضافة إلى الفرق الآخر ذي الدلالة الفلسفية الكبرى وهو أن زرادشت هو الذي يكلل نفسه بنفسه كتتويج لمسار استقلاليته الفكرية.

ـ وحتى أسوأ الأشياء لها قدمان للرقص: فلتعلّموا أنفسكم إذًا كيف تنتصبون سويًا على أقدامكم أيها الناس الراقون!

ولتنسوا إذًا أورام الكآبة وكل حزن الرعاع[1]! آه لكم يبدون لي كئيبين حزانى هؤلاء المهرّجين الرعاع اليوم! لكن الزمن اليوم للرعاع.

٢٠

لتكونوا مثل الريح عندما تهب أعاصير قادمة من كهوف الجبال: على إيقاع صفيرها الخاص تريد أن ترقص وتجعل البحار ترتعش وتهتز تحت وقع قدميها.

---

(١) في فصل «محاولة نقد ذاتي» الذي جعله نيتشه مقدمة لطبعة جديدة من كتاب **مولد التراجيديا** نجد تعليقا على الفقرتين ١٨ و١٩ من هذا الفصل الذي نحن بصدده. في الفقرة ٧ بالتحديد من هذا الفصل يطور نقدا للرومانسية وما تحمله من كآبة وتشاؤم: «لنتصور جيلا ناميا يمتلك تلك النظرة التي لا تعرف الفزع وذلك الاندفاع البطولي باتجاه كل خارق فظيع، لنتصور الخطوات الجريئة لقاتل التنينات والشجاعة الأبيّة التي يدير بها هؤلاء ظهورهم للتعاليم الهزيلة للتفاؤل كي يحيوا بكلية كليتهم «حياة إرادة ثابتة لا تنثني»: ألن يكون من الضروري إذًا أن يستدعي الإنسان المأساوي لهذه الحضارة في غمار تربيته الذاتية على جدية المخاطر وفظيع الأمور، أن يستدعي له فنا جديدا؛ فنّ السلوان الميتافيزيقي: التراجيديا مثله مثل مثيلته وابنة نوعه هيلينا، وأن يصرخ مع فاوست: «ألا ينبغي علي إذًا، وبعنف الرغبة/ أن أعيد إلى الحياة ذلك الشكل الوحيد الذي ليس له من مثيل؟».

«ألن يكون من الضروري؟»... لا، وألف لا! أيها الرومنطيقيون الشبّان: لا ضرورة في ذلك! لكن من المحتمل جدا أن تنتهي الأمور هكذا، أن تنتهوا أنتم هكذا، «مغمورين بالسلوان» كما ينص على ذلك الكتاب. ان تغدوا بالنهاية وبالرغم من كل تربيتكم الذاتية على جدية المخاطر وفظاعات الأمور، مغمورين بـ«السلوان الميتافيزيقي»؛ أي في كلمة: مسيحيين كما ينتهي كل الرومنطيقيين... كلا، بل عليكم أن تتعلموا أولا فنّ السلوان الدنيويّ؛ عليكم أن تتعلموا الضحك يا أصدقائي الشبّان، حتى وإن أردتم أن تظلوا متشائمين كل التشاؤم. ولعلكم ستبعثون في يوم ما وأنتم تضحكون بكل السلوانات الميتافيزيقية إلى الجحيم، والميتافيزيقا في مقدمتها!».

الريح التي تمنح الحمير أجنحة وتحلب اللبؤات الشرسة؛ مباركة هي تلك الروح الخيّرة الهوجاء الآتية إعصارا عاتيا على كل الحاضر وكل الرعاع، ـ

ـ عدوّة رؤوس الدرّاج الشوكي ورؤوس الدواب وكل الأوراق الذابلة والأعشاب الطفيلية؛ مباركة هي روح الإعصار الخيّرة المتوحشة الحرة التي ترقص فوق المستنقعات وأكوام الحزن كأنها تعبر راقصة فوق المروج!

الروح التي تبغضها كلاب الرعاع المسعورة وكل تلك السِفْلة المنقوصة القاتمة؛ مباركة هي روح العقول الحرة جميعها، العاصفة الضاحكة التي تذرو التراب في أعين كل السوداويّين والمبرقعين بالسُّهام!

أيها الناس الراقون، إن أسوأ ما فيكم هو أنكم لم تتعلموا كيف ترقصون كما ينبغي على امرئ أن يرقص؛ ـ أن تعبروا فوق أنفسكم راقصين! وما ضرّكم إن أنتم فشلتم!

لَكَم ما تزال هناك من الأشياء الممكنة! **فلتتعلموا** إذًا أن تمضوا فوق أنفسكم ضاحكين! لترفعوا قلوبكم أيها الراقصون، عاليا وأعلى! ولا تنسوا أن تضحكوا ضحكا جيدا أيضا!

تاج الضاحكين هذا؛ التاج المكلل بالورود، إليكم أقذف بهذا التاج يا إخوتي! لقد أعلنتُ الضحك مقدّسا، أيها الناس الراقون، **فلتتعلموا** أن ـ تضحكوا!

نشيد الكآبة[1]

١

كان زرادشت يقف قريبا من باب المغارة بينما هو يتكلم بخطبه الأخيرة، لكنه بعد أن نطق بآخر كلماته انسل من أمام ضيوفه وفر لبرهة قصيرة إلى الهواء الطلق.

---

(١) نشيد الكآبة قد نشأ في شكل قصيدة مستقلة بذاتها خريف ١٨٨٤. وفي مسودات زرادشت الثاني المحفوظة تحت رقم Z II 5 توجد شذرتان الأولى (٢٨ [٣]) تحمل عنوان «خبث شمسيّ» والثانية تحت عنوان «خرفان» وفي مسودات زرادشت الثاني الواردة تحت رقم Z II 6 نجد تنويعات مختلفة في صياغة هذا العنوان: «خبث شمسي»، «لا شيء سوى شاعر»، «تائب العقل». كما نجد جزء كبيرا منها في الشذرة ٣١ [٣١] من نفس المجلد، مع فارق أن القصيدة لم ترد مقطعة أبياتا قصيرة كما ترد هنا. وفي قصيدة ديثرامبوس ديونيزوس يعترضنا أيضا «لا شيء سوى أحمق! لا شيء سوى شاعر!». ونشير إلى هذا الحضور لنفس النص تقريبا في مواقع عديدة ومختلفة كي يكون القارئ العربي على بينة من الجهود المتكررة وما يرافقها من مراجعات وتغيير وتعديلات يقوم بها نيتشه قبل التحرير النهائي لنصوصه. كما أن القارئ قد لاحظ بالتأكيد في الهوامش السابقة ورود بعض الجمل وأحيانا مقاطع بأكملها من كتب أخرى لنيتشه قد ضمنها كتاب زرادشت بما يجعل من الواضح أن «هكذا تكلم زرادشت» يمثل بالنهاية عملا قد تجمعت فيه وتكثفت ـ في شكل أدبي شعري هنا ـ مجمل أفكار نيتشه الموزعة على كتاباته الأخرى. أي أنه خلاصة كل كتاباته. وليس بالغريب إذًا أن يحظى هذا المؤلّف بالذات بكل حب نيتشه فهو يسمّيه أحيانا «زرادشتي» وأحيانا أخرى «إبني زرادشت» ـ كما لو كان يقول: «خلاصتي».

«يا للروائح النقية من حولي! صاح مناديا. يا للسكون البهيج من حولي! لكن أين هما حيواناي؟ إليّ، إليّ يا نسري ويا حيّتي!

قولا لي إذًا يا صديقيّ؛ أتكون لهؤلاء الناس الراقين المجتمعين هنا رائحة كريهة؟ يا للروائح النقية من حولي! الآن فقط أصبحت أعرف وأحس كم أنا أحبكما يا حيواناي!»

ثم كرر زرادشت كلامه هذا: «إنني أحبكما يا حيواناي»[(١)]! وإذا

---

(١) حبّ الحيوانات، الذي يعبر عنه زرادشت لنسره وحيته، قد سبق أن لمسناه في فصل «المتسول الطوعي»: «ما الذي حدث لي؟ قال زرادشت متسائلا، شيء دافئ وحيوي ينشّطني الآن، شيء لا بد أن يكون على مقربة مني هنا.
أحس بأنني أقل وحدة؛ رفقاء وإخوة مجهولون يحومون حولي، وأنفاسهم الدافئة تداعب أوتار روحي». / وبينما كان يجول بنظره في ما حوله بحثا عن ذلك الذي كان يبعث السلوان في وحشة وحدته، هاهو يرى أبقارا كانت تقف مجتمعة فوق مرتفع قد بعث قربُها ورائحتها الدفءَ في قلبه». إنه في الحقيقة حب فلسفي يتميز عن حب العجائز والسيدات اللطيفات؛ أي عن حب الرفق والعطف. حبّ معرفي يمكن أن نقول، وكما نستنج مما يرد مثلا في **المسيح الدجّال**؛ الفقرة ١٤: «لقد قلبنا معارفنا. وغدونا أكثر تواضعا على جميع الأصعدة. لم نعد نُرجع بالإنسان إلى أصل واقع في «العقل» أو في «الألوهية» وأعدناه إلى حظيرة الحيوان. إنه في نظرنا أقوى حيوان، لأنه الأكثر مكرا: ونتيجةُ ذلك هو ما يتمتع به من مدارك عقلية. لكننا نحتر س في المقابل من ذلك الغرور الذي نشعر أنه يحاول أن يعبر عن نفسه بصوت مرتفع هنا أيضا: كما لو أن الإنسان كان الغاية المقصودة من تطور الحيوان. إنه لا يمثل البتة أفضل الخليقة / أو تتويج الخليقة/ ، وكل كائن آخر من الكائنات المجاورة له يتمتع بنفس الدرجة من الكمال... وإذ نحن نقدم هذا الاعتبار فإننا نذهب في اعتبارنا إلى أبعد من ذلك: إن الإنسان، بصفة نسبية، لهو الخلقة الحيوانية الأكثر فشلا، الأكثر هشاشة والذي عرف الانحراف الأكثر خطرا في غرائزه ـ ومع ذلك وبهذا كله الحيوان الأكثر طرافة! ـ وفي ما يتعلق بهذه الحيوانات فإن ديكارت قد عبر بجرأة جديرة بالاحترام عن الفكرة الجسورة التي ترى إلى الحيوان كآلة machina*: وكل علومنا الفزيولوجية تتجه بجهدها نحو البرهنة على هذه المقولة. ونحن بالتالي، منطقيا، لا نستثني الإنسان من هذه المقولة كما فعل ديكارت (...) في ما مضى كان المرء يرى في وعي الإنسان، وفي «الروح» البرهان على أصله السامي، عن طابعه الألوهي؛ ولكي=

النسر والحية يندفعان إليه وهما يسمعان هذه الكلمات، ثم التصقا به وهما يرفعان عينيهما نحوه. وعلى تلك الحال ظلوا متلاصقين ثلاثتهم صامتين معا يتشممون ويستنشقون الهواء النقي. ذلك أن الهواء في الخارج كان أفضل مما هو عليه بين جماعة الرجال الراقين.

٢

ولم يكد زرادشت يضع قدمه خارج المغارة حتى نهض الساحر العجوز من مجلسه وجال في ما حوله بعين ماكرة ثم تكلم: «لقد خرج!

وها أنا أيها الناس الراقون ـ كي أدغدغ مشاعركم مثلما يفعل هو بهذا الإطراء وهذا اللقب المجامل ـ ها أنا أجد نفسي مجددا تحت سطوة روح الخداع والسحر الشنيع؛ شيطاني الكئيب،

ـ الخصم(١) اللدود لزرادشت: لتغفروا له! والآن، هو ذا يريد أن

=يدفع بالإنسان نحو الكمال، كان ينصح أن يتصرف على طريقة السلحفاة بأن يسحب كل حواسه إلى الداخل وبالانقطاع عن كل علاقة بما هو أرضي، وأن يتخلص / يتجرد من الدرَقة الفانية: كي لا يتبقى منه غير المكونة الأساسية؛ «الروح الصرف». وقد توفقنا إلى فهم أفضل في هذ المجال أيضا: إن الوعي المكتسب، و«العقل» تمثل في نظرنا عرَضا لنقص نسبي في الكيان الجسدي، كمحاولة، وتلمّس، وإخطاء للهدف، وكإجهاد للنفس تستخدم فيه كمية كبيرة من الطاقة العصبية ومن دون موجب...».

* نظرية «البهيمة الآلة» أو «الحيوانات الآلات» ـ "bõtes - machines" "animaux - machines" وهي نظرية ديكارت والديكارتيين وبخاصة مالبرانش، التي ترى إلى الحيوانات ككائنات شبيهة بالآلات بما هي مجردة من كل إحساس ومن كل نوع من العاطفة. أنظر القاموس الفلسفي ـ لالاند.

(١) «الخصم» هي العبارة الإنجيلية التي يسمى بها الشيطان؛ أنظر رسالة بطرس الأولى (العهد الجديد) الاصحاح ٥/٨: «أصحوا واسهروا لأنّ إبليس خصمُكم كأسد زائرٍ يجول متلمّسا من يبتلعه».

يمارس أفانين سحره أمامكم فهذه الآن **ساعته**، وعبثا أقاوم وأصارع هذا الروح الخبيث.

أنتم جميعا، وأيًّا كانت عناوين الشرف التي تتلقبون بها، سواء تسمّيتم بـ«العقول الحرة» أو «الصدّيقين» أو «تائبي العقل» أو «المتحررين من كل قيد» أو «أصحاب الشوق الأعظم».

ـ جميعكم، أنتم الذين تعانون من **القرف الأعظم** مثلي، أنتم الذين مات إلهكم القديم وما من إله جديد يتراءى لكم في المهد والقماط، ـ أنتم جميعا أحباء الروح الخبيثة لشيطاني الساحر والمعزّزون لديه.

إنني أعرفكم جميعا أيها الناس الراقون، وأعرفه هو أيضا ـ أعرف أيضا ذلك الكائن الفظيع زرادشت الذي أحبه رغما عني؛ وهو غالبا ما يتراءى لي مثل قناع إلهي جميل،

أو مثل حفل بأقنعة؛ حفل جديد بديع يجد الشيطان الكئيب لروحي الشرير متعة داخله؛ وغالبا ما يتراءى لي أنني أحب زرادشت إرضاء لروحي الشرير.

لكن هو ذا ينقضّ عليّ، روح الكآبة، شيطان الغسق هذا ويستبد بي؛ وحقا أقول لكم أيها الناس الراقون إنه ليشتهي ـ

ـ لتفتحوا أعينكم فقط! ـ يشتهي أن يقبل عليّ عاريا؛ ذكرا كان أم أنثى، فذلك ما لم أستطع أن أعرفه بعد؛ لكنه يأتي ويستبدّ بي، الويل! لتتحفزوا بكل حواسكم إذًا!

هو ذا النهار يمتص صخبه، والأشياء جميعها تنتظر قدوم المساء بما في ذلك أفضل الأشياء؛ لتصغوا الآن وتنظروا أيها الناس الراقون، أي شيطان هذا، رجلا أو امرأة، هذا الروح؛ روح الكآبة المسائية!»

هكذا تكلم الساحر العجوز، ثم نظر بعين ماكرة من حوله وتناول قيثارته.

٣

ساعة يغدو الهواء روْقاً نقياً[١]،
وسلوان الندى يهبط على الأرض
لامرئيا، خافتا لا مسموعا؛
ـ إذ على نعال رقيقة وخفيفة يمضي الندى المعزّي،
مثل كلّ حمَلة السلوان الرقيقين ـ؛
أتذكر؟ أتذكر أيها القلب المتوقّد،
كم كنت متعطشا
إلى دموع سماوية وقطرات ندى،
محترَقا ومتعبا، ظمئانا،
بينما فوق دروب الأعشاب الصفراء،

---

(١) Abgehellter Luft عبارة غريبة شيئا ما في اللغة الألمانية مشتقة من فعل abhellen وهو فعل نادر الاستعمال إلى حد أن القواميس الألمانية الحديثة لم تر موجبا من إدراجه، الأمر الذي اضطر أغلب المترجمين (أعني هنا الفرنسيين ـ عدا مارتا روبرت ـ ومن ورائهم المترجمين العرب الذين يتسوقون من سوقهم) إلى تخمين المعنى منطلقين من تفكيك بنية العبارة كالآتي Ab - /hellen لينتهوا إلى الاستنتاج بأنها تعني خفوت النور، أو هبوط العتمة وهو عكس المعنى المراد من الكلمة. ترد العبارة في قاموس الأخوين غريم Jacob und Wilhelm Grimm Deutsches Wörterbuch في معنى صفاء الهواء قياسا على الخمرة عندما تروق، أو تغدو روْقاً كما تقول العرب، أو صافية بعد أن يغادرها كدرها الأول. ويورد القاموس بيتين للشاعر الألماني فليمنغ (١٦٠٩ ـ ١٦٤٠) يقابل فيهما بين «كدر» الهواء قبل ساعات ثم بداية صفائه عند ارتفاع الكدر.

تلقي شمس العشية بأشعتها القاسية
تتراقص حولك متسللة من بين الأشجار الداكنة،
نظرات شمسية من جمر تلهب البصر، متشفّية.

«**طالب الحقيقة؟ أنت؟** ـ هكذا كانت تخاطبك هازئة ـ
كلاّ! ما أنت إلا شاعر!
حيوان، ماكر، مفترس، متسلل،
عليه أن يكذب دوما،
حيوان يكذب عن وعي وقصد:
متلهّفا إلى الطريدة
متنكرا تحت أقنعة ملوّنة،
قناعا بدوره
طريدةَ نفسه ـ
أهذا ـ هو طالب الحقيقة؟
كلا، لا شيء سوى أحمق! لا شيء سوى شاعر!
لا شيء سوى فم متكلّم بأحاديث منمّقة،
صارخا بمزيج من الألوان من تحت أقنعة المهرج،
متنقلا فوق جسور من كلمات كاذبة،
وأقواس قزح ملوّنة،
بين سماء مزيّفة
وأرض مزيّفة،

هائما، مطوّحًا في كل فجّ، -
لا شيء سوى أحمق! لا شيء سوى شاعر!

أهذا - طالب الحقيقة؟
لا ساكنا متصلبا، لا أملس ولا باردا،
لا محوّلا صنما،
أو عمودا منصوبا للآلهة،
لا نصبا أمام المعابد
حارسا على باب إله؛
لا، بل عدوًّا لأصنام الحقيقة هذه،
مستأنسا لكل الأدغال أكثر من ساحة أي معبد،
ممتلئا بنزوات قِط خبيثة،
قافزا عبر كل نافذة
بسرعة البرق! في قلب كل صدفة،
متشمّما كل الأدغال البكر
مستعرا رغبة واشتياقا
تمضي متشمما،
داخل كل الأدغال البكر كنت تركض
بين الوحوش المفترسة المرقّطة
معافى معافاة آثمة، مزوّقا وجميلا
بشدقيْن يسيلان شبقا،

مبتهجا هزءً، مبتهجا فظاعةً، مبتهجا ظمأً إلى الدماء،
منقضّا، متسللا، مخاتلا مخادعا كنت تمضي؛ -

أو كالنسر الذي يحدّق طويلا،
طويلا وبعين ساكنة في الهُوى السحيقة،
في هوى **نفسه**:
وكيف تهوي نظراته، تنحدران وتغوصان،
وتجولان في أعماق أكثر فأكثر عمقا!
ثم،
فجأة! بانطلاقة سهم ينحدر مستقيما،
هبوطا ساحقا،
ينقض على الخرفان مضطرما جوعا
متّقدا لهفة على لحم الخرفان،
عدوّا لكل أرواح الخرفان،
مستعرا ضد كل ما يتراءى بهيأة الخرفان،
وأعين الحملان الوديعة، وفروة الخرفان،
رماديا، وبطبع الخرفان الوديع!

بطبع النسر وسجايا الفهد،
كذا هي رغبات الشاعر،
كذا هي رغباتك من وراء ألف قناع،

أيها الأحمق! أيها الشاعر!

أنت الذي كنت ترى إلى الإنسان
إلها وخروفا على حد سواء:
تمزّق أوصال الإله في الإنسان
كما **تمزّق أوصال** الخروف في الإنسان
ضاحكا فيما أنت تمزّق وتفتّت ـ

تلك، تلك هي **غبطتك!**
غبطة نسر وفهد!
غبطة شاعر وأحمق!».

ساعة يغدو الهواء **روقاً نقيّاً**،
عندما يتراءى هلال القمر
شاحبا وحسودا يتسلل عبر حمرة الشفق؛
ـ عدوا للنهار،
خفْيةً يضرب بمنجله مع كل خطوة
على أراجيح الورود،
حاصدا، إلى أن تهوي،
ذاوية تهوي في هاوية الليل:

هكذا هويت أنا أيضا ذات يوم
من علياء جنوني المهوس بالحقيقة،
من رغبات نهاري
متعبا من النهار، منهكا بالضوء،
ـ شاقوليًّا هويت، منحدرا إلى قاع المساء، إلى العتمة،
محترقًا بحقيقة واحدة،
وظمآنا:
ـ أما زلت تذكر؟ أتذكر أيها القلب المتوقّد
كيف كنت تحترق عطشا آنذاك؟ ـ
لأنني منبوذا كنت
من كل حقيقة،
لا شيء سوى أحمق!
لا شيء سوى شاعر!

عن العلم[١]

هكذا أنشد الساحر العجوز، وإذا كل الجالسين هناك ينساقون جميعهم دون شعور منهم ليقعوا مثل العصافير في شراك رغبته الماكرة الكئيبة. وحده رجل التدقيق والتمحيص العقلي لم يدع نفسه ينساق إلى ذلك الخداع؛ وبسرعة اختطف القيثارة من يد الساحر وصاح: شيئا من الهواء! دعوا هواء منعشا يدخل إلينا! لتدع زرادشت يدخل! إنك تسمم هواء هذه المغارة وتجعله ثقيلا، أيها الساحر المشؤوم!

---

(١) يمثل هذا الفصل نقدا للعلماء ذوي العقول الصارمة التي تدقق في الأشياء والإنسان والعالم بطريقة ميكانيكية خالية من الاستقلالية الذهنية والقدرة على الإبداع. هؤلاء الذين يجسدهم هنا مثال «العلقة»، أو رجل التدقيق والتمحيص العقلي الصارم. ويسميهم نيتشه بميكانيكيي **المعرفة**، كما يمكن أن نقرأ في الفقرة ٣٧٣ من الكتاب الخامس من **المعرفة المرحة**، التي وردت تحت عنوان «العلم» كفكرة مسبقة. «ينجم عن قوانين التراتب أن عددا من العلماء وبحكم انتمائهم إلى الفئة الوسطى للمثقفين ليس بوسعهم البتة معاينة الإشكالات الكبرى والأسئلة الجوهرية؛ فلا شجاعتهم ولا نظرتهم تستطيعان المضي إلى تلك المواقع ـ وبصفة أخص حاجياتهم التي تجعل منهم باحثين، وطريقتهم في ذلك التوقع والتمني الباطنيّيْن في أن تتشكل الأمور على هذا النحو أو ذاك، وبذلك فإن تخوفاتهم وآمالهم سرعان ما تجد هدوءها ورضاها، وبأسرع مما ينبغي(. . .) والحكم نفسه ينطبق على تلك القناعة التي تحظى اليوم برضى العديد من الباحثين الماديين في العلوم الطبيعية، والتي تتمثل في الاعتقاد في وجود عالم يُفترض أنه يجد له مقياسا ومعادلا في الفكر البشري وفي عالم المفاهيم القيَمية البشرية، الاعتقاد في شيء يدعى «عالم الحقيقة» بإمكاننا أن نتوصل إلى الإحاطة به نهائيا بواسطة عقلنا البشري المحدود=

إنك تُغوي أيها المزيّف اللبق وتجرّ إلى رغبات غامضة وأحراش مجهولة. والويل لنا إن غدا أناس من أمثالك يتشدقون **بالحقيقة** وينسبون أنفسهم إليها!

الويل لكل العقول الحرة التي لا تحذر **مثل هؤلاء** السحرة! وعلى حريتهم السلام؛ فأنت داعية يغوي ويستدرج إلى العودة إلى السجون.

ـ أيها الشيطان العجوز الكئيب، في شكواك يرن صفير الغواية، وإنك لشبيه بأولئك الذين يدعون إلى الشبق فيما هم يمتدحون العفّة».

هكذا تكلم رجل التدقيق والتمحيص؛ غير أن الساحر العجوز ظل ينظر من حوله مستمتعا بلذة انتصاره متغاضيا عن النّغص الذي كانت تسببه له كلمات رجل التدقيق والتمحيص. «لتسكت! قال بنبرة فاترة، إن الأغاني الجيّدة بحاجة إلى رجع جيّد؛ وبعد الأغاني الجيّدة على المرء أن يصمت طويلا.

وذلك ما يفعله هؤلاء الناس الراقون جميعا. أما أنت، أتراك لم تفهم الكثير من نشيدي؟ لأن لا شيء ذا بال لديك من روح السحر».

=الضئيل. ماذا؟ أنريد حقا أن نقبل بأن ينحط الوجود بهذا الشكل إلى منزلة التمرين الحسابي المهين ووضع التقوقع على الانحباس البيتي للرياضيين؟ لنحترس في المقام الأول من تجريد الوجود من طابعه الملتبس: إن ذلك ما يمليه علينا الذوق الرفيع أيها السادة؛ ذوق حس الاحترام أولا وقبل كل شيء ـ وهو ما يتجاوز أفقكم! أن يكون هناك تأويل واحد مشروع للعالم حيث يكون لكم أن تظلوا محتفظين بشرعيتكم، وحيث لا يمكن لامرئ أن يواصل بحثه وعمله بطريقة علميّة إلا وفقا لرؤيتكم وطريقتكم (ـ تعنون بذلك ميكانيكيّا في الحقيقة؟)، الرؤية التي لا تسمح بطريقة أخرى غير العدّ والحساب والوزن والنظر واللمس ولا شيء غيرها، فإن هذا لا يعدو كونه بلادة وسذاجة، إن لم نقل خللا ذهنيا وبلَهًا».

«إنك لتطري عليّ بأن جعلت فارقا بيني وبينك، أجابه رجل التدقيق والتمحيص. وليكن كذلك! لكن ما هذا الذي أرى فيكم أيها الرجال الآخرون؟ إني أراكم تجلسون جميعا بأعين تلتمع شهوةً ـ :

أين هي حريتكم، أيتها العقول الحرّة؟ إنني لأكاد أعتقد أنكم مثل أولئك الذين شاهدوا للتو مشهد رقصة طويلة فاحشة لفتاة عارية؛ وأرواحكم أيضا غدت ترقص هي الأخرى!

أيها الناس الراقون، يبدو لي أن فيكم الكثير من ذلك الذي يدعوه الساحر بروح السحر والمغالطة: لا بدّ أننا مختلفون كثيرا.

وحقا لقد تحادثنا وتفكّرنا معا بما فيه الكفاية قبل أن يعود زرادشت إلى مغارته، كيما أظل جاهلا بهذا الأمر: **إننا** حقا مختلفون.

نحن لا نطلب نفس الغاية حتى هنا فوق الجبل. أنا أبحث عن مزيد من **الأمان**، لذلك جئت إلى زرادشت. لأنه ما يزال القلعة الحصينة والإرادة الأكثر ثباتا،

اليوم، حيث كل شيء يترنّح والأرض بكليّتها ترتجّ. أما أنتم، وكما أرى من نظرات عيونكم، فتبدون لي كما لو أنكم تبحثون عن مزيد من **اللاأمان**،

ـ مزيدا من الارتعاد، مزيدا من الخطر، ومزيدا من الزلازل. وإنه ليخيّل إليّ تقريبا، ولتغفروا لي خيلاء وثوقي هذا أيها الناس الراقون ـ

ـ يخيّل إلي أنكم تشتهون الحياة الأكثر سوء وخطرا، تلك التي لا شيء يوحي إليّ بالخوف أكثر منها، إلى حياة الحيوانات الوحشية وإلى الأدغال والمغاور والجبال الوعرة ومتاهات الأودية السحيقة.

وليس أولئك الذين يقودونكم خارج المخاطر هم أحب الناس

إليكم، بل الذين يحيدون بكم عن كل السبل؛ الغواةَ والمضلّلونَ تحبون أكثر من أي أحد. لكن، حتى وإن كانت هذه الرغبة واقعا **وحقيقة** فيكم، فإن هذا يظل يتراءى لي أمرا **مستحيلا** مع ذلك.

ذلك أن الخوف هو الشعور الفطري والأساسي في الإنسان؛ في الخوف تجد الكثير من الأشياء تفسيرا لها؛ الخطيئة الأصلية والفضيلة الأصلية. ومن صلب الخوف نمتْ أيضا فضيلتي التي إسمها: العلم.

لأن الخوف من الحيوان الوحشي هو ما لُقّنه الإنسان منذ أبعد العصور، بما في ذلك الخوف من الحيوان الذي يخبّؤه في داخله ولا يطمئن إليه: ـ ذلك الذي يسمّيه زرادشت «الدابّة الداخلية».

هذا الخوف القديم الضارب بعيدا في الزمن وقد غدا مهذّبا روحانيا وعقليّا؛ ذلك هو الذي يسمّى اليوم، في ما يبدو لي، **علما**».

هكذا تكلم رجل التدقيق والتمحيص العقلي؛ لكنّ زرادشت الذي عاد إلى مغارته للتو وكان قد سمع وحزر هذه الخطبة الأخيرة قذف إليه بقبضة من الورود وهو يضحك من «حقائقه». «ماذا؟ ما هذا الذي كنت أسمعه هنا؟ قال صائحا. حقا أقول لك إنه ليبدو لي أنك أحمق، أو أنني أنا الأحمق؛ أما «حقيقتك» فسأقلبها على رأسها حالا ودفعة واحدة.

فالخوف ـ هو الاستثناء لدينا[1]. لكن الشجاعة والمغامرة والنزوع

---

(١) يتطرق نيتشه في كتاب **الفجر** إلى مسألة الخوف من منظور الأخلاق. الخوف ليس حافزا، بل كابحا للهمم ولإرادة المعرفة التي لا يمكن أن تتجسد إلا في المغامرة والمخاطرة. «هذا ما تطالب به سلطة الأخلاق: خوف ورهبة غامضان لا بد أن يظلا يقودان الإنسانية بصرامة في كل عمل ونشاط(...) إن سلطة الأخلاق تكبل التفكير في مجال أشياء=

إلى ارتياد المجهول وإلى كل ممتنع بعيد المنال، ـ الشجاعة هي التي تكوّن مجمل التاريخ القبلي للإنسان في ما يبدو لي.

هو الذي استهوته كل فضائل الوحوش الكاسرة وأكثرها شجاعة فاسترقها منها؛ بعدها فقط تحوّل ـ إلى إنسان.

تلك الشجاعة التي رقّتْ بالنهاية وغدت مهذبة روحانية وعقلية، تلك الشجاعة الإنسانية بجناحي صقر وذكاء حيّة؛ تلك هي التي، في ما يبدو لي، تسمى اليوم. . .».

«زرادشت!» صاح كل المجتمعين هناك بصوت واحد وانفجرت من أفواههم ضحكة مجلجلة طويلة وقد ارتفع عنهم ما يشبه سحابة ثقيلة الوطأة. وحتى الساحر العجوز قد انخرط في الضحك هو أيضا ونطق بكلام ذكيّ: «مرحى! لقد ذهب عني الروح الشرير وتوارى!

ألم أحذركم منه عندما قلت إنه ماكر، وإنه روح كذب وخداع؟

وخاصة عندما يظهر عاريا. لكن أيّ ذنب لي في أحابيله؟ أأنا الذي خلقته وخلقت العالم؟

هيا! لنعد إلى غبطتنا ومرحنا! وإن بدا زرادشت مغتاضا ـ انظروا إليه! إنه حانق عليّ؛

=يمكن أن يكون من الخطير أن يتم التفكير فيها بطريقة خاطئة ـ : بهذه الطريقة تبرر سلطة الأخلاق نفسها أمام المعترضين عليها. خاطئ: يعني هنا «خطيرا»، لكن خطيرا على من؟ عادة ليس الخطر الذي يتهدد العنصر الفاعل هو ما يضعه الماسكون بسلطان الأخلاق في الحسبان، بل ما هو خطر عليهم، إمكانية تخليهم عن السلطة وفقدان مصداقيتهم إذا ما أُسند للجميع حق التصرف بطريقة اعتباطية وبحمق، وبحسب الفهم الخاص لكل أحد صغيرا كان أم كبيرا: لكنهم، وفي ما يخصهم يسمحون لأنفسهم دون إشكال بالتصرف بطريقة اعتباطية وبحمق، ـ بل ويأمرون، حيث تكون الإجابة عن أسئلة «كيف يمكنني أن أعمل؟» أو «لِأي غرض ينبغي عليّ أن أعمل؟» أمرا صعبا للغاية أو مستحيلا تقريبا».

لكنه، وقبل أن يحل الليل سيكون قد عرف كيف يحبني من جديد ويمتدحني، إنه لن يستطيع العيش طويلا من دون أن يرتكب مثل هذه الحماقات.

هو الذي يحب أعداءه؛ وهو الخبير بهذا الفن أكثر من أي أحد ممن رأيت وعرفت. لكنه ينتقم لذلك ـ من أصدقائه!»[1].

هكذا تكلم الساحر العجوز وقابله مجمع الرجال الراقين بعبارات الاستحسان، وإذا زرادشت يمر بأصحابه يصافحهم بمزيج من الخبث والمحبة مثل واحد يطلب معذرة من الجميع ويكفّر عن ذنب ما. لكن وهو يقترب من باب مغارته ها قد عاوده حنينه إلى هواء الخارج النقي وإلى حيوانيه، ـ وإذا هو يهمّ بالتسلل خارجا.

---

(١) أنظر فصل «عن الفضيلة الواهبة» الكتاب الأول من هذا الكتاب، والهامش رقم ١ ص١٥٤.

بين فتاتين من بنات الصحراء

١

«لا تنصرف عنا! خاطبه المسافر الجوّال، ذاك الذي كان يسمي نفسه ظل زرادشت. امكثْ معنا لئلا يعاودنا حزننا الثقيل القديم.

فالساحر العجوز لم يبخل علينا بأسوأ ما لديه، وها هو البابا التقيّ الطيّب قد غمرت عينيه الدموع وأبحر مجددا في محيط الكآبة.

ولئن كان بوسع هذين الملكين أن يظهرا أمامنا بهيأة متماسكة، ذلك أنهما كانا أكثر من تعلّم من بيننا جميعا من دروس هذا اليوم، فإني أراهن مع ذلك على أن اللعبة الشنيعة ستعاودهما هما أيضا لو وجدا نفسهما لوحدهما دون شهود؛

اللعبة الشنيعة للغيوم المتجوّلة والكآبة الرطبة والسماء المغشّاة والشموس المحجّبة ورياح الخريف المولولة،

اللعبة الشنيعةِ لعويلنا وصرخات استغاثتنا؛ لتمكثْ بيننا يا زرادشت! فهنا بؤس خفيّ كثير يريد أن يتكلم، مساء ثقيل[١]، وغيوم كثيرة، وكثير من الهواء العطن الثقيل!

---

(١) أنظر لوقا؛ الاصحاح ٢٤/٢٩: يلتقي إثنان من الحواريين بيسوع المنبعث من الموت بعد ثلاثة أيام من صلبه، لكنهما لم يستطيعا التعرّف عليه وعندما يتظاهر بنية الانصراف يخاطبانه هكذا: «أمكث معنا لأنه نحوُ المساءِ وقد مالَ النهارُ».

لقد غذّيتنا بطعام مقوّ لهمة الرجال وأمثال متينة، فلا تدعنا ونحن أمام طبق المرطبات الختامي نستسلم مجددا لسطوة العقول اللينة المخنّثة!

أنت وحدك تستطيع أن تجعل الهواء من حولك قويا ونقيا! وهل كان لي أن أجد في مكان ما من الدنيا كلها هواء نقيا مثل هذا الذي لقيت في مغارتك؟

بلدانا كثيرة رأيت، وأنفي قد تعلم اختبار أنواع عديدة من الهواء وتمييزها؛ لكن هنا عندك كان لمنخريّ أن يعرفا لذتهما الكبرى!

عدا ـ أجل، عدا هذه الذكرى القديمة! أوه لتغفر لي هذه الذكرى وهذا النشيد القديم؛ طبق تحليةٍ قد نظمته في ما مضى بين فتاتين من بنات الصحراء؛

إذ لديهما كان هناك هواء شرقيّ طيّب ونقيّ؛ وهناك كنت أبعد ما يمكن عن أوروبا العجوز الغائمة الرطبة الكئيبة!

وكنت آنذاك أحب تلك الفتيات الشرقيات وتلك السماء الأخرى التي لا تغشاها سحب ولا تغمرها هواجس.

ولن تستطيعوا أن تتصوروا كيف كانتا تجلسان هناك لطيفتين وودودتين عندما لا تكونا راقصتيْن، عميقتيْن لكن دون خواطر وأفكار، مثل كتلتين صغيرتين من الأسرار، مثل ألغاز ملفوفة بالشرائط، مثل مكسّرات شهيّة ـ

ـ مزركشات وغريبات حقا! لكن لا تكدرهنّ غيوم: ألغاز تمنح نفسها للقراءة؛ إكراما لتلك الفتاتيْن نظمت آنذاك هذا المزمور طبَقَ تحليةٍ لختام المأدبة».

هكذا تكلم المسافر أو الظلّ؛ وقبل أن ينطق أحد من الجالسين بجواب تناول قيثارة الساحر العجوز وراح ينظر بسكينة ووقار الحكمة من حوله وهو يجلس مصالب الساقين؛ وكان يستنشق الهواء بمنخريه ببطء مختبِرا مسائلا مثل واحد يتشمّم هواء جديدا في بلاد غريبة. ثم انطلق في الغناء بصوت شبيه بالدمدمة.

٢

الصحراء تمتد وتتسع؛ وويل لمن يحمل صحاري في داخله!

ـ ها! يا للمهابة!

إنه فعلا لأمر مهيب!

بداية لائقة!

بمهابة إفريقية!

مما يليق بأسد،

أو بقرد يزعق بمواعظ أخلاقية ـ

ـ لكنها لا تساوي شيئا أمامكما

صديقتيّ المحبّبتيْن، أنتما

اللتيْن تسنّى لي

لأول مرة،

أنا الأوروبي،

أن أجلس عند أقدامكما تحت النخيل. سِلاهْ[١]!

---

(١) فضلنا الإبقاء على عبارة «سلاه!» الإنجيلية كما تترد مثل لازمة تهليل في المزامير (العهد=

رائع حقا!
ها أنا أجلس هنا،
قريبا من الصحراء، ومع ذلك
أبعد ما يمكن عن الخلاء،
لا متصحّرا مجدَبا؛
بل هي هذه الواحة ابتلعتني،
هذه الواحة الصغيرة التي فتحت فاها اللطيف متثائبة،
ذاك الفم الصغير الذي يعبق طيبا ليس مثله في الأفواه من طيب:
وها أنا أقع داخله،
منحدرا، هابطا ـ لأجدني بينكما،
أيتها الصديقتان المحبّبتان. سلاه!

طوبي، طوبي لذلك الحوت،
إذ يمنح ضيفه مثل هذه الغبطة! ـ
أتفهمون إشارتي المتفقّهة هذه[1]؟
طوبى لبطنه،

=القديم)، والتي تعادل هلّلويا. ، ولم نترجمها بكلمة عربية متداولة مثل: يا للروعة! أو مرحى! ومرة أخرى أجد ما يدعو إلى الضحك في بعض الترجمات العربية لهذه العبارة، عندما يقذفنا مترجما زرادشت، هكذا دون آذان ولا مئذنة، بعبارة «حيّ على الصلاة!»

(١) الإشارة هنا إلى قصة يونان الذي قضى ثلاثة أيام في جوف الحوت. أنظر العهد القديم: يونان؛الإصحاح الأول/ ١٧ والإصحاح الثاني بكامله.

إن كان بطنًا ـ واحةً لطيفا
مثل هذه الواحة: لكنني أشك في ذلك،
ـ فأنا قادم من أوروبا
المهوسة بالشك أكثر من كل الزوجات المسنّات.
ليصلح الربّ حالها! آمين!

وها أنا أجلس الآن،
داخل هذه الواحة الصغيرة،
مثل حبّة تمر،
سمراء، حلوة، مكتنزة ذهبا،
تحنّ إلى فم فتاة،
بل أكثر من ذلك إلى أسنان أنثى يافعة،
بيضاء، باردة، قاطعة: إذ تلك
هي التي تهفو إليها قلوب كل التمور المتوهّجة. سلاه!

شبيها بهذه الثمار الجنوبية،
أستلقي هنا، ترفّ حولي
حشرات مجنّحة صغيرة
تلهو متراقصة،
وأحلام وخواطر أصغر حجما،
أكثر حمقا وأكثر خبثا، ـ

محاطا بكما، أنتما

أيتها الفتاتان؛ القطّتان الصامتتان المليئتان أسرارا وألغازا:

دودو وزليخة،

ـ *مستهولا* (*)، كي أشحن حشدا من الأحاسيس

في عبارة واحدة:

(ربّي اغفر لي

هذه الخطيئة اللغوية!)

ـ أجلس هنا مستنشقا أطيب الهواء،

هواءً فردوسيا بحق،

هواء خفيفا مشعّا، مطرّزا بالذهب،

أرقّ وأطيب ما نزل من القمر من هواء

ـ أمحْضَ صدفة كان ذلك؟

أم فعلَ نزق وغرور؟

كما يروي الشعراء القدامى.

لكنني، أنا الشكاك، أضع ذلك موضع الشك،

ـ فأنا قادم من أوروبا المهوسة بالشك

(*) Umsphinxt عبارة ينحتها نيتشه اشتقاقا من Sphinx إحالة لى أبي الهول الذي يطرح ألغازا مبهمة على من يعترض طريقهم. وفضلنا بدورنا وضع عبارة لا توجد في العربية تماشيا مع هذا الاشتقاق الغريب الذي يقوم به نيتشه. وبما أنه طلب مغفرة الرب لنفسه على «هذه الخطيئة اللغوية» فلا شك أن المغفرة ذاتها ستشمل مترجميه أيضا إذا ما تجرّأوا على التحرش مثله بمثل هذه البدع.

أكثر من كل الزوجات المسنّات؛
ليصلح الربّ حالها! آمين!

متشربا للهواء الأكثر نقاءً
بمنخرين منفتحين مثل قدحيْن،
بلا مستقبل، بلا ذكريات،
هكذا أجلس هنا،
أيتها الصديقتان المحبّبتان،
أنظر إلى النخلة
تتمايل مثل راقصة،
تتثنّى وتنحني وتميد بخصرها
ـ يحاكيها المتفرج، إن هو أطال النظر! ـ
مثل راقصة ظلت طويلا، طويلا
في ما يبدو لي، طولا يهدد بالهلاك،
تنتصب على ساق واحدة دوما،
دوما على ساق واحدة؟
ـ وإذا هي تنسى، كما يتراءى لي،
تنسى ساقها الثانية؟
أو أنني على الأقل،
عبثا بحثت طويلا
عن توأم الجوهرة المختفية

ـ أعني تلك الساق الثانية ـ
داخل الدائرة القدسيّة
المحيطة بتنورتها ذات الحواشي المرصعة،
الخافقة الطائرة الهفّافة.
أي نعم، صدّقاني يا صديقتيّ الجميلتين:
لقد أضاعتها حقا!
لقد توارت واختفت!
نهائيا توارت واختفت،
تلك الساق الثانية!
وا حسرتاه على تلك الساق اللطيفة!
ترى في أي مكان تستلقي الآن وهي تندب مصير وحدتها،
تلك المتروكة الوحيدة؟
يقضها الخوف
من أسد شرس متوحّش أصفر
بفروة مجعّدة شقراء؟
أو لعلها الآن ملقاة هناك، مقضومة
مجرّدة من اللحم ـ
مثيرة للشفقة، واحسرتاه! واحسرتاه!
مقضومة، مجرّدة من اللحم! سلاه!

آه، لا تبكيا

أيها القلبان الرقيقان!
لا تبكيا،
قلبا التمر أنتما! وصدرا الحليب!
ثديا رحيق السّوس اللطيفين!
كفّي عن البكاء،
يا دودو الشاحبة!
كوني كما الرجل يا زليخة! تشجعي! تجلّدي!
- أم ترى يلزمنا هنا
شيء منشّط، شراب مقوّ للقلب؟
حكمة بعبارات معسولة؟
كلمة حماسيّة رنّانة؟

هيّا! انهضي أيتها الكرامة!
كرامة الفضيلة! كرامة أوروبيّ!
لتنفخ، ولتنفخ مجددا،
يا منفاخ الفضيلة!
ها!
لتزأر ثانية،
زئيرا أخلاقيا!
أسدا أخلاقانيا
يزأر أمام بنات الصحراء!

ـ ذلك أن عواء الفضيلة،
أيتها الفتاتان المحببتان،
هو، أكثر من أي شيء سواه، مدار
حماسة الأوروبي المتوقدة،
وسعار الأوروبي المتأجج!
وها أنا أقف الآن هنا
أوروبيا،
لا خيار لي في ذلك، ليكن الله في عوني!
آمين!

الصحراء تمتد وتتسع؛ وويل لمن يحمل صحاري في داخله!

البعث[1]

١

على إثر نشيد المسافر الجوّال الذي يلقّب أيضا بالظلّ امتلأ فضاء المغارة صخبا وضحكا؛ ولمّا كان الضيوف المجتمعون يتكلمون جميعهم في آن واحد بما في ذلك الحمار الذي وجد نفسه داخل هذا الجو المشجّع يخرج عن صمته هو أيضا، أحس زرادشت بشيء من الاشمئزاز والهزء من ضيوفه؛ بالرغم من فرحته لمرحهم؛ إذ بدا له ذلك المرح علامة من علامات الشفاء. وهكذا انسحب خارجا ليتكلم إلى حيوانيه.

---

(١) طرحت ترجمة هذا العنوان بعض الإشكالات. فعبارة Erweckung الألمانية تختلف عن Erwachen التي تعني اليقظة أو الصحوة. وقد تشابهت الأمور على المترجمين العرب في هذا الأمر بسبب التشابه والخلط اللذيْن حصلا لدى المترجمين الفرنسيين الذين ترجموا عنهم. فقد ترجم هؤلاء Erweckung بـ réveil في حين أن عبارة éveil هي الأصح. وتستعمل عبارة erwecken في معنى الإيقاظ، وليس اليقظة، في أيوب ٣/ ٨: «ليلعنْه لاعنوا اليوم لإيقاظِ التنّينِ». أيقظ الشيء (الاهتمام، الحواس، مشاعر كراهية. . .) تختلف في العربية عن استيقظ، لأن الأولى مصدرها خارجي والثانية متأتية من لدن المستيقظ نفسه، وهنا يكمن الفرق بين العبارتين في اللغة الألمانية أيضا ـ وكذلك في الفرنسية ـ .

قد ذهب فيليكس فارس إلى عبارة «الانتباه» وقد يكون ترجم عن ترجمة فرنسية استعملت عبارة éveil، وتعني في العربية «إيقاظ» شيء أو أمر ما (أيقظ فضوله، أيقظ شكوكا. . .)=

«أين ذهب أَساهم يا ترى؟ قال متسائلا وقد انقشعت عنه هو أيضا سحابة مزاجه المعكر شيئا ما؛ ـ يبدو أنهم قد نسوا صراخ استغاثتهم هنا عندي!

ـ وإن هم، للأسف، لم ينسوا الصياح مع ذلك. «ثم إن زرادشت أحكم يديه على أذنيه إذ امتزج للتو نهيق الحمار بصفة غريبة بصيحات الفرح التي كانت تتعالى من أفواه أولئك الرجال الراقين.

=كما يمكن أن تعني يقظة أيضاً (مثلا يقظة الأحاسيس) ولا يمكن أن تستعمل في معنى الانتباه إلا في حالات محددة، في صفة حالةٍ مثلا éveillé وحتى في هذه الحالة يفضل استعمال عبارة اليقظة. واستعمل محمد الناجي «تبدد الأوهام»!!! (هكذا تكلم زرادشت، منشورات إفريقيا الشرق ـ المغرب٢٠٠٦) ولا أدري أية أوهام بدت له أنها قد تبددت هنا والحال أن الأمر يتعلق في هذا الفصل بإعادة إحياء طقوس العبادة و«إقامة» ربّ جديد هو الحمار. وعندما تثبتنا في الكلمة الألمانية وجدنا قاموس الأخوين غريم يحيل على مواقع كثيرة من الكتاب المقدس (العهد القديم: التكوين الاصحاح ٣٨/٨، التثنية الاصحاح١٨ /١٨، القضاة الاصحاحين ١٨/٢و ٣/٩، صموئيل الثاني؛الاصحاح ٧/١٢، أيوب الاصحاح ٣/٨، الملوك الأول؛ الاصحاح ١١/ ١٤ و١١/ ٢٣) وفي كل هذه المواقع ترد العبارة كالآتي و«أقام الربّ نسلا»، أقام الرب لهم قضاة، وأقام لسليمان خصما.... وبما أن نيتشه ينهل كثيرا من لغة الأناجيل من جهة، ولأن المشهد الذي يصوره هذا الفصل يتعلق بتنصيب ربّ جديد هو الحمار وإقامة الصلاة لهذا الربّ، فإننا ارتأينا أن نستعمل عبارة «البعث»، إذ يتعلق الأمر هنا ببعث رب للوجود؛ أو إن أردنا أن الجماعة قد أقاموا لهم ربا ـ بلغة الأناجيل ـ أي بعثوا ربا إلى الوجود بعد إعلان موت الله منذ بداية الكتاب. وفي لسان العرب ترد عبارة البعْث في معنى الإيقاظ «وبعَثه من نومه بَعَثا، فانبعث: أيقظه وأهبّه» ثم نجد «وتأويل البعث: إزالة ما كان يحبسه عن التصرّف والانبعاث». ثم: «والبعْث إثارة باركٍ أو قاعدٍ. والبعث أيضا الإحياء من الله للموتى؛ ومنه قوله تعالى: ثم بعثناكم من بعد موتكم: أي أحييناكم». هكذا بدت لن عبارة «البعث» اقرب ما يكون لتأدية المعنى المقصود هنا من عبارة Erweckung الألمانية. لكن هذا الاختيار لم يتم دون تردد وذلك بسبب ما تمارسه عبارة «إحياء» من إغراء هنا أيضا إذ يمكننا أن نقول بأن الجماعة قد أحيوا ديانة ومناسك عبادة وأقاموا صلوات من جديد، كما يرد على لسان زرادشت الذي وقف مندهشا وهي يرقب طقسهم الغريب، في بداية هذا الفصل. نتمنى أن يسعف الحظ قارئا أو مترجما آخر أكثر مما وفقنا إليه هنا.

«إنهم مرحون، قال مخاطبا نفسه من جديد، وقد يكون ذلك على حساب مضيّفهم؛ ولئن تعلموا الضحك عنّي، فليس ضحكي **أنا** هذا الذي تعلموه.

لكن ما أهمية ذلك؟ فهم رجال مسنّون؛ يتماثلون للشفاء على طريقتهم ويضحكون على طريقتهم؛ وقد تعوّدت أذناي على أية حال سماع ما هو أسوأ دون امتعاض أو تأفف.

يوم نصر هو هذا اليوم. **روح الثقل**، عدوّي اللدود القديم ينسحب ويتراجع! ولكم ستكون سعيدة نهاية هذا اليوم الذي بدأ تعيسا وثقيلا!

وإنه فعلا **يريد** أن ينتهي، إذ هو ذا المساء يتقدم؛ ممتطيا صهوة جواده يطل من وراء البحر، ذاك الفارس المقتدر! وكيف يتمايل هذا العائد السعيد فوق سرجه الأرجواني!

من فوقه تلتمع السماء صافية، والعالم يستلقي عميقا من تحت: إنه لمفيد أن يقيم المرء عندي هنا، أيها الغريبون القادمون عليّ!»

هكذا تكلم زرادشت. ومجددا تناهى إليه صخب وضحك الرجال الراقين من المغارة؛ وإذا هو يعود إلى الكلام:

إنهم يعضّون على طُعمي، وطعمي ناجع فعّال؛ كما أنه يبعد عنهم عدوّهم اللدود: روح الثقل. وهاهم الآن يتعلمون كيف يضحكون من أنفسهم؛ تراني لا أسمع حقا ما أسمع؟

غذائي الصلب يفعل مفعوله وكذلك نسغ كلماتي المقوّي؛ والحقّ أقول لكم، إنني لم أغذّهم بنباتات تنتفخ بها البطون! بل بغذاء محاربين، غذاء غزاة: رغبات جديدة أيقظتُ فيهم.

آمال جديدة تسري في سواعدهم وأرجلهم، وقلبهم يتمطط الآن ويتّسع. كلمات جديدة تحضرهم، وعما قريب سيتنفّس عقلهم عبثا مرِحا.

غير أن مثل هذا الغذاء قد لا يصلح للصبية ولا للإناث المولّهات، فتيات وعجائز على حدّ السواء. فلتلك الإناث طرق أخرى تتناسب بصفة أفضل وإقناع أحشائهن؛ ولستُ الطبيب ولا المعلّم المناسب لهنّ.

هو ذا القرف يتنحى عن هؤلاء الرجال الراقين: مرحى! إنه انتصاري. واثقين غدوا في مملكتي، وكل الخجل السخيف ينقشع عنهم وينسحب؛ إنهم يطرحون الآن ما في دواخلهم.

يفرغون قلوبهم؛ يستعيدون لحظات سعيدة؛ يحتفلون ويجترّون: - لقد أصبحوا **معترفين بالجميل**.

وإنّي لأرى في هذا خير علامة أن يغدوا معترفين بالجميل، وعما قريب سيفكرون في إقامة أعياد وسيشيّدون نُصُبا لأفراحهم القديمة.

إنهم **ناقهون!** هكذا خاطب زرادشت قلبه مغتبطا وهو ينظر إلى الخارج؛ لكن هاهما حيواناه يلتصقان به معبّريْن عن إكبارهما لسعادته وصمته.

* * *

٢

غير أنّ أذن زرادشت أصابها الذعر فجأة، إذ هاهي المغارة التي كانت تضج بالصخب والضحكات تزرح الآن بغتة تحت صمت

جنائري؛ وها أنف زرادشت يشتم رائحة دخانٍ معَطر وبخورٍ شبيهة بتلك التي تأتي من احتراق ثمار الصنوبر.

«ما الذي يحدث؟ ماالذي يفعلونه ياترى؟ تساءل زرادشت وتسلل إلى مدخل المغارة حيث غدا بإمكانه أن يشاهد ضيوفه دون أن يروه. لكن يا للعجب العجاب! وأي أمر هذا الذي كان يجري أمام عينيه!

«إنهم غدوا جميعهم **أتقياء** من جديد. إنهم **يصلّون**! لقد جنّوا!» قال زرادشت وهو يتعجب منتهى العجب. وبالفعل كان كل أولئك الرجال الراقين؛ الملكان والبابا العاطل والساحر السيء الصيت والمتسول الطوعي والمسافر الظلّ والرائي العجوز وأقبح الآدميّين، راكعين جميعهم مثل أطفال أو مؤمناتِ العجائز، مبتهلين بالصلوات إلى الحمار. وللتو شرع أقبح الآدميّين يغرغر ويزبد كما لو أن شيئا مما لا يقال يحاول أن يصدر عنه ولا يستطيع، ثم ها هو يفلح أخيرا في النطق بما كان يغرغر به ويزبد، وإذا هو نشيد ديني غريب في مديح الحمار الذي كانت تلف حوله عجاجة من الصلوات والبخور. وهكذا كانت كلمات ذلك النشيد:

«آمين! الثناءَ والمجدَ والحكمةَ والشكرَ والمنّةَ والقوةَ لإلهنا من الأزل إلى أبد الآبدين(١)!

ـ ويجيبه الحمار: إي ـ ها(٢).

---

(١) أنظر، رؤيا يوحنا؛الإصحاح٧/ ١٢: «آمينَ! البركةُ والمجد والحكمة والشكر والكرامة والقدرة والقوّة لإلهنا إلى أبد الآبدين».

(٢) سنجعل ابتداء من هنا إي ـ آ الألمانية التي تعبر عن نهيق الحمار، إي ـ ها لتقريبها من تصويت نهيق الحمار، عوضا عن «نعم».

يحمل أثقالنا وقد اتخذ هيأة الخادم وهو عميق الصبر وأبدا لا يقول لا؛ وإن من يحبّ ربَّه يؤدبه[1].

- ويجيبه الحمار: إي - ها.

صموت لا يتكلم إلا ليكون كلامه دوما نعم للعالم الذي خَلَق[2]؛ وهكذا يثني على خليقته. حكمته في كونه لا يتكلم؛ وهكذا لا يأتي خطأً إلا في ماندر.

- ويجيبه الحمار: إي - ها!

متواضعا يمضي في الدنيا يكاد لا يُرى؛ رمادي هو لون جسده الذي يحجب به فضيلته. وإذ ما كان له عقل فإنه يخفيه؛ لكن الجميع يعتقدون في أذنيه الطويلتين.

- ويجيبه الحمار: إي - ها!

أية حكمة خفية، أن تكون له أذنان طويلتان وعلى الدوام يقول نعم، ولا تسمع منه أبدا كلمة لا! ألم يخلق العالم على صورته؛ أي كأسخف وأغبى ما يكون؟

- ويجيبه الحمار: إي - ها!

---

(١) أنظر رسالة يوحنّا إلى العبرانيين؛ الاصحاح ١٢/ ٥ - ٦: «وقد نسيتم الوعظ الذي يخاطبكم كبنين يا ابني لا تحتقر تأديب الربّ ولا تخُرْ إذا وبّخك. لأن الذي يحبّه الربّ يؤدّبه ويجلد كل ابنٍ يقبلُه». لكن نيتشه يقلب المبدأ الإنجيلي، إذ يصبح المحبّ لربّه هو الذي يؤدّب ربّه. وعلى الربّ الذي جُسّد هنا في صورة الحمار أن يكون صبورا ويتحمل يحمل الأوزار ولا يقول أبدا «لا»، وهو الذي يجيب دوما: نعم، نعم. أنظر البيت الموالي.

(٢) لعل في هذا البيت إشارة إلى استحسان الله لخليقته بعد أن فرغ من خلق العالم كما يرد في سفر التكوين من العهد القديم؛ الاصحاح ١/ ٣١: «ورأى الله كلّ ما عمله فإذا هو حسنٌ جدًّا».

إنك تسلك سبلا مستقيمة وأخرى مواربة ولا يهمك كثيرا ما الذي يتراءى للناس استقامة أو اعوجاجا. في ما وراء الخير والشر تقع مملكتك. وإنما تلك هي براءتك أن لا تعرف ما هي البراءة.

- ويجيبه الحمار: إي - ها!

أنظر كيف إنك لا تردّ أحدا، لا المتسوّلين ولا الملوك؛ تدع الأطفال يأتون إليك[1] وعندما يسعى الصبية الخبثاء إلى غوايتك فإنك تقول بكل بساطة: إي - ها.

- ويجيبه الحمار: إي - ها!

إنك تحب إناث الحمير والتين الطري، ولا أنت بكافر أو من يعاف أكلا، وقلبك يُسرّ بالأشواك عندما تكون جائعا. إن في ذلك لحكمة إلهية.

- ويجيبه الحمار: إي - ها.

(١) متّى: الاصحاح ١٩/ ١٤: «أما يسوع فقال دعوا الأطفال يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السماوات».

عيد الحمار

١

عند هذا الموضع من الإنشاد لم يعد زرادشت يستطيع أن يتمالك نفسه وإذا هو ينهق بدوره: إي ـ ها وبصوت أعلى من صوت الحمار، ثم يقفز وسط ضيوفه الذين طار بهم الجنون الآن. «ما هذا الذي تفعلونه هنا يا بني الإنسان؟ صاح فيهم وهو يقتلعهم من وضع الركوع الذي كانوا عليه. الويل لكم لو أنّ أحدا آخر غير زرادشت يراكم الآن!

إن أيّ إنسان سيظن أنكم أكبر الكفرة أو أكثر العجائز خرَفا وحمقا بعقيدتكم الجديدة هذه!

وأنت أيها البابا، كيف تسمح لك نفسك بأن تصلي وتبتهل لهذه الصورة صلاتَك لإله، والحال أنه حمار؟».

«أي زرادشت، أجابه البابا، إنه لأفضل أن يُعبَد الله في هذه الصورة من أن لا تكون هناك أية صورة! تفكّرْ في هذه المقولة يا صديقي الجليل، وستدرك بسرعة أن الحكمة كل الحكمة تكمن في هذه المقولة.

إن ذلك الذي قال إن «الله روح»، قد أنجز الخطوة الكبرى

والقفزة الأبعد باتجاه الكفر: وإنها لمقولة يصعب جبر ما أحدثته من كسور في هذه الدنيا!

إن قلبي ليقفز وينط فرحا إذ ما يزال هناك شيء يُعبد فوق هذه الأرض. لتغفر يا زرادشت لقلب بابّا عجوز تقيّ!»

ـ «وأنت! قال زرادشت مخاطبا المسافر الظل، ألست من يتصور نفسه ويدعو نفسه بالعقل الحر؟ وتمارس هنا مثل هذه العبادات الوثنية والحركات التي تحاكي عبادة الأصنام وشعائر السخف؟

إنك تتصرف هنا بأسوأ مما كنت تفعل بين سمراواتك السيئات أيها المؤمن الجديد الشنيع!»

«أمر سيء بما فيه الكفاية؛ معك حق يازرادشت، لكن ما ذنبي أنا؟ فالإله القديم عاد إلى الحياة مجددا يا زرادشت، ولتقل ما تريد.

إن أقبح الآدميين هو المسؤول عن كل هذا؛ فهو الذي بعثه من جديد. ولئن قال بأنه هو الذي قتله في ما مضى، فإن **الموت** بالنسبة للآلهة مجرد فكرة مسبقة، ليس إلاّ».

ـ وأنت أيها الساحر العجوز الشنيع، ما هذا الذي كنت تفعله؟ ومن تُراه سيؤمن بك بعد الآن في هذا الزمن الحر، إن كنت تؤمن بمثل هذه الألوهيّات الحميريّة؟

سخفٌ هذا الذي كنت تفعله؛ فكيف تسمح لنفسك، أنت الرجل الماكر الداهية، بمثل هذه السخافة[١]!

---

(١) وردت هذه الجمل الأخيرة بتنويعات عديدة في مواقع مختلفة من كنشات نيتشه إلى أن انتهت إلى هذه الصياغة الأخيرة داخل هذا الفصل. نجد في كنشات صائفة خريف=

«أي زرادشت، أجاب الساحر العجوز الماكر، معك حق، كان ذلك سخافة حقا؛ ـ وإن ذلك ليثقل على قلبي الآن بما فيه الكفاية».

وأنت يارجل التدقيق والتمحيص العقلي على وجه الخصوص، تَفكّرْ، وضعْ إصبعك على أنفك[1]! ألا تجد شيئا مما يستثير ضميرك في كل هذا؟ أليست روحك أكثر نقاء من أن ترضى بمثل هذه العبادة وبأبخرة العوانس؟».

هناك شيء ما في هذا. قال رجل التدقيق والتمحيص وهو يضع إصبعه على أنفه. بل هناك شيء ما في هذه المسرحية يرتاح له ضميري.

ولعله لا يحق لي أن أؤمن بالله، لكنّه من المؤكد أن الله على هذه الصورة يبدو لي أكثر مصداقية.

إن الله دائم الوجود حسب ما جاء في شهادات الأتقياء؛ ومن كان لديه متسع من الوقت يتمهل ولا يستعجل أمره. إنه يمضي بأكثر ما يمكن من البطء ومن السخافة؛ **وعلى هذا النحو** يستطيع مثل ذلك الكائن أن يحقق أبعد النجاحات.

=١٨٨٢؛ الشذرة رقم ٢[٤]: «كيف تخول لك نفسك بمثل هذا السلوك؟ قال أحد الأصدقاء لرجل ذكي ماكر؛ إن هذا لحماقة! ـ «أجل، إن هذا ليثقل على قلبي بما فيه الكفاية أنا أيضاً، أجابه ذلك الرجل». ثم نجد في كنشات شتاء ١٨٨٥/ ٨٥؛ الشذرة ٣١ [٥٢] أن الحيّة التي كانت تخاطب زرادشت هكذا: «لكن، كيف تسمح لنفسك بهذا السلوك يا زرادشت وأنت الحكيم الماكر! إن ذلك لحماقة! قالت له الحية. ـ أجل، لقد غدا هذا الأمر يثقل على قلبي بما فيه الكفاية».

(١) عبارة «ضع إصبعك على أنفك» تعني في التداول الألماني: راجع نفسك، وحاسب نفسك، واعترف بخطئك.

ومن كان له فائض من عقل يستهويه الولع بالحمق والسخافات. لتفكّر في نفسك قليلا يا زرادشت!

أنت نفسك، ـ حقّا، أنت أيضا يمكنك لفيض ثرائك وحكمتك أن تتحول إلى حمار.

ألا يحبذ الحكيم مكتملُ الحكمةِ المضيّ طوعا على أكثر الدروب اعوجاجا؟ وإن ما يمنح نفسه للعيان لدليل على ذلك، أي زرادشت ـ ما يمنح نفسه للعيان من شخصك!».

ـ «وأنت أيضا، قال زرادشت وهو يلتفت إلى أقبح الآدميين وهو ما زال منطرحا على الأرض رافعا يده باتجاه الحمار (وكان يقدم له نبيذا يريد أن يسقيه إياه). تكلم أيها الذي لا يسمّى. ما هذا الذي فعلت؟

متبدّلا تبدو لي؛ عينك مشعّة وعلى قبحك ينسدل الآن معطف السموّ؛ ماذا فعلت إذًا؟

أصحيح ما يقوله هؤلاء من أنك قد بعثته للحياة من جديد؟ ولأي غرض؟ ألدونما سبب وجيه قُتل قبلها وأُبيدَ؟

إنك تبدو لي منبعثا من جديد أنت أيضا؛ فماذا فعلت؟ أية ردة حدثت لديك؟ وما الذي ردّك إلى الإيمان؟ تكلم إذًا أيها الذي لا إسم له!».

«أي زرادشت، إنك حقًّا دجّال! أجابه أقبح الآدميين.

إن كان ذاك الذي تتكلم عنه ما يزال حيا، أو عائدا إلى الحياة، أو ميتا دون رجعة؛ من منا نحن الإثنين أعلم بذلك وأدرى؟ هكذا أسألك.

لكنّ هناك أمرا أعرفه، وقد تعلمت ذلك منك يا زرادشت: من يريد أن يقتل قتلا جذريا لا بد أن **يضحك**.

«ليس بالغضب يقتُل المرء، بل بالضحك» ـ هكذا قلتَ في ما مضى. أي زرادشت، أيها المتستّر، المدمّر دون غضب، أيها القدّيس الخطير، ـ إنّك دجّال!»

٢

لكن هو ذا زرادشت، مندهشا أمام مثل هذه الأجوبة الماكرة، يقفز متراجعا نحو باب مغارته، ثم يصرخ بكل قوة في وجه ضيوفه:

«أيها المهرّجون العابثون جميعكم والماكرون! لِم تتظاهرون وتتستّرون على حقيقتكم أمامي؟

لكم تخفق قلوبكم وتضطرب فرَحا وخبثا لكونكم عدتم بالنهاية مثل الأطفال؛ أي أتقياء ورعين، ـ

ـ لكونكم أصبحتم مجددا تفعلون ما يفعله الأطفال؛ صلّيتم وبسطتم أكفّكم وناديتم «إلهنا، ربنا العزيز»!

أما الآن فلتتركوا بيت الأطفال **هذا**، مغارتي التي غدت اليوم مأوى لكل الصبيانيات.

ولتخرجوا لتبريد كل حماستكم الصبيانية وكل صخب قلوبكم بعيدا هناك!

وبالفعل إنكم لن تلجوا ملكوت السماء مالم تعودوا صبية[(١)] (وكان زرادشت يشير بإصبعه إلى الأعلى).

لكننا لا نريد البتة أن نلج ملكوت السماء: رجالا صرنا، ـ وهكذا فنحن نريد **مملكة الأرض**».

---

(١) متّى؛ الاصحاح ١٨/ ٣: «الحقّ أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات».

٣

ومرة أخرى شرع زرادشت في الكلام قائلا: «أي أصدقائي الجدد؛ أنتم أيها الرائعون، لكم أنا معجب بكم الآن أيها الرجال الراقون،

منذ أن عاودكم مرحكم! إنكم حقا مشعّون بهجة؛ وإنه ليبدو لي أن مثل هذه الأزهار تستوجب إقامة **أعياد جديدة**،

حماقةً صغيرة جريئة، قدّاسا ما أو عيد حمار، مهرّجا ما مرِحا عجوزا يدعى زرادشت، ريحا عاصفة تكنس الكدر عن أرواحكم.

لا تنسوا هذه الليلة ولا عيد الحمار أيها الرجال الراقون! لقد ابتدعتم هذا الأمر هنا عندي، وإنني لأعتبر ذلك علامة حسنة وطالع خير، ـ فمثل هذه الأشياء لا يبتدعها سوى نقيه مقبل على الشفاء!

وإذا ما أعدتم إقامة هذا العيد ثانية فلتفعلوا ذلك من أجل أنفسكم، ولتفعلوه من أجلي، ومن أجل **ذكراي**!»[(١)]

هكذا تكلم زرادشت.

---

(١) أنظر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس؛ الاصحاح١١/٢٣ ـ ٢٤: «. . .إنّ الربّ يسوع في هذه الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسّر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسورُ لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري».

نشيد التهوام الليلي[1]

١

في هذه الأثناء كان الجماعة قد تسللوا الواحد تلو الآخر خارج المغارة إلى الهواء الطلق والليل الطريّ الحالم؛ وكان زرادشت نفسه يقود أقبح الآدميين ممسكا بيده ليريه مشهد الليل والقمر الكبير المستدير والشلالات الفضية من حول مغارته. ثم ها هم يقفون أخيرا هناك جميعهم معا صامتين؛ كوكبة من الرجال المسنّين لكن بقلوب مفعمة سلوانا وشجاعة، مندهشين في أعماقهم لشعورهم بالغبطة فوق هذه الأرض، لكن حميمية الليل كانت تنسرب رويدا رويدا إلى دواخلهم. ومجددا رأى زرادشت نفسه يفكر في ما بينه وبين نفسه: «لكم يعجبني هؤلاء الرجال الراقون الآن!» ـ لكنه كتم ذلك ولم ينطق به أمامهم، ذلك أنه كان يحترم سعادتهم وصمتهم.

لكن ها قد حدث الأمر الأكثر مفاجأة في ذلك اليوم المليء بالمفاجآت؛ فقد شرع أقبح الآدميّين مجددا في الغرغرة والهدير،

---

(١) يرد هذا الفصل بعنوان «نشيد السكران/ النشوان» في بعض النسخ، لكن كوللي ومونتيناري يثبتان العنوان الأصلي في الطبعة الدراسية النقدية (KSA)

وعندما أفلح بالأخير في النطق بما كان يغرغر به ويزبد، هو ذا سؤال صقيل وواضح يندلف من فمه، سؤال صاف عميق ومصيب هزّ قلوب كل الذين كانوا يستمعون إليه.

«أي أصدقائي جميعا، مارأيكم؟ من أجل هذا اليوم أرى نفسي لأول مرة سعيدا بأن عشت كل هذه الحياة.

وإن مجرد الشهادة بذلك الآن يبدو لي أمرا غير كاف. إن الحياة فوق هذه الأرض أمر جدير بالعناء: يوم واحد، حفل واحد مع زرادشت علّمني كيف أحبّ هذه الأرض.

«هل كانت **تلك** هي الحياة؟» أريد أن أسأل الموت. «ليكن! ولنعد الكرة إذًا!»[1].

ما رأيكم يا أصدقائي؟ ألا تريدون أن تخاطبوا الموت مثلي: «هل كانت **تلك** ـ هي الحياة؟» ليكن! ولنعد الكرة إذًا، من أجل زرادشت!».

هكذا تكلم أقبح اللآدميّين، ولم تكن تفصل الناس عن منتصف الليل سوى لحظات. وأي شيء حدث عندها حسب رأيكم؟ لمجرد أن استمع الرجال الراقون إلى سؤاله غدوا فجأة على وعي بالتحول الذي طرأ عليهم وبتماثلهم للشفاء، وبمن كان سببا في ذلك: عندها قفزوا جميعهم نحو زرادشت شاكرين مكْبرين متمسّحين يقبّلون يديه كلّ على طريقته؛ فمنهم من كان يضحك ومنهم من كان يبكي، أما العراف العجوز فكان يرقص من شدة الطرب. ولئن كان عندها ممتلئا

(١) أنظر فصل «الرؤيا واللغز» من الكتاب الثالث: الجملة ما قبل الأخيرة من الفقرة ١.

نبيذا حلوا حسب ما يدّعي بعض الرواة[1]، فإنه كان دون شك ممتلئا أكثر بحلاوة الحياة وقد دفع عنه كل تعبٍ. وهنالك حتى من يذهب إلى القول بأن الحمار قد يكون رقص هو الآخر في تلك الليلة؛ إذ لم يكن عبثا أن سقاه أقبح الآدميين خمرة قبل حين[2]. وعلى أية حال فأيًّا كان سلوك الحمار عندها، وحتى لو افترضنا أنه لم يرقص في الحقيقة، فقد حدثت مع ذلك أشياء نادرة في تلك الليلة وأكثر غرابة وعجبا من رقصة حمار. وباختصار، وكما يقول مَثل زرادشت: «أية أهمية في ذلك؟»

٢

لكن زرادشت، وهو يرى ما كان يحدث لأقبح الآدميين، ظل متسمرا في مكانه مثل سكران؛ عيناه منطفئتان ولسانه معقود ورجلاه مترنّحتان. ومن له أن يحزر أية خواطر كانت تعبر روحه لحظتها؟ غير أنه كان واضحا أن عقله قد فارقه لحظتها وراح يحلق في أصقاع نائية كما لو كان يهيم «فوق مرتفع بين بحرين» حسب ما ورد سابقا[3]؛

«مثل سحابة ثقيلة متنقلة بين ما مضى وما هو آت». لكن، وبينما

---

(١) إشارة إلى كتاب **العهد الجديد** ـ أعمال الرسل؛ الاصحاح٢/ ١٣: «وكان آخرون يستهزئون قائلين إنهم قد امتلآوا سُلافة». مع الإشارة إلى أن العبارة في الإنجيل المترجم إلى الألمانية (لوثر) ترد هكذا: «قد امتلأوا نبيذا حلوًا».

(٢) يلاحظ كارل لوفيث في «نيتشه فيلسوف العود الأبدي للشيء نفسه» أن هذه الصورة الساخرة لحمار إله ثمل يمكن أن تؤول في اتجاهين: أ ـ بمعنى الإله الديونوزي الثمل. ب ـ بالمعنى المسيحي ليسوع المنبعث من الموت، وهو القائل لتلامذته في عشاء الوداع: «وأقول لكم إنّي من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا في ملكوت أبي». ـ متّى ٢٦/ ٢٩.

(٣) فصل «الأختام السبعة (أو نشيد نعم وآمين)» زرادشت الثالث.

كان الرجال الراقون يضمونه ويحتضنونه، راح يستعيد وعيه رويدا رويدا، ويدفع عنه أولئك الرجال المتكالبين عليه إجلالا وانشغالا؛ لكنه لم ينطق بكلمة مع ذلك. وفجأة أدار رأسه بسرعة، وكان يبدو كما لو أن صوتا ما قد تناهى إلى مسامعه: وعندها وضع سبابته على شفتيه وقال: «**تعالوا!**»

وفي الحين كان صمتٌ من حولهم وسكونٌ غامض؛ لكنْ شيئا فشيئا صعد من قاع الوادي رنين جرس يُقرع. راح زرادشت يصغي بانتباه وكذلك الرجال الراقون من حوله، ثم هو ذا يضع سبابته على شفتيه مجددا ويقول ثانية: «**تعالوا! تعالوا! إن ساعة منتصف الليل على وشك الحلول!**» وكان صوته قد تغيّر. إلا أنه ظل متسمرا لا يتحرك من مكانه: ثم غدا كل شيء أكثر صمتا وغموضا، وكل شيء يصغي في سكون بما في ذلك الحمار والنسر والحية: حيوانا الشعار الشرفي لزرادشت، وكذلك مغارة زرادشت والقمر الكبير الساكن، والليل نفسه. لكن ها هو زرادشت يضع إصبعه للمرة الثالثة على شفتيه ويقول:

«**تعالوا! تعالوا! تعالوا! دعونا نهيم الآن! لقد حلّت الساعة: دعونا نهيم في الليل!**».

٣

أيها الرجال الراقون، ساعة منتصف الليل موشكة على الحلول،
وإنني أريد أن أهمس لكم بشيء كما همس لي الجرسُ العتيق بذلك،

سأهمس لكم بنفس السرّ والحميمية، بنفس الفظاعة وبنفس الودّ الذي كلمني به جرس منتصف الليل، ذلك الذي عاش وخبر أكثر من أيّ إنسان:

ذلك الذي عدّ كل نبضات الألم في قلوب آبائكم ـ آه، آه، كيف يتنهّد! وكيف يضحك في حلمه، منتصف الليل العميق، العميق العتيق!

سكونا! سكونا! هي ذي أشياء تُسمع الآن، أشياء لا يمكن أن ترفع صوتها في النهار؛ بل الآن فقط داخل الهواء الطريّ حيث كل شيء بما في ذلك نبض قلوبكم قد غدا صامتا ساكنا،

الآن تتكلم تلك الأشياء، والآن تُسمِع صوتها، وتتسلل إلى الأرواح الليلية اليقظة: آه، آه، كيف تتنهد! وكيف تضحك في حلم منامها!

ـ ألا تسمع كيف تتكلم إليك بسر وحميمية، بفظاعة وبودّ، ساعة منتصف الليل العميقة، العميقة العتيقة؟

انتبهْ أيها الإنسان!

٤

ويحي! إلى أين مضى الزمن وتوارى؟ ألم أقع داخل بئر عميقة؟ نائم هو العالم الآن ـ

أواه، أواه! الكلب يعوي، والقمر ساطع. وإنه لأحبّ إليّ أن أموت؛ أن أموت أحبّ إليّ من أن أفاتحكم بما يختلج في قلبي الليلي الآن من أفكار.

بل إنني قد متّ فعلا، وانقضى كل شيء. أيها العنكبوت ماذا تراك تنسج من حولي؟ أتريد دمًا؟ آه، آه! هو ذا الندى يتساقط، والساعة قادمة ـ

الساعة التي يقضّني فيها البرد والرعدة، وهي تسأل وتسأل وتسأل: «من له ما يكفي من الشجاعة لهذا الأمر؟

ـ من سيكون سيدا على الأرض؟ من سيكون له أن يقول: هكذا ينبغي لك أن تجري أيتها السيول الكبيرة والصغيرة!»

ـ الساعة موشكة: انتبه أيها الإنسان، أنت أيها الإنسان الراقي! إنه حديث للأذن المرهفة، لأذنك أنت؛

ـ بماذا تحدّث ساعة منتصف الليل؟

٥

منتش أحلّق طائرا، وروحي راقصة. عملَ يومي! يا عملَ يومي! من سيكون سيّدا على الأرض؟

القمر بارد، والريح صامتة. أواه! أواه! هل ارتفعتم عاليا في طيرانكم؟ لقد رقصتم؛ لكنّ القدَم ليست جناحا.

انتهت كل متعة أيها الراقصون البارعون، الخَمرة غدت خميرا والأقداح قد تثلّمت والقبور تُلجلج.

لمْ تطيروا عاليا بما فيه الكفاية، والآن هي ذي القبور تلجلج: «خلّصوا الأموات! لِم طال هذا الليل؟ ألا يُسكرنا القمر؟»

خلّصوا القبور إذًا أيها الرجال الراقون وأيقظوا رفات الأموات! أواه ما للدود لا يتوقّف عن النبش؟ إن الساعة تقترب وتقترب،

الجرس يدمدم، والقلب ما يزال يَصِرّ، وسوس الخشب يقضم؛ سوس القلب. أواه! أواه! **إن العالم عميق!**

٦

أيتها القيثارة العذبة! أيتها القيثارة العذبة! أحبّ نغمتك، نغمتك التي تحاكي صوت الضفدع السكران! - من أي زمن بعيد، ومن أية أصقاع نائية تأتيني نغمتك؛ من غدران المحبّة البعيدة!

أيها الجرس العتيق، أيتها القيثارة العذبة! لقد مزّقتْ قلبك كل الأوجاع: آلام الآباء، وآلام الأجداد وآلام الأسلاف القدامى؛ ناضجةً غدت كلمتك،

- ناضجة نضجَ عشياتِ وفصولِ خريفٍ ذهبيّة، ناضجةً مثل قلب المتوحّد الذي أحمله بين أضلعي - والآن ها أنت تتكلّمين: العالم نفسه قد بلغ النضج، والعنب تخضّبت بالسمرة،

- والآن هو ذا يريد أن يموت، أن يموت بسعادته. ألا تشتمّون ذلك أيها الرجال الراقون؟ ثمّة رائحة تتصاعد خفْية في الأرجاء،

- عطرٌ ورائحةُ أبديّةٍ؛ رائحة خمرة ذهبية بغبطة الورود، رائحة سعادة عتيقة،

سعادةٌ موتٍ ساعة انتصاف الليل، سعادة سكرى تغني:

إن العالم عميق، **وأعمق مما ظنّ النهار**.

٧

دعني! دعني! إنني أنقى من أن تمسّني يداك! ألم يغد عالمي مكتملا قبل حين؟

جلدتي أنقى من أن تمسّها يداك! دعني إذًا أيها النهار المداريّ الرطب الخانق السخيف! أوليست ساعة منتصف الليل أكثر إشراقا وصفاءً؟

الرجال الأكثر نقاوة هم الذين ينبغي لهم أن يكونوا سادة على الأرض، أولئك النكرات المعمورون والأكثر قوة، أرواح منتصف الليل الأكثر صفاء وأكثر عمقا من أيّ نهار.

أتتلمّس آثاري أيها النهار؟ وتسعى لملامسة سعادتي؟ أثريٌّ أنا في نظرك؟ وحيدٌ، كنزٌ مغمورٌ ومستودعُ ذهب؟

أوتريدني أيها العالم؟ أدنيويٌّ أنا؟ روحانيٌّ أنا في نظرك؟ قدسيّ؟ لكنكما ثقيلان، أيها النهار وأنت أيها العالم،

لتكن لكما يدان أكثر شطارة، ولتتوقا إلى ملامسة سعادة أعمق، وشقاء أعمق، لتنشدا أيَّ إله، ولتدعا السعي إلى ملامستي أنا:

سعادتي، مثل شقائي، عميقة أيها النهار العجيب، لكنني لست إلها مع ذلك، ولا أنا بكهف إله: **عميق هو وجع شقائي وسعادتي**.

٨

ألم الإله أعمق أيها العالم العجيب! لتسْع إلى ملامسة ألم الإله إذًا، ولتدعْني أنا! فأي شيء أنا بالنهاية؟ قيثارة عذبة سكرى،

قيثارة منتصف الليل، دندنة جرس لا يفهمه أحد، وعليه أن يتحدث مع ذلك - أمام صُمّ، ذلك أنكم لا تفهمونني أيها الناس الراقون!

وداعا! وداعا! أيها الشباب! أيتها الظهيرة! أيتها العشيّة! والآن قد حلّ المساء والليل ومنتصف الليل، الكلب - الريح يعوي:

أليست الريح كلبا؟ إنها تئنّ، تنبح، تعوي. أواه! أواه! كيف تتنهّد! وكيف تضحك! وأي هرير تهرّ، وأيّ لهاث تلهث ساعةُ منتصف الليل!

بأيّ بيان تتحدث هذه الشاعرة السكرى الآن! تراها أغرقت في الشراب سكرتها؟ هل غدت أكثر صحوا من الصحو؟ تراها تجتر؟

ـ ساعةُ منتصف الليل العميقة العتيقة تجتر في الحلم وجعها، وأكثر منه غبطتها. ولئن كان الوجع عميقا، **فالغبطة أعمق من معاناة القلب**.

٩

أيتها الكرمة! لِم تمتدحينني أيتها الكرمة؟ ألم أقطعْك؟ قاس أنا وأنت تنزفين؛ ما الذي يريده مديحك من قسوتي السكرى إذًا؟

«كل ما غدا مكتملا، وكل ناضج يريد أن يموت!» هكذا تكلمتِ؛ مبارك، مبارك هو مقص الكرّام[1]! لكن كل ما لم يبلغ النضج يريد أن يحيا: الويل!

«مرّ واندثر!، يقول الألم، مرّ واندثر أيها الوجع!» لكن كل ما يتألم يريد الحياة، أن يصبح ناضجا وممتلئا رغبة واشتياقا،

ـ ممتلئا شوقا إلى البعيد والمرتفع والمضيء. «أريد وَرَثَة»، هكذا يتكلم كل ما يتألم، «أريد أولادا؛ لا أريد **نفسي**».

لكن الغبطة لا تريد ورَثَةً أو ولدا، بل نفسَها تريد؛ تريد الخلود، تريد العوْد، وتريد كل شيء ـ على ما هو عليه ـ إلى الأبد.

الألم يقول: «تحطم، انزف أيها القلب! تنقلي أيتها القدم! وطرْ أيها الجناح! وامض عاليا وأعلى، أيها الألم! مضيّا! إلى الأمام يا قلبي العجوز: «**مر واندثرّ يقول الألم!**».

---

(١) أنظر فصل «عن الشوق الأعظم»: «أن تنثري في دفق من الدموع وجع فيضك ووجع الكرمة يهصرها الشوق إلى الكرّام ومقص الكرّام!».

١٠

كيف ترونني أيها الرجال الراقون؟ أراءٍ أنا؟ واحد سكران؟ حالم؟ جرس ساعة منتصف الليل؟

قطرة ندى؟ بخار وعطر خلود؟ ألا تسمعون؟ ألا تشتمّون؟ لقد بلغ عالمي الاكتمال الآن، ومنتصف الليل هو الظهيرة أيضا، ـ

الألم غبطة أيضا، واللعنة بركة، والليل هو أيضا شمس، ـ لتنصرفوا عني إذًا لئلا تتعلّموا أن الحكيم مهرّج أحمق أيضا.

هل قلتم مرة نعم للغبطة؟ أي أصدقائي فقد قلتم إذًا نعم **لكل** الآلام أيضا. إذ الأشياء جميعا مترابطة متداخلة متعاشقة.

أأردتم في يوم ما أن تكون المرة الواحدة مرتين، أقلتم ذات مرة «إنك تعجبينني أيتها السعادة! أيتها اللحظة!

كل الأشياء، مجددا وإلى الأبد، مترابطةً متداخلةً متعاشقةً؛ هكذا كنتم تحبون العالم،

حبا خالدا أبديا أحببتموه أيها الخالدون؛ وللألم أيضا قلتم: مرّ، لكن لتعد ثانية! **ذلك أن كل غبطة تريد الخلود!**

١١

كل غبطة تريد الأشياء جميعها خالدة، تريد عسلا وتريد خميرة، وتريد ساعة منتصف ليل سكرى، تريد قبورا، تريد دموع مواساة على القبور، وتريد شفقا ملتهبا بلون الذهب؛

أيَّ شيء لا تريد الغبطة؟! عطشى هي، أكثر عطشا وأكثر حنانا، أكثر جوعا، أكثر فظاعة وأكثر حميمية من كل ألم؛ تريد ذاتها، تعض على نفسها، وفي داخلها تضطرب إرادة دائرة العود،

تريد حبًّا، وتريد كراهية، وهي ثريّة تهِب، تبدّد، تتوسل أحدا يتناولها، تشكر المتناول، وتودّ أن تُبغَض،

ثريّة هي بما فيه الكفاية كي تتعطش إلى الألم، إلى الجحيم، إلى الكراهية، إلى العار وإلى الإعاقة[1]، إلى **الدنيا**، ـ وإنكم لعلى معرفة بهذه الدنيا!

أيها الرجال الراقون، إليكم تحنّ الغبطة، تلك الجامحة السعيدة؛ إلى آلامكم أيها الفاشلون، إلى ما هو فاشل تحن كل غبطة خالدة.

ذلك أن كل غبطة تريد نفسها، لذلك هي تحب آلام القلب أيضا! أيتها السعادة! أيها الألم! لتتمزق أيها القلب[2]! ولتتعلموا ذلك أيها الرجال الراقون: إن الغبطة تريد الخلود.

خلودا لكل الأشياء تريد الغبطة؛ **تريد خلودا عميقا، عميقا تريد!**

١٢

هل تعلمتم الآن نشيدي؟ هل حزرتم ما الذي يبتغيه؟ مضيّا إذًا! إلى الأمام أيها الرجال الراقون! ولتغنوا معي أغنية رقصة الحلقة!

---

(١) قارن مع سلوك الملاماتيّة من المتصوّفة.

(٢) جمع المتناقضات واحتضان الحياة بكل جوانبها المتقابلة من أسس الفلسفة الأبيقورية لنيتشه: فلسفة الاستجابة الإثباتية الحق. لا استجابة «نعم» الحمار، ولا العدمية والتشاؤم والتفجع الرومنطيقي الذي ينتقده بشدة كما ألمحنا لذلك في الهامش رقم ٣٠١. من هنا هذا الترابط والتداخل بين المتناقضات الذي يمثل في الحقيقة النسيج الطبيعي للحياة. يضيف كوللي ومونتناري في التعليقات هذه الجملة المتممة التي حذفها نيتشه في ما بعد: «إلى الأقبح يهفو الجميل، وإلى أكبر الشرور يهفو الخيّر، والذي خلق أكثر العوالم غباء كان بالتأكيد أكبر الحكماء: فالغبطة هي التي استمالته ودفعت به إلى ذلك. الغبطة تدفع إلى كل ضروب الحماقات؛ هي التي تدفع الله إلى التحول إلى خليقة، والحيوان إلى إنسان؛ والغبطة هي التي تدفع باللذة للتحول إلى ألم.

ولتغنوا بأنفسكم تلك الأغنية التي تُدعى «مرة أخرى!»، والتي تعني «إلى أبد الآبدين»، لتغنوا أغنية زرادشت الراقصة رقصة الحلقة أيها الرجال الراقون!

انتبه أيها الإنسان!

بم يحدّث منتصف الليل العميق؟

«لقد نمت، لقد نمت،

من حلم عميق أفقت:

عميق هو العالم،

وأعمق مما كان يظنّ النهار

عميق ألمُه،

والغبطة أعمق من آلام القلب:

مرّ واندثرْ! يقول الألم.

لكنّ كل غبطة تريد الخلود،

ـ خلودا عميقا، عميقا تريد!».

العلامة

في صبيحة اليوم الموالي لهذه الليلة قفز زرادشت من مخدعه وشد حزامه[1] ثم خرج من مغارته متوهّجا قويا مثل شمس الصباح الطالعة من وراء الجبال القاتمة.

«أيها الكوكب العظيم! هكذا خاطب الشمس كما سبق أن خاطبها في ما مضى، «أية سعادة ستكون لك أيها الكوكب العظيم لو لم يكن لديك هؤلاء الذين تضيؤهم بنورك، يا عين السعادة العميقة!»[2].

ولكم ستستاء وتثور ثائرة حيائك الأبيّ، لو أن هؤلاء ظلوا منحبسين داخل غرفهم بينما أنت المستيقظ تأتي لتهب وتنثر وتوزّع!

هيّا إذًا! إنهم ما زالوا نائمين أولئك الرجال الراقون، بينما أنا صاح: كلا، ليسوا رفاقي الحقيقيين! وليس هؤلاء من أنتظر هنا فوق جبلي.

إلى عملي أريد أن أمضي وإلى نهاري؛ لكنهم لا يفقهون علامات نهاري، وخطوتي ليست منبّه الصحو بالنسبة لهم.

ما زالوا نائمين داخل مغارتي وحلمهم مازال يقضم ويجتر منتصف

---

(١) صورة إنجيليّة. أنظر الملوك الأول (العهد القديم)؛ الاصحاح ١٨/٤٦: «وكانت يد الربّ على إيليّا فشدّ حَقْويْه وركض أمام أخْآبَ حتى جاء إلى يزْرعيل».

(٢) أنظر بداية الكتاب: «ديباجة زرادشت».

ليلي. لكن الأذن التي تصغي إليّ؛ الأذن **المطيعة**، ـ ذاك هو ما يفتقرون إليه».

ـ بهذه الكلمات خاطب زرادشت قلبه عندما أشرقت الشمس من وراء الجبال؛ وعندها تطلّع إلى السماء باحثا بعينيه، إذ سمع النداء الحاد لنسره فوق رأسه. «هيّا! صاح زرادشت باتجاه الصوت، إن هذا هو ما يروقني ويلائمني؛ حيوانيّ صاحيان وأنا صاح.

نسري صاحٍ، ومثلي أنا يسبّح بآيات الإجلال للشمس. بمخالب نسر يحاول أنٍ يقبض على النور الجديد. أنتما حيواناي الحقيقيان؛ إنني أحبكما.

لكن ما زال ينقصني رجالي الحقيقيّون!».

هكذا تكلم زرادشت؛ وفجأة، ها قد حدث شيء جعله يشعر كما لو أنه غدا محاطا بما لا يحصى من الطيور الحائمة فوقه وحول رأسه، ـ لكنّ حفيف ذلك العدد الهائل من الأجنحة وذلك الزحام الذي كان يضطرب حول رأسه جعله يغمض عينيه. وحقا كان هناك ما يشبه سحابة قد هبطت عليه فجأة، سحابة شبيهة بعدد لا يحصى من النبال التي يقذف بها عدو جديد. غير أنها كانت سحابة محبّة تنهال على رأس صديق جديد.

«ما الذي حدث لي؟» قال زرادشت مخاطبا قلبه المغمور بالدهشة، ثم دعا جسمه يهبط ببطء ليتخذ له مقعدا على الصخرة الكبيرة التي بالقرب من مدخل مغارته. وبينما كان يحرك يديه في كل الاتجاهات من حوله ومن فوقه وتحته محاولا الاحتماء من كوكبة الطيور المتهافتة عليه بوداعة وتحنان، ها قد حدث أمر آخر أكثر غرابة؛ فقد وقعت يده فجأة ودون إرادة منه داخل لُبدة كثيفة دافئة، وفي اللحظة نفسها ارتفع من أمامه زئير أسد؛ لكنه كان زئيرا خفيفا مسترسلا ناعما.

«**هي ذي العلامة قادمة**»، قال زرادشت وقد تغيّر قلبه. وعندما اتضحت الرؤيا أمام عينيه وجد حيوانا أصفر هائلا رابضا أمام قدميه وقد أسند رأسه إلى ركبتيه لا يريد الانفصال عنه ولهًا ومحبةً، مثل كلب قد عثر من جديد على سيّده القديم. ولم تكن طيور الحمام أقل حماسة من الأسد في إظهار محبتها، وفي كل مرة يلامس جناح إحداها خطم الأسد كان يهزّ برأسه متعجبا وهو يبتسم.

أمام هذا كله لم ينطق زرادشت بغير هذه الكلمات: «**أبنائي، إن أبنائي يقتربون**»، ثم ابتلعه الصمت من جديد. لكن قلبه قد تخلص من كدره الآن، ومن عينيه كان سيل من الدموع ينهمر ويتساقط فوق يديه، وقد ذهل عن كل شيء من حوله فظل جالسا هناك ساكنا لا يتحرك، ولم يعد حتى ليدفع عنه تلك الحيوانات. وكانت الحمائم تحوم من حوله، تقع على كتفيه وتداعب شعره الأبيض ولا تكل من الملامسات الرقيقة ومداعبات المرح. أما الأسد الضخم القوي فلم يكن ليتوقف عن لعق الدموع التي كانت تتساقط على كفي زرادشت، مدمدما ومزمجرا. هكذا كانت تفعل تلك الحيوانات.

استمرت هذه الحال لمدة طويلة ـ وقد تكون قصيرة أيضا؛ إذ في الحقيقة **ليس هناك من زمن** على الأرض بالنسبة لهذه الأشياء ـ . لكن في الأثناء كان الرجال الراقون قد استيقظوا داخل المغارة، وكانوا يتهيأون للإقبال على زرادشت ليقدموا له تحية الصباح وقد لاحظوا عند يقظتهم أنه لم يكن بينهم داخل المغارة. لكنهم عندما بلغوا البوابة، وكان وقع خطاهم يسبقهم إلى الخارج، انتفض الأسد بعنف واستدار فجأة عن زرادشت وقفز نحو المغارة مزمجرا بحدة. وإذا أولئك الرجال الراقون وهم يسمعون زئيره، يصرخون جميعا بصوت واحد ويرتدون على أعقابهم مذعورين ليختفوا دفعة واحدة.

مذهولا وحيرانا نهض زرادشت عندها عن مقعده وظل واقفا مكانه متعجبا يسأل قلبه متفكرا وقد وجد نفسه وحيدا.

«ما هذا الذي كنت أسمع ياترى؟ ما الذي حدث لي قبل حين؟» هكذا تكلم أخيرا،

وإذا هو يستعيد في الحين ذاكرته، وفي لحظة أدرك كل ما حصل بين الأمس واليوم. «هنا الصخرة التي جلست فوقها صباح يوم أمس، قال لنفسه وهو يمسح بكفه على لحيته؛ وهنا جاءني الرائي، وهنا سمعت الصرخة لأول مرة، هذه الصرخة التي كنت أسمعها قبل قليل؛ صرخة الاستغاثة الكبرى.

أيها الرجال الراقون، إنما هو أساكم ذلك الذي تنبأ لي به الرائي العجوز صباح يوم أمس،

وبِأساكم كان يريد أن يغويني ويستهويني: أي زرادشت، أتيت لأستدرجك إلى خطيئتك الأخيرة، قال لي.

إلى خطيئتي الأخيرة؟ صاح زرادشت وانفجر ضاحكا بحنق من كلمته هذه: وأيّ شيء وفّرته على نفسي كي يكون خطيئتي الأخيرة؟

ـ ومرة أخرى انغمس في خواطره، ثم جلس على الصخرة الكبيرة مجددا وراح يتفكر. ثم هو ذا يهب واقفا:

«**الشفقة! الشفقة على الإنسان الأعلى!**» هتف صارخا وقد تغيّرت سحنته وصار وجهه من حديد. «ليكن! لقد كان **لهذا الأمر** ـ وقته!

أية أهمية لألمي وشفقتي! فهل أنا أتوق إلى **السعادة**؟ بل **إلى عملي أتوق!**

هيّا إذًا! لقد جاء الأسد، وأبنائي يقتربون، وزرادشت أصبح ناضجا وساعتي قد حلّت: -

هو ذا صباحي، ونهاري طالع الآن: **إنهضي إذًا! إنهضي أيتها الظهيرة العظمى!**».

هكذا تكلم زرادشت ثم غادر مغارته متوهجا قويا مثل شمس صباحية طالعة من وراء الجبال القاتمة.

* * *

انتهى الكتاب الرابع والأخير من هكذا تكلّم زرادشت.

الفهرس

هذا الكتاب

لم يعد لي من إحساس بما تحسون: وهذه السحابة التي أراها تحتي، هذه القتامة والثِّقل التي أضحك منها ـ تلك هي سحابة غيثكم.

ترنون بأعينكم إلى الفوق وأنتم تطلبون العُلى، وأنظر إلى الأسفل لأنني في الأعالي.

من منكم بمستطاعه أن يضحك ويكون في الوقت نفسه ساميا؟

الذي يصعد إلى الجبال الشواهق، يضحك من كلّ المآسي، مسرحيات كانت أم حقيقيّة.